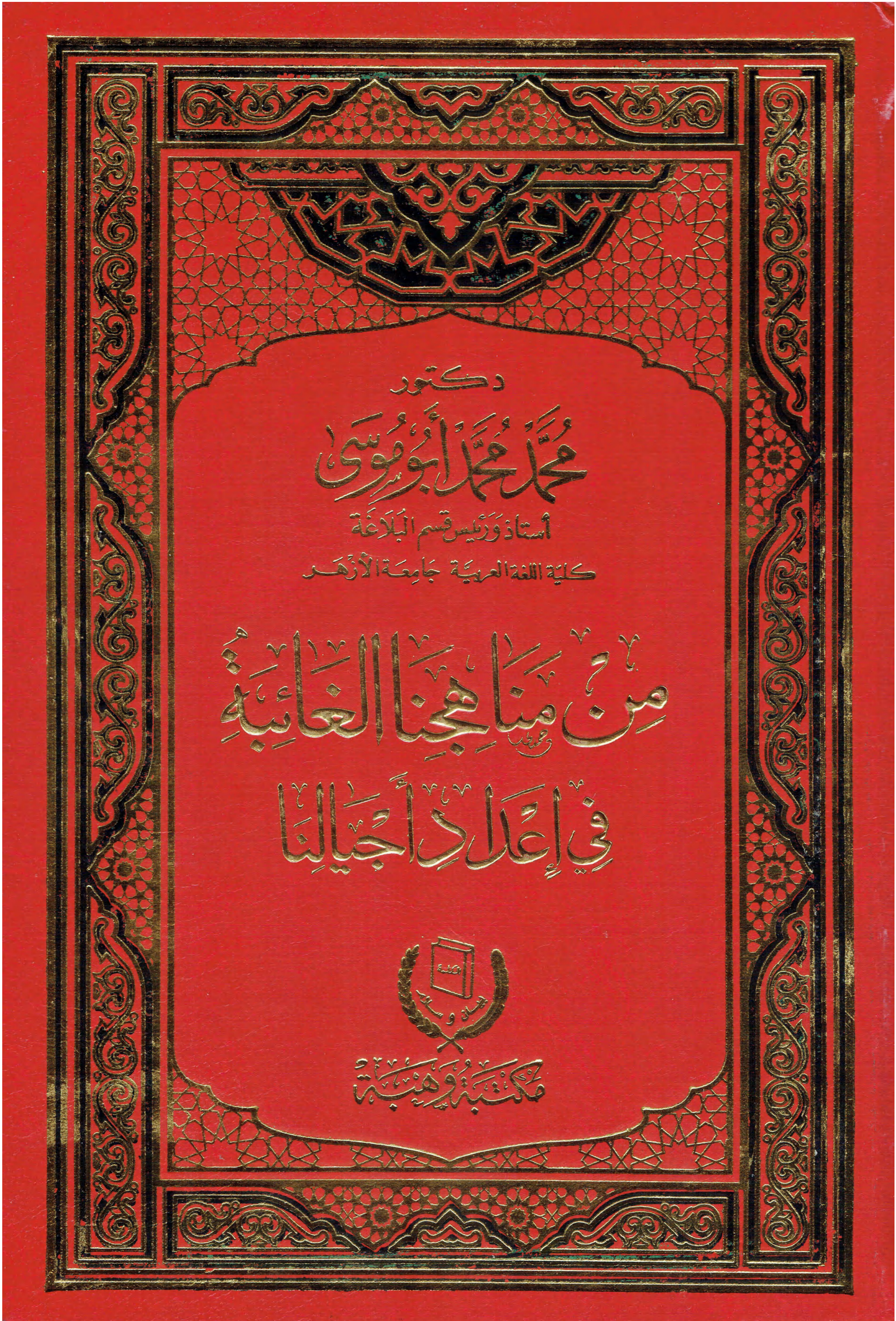
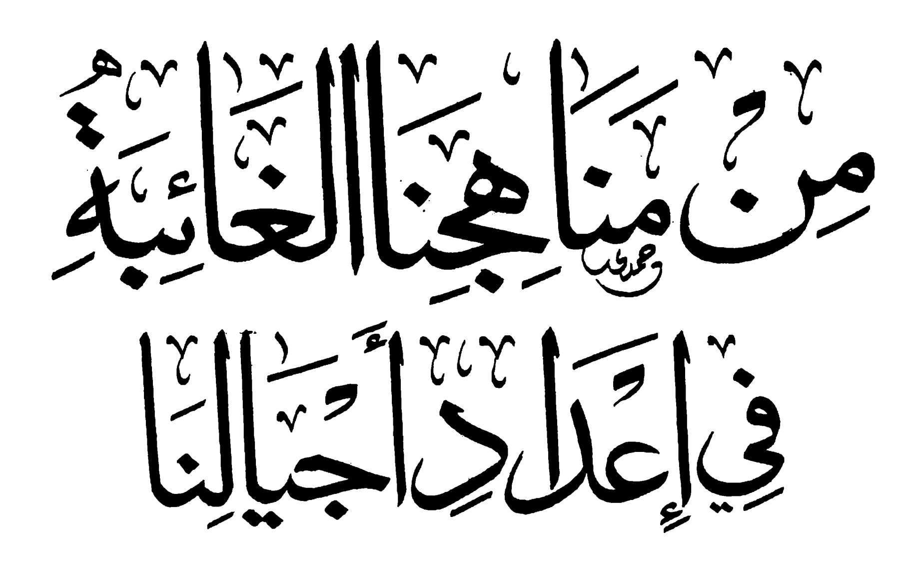

دكتور
محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية جامعة الأزهر
من مناهجنا الغائبة
في إعداد أجيالنا
مكتبة وهبة

دكتور
محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر





١٤ شارع الجمهورية بعابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

من مناهجنا الغائبة
في إعداد أجيالنا
الدكتور محمد محمد أبوموسى
الطبعة الأولى ١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٥٩٢ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
مراجعة وتصحيح
الأستاذ سعد حسن محمد
رقم الإيداع : ٢٠٢٣/١١٨٠٦
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
978-977-225-583-2

جميع الآراء الواردة بالكتاب تعبر عن رأي المؤلف ، وهو المسئول عنها وحده ، وليست بالضرورة تعبر عن رأي المكتبة .



دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

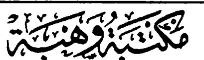
أبوموسى ، محمد محمد ،
من مناهجنا الغائبة في إعداد أجيالنا/
محمد محمد أبوموسى - القاهرة : ط ١
القاهرة مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠٢٣
٥٩٢ صفحة ؛ ٢٤ سم
تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٢٢٥ ٥٨٣ ٢

١ - الثقافة العربية .
٢- التراث العربي
٣- الكتب - تعريف
أ- العنوان

٣٠١,٢٠٩٥٣







١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة تليفون : ٢٣٩١٧٤٧٠ تليفاكس : ٢٣٩٠٣٧٤٦
e-mail:publisher_sultan@yahoo.com

قال ابن مسعود رضي الله عنه :

أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة ، فإنها حَبْلُ الله الذي أمَرَ به .

وما تكرهون في الطاعة والجماعة خيرٌ مما تحبون في الفرقة .

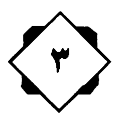
ابن مسعود عاش زمن الحجَّاج بن يوسف وكان الحجاج يسمِّيه

عَبْدُ هُذَيل . وأقسم بالله لئن لقيه ليقتُلَنَّه .

ولو دعا ابن مسعود الناس للخروج على الحجاج لخرجوا

ولكنه لم يَفعل . وقال ما ترى .

فاعتبروا يا أولي الأبصار وكفانا فرقة ومنازعة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المُقَدِّمَةُ

الحمد لله الذي أتمَّ علينا نعمه باليقين القاطع بأنه لا إله إلا هو الحي القيوم خالق كل شيء، ورازق كل حي، وله ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وهو معكم أينما كنتم ، وأنه يعلم السر وأخفى ، وأننا راجعون إليه ، وأنه يضع الموازين القسط ليوم القيامة ، وأن من ﴿ **يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ (الزلزلة:٧-٨) ، وأنه لا تظلم نفس شيئًا . الحمد لله الذي جعل كل ما خلقه في السموات والأرض يُثَبِّتُ في قلوبنا هذا اليقين، وجعل خَلْقَهُ لَنَا ، وَسَمْعَنَا وبَصَرنا وفُؤادنَا وكل ما فينا يُثَبِّتُ هذا اليقين ، ونبهنا إلى ذلك وقال لنا : ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ (الذاريات:٢١) ، الحمد لله الذي جعل كل ما في السموات والأرض مناديًا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم، ثم مَنَّ علينا وأَسْمَعَنَا هذا النداء ، وأَيْقَنَّاهُ ، وقلنا ربنا آمنا ﴿ **فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ** ﴾ (آل عمران:١٩٣) . وسَمَّيْتَ سبحانك ما في الكون آيات ، ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ** ﴾ (آل عمران:١٩٠) ، ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ** ﴾ (الروم:٢٠) ، وهي آيات لأنها لا تكون إلا منك سبحانك ، ثم أَنْزَلْتَ علينا القرآن ، وجعلته سوراً وآيات ، وإذا كان كل ما في الكون دالاً على أنك أنت الله وحدك لا شريك لك ، فكذلك كُلُّ ما في المصحف دَالٌّ على أنك

أنت الله وحدك لا شريك لك ، وإذا كان الإعجاز في الكون إعجازًا في الخلق والصنع فالذي في القرآن إعجاز في الحديث عن هذه المخلوقات ، وهذه المصنوعات فأصْبَحْنَا وكُلُّ الذي تراه عيوننا ﴿ مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ ﴾ (آل عمران:١٩٣) ، وكل الذي تسمعه آذاننا من الذي بين الدفتين مُنَادِيًا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم ، وقلت سبحانك لأهل الضلالة : ﴿ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ (النمل:٦٤) وأنت تعلم أنه لا برهان لهم ، وأصبحنا بين كونين ينادیان أن آمنوا بربكم هما كون صامت السموات والأرض وما بينهما ، وكَوْنٌ ناطق هو ما بَين الدفتين .

ثم تفضَّلْتَ يا ربنا وجعلت رسولنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ خير الثقلين ، وجعلت أمته خير أمة أخرجت للناس ، وجعلتهم شهداء على الناس ، وجعلته وحده صلواتك وسلامك عليه شهيدًا علينا .

وبعد ...

فهذا الذي ذكرته قليل جدًّا من كثير جدًّا في الكتاب والسنة وكله قاطع في دلالته على مكانة هذه الأمة عند الله ـ سبحانه ـ ، وأن من يجعل حياته في خدمتها ورعايتها له عند الله مكان ، وأن خدمتها ورعاية مصالحها عند الله من أقرب القربات ، وقد وضح لنا النبي ﷺ ذلك وأكثر من ذلك في كلمة لا تزيد عن سطر ، وذلك في قوله عليه السلام : « رأيت رجلاً يتقلب في الجنة بسبب غصن شَوْكٍ أزاله عن الطريق خَشْيَةَ أن يُؤذِيَ المسلمين » ، فدل هذا على أن من أزال غصن شوك عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين لا يدخل الجنة فحسب ، وإنما يتقلب فيها وكأن كل أَبْوَابها فُتحت له ..

ورأيت في الكتاب والسنة عكس ذلك ، وأن من يُحْدِثُ فيها الفتنة والفرقة ويَنْشُر فيها الفساد ، والتباغض والتقاتل ليس منها ، وأن سيدنا قال لنا : « من

حمل علينا السلاح فليس منا» ، وأنه «إذا التقى المسلمان بسَيْفَيْهِمَا فالقاتلُ والمقتولُ في النار» ، فقال الصحابة : يا رسول الله ما بال المقتول ، فقال : «لأنه كان يريد قتل صاحبه» يعني هو في النار ولم يقتل مسلما وإنما كان يريد قتله، ثم إن الله ـ سبحانه ـ نهانا عن التنازع ، وما يؤدي إليه من تقسيم الأمة إلى جماعات وفرق ، وعاشت الأمة في زمن رسول الله ﷺ إلى أيامنا هذه ولم تظهر فيها جماعات ، ولم تخل أرضها في زمان ولا في مكان من دعاة هم من أكرم الدعاة ، وكل واحد منهم أدى حق الأمة عليه وتركها أمة واحدة ، وجماعة واحدة ، كلهم إخوة ، وكلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، ولم يَحْدُث أن واحدًا من أكرم دعاتها جعل له جماعة وميّزها ، ولو فعل كل داعية ذلك لكانت أعداد الجماعات في الأمة لا حصر لها ، ولكُنَّا شِيعًا وأحزابًا ، ولو قلت إنها جماعة تدعو إلى الله لكان الجواب نعم يدعون إلى الله من حيث هم مسلمون وليسوا من حيث هم جماعة معينة مميزة ولها إمام ، لأنك لو دعوت إلى الله لأنك تابع لجماعة فلان فاطلب ثوابك من فلان ، وإذا دعوت إلى الله من جهة أنك مسلم مطالب بذلك فقد وقع أجرك على الله ، ولما قال رسول الله ﷺ : «لا تزال عصابة من أُمّتي قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة» دل ذلك على أن الخير في الأمَّة إلى يوم القيامة ، وأن الدعاة الصالحين المصلحين في الأمة إلى يوم القيامة ، وليس هذا مرادي وإنما مرادي أن العلماء قالوا في الحديث إن هذه الجماعة غير معروفة وغير محدَّدة ، وأنه لا يعرف بعضهم بعضًا ، وإنما الكل يؤدي ما أوجبه الله عليه نحو الأمة ثم يتركها أُمَّةً واحدة ، وجماعة واحدة ، من غير أن يُذكر هذا الذي أدّى هذا الواجب على لسان واحد منها ، وذلك حتى لا تكون بداية لوجود الجماعات في الأمة .

ومن الغفلة الشديدة التي نحن فيها أن الله ـ جل وتقدس ـ فتح لنا باب العمل الصالح الذي يُجْزِلُ فيه العطاء ، ويَحْثُو لأصحابه الأجر حثوًا ، وجعل ذلك في خدمة الأمة ورعايتها ، ورعاية مصالحها ، ثم غفلنا عن ذلك غفلة ليس لها ما يبررها ، وصرنا نعمل في حياتنا لمصالحنا ومصالح أبنائنا ، وتركنا حاجة الأمة ، مع أنه من الممكن جدًّا أن تعمل لحياتك وحياة أبنائك ولمصلحة الأمة وليس بينهما تعارض ، بل إن رعاية مصالح الأمة تجعل عملك لأولادك ولنفسك أكثر فائدة ، لأن المطلوب هو أنني مثلاً وأنا معلم أن أجتهد في درسي وفي إعداده وفي آدائه وفي قلبي ويقيني رغبة في أن أخرّج للأمة جيلاً أفضل من أبنائها لتعمُرَ بهم البلادُ وليرتفع بهم مستوى العباد ، وبدلاً من أن يكون أجري فقط من الجهة التي أعمل فيها يصير لي أجر آخر هو أجزل وأكرم وأنفع ، وهو أجري من الله ـ سبحانه ـ فيغفر لي به ذنبًا ، ويسترني في قبري ، ويسترني عند سؤال الملكين ، ويسترني من وحشة القبر ، ومن ظلمة القبر ، ومن عذاب القبر ، وأجر الآخرة خير ، وهكذا لو كنتَ عاملاً فالأصل أنك تذهب إلى مصنعك لتعمل لك ولأولادك ، فإذا أضفت إلى ذلك الإحساس بمصلحة الأمة ، واجتهدت في أن تكون صناعتك صناعة مُتْقَنة ومتميِّزة حتى ترفع مستوى صناعة أمتك بين الأمم ، ويجري في خاطرك أن معنى قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠) أن يكون كل ما يخرج من هذه الأمة من صناعة وزراعة وبحوث علمية كله موسوم بأنه من خير ما يخرج للناس ، لو فعلتَ ذلك وجدت من عطاء ربك أضعاف ما تأخذه من الجهة التي تعمل فيها ، ووجدت أنك لم تكن تعمل لدنياك فحسب وإنما كنت تعمل لدنياك وآخرتك ، وهكذا إذا كنت زارعًا أو طبيبًا ، أو مهندسًا ، أو سياسيًّا ،

المطلوب منك هو إحداث تغيير في ذات نفسك ، وبدل السَّعْي لمحض الدنيا وكأنك أهملت أمر الآخرة هو السعي لهما معًا ، وكلمة (الخير) في قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ يجب أن تشبع عندك وعندي وعنده وعندها من كل ما يكون منا ، وأن يكون فكرنا خَيْر فكر أُخْرِجَ للناس ، وأن يكون تعليمنا خير تعليم أُخْرَجَ للناس ، وأن يكون طبنا خير طب أخرج للناس ، لأنك لو أهْمَلْتَ هذا فلن نجد للخيرية موقعًا في حياتنا ، فليس المعنى أننا خير أمة بصورنا وأجسامنا ، وإنما الخيرية هي ما يخرج للناس مِنَّا ، ولن يخرج للناس منا إلا أعمالنا العلمية والصناعية والفكرية والزراعية والسياسية ، وأنا أعجب من السادة المسؤولين عن التعليم حين ينقلون لنا تجارب الآخرين في التعليم ، وأقول في نفسي إن كل من تَعلَّم ومَرَّ بمرحلة التعليم من أولها إلى آخرها هو لا محالة يعرف مواطن القوة ومواطن الضعف ، فإذا كان المسؤول عن التعليم مرَّ بهذه المراحل ، ثم زاد خبرة رشَّحته لأن يكون مسؤولاً عن التعليم ، فهو لا محالة أقدر على اقتراح نظام من التعليم ومعه الكفاءات المناسبة ، فإذا كان يجهل ذلك وكل همه أن ينقل لنا نظام التعليم من أي جهة ، فالأكرم له والأنفع لنا وللتعليم عندنا ولكل أجيالنا الذين يعمرون مدارسنا وجامعاتنا أن يجلس في بيته ، وأن يبتعد عن هذه الجماهير المتسعة ولا يُفْسد عقولها بأي نظام يَخْتاره ، وكذلك يدهشني أنني أسأل كبار أطبائنا عن علوم الطب ومدى مشاركتهم فيها ، فيقولون لي كل مهمتهم أنهم يُطَوِّعون العلوم التي أُنْتَجها غيرُنا لتكون متناسبة مع أمراضنا ، وأحوال مَرْضَانَا ، وأنا أعلم أنهم كفاءات قادرة على أن تصنع طبًّا ، وهكذا قل في كل باب ، ولم يجعل الله العلم والتقدم والازدهار لأمة دون أمة ، وإنما جعل كل الأمم في ذلك سواء ، فليس هناك أمة

فرض عليها التخلف ، وإنما هناك أمة فرضت هي على نفسها التخلف ، وقد طال تفكيري في هذا ، ورأيت التقدم لا علاقة له بالدين ، فهناك أمم تقدمت وهي شيوعية ، وهناك أمم تقدمت وهي مسيحية ، وهناك أمم تقدمت وهي بوذية ، لأن التقدم لا سبب له إلا سبب واحد وهو إصرار الشّعْب على أن يَتَقدَّم ، ثم تتاح له قيادة سياسية هي أشد إصرارًا منه على أن تتقدم ، وهذا ما أخبرنا به ربنا وقال : ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ (الشورى: ٢٠) وهذا يعني أن التخلف الذي نحن فيه لا خروج لنا منه إلا إذا وُجد في قلوبنا الإصرار القاطع والعزم الحازم على الإخراج منه ، ولن يكون ذلك إلا بتغيير عقول عامتنا الذين هم أكثرنا ، وأن يكون التغيير يقظة ووعيًا وتعليمًا وإصرارًا ورفضًا ، لأن يصفنا ربنا بأننا خير أمة أخرجت للناس ونحن نعيش عالة على ما تُنْتِجُه عقولُ الآخرين ، ونَسْتوردُ طعامَنا ومَلابسَنَا وطِبَّنا ودواءنا حتى الحذاء والشراب ، لابد أن تَرْفض جماهير الأمة هذا وأن تشعر بأنه من الخِزْي لها أن تظل على هذه الحالة ، لأنها تَسْتشعر قدرتها على أن تكون في غير هذا المكان ، وترى بعينها أن بعض أبنائها الذين يغادرون أرضها ويعيشون في مجتمعات متقدمة أقول ترى بعينها أن بعض أبنائها يَتَفوَّقُون على المتفوقين من أبناء هذه الأمم ، وأنها يجب أن تغير أحْوَالها حتى لا تكون البلاد طاردة للنبوغ . والمطلوب العكس وهو أن تكون البلاد لها حفاوة بالنبوغ ، ولها رعاية كل الرعاية للنبوغ ، ولا أشك في أنهم داخلون في وصية رسول الله لنا حين أوصانا بأن نُقِيلَ عثرات ذوي الهيئات ، وأهل النبوغ من أكرم ذوي الهيئات ، ثم دلنا على أن الله ﷻ وتقدس يُقيلُ بذاته وجلاله عثرات ذوي الهيئات ، وأن أحدهم ليَعْثر ويد الله ممسكة بيده ليُقيله من عَثْرته ، فإذا رأيت واحدًا من ذوي النبوغ

في قاع مظلمة في أي بَلَد فاعلم أن الذي ألقاه في قاع مظلمة شيطان . قلتُ إن الشيوعيين تقدموا ببلادهم ، وأن الهندوس تقدموا ببلادهم ، وأن المسيحيين تقدموا ببلادهم ، وأن من المسلمين من تقدموا ببلادهم ، وأقول إننا نحن العرب قادة الأمة المسلمة لأن نبيها الذي هو سيد الثقلين منا ، وأن كتابها الذي أنزله الله ليخرج الناس كل الناس من الظلمات إلى النور نزل بلساننا ، وأن الفاتحين الذين أدخلوا الإسلام ما دخل عليه الليل منا ؛ وأن آباءنا الذين هم المهاجرون والأنصار أخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، وأعجب العجب أن نعيش في التخلف وهو من أبشع الظلمات ، وأعجب من أعجب العجب أن نألف التخلف ، ونحن نسمع المؤذن في كل يوم خمس مرات وهو يقول لنا حيّ على الفلاح ، يعني قوموا وانهضوا للفلاح ، الذي هو ضد كل تخلف ، يَعْنِي هو ضد الفقر ، وضد الظلم ، وضد الاستبداد ، وضد الضعف ، ويعني أن تصعنوا غداءكم بأيديكم ، وسلاحكم بأيديكم ، وكل ما تحتاجون إليه بأيديكم ، وأهل الفلاح ليسوا عالة على الأمم في صناعتها ، وفي علمها ، وفي طِبِّها ، وفي دوائها .

ولا يكفي أن تكون رافضًا للتخلف ، ولا يكفي أن يكون معك مليون رافضين للتخلف ، وإنما الواجب أن يرفض كل من يعيشون على تراب الوطن التخلف ، وأن يؤذن الكل حيَّ على الفلاح الذي هو الرفض القاطع للتخلف ، لأن الأوطان لم تتقدم إلا بهذا ، أعني إلا بحشد كل طاقاتها للخلاص من التخلف ، وإذا كنا قد أُمرنا أن نكون كالبنيان المرصوص في مواجهة عدونا فإن عدونا الأكبر هو التخلف ، ويجب أن نواجهه مجتمعين كالجسد الواحد ، أو كالبنيان المرصوص ، ولهذا ومثله حذرنا ربنا من أن نتنازع وأن نكون فِرَقًا وجماعات ، ولم يحدث في تاريخ الأمة أن عالمًا مهما كان قدره كوّن له جماعة

ونصب نفسه قائدًا لها ، لأن كل هذا صار بالبنيان المرصوص في مواجهة الأخطار ، ولما كانت مواجهة العدو الأول الذي هو التخلف توجب احتِشَاد الكل في هذه المواجهة . رأيت علماءنا من أول الزمان يتجهون بالعلم إلى كل طبقات الأمة ، لأن العلم يُوقظ ويُنَبّه ويُجهِّز كل أبناء الأمة لمواجهة ما ينزل بها من نوازل ، ومن شر هذه النوازل التخلف ، لأن كلمة التخلف لا تترك شيئًا ضارًّا بالبلاد والعباد إلا أدخلته فيها ، وقد أغفلنا هذا ، وتوفرت العناية حول الصفوة من المثقفين ، والعلماء ورجال السياسة ، ومهما كان إخلاص الصفوة ، والعلماء ، ورجال السياسة ، فإن البلاد لن تتقدم بهم وحدهم ، ولن تتقدم أبدًا إلا بكل خطوة يخطوها إلى الأمام كل من على سطحها ، من أبناء هذا التراب ، ولاحظ أن الأذان الذي هو عندي من نداء اليقظة ، والمسارعة نحو الفلاح ، ليس لفئة دون فئة ، وإنما هو لكل أبناء البلاد ، حتى غير المكلف ليُعَدَّ لآدَاءِ ما يجب عليه حين يكلف ؛ لأنه قبل التكليف ليس هملاً ، وقد نبهنا إلى ذلك سيدنا وسيد الثقلين حين قال لنا علموهم الصلاة لسبع وأمروهم بها لعشر ، وكل ذلك قبل التكليف ، يعني أعدوهم للتكليف ولا تتركوهم هَمَلاً .

رأيت واقعًا منحرفًا ، فالنخبة من الكُتَّاب يكتب بعضهم لبعض ، والعلماء منصرفون إلى أهل التخصص ، فالفقيه يكتب للفقهاء ، والمؤرخ يكتب للمؤرخين ، والرياضي يكتب لعلماء الرياضة ، والجسم الأكبر من جماهير الأمة مَنْسِيٌّ حتى حسب الناس أن العلم مقصور على أهله ، وأنه هناك في عِلّيين ، ويَئِسَتْ العامةُ من الاقتراب منه ، وهذا هو التجهيز الناجح ليسكن فينا التخلف ، لأنك إذا أهملت شريحة من شرائح المجتمع ولم يصل العلم إليها تكون قد جهزت هذه الشريحة للتخلف ، وتعجب حين تجد في أقدم كتبنا

الإشارة إلى أن من أمارات تَفَوُّق العالِم هو أن يُفهم العامة معاني الخاصة ، يعني أن تكون مَهَارته في التعليم ، وسيطرته على المادة العلمية ، وقدرته على تسهيل صعوبتها ، وتقريب بعيدها ، كل ذلك يمكنه من أن يصل إلى عقول العامة ، وأن يَسْقِيهَا من دقائق العلم ، ورقائقه ، التي هي ذروة العلم وسَنَامُه والتي هي من معارف الكبار ، وقد راقتني هذه الكلمة وخصوصًا لما قرأتها في صحيفة بشر بن المعتمر الذي كتب أقدم صحيفة في البلاغة وكان يوزعها على الناس رغبة في نشر العلم ، وقد صادفت في نفسي رغبة قديمة طالما ألحت عليَّ وأنا أَرُوغُ منها ، وهي أنني أرى كما ترى أنت أن العلماء يكتبون العلم لطلاب العلم ، وقد أهملنا العَدَدَ الأكبر من أبناء الأمة ، وابْتَلَعَتْهُم الأميِّة ، وابتلعهم الجهل ، وصاروا بمعزل عن كل شيء يشغل البلاد والعباد ، وكنت أقول لإخواني يجب على الفقهاء أن يكتبوا كُتيِّبات مختصرة مُيسّرة في الفقه للعامة ، وكذلك يجب على كل أهل علم أن يقربوا أطرافًا منه للعامة، وقد عشت زمنًا كانت فيه دار المعارف تُصْدِر كُتَيِّبَات مختصرة بعنوان اقرأ ، وكانت الأَنْظَار مُتَّجهة إلى هذه الشريحة الضخمة من المجتمع وأن يصل العلم ومعه اليقظة إلى عقول الكُلّ حتى يَعْمِل الكل لحساب هذا الوطن ، وقد انقطع ذلك كما انقطع معه كثير من الخير ، وأذكر أن مساحة الأميِّة ، قد ضاقت في زمن قريب ، وأوشكت أن تَرْحَلَ ثم كان ما كان ، ومما كان يخامرني أن الأمية ليست عائقًا عن وصول العلم إلى عقول الأميين ، وأن الله ـ جل وتقدس ـ لما قال لسيدنا وسيد الثقلين اقرأ وهي كلمة سمعها ﷺ من كلام ربه كان في هذا إشارة إلى أن الأمي ممكن أن يقرأ ، لأن القراءة ليست محصورة في الذي تَرَاهُ العَيْن مكتوبًا ، لأن الأذن إذا سمعت المكتوب كأنها قرأته ، وحين ننشر المعرفة في كل طبقات مجتمعنا سيقرؤها مَنْ يَسْتَطِيع أن يقرأ ، ويَسْمَعُها من لا يستطيع

أن يقرأ ، ثم إن العلم شاع في الأُمة وملأ قلوب عامتها وخاصتها من السماع ، وليس من الكتابة وكانت دروس علمائنا في المساجد هي الطريق الجامع لعامتنا ، وخاصتنا ، وكانت هذه الدروس شاغلاً لعلمائنا فَقَلَّ التفاتُهم لتأليف الكتب ، ولاحظ أن كل هذا الذي أقوله ليس لي مقصود منه إلا مقصود واحد هو مطاردة التخلف من فوق هذا التراب ، وأرى أنه لا يجوز أن يبقى على ظهر البلاد أحد ليس له هم إلا مطاردة التخلف ، لأن التخلف زراية وخصوصًا بالذين لهم تاريخ جلي وظاهر في القيادة والتقدم .

ومن أجْلِ تأكيد فِكْرة أنّ العلم شركة بين الخاصة والعامة ، وأن الفكر والإبداع زاد للكل ، كان علماؤنا كثيراً ما يؤكدون على هذه الحقيقة ويقولون إن المعاني لا تعلو لأنها من معاني الخاصة ، ولا تهبط لأنها من معاني العامة ، فالمعاني الخاصة والمعاني العامة على درجة واحدة من الفضل ، وأنْت أيّها المتحدث بالمعاني تكون أبْرع وأكْرَم إذا وَصَلْت بالمعاني الخاصة إلى عقول العامة ، وأسْكَنْتَ الفكر الذي هو أكثر استثارةً وإشراقًا في عقول هؤلاء الأميين ، وكل ذلك إغراء بمزيد من الرعاية لهذه الطبقة الأوسع في المجتمع ، لأنها وإن كانت هي الأوسع والأكثر فهي الأقدر على توجيه الجماعة نحو ما ترومه ، فإذا رَفَضَتْ التخلف ، وازْدَرَتْهُ ونَفِرتْ مِنْه وأَبَتَه أنوفُها حدث الكثير مما نرجو في هذا الباب .

ثم إننا لسنا في حاجة إلى أن نطبع كتبًا تخاطب عامتنا وخاصتنا ، وينتفع بها عامتنا وخاصتنا ، لأن هذه الكتب موجودة بين أيدينا ، وكأنها كتبت للذي نريده ، وهو إيصال العلم إلى عقول عامتنا ؛ وإيصال اليقظة والوعي إليهم ليتحرك هذا الكَمّ الهائل المتروك من أبناء البلاد ، ويشارك في العبء الذي لا يجوز لأحد يمشي على ترابنا من غير أن يتحمل منه الحظ الأوفر .

قلت لَسْنَا في حاجة إلى إعداد كتب من هذا النوع ، وإنما نحن في حاجة إلى ذكر شيء مما عندنا منها ، وتقديمه للأجيال ، التي يجب أن نَضَعَ بين يديها كل عوامل النهوض والتقدم ؛ وبين يديّ من هذا التراث المسكوت عنه كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة الدينوري ، وكتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي ، وكتاب «زهر الآداب» للقيرواني ، وهذه مقدمة لدراسة مختصرة لهذه الكتب وتعريف بأبرز ما فيها من موضوعات ، ثم بيان كيف كانت هذه المعلومات المتنوعة في هذه الكتب سهلة رهوة يستوعبها العامة كما يستوعبها الخاصة ، وكيف تُسكن في قلب قارئها أدَقَّ المعاني وأكرمها وأنبلها ، وكيف تحمي قارئها من السوء وأهل السوء ، وكيف كان يعتمد واضعوها على المعاني الإنسانية التي ليست خاصة بأمة .

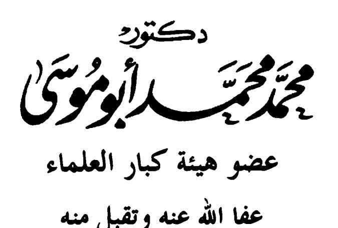
وبقيت إشارة إلى شيء كنت أشرت إليه في بعض ما كتبت وهو أن علماءنا وهم يضعون الكتب لم يكن همهم فقط في المادة العلمية التي يعالجونها ، وإنما كانوا مشغولين أكثر بمستوى القارئ وقياس قدرته على التحصيل ، لأنه لم يكتب إلا لهذا القارئ ، وغايته مما يكتب هو تغيير هذا القارئ ونَقْله من حَسَنٍ إلى أحسن وهذه غاية أهل العلم في كل بلد بلغ رشده ، وقد رأيت الخطيب القزويني يكتب كتاب التلخيص ثم يلاحظ أن التلخيص أغْمَضَ جوانِبَ من العلم فيعيد كتابته في الإيضاح ، ثم فعل سعد الدين عكس ما فعل الخطيب فكتب المطول ثم رآه متسعًا عن مستوى الطالب فأعاد كتابته في المختصر ، وهكذا كل واحد منهما لم يعد كتابة كتابه ليضيف إليه أو ليهذب أو لينقح وإنما ليهيئه للقارئ الذي لم يكتب إلا له ، وأعجب من هذين ما فعله ابن هشام الذي كتب النحو للمبتدئين في كتاب سماه «قطر الندى» ، والعنوان ليس فيه

أي إشارة إلى مادته النحوية ، وكأنه صيّر النحو فيه قطر ندى يرتضعه الناشئ كما يرتضعه جنين النبت ، ثم أتبعه بكتاب سمَّاه « شُذُورَ الذهب » ، وليس في العنوان أي إشارة إلى مادته النحوية ، وكأن النحو استحال من قطر ندى يرتضعه جنين النَّبْت إلى شذرات من الذهب تلهو به اليدان ، وهكذا يضع ابن هشام النحو إلى المبتدئ ثم إلى الذي يزيد قليلاً عن المبتدئ ، ثم يخطو خطوة أوسع فيكتب النحو نفسه في كتاب يسميه « أوضح المسالك » للذي بَقَلَ الشّعْرُ في وجهه ، وقد اعتمد الأزهر تصنيف ابن هشام لسن القارئ فقرر علينا كتاب « قطر الندى » في السنة الثالثة الابتدائية ، وسِنُّنَا أربع عشرة سنة ، أو يزيد قليلاً ، ثم قرر علينا كتاب « شذور الذهب » في السنة الرابعة الابتدائية وسننا ست عشرة سنة أو يزيد قليلاً ، ثم قرر علينا كتاب « أوضح المسالك » في السنة الرابعة الثانوية ، وكل مقصودي من هذا هو بيان الشيء الذي غام بل الذي غاب وهو عناية حَمَلَةِ الأقلام ، وحملة العلوم ، بإعداد الجيل القادم الذي سَيَشْغَلُ كل مواقعنا ، والذي يجب أن يتقدم بالبلاد بعدنا خطوة إلى الأمام .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وأصلي وأسلم على سيدنا صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وعلى من أحبهم وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

المعادي الجديدة في ٢٤ من ربيع الآخر ١٤٤٤هـ

الموافق ٢٠ من أكتوبر ٢٠٢٢م



عضو هيئة كبار العلماء

عفا الله عنه وتقبل منه

المبحث الأول

كتاب عيون الأخبار

لابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦هـ

تلاحظ وأنت تقرأ مقدمات كتب هذه الطبقة من العلماء أنك تجد في اللغة حنينًا ، فإذا ذكروا آلاء الله وجدت حنينًا لهذه الآلاء ، وإذا ذكروا رحمة الله وجدت حنينًا لهذه الرحمة ، وإذا ذكروا رضاه جل وتقدس بقليل الشكر على عظيم النعم وجدت حنينًا للشكر ، وإذا ذكروا مغفرة ذنوب السنين بتوبة الساعة وجدت حنينًا لتوبة الساعة ، وهكذا نجد المقدمات عامِرَةً باللحظات التي تكون القلوب فيها عامرة بالشوق ، والذي يكون حديث العالم فيها عن الله ليس بعلمه فقط وإنما أيضًا بشوقه ، وبقليل من الأناة نجد المقدمات تُطِلُّ عليك منها روح أولياء الله الذين هم العلماء .

ولما بدأ الكلام في علم الكتاب الذي هو عيون الأخبار سَلَكَ الطريق الأوْسَع ولم يتكلم في المادةِ العلمية كلامًا مُباشرًا ، وإنما ساق ذلك في باب الأشباه والنظائر ، وهذا شأن أهل العلم الأوْسَع ، ذكر أن لله ـ سبحانه ـ حَقًّا في كُلِّ نعمةٍ أنْعَمها علينا ، فحقُّه في نعمة المال الصدقة ، وحقه في نعمة الشَّرف التواضع ، وحقه في نِعْمة الجاه بذله ، وحقه في نعمة العلم نشره ، وكأن الذي رُزِق الشرف ولم يتواضع ، كالذي رُزِق المالَ ولم يُخْرِج زكاته ، والذي رُزِق

العلم ولم ينشره ، كالذي رُزِق المال وأكل زكاة المال ، وسيُحْمَى عليه في نار جهنم .. وهذا جيد بالغ ونشره في الناس وامتلاء قلوب الناس به يغيِّر كثيراً مما نحن فيه .

ومتابعة الأفكار وتَسَلْسُلها في كلام الكبار يهديك إلى فِطْنَتِهم ، وربما كان مذاقك لهذه الفطنة ليس أقل من مَذَاقِكِ للمعرفة ، قلت هذا لأنني رأيته لما ذكر العلم ، وحق الله فيه ، وهو نشره مع الشرف ، والتواضع ، والمال ، وصَدَقَتُهُ . رَاجَعَ فوجد أن خيرية المال في المال ، وخيرية الشرف في الشرف ، وخيريّة العلم ليست فقط في العلم ذاته ، وإنما خيريته في الحاجة إليه ، فقد تجد جيلاً من الناس في شق من الأرض ، له حاجة إلى علم معين ، فيكون هذا العلم المعين هو الخير له ، كأن ينتشر فيه وباء مثلاً فتكون خيريته في علم الطب أقوى من خيريته في علم الصناعة ، أو في علم الحلال والحرام ، وقد يلتبس على جيل من الناس في شق من الأرض أمْرُ الحلال والحرام فتكون خيريته في علم الفقه أفضل ، وأقوى من خيريته في أي علم آخر ، وهكذا تتنزّل أقدار العلوم وتتحدد بمقدار الحاجة إليها ، ولهذا كان كُلُّ عِلْمٍ للأمةِ حاجةٌ إليه هو من الأمة بمكان .

وهذا يعني أن التعصب للعلوم ، والتنازع في فضل بعضها على بعض لا وجود له عند الذين اتسعت علومهم ، واتسعت آفاقهم ، وصاروا لنا أعلامًا ، ونجومًا بأيهم اقتدينا اهتدينا ، ولست متجاوزًا حين ألحق كرام علمائنا بأصحاب سيدنا وسيد الثقلين ، لأن الله قال لنا والتابعون لهم بإحسان ، ومن أهم ما دفعني إلى القول بأننا إذا اقتدينا بهم اهتدينا أن كل مَا زَاوَلْتُه من عمل من تدريس ، ومن كتابة ، كان الجيل الجديد بين عينيّ ، وكنتُ أدْعُو الكل إلى أن

يضع الجيل الجديد بين عينيه ، لأنه لابد أن يكون أفضل منا وكنت أقول وأعتقد أن واجب الأستاذ في كل تَخَصُّصٍ أن يُخرّج لَنَا جيلاً أفضلَ منه يستوي في ذلك الفقيه ، والطبيب ، والمهندس ، ثم رأيت أن كل الذي بذلته في هذا ليس شيئًا إذا قيس بالذي بذله أصغر علمائنا ، وابن قتيبة الذي أكتب في كتابه « عيون الأخبار » ، وهو كاتب كان يرى أن جيل الكتاب الجديد بالنسبة إليه كأبنائه ، وأنه لم يكتف بأن كتب لهم كتابًا ، وإنما كان يُتابعهم فيما يَكْتُب ، وهذا مما غاب ، ويجب أن يكون حاضرًا ، وأن يكون مُلاَزِمًا لكل لسان يتكلم في شؤوننا ، ولكل قلم يكتب ، وأن كل كلام غير موجه للأجيال القادمة ، هو كلام ليس له وِجْهَةٌ يَتَّجه إليها ، وكأنه نَفْخٌ في الهواء ..

ومن أظهر وأفضل ما قاله في مقدمة الكتاب ، ما وصف به مادة الكتاب العلمية ، وأنه « إنْ لَمْ يكُنْ في القرآن ، والسنة ، وشرائع الدين ، وعلم الحلال والحرام ، دالٌّ على معالِي الأمور ، مُرْشِدٌ لِكرَيم الأخلاق زاجرٌ عن الدناءة ، ناهٍ عن القَبِيح ، باعثٌ على صواب التدبير وحسن التقدير ، ورِفْق السياسة ، وعمارة الأرض ، وليس الطريق إلى الله واحدًا ، ولا كُلُّ الخير مجتمعًا في تَهَجُّد الليل ، وسَرْدَ الصيام ، وعلم الحلال والحرام ، بل الطرق إليه كثيرة وأبواب الخير واسعة » .

وهذا واضح في دلالته على أن الكتاب يدعو إلى معالي الأمور وكريم الأخلاق وزاجر عن الدناءة إلى آخره ، وهذه هي ذاتها دعوة الكتاب ، والسنة ، وإنما بعث عليه السلام ليتمّمَ مكارم الأخلاق ، فما وجه قوله إن الكتاب ليس في القرآن ولا في السنة ولا في علم الحلال والحرام ؟ وليس لهذا إلا جواب واحد وهو أن ما يَدْعُو إليه الكتاب والسنة ليست الدعوة إليه مقصورة على الكتاب

والسنة ، وإنما كل فكر إنساني مستقيم يدعو إليه ، لأنه الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وكأن كتاب « عيون الأخبار » ليس مُتّجهًا فقط إلى أهل الشهادتين ، وإنما هو مُوَجَّهٌ إلى الإنسان ، مُوَجَّه إلى الفطرة ، وأن ما يدعو إليه الكتاب والسنة هو ما يدعو إليه كل كتاب كتبه كاتب مستقيم الفكر ، وهذا يعني أيضًا أنك قد تجد الإسلام عند غير المسلمين ، لأنك تجد الإسلام حيث تكون الفطرة المستقيمة ، وليس هذا بعيدًا عن أن يكون مراد ابن قتيبة ، ولا شك أنك تجد الزجر عن الدناءة ، والنهي عن القبيح ، والحَثَّ على صواب التدبير ، ورِفْق السياسة ، وعمارة الأرض ، أقول لاشك أنك تجد ذلك كله في الدول المتقدمة غير المسلمة ، وكأن ابن قتيبة يقول ، أيها الناس هذا الذي تحرصون عليه بفطرتكم هو الإسلام ، فما وجه كفركم به ؟ ثم إن ذكر ابن قتيبة لعمارة الأرض ، نص صريح في باب العبادة التي أمرنا الله بها لأن الله الذي جَعَلَ أبانا آدم في الأرض خليفة ، قال لنا ما خلقتكم إلا لعبادتي ، وهذا صريح في أن خلافتنا في الأرض هو عبادتنا ؛ وأن الأرض هي مسجدنا ، وأن مَصْنَعَكَ هو محرابك ، وأن هذا هو محض الدين ، وتعجب من الذين يفعلون ذلك وتصير أرضهم عندهم بمثابة المساجد ومصانعهم عندهم بمثابة المحاريب ، ثم إذا قلت هذا هو الإسلام نفروا وحاصوا حيصة حمر الوحش ، كما حاص أهل هرقل في الزمن الأول .

وقوله « وليس الطريق إلى الله واحدًا » كلام سديد جدًّا ، بل إن كل الطرق يمكنُ أن تكون إلى الله بالنيَّاتِ الصالحاتِ التي تتحوَّل بها المباحات إلى طاعات كما قال الإمام القرطبي ، والذين يقولون كل الخير مجتمع في تهجد الليل وسرد الصيام ، وعلم الحلال والحرام ، لا يقولون صوابًا وينقصهم فهم

الدين ، لأن الضرب في الأرض ، وابتغاء الرزق ، والسعي فيها ، والمشي في مناكبها ، كل ذلك من أَهَمِّ أعْمال البِرِّ ؛ وتراه أحيانًا في الكتاب العزيز يُذكر مُقْتَرنًا بالجهاد في سبيل الله ، واللُّقْمَة تَضَعُهَا في فم ولدك صدقة ، وفي فم امرأتك صدقة ، ولو قلت إن تهجّد الليل وسرد الصيام والحلال والحرام كل هذه العبادات مُهَيِّئَة للمُسْلم حتى يُزَاوِلَ عمَلَه في عمارة الأرض بطهارة نفس وبعد عن الدناءة ، وسوء الأخلاق ، كما ترى في الأذان ذِكْرَ الصلاة يَعْقُبُه ذكر الفلاح ، الذي هو جِدٌّ واجتهادٌ حتى يتحقق الفلاح للبلاد والعباد ، وابن قتيبة يدرك هذا وأجل منه ، ألست تراه يجمع بين كرم الأخلاق ، وصواب التدبير ، وحسن التقدير ، ورفق السياسة ، وعمارة الأرض ، ولاحظ أن صواب التدبير من عمارة الأرض ، وحسن التقدير من عمارة الأرض ، ورفق السياسة كل ذلك من عمارة الأرض ، وأن عِمَارَة الأرض هو باب خلافتنا لله ، وأنه ما خلقنا إلا لنعبده ، فعمارة الأرض هو عبادتنا ، وكل ما أمرنا الله به فهو خير ، وكل ما نَهَانَا الله عنه فهو شر ، وإنما أمَرَنَا بالخير ونهانا عن الشر ، وأمرنا بالصلاة ، والصيام ، والبر ، لتكون عمارتنا للأرض مختلفة عن عمارة غيرنا ، لأنها عمارة كلها بِرٌّ ، وكلُّهَا صلاح ، وإصلاح ، وكلها بذل وعطاء .. وتلاحظ أن ابن قتيبة كما وسّع المخاطب ، ولم يطلب منه أن يكون مسلمًا ، وإنما المطلوب أن يكون إنسانًا ، لأن الله كرمه من حيث هو إنسان ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء:٧٠) ، وبنو آدم منهم المؤمن والكافر ، والصالح ، والطالح ؛ فوجب علينا أن نكرمه من حيث هو إنسان ، أقول كما وسّع خطابه للإنسان من حيث هو إنسان ، كذلك وَسَّع في الذي يخاطبه به ، فلم يخاطبه بالكتاب ولا بالسنة ، وإنما خاطبه بالمتخيَّر من كلام الحكماء ، والبلغاء ، وأهل الرُّشْد ، من أي أمة كانت ،

فخاطبه بكلام العرب ، وبكلام الهنود ، وبكلام الفرس ، وبكلام اليونان ، وخاطب أهل العلم ، وغير أهل العلم ، خاطب سائسَ الناسِ وَمَسُوسَهم ، والمقصود أن يأخذ كل سامع بأحسن ما يسمع ، وأن يُقَوِّم نَفْسَه وأن يُثَقِّفَها وأن يُخَلِّصَها من مساوئ الأخلاق ، وهكذا رأيت هذا العالم الجليل يوجه خطابه لكل أجيال الناس ، ليوقظ النفوس ، وليَبْعَثَ شَرَفَ النفوس ، ولينهي عن الدناءة ، وهذا هو الذي قصدنا إليه في الذي نكتبه عن هذا الكتاب ؛ يجب أن تَنْتَهِي مَسأَلَةُ حَصْر العلم والمعرفة والفكر في جماعة دون سائر أبناء الوطن ، ويجب أن يكون الخطاب عامًّا وشاملاً لكبيرنا ، وصغيرنا ، وعالمنا ، وجاهلنا ، لا يجوز أن نَتْرُكَ جماعة منا بعيدة عن تأثير المعرفة ، والفكر ، وأنْ نكتفي بما تصيبه من الإعلام ، أو الفنون ، وأن تُحْرَم من عطاء العقول ، والقلوب ، وما تكتبه الأقلام ، الأنْضَجُ والأكثر إخلاصًا ، وعلينا أن نَتَذْكر الكلمة القديمة التي كتبها بِشْرِ ابن المعتمر في صحيفته العريقة والقديمة ، وهي أن قياس فكرك وعقلك يا حامل العلم هو بمقدار قدرتك على أن تُفْهم العامَّة كلامُ الخاصة ، وأن تكون سطورك التي تكتبها على أوْراقك سُقْيًا لبني وطنك ، وكلهم في هذه السُّقْيا سواء .

تقسيم ابن قتيبة لكتابه :

وقد جعل ابن قتيبة كتابه في عشرة كتب ذكرها مرتبة وهي : كتاب السلطان ، وكتاب الحرب ، وكتاب السُّؤْدَد ، وكتاب الطبائع ، وكتاب العلم ، وكتاب الزُّهد ، وكتاب الإخوان ، وكتاب الحوائج ، وكتاب الطعام ، وكتاب النساء ، والنظر في ترتيب هذه الأبواب يدل على ما بينها من تقارب شديد ، فالسلطان أولا لأنه بصلاحه يكون صلاح الزمان ، وصلاح الأحوال ، ولأن الحرب من شأنه ، والأصل أن يكون رجال السلطة ورجال الحرب من أهل الشرف ، والكرم ،

والنبل ، والسؤدد ، ثم تأتي الطبائع التي هي الجذر الأكرم لمعاني الشرف والسؤدد ، ثم يأتي العلم مع الطبائع ، ويأتي الزهد ، لتفريغ النفوس من الأثرةِ واشتغالها بتَقَدُّم البلاد ، ويأتي الإخوان الذين هم بداية جمع الشمل ، وأن يكون الكل يَدًا واحدة ، في تقدم البلاد والعباد ، ثم تأتي الحوائج التي لا غنى لأحد عنها ، ثم الطعام ثم النساء وهما من أهم الحوائج ، وهكذا ترى الأبواب في الكتاب وقد أمسك بعضها ببعض ، ومَثَلُه كَمثَل الناسِ المُمْسك بعضُهم ببعض ، ومن زمن بعيد قالوا المعاني كالأشخاص ، يكون بينها التقارب والتباعد ، وكان العرب والأعراب يتصورون أنسابًا بين الكلمات كالأنساب التي بين الناس ، كالذي قال أنا أقول البيت وأخاه وولدي يقول البيت وابن عمه ، وهذا يعني أن البيت يلتقي بالبيت في الأب الأول ويلتقي به في الأب الثاني وقد يلتقي به في الجد قَرُبَ أو بَعُد ، وهكذا كانوا يتصورون الصلات بين المفردات ، قال الكسائي : « لقيت أعرابيًّا فجعلت أسأله عن الحرف بعد الحرف ، وعن الشيء بعد الشيء ، أقْرِنه بغيره ، فقال بالله ما رأيت رجلاً أقدر على كلمة إلى جَنْبِ كلمة ، أشبه شيء بها ، وأبعد شيء منها منك » ، وراجع أبواب « عيون الأخبار » مرة ثانية لتعرف كما أعرف أن ابن قتيبة كان يُشِيعُ ويَنْشُر في عامتنا علم السياسة المعروف من باب السلطان وعلم الحرب ، وعلم الشرف والسؤدد ، وهي أبواب من العلم ، قلما التفت إليها غير أهلها الشاغلين لها ، ابن قتيبة من العلماء المشغولين بأحوال البلاد ، ويرى أن كل من يعيش على أرضها يجب أن يتوفر عنده قَدْرٌ من العلم ، في كل شيء له صلة بالشأن العام ، ليس في السياسة فحسب ، وإنما أيضًا في الحرب ، وإن كان ليس من المحاربين ، وبمقدار توفر معلومات في كل ماله صلة بالشأن العام يكون اشتغال المواطن بهذا الشأن العام ، ويعلم ابن قتيبة أن البلاد لن تتقدم برجال السلطة وحدهم مهما كان

إخلاصهم ، ولا برجال الحرب وحدهم مهما كان إخلاصهم ، وإنما تتقدم فقط بسَعْي وجِدٍّ وإخلاص واجتهاد كل من يَمْشي على ترابها ، ولهذا جعل هذه الأبواب الشاملة لكل ما في الشأن العام علمًا مشتركًا بين عامتنا وخاصتنا ، وسائسنا ومسوسنا وهذه هي القيمة النافعة ، والنافذة لهذا الكتاب ، الذي حرصت على تقديمه للأجيال الجديدة ، وهذا الكتاب مخالف للمألوف في الكتب ، سواء كتب ابن قتيبة وغيره ، وذلك لأن مادة الكتاب مادة منقولة من أقوال الحكماء ، والعلماء ، والأعراب ، وأهل الشرف ، وغيرهم ، لأن مقصود ابن قتيبة هو نقل علم هؤلاء إلى أجْيَالِنَا العامة والخاصة ، والسائس والمسوس ، ولذلك سيكون عملي فيه هو الآخر مخالفًا لعملي في كتبي الأخرى ، لأنه ليس أمامي في التعريف بمادته إلا أن أنقلها وسأكتفي ببعض التعليقات التي تزيد الأمر بيانًا .

* * *

كتاب السلطة

بدأ ابن قتيبة كتاب السلطة بقوله ﷺ : « ستحرصون على الإمارة ثم تكون حَسْرَةً وندامة ، يَومَ القيامة ، فنِعْمت المرضعة وبئست الفاطمة » .

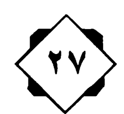
من العجيب في كلام رسول الله ﷺ أنه مع تمام دقته وكمال سداده وصوابه وكمال سعة معناه وكمال إيجازه تجد فيه مع هذه الكمالات وأكثر منها عذوبة ، وسلاسة ، وسهولة ، لا تجدها في كلام غيره ، وهذه أشياء لا أستطيع أن أشرحها لك وهي مُيسَّرة جدًّا ، لذائقتك البيانية ، وكأنه حُذي على وفق صفاء فطرتك البيانية التي فطرك الله عليها ، والتي ضَلَّتْ منك فلا تستطيع البيان بها ، وتعجب حين تجد التّدبُّرَ في كلامه عليه السلام فيه حلاوة ، ومهما كثرت كتابتك في كلامه عليه السلام فلا تزيدك هذه الكثرة إلا سَعَة علم بغزارة معانيه ، وَوَجَازَةِ لفظه ، وعذوبة ذلك ، وسهولته ، وسلاسته ، حتى إنك لا تجد كلامًا أقرب إلى أن يسكن في قلبك ، وتحفظه بعد كلام الله إلا هذا الكلام ، وسيدنا رسول الله يكره التكلف ، وليس من الأدب معه ، أن نتكلف ونحن نتكلم عنه ، بدأ عليه السلام بقوله : « ستحرصون على الإمارة » وهذا ظاهر ظهورًا بينًا ، أنه وحي لأنَّهُ إخبار بالغيب ، وليس في الجملة تأثيم للحرص على الإمارة ، لأنك لو حرصت عليها للصلاح والإصلاح ، كان حرصك هذا عملاً صالحًا ، ولو حَرَصْت عليها لتكون أميرًا ، ولك على الناس سلطان كنت آثمًا . وقوله عليه السلام : « ثم تكون حَسْرَةَ وندامة يوم القيامة » كلمة (ثم) في هذا الموقع قلما تجدها واقعة في هذا الموقع

في كلام غيره ﷺ ، لأنها أولاً نقلت الكلام من الدنيا إلى يوم القيامة ، ولاحظ أن الذي قبل (ثم) ليس زمن إمارة وإنما هو زمن حرص على الإمارة ، ثم دل ما بعد ثم على أنه أصابها وصار أميرًا ، ودلت كلمة « ثم » على بعد المنزلة بين زمن الحرص واتخاذ الوسائل الممكنة للوصول إليها ، ثم إنه لم يأخذها بحقٍّها ولم يُعْطها حقها ، وإنما كان منه ما صارت به هذه الإمارةُ التي حَرَص عليها حسرة ، ثم إن كلمة حسرة في هذا اليوم المشهود لم تكف في بيان ما هو فيه ، فأضاف إليها سيد الثقلين كلمة الندامة التي كان يغرق نفسه فيها ساعة كان يحرص عليها ، ثم إننا قلنا إن الحرص على الإمارة ليس من الإثم لأنه يمكن أن يحرص عليها رغبة في الصلاح والإصلاح ، وهذا يعني أن الذي حرص عليها ربما وصل لها بحقّها وأعطاها حَقَّها ، وكلام سيدنا رسول الله طواه في الجملة التي قبل ثم ، وأومأ إليه بالحسرة والندامة ، لأن هذا خاص بالذي أخذها بغير حقها ولم يعطها حقها ، وهذا هو الذي دعاني إلى القول بأن كلمة (ثم) في قوله ﷺ : « ثم تكون حسرة وندامة يوم القيامة » أنه قلما أوقعها أحد مثل هذا الموقع ، لأني لَمَحْتُ إيجازًا ليس هو من إيجاز الحذف ولا من غيره مما هو مألوف في الكلام ، ثم إن رسول الله ﷺ سكت عن الحرص عليها ، وأنها حسرة يوم القيامة ، وجاء بكلمتين واحدة صريحة في أنها نعم وواحدة صريحة في أنها بئس ، والمرضعة التي سقته لبنها فإن كان أخذه بحقه ووفاه حقه فهو لبن مصفّى لذة للشاربين ، وإن كان أخذه بغير حقه فقد أرضعته التي أرضعته الحميم والغساق لأننا مع الإمارة ولسنا مع طفل يرضع .

وذكر ابن قتيبة أن رجلاً قال عند النبي ﷺ : (بئس الشيء الإمارة) فقال النبي ﷺ : « نعم الشيء الإمارة لمن أخذها بحقها وحِلّها » ولاحظ أن كلام

سيدنا رسول الله ليس ذَمًّا للإمارة وليس مدحًا لها ، وإنما الذي يُورِثها المدحَ هو أنت أيها الأمير ، والذي يورثها الذم هو أنت أيها الأمير ، وكلام الصحابي الجليل كله ذم وتنفير من الإمارة ، وكأنه يرى أن من يزاولها لا يسلم من غوائلها ، فأراد ﷺ أن يصحّح هذا الحكم لأن الحياة توجب وجود الأمراء والمسؤولين ، وقد رَدَّ ﷺ بعكس ما قال وهو رد عجيب ومحو للخطأ بقوة وبسرعة ، الصحابي الجليل قال بئس الشيء الإمارة ولم يقل بئس الإمارة ، وإنما قال بئس الشيء فأوقع كلمة (بئس) على كلمة (شيء) ثم فسّر كلمة شيء بقوله الإمارة ، وكأنه قال بئس الإمارة بئس الإمارة ، وفهم رسول الله ﷺ من قوله هذا شِدَّة بغضه للإمارة ، فرد عليه بعكس ما قال ، وقال نعم الشيء الإمارة ، ولم يقل نعم الإمارة لمن أخذها بحقها وحلها ، وكأنه يقول لا تظلموا الإمارة ، وإنما عليكم الذي أخذها بغير حقها ، وبغير حلها ، وأَخَذْها بحقها يَعْني اختاره أهل الرشد وأهل العلم ، وأهل الفهم ، والحكمة ، وليس بطريق آخر كالتآمر وتزييف الحقائق ، أو بالبيعة من الذين لا يملكون البيع ، وكل هذا ظاهر في حياة الناس ، وكل محاولة لتغييره وتزييفه هي بائسة ، والناس أذكى مما يظنون ، وتلاحظ أن كلام سيدنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فيه جمع بين من أخذها بحقها وحِلّها ، وأدى ما يجب عليه لها ؛ لأن من أخذها بحقها هو بالضرورة عرف حقها عليه ، ولن تَجِدَ واحدًا أخذها بغير حقها ثم أدى لها حقها ، لأن من أجاز لنفسه أن يأخذها بغير حقها يستحيل أن يحفظ حقها عليه لأن حقها عليه ثقيل ، وصَعْب ، ولا يقوم به إلا قلة قليلة من الذين رضى الله عنهم .

وذكر ابن قتيبة قولَ ابن المُقَفَّع : « الناس على دين السلطان إلا القليل فَلْيَكُنْ لِلبرِّ والمُروءَةِ عِنْده نَفَاق ، فَسَتَكْسِدُ بذلك الفجور ، والدناءة ، في آفاق الأرض »



وهذا كلام رجل ذكي له بصيرة عاش حياته في قلب السلطة ، لأنه من كبار الكتَّاب ، وكان شُغْلُ السُّلْطَةِ وهَمُّها الأكْبَرُ والأصغَرُ محمولاً على الكتابة ، وعلى الأقلام التي في يد الكتَّاب ، ولذلك نجد هذا الكلام قائمًا في كل زمان ، وأن التَّغَيُّرات التي تحدث فيه إن حدثت بطيئة جدًّا ، والمراد بالدين ليس هو الاعتقاد وإنما السلوك ، لأن ابن المقفع نفسه عاش في السلطة زمانًا وهو غير مسلم ، وإنما دخل في دين الله لما وجد الإسلام داخل قلبه ، ولم يجد وجهًا لدفعه ، وكانت قيمته في الدولة الأموية لأنه صاحب فهم ، وصاحب عقل ، وصاحب علم ، وصاحب بصيرة ، فزاحم بالذي هو في ذات نفسه والذي هو من إنسانيته ، وترى قوة النفس في هذا النص الذي نقله ابن قتيبة ، لأن هذا النص في حقيقته خطاب لأهل السلطة ، وليس خطابًا لجماهير الناس ، ويقول لأهل السلطة إذا أردتم شُيُوعَ البِرَّ والمروءة بين الناس الذين تَسُوسُونهمُ فلا تُحدِّثُوهُمْ عن البر ، ولا عن المروءة ، ولا يتحدث بهما المتحدثون حولكم ، من كتاب ، وغير كتاب ، وإنما اعملوا أنتم أعمال البِرِّ والمروءة ، لأن عملكم لها أبلغ في نفوس الناس من كل كلام ، وإذا أَرَدْتم أنْ يَسودَ الفجورُ والدناءةُ فاجعلوا هذا يسود بينكم ، فإنه إن ساد في دُوركم ساد في دور النّاس إلا القليل منهم ، وهذا أقوى وأبلغ ما يخاطب به أهل السلطة ، ثم هو صادقٌ ، واستقامة ابن المقفع تجعله أجل من أن يُتَّهم بميله إلى أو ميله عن ، وهذا هو الأهم ، ابن المقفع يقول لن تُسْمَعَ منكم الشكوى بشيوع الشر والفساد في الناس ، لأنكم أنتم الذين تشيعونه في الناس ، لأنه إذا شاع في الناس كان نتيجة حَتْميَّة لشيوعه فيكم ، ولاحظ اختيار كلمة المروءة والبر ، وأن أكرم وأفضل ما يتحلَّى به ولي الأمر ومن حوله هو المروءة والبر ، ويقابلها بالفجور والدناءة وأنه ليس في الرذائل

أدنى من الدناءة ، ولا أفجر من الفجور ، وتعجبني جدًّا الأوصاف الإنسانية المملوءة بالرحمة ، والبر ، والمروءة ، وأكره المُتَغَطْرِسَ الذي لا يَرْحَم ، ولا يَعْفو ، مَعَ القدرة ، ويُصِرُّ على استمرار مطاردة الناس مهما كانت أخطاؤهم ، لأن في القضاء العادل من الزجر ما يكفي ، وتلاحظ أن ابن المقفع يحتاط حتى لا يكون في كلامه حرف زائد لا يريده ، وقد أعجبتني كلمة (إلا القليل) لأن الناس على سلوك السلطان ومن حوله وليسوا جميعًا ، وإنما هناك ناس لهم دينهم أعني مناهجهم وآدابهم وثوابت عادتهم المَوْرُوثة ، وفيها البِرّ والمروءة ، وُجد ذلك في السلطة أو لم يوجد ، وهؤلاء هم أنهار الخير الجارية في الناس إلى يوم القيامة ، والمهم أن الرجل الذي عاش في قلب السلطة كأنه التفت إليهم وقال لهم اصنعوا الخير والفضائل والبر والمروءة يغنيكم ذلك عن الكلام عنها ، ويغنيكم ذلك عن أن يكون حولكم من يَصفُونكم بها ، المهم الفِعْلُ ، وبلاغة الفِعْل وأثرُ الفِعْل وسيسمع الناس أفعالكم ولو أطبقتم أفواهكم .. لسان الواقع حَرَّم على نفسه الكذب وهو لم يكذب منذ آدم عليه السلام .

إن لله حراسًا

وذكر ابن قتيبة قولهم « إن لله حُرَّاسًا ، فحُرَّاسُه في السماءِ الملائكةُ ، وحراسه في الأرض أهل الديوان » وأهل الديوان هم أهل الإمارة وهم حراس الله في الأرض ، يحرسونها من الفساد والإفساد والقهر والقتل وإهانة الإنسان ، ويُوفِّرُون لها الخير ، والبر ، والتراحم ، وكل ما به تكون الحياة أفضل وأكرم ، ومنزلتهم في الأرض كمنزلة الملائكة في السماء لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ومن يعرف هذا من أهل السلطة وهو مؤمن بالله وملائكته ، والثواب ، والعقاب ، والجنة والنار ، وَظُلْمَةُ القبر ، وعذاب القبر ، سَيَسْتَمْسِكُ به

ولا يحيد عنه ، وهذه هي الإمارة التي هي نعمت الإمارة والتي أخذها بحقها وقام فيها بحِلّها ، وكنت وأنا أكتب كتاب « من أحاديث رسول الله ﷺ دراسة في بلاغه وبلاغته » وأرى تشديد رسول الله ﷺ في النهي عن الخروج على الحاكم وإنْ ظلم ، أجْتَهِد لأجد ما يُبَرِّرُ الخروج على الحاكم فلا أجد إلا شدة النهي ، حتى إن الذين يخرجون في المظاهرات التي هي الآن من حق الشعوب يحرم عليهم حرمة قاطعة أن يقولوا الشعب يريد إسقاط النظام ، لأن هذا من صريح الخروج على الحاكم الذي كنت أتلمس له مُبَـرِّرًا فلا أجد ، ورأيت أيضًا أن بعض المخالفين للنظام أي نظام أسمعهم يقولون فلان يعني رئيس أي دولة يعارضونه ليس رئيسي ، ورأيت ذلك منهيًّا عنه لأن رسول الله ﷺ قال : « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية » وليس المراد الكفر ، وإنما كانت الجاهلية لا سلطان فيها ، ومن مات منها مات وليس في عنقه بيعة ، والمراد تبشيع أن تخلع من عنقك البيعة التي هي لرئيس الدولة ، وكنت أقول ما هي الوسيلة لإصلاح الحاكم الذي يظلم ويُفْسِد ويَقْتُل ؟ فوجدت أولا أن الخروج على الحاكم الذي لم يكن منه الكفر البواح فتحٌ لباب الفتنة ، وما يعقبها من فساد ودماء ، ثم رأيت باب النصح للحاكم ، والنصح مشروط بأن يكون من الذين لا تحوم حولهم شبهات ، وإنما هم صادقون مخلصون حريصون على مصلحة البلاد والعباد ، ثم رأيتُ فوق كل ذلك ثواب الله الجزيل لمن أصلح ، وأنه يكون في الأرض من حراس الله كما أن الملائكة من حراس الله في السماء ، ثم يصيبه عقابه سبحانه وغضبه كما سنبين على من خالف وأخذها بغير حقها ولم يلاحظ حلها ، رأيت كل ذلك أهم وأنجع من الخروج على الحاكم ، ولاحظ أني أكتب ما وصل إليَّ من كلام رسول الله واستقام عندي أنه

مـراده ﷺ ، فإذا رأيت في كلامه ﷺ ما يخالف ما كتبت فاكتب مـا تـراه ، وحسبي أنني اجتهدت في طلب الصواب ففـاتني الصـواب ولم يفـتني الجـد في طلبه .

شر الأمراء

وذكر ابن قتيبة «أن شَرَّ الأُمراءِ أبعدُهم عن القُرَّاء ، وشَرَّ القُـراءِ أقـربهم مـن الأمراء» والمراد بالقراء العلماء لأن العلم كان ولا يزال يبدأ بقراءة القـرآن ، لأن الله ـ سبحانه ـ خاطبنا أول خطاب لنا بقولـه «اقـرأ» ودعانـا القـرآن إلى العلـم بكل فروعه ، وفضل الذين أوتوا العلم ، وذكر الشافعي وأبو حنيفـة أن العلمـاء هم أولياء الله وإذا لم يكونوا أولياء الله فليس لله ولي ، وأفهم منه أن المراد علـم أي علم نافع للأمة تعلمه صاحبه لوجه الله وعلمه لوجه الله ، وكان من الممكـن أن يقال إن خير الأمراء أقربهم من القراء وأن خير القراء أبعـدهم عـن الأمـراء ، والذي ذكره ابن قتيبة كان للتَّحْذِير مـن الشـر ، وهـو أولى وأَنْجـع ، وهـو مـن التخلية بالخاء المعجمة وهي تسبق التحلية بالحاء المهملة ، وابتعاد الأمراء عـن العلماء يعني فيما يعني عدم حفاوة الأمراء بالعلم وأهله ، والعلم هو العدل وهو الرحمة وهو الهادي للأمير ، وغير الأمير إلى الطريق المستقيم ، الذي هو السبيل الوحيد لعمارة البلاد والعباد ، والجفـوة بـين الأمـراء والعلـم لا تنـتج إلا جَهْـلاً وفسادًا وفجوراً ، وشيوع الخساسة ، والدناءة ، وكل ما هو قبيح ، وحب الأمـراء للعلم وقربهم من أهله ، يعني الحرص على انتشاره ، وتقدمه ، وبَثّـه في نفـوس العامة والخاصة ، وناهيك عن تَبَنِّي الأمـراء للعلـم ، وتَبَنّـيهم للبحـث العلمـي ، وحرصهم على تفوق هذا البحث العلمي في البلاد ، حتى لا يكـون في مسـتوى البلاد الأكثر تفوقًا ، وإنما حرصهم على أن تكون نتائج بحـوث علمـائهم أكثـر

تفوقًا من المتفوقين وهم حراس الله في الأرض ، ابن قتيبة يقول للأمـراء قَـارِبُوا العلم ، والعلماء ، لأنكم لن تكونوا حُرَّاس الله في الأرض بالجهل ، والغَطْرَسَة ، وإنما تكونون حراس الله في الأرض بالعلم ، والمرحمة ، ومقاربة القراء للأمراء ، قد تكون للنصح ، وكلمة الحق وقد فعل ذلك كثير من العلمـاء ، وهـي مُقَاربـة محمودة جدًّا ، ومحتاجة إلى مزيـد مـن الحـذر ، والإخـلاص ، والصـدق ، أمـا مقاربة القراء للأمور لمنافع الدنيا فحسبها عقابًا احتقـار النـاس والأمـراء لهـم ، وفوق ذلك ما جاء من الوعيـد للـذين يتعلمـون علـم الـدين مـن أجـل الـدنيا ، وهؤلاء أقل من القليل في التاريخ الذي قرأناه ، وفي الزمن الذي عشناه ؛ وإنمـا شاع ذكرهم لأن للعلم والعلماء منزلة عالية في نفوس الناس ، ولهذا يستعظمون ما يكون من الانحراف ، وإن كان في عدد أقل من أن يذكر إذا قيس بعددهم في الجماعة ، ثم إن هذا العدد الأقل من القراء الذين يقـاربون الأمراء أسـكن علـم الدين في نفوسهم ضوابط لا يسـتطيعون تجـاوزها ، ولـم أسمـع مـنهم مخالفـة لدين الله .

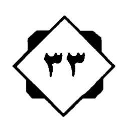
من أهم ما ذكره ابن قتيبة

ومن أهم ما ذكره ابـن قتيبـة في كتـاب السـلطان هـو اختيـار العمـال الـذين يباشرون مصالح البلاد والعباد ، وأن يُرَاعَى فيهم القدرة البالغة في أعلى مراتبهـا في الشأن الذي أُسْنِدَ إليهم ، وأن يراعى فيهم الإخلاصُ والصدقُ والتَّجَرُّدُ وبَـذْلُ أقصى الطاقة في خدمة البلاد والعباد ، وهذا من المهمـات الأساسـية للسـلطان ؛ لأنه لا يعمل بيده وإنمـا يختـار مـن يعمـل ، فـإذا كـان يـولي الأمـر أهلـه مـن الكفاءات العلمية الصادقة والكفاءات الوطنية الصادقة تقدمت البلاد وتقـدم فيهـا العلم والفكر والصناعة والزراعة وكل مرافق الحياة ، وحَسُنَتْ وارْتَقَتْ وارتَفَعَتْ

أحوال الناس ، واحتشد الكل ، وتماسك الكل ، وجعلوا خِدْمة البلاد والعباد غاية ليس عندهم غاية فوقها ، وإذا وَلَّى أصحابه وأبناء حزبه أو جماعته أو مؤسسته كان هذا السلطان بلاء على البلاد أبشع من كل بلاء ، وأسرع إلى الخراب إليها من كل شر وبلاء ، ولم أعرف أحدًا لا من المؤرخين ، ولا من السياسيين ، ولا من المصلحين ، صوَّر خطر ولاية الأمر إلى غير أهله من رسول الله ﷺ ، فقد حذّر منه تحذيرًا لا أعرف تحذيرًا أشدَّ منه ، وكأنه عليه السلام عاش الزمن كلَّه من أوله إلى آخره ورأى السلطان في كل زمان ، وفي كل مكان ، ورأى خطر تولية الأمر إلى غير أهله ، وليس هذا عجيبًا منه عليه السلام لأنه لا يُبَلِّغُنا رأْيَهُ ، وإنما يبلغنا وحي ربنا الذي علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، وأسمعه وهو يقول لنا إن الشعب الذي يتولى الأمرَ فيه غير أهله شعب يسعى بقدميه إلى قبره ، والمراد دَمَارُه ، وهلاكه ، وهو حَيٌّ يمْشِي على الأرض . سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فأجاب بقوله : « إذا أُسْنِدَ الأمرُ إلى غَيْر أهلِهِ فانْتَظِرْ الساعة » ولم أفهم من هذا أن الساعة هي القيامة التي يُنْفَخُ فيها في الصور فيُصْعَقُ من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله ، لأن لهذه الساعة علامات أخرى ، وإنما أفهم أن الساعة هي قيامة هذا الشعب لأنه عليه السلام قال لنا من مات فقد قامت قيامته ، وهذا صريح وواضح في أن الشّعْبَ الذي أُسْنِدَ الأمرُ فيه إلى غير أهله فقد قامت قيامتُه ، ويا ليته يَمُوتُ ويدخل القبرَ وإنما سيموت وهو حي يَمْشي على الأرض ، وهذا شر من الموت المفضي إلى القبر ، وإنما هو كما يقول الشاعر القديم :

ليسَ من مَاتَ فاسْتَرَاحَ بِميْتٍ ... إنَّمَا الميِّتُ مَيِّتُ الأحْيَاءِ

إنما الميِّتُ من يعيشُ كئيبًا ... كاسفًا بالُه قليلَ الرَّجَاءِ



وإسناد الأمر إلى غير أهله يعني أن يعيش الشعب كئيبًا كاسفا باله قليل الرجاء ، ومعنى قليل الرجاء فاقد الأمل في المستقبل ، فالولد لا أمل له في أن يتزوج ويعيش ، والبنت لا أمل لها في أن تتزوج ، وأن تعيش ، والجاحظ لم يعجبه مثْلُ هذا الشعر ولو عاش في زمان غير زمانه لأعجبه كما أعجبنا ، والحي الحياة الحقيقية هو الذي يعيش حياة كريمة يجدها في مطعمه ومسكنه وعمله ورخاء البلاد من حوله ، وليست حياة كريمة تَسْمَعُها أذناه ، وله واقع آخر .

ولا شك أن الناس إذا أحسنوا اختيار من يُسند إليه الأمْرُ ، ورأينا هذا الذي أحسنوا اختياره ، وهو الآخر يَسْعَى إلى أن يُسْنِدَ الأمرَ إلى أهْلِهِ ويَنْسَى الذين كانوا معه ، و الذين كانوا عليه ، لأنه ما دام تولَّى الأمْرَ فقد صار مسؤولاً عن الجميع ، وتأبى عليه نفسه الحُرّة ورجولته ، وشرفُه أن يسيء إلى أحد كان عليه ، وإذا كان الشَّعْبُ أساءَ في اختيار من أُسند إليه الأمر ، فلابُدَّ له هو الآخر أن يسيء في اختيار من يُسْنِد إليه الأمر ، وحينئذ لا تنتظر إلا الساعة لأنه خَبْرٌ أتاك من جهة علام الغيوب .

وذكر ابن قتيبة بعض صور الاختيار وكيف كان المسؤول له نفاذ شديد في معرفة أوصاف من يريد أن يسند إليه الأمر . ذكر ابن قتيبة أن بعض الخلفاء قال لمن حوله من أهل الرشد ، والإخلاص : دُلُّونِي على رجل أستعمله في أمر أهَمَّنِي . قالوا كيف تريده ؟ قال : « إذا كان في القوم وليس أميرَهم كان كأنه أميرُهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم » وهذا واضح في بيان كيف كان يكون اختيار الكرام للكرام ، ودقق في معرفة الصفات التي لخصها الخليفة في كلمتين الأولى أن يكون في الناس وليس أميرهم وكأنه أميرهم ، وهذا ظاهر في

تميزه في خلقه وكرمه وسَدَادِ رأيه وإخلاصِه لقومه وحُبِّه لهم ، وحرصه الشديد على كل خير يصل إليهم ، ولهذا كان عندهم بمنزلة الأمير وليس أميرًا ، والكلمة الثانية هي أنه يكون في الناس وهو أميرهم وكأنه ليس أميرهم لأنه لا يعلو شيئًا أي شيء بهذه الإمارة وإنما يعلو بحبِّه لقومه ، وقربه الشديد منهم ، وإلغاء كل الفروق التي تكون بسبب المناصب بينه وبين قومه ، وتعجب من نفاذ الخليفة إلى هذه الصفات النفسية الواضحة في دلالتها على أن الرجل من الرجال الذين لا يَعْلُون بالمناصب ، والذين همُّهُمْ أن يدخلوا أنفسهم في غمار قومهم غير ناظرين إلى ذواتهم من أي جهة ، وإنما هم في الجماعة ومن الجماعة وبالجماعة ، وهل تجد أكثر جدًّا ونشاطًا في خدمة الجماعة من الذي هو فيها وهو منها وهو بها ، فإذا كان يروقك هذا الصنفُ من الرجال فإن الذي يَرُوقني أكثر هو صاحب السلطة الذي يطلب من الجماعة حوله أن يدلوه على رجل هذه أوصافه ، وبهذا تقدمت البلاد ، وغنِيَت واسْتَغْنَتْ برجالها وحكمائها وولاتها ، وهم الذين طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا ، وبئس من ليسوا كذلك وبئس من الأولاد ما ولدوا .

وقريب من هذا ما ذكره ابن قتيبة من حوار دار بين الرشيد ورجل أراد الرشيد أن يوليه القضاء ، فقال الرجل للرشيد : « أنا لا أحسن القضاء ولست فقيهًا ، فقال له الرشيد : فيك ثلاث خلال ، لك شَرَفٌ والشرف يمنع صاحبه من الدناءة ، ولك حِلْمٌ يمنعك من العَجَلَةِ ومن لم يَعْجَلْ قَلَّ خطؤه ، وأنت رجل تشاور في أمرك ، ومن شاور كثر صوابه ، وأما الفقه فسَيُضَمُّ إليك من تتفقّه به ، قالوا فوُلّيَ القضاء فلم يجدوا فيه مطعنًا » . وأول ما تلاحظه أن الرجل الذي طلبه الخليفة ليسند إليه القضاء كان يجتهد في صرف هذه الولاية عنه لأنه يخشى ألاَّ

يكون أهلاً لَهَا مع أنَّهُ أهل لأن يُسْنَدَ إليه القضاء ، والقضاء كان ولا يزال من المهمات الكبرى في الدولة ، والقضاة كانوا ولا يزالون من أعيان الأُمَّة ، وأن هذا الشريف لم يَطْمَعْ في منصب يعلو به ، لأنه لا دونية فيه ، والويل للناس ممن سَكَنَتْ هذه الدونية في نفوسهم إذا أسند إليهم أمر له شأن وله خطر في مصالح البلاد والعباد ، ولا أشك في أن هؤلاء لا يزالون فينا لأن رسول الله ﷺ قال : « الخير في أمتي إلى يوم القيامة » . وإذا لم يكن هؤلاء هم الخير فأين يكون الخير ؟ وتعجب بل وتدهشك عقلية الرشيد بن المهدي الذي رأى خِلالاً ثلاثة ليس فيها الفقه تُرَشِّحُ صاحبها لمنصب القضاء الذي لا يعلوه في الدولة إلا منصب الخليفة ، لأن القضاء الذي يتولاه الموصوف بهذه الخلال الثلاثة هو الجدار الذي يَسْتَنِدُ عليه المواطنون جميعًا في ضمان حقوقهم المادية ، والأدبية ، فهو الذي يأخذ حق أدنانا من أعلانا ، وأصغرنا من أكبرنا ، وإذا كان لك حق عند رأس الدولة وأنت من عمال النظافة ضَمِنَ لك القضاءُ العادلُ هذا الحق ، وحكم لك به على رأس الدولة ورأس الدولة يسعد ويرضى بهذا ، والعجيب أن الخلال الثلاثة الشرف والحلم والمشاورة ليس فيها خَلَّةٌ واحدة هي من شأن القضاء ، وإنما هي خلال تُهَيِّئُ صاحبها لولاية أي شيء ، لأن شرفه يحول بينه وبين كل ما له صلة بالخساسة ، ويقيم طريقه في كل شأنٍ من شؤونه على الطريق الذي هو أقرب إلى كرم النفوس وتميزها وسيادتها ، والحلم باعث حثيث وملازم على الأناة والروية والمراجعة ، ومن راجع وتروى وتجنَّب العجلة قل خطؤه ، ثم المشاورة والذي يشاور دائمًا هو الذي يبحث عن الصواب سواء عنده أو عند غيره ، والباحث عن الصواب غالبًا ما سيقع عليه ، ولا أستطيع أن أقول إن خلَّةً من هذه الخلال أفضل من أختها ، والذي يشغلني في هذا كله هو

وَعْي الرشيد وحكمته وبصيرته وكيف اهتدى إلى هذه الثلاثة التي قلما يهتدي إليها إلا قلة من أهل الذكاء والرشد ؟ ومن الذين كانوا يقومون على تربية أبناء الخلفاء ؟ وكيف كانوا يُعَدّونهم حتى يصلوا إلى هذا المستوى ؟

ومما نقله ابن قتيبة من كلام العجم في باب السلطان أن الناس كانوا يسمعون من السلطان بمقدار سماعه هو للذي يقوله لهم ، يعني أن آذانهم مع أذنه ، فإن كانت أذنه سمعت ما يقوله لهم سمعوه ، وإن كانت أذنه لم تسمع ما يقوله لهم فلن يسمعوه ، وكأنه لم يقل ، ومعنى سماعه لما يقوله لهم فعله للذي يأمرهم أن يَفْعَلُوه ، وهذا جيد جدًّا ، وأن على المسؤول أن يفعل الشيء قبل أن يأمر الناس بفعله ، وأن ينتهي عن الشيء قبل أن يُنْهَيَ الناسَ عنه ، وهذا من الفطرة ، وأنك لو نهيت الناس ألف نهي عن شيء لم تَنْتَهِ أنت عنه كأنك لم تقل لهم شيئًا ، وليس بلازم أن يكون أميرًا أو وزيرًا والناس متفقون على مثل قوله : « ابدأ بنفسك فانهها عن غيها » وكل الذي نَقَلَه ابن قتيبة عن الهنود وعن الفرس وعن اليونان متفق مع الذي يرويه عن العرب لأن كل هذا من الفطرة ، وأنت وأنا وكلنا نحب الذي هو من الفطرة ، ولذلك نجد المنقول عن هذه الأمم موافقًا للذي في الكتاب والسنة ، لأن الذي في الكتاب والسنة هو فطرة الله التي فطر الناس عليها .

ومما يتطابق مع ما نقله ابن قتيبة من كتب العجم وأن الناس يسمعون من الوالي إذا سمع هو من نفسه ، ما رواه ابن قتيبة من أن سيدنا عمر بُعِثَ إليه بحُلَل ، فأصاب كل رجل ثَوبًا فصعد المِنْبَر وعليه حُلَّة ، والحلة ثوبان ـ فقال : أيها الناس ألا تسمعون؟ فقال سلمان : لا نسمع ، فقال عمر : ولم يا أبا عبد الله؟ قال : لأنك قسمت علينا ثوبًا ثوبًا وعليك حلة ، قال : لا تعجل يا أبا عبد الله ،

ثم نادى يا عبد الله فلم يجبه أحد ، فقال : يا عبد الله بن عمر ، قال : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : نشدتك بالله الثوب الذي أتَّزِرُ به هو ثوبك ؟ قال : اللهم نعم ، قال سلمان رضي الله عنه : أما الآن فقل نَسْمَع ، وكان ابن قتيبة كثير النقل عن الفرس وعن ملوكهم وفي الذي خاطب فيه الملوك أبناءهم الذين يعدونهم للملك ، وقد بقي الملك في الفرس مئات السنين وترسخت فيه تقاليد صحيحة ، وآداب صحيحة ، وسياسة صحيحة ، وكان هذا يُغري ابن قتيبة بالنقل عنهم ، ولما استعمرتنا دول أوربا شغلتنا بالحديث عن الثقافة اليونانية فأهملنا الثقافة الفارسية ، وكانت هي الأولى لأن كل بلاد الفرس صارت بلادنا ، وقد غلبت الثقافة الإسلامية على الثقافة الفارسية كما غلبت على ثقافة مصر والشام .

ومما نقله ابن قتيبة قول أزدشير لابنه : « يا بني إنَّ المُلْك والدين أخوان لا غِنَى بأحدهما عن الآخر ، فالدين أُسّ والملك حارس ، وما لم يكن له أُسٌّ فمَهْدُومٌ وما لم يكن له حارس فضائع ، يا بني اجعل حديثك مع أهل المَراتِب ، وعَطِيَّتَكَ لأهل الجهاد ، وبِشْرك لأهل الدين ، وسرك لمن عَنَاهُ ما عناك ، من أرباب العقول » ولو قلت لي إن هذا ما قاله المهدي لولده الرشيد أو ما قاله عبد الملك بن مروان لولده فلان ، لا أجد فيه شيئًا يمكن أن أنكره ، وأهم ما في كتاب « عيون الأخبار » ليس هو ما نقله عن الفرس ولا عن الهنود ولا عن اليونان ولا عن العرب ، وإنما أهم ما فيه أنه معرفة ثقافة الإنسان من حيث هو إنسان ، ومعرفة فكر الإنسان من حيث هو إنسان ، ومعرفة أدب الإنسان من حيث هو إنسان ، أهم ما في « عيون الأخبار » أنه كتاب الإنسان ، وأنا وأنت نحب العناصر المشتركة في ثقافة البشر ، لأن هذه العناصر المشتركة هي التي تذكرنا أنَّنا جميعًا من ذكرٍ وأنْثَى ، أحب أن أقرأ الحنين في كل أدب ، والحب

في كل أدب، والشكوى في كل أدب ، وأبعد من هذا أحب أن أقع على القَرَابة الأكيدة بين أسماء الإشارة في كثير من اللغات ، والقرابة الأكيدة بين الضمائر في كثير من اللغات ، لأنها تؤكد لي أننا جميعًا في الزمن الأقدم نطقنا بأسماء الإشارة هذه التي لا يزال فيها نَفَسٌ من نَفَسِنَا الأول ، وأننا جميعًا نطقنا هذه الضمائر التي لا يزال فيها نفس من نفسنا الأول ، وفي النحو المقارن بقايا أصوات لغوية هي من إرثنا المشترك ، وقد شغلنا بهذا في الأدب المقارن وأهملناه في غيره .

والمهم قول أزدشير وهو أحد كبار الفرس الذين طال ملكهم وامتد في الزمان والمكان وغَلَبُوا الروم في أدْنَى الأرض ، المهم قوله لولده إن الملك والدين إخوان ، والدين أُسٌّ والملك حارس لهذا الأساس ، وهذا يعني أن ملك الفرس الذي طال وامتدَّ في الزمان والمكان ، كان في زمانه كله وفي مكانه كله حارسًا للدين ، فأي دين كان للفرس وكان ملكهم حارسًا له؟ أقول لا نسأل عن هذا ولا ما هو حلاله وحرامه ، ولا من الذي أنشأه ، والمهم أنه صار دينًا وخالط القلوب والعقول ، وحاله كحال أي دين لا تسأل عن صِحَّته وفسَادِه ، وإنما صار دينًا لهذه الجماعة وصار مُلكها وصارت قوَّتُها وجيوشها كل ذلك صار من حراسه ، يستوي في ذلك دين الفراعنة ودين الهنود ، ودين الفرس ، ودين الروم ، كل ذلك عند أصحابه حلال ، وكل هؤلاء حراس لأديانهم ، ولذلك لا تجد جهلاً أجهل ولا سخفًا أسخف من الذي يهاجم الأدْيان ، وأجْهَلُ منه وأسخف ليس الذي يهاجمها وإنما الذي يتجاوز حُدُودَ الأدب ويَزْدَرِيها ، وأسخف من كل سخف وأحْقَر من كل حَقَارة الذي يُدَافِعُ عن الذين يَزْدَرُون الأديان ويطالبون برفع العقوبة عنهم ، مع أنه يدخل في السوء الذي لا تجد في

اللغة عبارة تَصِفُه بها ، وهو أنهُ يَزْدَرِي أنبياءَ الله وهم المصطفون الأخيار من لدن نوح إلى سيد الثقلين ـ صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا ـ ، هذا الهلفوت أو هذه الهلفوتة تهاجم هؤلاء جميعًا وتهاجم كتبهم وشرائعهم ومن آمن بهم وقول أزدشير لولده : (اجعل حديثك مع أهل المراتب) يعني أهل الشرف هو ما يقوله كل أب لولده لأن حديثه مع أهل الشرف يزيد شرفه ، وحديثه مع أهل الخساسة والدناءة ينقص قدره وشرفه ، وخصوصًا إذا صار أهل الخساسة والدناءة عِلْية مع انحطاط الزمان وخساسته ، ومن قِيَم الفرس السياسية والأخلاقية أنه لا يجوز لمن يحكم الناس أن يكون كذابًا ، وأن الخسيسة التي تُسقط أهليته للحكم هي الكذب ، وويل للناس وللأرض وللبر والبحر إذا كان على رأس هذا كله كذاب ، يَدَّعِي الشرف والصدق والإخلاص .

وذكر ابن قتيبة أنه مما قاله الهنود : « شَرُّ السلطان من خافه البريء» ونجد ابن قتيبة ينتقي ويختار خلاصة الخلاصة ، ثم نعود إلى نعمة البيان التي منَّ الله بها علينا بعد نعمة الوجود من كَتْمِ العَدم ، ونعمة البيان هذه فيها خفايا من النعم تطلعك عليها الأيامُ والأحوالُ ، حتى إنك هنا تجد كلمة تشغل ثلث سطر تصلح حال سلطان ربما كان تحت بسطة يَدِهِ ملايين الملايين ، وأضيف أيضًا أن جوامع الكلم التي أعدّ الله بها سيد الثقلين لبلاغ بلاغه سبحانه شغلنا عن جوامع الكلام في البيان ، والحقيقة أن الناس نطقوا بجوامع كلم عالية جدًّا ، ثم جاءت جوامع كلمه عليه السلام وهي عالية فوق كل عالية ، قلت كل هذا لأن الاختصار الغريب في كلمة الهنود هذه ـ وإن لم يكونوا أهل فصاحة ـ في هذا الاختصار دقةٌ غريبةٌ جدًّا ، لأن خوف البريء لا يكون إلا إذا كان السلطان قد طَرَحَ رسالتَه الحقيقية ، وهي رعاية الناس ورَمَى بها ، ولم يكتف بهذا وإنما

شُغِلَ بما هو من ضدّها ، وهو إشاعة الخوف في كل طبقات الشعب ، وآخر من يصل إليه الخوف هو البريء ، لأن البريء أكرم من يمشي على تراب قومه ، لأنه لم يقترف إثمًا فهو أحقُّ الناس بالأمْنِ ، فإذا وصل إليه الخوف فهذا يَعْنِي أن الخوف لم يترك شبرًا من الأض إلا سكن فيه ، وهذا هو الشر الحقيقي ، وكأن السلطان لم يعد ظل الله في الأرض وإنما هو ظل الشيطان ، ولم يعد من حراس الله في الأرض الذين يُقَابلُهم حراسُ الملائكة في السماء ، وإنما هو من خدم الشر وحرَّاسِهِ ، وهكذا ترى كلمة خافه البريء كأنها طاقة يَطُلُّ بك على بلادٍ لم تَعُدْ بِلادًا وإنما هي غابة كلها ذئاب ، وكلها حيَّات ، وكلها شر ، ثم إنها تعني أن شر السلطان لم يقف عند شَرِّه هو فحسب وإنما هدم القَضاء الذي هو حصن العدل ، وحِصْنُ الأمان ، وأن البريء ما كان له أن يخاف إلا لأنه رأى القضاء ، والعدل في بلاده قد هدم ، ولا يَهْدِم القضاء إلا رافض للعدل ، ورافض للحق ، والقِسْطِ الذي أمرنا به ربنا وقال لنا إنه ﷻ يحب المُقْسطين .

قلت وأقول إن ابن قتيبة كان يجتهد في تقديم كُلِّ ما يُفيد أبناء قَوْمِهِ ، لأن رفع مستوى المعرفة بين أفراد الأُمَّة من أهم أسباب قوتها وتقدمها ورفعتها ، والذين يتركون جماهيرهم هائمين في الغَفْلَةِ والتّيه والجهالة ليسوا من أهل الفكر ، ولا من أهل السياسة ، ولا من أهل الولاء لأوطانهم ، لأن هؤلاء الجماهير الغارقين في الغفلة ، والجهالة وإن كانوا ليسوا كل الوطن ، فهم أكثر الوطن ، لأن الوطن ليس التراب فحسب وإنما هو من سكنوا هذا التراب :

وما حُبُّ الديارِ شَغَلْنَ قَلْبي ... ولكن حُبُّ من سكن الدِّيار

كان ابن قتيبة إذا كان بين يديه سطر صالح كتبه لقومه غير ناظر إلا لما فيه من معنى كريم ، يريد أن يُسكنه في عقول قومه ، ونحن أولى بهذا من ابن قتيبة

لأنه كان لا يزال في القرون المُفَضَّلة ، وقد تَرَاخَى بنا الزمنُ وصِرْنا إلى ما صرنا إليه ، ولابد من الإصرار على أن نخرج من الذي صرنا إليه ، لأن ما نحن فيه لا يليق بخير أمة أخرجت للناس ، والآية الكريمة تحثنا حَثًّا على الخروج من الذي نحن فيه .

النصيحة للسلطان

قال ابن قتيبة : « كتب رجل إلى السلطان أحق الناس بالإحسان من أحسن الله إليه ، وأولاهم بالإنصاف مَنْ بُسِطَتْ بالقدرةُ يداه» وسواء كان ابن قتيبة يعرف الرجل أو لا يعرفه فإن إهمال التعريف به إشارةٌ واضحةٌ إلى ضرورة انصراف عقل القارئ إلى المكتوب ، وليس إلى الذي كتب ، لأنه من الأهمية بمكان ، وأول ما يبدو من هذا المكتوب ، أنه عام وليس خاصًّا بالسلطان ، وإن كان له من الأثر الأفضل والأكرم إذا كان من السلطان ، ثم إن هذا الكلام هو خير ناطق بما تَنْطِقُ به الفطرة الإنسانية وأن مخالفته ليست إلا مخالفة الفطرة ، وأن العمل به هو العمل بالفطرة ، وأنك أيها السلطان لك الخيار إما أن تحفظ فِطْرَتَكَ من حيث إنك إنسان ، أو تخالف هذه الفطرة ، وبهذا الحق الناصع كتب رجل أي رجل إلى السلطان الذي لم يكن في الأمة سلطان سواه ، والذي امتدَّ سلطانه في الأرض مع امتداد الفتوحات ودخل سلطانه ما دخل عليه الليل ، لأن دين الله دخل ما دخل عليه الليل .

وجملة «أحق الناس بالإحسان من أحسن الله إليه» أول ما يظهر لك منها أنها خالية من التوكيد ، وهذا إشارة إلى أن معناها لا ينكره منكرٌ ، لأنها من معاني الفطرة ، ثم إن المراد بالإحسان من صاحب السُّلْطةِ ليس أن يحسن بالعطاء لذوي الحاجات ، لأن هذا أيْسَر ما يكون عليه ، وإنما المراد أن يحسن

رعاية مصالح البلاد والعباد ، في كل شأن من شؤون البلاد والعباد ، فيحسن زراعتها ، وصناعتها ، والانتفاع بثَرَواتِها وأن يجمع حوله الكل ، وأن يجتهد الكل في تحقيق تقدم البلاد والعباد ، وإحسان السلطان إذا لم تكن له نتائج في تقدم البلاد في شؤونها كلها من علم وصناعة وسياسة فليس له إحسان ، ولابد أن يكون هذا مراد الكاتب ، وإلا لأراح نفسه وابتعد ، ثم إنك أيها السلطان تكون أولى بالإحسان إذا كان اعتقادك هو أن الذي أنت فيه من المكانة العالية في قومك هو من إحسان الله ، وعطائه لك ، وبهذا يكون إحسانك في موقعك هو من إحسان الله الذي جعلك في هذا الموقع ، فإن كنت تُؤْمِنُ بأن الذي أنت فيه إنما أُوتيتُه على علم عندك ، فلن تكون أولى بالإحسان ، لأنك ما دمت أنكرت أن الذي أنت فيه هو من إحسان الله إليك ، فلن يُرْجَى منك إحسان ، وفي هذا إشارة إلى أن الذي أعطاك جل وتقدس يَرْضَى مِنْكَ أن تعطي ، وأن الذي أحسن إليك يحب منك أن تحسن ، وأن الذي يغفر لك ذنبك يحب منك أن تغفر للناس ذنوبهم ، وهذا هو سلوك الفطرة المُسْتَقيمةِ ولله المثل الأعلى .

وقول الرجل للسلطان : «وأولاهم بالإنصاف مَن بُسِطَتْ بالقدرة يَدَاه» أخت الجملة التي قبلها من أب وأم ، وهي من الفطرة ، وإنما قال بالإنصاف ولم يقل بالعفو لأنه لم يشأ أن يَطْلُب من صاحب الحق العفو ، وإن كان أقرب للتقوى ، وإنما أَقَرَّ له حق القصاص ، ولاحظ أن هذا والذي قبله من الأصول العامة ، وأن ذكاء الرجل لم يشأ أن يُحدِّث السلطان بالذي يَخُصُّه ؛ وإنما ذكر أُصُولاً عامة ، والسلطان أحرى بأن يراعي هذه الأصول العامة ، وأن بَسْطَ اليد بالقدرة مع حالة من يرفض العفو ويحرص على أخذ حقه قد تغري بالزيادة ، والإفراط في أخذ الحق ، فذكر الإنصاف ، الذي هو أخذ الحق من غير زيادة ، وأن الأصل في القضاء العادل ليس فقط أن ينصف المظلوم بأخذ حقه ، وإنما أيضًا أن يُنْصِفَ

الظالم فلا يُزَادُ في عقابه عن مثل ما فعل ، وقد كرر القرآن ذلك كثيرًا وذكر أن جزاء السيئة سيئة مثلها أو سيئة بمثلها ، وقال العلماء إنه لو عوقب عن السيئة بمثلها ثم زِيدَ عليه مثقال حبة من خردل صار الظالم مظلومًا ، ولا شك أن من بُسطت يداه بالقدرة وهو طيب النفس مستقيم الفطرة محتفظ بشرف نفسه وكرم خلقه ثم هو مُصرٌّ على القصاص لنفسه ، لا ترى هذا يَقْبَلُ إلا الإنصاف الذي هو القسطاس المستقيم ، والله ـ سبحانه ـ يحب هذا الصنف لأنه سبحانه يحب المقسطين ، أما الذي يطلب المزيد من العقاب والانتقام ، مدفوعًا إلى ذلك ببسط قدرته فهذا صِنْفٌ آخر إذا كان من الناس فليس من كرامهم ، وإذا كان صاحب سلطان فهو شر وبلاء ، وغالبًا ما يكون من الذين أخذوا الإمارة بغير حقها ، وهي عليه حسرة وندامة .

ذكر ابن قتيبة نصًّا لابن المقفع قال فيه : « لا يقذفنّ في روعك أنك إن استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك فيقطعك ذلك عن المشاورة ، فإنك لا تريد الرأي للفخر ولكن للانتفاع به ؛ ولو أنك أرَدَتْ الذكر كان أحسن الذكر عند الأولياء أن يُقال لا يَنفَرِدُ برأيه دون الرأي من إخوانه » .

وكنت أقول دائمًا إن ابن قتيبة شديد الحفاوة بما يرتفع به مستوى عامتنا ؛ وشديد الحفاوة بإيقاظ عُقُولِ أهل الغفلة من أبناء الأمة ، لأن الأمة كلها يجب أن تكون على درجة من الوعي واليقظة حَتَّى تكون دائمًا لها خطوات في طريق التقدم ، وهذا النص لابن المقفع ظاهر في أن ابن المقفع من أصحاب هذه الغاية النبيلة ، وهو في هذا النص أشد قُربًا إلى عامتنا من ابن قتيبة ، ولاحظ أنه لا يخاطب من يعتقد أن المشورة عجز ، وإنما يخاطب من يمكن أن يَظُنَّ في

المشورة عجزاً ، فقال «لا يقذفن في روعك» يعني تحذير من احتمال أن يرد في خاطرك هذا ، ولا يمكن أن نتصور شخصًا يظن المشورة عجزاً إلا إذا كان شخصًا من جملة عامتنا المتخلفين ، لأن عامتنا يستشيرون ، والذي يخشى ابن المقفع أن يقذف في روعه أن المشورة عجز كأنه يعيش خارج هذا الكوكب ، لأن كل من يعيشون عليه يعلمون أن الله ـ سبحانه ـ أمـر كل أنبيائه من نوح إلى سيدنا رسـول الله بالمشورة ، وأنزل في القرآن سـورة اسمها الشـورى وقال في أولها : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الشورى:٣) ومعنى كذلك أي مثل هذا الوحي الذي أوحاه الله إليك أوحاه سبحانه إلى الذين من قبلك من أنبيائه ، وفهم أهل العلم من هذا أن كل ما في سورة الشورى أوحاه الله إلى كل أنبيائه ، وفيها : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى:٣٨) وفيها : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١) وفيها : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ ﴾ (الشورى:١٣) وهذا ظاهر في أنه من عموم رسالات الأنبياء عليهم السلام ، ومن شأن علمائنا أن عيونهم على كل أبناء الأمة إذا رأوا خللاً بادروا ببيانه ، وإذا رأوا احتمال خَلل بادروا ببيانه ، وهذه رسالتهم التي لا يجوز أن نُفـرِّطَ في شيء منها لضمان دوام العافية في كـل أبناء الأمة ، لأنهـا لا تنهض ولا تتقدم إلا بهذا ، وتلاحظ أن ابن المقفع يناقش هذا الرجل على قدر عقله ويقول له إن المراد بالمشورة هو طلب الصواب الجالب للمنفعة ، ولا شأن لها بالفخر ، وإذا كنت تريد الفخر فلأن تَفخَر بأنك تُشَاوِرُ أكْرَمُ وأفضل وأعقل وأحكم من أن تفخر بأنك لا تشاور ،

ولا يزال الناس يقولون في ذكر فضائل الرجل : « إنه لا ينفرد برأيه دون الرأي من إخوانه » فهذا هو ذكرك وفخرك عند عقلاء الناس وعلمائهم .

ثم إن ابن قتيبة لما ذكر المشورة أَتْبَعَ ذلك بما يُفيدُ ضرورة أن تختار أهل المشورة من أمناء الناس ، وأهل الصدق ، وأهل الإخلاص الذين يحبون عطاء ما عندهم من فهم ، وخَيْر للناس ، ولابد أن تتجنَّب غيرهم ، لأن مشاورة من ليسوا أهلاً للمشورة أضر بك من عدم المشورة ، وأكتفي في الإبانة عن هذا وعن الذي هو أوسع منه بنص نقله عن ابن هبيرة ، وابن هبيرة ، وابن المقفع وابن قتيبة ومثلهم كثير غابوا عن حياتنا الفعلية وغاب بغيابهم عنا خير كثير .

من دعاء ابن هبيرة

قال ابن هبيرة : « اللهم إني أعوذ بك من صُحْبة من غايته خاصَّةُ نَفْسِه والانحطاط في هوى مُسْتَشيره ، ومِمَّنْ لا يَلْتَمِسُ خالِصَ مَوَدَّتِكِ إلا بالتأتيّ لموافقة شَهْوَتِك ، ومن يُساعِدُكَ على سُرُور ساعتك ولا يفكر في حوادث غدك » وترى ابن هبيرة في هذه الكلمات بليغ الإحساس بمعناه ، بليغ البيان عن معناه ، وكلامه هذا يختلف عن كثير من النصوص التي نقلناها في المعاني القَرِيبَةِ من هذا المعنى ، وهو لم يكتف بتصوير هذا النموذج البالغ الرداءة ، وإنما أضاف إلى ذلك شِدَّة احتقاره له ، وشِدَّة إبْعاده عنه ، وعن كل ذي مروءة ، وأول شيء بَدَأَكَ به ، نداؤه لله الموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص أن يعيذه الله من صُحْبَةِ هذا النموذج ، وكأنه يقول لي ولك ليست الاستعاذة بالله خاصة بالاستعاذة من الشيطان الرجيم الذي أخبرنا ربنا أنه عدو لنا مبين ، وإنما هناك من الناس حَوْلَكَ ومن لَهُم حِيَلٌ وطرائق في القرب منكم مَنْ يُسْتعاذُ بالله منهم كما يستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، وراجع أول صفة وصفه بها ، وهي

أُمُّ وأصْلُ وجذر معاني هذا النص ، وهي قوله : «مَنْ غايته خاصة نفسه» وليس في الأنانية والأَثَرَةِ والخَسَاسَةِ والدناءة أخصر وأبلغ من هذا الوصف ، ويَـرُوقُني جدًّا أن ابن هبيرة يرى الإنسان الذي لا يعرف إلا نفسه وحَاجَات نَفْسِهِ على هذا المستوى الذي يستعاذ بالله منه ، وأن الأصل في الإنسان عند ابن هبيرة أن يكـون مُحِبًّا لغيره كحُبِّه لنفسه ، مراعيًا مصالح غيره كما هو مراع لمصالح نفسه ، وأن المنكفئ على ذاته لا يعرف إلا هي ، لا يجوز أن يُقَارَبَ وإنما يجب أن يُعْـزَل مع هذه النفس التي لا غاية له إلا هـي ، وهـذا ما يجـب أن تكـون عليـه حيـاة الناس ، لأنهـا لا تسـتقيم إلا عليـه ، وقولـه : «الانحطـاط في هَـوَى مستشـيره» مولُودَة من رحم «غايته خاصـة نفسـه» وكلمـة «غايتـه خاصـة نفسـه» وكلمـة (الانحطاط) كلمة جيدة وواقعة موقعها ولا شك أن من استشـاره قاربـه ورضـيه وأتمنه ، وهذا لم يُغيِّر منه شيئًا وظل هَدَفُه أن يُقَارب هواكَ ولم يفكر لحظة في الأمر الذي تستشيره فيه ، وإنما أعمل عقله في الذي تهواه ، وترغب فيه ، ليشير عليك به ، ولو أعمل عقله في الأمر الذي تستشيره فيه ورأى مصلحتك فيه هـي كذا لأصاب ، ولكنه لم يَقْصِـدْ إلى ذلـك ، وقـد ذكـروا أن مسـؤولاً سـأل أحد جلسائه وقال له (كم الساعة الآن) فأجابه بقوله (عاوزها كام) وهـذا خطـر هـذا الصنف ليس على المسؤولين وإنما على المسؤولين وغير المسؤولين ، وقولـه : «وممن لا يلتمس خالص مودتك إلا بالتـأتي لموافقـة شـهوتك» وهـذه أيضًـا مولودة من رحم ما قبلها ، وإن كانت تزيد شـيئًا عـن الانحطـاط في هـوى مـن يستشيره لأنه هنا يَلْتَمِسُ خالص المـودة لـيس بالصـدق ، والصـواب ، وشَـرَفِ النفس والبحث عن السَّدَادِ في الذي أستشيره فيه ، وإنمـا بِحِيَلِـهِ وبراعـة سـلوكه حتى يعرف ما يوافق شهوتي ويشـير علـيّ بالـذي يوافـق هـذه الشـهوة ، ولـيس

بالذي هو الصواب وافق هذه الشهوة أو خالفها ، وكأن فكرة المشورة قد دمَّرها وأخذ يبحث عن الذي أُحِبّ وليس الذي هو أنفع ، وقوله : « ومن يساعدك على سرور ساعتك ولا يفكر في حوادث غدك » هذا إجمال لكل الذي مضى ، وهو لا يُسَاعِدُك على سرور ساعتك لتتمتع بسرورها ، لأن الذي يَعْنيه هو أن ساعة السرور تُتيحُ له أن يتقرب منك أكثر لأنه يحسن أن يتأتى لموافقة شهوتك ، وقد قلت إنه ذكي ولو أعمل عقله في الذي يُستشارُ فيه لوقع على ما ينفع ، واستخرجت هذا المعنى من قوله « ولا يفكر في حوادث غدك » لأن معناها أنه إن فكر في حوادث غدك لأدركها ولنبهك في لحظة سرورك إلى خطر في غدك ، وأظهر ما في هذا النموذج هو غلبة حُبِّه لنفسه على كل شيء ، يعني غلبة أَنَانِيَتِهِ على كل شيء ، حتى إنه في كل شيء ينظر إليه لا غاية له من النظر فيه إلا البحث عن شيء يخرج به منه ، هو يفكر كل لحظة في الأخذ ، ولا يفكر لحظة في العطاء ، وهذا هو النموذج الخطر ، ولم يخل التاريخ من وجود نماذج من هؤلاء حول المسؤولين ، وإنما ينجو منهم من رحم ربك مثل ابن هبيرة ، وإنما يكثرون ويَقَلُّون حول السلطة تبعًا لقوة الزمان وضعفه بقوة السلطان وضعفه ، وقد يسّر الله لعباده معرفة أحوال البلاد والعباد من غير حاجة إلى فلسفة ولا إلى تَنَطُّسٍ ولا إلى علم بالسياسة ولا بالكياسة ، وذلك بأن تنظر إلى الجماعة التي حول السلطة فإن كانوا أهل صدق ، وحب ، وبِرّ ، وعطاء ، فاطمئن على أرضك وقومك ، وإن كانوا من الذين لا يَعْنِيهم إلا ما يقعون عليه فادعوا الله بالسلامة ، واعلم أن الجدار الذي بين البلاد والجحيم لن يتركه هؤلاء وإنما هم قاصدون إلى هَدْمه حتى يقع الجميع في الجحيم ، واعلم أن هذا النموذج الذي استعاذ ابن هبيرة بالله منه كما يستعاذ من الشيطان لم يكن

فقط يتصيّد حول أهل السلطة ، وإنما كان يتصيد ما يتاح له صيده من أهل الثراء ، لأنه يعيش وليس عنده هدف إلا أن يأخذ من كل جهة يمكنه أن يأخذ منها ، وكثرته في البلاد شر ماحق وحارق ، ونسأل الله السلامة .

إصابة الظن

ومن أفضل ما يتحلّى به الإنسان مسؤولاً أو غير مسؤول إصابة الظن ، يَعْني أن يظن أو يتوَقَّع أنه سيكون كذا فيكون كما توقّع ، وكلنا في حاجة إلى إصابة الظن ، وإصابة الظن لا زمان لها إلا المستقبل لأن الماضي كان بالذي كان فيه ، والحاضر حاضر بالذي هو فيه ، والمهم الغد ماذا سيكون فيه ؟ وهذا لا يُشْغَل به إلا أهل الرُّشْد ، وأهل الحب ، والحرص على البلاد والعباد ، والله الذي قضى بأن يكون أمر البلاد في أيديهم هو الذي سَيُعينُهم ويُوفّقهم ويَهْديهم إلى خير البلاد والعباد إذا علم منهم صدق نواياهم ، وقد عرف التاريخ رجالاً كانوا كأنهم قُرَّاء للغيب كما قال سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ عن سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنه وعن أبيه : « إنه لينظر إلى الغيب من سِتْر رقيق » راجع السِّتر الرقيق الذي بينه وبين الغيب واسأل ما هو ؟ وكان سيدنا عمر يوصف بأنه مُحَدَّث بصيغة اسم المفعول ، يعني كأن أحدًا حدّثه بالذي سيكون ، ومن أشهر ما قيل في هذا وأدَقّه وأبْرَعه قول أوس بن حجر أحد سادة بني تميم في فضالة ابن كَلَدَة الأسدي أحد سَادة بني أسد ، وكانت الحرب بين تميم وأسد لا تهدأ إلا لِتَثُور .. ومع هذا فإن من شأن الكريم أن يعرف قدر الكريم ، كان معه أو كان عليه ، قال أوس :

الألمعِيُّ الذي يَظنُّ بك الـ ظنَّ كأنْ قَدْ رأى وقَدْ سَمِعَا



راجع قوله « كأن قد رأى وقد سمع » يعني هو لم يتوقع وإنما رأى الذي سيكون قبل أن يكون وسمع الذي سيكون قبل أن يكون ، أرأيت إلى أي مدى كان يكون السداد في الجاهلية ، وأوس بن حجر لم يدرك زمن رسول الله ﷺ ، ولم يكن هذا فَرْطَ ذكاء ، وصفاء نفس ، وصدق حَدْس ، وإنما هو قياس واستنباط ، لأن إصابة الظن تَعْني قراءة أحْدَاث الزمن الذي مضى بوعي ، ومعرفة أسبابها ، وسياق وَقَائِعهَا وأحداثها ، وأن الأسباب التي أنتجت أحداث الأمس إذا وجد في الحاضر ما يشبهها توقعوا وجود ما يشبهها في الغد ، وهذا يعني أن إصابة الظن راجعة إلى حسن قراءة الأمس وربط الأشياء بأسبابها ، ثم مراقبة اليوم ، والتدقيق في معرفة الأحوال والأحداث ، وأن بعضها ينتج بعضًا ، وهذه هي قيمة العلم بالتاريخ .

قال ابن قتيبة : « سئل بعض الحكماء ما العقل ؟ قال الإصابة بالظن ومعرفة ما لم يكن بما كان » والجيد في هذا الكلام أن الحكيم جعل العقل محصوراً في الإصابة بالظن ، وليس قيمته في تحليل ما هو فيه ، وإنما في أن يَتَخَطَّى المعلوم الذي هو فيه إلى المجهول ، وأن معرفته للمجهول ليست رجما بالغيب ، وإنما هي معرفة علمية ، مؤسسة على القياس والاستنباط ، وتُشْبِهُ أن تكون أكيدة ، لأنه لا قيمة لمعرفتك ما كان ما لم تنته بك إلى معرفة ما لم يكن ، ولن تنتهي بك معرفة ما كان إلى ما لم يكن إلا إذا دَرَسْتَ وحلَّلْت وراجعت أسباب ما كان ، ووعيت هذه الأسباب ، وأشباهها ، وأضدادها ثم نَظَرْتَ إلى الغيب ، وهو ظاهرٌ عندك ، وحينئذ ستدرك معرفة ما لم يكن ، لأن الأسباب لها نتائج واحدة أو متشابهة في الزمان الذي مضى ، وفي الزمان الذي نحن فيه ، وفي الزمن المستقبل ، ولذلك يوصف أهل الغفلة بأنهم لم يتعلموا من الزمن الذي

مضى ، وأنهم يكررون أخطاء الماضي ، وراجع قراءة هذا بوعي شديد لأن الخطوة الجديدة في العلم ليست إلا قياس المجهول على المعلوم ، وأن العلم في القُلوب والعقول الحيّة يتجدَّد وتفتحُ أبوابه المغلقة بقياس ما لا نعلم على ما نعلم ، وتعجب حين تذكر أن رسول الله ﷺ هدى الصحابية الجليلة التي قالت له إن أُمِّي نَذَرَتْ أن تحج فماتَتْ قَبْل أن تحج أفأَحُجُّ عنها ، وكان الجواب حُجِّي أو لا تحجي ، ولكن رسول الله ﷺ عَدَل عن هذا الجواب وسألها أرأيت لو كان على أمك دين أكُنْتِ قاضيته ؟ قالت نعم ، فقال لها فالله أولى بالقضاء ، وبذلك علَّمَها أن تَقِيسَ ما تَجْهل على ما تعلم ، وهكذا ينتج العلم علمًا ، وكل الاكتشافات العلمية داخلة في باب إصابة الظن ، وليست إصابة الظن مقصورة على العلم بأحوال الزمان ، وإنما من أجَلِّ أبوابها أن تطرق عقول العلماء الأبواب المُغْلقة حتى تُفْتَح ويصير المجهول الذي وراءها معلومًا .

نقل ابن قتيبة من كتاب من كتب الهند جاء فيه : « الناس حازمان وعاجز ، فأحد الحَازِمَيْن الذي إذا نَزَل به البلاءُ لم يبطر وتلقاه بحيلته وَرَأْيِهُ حتى يخرج منه ، وأحزم منه العارف بالأمر إذا أقبل فيدفعه قبل وقوعه ، والعاجز في تردّد حائر بائر لا يأتَمِرُ رشدًا ولا يطيع مرشدًا » .

لا أَمَلُّ من أن أكرر أن ابن قتيبة يَبْحثُ عن ثقافة الإنسان التي هي في حقيقتها إنسانية الإنسان ، وأنها واحدة بين الناس جميعًا ، وأن الذي في كلام الهنود هو الذي في كلام العرب وفي كلام الفرس وفي كلام اليونان ، لأُبدَّ لك أن تتناسى الأجناس والأعراق واللُّغات ، وأن تضع بين عينيك شيئًا واحدًا فقط هو الإنسان ، وتعجب حين يقول لك إن كتابه هذا ليس في الحلال والحرام ، وشرائع الدين ثم يَتّجه به في النهاية إلى الله ، لأن كتابه في الإنسان الذي هو

خلق الله ، المكرم عند الله مع صرف النظر عن أي شيء آخر ، لأن الله قال : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠) وأكّد لَكَ ذلك باللام وقد ، وبنو آدم أكثرهم كافرون وأكثرهم لا يعلمون .

وقول الهندي العريق الناس حازمان وعاجز من الكلام النادر الذي لا تجده إلا في كلام أصحاب البصائر النادرة ، لأننا جميعًا مع الحازم ، الذي يَتَلقَّى البلاء بِحِيلَتِه ورأيه حتى يخرج منه لأن هذا نفسه نادر جدًّا ، وبصيرة الهندي فتحت المعنى على الذي هو أحزم مِنَ الذي هو عارف بالأمر ومصيب في الظن ، وهو الذي يدفع البلاء قبل وقوعه يَعْني لا يَدَعُه حتى يكون بلاء ، وإنما يراه جنينًا في رحم الغيب ، فَيُنْهيهِ هُنَاك ، والملاحظ أن الهندي العريق الذي كتب هذا لم يقل السلطان وإنما قال الناس سواء كان منهم السلطان ، أو كان إنسانًا يرى الغيب من ستر خفي ، وليس سلطانًا وهو موجود في عامة الناس ، وقد رأته عين الهندي في الهند ويمكن أن تراه عَيْنَ العربي في العرب وعين الفارسي في الفرس .

صلاح الزمان بصلاح السلطان

ومن الذي نقله ابن قتيبة من حكماء الناس قولهم : « إن صلاح الزمان بِصَلَاح السلطان» لم يقولوا صلاح البلاد ولا صلاح الأحوال بصلاح السلطان وإنما قالوا صلاح الزمان ، يعني صلاح الليل والنهار ، وأفهم أن المراد بالزمان هو زمان هذا الشعب الذي صلح سلطانه ، وما دام قد صلح زمانه فلن تجد فيه فقرًا ، ولا جَهْلاً ولا عَجْزًا ، ولا يمكن لشعب صلح زمانه أن يكون من الشعوب المتخلفة ، ولا يمكن أن ترى فيه مُفْردةً من مُفْرَدات التخلف كالظلم ، والقهر ، والاستبداد ، وإذا كان متخلفًا قبل صلاح زمانه ، فهذا يعني أنه خرج من الظلمات

إلى النور وخرج من التخلف إلى التقدم ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الفساد إلى الإصلاح ، لا يمكن أن يكون إلا صاحب فكر متقدم ، وصاحب علم مبدع ، ومنتج ومتقدم ومخترع وصاحب صناعة متفوقة وزراعة متفوقة وجامعات متفوقة ومدارس متفوقة وكل هذا بصلاح زمانه الذي كان بصلاح سلطانه ، وقد رأينا هذا بأعيننا رأينا شعوبًا متخلفة ثم رزقت قيادات صالحة متميزة ومتفوقة فسلكت طريقها إلى التقدم بسُرْعةٍ فائقةٍ واسْتَغْنت بعد فقر ، وقويت بعد ضعف ، وصار فيها علم متقدم ، وطب متقدم ، وإنسان متقدم ، كما رأينا العكس رأينا شُعُوبًا سلكت طريق التقدم ، ثم ابتلاها الزمان الأسوأ بقيادات يَفْسُدُ بها الزمان فقطعت عليها الطريق .. والذي صلح بصلاحه الزمان لا تراه يتعلَّل « بالظروف العالمية » ، لأنه ما دام يصلح الزمان بصلاحه فهو لا شك قادر على أنْ يُخْرج حياة قومه من تقلبات الأزمان ، والأحداث ، كما لا تراه محتاجًا لأَلْسِنة تتحدث عن إنجازه ، لأنه يترك الإنجاز الذي هو الواقع يتحدث بلسانه ، ولسان الواقع لا يكذب ، ترى واقع بسطة الحياة لِقَوْمِه هي التي تَتحَدَّثُ عن نفسها ، وترى كرامة المواطن على تراب آبائه هي التي تُحدِّثك عن حقوق الإنسان ، وترى المصانع المُنتجة لأفضل الصناعات هي التي تتحدث عن واقعها ، وترى الزراعة المنتجة لأكرم الإنتاج هي التي تتحدث ، ترى الحياة ذات البهجة التي يعيشها قومه هي التي تحدثك عن نفسها ، وهذا لسان ليس في فم وإنما هو لسان الواقع ، أما الألسنة التي في الأفواه فإنك حين تراها تتحدث فإنك في الوقت نفسه ستجد الواقع أطبق فمه ، وهذا هو ما أفهمه من قولهم صلاح الزمان بصلاح السلطان ، لأني في هذه الحالة سأسمع الزمان يتكلم عن السلطان ولن أسمع السلطان يتكلم عن الزمان .

قلت : إن ابن قتيبة كان معنيًّا بِرفع مُستوى ثقافة وأفكار وَوَعْي الأمة ، لأنها

لن تنهض ولن تبقى قوية إلا بوعي كل أفْرَادِها العامة منهم والخاصة ، وأنه كان ينقل لها الواقع بكل ما فيه من خير وشر حتى يستقيم تصورها وتعلم أن الخير في الناس موجود وأن الشر كذلك في الناس موجود ، ولما ذكر أن صلاح السلطان يصلح به الزمان وقدّم لنا صورة رفيعة للسلطان الذي يصلح به زمان أمته أتبع ذلك بصور هي عكس هذه الصورة ، وذكرها في حكاية كانت مع عمرو بن عبيد أحد كرام علماء هذه الأمة .

قال ابن قتيبة : مرَّ عمرو بن عبيد بجماعة عكوف . فقال : ما هذا ؟

قالوا : سارق يُقطع . فقال : « لا إله إلا الله سارق السِّرِّ يقطعه سارق العلانية » ولم يكن عمرو من الذين يتزيدون ، وإنما كان صادقًا ومخلصًا لقومه وصريحًا في كل ما يجلب الخير للناس ، وهو لم ينكر هذا الذي رآه فحسب ، وإنما تعجب منه لأنه ليس فِعْلاً يُنْكَر فحسب ، وإنما تعجب كيف يكون في الناس ، وكيف يُبَاشرُ سارق العلن قطع يد سارق السر ، وسارق العلن رجل مجاهر بسرقته ويعلم أن الناس يعلمون أنه سارق ، لأنه لا يوصف بأنه سارق العلن إلا إذا كان بلغ به الفجور والاستخفاف بالناس وبالأخلاق وبالمروءة مبلغًا لا يزيد عليه أحد فيه ، وأن سارق السر يعلم أن السرقة خساسة ودناءة ، فتخفى فيها وستر نفسه وهو يباشر هذه الخساسة وهذه الدناءة ، وسارق العلن لا يجد حرجًا في أن يجاهر الناس بالخساسة والدناءة ، وهذا أبشع من السرقة ، ثم يزيد فجوره ويقطع يد سارق هو أكرم منه لأنه لم يشأن أن يباشر الخساسة والدناءة علنًا ، وما دام سارق العلن هو الذي يقطع ويقيم الحد فهو لا محالة أمير أو من في مرتبته ، فإذا كان السلطان الصالح يصلح به الزمان ، فهذا سلطان آخر في الجهة المقابلة ويفسد به الزمان والمكان والناس .

وعمرو بن عبيد هو الذي دخل على المنصور ومعه وفد من العلماء ، فتكلم الوفد وأفرط في الثناء على المنصور ، والمنصور يستحق الثناء لأنه كان عالمًا بالدين وكان فيه ورع ، وكثيرًا ما كان يبكي عند سماع الموعظة ، وكان عمرو الذي أمسك عن الثناء عليه يُحبّه ، وقد رآه يطوف حول البيت وهو فتى فقال لو أراد الله بهذه الأمة خيرًا لأسند أمرها إلى هذا الفتى من قريش وكان ذلك في عهد بني أمية ، لأن أبا جعفر كان من الذين أسسوا دولة بني العباس ولم يسبقه في الخلافة إلا أخوه أبو العباس ، ومع ذلك أمسك عمرو عن الثناء على المنصور ، وبدل الثناء ذكّره بالله وبالقبر وبالآخرة وبالجنة والنار ، فقال له المنصور أعنيّ بمن معك من العلماء ، فقال له ارفع علم الحق يتبعك ذووه ، ولاحظ أن سارق السر الذي يقطعه سارق العلن كان غالبًا في النصف الأول من القرن الثاني ، لأن دولة بني العباس قامت في النصف الأول من القرن الثاني ، واحذر أن تدين الزمن أو أن تدين القرون المفضلة ، واعلم العلم النافع وهو أن الزمن أي زمن لم يخل من الشر وأهله ، ولم يخل من الخير وأهله ، وفضل زمان على زمان هو كثرة الخير وأهله فيه ، وإذا أردت زمانًا لا شر فيه فابحث عن كوكب آخر ، ولا تنس أن سيدنا عثمان مبشر بالجنة ، وأنه تزوج سيدتنا رقية وسيدتنا أم كلثوم وقال له رسول الله ﷺ : «لو كانت لنا ثالثة لزوجناها لك» ، وأنه كان محبوبًا من قريش في الجاهلية حتى أن الأم كانت ترقّص ولدها وتقول له أحبك والرحمن حب قريش عثمان ، ثم كان منه ما كان ، وقلت لك هذا حتى تكون مثلي وأنا أتقبل وجود الأخطاء الكبار من كبار رجالنا ، ولا يزعجني أن أجد الخطأ في زمن سيدنا علي وسيدنا معاوية لأنك إن أردت إنسانًا لا يخطئ فابحث عنه في غير ولد آدم لأن آدم نفسه أخطأ .

ابن ميمون يذكر الفساد في زمانه

ثم ذكر ابن قتيبة نصًّا لسديف بن ميمون فيه من الفساد ما هو أبشع من الفاجر سارق العلن الذي وقف بصلف وجهالة يقطع يد سارق السر .

قال ابن قتيبة : قال سديف بن ميمون : « اللهم قد صار فيؤنا دولة بعد القسمة ، وإمارتنا غلبة بعد المشورة ، وعهدنا ميراثًا بعد الاختبار للأمة ، واشْتُرِيَتَ الملاهي والمعازف بسهم اليتيم والأرملة ، وحُكِّمَ في أبشار المسلمين أهْلُ الذمة ، وتولى القيام بأمورهم فاسق كل محلة ، اللهم قد استَحْصَدَ زَرْعُ الباطل وبلغ نهايته ، و اجتمع طريده ، اللهم فأَتِحْ له يدًا من الحق حاصدة ، تبدّد شمله ، وتفرق أمره ليظهر الحق في أحسن صوره وأتم نوره » .

وهذا الكلام مغاير لأكثر ما قيل ، فليس من باب شَرِّ السلطان من يخاف منه لبريء ، ولا من باب العجيبة التي يَقطع فيها سارق العلن سارق السر ، وإنما هي شكوى من طغيان الباطل على الحق الذي هو دين الله ، هي شكوى من إبعاد الدين عن حياة الناس ، فالفَيْءُ الذي هو مال المسلمين يقسم عليهم صار دولة بين الأغنياء ، فازداد الأغنياء غنًى وازداد الفقراء فقرًا ، والإمارة التي كانت مشورة صارت غلبة ووضع السيف مكان المشورة ، وهذا يعني أن إمارتنا تصير إلى السيف الأقوى ، ولا معنى لهذا إلا التنازع والصراع والدماء ، ثم إن الخلافة التي كانت اختيارًا صارت ميراثًا ، وذهب حقنا في الاختيار ، وصرنا هملا يتولى أمرنا وارث هذا الأمر ، وزاد البلاء وعم وطغى على فقرائنا ويتامانا وأراملنا ، وصارت سهامُهم التي يأكلون بها الخُبْزَ تشترى بها الملاهي والمعازف ، وهذا نهاية الاستهتار بذوي الحاجات ، وإهانة لهم واستخفاف بهم وبحياتهم ، وأرواحهم ، وزاد الأمر بلاء وكأن الإسلام أُلْغِيَ ونحكم أهل الذمة في أبشار

المسلمين ، وليس في مصالحهم فحسب ، وأبشارهم جلودهم ، وكأن أهل الذمة صاروا يهينُون المسلمين بالإيذاء الجسدي ، وأبشع من كل هذا أن أمر كل محلة أسند إلى فاسق ، وبعد ما بين ابن ميمون هذا الذي بيَّنه أعاد جملة اللهم لأنه يرفع الأمر إلى الله بعدما عرض هذا التَّغْيِير الذي مَحَا دينَ الله من حياة الناس ، بدأ يرجو من الله صلاح هذا الحال وهو لا يملك إلا أن يدعو الله بصلاح الحال، وكأنه يئس من الناس ويئس من النصح والموعظة ، ولم يعد يتوقع أن يجد أذنًا تسمع فمدّ يديه إلى الله ولخص الذي مضى في قوله « اسْتَحْصَدَ زَرْعُ الباطل » يعني أن الباطل بلغ غايته ونهايته ، كما قال « واجْتَمَعَ طريدُه» وكأن الباطل القريب نادى الباطل البعيد الذي كان قد طرد من الأرض لما كان الأمر في يد أهله ، ثم لما أسند الأمر إلى غير يَدِ أهله جاء هذا الباطل الطريد ، ثم لخص ابن ميمون حاجته من ربه وهي أن يُتيحَ لهذا الباطل الذي استولى على كل ربوات البلاد « يدا من الحق تبدّد شَمْلَه ، وتفرق أمْرَه ليعود الحق في أحسن صُوَرِه ، وأتَمَّ نوره» كان لابد لابن قتيبة أن يذكر هذا في تثقيفه لجماهير الأمة حتى لا يكون فيها من يعايش الباطل ، وإنما لابد أن ينكر الكل الباطل ، فمن استطاع أن ينكر بيده ، فلينكر بيده ، ومن لم يستطع فبلسانه ودعائه .

ذكر ابن قتيبة قول كعب إنِّي لاَ أجِدُ في كتاب الله أن الظلم يخرّب الديار ، فقال ابن عباس أنا أُوجِدكَهُ في القرآن قال الله ﷻ : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾ (النمل:٥٢) .

لاحظ أن ابن قتيبة كتب ما كتبه عن السلطة وهو يعمل في السلطة أو هو شديد القرب منها ، والصدق يتيح لك أن تقول ما شئت ، لأن الصدق نور يهدي إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، والظلم ليس ذنبًا كغيره من الذنوب وإنما

تحيط به صور وأحوال تشير إلى شدة بشاعته ، وإلى قوة غضب الله من فاعله ، وأوله اشتقاق اسمه من الظلمة لتنتقل بشاعته وظلمته إلى النفس من أول ذكره ، ومنه أن الله سبحانه وتعالى حرَّمه على نفسه قبل أن يحرمه علينا وقال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تتظالموا » ، وبدأ بقوله يا عبادي ، وما دمنا عباده فلن يسأله أحد عما يفعل ، والمهم أنني لم أعرف أن الله سبحانه وتعالى قال لنا في ذنب أنه حرَّمه على نَفْسه ، ثم إن الظلم هو اللفظ الذي يطلق على هذا الذنب ، ويطلق أيضًا على الشرك ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان:١٣) وكل هذا يعني أن أبشع ما يُرمى به الإنسان هو الظلم ، وأن أبشع ما يرتكبه الإنسان هو الظلم ، وإذا كانت السرقة ذنبًا مُحَدَّدًا ، والخمر ذنبًا مُحدَّدا ، والقتل ذنبًا مُحدَّدًا ، فإن الظلم له صور كثيرة جدًّا ، فمن أهنته فقد ظلمته ، ومن شهدت عليه زورًا فقد ظلمته ، ومن أخذت ماله فقد ظلمته ، ومن أخذته بذنب أبيه أو أخيه أو ولده فقد ظلمته ، وهو أكثر الذنوب التي تقع في حياة الناس ، وأكثرها امتدادًا واتساعًا ، أعني أنك إذا ظلمت الوالد وألقيته في قاع مظلمة ، فقد ظلمت أولاده إن كان له أولاد ، وظلمت زوجته إن كانت له زوجة ، وظلمت أباه وظلمت أمه وهكذا .

ولم أعرف معصية لها عقاب عاجل في الدنيا وهو خراب البيوت إلا الظلم ، مع أن عقاب الآخرة شديد جدًّا ، وهو كاف لكل معصية ، ولو سألت نفسك لماذا خص عقاب الدنيا بخراب البيوت ، وكان يمكن أن يكون بالمرض أو جفاف الضرع أو هلاك الزرع ، وقد تقول لك نفسك إن أكبر دواعي الظلم هو الأنانية وحب الذات والرغبة في التفرد والاستعلاء ، فناسب كل ذلك خراب البيوت ، لأن خراب البيوت هو آخر معاقل الخراب ، فقد تخرب الزروع

والضروع وتبقى البيوت ، ثم إن خراب البيوت بالظلم ليس بعيدًا عن سقوط الملك بالظلم ، لأن العدل أساس الملك ، فإذا سقط العدل بالظلم صار الملك لا أساس له ، والذي لا أساس له هو هدم ، فالحاكم الظالم الذي يتوهم أنه يحمي سلطانه وملكه بالظلم هو في الحقيقة يهدم ملكه ، وتعجب من ذكاء مؤمن آل فرعون وقالوا إنه ابن عم فرعون وهو يَتَوجَّهُ بالنصح لقومه وليس إلى فرعون ولا إلى ملئه ويقول : ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني غالبين فيها ﴿ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ﴾ (غافر:٢٩) يعني لو ظلمنا وقتلنا رجلاً يقولُ ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربه ، يرى هذا الرجل الصالح أن الملك الظاهر في الأرض إذا ظلم لا يجد ناصرًا من بأس الله الذي يسلطه الله على الظالمين ، ثم راجع الآية التي ذكرها ابن عباس : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾ (النمل:٥٢) فتجد البداية باسم الإشارة التي تميز المشار إليه أكمل تمييز ، ولهذا التمييز هنا معنى جليل ، والآية تقول انظروا هذه بيوتهم حالة كونها خاوية وسبب ذلك ظلمهم ، ومن لم يتعظ بذلك من الظالمين فلن يعظه إلا أن يرى بيته خرابًا بظلمه .

ذكر ابن قتيبة صوراً مضيئة لذوي السلطان الذين كان يدخل عليهم العلماء المخلصون الصادقون ويذكرونهم بالله ، واليوم الآخر ، وعذاب القبر ، ويحثونهم على العدل والرحمة ، وأنهم كانوا يستجيبون لذلك ويقربون هؤلاء العلماء ، ثم لم يشأ ابن قتيبة أن يَحْبِسَ عنك الصور المغايرة ، لأن همَّ الرجل أن يقدم لعامة قومه وخاصتهم الواقع بخيره وشره حتى تكتمل معرفتهم بالحياة ويتوقعون خيرها وشرها ، فذكر دعاء كانوا يدعون به إذا دخلوا على السلطان ، ويدفعون بهذا الدعاء شر السلطان عنهم وطغيانه عليهم وظلمه لهم ، ولا شك أن

هؤلاء لم يطلبوا الدخول على السلطان وإنما طلبهم السلطان ، ومن شأن من طلبه السلطان أن يكون حوله شيء دعا السلطان إلى طلبه ، وهذا الدعاء ليس زاخرًا بالخوف من السلطان فحسب وإنما هو زاخر باليقين بأن هذا السلطان شر كله ، وأنه لا يستعاذ بالله منه كما يستعاذ بالله من الشيطان ، وإنما فيه ما هو فوق ذلك ، قال ابن قتيبة : « وكانوا يتوقون ظلم السلطان إذا دخلوا عليه بأن يقولوا : باسم الله ﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾ (مريم:١٨) ـ ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (المؤمنون:١٠٨) ـ أخذت سمعك وبصرك بسمع الله وبصره ـ أَخَذْتُ قُوتَك بقوة الله ـ بَيْني وبينك سِتْرَ النبوة الذي كانت الأنبياء تستتر به من سطوات الفراعنة ـ جبريل عن يمينك وميكائيل عن يسارك ومحمد أمامك ، والله مطلع عليك ويحجزك عني ويمنعني منك ، ثم ذكر قول الشاعر :

وَنَسْتَعْدِي الأميرَ إذا ظُلِمنا ... فمَنْ يُعْدَى إذا ظَلَمَ الأميرُ

وقول الآخر :

كُنْتُ من كُرْبَتي أفِرُّ إليهم ... فهم كُرْبتي فأين الفرار

راجع هذا لأنه كلام ظاهر وكأنه يقول لك أنا جاهز لأن تستوعبني وما عليك إلا أن تراجع وتفتح قلبك وستراني أَتَخَلَّلُ قلبك وحدي ، هل تريد أحدًا يشرح لك ﴿ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾ وأن الاستعاذة بالرحمن إنما تنفع إذا كانت من الذين يعرفون رحمة الرحمن ، ويخافون الرحمن ويجعلون وقاية بينهم وبين عذاب الرحمن ؟ هل تريد من يشرح لك موقع كلمة الرحمن هنا ، وأن الداعي في مقام يرجو فيه الرحمة ، وأن غِلْظَةَ الوالي لِبَشَاعتها تستنزل عذاب الرحيم الرحمن ؟ هل أنت في حاجة إلى من يُنَبِّهك إلى ما في قوله : ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ وأنها من غضب الله على جَبَابِرَةِ

عباده الذين عاشوا يظلمون ، ويُنْكِرُون الآيات البينات ، وأن السلطان إن لم يكن منهم فهو أشبه الخلق بهم ؟ هل أنت في حاجة إلى من يعلمك أن قوله : (أخذت سمعك وبصرك بسمع الله وبصره) أن غايته أن يجعل سمع الله وقاية تقيه من سَمْعِك ؟ وأن بَصَرَ الله وقاية تَقِيه من بَصَرِك ، لأن سمعك ظالم وبصرك ظالم ؟ هل أنت في حاجة إلى من يَشْرَح لك قوله : (أخذت قوتك بقوة الله) وأن مراده أن درعي الذي يحميني من قوتك هو قوة الله ؟ هل أنت في حاجة إلى من يشرح لك قوله : « بيني وبينك ستر النبوة الذي كانت الأنبياء تستتر به من سطوات الفراعنة » وأن مراده أن التاريخ مليء بسطوات الفراعنة ولَسْتَ إلا واحدًا منهم ، ومليء بالصالحين الطاهرين الذين واجهوا سطوات الفراعنة ، وليس بينهم وبين هذه السطوات إلا ستر الله الذي حَمَاهُم من هذه السطوات وأهلكت هؤلاء الفراعنة ؟ هل أنت في حاجة إلى من يُبيِّن لك مراده من قوله : « جبريل عن يمينك ، وميكائيل عن يسارك ، ومحمد أمَامَك والله مطلع عليك » وأنه يفرغ على قلبه كل الأمان وكل الاطمئنان ما دام هذا الشيطان الذي هو السلطان محصوراً بين جبريل وميكائيل ومحمد ، وكل ذلك تحت سمع الله وبصره ؟

وقوله :

وَنَسْتَعْدِي الأميرَ إذا ظُلِمنا ... فمَنْ يُعْدَى إذا ظَلَمَ الأميرُ

لو سمعه أمير وفيه بقية من أي معنى إنساني لكف عن ظلمه للناس ، وبهذا نكتفي بالذي ذكره ابن قتيبة في باب السلطان .

* * *

كتاب الحرب

لا شك أن الحروب من أبشع ما يقع على هذه الأرض ، ولم أعرف حربًا مشروعة إلا حرب من يدفع عن نفسه ، أو حرب شعب أغار عليه شعب آخر أخرجه من أرضه كما فعل الصهاينة معنا ، هذه هي الحرب المشروعة ، وإن كان العالم الظالم يقول من حق إسرائيل أن تدافع عن نفسها ، وليس من حق الفلسطينيين أن يدافعوا عن أنفسهم وبيوتهم ، وقال لنا ربنا : ﴿ **فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ﴾ (البقرة:١٩٤) فحدّد دفاعنا عن أنفسنا بمثل الاعتداء علينا ، ولم يُبح لنا الزيادة ، بل نهانا عنها ، وقال لنا لا تعتدوا ، ولم يكتف بهذا وإنما أتبعه بقوله : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ** ﴾ (البقرة:١٩٠) فإذا اعتديتم على غيركم فلستم من الذين يحبهم الله ، وهذا أخطر تهديد يواجهه المؤمنون بلقاء الله ، وحسابه وعقابه ..

ولم تكن الفتوحات الإسلامية حَربًا ولا اعتداء ، وإنما كانت لكسر جبروت الذين يحولون بين الناس وبين اختيارهم للدخول في الإسلام ، ولم يحمل مسلمٌ واحدٌ في التاريخ كله سيفَه ليُدخل أحدًا في دين الله بالسيف لأن الله حرم هذا ، ونهانا عن إكراه الناس على الدخول في دين الله وقال : ﴿ **لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ** ﴾ (البقرة:٢٥٦) وكان المجاهدون الفاتحون ينزهون جهادهم عن مطامع الدنيا ، والذين يقولون إن الفاتحين إنما خرجوا للمغانم وللثروات والخيرات التي في البلاد المفتوحة والتي لم تكن في بلادهم يُشوّهون صورة

الجهاد وصورة الفتح ، وهم أنفسهم الذين يقولون إن الفتوحات الإسلامية كانت احتلالاً ، وأن عمرو بن العاص احتل مصر ، وأن المسلمين احتلوا القسطنطينية ، واحتلوا الأندلس ، وأن معاوية كاتب وحي رسول الله ﷺ احتل الشام ، وأن سعد ابن أبي وقاص احتل فارس ، وكأنهم يدعون شعوب هذه الأرض ويحرّضُونهم على المسلمين ليخرجوهم من أرضهم ، وهذا من الغباء المحض لأن الفرس صاروا مسلمين ، ولأن المصريين صاروا مسلمين ، ولو أخرج الفرس المسلمين من أرضهم لأخرجوا أنفسهم ، ولو أن المصريين أخرجوا المسلمين من أرضهم لأخرجوا أنفسهم ، اللهم إلا إذا كان المراد أن يرتد الفرس عن دين الله ، وأن يرتد المصريون عن دين الله ، وهذا غباء أبشع ، ومن تمام الكلام أن هؤلاء أنفسهم وهم جماعة التحديث والتنوير هم الذين يُجيزُون الكلمة القبيحة التي أكره أن أنْطِقها وأنا مضطر إلى كتابتها لبيان بشاعتها وهي كلمة (ازدراء الأديان)، وهي تعني ازدراء الأديان من زمن نوح عليه السلام إلى زمن سيد الثقلين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، وازدراء كل رسل الله والعياذ بالله ، وكل كتب الله ، وكل شرائع الله ، وهذا لا يقول به ولا يجيزه إلا ملحد عريق في الإلحاد ، وله أن يكون ما يريد ، ولكن ليس له أن يخاطب الناس بما يسوء المسلمين وغير المسلمين من أهل الكتاب ، بل إنه يسيء إلى البُوذي والهندوسي ، لأن الكل له دين سماوي أو أرضي ، وتعجب أن تخرج من بلادنا هذه الأصوات التي لم يَعَرف الحاضر ولا الماضي أحط منها ، والمهم في سياقنا أن الحرب أسوأ ما وقع ويقع على هذه الأرض ، وكانت الحرب في الجاهلية من أسوأ ما يقع بين العرب ، والغالبُ فيها يَأخُذُ أَوْلَادَ ومَالَ ونِسَاءَ المغلوب ، وكانت الفروسية وتعليم الحرب جزءًا من الحياة ، لأن هذه الفروسية وهذه الأدوات وهذه الخيل

هي وحدها التي تحفظ الحياة ، ولم تكن لهم شريعة ، وإنما من غلب سَلَب ، وهذه الحروب هي التي صَنَعَتْ فرسان الجاهلية ، من أمثال عنترة الفوارس ، وعتبة بن الحارث بن شهاب ، وأبي براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة ، وزيد الخيل ، وبسطام بن قيس ، والأُحَيْمر السعدي ، وعامر بن الطُّفَيْل ، وعمرو ابن معد يكرب ، وقد ذكرهم ابن قتيبة وذكر معهم فرسان الإسلام وأولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، ورجال الأنصار ، وقد ذكروا أن صفوف المسلمين لم تنتظم في الحرب إلا بعد ما دَخَلَ أبناء قَيْلَةَ في دين الله ، وأبناء قيلة هم الأوس والخزرج ، وهم من اليمن انتقلوا إلى المدينة قبل الإسلام بزمن ، ومن أبطال الإسلام عبد الله بن حازم السلمي ، وعباد بن الحصين ، وعمرو بن الحُبَاب ، وقطري بن الفجاءة ، وحرين بن هلال السعدي ، وشبيب الحروري ، وقالوا ما استحيا شجاع قط من أن يفر من عبد الله ابن حازم ، وقطري بن الفجاءة ، وقال عبد الله بن الزبير وهو من أشجع الناس كأبيه ، التقيت بالأشتر النخعي يوم الجمل فما ضربته ضربة حتى ضربني خمسًا أو ستًّا ، ثم أخذ برجلي فألقاني في الخندق وقال والله لولا قرابتك من رسول الله ﷺ ما اجتمع منك عضو على آخر ، وقرابته من رسول الله ﷺ أن أُمَّنا عائشة خالته لأنه ابن أسماء بنت أبي بكر ، وأبوه الزبير بن العوام ابن عَمَّة رسول الله ﷺ ، وأمه صفية بنت عبد المطلب ، وقالوا إن أمنا عائشة أعطت الذي بَشَّرها بنجاة عبد الله من الأشتر النخعي عشرة آلاف درهم ، وعبد الله بن الزبير كان يحارب مع علي ـ كرم الله وجهه ـ ، وأبوه الزبير كان يحارب مع معاوية كاتب وحي رسول الله ﷺ ، وأمنا عائشة قالوا كانت مع معاوية ، وقرأتُ نفيًا لذلك ، وإنما كانت تحاول أن تصلح بين الطائفتين ، ولا شك أنك مثلي تكره

الحرب ، وتكره دعاتها في التاريخ كله وخصوصًا في زماننا ، وأنت مثلي أيضًا لا تطيق رؤية وجه الذئب الذي شَنَّ حربًا على شعب ليس بينه وبين هذا الشعب أي صلة ، وإنما أعطاه رئيس هذا الشعب مساحة من أرض الشعب ليقيم عليها قاعدة عسكريّة ، ثم رمى بيوت هذا الشعب بالقذائف الحارقة التي أحرقت الأطفال والنساء ، وأعجب لهؤلاء كيف ينامون ؟ وكيف يأكلون ويشربون ؟ وكيف يُعدّون من ساسة العالم ؟

ومن الشعر الذي ذكره ابن قتيبة في عدة الحرب قول عمرو بن معديكرب:

أعاذل عُدَّتِي بَزِّي ورُمْحي ... وكل مُقَلَّصٍ سَلِسِ القِيَادِ

أعاذل إنَّني أفنى شبابي ... إجابتي الصريخ إلى المنادي

مع الأبْطال حَتَّى سُلّ جِسْمِي ... وأقْرَحَ عَاتِقِي حَمْلُ النِّجادِ

ويبقى بعدَ حِلْم القوم حِلْمِي ... ويَفْنَى قبل زَادِ القوم زادي

تَمَنَّى أن يلاقيني أُبيٌّ ... وَدِدْتُ وأينما مِنِّي وِدَادي

تمناني وسَابِغَتِي قميصٌ ... كأن قَتِيرَها حَدَقُ الجَرَادِ

وسيف من لدن كنعان عندي ... تُخيِّر نَصْلُه من عَهَد عادِ

فلو لاقيتني للقيت لَيْثًا ... هَصُورًا ذا ظُبًا وشَبًا حدادِ

ولاسْتَيْقَنْتَ أن الموت حق ... وصرَّح شَحْمُ قلبك عن سواد

أُرِيدُ حياتَه ويُرِيدُ قَتْلِي ... عَذِيرُك من خليلك من مراد

راجع الشعر لتدرك اللحمة التي بين بزِّه (يعني سلاحه) ولحمه ودمه وفرسه السلس القياد ، وأن حَيَاته كلها تحت رمحه وبَزِّه وإجابة الصريخ ، وأن عاتقه تَقَرَّحَ من حَمْل نجاد السيف ، وأنه مع كل هذه الشراسة في الحروب يَفْنَى حِلْمُ

قومه ويَبْقَى حلمُه ، لأن كل هذه الشراسة على أعداء قومه ، وليس لقومه إلا الحلمُ والحبُّ واللِّينُ ، وهؤلاء هم الرجال الذين يُذْكَرون ، أما الذين ترى شراستهم على أبناء بلادهم ، وترى لينَهم على أعداء بلادهم فهم عبيد خونة ، والمهم أنه وصف سيفه وأنه عنده متوارث من زمن كنعان ، وكنعان أبُ النمروذ الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ، وهذا السيف الذي عِنده من لدن كنعان نصله أقدم من كنعان ، لأنه تُخيّر من عهد عاد ، والزمن الذي بين كنعان وعاد ز من طويل جدًّا ، لأن عادا كان أول أجيال الأرض بعد نوح عليه السلام ، وقد قال هود عليه السلام لقومه : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ (الأعراف:٦٩) وإبراهيم عليه السلام الذي كان في زمن النمروذ بن كنعان زمنه متأخر جدًّا عن زمن هود ، وقد كتبت هذه الأبيات لهذه الإشارة وهي شِدَّةُ حِرْصِ آبائنا على صناعة سلاحهم بأيديهم ، منذ أول فجر التاريخ ، لأن عادًا من أجدادنا الأوائل في أرضنا الأولى التي هي الأحقاف التي ترى فيها الآن ما ترى ، وعاد عُرِف في التاريخ بالحكمة ، وهو جَدُّ لقمان الذي آتاه الله الحكمة ، وأكرر أن آباءنا الأوائل منذ عاد صَنَعُوا سلاحهم بأيديهم ، لأن سلاحهم كطعامهم وشَرَابِهم هو الذي يحمي حياتهم ، وأن من يصنع غيره له سلاحه لا يحمي أرضًا ولا عرضًا ، وسلاحنا كرغيف خبزنا كلاهما تَصْنَعُه أيدينا ، لأن حاجتنا إليه الآن أشد من حاجتنا إليه زمن عاد ، لأن العالم الآن تسوده الغَطْرسةُ والأنانية وحب التغلب والسلب والنهي ، وأن الذي لا يحمي نفسه وأرضه فهو ضائع وأرضه ضائعة .

طلب سيدنا عمر بن الخطاب من عمرو بن معديكرب أن يصف له الحرب فقال عمرو :

الحـــربُ أولُ مَـــا تكـــونُ فَتِيَّـــةً تَسْـــعَى بزينتـــها لكـــل جَهُـــول

حـــتى إذا حَمِيَـــتْ وشَـــبَّ ضِـــرامُها عـــادت عجـــوزًا غـــير ذات خليـــل

شَـــمْطَاءُ جَـــزّتْ رأسَـــها وتنكّـــرَتْ مكروهـــةً للشـــم والتقبيـــل

لاحظ الحسناء التي تسعى بزينتها لكل جهول ، وهذا الجهول هو الذي عبروا عنه بالسفيه ، والمراد الفتيان الذين يسعون إليها ، وقوله « حَمِيَتْ وشبَّ ضِرامها » فيه نفح من كلام زهير « وتضريَ إذا ضريتموها فَتَضْرَمِ » ولـو وَضَـعْتَ وصـف زهير للحرب بجوار وصف عمرو بن معديكرب لظهر لك الفرق بين من يصف الحرب وهو كاره لها ، ومُحذِّرٌ قومه منها ، ومن يصفها وهو من أبطالهـا ، هـذا يقول تسعى بزينتها لكل جهول ، وهذا يقول وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ، وحكى عن سليمان بن داود عليه السلام أنه قال في الحرب : « حُلْوٌ أوَّلُها مُرٌّ آخرها » وحلاوة أولها ليست بعيدة عن تسعى بزينتها لكل جهول ، ومرارة آخرها ليست بعيدة عن مكروهة « للشم والتقبيل » . ومن كـلام العـرب في الحـرب قـولهم : « الحرب غشوم لأنها تَنَالُ غير الجاني » ، وقال أكْثَم بن صَيْفي حكيم العـرب : « لا حلم لمن لا سفيه له » ، أي لا قيمة لحلم قوم إذا لم تكن فيهم القدرة علـى حماية أنفسهم ، وأن دعـاة السـلام الـذين يحترمهـم النـاس هـم القـادرون علـى الحروب ، والمنتصرون فيها ، وقال الأحنف بن قيس : « ما قَـلَّ سُـفهاءُ قـوم إلا ذَلُّوا » . والمراد بالسفهاء رجال الحرب الذين يخوضون غمرتها ، وقـال النابغـة الجعْدي :

ولا خَيْـــرَ في حِلْـــمٍ إذا لم تكـــن لـــه بـــوادرُ تَحْمِـــي صَـــفْوَه أن يُكَـــدَّرا

وقد أنشد رسولَ الله ﷺ هذه القصيدة ، فلما أَنْشَدَ هذا البيت قال لـه عليه السلام : « لا يفضض الله فاك » ، فعاش ثلاثين ومائة سنة لم تسقط له ثنية ، ومعنـى هـذا

أن سيدنا عليه السلام رضى هذا المعنى وقَبلَهُ ، وكأنه يقول لنا احذروا أن تكونوا دعاة سلام وأنتم عاجزون عن مواجهة أشرس الحروب ، لأن دعوة السلام مع العجز عن الحرب زرايةٌ بكم ، احذروا من الحلم الذي ليست له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا ، كونوا حلماء حلم الأقوياء واحذروا من حلم الضعفة ، وقال أبو تمام وكأنه مخض زبدة هذا كله .

والحربُ تَرْكَبُ رأسِهَا في مَوْطنٍ ... عُدَّ السَّفيهُ به بألْفِ حليم

في ساعةٍ لو أنَّ لقمانًا بها ... وهو الحكيمُ لكان غيرَ حكيم

راجع صورة الحرب وقد ركبت رأسها ، وراجع المقامات التي لا تنفع فيها حكمة الحكماء ، والمقامات التي لو كان لقمان بها لكان غير حكيم ، قلت إن أبا تمام مخض زبدة ما قيل في الحرب ، ولا شك أن أبيات أبي تمام أشد اختصاراً من أبيات عمرو بن معديكرب ومن أبيات زهير ، وقال سيدنا عمرو ابن العاص لسيدنا معاوية ، والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان ؟ فقال معاوية :

شُجَاعٌ إذا مَا أمْكَنَتْنِي فُرْصةٌ ... وإنْ لَمْ تكُن لي فُرْصَةٌ فجبانُ

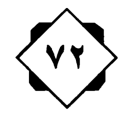
وقال سيدنا عمر : «لن تخور قواكم ما نزوتم ونزعتم» راجع الإيجاز الذي ذاق جوامع الكلم من فم سيد الخلق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، وأنا أحب كل من رآه ولو كان منه ما أكره . والمراد بقوله (نزوتم) أي : علوتم ظهور الخيل بقوة واقتدار ، وقوله (نزعتم) أي : رميتم بالقوس ، والجملة باقية مع أن الخيل لم تعد من أدوات الحرب وكذلك القوس ، لأن هذا المعنى المباشر لم يكن كل ما في العبارة وإنما في كلمة (نزوتم) معنى تَعَلُّقكم بالجهاد وحرصكم عليه ورغبتكم فيه ، من باب قوله عليه السلام : (كلما سمع هيعة طار إليها) ولم تَعُدْ

الحرب هَيْعة ، ولم تعد الفرسُ هي التي تحضرك الهَيْعة ، وإنما ما وراء ذلك من امتلاء قلوب أهل الله بحب الجهاد في سبيل الله ، والمدلول عليه بالذي وراء طاروا الذي وراء النَّزْو والنَّزع ، ويَعْلَم الله أننا مهما اجتهدنا في أن نتفادى الحرب فإنها لا محالة ستُفرض علينا ، لأن أشد الناس عداوة لنا الذين هم اليهود ، ولم يكتفوا بأنهم أشد الناس عداوة لنا وإنما يُحرِّضُون على نقل هذه العداوة الأشد إلى قلوب الناس كل الناس ، ثم إننا نلاحظ أن غير المسلمين وإن اختلفت دياناتهم وأعراقهم فإنهم يجتمعون ويتفقون على عداوتنا ، وقد أخبرنا رسول الله بذلك لما قال : «تَتَكَالَبَ عليكم الأمم» أي : تجتمع عليكم ، ولهذا كله شرع الله لنا شريعة في الحرب حتى لا تكون حربنا يوم تُفْرضُ علينا كحرب غيرنا ليس فيها إلا القهر والسَّلْب والنَّهْب والتَّخريب والتدمير ، قال ابن قتيبة : قال بعض الحكماء : قد جمع الله لنا أدبَ الحرب في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٤٥، ٤٦) واكتفى ابن قتيبة بهذا وتركنا نبحث عن أدب الحرب في الآية ، ولم أقرأ كلامًا يبيِّن أدب الحرب في الآية ، وسأحاول أن أُبـيِّن ما أستطيع بيانه مع يقيني بعجزي وأهم ما أكرمني الله به مع هذا العجز ، هو أنـَّني لا أترددُ في أن أقـول ما عندي ، وأول ما في الآية أن الله ـ سبحانه ـ نادى الذين آمنوا بأحب صفاتهم الدالة على مزيد قربهم منه سبحانه ؛ وهم أهل الجهاد في سبيله ، وأهل الدفاع عن دينه الذي ارتضاه للناس ، وهم الصفوة ، وهم العِتْرة ، وهم العصابة الباقية في الأرض تحمي العدل ، والحق ، والصدق ، والرحمة ، والإحسان ، ثم إنَّه سبحانه ناداهم بحرف النداء

الذي هو للبعيد ، وهم أقرب إليه من كل قريب ، ثم ذكر في النداء كلمة (أي) وهي مُبْهمة وهي وُصْلَةٌ لنداء ما فيه الألف واللام ، ثم أزال إبهامها باسم الموصول وصلته كلمة (الذين آمنوا) وهي التي لا يقبل الله أي عمل صالح إلا بها ، ولم يطمع أهل الله في شيء أفضل من طمعهم بأن يَصِفَهم خالقهم بأنهم آمنوا ، وذكر العلماء أن صيغة النداء هذه التي حللناها كثرت في القرآن لأن الله ـ سبحانه ـ لم يناد عباده إلا لأمر عظيم ، ثم إن الآية كلها جملة واحدة ، مكونة من أداة الشرط (إذا) وهي للشرط في المستقبل ، فإذا جاء بعدها الماضي كان في معنى الاستقبال ولا يقع الماضي في معنى الاستقبال ، إلا إذا كان المراد تأكيد وقوعه ، ثم إن إذا يؤتى بها في الشرط المتوقع ، وهذا يعني أن لقاءكم الفئة المحاربة يوشك أن يكون أمرًا حَتْمًا ، وهذه وصية الله لكم التي تجنبكم الهزيمة وتقطع لكم بالنصر ، وجملة الشرط هي (لقيتم فئة) وكل الذي بعدها جواب الشرط ، والمطلوب عند هذا اللقاء أولا (فاثبتوا) وأول خطوة في النصر هي الثبات عند لقاء العدو ، وأخطر الذنوب التولي يوم الزحف ، ثم إن الثبات محتاج إلى مَدَدٍ يَمُدُّه ويُقَوِّيه ويجعله دائمًا وباقيًا ، وليس أفضل في ذلك من ذكر الله ، الذي ينصركم ما دمتم تنصرون دينه ، الذي هو الحق والعدل والخير ، ثم أشارت الآية إلى أن الثبات والذكر يفضي بكم إلى الفلاح ، و«لَعَلَّ» في كلام الله مؤكدة للفعل بعدها ، ثم بعد هذه الفاصلة المبشرة (لعلكم تفلحون) انتقلت الآية للتحذير من أهم أسباب الفشل والهزيمة وهو التنازع ، وقبل النهي عن التنازع قال (وأطيعوا الله ورسوله) وطاعة الله تعني طاعة كتابه ، وطاعة رسول الله تعني طاعة سنته ﷺ ، والله فينا وَمَعَنَا في كل وقت بأمره ونَهيِهِ ، ورسول الله ﷺ معنا ومع الأجيال من بعدنا بسنته صلوات الله وسلامه عليه ،

وطاعة الله ورسوله نهي صارم عن التنازع ، ولكنه سبحانه قال ولا تنازعوا ليؤكد النهي عن التنازع عند لقاء الفئة المحاربة ، لأن هذا التنازع في هذا الوقت لا يَعْني إلا التدمير ، ولذلك عطف عليه الأثر البالغ السوء وهو الفشل بالفاء الدالة على الترتيب بلا مهلة ، وليس الفشل فحسب ، وإنما يتبع الفشلَ ذهاب الريح ، يعني القوة ، ومن ذهب ريحه في هذا السياق كأنه مات ، لأنه لا حياة لأحَدٍ بلا ريح ، ثم إن قوله وتذهب ريحكم معطوف على تفشلوا ، وتفشلوا وما عطف عليه الذي هو ذهاب الريح مترتب على تنازعوا ، وهما ممسكان بالتنازع الذي يؤدي إليهما لا مَحَالَة ، ثم أمر بالصبر بعد النهي عن التنازع ، وفيه معنى أنكم قد تجدون من بعضكم ما يُمكِنُ أنْ يفتح باب التنازع بينكم ، والمطلوب في هذه الحالة هو الصبر مع أن الصبر من متطلبات لقاء الفئة المحاربة ، وأننا مع الثبات والذكر قد تطول الحربُ وعلاج طولها هو الصبر ، وإذا كان الثبات والذكر يفضي إلى الفلاح فإن الصبر يفضي إلى ما هو فوق الفلاح وهو أن يكون الله معكم ، وإذا كان الله معكم فلا غالب لكم ، وبهذا يظهر أن أدب الحرب في الآية هو الأدب المفضي إلى النصر ، وليس الأدب الذي هو من نوع لا تُقْطَعُوا شجرًا ، ولا تقتلوا وَلِيدًا ولا شيخًا ولا امرأة ، وإنما ركّزت على الأمر بالذي يجب فعله ، والنهي عن الذي يجب تركه ، والحرب أمر ونهي ، وأخوف ما أخافه هو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾ وأن التنازع يُفْضِي إلى الفشل الدائم وذهاب الريح وإلف الهزائم ، وإنما أخاف من هذا لأننا في تنازع داخل شعوبنا ، وفي تنازع بين كثير من قياداتنا ، والفشل وذهاب الريح ، القبر أكرمُ منهما ، ومن كلام رسول الله ﷺ في أدب الحرب قوله عليه السلام : «لا تَغْلُوا ولا تغدروا ولا تمثِّلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليدًا»

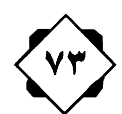
وقـال أبو بكر لقائد جنده : لا تحرقَنَّ نَخْلاً ولا تَخْرِبنَّ عامرًا ، لا أقول لك قارن هذا بالذي عليه حروب الدول المتحضرة في القرن الواحد والعشرين ، لأن كلام الله وكلام رسوله الذي هو بلاغ عن الله أجلّ وأكرم وأعلى وأسنى من أن يقارن بغيره ، وإنما أقول تدبر لترى الرحمة التي تحت ظلال السيوف ، وأنه حرب لم تكـن لولا أنها لِصَـدِّ العدوان ، ومن لم يَعْتَدِ كالشيخ العجوز والوليد والمـرأة لا يجوز الاعتداء عليه ، ثم إنها ليست حربًا لتخريب بلاد المعتدي ، وإنما هي حرب تحفظ العمران وتبقى الزرع والضرع ومـا به حياة الإنسان ، ولو كان معتديًا ؛ انظر الذي يجرى في العالم القريب والبعيد والذين يضربون البيوت بالحرائق القاذفة على رؤوس ساكنيها وهم قومهم وأبناء وطنهم ، وكل الذي طلبوه هـو الحق والعدل والحرية وكرامـة الإنسـان ، ولا أقول طالبوه بترك السلطـة لأن هـذا من الخروج على الحاكـم الـذي حرَّمـه الله مـا دام الحاكـم لم يكـن منه كفر بواح ، أي لا وجه فيه للتأويل ، ثم عليك أن تنظر نظرة أخرى وتسأل هل الآية التي فيها آداب الحرب ليست من السياسة ، ووصايا رسول الله ﷺ في الحرب ليست من السياسة ، وهل الحرب ليست من السياسة ، وراجع الذين يقولون لا سياسة في الدين هل قرؤوا الدين؟ أم أن الناس تَعَوَّدُوا أن يتكلموا في الدين بغير علم ، وأهمل تعليم الدين بل وأبعد عن المناهج حتى ركب الإلحاد ظهوراً كثيرة ، وظهر فينا متنورون لم يكفروا بالأديان وإنما زادوا وقاحة وسوء أدب ، وازدروا الأديان أعني ازدردوا النبوات والكتب والشرائع من نوح عليه السلام إلى سيد الثقلين ، ونحن إذا أردنا الاقتراب من عالمنا الإسلامي ذكرنا الأخوَّة التي هي رأس الأمة الإسلامية ، وإذا أردنا الاقتراب من الآخرين وأن عندنا حرية رأي أطلقنا ألسنة الهلافيت الذين يقولون



إن الفتوحات الإسلامية كانت احتلالاً ، وطمعًا في المغانم ، وقول رسول الله ﷺ «لا تغلوا» يعني : لا تبالغوا في القتل والتنكيل إذا غلبتم، «ولا تغدروا» يَعْني : أوفوا بالعقود ، «ولا تُمثِّلوا» أي : كفوا عن قتلى أعدائكم ولا تمثلوا بأحد منهم ، وقد غضب رسول الله ﷺ لما رأى من بين قتلى الأعداء امرأة ، لأنه عليه السلام نهى عن قتل النساء ولو حملن السلاح ، وهذه صفحة مضيئة في تاريخ الحروب على هذه الأرض ، وقد طواها ضعفنا وجهلنا .

وصايا أهل الله لجنودهم

ومن وصايا أبي بكر لجنوده قوله : «نَزِّهُوا الجهاد عن غرض الدنيا وأبشروا بالربح في البيع الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم» ولا أظن أن جماعة على هذه الأرض غيرنا ينزهون الحرب عن غرض الدنيا ، لأنها لم تحمل السلاح إلا لغرض الدنيا ، والجهاد أفضل عمل المسلم ، وقيل لرسول الله ﷺ دُلَّنا على عمل يَعْدِلُ الجهادَ قال «لا أجِدُ» ، ولو دخل فيه غرض دنيوي لم يعد جهادًا ، لأن شرط قبوله هو تنزيهه عن أغراض الدنيا ، وهذا من أكرم وأرفع ما يمكن أن يكون وإنما هو دفع للعدوان ، ونصر لدين الله ، واعلم أن نصر دين الله لا معنى له إلا نصر الحق والعدل ، والبر ، والرحمة على هذه الأرض ، ولو فهمت هذا وأنت غير مسلم لدخلت في صفوف المسلمين لنصرة الحق والعدل والبر والرحمة ، والتواصل ، والتراحم على هذا الكوكب ، ومن كان يجاهد لانتصار النور على الظلام على هذه الأرض تراه بطبعه يأنف من أن يكون هذا الجهاد الجليل الذي لا يباشر الإنسان عملاً أجل منه ، أقول تراه يأنف أن يكون لجهاده هذا غرض من أغراض الدنيا ، وكل من عنده فقه لمعنى



الجهاد في سبيل الله يجد في نفسه وهو في المَعْمعَةِ من السمو والتعالي وطهارة الضمير ما يجعل الإحساس بغَرَضٍ من أغراض الدنيا بعيدًا عن هذه النفس التي ارتقت إلى مرتبة الجهاد في سبيل الله ، وهذا التّسَامي وهذا الرقيّ هو الذي سماه سيدنا أبو بكر بالفوز العظيم ، ويستحيل أن يكون الانتصار في الحرب وتحصيل المغانم مع أغراض الدنيا فوزًا عظيمًا ، لأن الفوز العظيم خاص بالذي عند الله ، ومما يؤكد تنزيه الجهاد عن غرض الدنيا وتخليصه كله لله رب العالمين ، ولطلب الفوز العظيم الذي لا يوصف به ثواب في الدنيا ولو مثل أحد ذهبًا قول عمر لسعد بن أبي وقاص ، وحين تَجِدُ عمرًا يذكر سعدًا فاعلم أنها الذكرى التي تنفع المؤمنين لأن سعدًا ليس أقل علمًا ولا وَرَعًا من عمر ، قال عمر يذكِّرُ سعدًا حين أرسله إلى ملاقاة العدو : « إن تقوى الله أفضل العُدّة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وأن تكونوا أشَدَّ احتراسًا من المعاصي منكم على عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه ، وإنما يُنْصَرُ المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قُوْة لأن عَدَدَنَا ليس كعددهم ، ولا عُدَّتَنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم فضل علينا في القوة ـ وإن عليكم حَفَظَةٌ من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيله » .

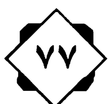
راجع هذا الكلام الذي يقوله كريم لكريم ، وإذا وجدت كلامًا قاله كريم لكريم فقف عنده أكثر لتتعرّف على حقيقته في قلب الكريم الذي قاله ، لأنه قاله لكريم يعلم أنه ليس أَقَلَّ منه في معرفة حقيقته ، واعلم أن هذا الكلام وإن بَدَا لنا جَدِيدًا هو ساكن في قلوب المسلمين من أول صدام كان بينهم وبين

المشركين في بدر ، وقد نبّه القرآن إلى أن هذه الحرب غير المتكافئة في العدد والعدة بين المسلمين والمشركين هي آية من آيات الله ، وذكرها ربنا في أول سورة آل عمران: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (آل عمران:١٣) وهذا المعنى قارٌّ في نفس عمر ، وقار في نفس سعد ، وقار في نفوس كل أصحاب رسول الله ﷺ ، ومن أهم ثمرات القراءة التي فيها تدبُّر أن نتبين قدرة العقل المتفوق على الإبانة عن المألوف إبانة غير مألوفة ، فوصية المجاهدين بتقوى الله والبعد عن معصيته شائع ومألوف ، وتميّز عقلية سيدنا عمر نَفَثَتْ في هذا الشائع المألوف نَفْثًا تميزّ به ، فذكر أهم أركان الحرب وهي ركن العدة ، وركن المكيدة ، وركن الاحتراس من جيش العدو ، وذكر أن تقوى الله أفضل من العُدَّة والمكيدة ، مع ضرورة البلوغ في إعداد العدة أعلى مبلغ لأن الله أمرنا بها وقال لنا : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال:٦٠) ، ومع بلوغ الغاية في هذا الركن وأعلى الغاية فإن التقوى تَفْضُله ، والتقوى هي مخافة الله التي بين جنبيك وعدَّتك الكاملة على عاتقك وفي يدك ، والمكيدة في الحرب من أوليات العلم بها ، وقال لنا رسول الله ﷺ : «الحرب خُدْعة» وأدنى قدر من التفريط فيها يَجْلب على الجيش كارثة ، ومع ذلك فتقوى الله أفضل منها ، وأن الذي بين جنبيك من مخافة الله وأنت تزاول المكيدة أفضل من المكيدة ، ثم إن الاحتراس من العدو يجب أن يكون في أعلى درجاته ، ومع ذلك فإن الاحتراس من معصية الله يجب أن يكون أعلى من الاحتراس من عدوكم ، وكأن سيدنا عمر يصور لنا ونحن

في المعمعة عدة أخرى غير العدة المألوفة ، وهي التقوى ؛ وعَدُوًّا آخر غير العدو الذي هو جيش العدو ، وهو أخطر منه وهو معصية الله ونحن في سبيله ، وجملة «أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم على عدوكم» جملة جليلة جدًّا ، وأن المعصية أقْتَل لك من الذي يرفع سيفه فوق رأسك ، ولا تقرأ هذه في كلامي يا عزيزي وإنما عُدْ إليها واقرأها في قلب وعقل عمر قبل أن يقولها لسيدنا سعد بن أبي وقاص خال سيدنا رسول الله ، وارجع بكلام سيدنا عمر إلى آية الأنفال ستجد كلام سيدنا عمر كله في كلمة «فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا» ، وجملة «فإن ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه» من الكلام العالي الجليل وهي تعليل للجملة قبلها ، وهي مما تتميز فيه الإبانة عن المعنى الشائع إذا صدر الكلام عن عقل متميز ، وراجعها وهي ساكنة في عقل عمر قبل أن ينطق بها ، وجملة «وإن عليكم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيله» هذه الجملة عامة للجنود وغير الجنود ، وكل عمل المسلم الذاكر لله عند طلوع الشمس وعند الغروب ، والمستغفر بالأسحار كله عمله في سبيل الله ، وأوله وأعلاه سعيه في معاشه وابتغاؤه من فضل الله ، وضربه في الأرض الذي ذكر في القرآن مقترنًا بالجهاد في سبيل الله ، ومن الخطأ الذي يجب أن يزول هو الاعتقاد بأن عملي الذي آخذ عليه أجرًا ليس في سبيل الله ، والصواب أنك ما دمت متجهًا إلى الله فأنت في سبيل الله ، أنت في سبيل الله وأنت داخل المصنع ما دام قد خطر في قلبك أنك ستجتهد في إتقان صَنْعتك لتتقدم بلادك وليَسْعَدَ ناسُك ، وأنت في سبيل الله والفأس في يدك ما دمت تطلب الرزق الحلال وتجتهد في زرعك لسد حاجات

بلادك ، اذكر مصلحة الأمة تكن في سبيل الله ، لأن الذي زَحْـزَحَ غُصـنَ الشـوك عن الطريق رآه سيدنا يتقلب في الجنة ، وقول سيدنا عمر «استحي من معصـية الله وأنت في سبيله» شامل للذي قلته ولأكثر من الـذي قلتـه ، وتـذكر أن أصـل عبادتك هو عمارة الأرض وخلافة الله فيها ، فما دُمْتَ تتحرك على هـذه الأرض وتعمل عملاً نافعًا فأنت في عبادة ، والذي في عبادة هو في سـبيل الله فاسـتحي من الملكين في الأحوال كلها ، وأشد مـن هـذا يـا مولانـا اسـتحي مـن الله لأنـه معكم أينما كنتم .

وقريب جدًا من الذي قاله عمر لسعد بن أبي وقاص ما نقله ابن قتيبة من كلام أبي الدرداء رضي الله عنه قال : «أيها الناس عَمَلٌ صالح قبل الغزو فإنما تقاتلون بأعمالكم» وليس فينا من يتوهم أن واحدًا من أصحاب رسول الله أو غيرهم من العلماء يتكلم في دين الله كلمة واحدة ليس لها أصل في الكتاب والسنة ، لأن الكل يعلم أن الدين كله لله ، وكل ما يكتبه العلماء إنما هو من وحي الله ، وأن سيـدنا رسـول الله ﷺ ليس له من الأمـر شيء وإنما عليه البـلاغ ، وقول أبي الدرداء أيها الناس كلمة مهمة وكأنه يريد من كل الناس أن يسمعوا هذه الجملة «وهي عمل صالح قبل الغزو» لأن ما بعدها سبب لها ، وإذا كان عمر صبَّ كلامه على تقـوى الله في حال الحرب ، وأنه أفضل من العُـدَّة والمكيدة ، فإن أبا الدرداء رجع إلى الوراء قبل لقاء العدو وذكر العمل الصالح قبل الغزو وكأنه يقول أعدوا الجيش قبل الحرب بالعمل الصالح ، والعمل الصالح يزيده قربًا من الله قبل أن يخرج للجهاد في سبيله ، حتى إذا خرج لم يكن له أي غاية إلا غاية واحدة وهي نصرة دين الله ، ولاحظ أن الجهاد في سبيل الله الذي يجب أن يكون منزهًا عن غرض من أغراض الدنيا ، وإنما نصر لدين الله والدفاع عن



دين الله كل ذلك وما هو من بابه لا معنى له إلا معنى واحد وهو الدفاع عن أرض المسلمين وأموالهم ودمائهم ، وأن هذا هو الدفاع عن دين الله ، وهو معنى نصرنا لله وهو ما يجب أن تبعد فيه عن نفسك أي غرض من أغراض الدنيا ، وهو ما فيه تقوى الله أفضل من العدة والمكيدة ، وهو ما تَعْمل صالحًا قبل الدخول فيه ، مع أنك تدافع عن أرضك وأرض آبائك ، ولو لم يوجب عليك الدين الدفاع عنها لأوجبت عليك الرجولة والمروءة الدفاع عنها ، وما دامت دخلت في رحاب الحق جل وتقدس صار لها من الشأن ما ليس لها حين تدافع عنها بدافع الرجولة والشهامة والمروءة ، وهكذا كل شيء صار له في الدين مدخل ، فسعيك في الأرض لطلب الرزق من غير أن يكون هذا السعي مصحوبًا بابتغاء فضل الله كان سعيك كسعي غيرك من غير المسلمين ، وقال القرطبي : إن النيات الصالحات تتحول معها المباحات إلى طاعات ، وأبو الدرداء يعلم أن قِمَّة الصالحات هو الجهاد في سبيل الله ، وأن الجهاد في سبيل الله لا يعدله عمل ، ومع ذلك دعا إلى عمل الصالحات قبل الجهاد ، يعني أنت تُعدُّ نفسك إلى العمل الأفضل بالعمل غير الأفضل ، لأن المقصود ليس طلب الثواب وإنما المقصود تَصْفِيةُ النفس بالعمل الصالح حتى تنتقل إلى العمل الأصلح ، وليس لها أي مأرب من مآرب الدنيا ، وقوله رضي الله عنه : « فإنما تقاتلون بأعمالكم » علة كما قلت لقوله « عمل صالح قبل الغزو » والفاء تفيد ترتيب ما بعدها على ما قبلها وأنه علة له ، وكلمة « إنما » تفيد القصر أي لا تقاتلون إلا بأعمالكم ، وبجانب هذا تفيد أن ما دخلت عليه لا يجهله جاهل ولا ينكره منكر ، وكأن قصر قتالنا على أعمالنا مما اتفقت عليه الأمة ، وهذا الذي اتفقت عليه الأمة هو أننا لا نقاتل بعدتنا ولا بعدَدِنَا مع أنه لا تفريط أي تفريط في عدة

ولا عَدد ، وإنما نقاتل بأعمالنا وكأن النّصر الحاسم في القتال ليس هو السلاح وليس هو العدد ، وإنما الأعمال التي في القلوب ، ونحن بهذه الأعمال التي في القلوب إذا رمينا كأن الله رمى ، وإذا قتلنا كأن الله قتل ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ ، ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ (الأنفال:١٧) ، وأنت أيها المسلم إذا أردت أن تَرْمِيَ بيد الله التي إذا رميت بها لم تُخْطِئْ لها رمية ، ليس المطلوب منك إلا شيء واحد وهو أن يكون الله في قلبك ساعة ترمي ، فإن كنت كذلك فلا غالب لك لأن الذي في داخل قلبك هو ناصرك وأنت ناصره حين لم يكن في قلبك إلا هو ، وهذا ليس طريقًا بعيدًا ولا متعبًا ، وإنما هو طريق ممتع لمن يَمُنُّ الله به عليه ، وهذا الذي قلته في كلام أبي الدرداء لا يزيد عن قراءة ظاهره وهو أعمق وأبعد غورًا مما قلت وأبعد وأعمق غورًا من كلام عمر .

ثم إن دين الله والجهاد في سبيله هو العدل ، وهو الرحمة ، وهو الإحسان ، وهو العطاء ، وهو العلم ، وهو الاستقامة ، وهو نفي الظلم ، والسلب والنهب والغَطْرسة والاستعلاء ، وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وهو مكارم الأخلاق ، والجهاد في سبيله جهاد في ذلك كله ، ومحاربته محاربة ذلك كله ، وكل هذه المعاني التي في دين الله هي من الفطرة والدفاع عنها دفاع عن الفطرة ، والفطرة هي إنسانية الإنسان ، ولم أعرف لا في كتاب ولا في سنة شيئًا يخرج عن هذه الفطرة ، وهذه هي قيمة الجهاد في سبيل الله ، وليس في الأمم أمة تخرج للجهاد في سبيل إحقاق الحق ، والعدل ، والخير ، والفطرة ، ومكارم الأخلاق ، ولو علم الجيش الذي يحاربنا حقيقة جهادنا وأننا ندافع عن الحق والعدل والخير وعن فطرته هو التي بين جنبيه لوضع سلاحه ومدّ إلينا اليدين .

شيوخ الروم ينظرون في الإسلام وأحوال المسلمين

وقد ذكروا أقوالاً لشيوخ الروم فيها أنهم كانوا يدركون شيئًا من هذا ، من ذلك أن ملك الروم سأل جنده الذين انهزموا أمام العرب وهم أكثر عددًا وأكثر عدة فقال له شيخ عاقل من جنده : « إن العرب إذا حملنا عليهم صبروا وإذا حملوا علينا لم نصبر ، وإذا حملوا علينا صدقوا وإذا حملنا عليهم نكذب ، فسأله الملك لماذا كان هذا منهم وكان ضده منكم ؟ قال الشيخ هم قوم يصومون بالنهار ويقومون بالليل ، ويُوفُون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يظلمون أحدًا ، ويتناصفون فيما بينهم ، ونحن نشرب الخمر ، ونركب الحرام ، وننقض العهد ، ونأمر بما يُسخط الله » انتهى كلام الرومي ، ولا يدهشك هذا لأن أهل الروم أهل كتاب وإن حرفوا وبدلوا ، وأكثر أهل الكتاب يعلمون أن الإسلام حق ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وتذكر قيصر لما سمع من أبي سفيان ما سمعه عن رسول الله ﷺ قال إن صح ما تقول فسيملك موضع قدميّ هاتين ، وتلاحظ أن ملك الروم يقيس الحروب بمقاييسها المألوفة في التاريخ كله ، وأن النصر فيها مع العَدَدِ والعُدَّة ، ثم رأى حرب المسلمين معهم خارجة عن هذا المألوف ، وهو لا يتصور أنهم لم يقاتلوا لدنيا يصيبونها ، وإنما يقاتلون لنصرة العدل والحق والصدق والرحمة ، وتثبيت ذلك في هذه الأرض التي يعيش عليها المسلم وغير المسلم ، هذا بعيد عن أفق ملك الروم ، ومما يدلك على أن ملوك الروم كانوا يراجعون ما في الإسلام ما رواه ابن قتيبة عن ملك الروم في زمن معاوية رضي الله عنه قال : كتب قيصر الروم إلى معاوية : « سلام عليك أما بعد فأنبئني أحب كلمة إلى الله ، وثانية ، وثالثة ، ورابعة ، وخامسة ، ومن أكرم عباده إليه ؟ وأكرم إمائه ؟ وعن أربعة أشياء فيهن

الروح ولم يرتكضن في رحم ؟ وعن قبر يسير بصاحبه ، ومكان في الأرض لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة ؟ والمجرة ما موضعها من السماء ؟ وقوس قزح وما بدأُ أمره ؟ فلما قرأ معاوية الكتاب قال : اللهم العنه ما أدري ما هذا ، فأرسل إلى ابن عباس يسأله ، قال ابن عباس فقلت : أما أحب كلمة إلى الله فلا إله إلا الله لا يَقبل عملاً إلا بها ، وهي المُنْجيةُ ، والثانية : سبحان الله وهي صلاة الخلق ، والثالثة : الحمد لله كلمة الشكر ، والرابعة : الله أكبر فواتح الصلوات والركوع والسجود ، والخامسة : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وأما أكرم عباد الله إليه فآدم خلقه بيده وعلمه الأسماء كلها ، وأكرم إمائه إليه مريم التي أحصنت فرجها ، والأربعة التي فيهن روح ولم يرتكضن في رحم فآدم وحواء وعَصَا مُوسى والكبش ، والموضع الذي لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة فالبحر حين انفلق لموسى وبني إسرائيل ، والقبر الذي سار بصاحبه فبطن الحوت الذي كان فيه يونس ، ولم يجب ابن عباس عن السؤالين الأخيرين المتعلقين بالمجرة وقوس قزح ، لأن هذا راجع إلى مراجعة في علم الفلك ، وليس فيه خبر عن الله ، وربما يكون الملك وضعهما لاختبار المسؤول هل يجيب بعلم ما يعلم وما لم يعلم يسكت عنه أم أنه ليس كذلك ، ومعنى قول سيدنا عبد الله بن عباس في الكلمة الثانية إنها صلاة الخلق أن كل ما خلق الله من إنسان وحيوان وطير وأرض وجبال ونجوم وشجر كله يسبح بحمده وهذا التسبيح هو صلاتها ، ولا شك أن معاوية كان يعرف كل هذا لأنه من كُتَّاب وحي رسول الله ﷺ ، وسمع منه قوله عليه السلام : «أفضل ما قلته والنبيون من قبلي لا إله إلا الله» ويعلم أن الله كرم آدم ، ويعلم قصة يونس في بطن الحوت ، ويعلم عصا موسى ، وكبش الفداء ، إلى آخره ، ولكنه كان مشغولاً بالذي هو فيه وكان ابن عباس مشغولاً بهذا ومثله .

المجاهدون المخلصون

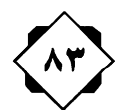
ذكر ابن قتيبة «أن مَسْلَمة بن عبد الملك حاصر حصنًا فندب الناس إلى نقب منه فما دخله أحد ، فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ففتح الله عليهم ، فنادى مسلمة أين صاحب النقب ؟ فما جاءه أحد ، فنادى إني أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي ، فعزمت عليه إلا جاء ، فجاء رجل فقال استأذن لي على الأمير ، فقال له أنت صاحب النقب ؟ قال أنا أخبركم عنه ، فأتى مسلمة فأخبرة عنه فأذن له ، فقال إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثًا ، ألاّ تُسَوِّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة ، ولا تأمروا له بشيء ، ولا تسأله مِمّن هو ؟ قال فذلك له ، قال أنا هو ، فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال اللهم اجعلني مع صاحب النقب» انتهى كلام ابن قتيبة .

وقد كتبت هذا بعد ذكر العمل الصالح قبل الغزو ، وإنما تقاتلون بأعمالكم ، وبعد التأكيد القاطع من خلو الجهاد من أي غرض من أغراض الدنيا ، وصورة صاحب النقب وتنكره حتى لا يعرفه الأمير ولا الخليفة واشتراطه ألا يعطى شيئًا صورة واضحة لهؤلاء المجاهدين الذين خلّصوا نفوسهم للجهاد في سبيل الله ، وخلّصوا قلوبهم لله ، وليس المراد أن يكون الجيش كله كذلك ، وإنما المراد ألا يخلو الجيش منهم لأنهم بهم يستنزل النصر ، وأخبرنا سيدنا عليه السلام أن الخير فينا إلى يوم القيامة ، ولهذا أقطع بأنه لا يزال صاحب النقب فينا ، ولا يزال مسلمة الذي كان يدعو الله أن يلقاه مع صاحب النقب لا يزال فينا ، ولكننا أُصبنا بِحَوَل فلم نعد نرى كرامنا الذين يحبون أن يكونوا مع الله وليسوا مع السادة ، والله سبحانه وتعالى يحب عبده الغني الخفي ، والغني هو من استغنى بالله عن كل ما عداه سبحانه .

وكان المهدي يقول لولده موسى ولي عهده : « اعلم أن الله في كل زمان عِتْرة من رُسُلِه وبقايا من صفوة خلقه ، وخبايا لنصرة حَقِّه يُجدِّد حَبْل الإسلام بدعواهم ، ويُشيّد أركان الدين بنصرتهم ، ويتخذهم لأولياء دينه أنصارًا ، وعلى إقامة عَدْله أعوانًا ، يسُدُّون الخَلَل ويقيمون الميل ، ويدفعون عن الأرض الفساد » انتهى كلام المهدي ، وراجع التاريخ في زمن المهدي وهل كان على هذه الأرض قوة تنازع قوتنا ؟ وهل كان من الممكن أن يجترئ أحد على أن يأخذ حبة رمل من ترابنا ؟ وهل كان في الأرض علم يزيد على علمنا ؟ وهذا النص وحده من فم المهدي يجيبك ويقول لك إن أمة يحكمها هذا العقل ، وهذه البصيرة ، وهذا الوعي ، لابد أن تكون أمة ظاهرة في الأرض ، ولا شك أن معرفتك بعقل وكلام رئيس أي دولة يُغنيك عن معرفة أحوال الدولة ، واسمع كلام السادة وميّز بين كلامهم ثم ارجع إلى أحوال شعوبهم لتجد الفروق بين كلام السادة هي ذاتها الفروق بين أحوال الشعوب .

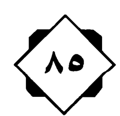
وكان عمرو بن عبيد إذا رأى أبا جعفر المنصور يطوف حول البيت في قرطين يقول إن يُرِدْ الله بأمة محمد خيرًا يولِّ أمرها هذا الشاب من بني هاشم ، فلما دخل على أبي جعفر وهو خليفة وكلمه وأراد الانصراف، قال له أبو جعفر هل لك حاجة ؟ قال نعم ، حاجتي ألا تبعث إليّ حتى آتيك ولا تعطني حتى أسألك ، ثم لم يأته ولم يسأله ، ولما مات عمرو بن عبيد رثاه المنصور ، ومن رثائه قوله :

صلّى الإله عليك من مُتوسِّدٍ	قَبرا مَررْتُ به على مرّان
قبرا تضمّن مؤمنا مُتحنِّفًا	صَدقَ الإلَه ودَانَ بالقرآن
وإذا الرجال تنازعوا في سُنّةٍ	فَصَل الحديثَ بحكمة وبيان
فلو أن هذا الدهر أبْقى صالحًا	أبقى لنا حيًّا أبَا عثمان



لاحظ أن قامات الكبار تتقارب مع اختلاف المواقع ، فأبو جعفر أحد مؤسسي دولة بني العباس ، وعمرو بن عبيد رأس من رؤوس المعتزلة ، والتفوق نفسه رحم جامعة ، مع صرف النظر عن أن هذا تفوق في علم العقائد ، وهذا تفوق في علم السياسة ، ثم راجع طلب عمرو بن عبيد من أبي جعفر ألا يبعث إليه حتى يأتيه ، ثم لا يأتيه ، ولا يعطيه حتى يطلب ثم لا يطلب ، وهؤلاء هم العلماء الذين ينصحون الأمراء فيستجيب لهم الأمراء ، لأنهم يَرَوْنَ أنهم أكرم على أنفسهم من أن ينظروا إلى الذي في يد الأمراء ، ولو تهافتوا عليهم لم يسمعوا نصحهم ، وراجع قول المهدي لولده المرشح لولاية العهد ، وتأمل حرص المهدي على أن يزرع في نفس ولي عهده الحفاظ على الكفاءات العلمية ، والوطنية ، وأهل الصدق في البلاد وأن يعلم أنهم لن يَسْعُوا إليه ، لأنهم عِترة من رسل الله وبقايا من صفوة خلقه ، يعني هم أهل الصلاح والإصلاح وعمارة الأرض غير ناظرين إلا إلى الله ، وحين يقول أهل العلم في رجل إنه من أهل الله لا يعنون بذلك أنه ساكن في المحراب وفي يده مسبحة ، وإنما يعنون أنه ضارب في الأرض يبتغي من فضل الله ، وقد يكون زارعًا ، وقد يكون صانعًا ، وقد يكون معلمًا ، هم الذين يعلمون أن الله خلقهم لعبادته وجعل لهم الأرض وعمارتها مهد عبادته ، وهؤلاء لا يعنيهم أن يعرفهم المهدي ولا ولده ، وسواء عندهم أن يعرفهم أو ينكرهم ، وإنما يعنيهم أن يفعلوا الخير في الناس ، يعنيهم السعي على الأرملة ، والمسكين ، ولا يفكرون في السعي إلى قصر الخلافة ، يعنيهم أن يفرجوا كربة مكروب ، ولا يعنيهم أن يبعث إليهم الأمير ، يَعْنيهم أن يتصدقوا من قوتهم على المسكين وابن السبيل وذي القربى ، ولا يعنيهم أن يبعث إليهم الأمير ببدرة ، المهدي يقول لولده ابحث عن

هؤلاء حتى تصل إليهم لأنهم لن يبحثوا عنك ، وراجع وعي المهدي وعلمه القاطع بأن في الناس خبايا ، كَرِّرْ قوله وكأنه يقوله لك لأنه واقع إلى يوم القيامة ، كرر قوله «اعلم أن لله في كل زمان عِتْرة من رسله ، وبقايا من صفوة خلقه ، وخبايا لنصرة حقه ، وكيف بدأها المهدي بقوله «اعلم» وكيف دل ذلك على أن هؤلاء لا محالة موجودون ، ثم إن هذه الجمل الثلاث مشتركة في أصل المعنى ، وفي تتابعها في كلام المهدي إشارة إلى تتابع النظر ، والتدبر ، حتى تقع عليهم ، وليكن هؤلاء موضع رعايتك ، واعلم أن البلاد لا تتقدم إلا بهم ، فإذا رأيت واحدًا منهم في قاع مظلمة فاعلم أن الذي في قاع مظلمة خلق كثير ، لأن كل واحد من هؤلاء كأنه جماعة وحده ، لأنهم هم القوم كل القوم ، ولا يضع واحدًا منهم في قاع مظلمة إلا شيطان لا يَعْنيه أمر البلاد ، وللمهدي هذا صفحات مطولة في عيون الأخبار ، كان يجمع فيها أهل الرأي وأهل العلم ويعرض عليهم الرأي الذي هو مشغول به ، وينظم طريقة المشُورة ويجعل لها كاتبًا يكتب ما يقوله أهل المشورة ، ويجعل للمجلس هذا قَيِّمًا يسمع ما يقال ثم يوازن بين ما يسمع ، وكان يفتح الكلام في مثل هذا بقوله «إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة ، ومفتاحا بركة ، ولا يهلك عليهما رأيٌ ، ولا يتفيَّل مَعَهما حَزْمٌ فأشيروا برأيكم ، وقولوا بما يحضر لكم ، فإني من ورائكم ، وتوفيق الله من وراء ذلك» فيتكلم كل بالذي عنده من صواب الرأي ونفاذ الأمر ، ويُدْهِشُك أن ترى كلام أصحاب الرأي والبصيرة في القضية الواحدة يقترب في بعض مَناحِيه اقترابًا شديدًا ، ويختلف في بعض مَنَاحِيه اختلافًا شديدًا ، حتى يصعب عليك الاختيار لدقة الكلام ، وسداد حُجَجه ، ثم ترى المهدي يخلص من هذا الاقتراب وهذا الابتعاد بالرأي الذي لا يهلك ، والحزم الذي لا يتفيَّل .



واعلم أن المراجعة والمدارسة ، والروية ، والمشورة ، وبحث العواقب كان كل ذلك سلوكًا لمن في أيديهم أمر البلاد والعباد ، حتى إن أحدهم لو قضى في أمر من غير روية ، ومُرَاجعة ومشورة ، وكانت النتيجة لصالحه لم يَرْضَ بهذه النتيجة التي جاءت من غير مراجعة ، ولاَم نَفْسَه ، وإذا درس وتروَّى واستشار ، وراجع ، وجاءت النتيجة في غير صالحه رضي ولم يَلُم نفسه ، ومسلمة بن عبد الملك الذي كان يدعو الله أن يلقاه مع صاحب النقب قال : « ما أخَذْتُ أمرًا قط بحزم فَلُمْتُ نفسي فيه ، وإن كانت العاقبة عليَّ ، ولا أخذت أمرًا قط وضيّعْتُ الحزم فيه إلا لُمْت نفسي وإن كانت العاقبة لي » ، وقال له المهلب : « أناة في عَوَاقِبهَا فَوْتٌ خير من عجلة في عواقبها دَرَكٌ » وبهذه الأناة وهذه المراجعات وهذه الشورى تُسَاسُ البلاد السياسة التي تتقدم بها إلى الأمام ، ويعيش الناس فيها كرامًا آمنين ، فإذا ركبت العَجلَة رؤوس المسؤولين ، ورُفضت الأناة ، والبحث ، والدراسة ، والمراجعة ، فاعلم أن الأمر أُسْنِدَ إلى غير أهله ، وانتظر ساعة هذا الشعب ، ومن هنا كانت عناية ابن قتيبة بزيادة وَعْي الجماعة ، وإيصال كل هذه الحقائق ، والدقائق إلى عقولهم ليكونوا جميعًا حُماةً لأرضهم ، وديارهم ، ومن الأناة في هذا الباب وإعمال العقل والفَهم والبصيرة في إدارة شؤون العباد والبلاد ما كتب به عمر بن الخطاب إلى النعمان ابن مُقرّن وكان على الصائفة أي جماعة الغُزَاةِ في الصيف ، قال له عُمر : « استعن في حَرْبِكَ بعمرو بن معديكرب ، وطُليحة الأزدي ، ولا توليهما من الأمر شيئًا ، فإنَّ كل صانع أعْلَمُ بصنعته » راجع هذا الكتاب من آخره وهو قوله « إن كل صانع أعلم بصنعته » يعني انتفع من الرجل بالذي جَوَّدَ فيه ، ولا يخدعك علم عمرو بن معديكرب وطليحة الأزدي بالحرب فتوليهم شيئًا

غير الحرب ، وكأن سيدنا عمر يقول لصاحبه إن الفساد والخَرَابَ يَلْحقَانِ بكل من يَسْتعينُ بإنسانٍ في غير صَنْعَتِه ، وهذا قديم ، وجيد ، ومعلوم ، ومع ذلك لا يزال قائمًا ولا تزال عواقبه السيئة قائمة ، وقد رأيته في الكتاب العزيز في الحوار الذي دار بين بلقيس ورجال جيشها ، لما طَلَبَتْ منهم الرأي في كتاب سليمان الذي قال لها فيه : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (النمل:٣١) وهذا تهديد لقوتها ، ولهذا سألت رجال الحرب فقالوا لها : ﴿ نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ (النمل:٣٣) يعني نحن رجال حرب ولسنا رجال سياسة وراجعي أنت ومن حولك من رجال السياسة ، وزمن سليمان يسبق زمن المسيح ، وبلقيس بنت سبأ القديمة كانت تراجع وتستشير ولا تتخذ قرارًا من رأسها .

وأكتفي بهذا في باب الحرب وأنتقل إلى باب السُّؤْدَد .

* * *

كِتَابُ السُّؤْدُدِ

بدأ كتاب السُّؤْدَد بما قالوه في مخايِل السُّؤدد في الأطفال يعني العلامات ، التي يرى الناس بها أن هذا الطفل سيكون من أهم السيادة من مثل قولهم قيل لأعرابي بِمَ تعرفون سؤدد الغلام ؟ فقال إذا كان سائل الغُرة طويل الغُرْلة ملتاث الإزْرَة ، وكانت فيه لوثة فلسنا نشك في سؤدده ، وملتاث الإزرة يعني في ثيابه كُدْرة من قولهم لوَّن ثيابه ، وليس المهم أن تكون هذه علامات حقيقية للسؤدد أو غير حقيقية ، فالحقيقة التي لا شك فيها هي شِدَّةُ تعلق الأقوام بأن يَرَوْا في أبنائهم سادة ، وأن ذلك كان أمرًا شاغلاً لهم ، وذلك لفضل السؤدد ، وأن يَرَوْا من أبنائهم من يسود قومه ، وكانت لهم علامات كثيرة في الذي لا يتوقع أن يسود قومه ، وابن قتيبة أراد أن يقول لنا ليس العرب بدعًا في ذلك ، وإنما حُبَّ السؤدد وتمنِّيه أن يكون في ولدك كان شائعًا في الأمم ، وذكر أنه قرأ في كتب الهند شيئًا من ذلك ، ونقل عنهم أوصاف وعلامات ليست دَالّة على السؤدد ، وإنما على عكسه أو كما قالوا دالة على أخلاق السوء ، وأن من صَغُرت عينه ودام اخْتِلاجُها وتتابع طَرفُها ، ومال أنفه إلى أيمن شِقّيه ، وبعد ما بين حاجبيه وطال إكبابه في مَشْيه ، وتَلَفّتَ تارة بعد أُخرى غلبت عليه أخلاق السوء ، ومهما يكن من الرأي في مثل هذه العلامات فإن اعتقاد الشعوب فيها دال على شيوع الخرافة في هذه الأجيال القديمة ، ثم إنها بعد شيوع المعرفة فيها واليقظة والوعي تقدمت وصار ينقل عنها الرأي السديد والفكر الواعي المستنير ، وقد

شاعت هذه الحكايات في أجيالنا وداخلها ما داخلها من المبالغات كما قيل في معاوية ، وأن رَجُلاً نظر إليه وهو غلام ، فقال أظنُّ أن هذا الغلام سيسود قومه ؛ فقالت أمُّه هند بنت عتبة ثَكِلتْه إن كان لا يسود غير قومه ، وهذا يعني أن هذه الرواية قيلت قبل الإسلام ومعاوية غلام ، والدولة الإسلامية التي سادها معاوية قد حاربت نشأتها هِنْدٌ وزوجها أبو سفيان ، وأبوها عتبة ، وعمها شيبة ، وأترك هذا وأشير إلى أن الشعر كان فيه ما يشير إلى علامات السؤدد كقول الشاعر : « يُقلّبُ رأسًا لم يكن رَأْسَ سيد» وكأن رأس السيد غير رأس غيره ، وذكر ابن قتيبة أن شبيب بن شيبة قال لفارس من بني مِنْقر « ما مُطِلْتَ مطل الفرسان ، ولا فُتِقْتَ فتق السادة» ، وقال آخر لسنان بن مسلمة « ما أنت بأرْسخ فتكون فارسًا ، ولا بعظيم الرأس فتكون سيدًا» ، والأرسخ هو قليل لحم الوركين والعجز ... والمهم الذي يجب أن نتعلمه ونعلمه مثل قولهم : «أربع يسوّدون العبد ، الأدبُ والصدقة والعِفَّةُ والأمَانة» وهذا هو السؤدد الحق وهو السؤدد المكتسب وليس سؤدد الآباء ، وإن كان سؤدد الآباء مما يذكر إذا بَقَى في الأبناء ، ولا تجد صفات أعلى من صفات يسود بها العبد ، الذي يُبَاع في الأسواق ، وأنها إذا كانت فيه صار سيدًا ، وإذا لم تكن في سيده لم يكن سيدًا ، أعني من أهل السؤدد ، ابن قتيبة يقول لنا إذا رأيتم الأدب والصدق والعفة والأمانة فقد لَقِيتُم السؤدد ، ولو كانت هذه الصفات في عبد ، يعني هو عبد يباع ولكنه يحمل نفس سيد ، وأن نفس عصام سوَّدَتْ عصاما ، وعصام هذا كان عبدًا للنعمان بن المنذر ، ولم تسوّد العرب ولا العجم رجلاً يحمل الحقد «وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا» وقالوا الحقود لا يسود ، فإذا رأيت رأس قوم يحمل الحقد فاعلم أنه سارق لهذا الذي صار به رأسًا ، وكذلك لم تُسوّد العرب

ولا العجم المخادع الغادر المتآمر لأن هذا من سِقاط الناس ، والفطرة الإنسانية التي يشترك فيها العرب والعجم تُسْقِط هذا الصّنْف ، والسيد الحقيقي شرف للذين سَوَّدوه ، ولهذا اجتهد العرب والعجم في أن لا يسوّدوا إلا الكريم ، حتى لا يُعابوا بِتَسْويد مخادع حاقد غادر ، وقال سيدنا عمر : « السيد هو الجواد حين يُسْأل ، الحليم حين يُسْتَجْهل ، البار بمن يعاشر » وإنما قال حين يسأل لأن هذا هو الوقت الموجب للعطية ، وقال حين يُستجهل لأن هذه لحظة إثارة لا يغلبها إلا حلم الحليم الحق ، والصفة الثالثة صفة جيدة جداً ومتسعة وعريقة وهي البر ليس بالأهل ولا بالأقارب ولكن بكل من يعاشر ، وهذا هو الصنف النادر ، ولا أشك في أن البر والحب والرحمة والتسامح وما هو من هذا الباب كان من أهم صفات السيادة في الجاهلية والإسلام، ولم تكن الغَطْرسة والاسْتِعْلاء ، والتسلط ، والقهر من صفات أحد من السادة ، ولم يكن السيد الحق يطلب أن يكون سيداً ، وإنما كان كما قيل في الأحنف بن قيس يَفِرُّ من الشرف ، والشرف يَتْبعُه ، ولما رشحه زياد بن أبي سفيان لولاية وكتب بذلك إلى معاوية رفض معاوية ، لأن الأحنف كان يوم صِفين مع سيدنا علي ، ثم كتب زياد إلى معاوية يقول : « إن الأحنف قد بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما لا تنفعه الولاية ولا يضره العزل ، ثم مرَّت الأيام وكان الأحنف في مجلس معاوية ، ومعاوية يكلم الناس في ولاية العهد ليزيد والناس يتكلمون والأحنف لا يتكلم ، فقال له معاوية مالك لا تتكلم يا أبا بحر ؟ قال : إن صَدَقْتكُمْ أغَضَبْتكم ، وإن كذبتكم أغضبت الله ربي » .

وكان التعويل في السؤدد على النبوغ والتفوق أصْلاً ورُكْناً عند العرب في الجاهلية لا يعصون فيه أنفسهم ، فسوّدوا أبا جهل ولم تَنْبُتُ له لِحْية ، ودخل

في مجالس كبار قريش وذلك قبل الإسلام ، لأن أبا جهل كان جديراً بذلك ، وهذا لا ينكره أحد ، وقد عاند رسول الله ﷺ وحاربه وهو يعلم أنه صادق ، كما كان يعلم كل من حاربوه عليه السلام أنه صادق لأن آياته كانت ولا زالت بينات ، ثم إنه عليه السلام كان كما قال الشاعر :

لو لم تكن فيه آياتٌ مُبينة كانت بَداهُتك تُنبِيكَ بالخبر

يعني لو لم يؤيده الله بآيات النبوة كان ذكاؤه عليه السلام وصدقه وبرُّه وما عرف به يدل كل ذلك على صدقه في الذي يَدَّعيه .

وكان السيد يكون على رأسه عمامة ، ولم تكن العمامة ليعرف بها أنه سيد ، وإنما كانت للإشارة إلى أن كل ما يكون على قومه معقودٌ برأسه هو ، وأن كل من له حق عند أحد من قومه عليه أن يطالبه هو بهذا الحق ، والزِّبرقان بن بدر سيد فزارة واسمه حصين وإنما سُمّي الزبرقان لأن عمامته كانت مزبرقة أي معصفرة يقولون زبرقت الشيء أي صفرته ، ولو جمعت سادة زمن كالأحنف ابن قيس ، وقيس بن عاصم ، وعامر بن الطفيل ، والزبرقان بن بدر ، لرأيت أشخاصًا هم أقطاب في قومهم ، وهم الذين دارت عليهم رَحَى الزمان الذي كانوا فيه ، وقد سأل عبد الملك بن مروان ابن مطاع العنَزِي قال : « أخبرني عن مالك بن مسمع ؟ فقال له : لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه في أي شيء غضب ، فقال عبد الملك **هذا وأبيك السؤدد** » وناهيك عن رجل في هذا الزمن البعيد لو غضب **لغضب له مائة ألف** محارب لا يسألونه فيم غضب ، وهذا هو تاريخ القوم الذين **أنت منهم ، تخرج** حاملاً سلاحك وأنت غاضب ليس لأي شيء أغضبك ، **وإنما لأنك** رأيت سيد قومكم قد غضب ، وإذا كان الذين يخرجون لغضبه مائة ألف سيف فكيف بعدد الذين

هو سيد لهم ؟ ولو كان في هذا السيد غميزة لم تكن القلوب محيطة به هذه الإحاطة ، ثم إن شيئًا آخر في هذا الباب وهو أن عيون الكبار والصغار ناظرة نحو الجيل الجديد ، فإذا رأت مخايل النجابة والتفوق والتميز في واحد من أبنائها رَعَت ذلك ومَدَّتْ يدها إليه ، فإذا أدرك هو أن قومه اهتموا بما فيه من تفوق وتميز وإحسان زاد في تفوقه وتميزه وإحسانه ، ودفع ذلك أشباهه إلى التفوق والتميز والإحسان ، فيكثر المتميزون والمتفوقون في البلاد ، وهذا هو طريق التقدم ، وإذا رأى الناس أن الذي يهيئ لك مكانك في بلادك هو الطبل والزمر اجتهدوا في الطبل والزمر وَجدَّدُوا وأبدعوا ، وهذا هو طريق التخلف ، ويدهشك التاريخ حين يُحدِّثك أن الحجاج بن يوسف ولّى محمد بن القاسم قتال الأكراد بفارس فانتصر عليهم ، ثم ولاّه فتح السِّند ففتحها وفتح الهند وقاد الجيوش وهو ابن سبع عشرة سنة ، وتولى عبيد الله بن زياد خراسان وهو ابن ثلاث وعشرين سنة ، وأخذ الناسُ العلم عن إبراهيم النّخعي وهو ابن ثماني عشرة سنة ، وولّى رسول الله ﷺ عتاب بن أُسَيْد مكة وفيها شيوخ قريش وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وهكذا تجد الشعوب الحية تُنْبِت كفاءات يرعاها كرامها فتزيد البلاد في إنتاج أمثالهم ، فإذا غلب أهل الولاء أهل الكفاءات فباب التخلف أوسع أبوابهم ، وكانت وصايا الحكماء في الأزمنة كلها لكل مسؤول ألا يغيب عن عينك إحسان المحسن فتكافئه على إحسانه ليكثر المحسنون ، ولا يغيب عن عينك إساءة المسيئين فتعاقبهم على إساءاتهم فيقل المسيؤون ، وبهذا تطمئن حياة الناس وتزدهر ، والذي خلق الخلق وهو أعلم بهم قال الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ويزيد ، وذلك ليكثر صناع الحسنات ، وتكثر صناعة الإحسان الذي هو الإتقان في كل باب من أبواب الحياة ، وبهذا

تعمر الأرض وتكون خلافة الله في الأرض ، ثم إنه ﷻ لم يكتف بهذا وإنما فطر النفس الإنسانية على حب الإحسان ، وأخبرنا أن من يقترف حسنة يزيد الله له فيها حسنًا ، بمعنى أن الإنسان إذا أحسن وجد في نفسه حب الإحسان يزيد مع صرف النظر عن أي مكافأة ، وكأن الله ـ سبحانه ـ الذي أكرمه بحب الإحسان جعل مكافأته في هذا الحب ، وليس لنا طريق إلى التقدم إلا أن نُحْسِنَ ثم نُحْسِنَ ثم نُحْسِنَ ..

وهذه الكتب التي منها عيون الأخبار وكل الكتب التي كتبت في زمن تأسيس العلوم محتاجة إلى مزيد من التنبه واليقظة ، لأن فيها علما غير العلم الذي يتكلمون فيه ، ولم يدلوا عليه بكلام ، وإنما نتعرف عليه أحيانًا حين نتبع خط سير المؤلف وتراه ينتقل من مسألة إلى مسألة ، تجد تقاربًا شديدًا جدًّا بين المسألة التي كان فيها والمسألة التي انتقل إليها ، ولم يُحدّثْكَ هو عن هذا التقارب ، كتبت هذا لأني وجدت ابن قتيبة لما فرغ من بيان أن السؤدد يظهر ظهورًا بينًا في سن الحداثة ، كالذي قاد جيش الفتح وسنه سبع عشرة سنة ، أو الذي أخذوا عنه العلم وسنه ثماني عشرة سنة ، انتقل إلى مبحث جعل عنوانه « الهمّة والخِطَار بالنفس » وفتحه بخبر عن دُكَيْن الراجز قال : « أتيت عُمَرَ ابن عبد العزيز بعد ما استخلف أستنجز منه وَعْدًا كان وعدنيه وهو والي المدينة ، فقال لي يا دُكين إن لي نفسًا توَّاقة لم تزل تتوق إلى الإمارة ، فلما نالتها تاقت إلى الخلافة ، فلما نالتها تاقت إلى الجنة » وأفهم من هذا أن ابن قتيبة يقول بذكر هذا بَعْد الذي قبله إن الصانع الحقيقي لأهل التفوق الذين هم أهل السؤدد هي النفوس التي في داخلهم ، وأنها ما تَاقَتْ إلى مرتبة فنالتها إلا تاقت إلى التي بَعْدها ، وأنها كذلك أبَدًا ، وأنها لا تُلْقِي رَحْلَها عند نهاية مرحلة ، ولا تُلْقي

عصاها وَلاَ يَسْتقرُّ بها النوى ، وأنها تتجاوز كل مراحل السمو في هـذه الـدنيا ، ثم تتوق إلى المحل الأسمى الذي هو الجنة ، وأنها لـن تحـط رحلـها إلا هنـاك لسبب واحد هو أنه ليس هنا تكليف ، وأنها ما دامـت في دار التكليـف والعمـل فهي على رَاحِلتها تقطع مسـافة إلى مسـافة ومسـافاتها لا تنقضـي وحاجـة مـن عاش لا تنقضي ، ثم ذكر ابن قتيبة شعراً كثيراً في هذا الباب ، واستَحْسَنَ قـول امرئ القيس وعدَّه من المشهور في باب الهمة والخطار بالنفس وهو قوله :

فلو أنـــّما أسْـعَى لأدْنَـى مَعِيشَـة | كَفَانِي ولـم أَطْلُبْ قليلٌ مـن المـال
ولكنمـا أسـعى لـمجد مُؤَثَّـلٍ | وقد يُدْرِكُ الـمَجْدُ المؤَثَّـل أمْثَـال

وقوله :

بكى صاحبي لـما رأى الدرب دونـه | وأيقـن أنـا لاحقـان بقيصـرا
فقلت لـه لا تبـك عينـك إنـما | نحـاول ملكـا أوْ نـمُوت فَنُعْـذَرا

ولا شك أن قوله نحاول ملكا أو نموت فنعذرا من الهمّة والخطار بالنفس في المقام العالي ، وقوله قليل من المال فاعل قوله « كفاني » أي : كفاني قليـل مـن المال ، وذلك لو كنت أسعى لأعيش ، ولكنني أسعى لمجد قديم مؤثل في كندة آبائي وهم ملوك من يوم أن كان الملوك ملوكًا ، وقـد أكـد هـذا المعنـى بقولـه « وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي » لأنـه مـن ورثـتهم ومـن أرومـتهم ، ولاحـظ الجناس اللطيف الذي بين المؤثل وأمثالي ، وأن أمثالي هم أصحاب المؤثـل ، وأن التصاقب في اللفظ يعـني التصـاقب في المعنـى ، وكـأن قرابـة بـين أمثـالي والمؤثل .

وذكر ابن قتيبة قول حاتم الطائي :

لَحَـى الله صُـعْلوكا مُنـاهُ وهَمُّـه | من العيش أن يلقـى لبوسًـا وَمَطْعَمـا

يرى الخَمْص تعذيبا وإن يلق شَبْعةً ... يبت قلبه من قلّة الهَمِّ مُبْهما

ولله صعلوك يساور همَّه ... ويَمْضي على الأهْوَالِ والدهرِ مقدما

يرى قَوْسَه أو رُمْحه ومِجنَّه ... وذا شُطَبٍ لَدْن المهزَّة مِخْذَمَا

وأحناء سَرْج قاتر ولجامَه ... عَتَادَ أخي هَيْجَا وطِرفًا مُسوَّما

فذلك إن يهلك فحسنى ثناؤه ... وإن عاش لم يقعد لئيمًا مُذمَّمَا

قسم حاتم الصعاليك قسمين : قسم مُنَاهُ وهَمَّه أن يأكل ويَلْبَس ، والمفزع له هو أن يفقد طعامه أو لِباسَه ، فإن أمن ذلك لم يبق في قلبه هَمٌّ ، وهذا الإنسان الفارغ لا قيمة له عند حاتم ولا يحمي أرضًا ولا عرضًا ، وأنه يعيش على الأرض ليَرْعى ، وليس يعيش على الأرض ليزرع فيها المرعى ، وترى أعداء الشعوب يحاولون إشغالها بالمأكل والملبس ، لأنها إن شغلت بذلك فقد قتلت نفسها بنفسها ، وحاتم الطائي يفهم هذا في الزمن الأول ، ويقابل حاتم هذا النموذج الذي لا تَعْمر به البلاد بالنموذج الثاني الذي يرضاه حاتم ، والذي إن يهلك فحُسْنَى ثناؤه ، وإن عاش لم يكن ضعيفًا مذمومًا ، وكأن حاتمًا الذي وصفه سيدنا رسول الله بأنه يعرف مكارم الأخلاق يُحدِّدُ لنا صورة المواطن الأفْضَل الذي تعمر به البلاد وتُحمى به الأرض ، وأن هذا من مكارم الأخلاق التي ما بُعث ﷺ إلا ليُتمَّها والبيت الأول وهو قوله :

ولله صعلوك يُساوِرُ همَّه ... ويمضي على الأهْوَالِ والدهرِ مُقدما

هذا البيت هو خلاصة أوصاف هذا الإنسان الأفضل ، والذي بَعْدَهُ بَعْضُ شَرْحِهِ لأنه أوْسَعُ من الذي قِيل بَعْدَه ، وأول وَصْفٍ للإنسان الحي الذي تعمر به أرضه ، هو أن يكون في قلبه همٌّ وأن يتجاوز هذا الهم حاجاته الخاصة من طعام

وشراب ومسكن ، ولن يتجاوزها إلا إذا كان همّ الناس وهمَّ البلاد وهمَّ العباد ، وأوَّلُ صفة لهذا الإنسان الأفضل أن يجد في داخله هُمومَ الجماعة التي هو منها ، ويُعْجِبُني منك يا حاتم كلمة « يساور همَّه» لأنها تعني أنه همٌّ زكي يساورُه سيدُنا الصعلوك ويساور هو سيدنا الصعلوك ، وبعد هذه المساورة يمضي على الأحْداث والدهر ، وهذا هو الإنسان الأرفع الذي نَقَلْتَ يا حاتم إليه مكارمَ الأخلاق ، إنسان يفكر في القضايا ويساور همومها ثم يتخذ القرار ويمضي لا يَهَابُ شيئًا ، ولا يُفكّرُ في أي صُعُوباتٍ تواجهه ، ثم لما قال حاتم يصف شهامة هذا الشهم « يمضي على الأحداث» نزعته نفسه منزعا أعلى فقال « والدهر » وناهيك عن الذي يرمي نفسه حتى يمضي على الأحداث وعلى الدهر ، ثم هو مقدم وكل ذلك بعد ما ساور همه ، وكأنك يا حاتم تحدثنا عن سيدنا الصعلوك الذي نحلُم بأن نراه بيننا ، وبعد ما ذكر هذه الصفة العامة التي هي مساورة الهم والمضيّ على الأحداث والأهوال والدهر ، رجع إليه ورآه وهو يرى قوسْه ورُمْحَه والتُّرس الذي يحميه وسيفه اللين المَهزّ ، القاطع ، ويرى سَرْجَه القاتر أي المنتظم على ظهر فرسه ولجام فرسه وفرسه المسوّم أي المعلم كل ذلك عتادَ رجل ليس محاربًا فحسب ، وإنما هو أخو الهيجا التي هي الحرب التي تهيج أبطالها ، وبعد ذلك جاء باسم الإشارة في قوله (فذلك) وهي في هذا الموقع تشير إلى أن المشار إليه الموصوف بالذي سبق جدير بالذي يأتي بعد اسم الإشارة وهو أهل له ، والذي بعد اسم الإشارة هو أعلى ما يقال في الكريم ، وأنه إذا مَاتَ ترك ثناء حَسَنًا ، وإذا عاش عاش كريمًا لا يحوم حوله لؤم ولا ذم ، وتلاحظ أن امرأ القيس عني بذكر نفسه وأنه يطلب ملكًا أو يموت ، وأن الملك المؤثل القديم ليس له إلا أمثال امرئ القيس ، وأن

حاتمًا وصف لنا مُجْتَمعنَا وأن فيه من لا يُبَالَ لهم باله ولا يلتفت إليهم ، وهم المُتَلَهُّون في البحث عن الذي يعيشون به ، وليس لهم شاغل إلا رغيف الخبز ، وفي مجتمعنا الرجال الكرام الذين همهم هو هم الجماعة وحماية الأرض والعرض ، وأن شاغلهم هو عُدَّة أخي الهيجاء التي لم تشغل الدول المتقدمة بشاغل كشغلها بتطوير سلاح أخي الهيجاء ، ومن لم يكن كذلك لا يحمي أرضًا ولا عرضًا ، وهذه هي مكارم الأخلاق التي وعى سيدنا عليه السلام منها أعلى من الذي وعيناه ، وذكر أن حاتمًا كان يحب مكارم الأخلاق ، أي الرجال الذين يحمون أرضهم وترابهم ، وتعيش هموم الجماعة في قلوبهم ، ثم أكرمه رسول الله ﷺ وهو في قبره ومنّ على ابنته التي وقعت في الأسر وسألها فقالت له إنها ابنة حاتم فقال اتركوها تعود إلى قومها لأن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، وراجع إكرام سيدنا رسول الله لأهل مكارم الأخلاق وهم في قبورهم .

ولم يكن ابن قتيبة يحدث بالذي يرضاه في الأبواب التي يتكلم فيها ، وإنما كان يحدث بالذي عليه الناس ، وهم مختلفون وكل يرضى بما يرضى ويرفض ما يرفض ، لأن الغاية التي شغلتني بهذا الكتاب أنه ينقل لنا وللأجيال كلها ما عليه الناس ، لأن المطلوب أن تعرف ما عليه الناس يستوي في ذلك ما ترضاه وما لا ترضاه ، وأن ثقافتك شيء واختيارك شيء آخر ، ثقافتك يجب أن تكون مُتَّسعة وبمقدار اتساعها وغزارتها يكون حسن اختيارك ، وليس لي همّ إلا أن تتسع معارف عامتنا وأن تتنوع ، وأن تتكون لها معرفة تعرف بها وتنكر حتى لا يتلعّب المتلعبون بعقولها ، وحتى تأنف وترفض واقعها المتخلف ، وكان ابن قتيبة يومئ إلى الذي يرضاه إيماءات خفية ، كأن يبدأ به أو ينسبه إلى أهل الرشد ، أو يلحقه بذكر نظائره في كتب الأمم الأخرى ، فالسؤدد قدمنا فيه

مـا قدمنا ، ولا يمكن أن يختلف اثنان في أن أصله هو ما سكن في القلوب من معاني البر والخير ، وأن العبد إذا اتصف بالأدب والصدق والعفـة والأمانـة كـان سيدًا ، وإن كان لا يملك نفسه ، ثم تجد ابن قتيبة الذي حدَّث في السؤدد بالذي لا خلاف فيه يذكر مبحثًا عنوانه السؤدد بالمال وذم الفقر والحض على الكسب ، وأكثر ما في هذا المبحث شعر ، وهذا إشـارة إلى أنـه مـن الـذي يـراه الشـعراء وليس من الذي يراه الحكماء ، ومن الشعر ما هو حكمة ، ومن الشعر ما يتبعـه الغاوون ، الذين تراهم في كل وادٍ يهيمون ، ومن الشعر الذي قاله في ذلك :

الفقـر يُـزْرِي بـأقوام ذَوِي حَسَـبٍ   وَقَدْ يسـوِّدُ غَيْـرَ السَّـيّد الـمالُ

والبيت نقد ورفض لهذا التغيّر ، وأن الصواب هـو أن الفقـر لا يـزري بـذوي الحسب ، وأن المال لا يسوِّد غير السيد ، وهـذا التغيُّـر نقـض لثوابـت صـحيحة ومترسِّخة في المجتمعات ، وكأن الشاعر يقول لنا إن المجتمعات لم تَخْـل مـن أهل الغفلة الذين يفاجئون الناس بقبول نقيض ما اجتمعت عليه قلـوب وعقـول حكماء الأمم ، وذكر ابن قتيبة قول الأعرابي :

رُزِقْـتُ لُبًّـا ولم أُرْزَق مُروءَتَـهُ   إنَّ الـمُروءَة كثـرةُ المـالِ

إذا أردت مُسَـامَاةً يُقَعِّدُنـي   عَمَّـا يُنـوِّه باسْـمِي رِقَّـةُ الحـالِ

هذا شاعر يشكو حاله وأنه رزق العقل والحكمة ولم يرزق مالاً ، وأن المـال هو المروءة ، لأنه يجود منه فيكون من ذوي المروءة ويسامي بـه كـرام النـاس ، وأنه يجد في نفسه إرَادَةً ورغبـة في هذا الإنفاق وهذه المساماة ، لـيذكر بـذلك في الناس ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، وصاحب العقل والفهـم والبصـيرة لا يـذكر في الناس بذلك وحده ، وإنما يذكر بفضائل كثيرة ، وليس فقط كثرة المال .

وذكر ابن قتيبة قول الآخر :

يُغطِّي عيوبَ المرء كثرةُ ماله ... يُصَدَّق فيما قال وهو كَذُوبُ

ويُزْري بعقل المرء قِلَّةُ ماله ... يُحمِّقُه الأقوام وهو لبيبُ

الأول صاحب مال وهو كذوب وماله يغطي عيوبه فيصدق كذبه ، وهذا ليس رفضًا لهذا الواقع فحسب وإنما هو استهجان له ، وذم ليس لهذا الكذوب وإنما للجماعة التي خطف المال بصَرَها فَعمِيَتْ عن عيوب الكذوب وصدَّقت كذبه ، والبيت الثاني فيه غضب وإشفاق على هذا العقل الذي يزري به الفقر ، وفيه ازدراء للذين لا يحسنون فهم وعيه وعقله ، ولا يكتفون بعدم تقدير عقله ووعيه ، وإنما يزيدون وصفه بالحماقة ، وإذا كان المال في البيت الأول يصُدِّقُ به الكذوب فإن قلة المال في البيت الثاني لا تغطي المحاسن فحسب وإنما تطلق الألسنة بالإساءة الظالمة .

ومما هو قريب جدًا من هذين البيتين ما ذكره ابن قتيبة بعدهما من قول الآخر:

كم من لئيم الجَدّ سَوَّدَهُ المالُ ... أبوهُ وأُمُّه الوَرِقُ

وكم كريم الجَدّ ليس له ... عَيْبٌ سوى أن ثوبه خلَق

أدَّبهُ سادة كرامٌ فما ... ثَوْبَاهُ إلا العَفافُ والخُلُقَ

لاحظ المقابلة بين البيت الأول والثاني وما في هذه المقابلة من رفض وغضب ، وكلمة لئيم الجَدِّ لا يذم أحد بأسوأ منها ، وكلمة كريم الجد لا يمدح أحد بأفضل منها ، ثم زاد مع كريم الجد زيادة ذكرت آباء له كرامًا وسادة وهم الذين علموه السيادة ، وأن ثوبه الخَلَق الذي يعاب به هو في حقيقته عفاف وكرم ، والشعر وإن كان قريب المأخذ فيه غضب شديد من إهانة الكرام بسبب الفقر ،

ورفع اللئام بسبب الثروة ، وهذا شديد القرب من يُغَطِّي عيوبَ المرء كثرةُ ماله ويُزرِي بعقْل المرء قِلّةُ ماله .. ولا شك أن ابن قتيبة حين يذكر هذه الأبيات بعد التي قبلها إنما كان يقصد إلى بيان هذه الصلة ، وأن ترتيب أفكار أهل العلم وراءه ما وراءه من معان ، وعلى القارئ الجيد أن يستخرج وجوه الترتيب لأنها من العلم المدلول عليه بالسكوت عنه ، ثم ذكر ابن قتيبة من الشعر ما ذكر ، ثم ذكر أبياتًا لعروة بن الورد وهي مشهورة ، قال عروة يخاطب امرأته :

ذَرِيني لِلغنَى أسْعَى فإني ... رَأيتُ الناسَ شَرّهم الفقيرُ

وأبَعدَهم وأهْوَنَهَم عليهم ... وإن أمْسَى له حَسَبٌ وخيرُ

ويُقْصِيه النديُّ وتزدريه ... حليلته ويَنهَرَهُ الصغيرُ

وتلْقَى ذا الغنى وله جَلالٌ ... يكاد فؤاد صاحبه يطيرُ

قليلٌ ذنبه والذنب جمٌّ ... ولكن للغنى ربٌّ غفورُ

الأبيات الثلاثة الأولى جذر معناها قوله « رأيت الناس شرهم الفقيرُ » ، وهذه الجملة هي التي دعته إلى أن يقول لزوجته « دعيني للغنى أسعى » ، وكأنها توشك أن تكون أصل الأبيات كلها لأن ذكر الغنى بعد ذلك إنما هو من تمام « شرهم الفقير » ، وقوله « وأبعدهم وأهونهم عليهم » وإن رجع إلى جملة « شرهم الفقير » فإن هاتين فيهما من المرارة والإحساس بالهوان ما فيهما ، ولو أنهم اعتقدوه شَرَّ الناس وتركوه لكان الشر أهون ، ولكنهم أبْعَدُوه وهذا شر فوق الشر ، ثم أشعروه بأنه أهونهم عليهم وهذا أبعد وأوجع وأنكى ، وعروة شاعر جيد ، وعليك أنت أن تبحث عن إحساسه الذي قذف على لسانه هذه الكلمات ، ثم تبحث عن الأسف البالغ الذي تراه في جملة « وإنْ كان لَهَ حَسَبٌ وخيرُ » وهذا الحسب وهذا الخير الذي فيه كان أدعى إلى أن يكون من خير

الناس ، وليس من شرهم ، وأدعى إلى تقريبه وليس إلى إبعاده ، وأدعى إلى تكريمه وليس إهانته ، ولكنه التغيُّر الظالم الذي أصاب الناس ، ثم إن جملة « وإن كان له حسب وخير » وإن كانت إدانة لكل الذي مضى وبيانًا لأنه وضع ظالم شاذ مخالف لكل منطق ومخالف للفطرة ، هي مع ذلك مقدمة ومهيئة لجملة « ويقصيه الندى » ولهذه الجملة دلالة خاصة ، ولهذا جاء معها الفعل مضارعًا ليضع بين عينيك صورة الندى وهو يقصيه ، مع ملاحظة أن يُقْصّيه الندى داخلة في قوله « وأبعدهم وأهونهم عليه » ولكن الندى له هنا دلالة خاصة لأن الأصل في نادي القوم أن يكون مجتمع كرامهم ومن له حسب وخير ، ولكن كل شيء تغيّر حتى النادي الذي كان خاصًّا بذوي الأحْسَاب والأنساب صار يُقْصي الفقير الذي له حسب وخير ، ثم ذكر آخر صور الإهانة التي ليس بعدها إهانة وهي ازدراء الحليلة التي جعلها الله له من نفسه وليس بعدها إلا أن تزدريه نفسه ، وجملة « وينهره الصغير » فيها إيماءة إلى أن حليلته لما ازدجرته تجرأ عليه أطفاله وأسقطوا أبوته وتلعّبوا به وانتهروه ، وبهذا بلغ عروة الغاية في الذي يَرَاهُ التغاير من الناس ومن الندى ومن داخل بيته ، ثم انتقل إلى الصورة المقابلة وأجمل فيها القول إجمالاً أصاب فيه إصابة نادرة ، وجعلت الفرق في الناس بين الفقير والغنيّ فرقًا كالذي بين السماء والأرض ، وبدأ ذلك بقوله « وتلقى » وكأنه لم يحدثك عن الذي يراه كما قال هناك رأيت الناس شرهم الفقير ، وإنما يحدثك عن الذي تلقاه أنت من جلال ذا الغنى واستعلائه وإحساسه بالتميّز ، وكأنه ليس من جنس الناس ، وأصاب كل الذي أراده في جملة « يكاد فؤاد صاحبه يطير » وإنما يكون ذلك إذا بلغ الإحساس بالنشوة والتميز بالغنى مبلغًا زاد عن حد المعقول كما يقولون ، فلو جُنّ إنسان من الحسن جُنَّت . وقوله

« وقليل ذنبه والذنب جم » يعني أن الكبيرة منه صغير والكثير من أخطائه قليل ، وإنما ذكر ذنبه ليقول هذه الجملة النادرة « ولكن للغنى رب غفور » وكأن للأغنياء ربًّا غير رب الناس وكأنهم خَلْقٌ غيرُ الخلق ، وما دام للغني رب غفور فليفعل الأغنياء ما يشاؤون من الخطايا .

وهذا الشعر الذي فيه ما رأينا قاد ابن قتيبة إلى أن يذكر شعرًا يحث على كسب المال فذكر قول الشاعر :

إذا المرء لم يَكْسَبْ مَعاشًا لنَفْسه | شكا الفقرَ أو لاَقى صديقا فأكثرا
وصَارَ على الأدْنينَ كَلاًّ وأوْشَكَتْ | صلاتُ ذوِي القُرْبَى لَهُ أن تَنكَّرا
فَسِرْ في بلادِ الله والْتَمِس الغِنَى | تَعِشْ ذا يسارٍ أو تموت فتُعذرا
وما طالب الحاجات من حيث تُبْتَغَى | من الناس إلاَّ من أجَدَّ وشَمَّرا
فلا تَرْضَ من عَيْشٍ بدون ولا تَنَمْ | وكيف ينام الليل من كان مُعْسِرَا

ووازن بين هذه الأبيات وأبيات عروة والموضوع واحد وهو كسب المال ، والمعاني مختلفة اختلافًا شديدًا لأن عروة تكلم عن موقف الناس من الفقير وأنه شرهم إلى آخره ، وهذا لم يتكلم في شيء من ذلك ، وإنما تكلم في حاجة الإنسان إلى المال وأنه لا بد له أن يكسب معاشه وإلاَّ شَكا الفَقْر أو أخذ مالا من صديق ، وصار كَلاًّ على الأقربين ، حتى يَوشِكُ ذوو القربى أن يتنكروا له ، ورتب على ذلك الضرب في الأرض والتماس اليسار ، وإذا جاءك الأجل وأنت تسعى ملتمسًا الغنى عَذَرَك الناس ، ثم حث على الجد والتشمير وقَبْل الجد والتشمير حَدَّدَ الجهة التي تبدأ السعي فيها ، ولا تجد ولا تشمّر إلا بعد هذا الفهم وبعد هذه الدراسة حتى يكون مسعاك على الطريق الذي يَصِلُ بك إلى المقصود ، ويعجبني هذا البيت :

وما طالب الحاجات من حيث تبتغي   من الناس إلا من أجَدَّ وشمّرا

لأن فيه معنى تدقيق النظر في تحديد الجهة التي تصل بك إلى غاياتك ، وبعد هذا التحديد عليك بالجد والوصول إلى الغاية ، وهذا هو الإنسان الأفضل والذي تعمر به الأرض وتعمر به البلاد ، ومن تمام حسن هذا البيت قوله في الذي بعده « فلا تَرْضَ من عيش بدون » لأن هذا داخل في علو الهمة ، وأصحاب الهمة العالية المشمرون الجادون هم أولى الناس بهذا الوجود ، ولا تشغلني الشعوب النائمة ولو كانت جائعة ، لأننا لم نخلق إلا للكد والجد والضرب في الأرض لنستخرج خبأها ، والله ـ سبحانه ـ الذي جعل رزقنا في هذه الأرض جعلها صالحة ومهيأة لشغلنا فيها ، فلابد أن تضع فيها البذرة ولأُبدَّ أن ترعاها وأن تعمل لها حتى تصير لك طعامًا ، وهكذا كل شيء موجود ، ولكنه لن يصل إليك إلا بكدك وجِدك وعَمَلك ، لأنك لم تخلق إلا لهذا ، ولأن هذا الجد وهذا الكد من أقرب القربات عند الذي خلقك في كبد ، ومع أن الفقر لا ينقص من معنى السؤدد مثقال حبة من خردل ، وأن الثروة لا تضيف إلى صاحبها من معاني السؤدد مثقال حبة من خردل ، إلا أن الواقع قال إن كل من سادوا من أهل السؤدد كان لهم مال يعطون منه ، وكانوا من ذوي اليسار وذوي الجود ، ولم يعرف العرب في جاهليتهم فقيراً ساد إلا عتبة بن ربيعة ، وهذا خبر يفاجئ كخبر أبي جهل الذي جلس مع شيوخ قريش في مهمات الأمور قبل أن تنبت له لحية ، أبو جهل الذي هو الحارث بن هشام المخزومي تميز بعقل راجح في مواجهة الأحداث والعوارض التي كان يجتمع لها شيوخ قريش فأجلسوه معهم ، وعتبة بن ربيعة نبغت فيه صفات السؤدد التي أصلها الأدب والصدق والعفة والأمانة ، فسوَّدَتْهُ قريش وهو فقير ، وأبو جهل وعتبة قتلا في بدر مشركين ، وأسأل الله السلامة لأني لا أشك لحظة في أن عتبة لما سمع

القرآن أيقن أنه كلام الله ، ورجع لقومه بوجه غير الوجه الذي خرج به ، وكذلك لا أشك في أن أبا جهل وكان يتسلل في الليل ليسمع القرآن من رسول الله ﷺ ، ولما سئل عن الذي يسمعه قال أطعم بنوها سم فأطعمنا ، والآن يقولون منا نبي وكيف لنا بهذا ، وهذا قاطع في أنه نبي صادق لا يستطيعون أن يجعلوا واحدًا منهم نبيًّا صادقًا ، ولكنهم يستطيعون أن يدعى أحدهم النبوة ، وقل مثل ذلك في بقية من مات على الشرك من قريش ، وأنهم أدركوا صدق رسول الله ﷺ لأن آيَاته كانت بَيّنَات ، ومرة ثانية نسأل الله السلامة لأنه هو وحده الذي يهدي من يشاء ، والعلم بالحق لا يُنجي وإنما اتباع الحق .

ثم أتبع ابن قتيبة ما قاله الشعراء في الكسب بما قاله الحكماء في الكسب من مثل قولهم : « الغنى في الغُرْبَةِ وطنٌ والفقر في الوطن غُرْبةٌ » وهكذا كانت الثروة وطنًا في نفوس الناس ، منذ الزمن الأقدم ، وتعجب من قوة المال الذي يصير لك وطنًا ، وأنت في الغربة ، والفقر الذي يَجْعَلُكَ في غربة وأنت في بيت أبيك ، وتدبر هذا لتكتمل به معرفتك للإنسان ، وأنك ترى الغنى مرة ، وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير ، وتراه مرة وطنًا يعني الذي في يدك من الثروة هو بيت أبيك الذي في الغُرْبة .

وقد ذكر ابن قتيبة كلامًا تردَّد في زمانه ولا يزال يتردد فينا وهو أن الأولاد من أسباب الفَقْر ، وأن الذي يريد أن يتزوج يجب أن يُعِدَّ المال للأولاد قبل أن يتزوج ، قال في ذلك : « قيل لرجل من البصريين مالك لا يَنْمَى مالك ؟ قال لأني اتخذت العيال قبل المال ، ويقال العيال سُوسُ المال ، ويقال ما يَسْبِقُ عيالٌ مالاً قط إلا كان صاحبُه فقيرًا » .

وسَّع ابن قتيبة الكلام في كتاب السؤدد وأضاف إليه ما يتصل به بسبب ولو كان بعيدًا فإذا كان السؤدد قد ذكر معه كلام في المال ، واستدعى الكلام في

المال حديثَ الكسب ، فإنك ترى ابن قتيبة يمد الكلام ويُدْخل فيه حديث التجارة لأنها من وجوه الكسب ، ويدخل فيه حديث الدَّيْنِ لأنه مما يتوقع حدوثه مع الكسب والتجارة ، ولما رأى الناسَ قد أفرطوا في تقدير الغِنَى قلب ابن قتيبة الصفحة فعقد بابا في ذم الغِنَى ومَدْح الفقر ، وتذكر أن الكتاب في الذي هو معارف الناس وثقافة الناس ، وكل هذا مختلف جدًّا ، فإذا كان في الناس من يَمْدَح الغِنى ويَذُمّ الفقر ففي الناس من يَمْدَحُ الفَقْر ويَذُمّ الغنى ، وابن قتيبة حريص على أن يعلم الأجيال علم الناس وما هم فيه من اتفاق واختلاف وتقارب وتباعد ، حتى يعيشوا مع الناس وهم يعلمون عنهم كل ما هم عليه ، ويحسنون التعايش معهم ، ولا تَصْدِمُهُمْ الآراء المختلفة والمتنوعة ، وهذا شأن الشعوب الأكثر رُقِيًا .

وقد بدأ باب ذم الغنى ومدح الفقر وهو عنوان غريب وصادم ، وخصوصًا أن دين الله ـ جل وتقدس ـ لم يذم الغنى ، ولم يمدح الفقر ، وأن الله ـ سبحانه ـ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وأن من أصحاب رسول الله ﷺ من كان يكون فقيرًا حتى إنه ليجوع ولا يجد ما يقوته ، ومنهم من كان يكون غنيًّا حتى إنه ليجهّزُ جيشًا من ماله ، ولم يكن هذا فرقًا بينهم يَفْضُل به فقيرٌ على غنى ولا غنى عن فقير ، إنما الفضل راجع إلى شيء آخر ، وأن ابن قتيبة يكتب في فضل الغنى على الفقر وفي فضل الفقر على الغنى ، وأن كتابه ليس في الحلال والحرام ، وليس في تشريع للذي يكون عليه الناس ، وإنما هو كتاب يحدث عن الواقع بِصَوابِهِ وخطئهِ ، لأن علم الواقع علم لازم وواجب وعلم الأجيال به لازم وواجب ، وقد بدأ باب ذم الغنى ومدح الفقر بما ذكره أكثم بن صيفي وهو من حكماء العرب بإجماع ، وأن الفقر يرجع فضله إلى أنه يُحْوجك إلى

الفكرة ، وإعمال العقل ، وتدبير ما أنت فيه ، وأن الغنى لا يحوجك إلى هذا ، وما يحوج إلى الفكر وإعمال العَقْل وحسن التدبير أفضل من الذي لا يحوج إليه ، قال أكثم «ما يسرني أني مكفيّ كل أمر الدنيا ، قيل له وإن أسَمنْت وألْبَنْتَ ، قال نعم أكره عادة العجز» انتهى كلام أكثم ، ومعنى أسمنت وألبنت كثر مالك ولبنك ، والكفاية عند أكثم مَعْجزة والحاجة عند أكثم تفكير واجتهاد وإعمال عقل والفطرة التي فطر الله الناس عليها تكْرَهُ العجز ، وإن كان داعيه الكفاية والثروة ، وتحب الكفاح والجد والبحث عن الذي هو أفضل ، وتعجب حين تجد أن البحث والجد والضرب في الأرض ابتغاء فضل الله أفضل من صلاة النَّافِلَة إذا توفرت النيّةُ ، وقد وفد وَفْدٌ من الأشعريين على رسول الله ﷺ وفيهم رجل قالوا عنه لرسول الله ﷺ لا نعرف أحدًا أفضل منه إلا أن يكون نَبِيًّا ، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا كان يصوم النهار ، فإذا نزلنا في موضع أخذ جانبًا له وقام يُصَلِّي ، فسألهم رسول الله ﷺ عن الذي كان يقوم بشَأنِهِ فقالوا كلنا ، فقال الطَّيِّلاً كُلكُم أفْضَلُ منه ، وهذا كلام جليل جدًّا ، وأن من يقوم بشأن العابد الذي لا يَفْتُر في عبادته أفضل من العابد ، وأن من يقوم بشأنه وشأن أولاده أكثر فضلاً من العابد ، وعقب ابن قتيبة على قول أكثم بقوله : وكان يقال عَيْبُ الغنى أنه يُورِث البَلَه ، وفضيلة الفقر أنه يُورِث الفكرة ، وروى ابن قتيبة شعرًا يعارض الشعر الذي فيه أن المال يُسوِّد من لا سُؤدَدَ لَهُ ، وذلك قول المعلوط :

ولا سَوَّد المالُ الدنِيءَ ولا دَنَا ... بذاكِ ولكن الكريمَ يَسُودُ
متى ما يرى الناسُ الغنيَّ وَجَارُه ... فقير يقولوا عاجزٌ وجَليدُ
وليس الغنى والفقرُ من حِيلَةَ الفَتَى ... ولكن أحَاظٍ قُسِّمَتْ وجُدودُ
فكم قد رأينا من غنيٍّ مُذَمَّمٍ ... وصعلوك قومٍ مات وهو حَميدُ

إذا المـــرء أعْيَتْـــه المـــروءةُ ناشـــئًا فَمطْلَبُهـــا كَهْـــلاً عليـــه شـــديدُ

الأبيات تدور حـول إبعاد الغنى والفقر عن محيط السيادة ، لأن الغنى والفقر لا يدخل في باب عمل الإنسان ، وإنمـا هـي حظـوظ قُسِّمَتْ وجـدود ، وكيـف تدخل في تقدير قيمة الإنسان وهي غـير داخلـة في عملـه ، والمعنـى الأم لهـذه الأبيات هو الشطر الثاني من البيت الأول « ولكن الكريم يسود» وقد قـدّم لهـذه الجملة بجملتين صارت هذه الجملة الأُمّ نتيجةً لهما ، الجملـة الأولى « ولا سَوَّد المالُ الدنيَّ» واختيار كلمة الدني مع وصفه بالغنى دلالة قاطعة على أن الدنيء يبقى دنيئًا مهما ملك ، وراجع هذه وقوة دلالتها في إبعاد الثروة عن أن تضـيف شيئًا أي شيء لقدر الإنسان ، والجملة الثانيـة « ولا دنـا بـذاكٍ» ومعنـاه أن عـدم المال لا يضع الذاكي الكـريم ولا ينـزل بـه قِيـدَ نَمْلَـةٍ ، وإذا صـح هـذان وهمـا صحيحان فالنتيجة هي « ولكن الكريم يسـود» ، والبيـت الثـاني استشـهاد علـى صحة وسداد قوله « ولكن الكريم يسود» وذلك لأن الناس إذا رأوا الغنى البخيل الممسك الذي يرى جاره فقيراً ولا يُعْطيهِ لا يقولون غنى وفقير ، ولكن يقولون عاجز وجليد ، وهذا يعني أن الغني الجواد الذي يراعي جاره الفقير هـو كـريم يسود ، وقولـه « فكم قـد رأينا من غِنًى مُـذّمم» تأكيد لمعنى أن المرء لا يحمـد بثروته وماله ، وذكر الصعلوك بدل الفقير المقابل للغنى فيـه لمحـة تـذكير بـأن أكرم العرب الذي هو حاتم الطائي كان أحد شيوخ الصعاليك وتقدمت أبياتـه ، والبيت الأخير معناه أن المروءة تُعلَّم من النشأة ، ومن لم يَتعَلَّمها من أب كريم يَرعاه منذ طفولته فلن يستطيع أن يتعلمها وهو كـبير ولـو طلبهـا ، لأن مطلبهـا كهلا عليه شديد .

وذكر ابن قتيبة في هذا المقام قول أبي تمام :

لا تُنكِري عَطَلَ الكريمِ من الغِنَى فالسَّيْلُ حَرْبٌ للمكان العالي

وهذا من جيد أبي تمام الذي لا يلحق به كثير من الجيد ، ومن براعة أبي تمام أنه يأخذ المعنى الشائع ثم يدخل فيه صَنْعة يصير بها غير شائع ، وجملة «لا تنكري عطل الكريم من الغنى» ليست غريبة ولا بعيدة ، وإنما صارت غريبة وبعيدة لما عَلَّلَ هذا النهي بقوله «فالسَّيْل حَرْبٌ للمكان العالي» وهذه الفاء تفيد أن ما بعدها سبب للذي قبلها ومعطوف عليه ، وهذا من التمثيل النادر ، والقياس فيه قياس تخييل ، وفكرة أن السَّيلَ حرب للمكان العالي من اختراع أبي تمام ، لأن السَّيْلَ لا يبقى في المكان العالي ، لأن الماء سيَّال ومن شأنه أن يَنْحدِرَ من الروابي إلى الوهاد ، ولو قال إن المكان العالي حرب للسيل لكان أظهر ، لأن المكان العالي يقابل الكريم والسيل يقابل الغنى والثروة ، والكريم هو الذي يُبدّد المال ولو كان سيلاً ، ولكن أبا تمام جعل السيل حربًا وكأنه يشير إلى أن مال الكريم لا يألف البقاء عنده ، كما قال غيره :

لا يَألَفُ الدرهمُ المضروبُ صُرَّتَنا لكن يمرُّ عليها وهو منطلق

ثم ذكر ابن قتيبة ما قرأه في كتب الهند وهو أن الكريم كريم كان غنيًّا أو فقيرًا ، وأن الخسيس خسيس غنيًّا كان أو فقيرًا ، وأن الصفات باقية للذوات لا يرفعها غنى ولا يخفضها فقر ، والذي ذكره من كتب الهند هو : «ذو المروءة يُكْرَمُ مُعْدِمًا كالأسد يُهابُ وإن كان رابضًا ، ومن لا مروءة له يهان وإن كان موسرًا كالكلب وإن طوّق وحُلّيَ» انتهى كلام الهند ، وهو كلام جيد وفيه حدة وغضب وازدراء للدناءة والخساسة ، وأن الدنيء كالكلب ، وأن ثروته لا تمحو شيئًا أي شيء من خساسته ، وإنما تزيده حقارة كطوق الذهب على الكلب ، وهذا النص من كلام الهنود يعني أن هذا المعنى الذي هو أن الكريم كريم

وإن كـان معدمًا ، والخسيس خسيس وإن كـان موسراً ، هـو معنى إنسـاني عـام لا يخص جنسًا دون جنس ، وقد تجد بين جَنْبَتَي الخادم مروءة ورجولة ونخوة وسماحة لا تجدها بين جَنْبَتَي المخدوم ، وأن الشهم شـهم ولـو كـان خادمًـا ، والندل ندل ولو كان التاج فوق مفرقه علـى جـبين كأنـه الـذهب ، هكـذا يقـول العرب ، وهكذا يقول العجم ، وهكذا يقـول التـاريخ ، وهكـذا يقـول الإنسـان . ونقل ابن قتيبة رسالة كتبها عمر إلى ولده عبد الله ، قال : « يا بني اتق الله فإن من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفـاه ، ومن شكـره زاده ، فلتكـن التقوى عمـاد عينيك وجـلاء قلبك ، واعلـم أنه لا عمل لمن لا نيَّة له ولا أجر لمن لا حسـبة له » انتهت الرسالة . وراجع كلام الكريم إلى ولده الكـريم واجتهـد في تحصـيل وصيَّة الكريم للكريم ، وكأن ابن قتيبة في زحمة الذي عليه النـاس مـن العـرب والعجم أراد أن يُنَبِّهنا إلى هذه الأصول الإسلامية التي قلّت في الكتاب لأنه ليس في الحلال والحرام ، وهذه الأصول مهما كررتها تجـدها دائمًـا حيَّـةً في قلبـك خضراء مورقة ، راجع من اتقى الله وقاه ، ووقاه يعني حفظه ووقاه شـر النـاس ، واسأل نفسك هل تَتَطَلَّع نفسك إلى حماية وحراسة أعلى وأفضل من أن يكـون الله ـ سبحانه ـ بجلاله وعزه وسلطانه هو الذي يحميك ويقيـك ، إن أردت هـذه الحماية والحراسة والوقاية التي لا يصل إليك بها مكروه البَتّة فـالطريق هـو أن تتقي الله ، أعني تخافه ، فإذا خفتـه أمَّنـك مـن كـل خـوف ، وراجـع الجملـتين المتتابعتين المتساويتين من اتقى الله وقاه ومن توكل عليه كفاه ، ومعنى كفاه أن يَتَوَكَّلَ اللهُ ـ جل وتقدس ـ بكفايتك فلا تحتاج إلى غيره ، ولاحظ أن سيدنا عمر ذاق هذين الأمرين ، وأنه اتقى الله فوقاه ، وتوكل عليه فكفاه ، وتمام هذا الجزء من الرسالة قولـه ومـن شـكره زاده ، راجـع بنـاء الجمـل الـثلاث وهـي الشـرط

والجواب ، وإذا أردت المزيد من عطايا الكريم فاشكر الكريم وليس عليك إلا هذا قل الحمد لله ، فإذا أنعم عليك بطاعة وعمل صالح فاشكر ليزيدك طاعة وعملاً صالحًا ، فلست في حاجة إلى شيء أفضل من حاجتك إلى الطاعة والعمل الصالح ، ومن زيادته لك في العمل الصالح أنه يَرْزُقكَ حُبَّ الطاعة والعمل الصالح فتعمل الطاعة والعمل الصالح مَحَبَّة وليس تكليفًا ، وتقترب من العبد صُهَيْب الذي «لو لم يخف الله لم يعصه» وقوله : «فلتكن التقوى عماد عينيك وجلاء قلبك» لاحظ أن بناء الجمل تغيَّر وأنه اصطفى من الجمل الثلاث السابقة الجملة الأولى التي هي التقوى ، لأنها هي الأصل ، فمن أحسن التقوى أحسن التوكل وأحسن الشكر . وقوله : «واعْلَم أنه لا عمل لمن لا نِيَّة له ولا أجْرَ لمن لا حِسْبة له» المعنيان متقاربان جدًّا والبناء بناء واحد وهو مختلف عن الجملة السابقة لهما ، راجع كيف تكون المباني في حوزة المعاني فتقاربها إذا تقاربت وتباعدها إذا تباعدت ، وكلمة «اعلم» كلمة جليلة لأنها تُنَبّه من خَطَرِ الغفلة التي يضيع بها العمل ، وهو الغفلة عن النية ، وهذه الكلمة المختصرة يجب أن تُزْرَع في قاموسنا «لا عمل لمن لا نِيَّة له» والويل لنا من الغفلة عن النية لأنها تُحْبِطُ أعمالنا وحياتنا ، وتعجب من كرم الكريم حين يجعل النيَّات الصالحات تَتَحوَّل بها المباحات إلى طاعات ، ويقابل ذلك أن الغفلة عن النِّيَّةِ تدمر كل عمل ولو كان من الصالحات ، وأختها قوله «ولا أجْر لمن لا حسبة له» . ورحم الله ابن قتيبة فقد كان يذوق ويحسن أن يذوق ويختار ويحسن أن يختار .

الحلم

ومن أكرم وأظهر أخلاق السؤدد الحلم لأنه يَهْدِمُ منابع الشر ويقتل الغضب

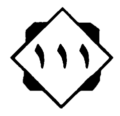
ويقابل الشر بالخير ، والسيئة بالحسنة ، والبغض بالحب ، ولا يستطيعه إلا الكريم الغالب لنفسه القادر على المكاره التي حُفَّت الجنة بها ، ثم إن الحلم أبلغ وأسدُّ وأشدّ ما يجابه به سَفَهُ السفهاء، جاء رجل فشتم الأحنف فسكت عنه، وأعاد فسكت ، فقال لَهْفَاه ما يَمْنَعُه من أن يردّ عليّ إلا هواني عليه ، ولم يكن العرب في جاهليتم يَتَعلَّمُون الحلم من كتب الأخلاق ، ولكن كانوا يتعلمون الحلم من سلوك رجال كبار منهم ، وكان الجيل الجديد له فيهم قدوة ، وكان هذا أفعل في نفوسهم وأبعد غَوْرًا وأشد تأثيرًا ، والأحنف بن قيس من أكرم قومه وهو الذي قال فيه زياد بن أبي سفيان إن الأحنف لا تَنْفَعُه ولاية ولا يَضُرّه عزل ، وناهيك عن رجل هذا وصفه ، والأحنف هذا يقول لنا ولمن قبلنا ولمن بعدنا : تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقري . بينما هو قاعد بفنائه مُحْتَبٍ بكسائه أتته جماعة فيهم مقتول ومكتوف ، وقيل له هذا ابنك قتله ابن أخيك ، فوالله ما حَلَّ حَبْوته حتى فرغ من كلامه ، ثم التفت إلى ابن له في المجلس فقال له قُمْ فأطلق عن ابن عمك ، ووَارِ أخاك ، واحمل إلى أمه مائة من الإبل ، ثم أنشأ يقول :

إني امروٌ لاَ شائنٌ حَسَبِي ... دَنَسٌ يُغيِّرهُ ولا أفَنُ
من مِنْقِر في بيت مَكْرُمَةٍ ... والغُصْنُ يُنْبِتُ حوله الغصْنُ
خطباء حين يقول قائلهم ... بيضُ الوجوه أعِفَّةٌ لُسْنُ
لا يفطنون لعيب جارهم ... وهمُ لحفظ جواره فُطُنُ

ثم أقبل على القاتل فقال قتلت قرابتك ، وقطعت رحمك ، وأقْلَلْتَ عَدَدَكَ .

وفي قيس بن عاصم يقول عَبَدة بن الطبيب :

عليك سلامُ الله قيسَ بنَ عاصمٍ ... ورَحْمتُه ما شاءَ أن يَتَرَحَّما



تـحيّة مـن أَلْبَسْتَهُ منك نِعْمـةً إذا سار عن شَحْطٍ بلادَك سلّما
وما كان قيسٌ هلكـهُ هلكَ واحد ولكنه بنيان قوم تهدّما

والذي رواه الأحنف لا شك فيه لأنه شريف صادق ، والشريف لا يكذب ، وإنما يكذب الخسيس الدنيء ، وقد استشعر غرابة ما رأى بعينه وسمع بأذنه وأنه مظنة الشك ، فأقسم بالله أن الذي حكاه هو الذي رآه ، وقد راجعت شعر قيس الذي أنشده في هذه اللحظة التي لا يَمُرُّ بالناس أحرجُ منها ، والذي فهمته وقد تفهم منه أفضل مما فهمته أن قيسًا رأى مُنكرًا وقع في قومه ، لأنه لا منكر أبشع من أن يقتل الولد ابن عمه الذي هو أخوه ، لأن العم صِنْو الأب ، فوجَّه كلامه إلى بيان شرف قومه ليبادر بغسل هذا الخطأ ، وراجع قوله لا شائن حسبي دَنَسٌ يُغيرّه ، ولا أفْنُ والأفْنُ العمل القبيح وهذا ما أردته من المبادرة بغسله لأن فِعْل ابن أخيه دنس يُغيِّر الشرف ، ثم أشار إلى أن حلمه في هذه اللحظة الحرجة ليس منه وإنما هو من بيت مِنْقر الذي هو بيت مكرمة وبيت ابن أخيه ، وأن قيسًا ليس إلا غصنًا لم يُنبته جذر شجرة بيت المكرمة ، وإنما هو غصن أنبته غصن ، ثم انصرف إلى الحديث عن كرم قومه وأنهم خطباء بيض الوجوه أعِفَّةٌ لا يفطنون إلى عيب جارهم ، ووراء كل هذا أن كرام الناس لا يقابلون الشر بالشر والغضب بالغضب ، لأنهم إن فعلوا ذلك فتحوا على أنفسهم أبوابًا من الشر والفساد والخراب ، لأن الشر يبعث الشر ، والغضب يبعث الغضب ، وكرام الناس يَسُدُّون أبواب الشر وأبواب الخراب ، وإذا رأيت من يواجه الشر بالشر فاعلم أنه يعمل على خراب البلاد وإن تعلّل بكل العلل ، قلت إن مواجهة الشر بالشر من أهم أسباب خراب البلاد ، والمواجهة بالحلم كالذي كان من قيس من أهم أسباب عمرانها ، والعفو عن المذنبين أشدّ عليهم من العقوبة ، وهذا من معنى قول عبده « ولكنه بنيان قوم تهدّما » وقيس لم ير

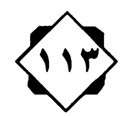
نفسه بُنْيانَ قوم وإنما هو غصن أنبته غُصْنُ ، والذي يرى نفسه سيدًا لا يكون سيدًا ، وإنما سيد القوم هو الذي يكون بينهم وليس سيدهم ، ولا شك أن فِعْل قيس في قومه ومجتمعه يُنْتِجُ من الحلم ومكارم الأخلاق ما لا تنتجه كتب كثيرة في الحلم ومكارم الأخلاق ، لأن رؤية الحلم حيًّا في حياة الناس ليس كرؤية الحلم ساكنًا في عقولهم ، وقد أوصانا رسول الله ﷺ بأن نتجاوز عن زلاّت الكرام وقال لنا : « والذي نفسي بيده إن أحدهم ليَعْثُر وإن يده لفي يد الله » وكأن الله ﷻ بذاته وجلاله وعزه وسلطانه يَمُدُّ إليه يَدَه وهو في هذه العثرة ليُقيله منها ، فإذا رأيت تَسَلُّطًا وقهرًا لأهل الخير فحذّر من تصفية البلاد من حماتها ، لأن أهل الخير والمروءة والشرف هم حماتها ، وتصفية البلاد من حماتها يفتح بابها لعدوها ليدخل عليها منه ، وفي كل زمن ترى شرذمة من السفهاء والسفلة تنال ألسنتهم أهل الخير وأهل الفضل من كرام رجالها وعلمائها ، ولكن هؤلاء السِّفْلة ذهبوا وذهب معهم سفههم وبقي الكرام كرامًا ، وقد سمع الشّعْبي وهو من كرام علمائنا سفاهة من سفيه فقال له : إن كنت صادقًا فغفر الله لي ، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك ، ومَرّ على قوم ينتقصونه فقال :

هنيئًا مريئًا غير داءٍ مُخَامِرٍ ... لِعَزَّة من أعْراضِنَا ما استحلّتِ

ولهذا لا أضَيّع وقتي في الرد على هؤلاء الذين يهاجمون كرامنا من أمثال الشافعي والبخاري وغيرهم حتى نالت ألسنتهم أصحاب رسول الله ﷺ وأقول :

كناطح صخرة يومًا ليوهنها ... فلم يَضِرْها وأوهى قرنه الوَعِلُ

وإن كان الوعل التافه في زماننا لا يشعر بأنه أوهى قرنه وإنما يشعر بالأبَّهة والتميّز ، لأنه من أهل التحديث والتنوير الذي يخرج به قومه من النور إلى الظلمات .



روى ابن قتيبة قول الأصمعي : أن رجلاً قال لآخر : لَئِنْ قلت واحدة لتَسْمَعَنّ عشرًا ، فقال له الآخر : لكنك إن قلت عشرًا فلن تسمع شيئًا ، فَبُهِتَ الأول . وشتم رجل الأحنف وجَعَل يَتْبَعه حتى بلغ حَيَّهُ . فقال له الأحنف : يا هذا إن بقي في نفسك شيءٌ فهاته وانصرف لا يَسْمَعُك بعضُ سفهائنا فتلقى ما تكره . وخلاصة هذا الباب أن الحلم والرحمة والتسامح والعفو من أصول معاني الشرف والسيادة ، فالذي يقتل ويبعث الشر ويظلم ليس من الشرف والسؤدد في شيء ، وكان من شرف حاتم الطائي الذي لم يُدْرك الإسلام أنه أقسم ألا يقتل واحد أُمّه ولو لقيه بالسيف ، وقد هزني شرف مالك بن أسماء لما باع له أعرابي ناقة وصار ثمنها في يد الأعرابي ، نظر الأعرابي إلى ناقته وذرفت عيناه ثم قال :

وقد تَنْزِعُ الحَاجَاتُ يا أمّ مَعْمَر   كرائمَ من ربٍّ بهن ضَنِينُ

فقال له مالك خذ ناقتك وقد سوّغتك الثمن ، استشعر مالك ما في نفس الأعرابي من حب لناقته وأن الحاجة هي التي دفعته لبيعها لأن الحاجة قاسية فقد تنزع من المرء كرائمَ عنده و هو ضَنينٌ بها ، والأعرابي يعتذر للناقة وكأنه استشعر أن الناقة عاتِبَةٌ عليه مع أنه غلبه البكاء وهو يُسْلمها للذي اشتراها ، وأظهر من هذا في الدلالة على فطرة النفس الإنسانية التي تجاوزت الحنين إلى الناقة ، وأعني فطرة النفس الإنسانية التي أَلِفَتْ القوس الذي أَتْقَنَتْهُ وأفرغت ذوبا منها في إتقانه في الذي رواه الشماخ ، ووقف عنده المرحوم محمود شاكر ، والقواس مِهْنَتُه صناعة القوس وبيعها ، ولما ذهب بهذه القوس إلى السوق رآها ووقع عليها بيّعٌ يعرف قيمتها ، فعرض لها ثمنًا عاليًا والرجل متردّد لحبِّه لها ، فقال له الناس بع فباعها ولما باعها فاضَتْ العينُ عَبْرةً « وفي النَّفْسِ حَزّازٌ من

الوجد حامز » وهذا كلام الشماخ ، ولا شك أن الناقة التي تَحِنُّ إلى مباركها تَحِنُّ أيضًا إلى الذي ألفته وأكرمها ، وهذا ما رأيناه بأعيننا ، ولكن هل تَحِنُّ القوس على الذي أفرغ ذوبا من نفسه في إتقانها وتميزها ؟ لا أعرف ذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى علمنا أن كل ما خلقه من إنسان وحيوان وبر وبحر وجبال وشجر كل ذلك يسبّح بحمده ، وتسبيحها بحمد خالقها هو صَلاَتُها كما قال عبد الله بن عباس ، ولكن هل يمكن أن ينتقل هذا إلى صنع الإنسان ، ولله المثل الأعلى ، وأن ما أَتْقَنَتْهُ يداك ولك حنين إليه بلا خلاف فهل هو يحن إليك ؟ وهل يأرز إليك ؟ لا شك أن ترك السؤال غير مجاب يفتح بابًا للفكر يكون فيه ترك الجواب أفضل من الجواب ، ومما يُبرّر ترك الباب مفتوحًا أن أختم هذا بالقول بأن القوس إذا قلنا إنه خشب لا ينزع ، فهل ما سكبه القواس فيه من ذوب قلبه على حد تعبير المرحوم محمود شاكر هو الذي ينزع ؟ وأنتقل إلى ما قاله ابن قتيبة في .

العاقل كما يراه عمرو بن العاص

قال : قال عمرو بن العاص : ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر ، ولكنه الذي يعرف خير الشرين ، وقال زياد : « ليس العاقل الذي يحتال للأمر إذا وقع ، ولكن العاقل الذي يحتال للأمر ألا يقع » وهذان حديثان عن العقل كل يحدث عنه من زاوية ربما كانت الزاوية هي الجهة التي هو أكثر شغلاً بها وهذا ظاهر في حديث زياد لأنه رجل سياسة ، والجهة التي تحدث منها أشبه برجل السياسة ، وكلمة عمرو بن العاص وهو من كرام عقلائنا تقول لنا إن التفريق بين المختلف لا يدل على نُضج العقل حتى في مسائل العلم ، وإنما التفريق بين الملتبس المؤتلف الذي صيَّره الائتلاف كأنه يوشك أن يكون شيئًا واحدًا ،

والعقل الأفضل هو الذي يستخرج الاختلاف من الائتلاف ، وأن علينا أن نختبر قدراتنا العقلية في هذا الباب ، وبهذا الباب تتميز البحوث العلمية ، وتعجب لنفاذ سيدنا عمرو بن العاص بن وائل السهمي حين يقول لك إن في الشر خيراً وإذا كنت بين شرَّيْن فاختر أكثرهما خيرًا ، فليس الشر شرًّا محضًا لا خير فيه ، وليس الخير خيرًا محضًا لا شرّ فيه ، وإنما أنت واجد بنفاذ عقلك خيرًا في الشر ، والمطلوب منك وأنت بين شرين أن تختار الشر الذي هو أكثر خيرًا ، ويعلم الله أن عمرًا ما قال هذا إلا لتنتفع به الأجيال ، وما نَقَلَهُ لنا ابن قتيبة إلا لتنتفع به الأجيال ، وما كتبته إلا لتنتفع به الأجيال ، فاتقوا الله أيها الأبناء الذين هم الأجيال ، وأقبلوا على المعرفة ليهابكُمْ أعداؤكُم ، ولنطمئن على أنكم تحمون أرضنا ونحن في قبورنا ، وهذا ما قاله لنا عمرو ، أما زياد فإنه يقول لنا شيئًا هو أشبه بعمله ، وأن العاقل ليس الذي يُحْسِنُ الخلاص من الأمر الذي وقع فيه ، وإنما هو الذي يحتال للأمر المتوقع فلا يقع ، وهذه مبادرة أخرى وسبق للأحداث . يعني عقله يسبق الحدث ويمنعه من أن يقع ، زياد رجل يمارس السياسة ويقول لنا إن السياسي الراشد ليس هو الذي يُغرق البلاد في الأحداث ويعتذر لقومه بأن العالم كله وقع في الذي وقعنا فيه ، زياد يقول لنا منذ أربعة عشر قرنًا ما هكذا يا سعد تورد الإبل ، وإنما عليك أن تَحْتَالَ بعقلك وذكائك حتى تُجنّبَ قومك الكوارث بمنعك لوقوعها ، وهذه هي السياسة وهذه هي الكياسة ، ومن لم يكن مؤهلاً بهذه العقلية يسعه بيته ويترك شأن البلاد لأن إدارة شؤون البلاد من أخطر ما يمارسه أزكاهم وأكرمهم وأحزمهم .

التوسط في الأشياء

كتب ابن قتيبة بابًا جليلاً عنوانه «التوسط في الأشياء وما يُكْرَهُ من التقصير

فيها والغلو » وقد استحسنت هذا الباب وأرى ضرورة أن يطلع عليه الجيل الجديد الذي يجب أن يتغيّر بالعلم والمعرفة ، وهذا الباب ملائم للفطرة وغير متدافع مع الجد والكد والاجتهاد الذي لا تكون عمارة الأرض إلا به ، وقد خلقنا لعمارة الأرض وعبادتنا هي عمارتها . روى ابن قتيبة عن أمنا الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما قوله عليه السلام : « اكْلَفُوا من العمل ما تطيقون » وكلمة ما تطيقون تعني ما يكون في طوقكم ، فليس لك أن تقتصر في مزاولتك للعمل ما دون الطاقة ، وإنما الواجب أن تبلغ طاقتك ، وليس من الصواب أن تكلِّف نفسك من العمل ما هو فوق الطاقة ، لأنك لو كلفت نفسك ما فوق الطاقة ستنقطع لا محالة ، وليس في التوسط أبين ولا أصح ولا أسدّ من هذا ، وتعجب من جملة مكونة من كلمتين تَضَعُ لك نظام شنلك وسعيك وجدِّك وكدِّك في حياتك ، ثم هي متلائمة مع الفطرة تلاؤمًا لا تجد أصح ولا أكرم منه .

إنما يبلغ الإنسان طاقته ما كل ماشية بالرجل شملال

وطاقاتنا مختلفة فقد تزيد طاقتك عن طاقتي وأنت مكلف بالذي تطيقه وأنا مكلف بالذي أطيقه لا تزيد أنت ولا تنقص ، ولا أزيد أنا ولا أنقص ، ولو بذل كل واحد منا طاقته لتغيَّر الحال في أقصر مدة ، ومن واجب أهل السياسة أن يُتِيحُوا لأهل الطاقات العمل الذي يطيقون ، لأن وجود العاطلين إهدار لطاقات يجب أن ينتفع بها ، ويدخل في هذا الباب باب التوسط قوله عليه السلام : « إن هذا الدين يُسْرٌ ولن يشادَّ هذا الدين أحدٌ إلا غلبه فسَدِّدوا وقاربوا وأبشروا » ولو كان هـذا الدين هو فقط الصلاة والصيام والزكاة لما قال عليه السلام « اكْلَفُوا من العمل ما تطيقون » لأن العمل في العبادة محدد بخمس صلوات كتبهن الله في اليوم والليلة ، وصوم شهر رمضان ، والزكاة على من عنده مال ، والحج لمن استطاع

إليه سبيلاً ، وكل هذا ليس فيه اكلفوا من العمل ما تطيقون ، وإنما هذا لا يكون إلا في عمارة الأرض التي هي عمارة البلاد ، والتي هي الغنى وهي القوة وهي العيش الطيب والحياة الأكرم ، وفي هذا نُبْذَلُ كل الطاقات بدون تقصير ، وبدون مغالاة ، ربنا قال لنا : ﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الجمعة:١٠) ، ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (المزمل:٢٠) ، ﴿ فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ (الملك:١٥) ولو وَقَفْتَ ستجد كل سلوك المسلم في سعيه على الأرض هو سلوك لطلب الدنيا وطلب الآخرة معًا ، وليس في الآخرة ثواب إلا لعمل الصالحات في الدنيا ؛ وليس في الآخرة عقاب إلا لعمل السيئات في الدنيا ، ولو أنك احْتَسَبْتَ كل عمل لك في الدنيا وابتغيت به وجه الله لكانت كل دنياك لآخرتك ، حتى يصير نومك عبادة ، ورحمة الله أوسع حتى إن الذي تُنْفِقُه على أولادك مع صدق النيّة وصِدْقِ الاحتساب ثوابه عند الله أكثر من الذي تنفقه في سبيل الله ، اجتهد في عملك الذي هو وظيفتك الذي تأخذ عليه أجرًا من الدولة واستحضر في نفسك الإتقان لصالح الجماعة التي أنت منها ، وستأخذ من الله أجرًا هو أضعاف مضاعفة من مرتبك ، ومن الجهل الذي يجب أن يزول هو الاعتقاد بأن العمل الواجب علينا ليس لنا فيه أجر من الله ، واعلم أن عطاء الله أوسع ، ورحمة الله أوسع ، وباب الله أوسع ، وأعجبني الحسن بن هانئ الذي لم يترك منكرًا إلا ارتكبه ، وكانت اللذاذة عنده في الحرام كما قال ، فلما آب إلى الله وتَنَبَّه ورجع قال :

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فلما عَدَلْتُه بعفوكَ ربي كان عَفْوُكَ أعظما

عَدَل ذنوبه التي عاش حياته كلها يزاولها بِعفو ربه فرأى عفو ربه أعظم منها .
وتذكر قول عمر لا عمل إلا بنيّة ولا أجر إلا باحتساب ، وهذه تدخل كل

عملك في الطاعة إذا نويت واحتسبت ، وقول حذيفة - رضوان الله عليه - « خيركم من يأخذ من دنياه لآخرته » وراجع الجملة الكريمة التي قالها كريم ، وتأمل ما فيها من بِشْر ورِفْق ، وأنَّ خَيْرَنا من أخذ من دنياه لآخرته وأبقى دنياه لدنياه ، وإنما أخذ منها جزءًا لآخرته ، فلو أنني ضربت في الأرض ، ومشيتَ في مناكبها لأحصل ما أَبْغِي تحصيله وأنا في أكثر أحوالي غافل عن الآخرة لا أنوَى ولا أحْتسب ، ثم أُؤَدي الفرائض وأَنْوي وأحتسب في بعض سَعْيي أكون بذلك من خير أمة محمد ﷺ ، ثم إنه عليه السلام يعلمنا الأحكام ويعلمنا مع علمها العلم الذي هو القياس والاستنباط ، وكأنه عليه السلام يُسكّن في قلبك مع كل حكم وجهًا من وجوه التفكير والاستنباط ، وبناء على هذا أقول إن قوله عليه السلام : « خيركم من يأخذ من دنياه لآخرته » يمكن أن أخطو به خطوة إلى الإمام وأقول خيار خياركم من يأخذ كل دنياه لآخرته ، وذلك بالنيَّة والاحتساب اللذان يجعلان المباحات طاعات ، فأصوم مبتغيًا وجه الله ، وأفطر مبتغيًا وجه الله ، وأقوم مبتغيًا وجه الله ، وأنام مبتغيًا وجه الله ، وأقول لربي محياي ومماتي لك يا رب العالمين ، وهل ترى فضلاً أوسع من أنك وأنت تقرأ في أي كتاب مُسْتَحْضرًا النية والاحتساب يكون ثوابك أفضل من ثواب صلاة النافلة ، مع أنك لم تقرأ في الكتاب لتكتب كتابًا أو مقالاً ولا لتُعِدّ درسًا ، وإنما تقرأ فقط لتعلم وليرتقي عقلك ، وأنت تحاول أن يرتقي عقلك تُظِلُّكَ الملائكة لأنك تطلب علمًا ، وتأخذ أجْرًا أكرم من صلاة النافلة ، ثم إنني رأيت رجالاً جَعَلُوا كل دنياهم لآخرتهم ، فحصَّلُوا لِدُنياهم أكثر من الذين جَعَلُوا دنياهم لدنياهم ، لأن توجه القَلْب إلى الله يورثه رضا وفهمًا واطمئنانًا فيصيب قليل من العمل السديد ما لا يصيبه البعيد عن الله بالعمل الكثير ، واعلم أن دين الله في غنى عن أي تزيُّد لأنه لله والله تعهد بحفظه ، وليس علينا إلا البيان ، ونعوذ بالله أن نَتَخطَّى البيان قيد نملة .

قال ابن قتيبة وفي الحديث المرفوع : «ليس خَيْرُكم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخَذَ من هذه وهذه» .

والذي ترك الدنيا للآخرة هو الذي طَلَب الآخرة بصلاته وصيامه وترك الانتشار في الأرض ، والسعي في الأرض ، والضرب في الأرض ، والمشي في مناكب الأرض ، ولم ير للآخرة إلا بابًا واحدًا ، هو ترك كل هذه الدنيا والانقطاع للصلاة والذكر في المحاريب ، وجهل أن الصلاة أو الصيام وكل العبادات هي إعداد المسلم لعمارة الأرض بالحق ، والعدل ، والرحمة ، والإحسان ، وهو مقابل في كلام سيدنا الذي هو سيدنا وكلامه سيد الكلام للذي ترك الآخرة للدنيا ، يعني سعى في الدنيا وأفرغَ حياته في عمارة الأرض ، ولكنه لم يذكر الآخرة ولم يذكر الله ، كهذه الأمم من حولنا التي عمّرت أرضها وليس لله ولا للآخرة حضور أي حضور في قلوبها وهم أصحاب «الأرض الخراب» ، كما قال شيخ كريم من شيوخهم . سيدنا رسول الله يقول هذان الطرفان ترك الدنيا للآخرة وترك الآخرة للدنيا لا خير فيهما ، والخير في الذي أخذ من هذه وهذه ، وقد ذكرتُ قصة الرفقة الأشعرية التي قدمت على رسول الله ﷺ وأثنوا على رجل منهم وقالوا لا يَفْضُلُه إلى نبي ، وأنه كان دائم الصيام دائم القيام إلى آخره ، وإنما ذكرتُها مَرَّة ثانية لأقول إن هذا الجيل عاش مع رسول الله ﷺ والآيات تنزل وتعاليم الإسلام تكتمل يومًا بعد يوم ، ولم تنزل آية اليوم أكملت لكم دينكم لأنها آخر ما نزل ، وكان كل صحابي يعمل بما علم ، ولو علم هذا الأشعري الكريم أن من يقوم برعايته خير منه لما ترك أحدًا يقوم برعايته .

وذكر ابن قتيبة عن ميمون قال : «كان أبو صادق لا يتطوع من السنة بصوم يوم ولا يصلي ركعة سوى الفريضة قبلها ولا بعدها وكان به من الورع شيء عجيب» انتهى ما ذكره ميمون . وترى في كلام ميمون قدرًا من التعجب من

حال أبي صادق ، تراه يؤكد أنه لا يتطوع من السنة بصوم يوم واحد ، لا يوم عرفة ولا يوم عاشوراء ولا غيرهما ، وتراه يؤكد أنه لا يصلي ركعة زائدة عن الفريضة لا قبل الفريضة من السُّنَن القبلية ولا بعد الفريضة من السنن البعدية ، ثم تراه مع ذلك به من الورع الشيء العجيب ، وكان ميمون يَتَساءَل عن هذا الورع العجيب كيف حصله ؟ مع أنه لم يطلبه في سنن ولا نوافل لا من صلاة ولا من صيام ، ولا شك أن ميمون يقول لنا هذا نموذج من الصالحين الأتقياء الأصفياء ، وهذا عمله الذي لا يزيد عن آداء الفرائض ، ففكروا وابحثوا عن سِرِّ وَرَعِهِ ، وهكذا أهل العلم يُعلّمون قدرًا من العلم ويطلبون منا أن نبحث في العلم عن علم آخر ، وليس عندي في هذا إلا أن ورع هذا الكريم الطيب إنما أتاه من سلوكه ، لأنه لا محالة يأكل من كسب يده ، وليس من الورع في شيء أن يَعُولَه غيره ، فهو لا محالة يتقلب في الناس ويضرب في الأرض ، ويمشي في مناكبها ، ويأكل من رزق الله ، الذي لا يأتيك إلا بالسعي ، ثم هو وهو في مَعْمَعَة السعي في الأرض رجل صادق ، وأمين ، وكريم الخلق ، لا يؤذي أحدًا ، ثم هو حليم كريم متسامح ، ثم هو بعيد عن كل شيء يغضب الله ، ولابد أن يكون ذاكرًا متعهدًا لقلبه ، ولم يطلب مَرْضاة الله في النوافل وإنما طلب رضا الله في السلوك ، ومكارم الأخلاق ، حتى سكن في قلبه الورع فصار من الذين إذا ذكروا الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون وهذا جيد جدًا ، ويقول لنا إن الطريق إلى الله ليست واحدة فقط بكثرة النوافل من الصلاة والصيام ، وإنما الطرق إلى الله متعددة ومنها السلوك الكريم في سعيك في الأرض ، وتعاملك مع الناس وكرم خلقك ، وأن تكون من أهل الحق ، وأهل العدل ، وأهل الرحمة ، وهذا أضبط للنفس وأشق عليها من كثرة النوافل .

ويشبه هذا ما رواه ابن قتيبة عن الشعبي عن عمه قال : « صحبت ابن مسعود

حولاً من رمضان إلى رمضان ، لم يَصُمْ يومًا واحدًا فأَهَمَّنِي ذلك وسألت عنه ، ولم أره صلى الضحى حتى خرج من أظهرنا » انتهى ما رواه الشعبي . وإن كان الذي نعرفه عن ابن مسعود غير ذلك ، لأنه كان من أقرب أصحاب رسول الله إلى رسول الله ﷺ ، وكان من أوسع أصحاب رسول الله ﷺ علمًا بالذي أنزله الله على رسوله ، ولما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن سأله بِمَ تقضي قال بكلام الله ، قال فإن لم تجد ، قال فبسنة رسول الله ﷺ ، قال فإن لم تجد قال أجتهد ولا آلوا يعني ولا أقَصّر ، فهش رسول الله ﷺ للذي سمعه منه . وقد ذكرت هذا وهو معروف ومشهور لأُنَبّه إلى أن الأحداث والقضايا التي تعرض لنا في حياتنا وليس في الكتاب ولا في السنة كلام صريح في مواجهتها ، وأن ذلك كان زمن النبوة ، وأن الاجتهاد ضرورة مبكرة منذ زمن نزول الوحي ، وإذا كان ذلك حدث في زمن النبوة فقد حدث أضعافه في كل زمن ، ولكن الاجتهاد الفقهي كان يواكب ويرافق كل زمن ، وهو في زماننا أكثر والحاجة إلى الاجتهاد الفقهي أكثر ، والواجب القاطع هو ضرورة أن يكون مثل ابن مسعود في كُلِّ هذه الأزمان وأن يكون في زماننا ، وإلا واجهنا قضايانا بعيدًا عن أمر الله ونهيه وهذه هي الحالقة ، وهذا يوجب ويؤكد على فقهائنا الكرام أن ينْقَطِعُوا للنظر والقياس والاستنباط والاجتهاد ، ولا أعرف عملاً أقرب إلى الله ولا أحب إلى الله من الاجتهاد في دين الله ، واستخراج حكم ما لا نعلم من حكم ما نعلم ، وأزيد أن هذا واجب في العلوم كلها ، وأن الاجتهاد في اللغة كالاجتهاد في الفقه ، وأكثر من ذلك الاجتهاد في علوم الصنائع ، وعلوم الطب ، وعلوم الهندسة ، كُلُّ ذلك من أوجب الواجبات لأنه هو وَحْده طريق التقدم ، والتخلف من الظلمات ولا يعمل لإخراجنا من الظلمات إلى النور إلا أكرم كرامنا . وهذا حسبي . وأنتقل إلى كتاب الطبائع .

* * *

كتاب الطبائع

أحيانًا ترى لذّة في تجاوز الكلام المكتوب إلى البحث عن الذي جرى في نفس الكاتب ، وهو يكتب هذا الفصل بعد هذا الفصل ، لأن هذا الانتقال إذا أهْمَلْتَ النظر فيه ، تكون قد أهْمَلْت معنى هو أصل من الأصول التي جرت في نفس الكاتب ، والذي أسس عليها بناء كتابه ، ومعرفة الأصل الذي بُنيَ عليه الكتاب ، ورُتّبت فصوله وقضاياه من أهم ما يجب أن يُفْهم من الكتاب ، وابن قتيبة عالم له غور وهذا الغور كما تراه في سطوره تراه أيضًا تحت سطوره ، قلت هذا لأنني رأيته بعدما فرغ من كتاب السُّؤْدَد انتقل إلى كتاب الطبائع ، ورأيته ختم كتاب السؤدد بأفضل وأكرم ما يكون عليه الإنسان الذي هو جدير بأن يوصف بالسيادة والشرف ، وشغلنا بما قاله زهير وهو من أكرم من يُقْدّرون الكرام ، وقد وقع هرم بن سنان في نفس زهير مَوقعًا لم أعرف شاعرًا قارب شريفًا كريمًا نبيلاً كما قارب زهير هرمًا ، ومن أفضل ما قاله فيه أبياته التي لا تزاحمها أبيات في معناها وهي قوله :

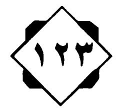
وأبيض فياض يَداهُ غمامةٌ ... على مُعْتفيه ما تَغِبُّ فواضلُه

غدوتُ عليه غُدوة فوجدتُه ... قعودًا لديه في الصريم عواذلُه

فأعَرضْنَ منه عن كريم مُرزَّا ... جموع على الأمر الذي هو فاعِلُه

أَخِي ثِقَةٍ لا تُذْهب الخمْرُ مَالَه ... ولكنه قد يُذهِبُ المالَ نائلُهُ

تراهُ إذا ما جئته مُتَهَلّلاً ... كأنك تُعْطِيهِ الذي أنت سائلُه



وهذه المعاني راقت الشعراء ، وحاولوا أن يأتوا بأفضل منها واجتهدوا في تجويد وتثقيف معناها ومبناها ، ولم أعرف أحدًا منهم أفلح في ذلك ، وظني أن القضية ليست براعة زهير في الشعر فحسب ، وإنما أيضًا لأنهم لم يجدوا في الذين حولهم ما وجده زهير في هَرِم ، ولا أشك في أن هَرِمًا استخرج من ذات نفس زهير الشاعرة قَدْرًا مما جاد به شعره ، لأن الشعر ليس كله من بنات الشاعر ، وإنما الرجال والأحوال لهم حظ من بنات هذا الشعر ، وقد وسّع حازم القرطاجني في هذا المعنى ، قلت إن ابن قتيبة انتقل بنا من هذا النموذج العالي الذي بلغ الغاية في الشرف والسمو ، إلى نموذج بالغ السوء في أول حديثه في الطباع ، وكأنه أراد أن يقول لنا من خلال هذا الانتقال الذي كان بين طرفين متعارضين ومتباعدين اعلموا أنكم تعيشون في مجتمع وستجدون فيه أكرم ما تُحِبُّون كما ستجدون فيه أسوأ ما تكرهون ، وأن عليكم أن تتقبلوا الناس بالذي هم عليه ، ولو أَرَدْتَ أن تعيش مع نموذج هَرِم فابحث لك عن كوكب آخر ليس فيه إلا هرم ، لأن الكوكب الذي أنت عليه فيه هرم وفيه أسوأ الأسوأ ، ثم إنك لا تستطيع أن تُغيِّر الطباع ، ولذلك بدأ بما رُوي عن أبي الدرداء من قوله : « وَجَدْتُ الناسَ أَخْبُر تقلَه » ، والذين وصفهم أبو الدرداء لهم ظاهر يمكن قبوله ، فإذا اقتربت من هذا الظاهر وخبرته وعرفت ما وراءه لن تجد في نفسك قبولاً له ، وإنما ستجد القِلَى الذي هو البُغض ، وأبو الدرداء عاش زمن النبوة ، وكلنا يحب كل من عاشوا زمن النبوة لأنهم جميعًا غضوا أصواتهم عند رسول الله ﷺ ، وهم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، وهم الذين وعدهم الله بالمغفرة والأجر العظيم ، وكلام أبي الدرداء من قول رسول الله ﷺ : « الناسُ كإبلٍ مائةٌ لا تجد فيها راحلةٌ » وهذا من جوامع كلمه ﷺ ، وهو صريح في أنك

لن تجد الراحلة في المائة الأولى، والله أعلم هل ستجدها في المائة الثانية أم لا؟ ابن قتيبة يقول حدثتك عن هرم بن سنان وغيره ممن ذكرتهم لك في كتاب السُّؤْدَد، وهم عروق الذهب الباقية في الناس، وأفتح صفحة جديدة لأكلمك عن عروق أخرى وأوصاف أخرى، وكأنه يريد لك أن تنسى أوصاف السؤدد الذين ملأ قلبك بهم، وقد اختصر لك أوصاف السوء اختصارًا شديدًا في مثل قول الشاعر:

سواء كأسنان الحمار ولا تَرَى لذي شيْبةٍ منهم على ناشئٍ فَضْلا

وهذا وإن كان أراد به قومًا إلا أن ابن قتيبة ساقه في باب التعميم، والواو التي في قوله «ولا ترى لذي شَيْبةٍ منهم على ناشئ فضلاً» واو الحال، أي هم جميعًا كأسنان الحمار، والحال أنك لا ترى لذي شيبة منهم على ناشئ فضلاً، وهذا أسوأ ما يوصف به الناس، وأن ذا الشيبة لم يتَعلَّم شيئًا في عمره الطويل الذي شاب فيه فيختلف بالذي تعلمه عن الناشئ، وهذا يمهد لما أراده ابن قتيبة، من أنك لا تُتْعِبْ نفسك في إصلاحهم، وذكر أنهم لو نُهوا عن شيء أغراهم النهي عنه بفعله، ولو كان الشأن فيهم أنهم لا يفعلونه لأن النفوس تَعافُه وهو غريب جدًّا، ولذلك قال ابن قتيبة فيه «وكان يقال» فأسْنَدَ القول إلى مجهول لفظاعة غرابة هذا القول، وهو «لو نُهِيَ الناس عن فَتّ البَعْر لفَتُّوه وقالوا ما نُهينا عنه إلا وفيه شيء» وكأن ابن قتيبة يقول لنا إذا أردتم من الناس أن يفعلوا أقبح القبح فلا عليكم إلا أن تنهوهم عنه، والذي ينهى الناس فيفعلون ما نُهُوا عنه ليس أنا ولا أنت، لأنهم لا يعبؤون بأمرنا ولا نَهْينا وإنما هو الذي له عليهم أمر ونهي، وهذا ما نراه، فإذا قيل للناس احذروا فلانًا رأيت كثيرًا من الناس يلتفون حول فلان، وإذا ما قيل لهم احذروا هذه الجماعة رأيت كثيرًا من الناس يلتفون

حولها ، ومرجع ذلك إلى أنهم يفتقدون الثّقة في الذي يكون منه الأمر والنهي ، لأنه يحذرهم من الظلم وهو ظالم ، ويحذرهم من الفساد وهو مفسد ، وتذكر قول سلمان لسيدنا عمر ، وقال لهم عمر اسمعوا ، فقال سَلْمان لن نسمع لأنك أَعْطَيْتَ كل واحد منا ثوبًا وأخذت ثوبين ، فنادى عمر على ابنه عبد الله وقال لهم إنه أعطى ثوبه لأبيه ، فقال سلمان الآن نسمع ، وضع بجوار هذا الذي لا يجد رغيف الخبز وينهاه الذي يجد كل شيء وفوق كل شيء ، ولو نهاه هذا عن فتّ البعر لفته ، ولو نهاه عن اتباع الشيطان لاتّبعه ، هكذا يقول التاريخ كله والواقع كله . واستشهَدَ ابنُ قتيبة لهذا بقوله : « كل ممنوع مرغوب » ، وقولهم : « أحب شيء إلى الإنسان ما مُنعا » وابن قتيبة توفى قبل نهاية القرن الثالث ، يعني كل هذا مروي زمن القرون المفَضَّلة ، ليس في تاريخ الإسلام فحسب وإنما في تاريخ البشر ، لأنها مفضلة في التاريخ كله ، وإذا كان هذا في زمن القرون المفضلة فلابد أن تتوقع أسوأ منه في غيرها . وإذا كان من الناس في القرون المفضلة من هم زُيُوف كزيوف الدراهم فلابد أن نتوقع ناسًا زيوفًا أسوأ من زيوف الدراهم ، وهذا ليس غريبًا لأن مثل هذا كان في زمن رسول الله ﷺ كان هناك منافقون ، وكان ابن أبيّ يجلس في مجلس رسول الله ﷺ ، وابن قتيبة يقول لنا ولأجيالنا هذا هو الوجود ، وهذه حقائقه ولا سبيل لكم إلا أن تعيشوه ، ومن الشعر الذي ذكره في هذا الباب :

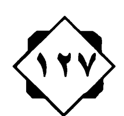
فإنك لا يَضِرُّك بعد حَوْلٍ ... أَظَبّيٌ كان أمّك أم حمارُ
فقد لحق الأسافلُ بالأعالي ... ومَاجَ اللؤمُ واخْتَلَط النجارُ
وعادَ الفِنْدُ مثلَ أبي قُبيسٍ ... وسِيقَ مَعَ المُعلْهجَةِ العشارُ

وأمَّك بفتح الهمزة وتشديد الميم المفتوحة يعني قصدك ، واختلط النجار أي الأصول ، والفند بكسر الفاء وسكون النون الضعيف الهزيل ، وأبي قبيس جبل بمكة ، والمراد الرجل القويُّ الشريفُ العريقُ ، والمُعَلْهجَة : المرأة اللئيمة الأصل الفاسدة النسب ، والمعنى أنك بعد زمن ستتبين ما قصدت إليه ، وأنه يستوي أن يكون أمَّكَ أي قصدك ظَبْيًا أي شيئًا نفيسًا أم كان قصدُكَ إلى حمار ، لأنه استوى النَفِيسُ مع الدنيء ، وجملة «وقد لحق الأسافل بالأعالي» معناها ظاهر وإن كان احتفظ للأعالي بكرمهم فلم يلحقوا بالأسافل ، وإنما التحق بهم الأسافل ، وهذا أقل بلاء من زمن ركب فيه الأسافل الأعالي ، وقوله «وماج اللؤم» أي غلا وعلا وطغى واختلط الحابل بالنابل ، والفِنْد الذي هو مثال الضعيف التافه وضع رأسه برأس أبي قُبيس العريق الكريم الراسخ ، وهو أقل بلاء من أن يرفع الفِند رأسه ويضرب رأس أبي قُبيس ، والليالي حبالى يَلِدْن كل عجيب ، وسيقت الإبل العشار الكرام مهرًا للمُعَلْهجَة الخسيسة الفاسدة ، وأسوأ من هذا أن تصير المعلهجة من النخبة وتتكلم في الدين وفي الشأن العام .

ومما ذكره ابن قتيبة في هذا المعنى قول الشاعر :

سَبَكْنَاهُ ونَحسَبُه لُجَيْنًا فأبْدَى الكيرُ عن خَبَثِ الحديد

والمعنى أننا اخترناه وصُغْناهُ ونحن نظنه فضة ، فأبدى الكيرُ عن أصل معدنه وأنه من خبث الحديد ، يعني ليس حديدًا وإنما هو من خبث الحديد ، وهذا جيد لأن الذي أظهر معدنه هو الكير الذي أوقد عليه النار ، وهذا بخلاف الذي أيدت الأيام أصل معدنه لأنه بَدَا أي ظهر وهو فضة ثم أَبْدَت الأيام أنه من خبث الحديد ، وأكّد ابن قتيبة أن هذا الصنف غير قابل لأن يَتَعدَّل ، وذكر لذلك حكاية طريفة وهي أن أعرابيًا وجد جرو الذئب وظن أنه يكون في حراسة



غنمه أفضل من الكلب ، وأقوى في الدفاع عن غنمه ، فأخذه وربَّاه ، فلما قوي وثب على شاة فقتلها وأكل منها ، فقال الأعرابي :

أكَلْتَ شُوَيْهتِي ورُبِّيتَ فينا   فما أدراك أن أباك ذِيبُ

وفي رواية :

ولدت بقَفْرَةٍ ونشأت عندي   فما أدراك أن أباك ذيبُ

وظن الأعرابي أنه ما دام ربَّاه بعيدًا عن الذئاب فسيجهل أنه ذئب ، وأراد ابن قتيبة أن يقول لنا إن الخسيس خسيس وهو في بطن أمه ، وأنه لو عاش في جماعة كلها أهل شرف فإن خساسة معدنه لن تتغيرَ ، كما أن الجَرْو بفطرته أدرك أن أباه ذئب ، وأتبع ابن قتيبة حكاية الأعرابي بقول الشاعر المشهور :

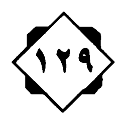
إذا كان الطباعُ طباعَ سوء   فليس بنافع أدَبُ الأديبِ

واعلم أن مجيء الكلام في أثر الكلام ووراءه مراد غير مدلول عليه بالكلام ، وإنما الدال عليه هو هذا السياق ، واعلم أيضًا أن الكاتب لا يحدثك بكل ما في نفسه ، وإنما يحدثك بشيء ويَسْكُت عن شيء ويومئ إلى شيء ، وربما كان الذي حدّثك عنه بالصمت أهم عنده من الذي حدّثك عنه باللسان ، وكلما كان الكاتب من طبقة الفضلاء العلماء الكرام كانت هذه الدلالات الخفية أكثر وأغْزر ، ومن الضروري أن تحرص على فهم كل ما في الكتاب ، وأن تَخْطُوَ خطوة وهي قراءة ما جرى في نفس الكاتب ، ودلّ على بعضه بلفظه ، ودَلَّ على بعضه بسياقه ، ودل على بعضه بالسكوت عنه ، لأن نفوس العلماء الكبار تجري فيها من الأفكار ما يذكر بلفظه وما يدل عليه السياق والمقام ، ووراء ذلك هناك خواطر وغَمْغَمات تخطر وتُغَمْغِمْ حول السياق والمقام ، ولما جمع العلماء كلمتي المقام والمقال أرادوا من بين ما أرادوا أن المقام مقال غير مكتوب ، ثم

إن هـذه الخطرات والغمغمات التي تحـوم وتُغَمْغِمُ حـول المقام لا يفطـن إليها ولا يرى خَطْفَها ولا يسمع هَمْسَها إلا من يراجـع ويتأمـل ، وتطـول مراجعته ويطول تأمُّله ، وكأنه يقرأ قراءة ثانية وثالثة ، ومعلوم أن العلماء صَنَعُوا العلـوم من الرموز والإشارات ، وتَلَمُّس المعاني التي وصفوها بأنها دفينة ، يعـني لـيس مسكوتًا عنها فحسب ، وإنما هي دفينة تحت طبقات من الصَّمْت ، ومن المفيـد جدًّا والممتع جدًّا أن تتبّع فكرة العالم من لحظة أن كانت رَمْزًا خفيًّـا أو كانـت إيماءة أخفى حتى صارت فكرة وعلما ولم تتسع العلـوم إلا بهـذا ، وأكثـر مـن هذا فإن أجيال النابهين في كـل الأمم هـم الـذين اسـتخرجوا المعرفـة مـن كـتم العدم ، لا أقول إذا أبعد الله عنهم جماعة أهل الغشم الذين يُكَدِّرُون حياة العلماء بعُنْجهيَّتهم واستبدادهم ، لا أقول هذا لأنه بعيد ، وإنما أقول إذا ابتعدوا هـم عـن أهل الجهل والغشم والاستبداد وإلا أنزلوهم من آفاقهم المضيئة التي هي آفـاق النظر والتأمل والمراجعة وربما ألقوهم في قاع مظلمة ، والذي دعا إلى ذكر كل هذا هو أنني رأيت ابن قتيبة بعدما ذكر أن الكلب كلب وهو في بطن أمه ، انتقل إلى جهة بعيدة وتجاوز مسافات بين الجهتين فيها من الأفكار والخواطر ما فيها ، وذكر قول الخزيمي :

يُـلام أبـو الفضـل في جُـودِه وهـل يَمْلِـكُ البحـرُ ألاَّ يفيضـا

وكما أن الأسوأ لا يملك إلا أن يكون أسوأ ، كذلك لا يملك الأفضل إلا أن يكون أفضل ، والوسائط بـين هـذين لا حصـر لهـا ، وإنمـا تخطاهـا ابـن قتيبـة وتركها لك ، وبيت الخزيمي فيه اختصار متميز في الشطر الثاني « وهل يملـك البحر ألا يفيضا » وبراعة ابن قتيبة أنه جاء بهـذا الاختصـار لأنـه اختصـار لكـل الذي في نفس ابن قتيبة ، وأن أخلاق الشرف والسؤدد تغلـب صـاحبها ولـو أراد



التخلي عنها ، والإنكار في كلمة « وهل يملك البحر » فيه كل المعاني التي أرادها ابن قتيبة ، وكذلك يقال في اللئيم لو أراد أن يكون كريمًا لأن تخلصه من اللؤم والخساسة مستحيل ، وغايتي من هذا الكتاب هي أن أبين للجيل كيف يقرأ وكيف يتدبر وكيف يتابع وكيف يستخرج الخفي ، وأكْثَرُ الفن من استخراج الخفي كيف يستخرج الدفين من تحت أطْباق الصَّمْت ، ثم أتْبع ابنُ قتيبة بيت الخزيمي بهذه الأبيات التي لها في هذا الباب منزع آخر ونغمٌ آخر :

ولائمة لامتك يا فَيَضُ في النَّدَى ... فَقُلْتُ لها هل يَقْدحُ اللومُ في البَحْر

أرادت لتثني الفيضَ عن عَادَةِ النَّدَى ... ومن ذا الذي يَثْنِي السحابَ عن القَطْر

مواقع جود الفيض في كل بلدة ... مواقع ماء المُزْن في البلد القفر

اقرأ وتدبر فلن تجد معنى زائدًا عن قول الخزيمي « وهل يملك البحر ألا يفيضا » وستجد نشوة ضاق عنها شطر الخريمي ، راجع قوله « ولائمة لامتك يا فيض في الندى » وتدبّر هذه الطُّرْبة التي أبان عنها الجناس بين كلمتي « لائمة لامتك » ، ثم هذه الطُّرْبة التي تراها في نداء فيض الذي هو نفسه بحرف نداء البعيد الممتد ، وكأنه يريد أن يملأ أسماع الدنيا بفَيْض فَيْضٍ في الندى ، ثم تكرار كلمة فيض وقوله « فقلت لها هل يقدح اللومُ في البحر » لا يستقيم هذا الإنكار إلا إذا كانت تلوم بحرًا على الحقيقة وليس جواد يُشْبه البحر ، ويتبع هذا أن هذه اللائمة صارت واقفة على شاطئ بحر تلومه على فيضه ، وهذه أبلغ صور البطلان ، والبيت الثاني جعل فيه ثَنْيَ السحاب عن القطر مكان لوم البحر على الفيض ، والبيت الثالث فضَّل فيه فيضه على فيض البحر ووقوع المطر ، لأن فيضه ينتقى ويختار أحوج الأرض إليه ، وبهذا تَمَّ مراد ابن قتيبة ، وأن خُلقَ

الكرم لا يستطيع أحد أن يَقْلَعه من نفس الكريم، كما أن دناءة الدنيء لا يستطيع أدَبُ الأديب أن يُغَيّرها ، وبعد هذه الأبيات ذكر ابن قتيبة قول كُثيرّ :

ومن يَبْتَدعْ ما ليس من سُوسِ نَفْسِهِ يَدَعْهُ ويَغْلِبْه على النفس خِيمُها

وقول زهير :

ومهما يكُنْ عند امْرِئٍ من خَليقَةٍ وإن خالها تَخْفَى على الناسِ تُعْلَمَ

وهذا يعني أن ابن قتيبة انتقل بالمعنى خطوة إلى الأمام ، لأن الذي كان يحاول تغيير أخلاق السوء وفشل كان الأديب ، والذي كان يحاول تغيير أخلاق السؤدد والشرف وفشل كان هو اللائم ، والخطوة إلى الأمام هي أن الذي يحاول التغيير في بيت كثير وبيت زهير هو الشخص نفسه صاحب هذه الأخلاق ، وكانت محاولة التغيير قبل ذلك تأتي من الخارج وهي الآن من داخل الشخص، وأنه أراد أن يبتدع من نفسه خلقًا ليس من طبعها ، فيفاجأ بفشله ويغلبه على نفسه خِيمُ هذه النفس يعني طبعها ، والذي بين جنبيّ لا يغلب أدب الأديب ولوم اللائم فحسب وإنما يغلبني أنا ، وبهذا ثبتت هذه الحقيقة التي تنفي أي محاولة للتغيير ، سواء كانت بالعلم والثقافة والتربية والتعليم ، ويعلم ابن قتيبة أن حياة الناس ليست كذلك ، ولو كانت الطباعِ لا تتغيّر لما كان هناك تكاليف شرعية ولا قوانين بشرية ، ولكان الناسُ ماضين على ما طبعت عليه نفوسهم كغيرهم من الأحياء التي لا تحاسب ، وإنما هذه أقاويل في ثقافة الناس ، وغاية ابن قتيبة أن يُعلِّمَ الأجيال ما عليه الناس لتتسع مداركهم وتتنوع ثقافتهم وليتقبلوا الحياة كما يصورها واقع الناس ، وهذا جيد وهو ما أردنا بلاغه لأجيالنا ، ثم انتقل ابن قتيبة إلى عكس ذلك وذكر بيتًا من الشعر هو أيضًا من واقع ثقافة المجتمعات ينفي كل ذلك ، وهو من قول كثير الذي قال ويَغْلِبه على النفس خيمها ، قال كثير :

وفي الحِلْمِ والإسلامِ للمرءِ وازعٌ وفي ترك أهواء الفؤاد المُتيَّمِ
بصائرُ رُشْدٍ للفتى مُسْتبِينَةٌ وأخلاقُ صدقٍ علمُها بالتّعلُّمِ

وهذا صريح في أن هناك بصائر يسترشد بها الفتى ، وأخلاق صدق يَنالُها الفتى بالتعلُّم ، وعلى هذا عوّل الكرام حين يوجهون ويهدون ويرشدون ويقولون:

تجاوز عن الأدْنِينَ واسْتَبْقِ وُدّهم ولن تستطيع الحِلْمَ حتى تحلّمَا

والأدنين هم الأقربون ، والمعنى أنك مالك لأمرك فإذا لم تكن خلقت حليمًا فتحلّم أي تكلف الحلم ولو تكلفت الحلم صرت حليمًا ، والذي يُفهم من كل هذا أن ابن قتيبة يقول لنا إنكم ستجدون من أهل السُّوء من لم ينفَعهم النُّصْح ، وهم الذين ختم الله على قلوبهم ، وستجدون في الناس من أهل الكرم من لم ينفعهم اللومُ ، وهم الذين لا يَخْشَوْن من ذي العرش إقلالاً ، وستجدون من الناس من يبحثون في الفكر والخلق والتربية ما يرتفع به مستواهم ، وهم الذين يقولون ربنا سمعنا وأطعنا ، وهذا هو الأصل الذي بنى عليه الشيخ كتاب الطباع ، وبعد ما قدم ابن قتيبة هذا الأصل الذي بُنَيتْ عليه الطباع هداه حسنُ النظر ودقةُ الفهم إلى الحديث عن الشيء يُفْرَطُ فيه فينْتَقِلْ إلى غير طبعه ، يعني أنك قد تُفْرط في الأخذ بمحاسن الأخلاق فينقلك هذا الإفراط إلى مساوئها ، وذكر ابن قتيبة في ذلك أبياتًا لأبي تمام ، وكان حفيا بشعر أبي تمام كما كان ابن عبد ربه حفيا بشعر أبي تمام ، ويلاحظ أن الآمدي الذي كتب ما كتب في شعر الطائيين توفى بعد ابن قتيبة بما يقرب من مائة سنة ، لأن ابن قتيبة توفي سنة ٢٧٦ وتوفي الآمدي سنة ٣٧٠ والأبيات هي :

أخْرَجْتمُوه بكُرْهٍ من سَجِيَّته والنارُ قد تُنْتضَى من ناضِرِ السَّلَمِ
أَمِنْ عَمًى نزل الناسُ الرّبَى فَنَجَوْا وأنتم نصبُ سَيْل الفِتنةِ العرِمِ

أم ذاك من هِمَم جَاشَتْ فَكَـمْ ضَـعَةٍ ... حدا إليها غُلُـو القـوم في الـهِمَمِ

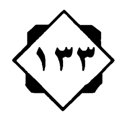
وقوله «والنار قد تنتضي من ناضر السلم» كلمة حُلْوة ، ومعنى جيد ، وهي شَرْحٌ للشطر الأول وحلاوتها لأنها صريحة في أن الشيء قد يخرج من ضدّه حتى ترى النار تخرج ليس من السلم وإنما من ناضر السلم ، ولو حذفت كلمة ناضر لذهب بذهابها شطر من حلاوة الجملة ، وأصل هذا قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (يس:٨٠) ويا بعد ما بين الآية وكلام أبي تمام ، لأن أبا تمام قال النار قد تنتضي من ناضر السلم ، يعني وجد واقعًا فذكره ، والآية تحدث عن اقتدار وتفرد الذي أخرج من الشجر الأخضر نارًا ، الآية تحدث عن الذي خلق هذا الواقع ، وأبو تمام يحدث فقط عن الواقع ثم ذكر أبو تمام عقل وحكمة الذين رأوا سَيْل الفتنة يَكْتَسح فنزلوا الربى العالية ، وابتعدوا عن سيل الفتنة ، ثم ذكر عكس ذلك في القوم الذين تعرضوا لسيل الفتنة ، ثم أصاب بذكر كلمة (العرم) وهي مقتبسة من قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ (سبأ:١٦) والبيت الثالث نصٌّ صريح في الشاهد وهو قوله (فكم ضَعَةٍ حَدَا إليها غُلُو القوم في الهمم) وإن كان البيت الأول فيه إيماءة إلى هذا المعنى ، وليس في الخذلان أبشع من هِمَم جاشت بأصحابها فكان هذا الجيشان المفرط حاديًا حدا هذه الهمم إلى ضدها المبين وهو الضَّعة ، وقبله قال أبو نواس :

سَخُنْتَ مـن شِـدَّة الـبرودَةِ حـتى ... صِـرْتَ عِنـدْي كأنـك النـارُ

لا يَعْجَـبُ السـامعون مـن صِـفَتِي ... كـذاك الـثلج بـارد حـار

مساوئ الأخلاق

ثم ذكر ابن قتيبة مساوئ الأخلاق فذكر الحسد ، والغيبة ، والسعاية بين



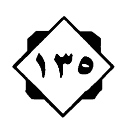
الناس ، والكذب ، والقِحَة ، وسوء الجوار ، والحَمَاقة ، إلى آخره ، وفي كل باب يحدث بما قاله الناس في سوئه وسوء مرتكبه ، وبدأ بالحسد لأنه أغبى سوء الطباع التي لا يَحصُلُ مرتكبها منها على منفعة ، وإنما يركبه الهم والغم من نعم الله التي تتواتر على عباده وهو منهم ، وكأنه يحب أن يستأثر هو بنعم الله ، ولذلك تجد جذر الحسد في النفس هو الأنانية وحب الذات ، ومن كان كذلك فهو من خلق الله الشارِدَة التي يأكلها الذئب الذي هو الحسد ، وذكر ابن قتيبة ما قاله ابن المقفع في الحسد وهو كلام سديد جدًّا ، وأن الحاسد ظالم أشبه الناس بالمظلوم ، لأنه طويل الأسَفِ والحزن ، وطويل الكآبة ، شديد التحرق ، منغص بنفسه لمعيشته ، ويذكر أن أول معصية لله في السماء كانت حسد إبليس لآدم ، وأول معصية الله في الأرض كانت حسد ابن آدم لأخيه ، وذكر أبيات أبي تمام المشهورة في هذا الباب ولم أقرأ أفضل منها في ذكر الحسد ، وأنه ينشر نعمة الله المطوية كالنار التي لولا اشتعالها في العود ما كان يعرف طيب عرف العود ، وأن الله ـ سبحانه ـ إذا أراد نشر فضيلة أكرم بها عبدًا من عباده سلط عليها لسان حسود .

وإذا أراد الله نَشْرَ فضيلة ... طُوِيت أتاح لها لسانَ حَسُود
لولا اشتعالُ النار فيما جاوَرَتْ ... ما كان يُعرفُ طيبُ عَرْف العُودِ
لولا التخوف للعواقب لم تزل ... للحاسد النُّعمى على المحسود

والبيت الأول فيه أن الله ـ سبحانه ـ أنعم على المحسود نعمتين الأولى فضيلة مطوية والثانية لسان حسود يعمل على نشرها ، فالنِّعمةُ نِعْمةٌ ونشرها نِعْمةٌ أخرى ، والمنعم بالأخرى هو لسان الحسود ، وهنا معنى خفي يوشك أن يكون مدفونًا ، فجاء التمثيل في البيت الثاني لإظهاره وهو أن لسان الحسود كأنه نار

اشتعلت فيما جاورت من نعم فنشرتها وحدثت الناس عنها ، وناهيك عن لسان مشتعل بما في قلب صاحبه من غيظ وتحرُّق ، ثم يحدث وهو لا يدري عن نعمة من نعم الله وينشرها ، وقد أصاب أبو تمام أحسن إصابة لما وجد ذلك في اشتعال النار في العود فأشاعت ريحه الطيب ، ثم أراد أبو تمام أن يستخرج من ذلك معنى أدق وألطف فقال لولا التخوف للعواقب لكان الحاسد مُنْعمًا على المحسود ، ولوجب على المحسود أن يكافئ الحاسد على نِعَمه إليه ، وذكر ابن قتيبة في باب الغيبة قولهم من عاب سافلاً فقد رفعه ، ومن عاب كريمًا فقد وضع نفسه ، وهذا كلام جيد جدًّا ، وقالوا لا غيبة إلا لثلاث فاسق مجاهر ، وصاحب بدعة ، وإمام جائر ، وهذا يعني أنه لا مؤاخذة عليك ولا ذنب عليك إذا اغْتَبْتَ فاسقًا مجاهرًا لأن مجاهرته بالفسق هي التي رفعت عنك المؤاخذة ، ولا مؤاخذة عليك إذا اغتبت صاحب بدعة لمطاردته ، ومطاردة بدعته ، وإبعادها عن دين الله ، لأنه هو نفسه اجترأ على الله وأضاف إلى دين الله ما ليس فيه ، واليقين أن الدين كله لله ، وأن أكرم خلقه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يكن له من الدين إلا البلاغ ، ولا مؤاخذة عليك ولا ذنب عليك إذا اغتبت إمامًا جائرًا ، لأن الله أكرمه وجَعَل له سلطانًا على عباده فظلم وقهر واستبد ، فصار من حق الناس أن يذكروه بما يكره لعله يرعوى ويرجع إلى ما أوجبه الله عليه من الحق والعدل ، وقد نُسِبَ هذا إلى الحسن بن علي ـ كرم الله وجهه ـ ، وعاب رجل رجلاً عند بعض الأشراف فقال له اسْتَدَلَلْتُ على كثرة عيوبك بما تكثر من عيب الناس ، لأن الطالب للعيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها ، قال بعض الشعراء :

وأجْرأ مَنْ رأيتُ بظهر غيبِ ... على عَيْبِ الرجالِ ذَوُوا العيوب



وذكر قول الآخر :

لا تَلْتَمِسْ من مساوي الناسِ مَا سَتَرُوا فيكشفُ اللـه سِتْرًا مـن مَسَـاويك

وهذا كلام جيد جدًّا وأهمه قول الذي قال : « إن الطالب للعيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها » وكأنه يعرف عيوبه ولم يتخلص منها ، ويضيق بها ، ويطلب نظائرها في الناس ليُخفّف إحساسه بوجودها في النفس ، من هَمّه لسكونها فيه ، وهو من باب قولهم : « رمتني بدائها وانْسَلّت » والبيت الثاني فيه معنى طيب قاله لسان طيب ، وأن الله سَتَر عيوبك وستر عيوب الناس فاترك ما ستره الله من عيوب الناس ليبقى ستر الله ساترًا لعيوبك ، فإذا كشفت ما ستره الله من عيوب الناس كشف الله ما ستره من عيوبك ، وأن الله ـ سبحانه ـ بعَدْلِهِ وحِلْمِه يعاملك بما تعامل به خلقه ، وفي باب السعاية ذكر ابن قتيبة عن عطاء بن السائب قال : قدمتُ من مكة فلقيني الشعبي فقال يا أبا زيد اطرفنا مما سمعت ، قلت سمعت عبد الرحمن بن عبد الله بن سابط يقول لا يَسْكُنُ مكة سافك دَمٍ ولا آكل ربًا ولا مشاء بنميم ، فعجبت منه حين عدل النميمة بسفك الدماء وأكل الربا ، فقال الشعبي : وما يعجبك من هذا وهل تُسفَكُ الدماء وتركب العظائم إلا بالنميمة ؟ وهذا يُعلّمنا النظر ببصيرة في الذي نقرأ ونسمع ، وأن الشعبي كان من كرامنا من ذوي البصائر ويقول لنا جميعًا إن الآثار المترتبة على الإثم داخلة في مَاهيَّة الإثم وفي عقوبته ، وأن النميمة التي هي كلمة يقولها من يقولها قد يترتب عليها عظيمة وتسفك فيها الدماء ، وقل مثل ذلك في الكذب وما يمكن أن يترتب عليه ، وقل مثل ذلك في قول الزور وما قد يترتب عليه ، بل قل مثل ذلك في القتل وما يترتب عليه من يُتْمِ الأطفال ، وفقد العائل ، وهكذا حتى تظهر لنا بشاعة ما نهانا الله عنه ، وذكر ابن قتيبة أن مصعب بن الزبير عاتب الأحنف ابن قيس على شيء بلغه عنه فاعتذر إليه الأحنف من ذلك وَدَفَعَهُ ، فقال له

مصعب أخبرني بذلك الثقة ، فقال الأحنف : كلا أيها الأمير إن الثقة لا يُبلّغ ، وهذا رَدٌّ قوي جدًّا من الأحنف ، ولست أدري كيف غاب هذا عن مصعب ، والأحنف الذي دفع عن نفسه ما بلغ مصعب يقول له في رده لا تقلْ إنه ثقة لأنني لو قلت ذلك وسمعه الثقة ما بلَّغه ، فكيف تسميه ثقة وهو يبلغ شيئًا يختلقه هو ؟ وهذه هي قوة رد الأحنف . وقالوا : « قبول السعاية شر من السعاية » وهذا أقوى من كل ما مضى لأنه يُبطلُ أثر السعاية ، فيكُفُّ أهلُ السعاية عن السعاية لأن الذي يُغريهم بها هو أثرها عند سامعها ، والواجب على من يسمع السعاية أن يكف الساعي عنها لأن سماعه لها يجعله شرا من قائلها ، وتأمل أثر هذه الجملة في حياة الناس ، وأن الله ﷻ لم يؤثم الكذب فحسب وإنما أثّمَ السماعين للكذب ، ولم يؤثم النميمة فحسب وإنما أثم السامعين لها ، وتعجب من السادة المتنورين الذين يحرصون على إبعاد الدين عن حياة الناس ، وأنت ترى جملة واحدة من الدين تُحْدِث هذا الأثر المحمود في حياة الناس ، ثم ختم ابن قتيبة الباب بقوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ (القلم:١٠-١١) والآية الكريمة تبدأ بالحلاف أي كثير الحلف ، وتصفه بأنه مهين ثم تذكر الهماز الذي يعيب الناس ، ثم المشاء بالنميم ، وهي السعاية التي تفسد الذي بين الناس ، وتقول لنا إذا رأيت الرجل يجترئ على الحلف ويؤكد كل ما يقوله للناس بالحلف بالله فذلك هو الصنف الذي لا يطاع ولو كان أميرًا ، وذلك هو المهين لأنه لم يعرف جلال الحلف وأنه بالله ، وأنه لا يكون إلا عند الحاجة ، وهذا هو الهمَّاز العيَّاب ، وهذا هو المشاء بالنميم ، وهذا الختام بهذه الآية يعني أن الآية جامعة لأهم ما في الباب ، وابن قتيبة يشبعك في كل باب بما عنده من معلومات وحكايات ورفض الرافضين ، وتقبّل المتقبلين ، ووصف الواصفين ، وقدح القادحين ، وما يراه أصحاب الفضل

والحكمة وتحذيرهم لكثير من الناس وانغماسهم في كثير من الرذائل ، ولا شك أنك مثل غيرك يروقك سَعَةُ المعرفة وتنوعها ، ولو لم يكن لابن قتيبة فيها إلا أنه جمعها ورتّبها ونَسقّها وقدّمها لقومه ، لأن أهل الخير في الأمة هم الذين يقدمون كل ما عندهم لقومهم ، يستوي في ذلك العلوم التي اجتهدوا فيها وبذلوا فيها حياتهم ، أو وقائع وحكايات عاشت في الأمة وليس لها علم يحصرها ، كالذي نراه في « عيون الأخبار » ، وأتوقع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفتح باب رضوانه وباب مَغْفرته وباب جَنَّته لهؤلاء المعنيين بشأن الأمة ، والذين يحاولون أن يَضَعُوا في طريقها أي إضاءة لتكون كما يرضى الله ورسوله أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، وأعجب من الذين لا يشغلون بهذا ، وأرى أن راحة النفوس وطيبها وغبطتها في خدمة أمة الشهادتين ، ومن أهم ما في عيون الأخبار أن لغته لغة عالية جدًا في كل أبوابه حتى في باب الكذب ، تسمع قول ميمون بن ميمون : « من عرف بالصدق جاز كذبه ، ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه » وتعجب لماذا يجوز للصادق أن يكذب ولا يجوز للكذاب أن يصدق ؟ والذي أعرفه هو أن الصادق يعيش على أصل الفطرة كما يعيش الصالحون الطيبون ، وهؤلاء من الجائز أن يقعوا في الخطأ لأن كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ، والكاذب منحرف عن الفطرة وسالك غير طريقها ، والشأن في مثله أنه لا يصدق ، وقد عرف الناس عنه الكذب فلو صدق ما صدّقه الناس ، ومن بليغ الكلام قول الأحنف : « مَا خَانَ شريفٌ ولا كذب عاقلٌ ولا اغتاب مؤمن » تجد شرف النفس يعصمها من الخيانة ، وعقل العاقل يعصمه من الكذب ، وإيمان المؤمن يعصمه من الغيبة ، وهذا من أرقى ما يحفظ ، وسُئل رسول الله ﷺ أيكون المؤمن جبانًا قال نعم . قيل أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال نعم ، قيل أيكون المؤمن كذابًا ؟ قال لا ، وهذا ظاهر في أن خسيسةُ الكذب

لا تجتمع مع شرف الإيمان لأن لا إله إلا الله إذا سكنت في القلب رفعته عن الخسائس التي يكون عليها الكذاب ، وتعجب من ابن قتيبة حين يعرض علينا أخبار الحمقى الذين لا عقل لهم ، ويعرض عليك أفعالهم وأقوالهم ، وكأنك ترى وتسمع عالمًا آخر لم تفكر يومًا في أن تقرأ ما يقول وأن ترى ما يفعل ، لأن هذا كله لا فائدة فيه ، وابن قتيبة يعلم ذلك ولكنه يريد أن يضع بين يديك صورة كاملة للذي عليه الناس سواء كانوا علماء أو حكماء أو فلاسفة أو حمقى ، وقد فتح لك باب الحديث عن الحمقى بعد ما أشبعك من الحديث عن السؤدد وأهل الشرف وأهل الحلم وأهل البصيرة ، حتى ترى صورة الحياة كاملة ، وحتى تعرف حقائق المجتمعات ، وتاريخ هذا الوجود البشري الذي لم يكتبه التاريخ ، لأن التاريخ شغل بالساسة والسياسة والحروب والإصلاحات ، أما عقول هذه الجماعة البشرية وتنوعها من حكماء إلى سفهاء ، ومن عقلاء إلى حمقى فهذا تاريخ آخر ، ولم يُشغل ابن قتيبة بالعلوم التي كتب فيها عن هذا الجانب ، وهذا يعني أن هذا الجانب بما فيه من باب الحمقى له أهمية عند هذا العالم الجليل ، تقرأ من باب الحمقى : الحمقى من قريش ، والحمقى من أبناء الخلفاء ، والحمقى من القبائل ، ويَصَبرُ ابن قتيبة ويطول كلامه في الحمقى والمجانين حتى ليكاد أن يكون كلامه فيهم أطول كلام في كتاب الطبائع ، وأكرر كيف أعطى هذا الباب من وقته وجهده هذا العطاء ، كيف صبر على جمع كلام الحمقى ثم كتبه في كتابه ، وأعرف كما تعرف أن الجاحظ كتب عن الحمقى والممرورين وعن ذوي العاهات كالعرجان ، وذوي العاهات النطقية ، وظني أن ابن قتيبة فهم من اشتغال الجاحظ بهذه الفئات أنه رأى مجتمعاتنا مشغولة بطبقات معينة من المجتمع مثل العلماء ، والكتاب ، وأهل السياسة ، وأهملت النظر إلى بقية شرائح المجتمع ، فدعا إلى ضرورة العناية بالكل ،

العالم ، والجاهل ، والحكيم ، والأحمق ، والعاقل ، والمجنون ، والصحيح ، والمريض ، وأنه ليس من الإنسانية أن نُهَمِّشَ طوائف من مجتمعاتنا لإصابتها بما لا دخل لها فيه .

ثم بدأ ابن قتيبة في شيء غريب جدًّا وهو المركبات التي يتركب منها جسم الإنسان ، ويروى عن وهب بن منبه أنه قرأ في التوراة أن الله قال إنني حين خلقت آدم ركّبت جسده من أربعة أشياء ثم جعلتها وراثه في ولده ينمي في أجسادهم ، وينمون عليها إلى يوم القيامة ، ثم ذكر هذه الأرْبعة ، وأنها رَطْبٌ ، ويابسٌ ، وسُخْن ، وبَاردٌ ، ويَفيضُ ابن قتيبة في هذا بمعلومات غريبة ، ويدخل الحيوان ، والطير ، وأطولها أعمارًا ، وسبب ذلك وأقصرها أعمارًا وسبب ذلك ، وأن امرأة لعمر بن عبد العزيز حملت ثلاث سنين ، وأن من الحيوان من نقص خلقه ، وأن الفرس لا طحال له ، والبعير لا مرارة له ، وطير الماء لا لسان له ، وحوت البحر لا لسان له ، والسمك لا رئة له ، وهكذا يتبع الغرائب وكأنه وهو العالم الذي كتب في العلوم ، وكتابته فيها من مراجع العلماء يقول لنا إن كنت نحويًّا فلا تدخل بيت النحاة وتغلق عليك الباب ، وإن كنت فقيهًا لا تدخل بيت الفقهاء وتغلق عليك الباب ، لأن الكون في كل ركن منه من العلوم ما يثري ويغير ، ويجب عليك أن تعلمه ، وكلما اتسعت المعرفة زَادَ وَعَيُ العقل بها ، وإذا زاد وعي العقل بالعلم نفذ العقل إلى باطن العلوم ، ووجد هناك عالمًا آخر ، ثم إن ابن قتيبة وهو في معمعة الحديث عن الحيوانات ، وعلاقة بعضها ببعض وأن عداوة بين البوم والغراب ، وبين الفأر والعقرب ، وبين الحمار والغراب ، أقول وهو في هذه المعمعة ينتقل بك إلى البيان المستمد من هذا الجنس من الحيوان ، كقولهم أسمع من فرس ، وأهدى من قطا ، وأحزم من فرخ العقاب ، وأظلم من حيَّة ، وأنْوَمُ من فهد ، وأعَقّ من ضَبّ ، وأكتفي بهذا

وعليك أن تراجع ما كتبه في الأنعام ، والسباع ، والذئب ، والفيل ، والأرنب ، والقرد ، والدُّب ، والنعام ، والطير ، والخفاش ، والعقاب ، والحدأة ، والغراب ، والحشرات ، والنَّبات ، والحجارة ، والجن ولو تتبعت لك ما كتبه في هذا لكتَبْتُ فيه كتابًا ، وأهم ما في قراءة هذا عند ابن قتيبة أنك تستصغر نفسك إذا أحسست بفيض معلومات عالم لا تجاريه في أبواب العلم التي كتب فيها ، ثم هو هنا يفيض في أبواب لم تكن تتوهم أنها من أبواب العلم ، وقد ختم كتاب الطباع بنصين غريبين في المعنى وغريبين في موقعهما في آخر كتاب الطباع ، وسأكتبهما لنقرأهما قبل أن أتحدث عنهما ، قال سديف مولى بني هاشم : «اللهم إنه قد صار فيْؤنا دُولة بعد القسمة ، وإمارتنا غلبة بعد المشورة ، وعهدنا ميراثًا بعد الاختيار للأمة ، واشتريت الملاهي والمعازف بسهم اليتيم والأرملة ، وحكم في أبشار المسلمين أهل الذمة ، وتولى القيام بأمورهم فاسق كل محلة ، اللهم قد استحصد زرع الباطل وبلغ نُهيته ، واستجمع طريده ، فافتح له من الحق يدًا حاصدة تبدّد شمله وتفرق نأمته ليظهر الحق في أحسن صُوَره وأتم نوره والسلام» ، والنص الثاني : قال ابن قتيبة : وقيل كانوا يَتَوَقّون ظلم السلطان إذا دخلوا عليه بأن يقولوا هذا الدعاء : «باسم الله إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، اخسؤوا فيها ولا تكلمون ، أخذت سمعك وبصرك بسمع الله وبصره ، وأخذت قوتك بقوة الله ، بيني وبينك ستر النبوة الذي كانت الأنبياء تستتر به من سطوات الفراعنة ، جبريل عن يمينك وميكائيل عن شمالك والله مطل عليك يحجزك عني ويمنعني منك» وجاء هذان النصان بعد الجزء الرابع ، وكتب على رأسها مع نصوص أخرى جاء بعد خاتمة الجزء الرابع من النسخة الخطية التي نقل عنها الأصل الفوتغرافي ما يأتي ، ثم ذكر النّصَّيْن ، والمهم في كلام سديف مولى بني هاشم أنه قال : «صارت إمارتنا غلبة بعد المشورة وعهدنا ميراثًا بعد

الاختيار» . وقد انتهت إمارة المشورة بعد عثمان ﷺ ، وانتهى عهد الاختيار بعد علي ـ كرم الله وجهه ـ وصارت الإمارة غلبة في زمن معاوية ، وصار العهد ميراثًا بيزيد بن معاوية ، وهذا يرجح أن سديفًا قال هذا في عهد بني أمية ، ولم أعرف شيئًا عن حكم أهل الذمة وأنهم حكموا في أبشار المسلمين لا في زمن بني أمية ولا في زمن العباسيين ، كما لم أعرف ولاية الفساق لكل محلة ، وقوله : «واستحصد زرع الباطل إلى آخره» يوافق ما كان عليه الحال في آخر زمن بني أمية ، وربما كانت اليد الحاصدة التي تفرق شمل الباطل هي يد بني العباس . والنص الثاني الذي هو الدعاء عند الدخول على السلطان ، فقد بدأ ابن قتيبة بقوله : «وقيل كانوا يتوَقَّوْن ظلم السلطان» وهذا القيل لم أقرأ ما يقربه فضلاً عن الذي يثبته ، وإنما كان خلفاء بني أمية يسمعون النصح من العلماء ، ثم إنني لم أعرف وجهًا لختام كتاب الطبائع بهذين النصين ، وكنت على أن أهملهما ولكنني رأيت أن الأصل أن تعرض ما ترضى ، وما لا ترضى ، ولا أستبعد أن يكون هذا مما أضيف إلى الكتاب .

وأنتقل الآن إلى الجزء الخامس من «عيون الأخبار» وهو كتاب العلم والبيان .

* * *

كتاب العلم والبيان

جعل ابن قتيبة كل كتاب من كتابه جزءًا ، فالسلطة هي الكتاب الأول والجزء الأول ، والحرب هي الكتاب الثاني والجزء الثاني ، والسؤدد هي الكتاب الثالث والجزء الثالث ، والطبائع هي الكتاب الرابع والجزء الرابع ، والعلم والبيان الكتاب الخامس والجزء الخامس .

ويتميز كتاب العلم والبيان في أن قيمته في لغته العالية فلا يستطيع أحد مهما اجتهد أن يحدثك عنه حديثًا يُغنيك عن قراءته ، وابن قتيبة كاتب ملأ كتابه بما استحسنه من كلام الكتاب ، وأضاف إلى ذلك بعض كتاباته ورسائله كما فعل صاحب العقد الفريد ، والفرق هو أن ما أضافه صاحب العقد الفريد من أعماله هو شعر لأنه شاعر ، وما أضافه ابن قتيبة من أعماله رسائل لأنه كاتب ، وكنت أقرأ الصفحات وأجد فيها خيرًا كثيرًا ولا أجد شيئًا أكتبه ، لأن هذه الصفحات لا قيمة لوصفى لها ولا لبيان إعجابي بها وإنما القيمة في أن تقرأها ، ولعل هذا هو الذي جعل أهل العلم لم يكتبوا عن هذين الكنزين الجليلين ، وكتابي هذا ليس كتابًا عنهما ، وإنما هو فقط تعريف بهما وحثٌّ على ضرورة قراءتهما ، قلت إن ابن قتيبة ليس له في كتابه إلا الاختيار ، حتى رسائله التي ذكرها في كتابه لم يكتبها له ، وإنما اختارها من رسائله ، وإذا كان الاختيار في باب العلم والبيان وكان الذي يختار كاتبًا جليلاً كابن قتيبة فلابد أن تتوقع اختيارًا عاليًا من باب عال ، حتى إنك تراك وأنت تتأنق في هذه المختارات

كأنك تتأنق في روضات أنقات كما قال ابن مسعود في وصف حال نفسه وهو يقرأ في آل حم ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (النحل:٦٠) .

ذكر ابن قتيبة أن الحسن بن علي قال : إن من أحْسَنَ عبادة الله في شبيبته لَقّاهُ اللهُ الحكمة في سنه ، وذلك قوله : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف:٢٢) وقوله لقّاه الله الحكمة من قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ (البقرة:٣٧) يعني كانت الحكمة عطاء محضًا من الله ـ سبحانه ـ وأن القُرْب من الله يفتح للعبد أبواب العطاء الذي لا عطاء أفضل منه ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة:٢٦٩) واستخراج هذا المعنى من الآية يوجب علينا نفي الغفلة حين نتدبر كلام الله ، وأن كلمة استوى من معانيها الاستقامة ، وأن موسى عليه السلام استقام في شبيبته مع أنه رُبيّ في بيت فرعون ، والاستقامة في الشبيبة تفتح بابين ليس في الحياة أفضل منهما ، وهما باب الحكمة التي فيها خير كثير ، وباب العلم الذي يتميز به مكان الإنسان عند الله ولا يستوي بغيره ، ثم إن العلم يورث صاحبه جلال إرث النبوة ويُرشّحه لأن يكون من أولياء الله كما قال الشافعي ، إذا لم يكن العلماء أولياء لله فليس لله وليٌّ ، وجملة ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تفتح الباب لكل من استوى ، أعني استقام وطلب العلم وجدّ وأحسن في طلبه يجزيه الله إحسانًا فوق إحسانه ، فيفتح لك باب علم جديد غير الذي تقرؤه في الكتاب ، فإن كنت فقيهًا أوتيت الحكمة والعلم في الفقه ، أعني صار الفقه عندك ملكة ساكنة في نفسك تفتح لك أبواب ما قرأت وما لم تقرأ ، وقد تهتدي بهذه الملكة إلى جواب المسألة ولو لم تقرؤه ، لأن هذه الملكة هي قياس ما لم تعلم على ما علمت ، وقد فسّر العلامة سعد الدين التفتازاني كلمة «العلم» بالملكة الساكنة في

العقل من طول التدبر حتى تعرف بها سَرَّ العلم فلا تغْمَضُ عليك مسألة لم تقرأها ، لأن الذي عندك ليس هو العلم الذي في الكتب فحسب ، وإنما تجاوزت إلى معرفة روح العلم وسِرِّه ومقاصده ، فصارت الملكة في نفسك قَبَسًا يضيء الطريق إلى معرفة ما لم تقرأ ، كالذي كان عند ابن مسعود لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن وقال له «بِمَ تقضي ؟ قال بكتاب الله ، قال فإن لم تجد قال فبسنة رسول الله قال فإن لم تجد قال أجتهد ولا آلوا» هذه الملكة هي آلة الاجتهاد ، وكان رسول الله ﷺ يعلم وهو بين أظهرنا والوحي ينزل علينا أن قضايانا تتجدّد ، فلا نجد لها حكمًا صريحًا في كتاب ولا سنة ، وإنما يقضي فيها أصحاب الاجتهاد الذين يقيسون ما لم يعلموا على الذي علموا ، وليس بعيدًا أن تجد هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي نجزيهم بإحسان فوق إحسانهم ، وهذا الإحسان الذي هو عطاء من الله يفتح باب حكمة بعد حكمة وعلم بعد علم حتى يعلم علم ما لم يعلم بالقياس على ما علم ، ثم يعصمه الله من الزلل في هذا الطريق لأنَّـه من علم الحلال والحرام ، ثم إن سيدنا الحسن ذكر آية القصص وكانت مقدمة للذي كان من موسى عليه السلام لما استغاثه الذي من شيعته على الذي من عَدُوّه فوكزه موسى فقضى عليه ، وهذه المقدمة ضرورية حتى لا يفهم أن موسى عليه السلام قضى على الذي من عدوه بإرادته وتعمد قتله ، ثم إنها كانت أيضًا مقدمة بعيدة للذي كان بعد ذلك من ذهابه إلى مدين وبقائه السنين التي بقيها ، ثم عاد وآنَسَ من جانب الطور نارًا وكان ما كان ، وملاحظ أن هذه الآية وَصَفَتْ يوسف عليه السلام في شبيبته ، ويوسف عليه السلام ربي في بيت العزيز ، ولكن آية يوسف ليس فيها كلمة استوى لأن كلمة استوى في القصص جاءت لمناسبة فوكزه موسى فقضى عليه ، وإنما

جاءت في يوسف مقدمة للذي كان من امرأة العزيز ، حتى لا يَتَوهم مُتَوهِّم أن الذي أتاه الله الحكم والعلم كان منه ما لا يرضي الله الذي أتاه الحكم والعلم في موقف الفتنة الذي أثارته امرأة العزيز ، والخلاصة : أن الاستقامة في زمن الشبيبة تُعد النفس لتلقي النِّعم من الله وأعلاها وأسراها الحكمة والعلم .

ومن أفضل ما قيل في ربط العلم بالعمل وأن العمل هو الصوت الوحيد الذي ينادي العلم فيْجيبه العلم ، ما نقله ابن قتيبة عن حكماء أصحاب رسول الله ﷺ قال : قال بعض الحكماء من الصحابة تقول الحكمة : « من الْتَمسَنِي فلم يَجدْني فَلْيَفْعَل بأحسَنَ ما يَعْلم وليترك أقبح ما يعلم فإذا فعل ذلك فأنا معه ، وإن لم يعرفني » انتهى كلام ابن قتيبة . ولاحظ أن الحكمة لم تَشْترط لمجيئها أن تعمل بأحسن ما علمت فقط ، وإنما أيضًا أن تترك أقبح ما علمت ، وكأنها لا تُشْرق في قلب خلط عملاً صالحًا وآخر سيِّئًا ، وأن الحكمة لا تقبل أن تعيش في عقل وهي عاطلة ، لأن العلم الذي لا يعمل به صاحبه علم عاطل ، ومن شأن العلم أنه يَرْفُض أن يكون عاطلاً فإذا وجد نفسه عاطلا رَحَل ، وأحيانًا نجد المجاز لو حُمِل على الحقيقة كان أفضل ، فلو قلنا إن الحكمة قالت من التمسني فلم يجدني فليعمل بأحسن ما علم وليترك أقبح ما علم لو قلنا إنها قالت ذلك على الحقيقة كان الكلام أقوى وأفعل ، وأن الحكمة ليست كأنها قالت ذلك ، وإنما الحكمة قالت ذلك ، وإذا كانت الجبال وهي حَجَرٌ تُسبّح فليس بعيدًا أن تنطق الحكمة ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٨٥) وربط العلم بالعمل ليس خاصًا بالعبادات ، وإنما ربط العلم كل العلم بالعمل ، فإذا اكتشف العلماء أو أحدهم حقيقة من حقائق الوجود ، فالواجب تحويل هذا العلم إلى عمل ، حتى يُغيّر حياة الناس ويَتَقدَّم بهم خطوة إلى الأمام وفينا الكفاءات القادرة على ذلك ، ومن المؤسف أن بعض هذه الكفاءات تفارقنا

وينتفع غيرنا بهم ، وتجد الدول الأكثر وعيًا وقد فتحت أبوابها لكفاءات من كل الأجناس وصاروا من علمائها ، وذكر ابن قتيبة أن العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل ، وهذا يعني أن العلم لا يبقى وحده ، لأن العمل هو الغاية من العلم ، فإذا جاء العمل بقي العلم وإلا ارْتَحَل ، العلم يقول لنا إن أردتم بقائي على أرضكم فاعملوا بي ، وإلا ارتحلتُ عن أرضكم ، وبقيتم في الجهل والتخلف وأنا لم أُطلب ليَتَباهَى بي العلماءُ ، أو ليُمارَى بي السفهاء ، أو لأميل إليكم وجوه الناس ، أو ليتقرب بي العلماء إلى الأمراء ، وهؤلاء هم الأربعة الذين أخبرنا رسول الله ﷺ أن من طلب العلم لواحد منها دخل النار ، وسيدنا رسول الله ﷺ يقول : «امسكوا العلم على أرضكم بالعمل لتتقدموا لأنكم خير أمة أخرجت للناس ، وتخلفكم قبيح ، ووهنكم قبيح ، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ، وطريق الخيرية هو العلم وطريق القوة التي هي ضد الوهن هو العلم ، فإذا أردتم الدنيا فعليكم بالعلم ، وإذا أردتم الآخرة فعليكم بالعلم ، وإذا أردتموهما معًا فعليكم بالعلم ، فليس لكم خيار إلا العلم إلا إذا أردتم الوهن والذل والدناءة ، وليس من أمتي من يريد ذلك» .

وأختم هذا بأبيات أنشدها ابن الأعرابي وذكرها ابن قتيبة ، والمقصود البَيْتَان الأخيران ، وإنما ذكرت ما قبلهما لأن فيهما فائدة لي ولك . قال :

ما أقربَ الأشياء حين يَسُوقها ... قَدَرٌ وأبْعَدها إذا لم تُقْدَرِ
فَسَلِ الفَقِيه تَكُنْ فَقِيهًا مِثْلَهُ ... من يَسْعَ في عمل بفِقْهٍ يَمهُرِ
وتَدَبَّرْ الأمر الذي تُعْنىَ به ... لا خَيْرَ في عمل بغير تدَبُّر
فقد يَجَدُّ المرء وهو مُقَصِّرٌ ... ويخيبُ جَدّ المرء غير مُقَصَّر
ذهب الرجال المُقْتَدى بفعالهم ... والمنكرون لِكُلّ أمْرٍ مُنْكر

وبقيتُ في خَلَفٍ يُزيّنُ بَعْضِه بعضًا ليَدْفَع مُعْوِرٌ عن مُعْوِرِ

اقرأ الأبيات وتدبرها وتوقف أكثر عند قوله «ومن يسع في عمل بِفِقْهٍ يمهرُ» واسع في عملك بفقه لتَمْهُر، ثم توقف أكثر عند قوله «لا خير في عمل بغير تدبر» واستمسك بالتدبر حتى يكون عملك فيه خير، واحذر العمل الذي لا خير فيه، والذي لا خير فيه هو الذي لا تدبّر فيه، وكأنك تُفْرِغ في عملك من الخَيْر بمقدار ما فيه من تدبر، ثم تدبر أكثر في قوله «خَلْف يُزَيّن بعضه بعضًا ليدفع معور عن معور» ولم أشهد في حياتي فشَلاً كالفشل الذي أرى فيه مُعْورًا يَدْفَع عن مُعوِر أعني فاشلاً يدفع عن فاشل، وتافها يدفع عن تافه، وكلما رأيت ذلك زاد جدّي لأننا لو تركنا البلاد لتافه يدفع عن تافه ضاعت البلاد ودمّرنا بأيدينا مُسْتقبل أبنائنا وأحفادنا، ثم راجع الأبيات التي تشبه كلام المعلمين، والشطر الثاني في كل بيت تأكيد للشطر الأول فقوله «ما أقرب الأشياء حين يَسُوقُها قدر» وجهه الثاني قوله «وأبعدها إذا لم تُقْدر» وقوله «فسَل الفقيه تكن فقيهًا مثله» عِلّته «من يسع في عمل بفقه يمهر» وقوله: «وتدبّر الأمر الذي تُعنَى به عِلّته»، «لا خير في عمل بغير تدبّر» وقوله: «فقد يَجِدُّ المرء وهو مقصر» وجهه الثاني «ويخيب جَدُّ المرء غير مُقصِّر» والجد بفتح الجيم الحظ، وأب الأب وأب الأم، وأهم ما في الرجال المقتدى بفعالهم أنهم ينكرون كل أمر منكر، والخلف بسكون اللام العقب السيئ ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ (مريم:٥٩) وهذا الخلف السيئ تطور وتقدم وارتكب أخسَّ منكر تدمَّر به البلاد، وهو أن يتجمَّع ويتعاون ويدفع معور عن معور، وغلبة أصوات هؤلاء السفلة على أصوات أهل الحق والحب للبلاد هو الخطر الأخطر، وتعجب حين يُحكى هذا عن أصحاب القرون المفضلة، لأن

كل ما في عيون الأخبار كان في هذه القرون ، لأن المؤلف عاش ومات في هذه القرون .

وقالوا : «لا تَقُلْ فيما لا تَعْلَم فَتُتَّهَمْ فيما تَعْلَم» وهذه الكلمة شديدة الاختصار فيها نصيحة طيبة جدًّا لا أقول لأهل العلم لأن أهل العلم لا يقولون فيما لا يعلمون ، وإنما هي نُصحٌ جيد جدًّا للعامة وأشباه أهل العلم وعُشَّاق الكلام ، وأشق شيء عليك أن تُتَّهم فيما تعلم ، لأن هذا يسقط كلامك كله ، فأمْسِك لسانك عن الذي لا تَعْلم ليظل لكلامك فيما تعلم قيمة عند الناس ، وهذه خسارة عليك وعلى الناس لأن الناس ينتفعون بحديثك فيما تعلم ، فإذا أفسدته بحديثك فيما لا تعلم تكن قد أبطلت كل خير عندك ينفع قومك ، ولو سكت من لا يعلم لاستراح الناس ، ولم أعرف الناس اجترؤوا على الحديث في باب ما لا يعلمون كاجترائهم على الحديث في دين الله ، وأجد الرجل له ثقافة وله قراءة في أبواب درسها وأفاد ، ثم يطلق لسانه في الحديث في دين الله فيظهر له خطأ فاضح ، وأقول إن الله ـ سبحانه ـ يحفظ دينه بهذه الأخطاء الفاضحة التي يقع فيها من يتكلمون في دينه بغير علم ، لأن هذا الذي يتكلم بغير علم تراه أحيانًا يَنْفي ما علم من الدين بالضرورة ، والعامة يدركون ذلك فيسقطون كلامه وتبقى حوله جماعة منظمة ومُعَدَّة للكلام في دين الله بغير علم ، ولهم قنوات فضائية كأنها أُعدت لهم ، وقال ابن مسعود : إني لأحسب الرجل يَنْسى العلم بالخطيئة يعملها ، وهذه العبارة فيها احتياط لأنه قال أحسب الرجل يَنْسى العلم ، ولو كان عنده في هذا سماع من رسول الله ﷺ لقال إن الرجل لينسى العلم بالخطيئة يعملها ، وحين تَقْرِنُ العلم بالإيمان والإيمان يزيد بالعمل الصالح وَيَنْقُص بالخطايا لاسْتَقَام لنا ما حسب سيدنا ابن مسعود ، ولابد أن نلاحظ أن

الإيمان لا يُحصّله إلا أهل الإيمان الذين هداهم الله وأصلح بالهم ، والعلم يحصله البر والفاجر ويرحل عند عدم العمل ، ولم أعرف أنه يرحل بالخطيئة ، لأنه لم يسلم أحد من الخطيئة ولا خطيئة مع الاستغفار .

الخليل بن أحمد يصنف الناس

والخليل بن أحمد رجل عاش يُعلم ويخالط عقول طلاب العلم ويتعرف على أحوالهم ، فقال كلمة جيدة جدًّا صَنَّفَ فيها الناسَ تصنفًا دقيقًا جدًّا ، هي قوله : الرجال أربعة ، رجل يَدْرِي وَيَدْري أنه يَدْري فسلوه ، ورجل يَدْري ولا يدري أنه يدري فذلك ناسٍ فذكروه ، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فعلموه ، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه ، ولو كنت مكان الخليل ما أوصَيْت قومي برفض هذا الرابع ، الذي لا يدري ولا يدري أنه لا يدري وإنما كنت أوصيهم بأن يعلموه أنه لا يدري ، فيصير لا يدري ولكنه يدري أنه لا يدري ، ويكون مع المسترشد الذي قال لنا الخليل علموه ، لأني لا أحب نَفْي أحد من الجماعة ولو قيل عنه إنه إرهابي ، أو خطر على الأمن القومي ، وأحاول معه ألا يكون خطرًا ، ولا إرهابيًّا ، حتى تكون الجماعة حريصة على كل فرد منها ، لأني أحب تماسك الشعب وترابطه وتعاونه وجريان روح التسامح والمحبَّة ، لأنهم أبناء أرض واحدة هي أم لهم وأب ، ولأنَّهم لن يتقدمُوا خطوة إلى الأمام إلا بهذا التماسك والتراحم والتسامح ، وأرى أن هذا من الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وقد أمرنا ربنا بذلك وأخبرنا أننا إخوة ، وأخبرنا المبلغ عن ربنا أننا جَسَدٌ واحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء ..

قلت : إن أهم ما في «عيون الأخبار» اللغة العالية ، وأهم ما يغيّر الناس والجماعة الوطنية هو اللغة العالية ، وفي الكتاب الكثير من غُرَر مختارات النثر ، وكأن ابن قتيبة وهو كاتب نظر فوجد الكثير من مختارات الشعر ولم يجد مختارات للنثر ، فأراد أن يُنْصِفَ هذا الفن الذي مهر فيه ، وفي النثر شيء ليس في الشعر ، وهو أن النثر كثيرًا ما يكون في مواقف خلاف فيشتدّ ويعلو مع شِدَّة النفوس وعُلُوِّ الغضب ، من ذلك ما رواه ابن قتيبة في الذي دار بين معاوية والأحنف بن قيس لما أخذ معاوية يُعَدِّدُ على الأحنف ذنوبًا ، فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين لِمَ تُردُّ الأمور على أعقابها ؟ أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا ، وإن السيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، فإن مددت لنا بشبر من غدر لنمُدَّنّ إليك بَاعًا من خَتْر ، ولئن شئت لَتَسْتَصْفِيَنّ كدر قلوبنا بصفو حلمك ، قال معاوية فإني أفعل ، ليست قيمة هذا النثر في سموّ بيانه وتأليفه وتركيبه وإنما في سمو دلالته ومعناه ، وأن الأحنف أَسْكَتَ معاوية لما بدأ يُغْضبُه وهدَّدَهُ وأقْسم له أن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا ، وأنك إن مددت لنا بشبر من غدر لنمدَّن لك باعًا من ختر ، والختر بفتح الخاء الغدر وبابه ضرب ، والغدر والختر إخوة من أب وأم ، والختر بالخاء فيه معنى زائد لأن الخاء أقوى من الغين ، وكان الأحنف وقومه تميم من الذين واجهوا بني أمية بسيوفهم وخالفوا معاوية لما أوصى من بعده لولده يزيد ، وصارحه الأحنف بذلك ، وكان الأحنف في المجلس الذي جمع فيه معاوية قيادات العرب ليجعل الأمر من بعده ليزيد ، وتكلم الناس وسكت الأحنف فقال له معاوية : لماذا لم تتكلم يا أبا بحر ، فقال له : أخافكم إن صدقتكم وأخاف الله إن كذبتكم ، وهذا صريح في رفضه توريث الخلافة ليزيد فسمع معاوية ذلك ولم يعقب ، والذي أريد أن أقوله هو أن الخلاف كان قائمًا بين الناس والبغضاء

ساكنة في جوانحهم ، والسيوف على عواتقهم ، ومع ذلك تعايشوا مسالمين واجتمعوا حول مصلحة البلاد والعباد ، وجمعوا قُوتَهم للدفاع عن الدولة ولفتح البلاد التي لم تفتح ، وهذا هو العقل وهذه هي الفطرة ، نحن مختلفون نعم ولكن هناك أمر جامع يجب أن يكون بعيدًا عن هذا الخلاف هو مصلحة البلاد والعباد على عاتقي السيف الذي حاربتك به ، وعليك أن تَنْسَى هذا وعليّ أن أنسى هذا ، وسيفي مع سيفك في الدفاع عن البلاد والعباد ، وأرى أن هذا هو الرشد ، وليس من الرشد في شيء أن نعيش في تنازع وتصادم وأن ندمر أنفسنا وقوتنا في هذا التنازع والتصادم ، مع أن الذي بيننا من خلافات أقل بكثير من الذي كان بينهم ، لأن الأحنف وقومه تميم واجهوا معاوية بسيوفهم وكانوا مع علي ـ كرم الله وجهه ـ ، والذي بيننا خلافات في الرأي هُمْ بِرُشْدهم أطفؤوا الفِتَن الحارقة ونحن أشعلنا الخلافات العادية ، ولابُدَّ من المراجعة ، والأكرم والأقوى هو الذي يمد يده لمن يخالفه والكل أبناء هذا التراب .

شيء آخر في «عيون الأخبار» قلما قرأته في كتب التاريخ ، وذلك لأن كتب التاريخ تكتب عن الخلفاء وهي معنيَّة بحروبهم مع أعدائهم ومَعْنِيَّةٌ بإصلاحاتهم ، وقلما تحدثك عن علاقاتهم بالله ، واليوم الآخر ، والحساب ، والجنة ، والنار ، حتى كأننا لو وقفنا عند كتب التاريخ نكون قد جهلنا هذا الجانب الحي والمهم في حياة وشخصيات رجالنا الكبار .

من كلام المأمون

يحدثنا ابن قتيبة عن المأمون بن هارون الرشيد ، ومعلوماتنا التاريخية عنه أنه كان رجلاً صارمًا حازمًا في الحفاظ على الملك ، حتى إنه ناجز أخاه الأمين ، وابن قتيبة يُحدِّثُنا عنه حديثًا آخر لا نعرفه إلا في قلوب أهل الوَرَع وأهل الله

والصالحين من عباده ، قال المأمون بعد ذكر الله والصلاة والسلام على رسوله ﷺ : «اتقوا الله يا عباد الله ، وبادروا الأمر الذي اعتدل منه يَقينُكُم ولم يحتضر الشك فيه أحدًا منكم وهو الموت المكتوب عليكم فإنه لا تُستَقَالُ بعده عثرة ولا تُحْظَر قبله توبة ، واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه ، ولا شيء بعده إلا فوقه ، ولا يعين على جَزَعِهِ وعَكَزِهِ وكربه ، ولا يعين على القبر وظلمته وضيقه ووحشته وهَوْلِ مطلعه ومسائلة ملائكته إلا العمل الصالح الذي أمر الله به ، فمن زلّت عند الموت قدمُه فقد ظهرت ندامته ، وفاتته استقالته ، ودعا من الرجعة إلى ما لا يجاب له ، وبذل من التَّعْدِيَةِ إلى ما لا يُقبل منه فالله الله يا عباد الله ، وكونوا قَوْمًا سألوا الرجعة فأعطوها ، إذ منعها الذين طلبوها ، فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم» انتهى ما أردته من كلام المأمون ، ومما اتفق عليه الناس أن في الكلام نميمة تدل من غير لفظ على مدى إحساس القائل بالذي يقول ، وكأنها وسوسة أو وَشْوشَة من غير لسان ودلالتها صادقة لا تتخلّف ، وفرق بين كلام صدر من قلب ممتلئ بالإحساس بمعناه وكلام صدر من تحت لسان بحسن البيان عن الذي تحته ، وقد قرأت تاريخ المأمون قبل ولايته وبعد ولايته ، وأعرف حزمه وعزمه واقتداره على ضبط أمور الدولة ، ومع هذا لا أشك في أن كل كلمة قالها في هذا الكلام الذي وَضَعْتُه بين عينيك صادرة عن قوة إحساس قلبه وعقله بالذي يقوله ، وأن بقية من إرثه من بني هاشم ومن جده عبد الله بن عباس بقيت ساكنة في نفسه ، وراجع كيف بنى كلامه كُلَّه على يقين لا يَشُكُّ فيه أحد وهو أننا ميتون ، وقبل أن يفتح لك الكلام بهذا اليقين عاش هو هذا اليقين ، فالموت كما قال هو الأمر الذي اعتدل فيه يقينك ولم يحتضر الشكُّ فيه أحدًا ، ومعنى اعتدل فيه اليقين أن اليقين فيه

مستقيم لا عوج فيه ولا يخالج الشكُّ فيه واحدًا ، ثم أسس كلامه على هذا الحق الذي لا شك فيه ، وأول ما يقال في الموت الذي لا شك فيه عند المأمون أولا وعند كل من يخاطبهم ثانيًا هو أنه لا تستقال بعده عَثْرة ، يعني لا وجه للتوبة من أي ذنب صغيرًا كان أو كبيرًا ، ولما أغلق في وجوهنا هذا الباب بادر بفتح باب الرحمة وجاء بجملة على حذو هذه الجملة لفتح الباب الذي أغلقته هذه الجملة وهي قوله ولا تُحظَرُ قَبْله توبة ، مهما كان الذنب ولو كان ظلمًا أو قتلاً أو شركًا ، فإذا كان هذا شأن الموت وأنه لا تستقال بعده عثرة ، ولا تَحْظَر قبله توبة ، فمن الواجب على كل من سيموتون أن يستقيلوا من كل عثرة قبله ، وأن يُلحُّوا في طلب التوبة ، ومن يفرِّط في ذلك يكون هو الذي رَمَى بنفسه في النار ، ولا أشك في أن هذا كلام من عاش هذه المعاني وليس كلام من حفظها ، والمأمون يقول لنا ولمن قبلنا ولمن بعدنا لا يجوز أن تُغْفِلُوا هذه الحقيقة لحظة واحدة في حياتكم ، وهي أن الموت لا تُسْتَقَال بعده عثرة ولا تحظر قبله توبة ، وعليك أن تَسْتَقِيلَ من كل عثراتك قبله ، وأن تتوب من كل خطاياك قبله ، فاجعل الله في قلبك واجعل هذه الحقيقة في قلبك ، وأنت تروح على الأرض وتغدو ، ثم ذكر حقيقة من أشد حقائق الموت فزعًا وهَوْلاً ، وقد رواها عن رسول الله ﷺ كثير من أصحابه ، ونحن جميعًا نعلمها علم اليقين ، ولكننا نُقلِّلُ ذكرها لشدة فزعها ... ، وهي أن الموت أهول من كل ما قبله ، وأهونُ من كل ما بعده ، ولا أظن هذا الإيجاز وهذه السهولة وهذه السلاسة في بيان حقيقة لا سهولة فيها ولا سلاسة ، أقول أظن أن هذه كلمة سيدنا رسول الله ﷺ ، وراجع أن الموت أهول عن كل ما قبله ، يَعْنِي من كل ما عانيته في الدنيا من مرض ، وفقر ، وظلم وقع عليك ، واضطهاد ، وتنكيل ، وتعذيب ، ولو قضيت

عمـرك كله وأنت مظلـوم في قاع مظلمة ، لحظة الموت ولحظة الغَرْغَرة أهـول من كل ذلك ، هذا قياس الموت بما قبله وقياسه بما بعده ، لحظة المـوت هـذه أهون من كل ما بعدها ممـا تجـده في القـبر ، وظلمـة القـبر ، ووحشـة القـبر ، وعذاب القبر ، وسؤال الملكين في القبر ، ثم إن كل ما تجده في القبر ممـا هـو أهـول من كل ما قبله هو أهون مـن كـل مـا بعـده مـن أهـوال البعـث وأهـوال الصراط ، وأهوال الحساب ، وهكذا لم يزد المأمون عن أنـه ذكرنـا بالـذي هـو معلوم عندنا ونَتَّهرَّبُ من تذكـره ، والعجيب يا سيدنا أن لحظة الموت التي هي أول هذه الأهوال أعانيها وأبنائي حولي ، وأنا أعاني ما أعاني وهم لا يشـعرون بي ، وأن الهول الذي هو أهول منه أعانيه بعـد دخـول قـبري وأهلـي لا يزالـون على قبري ، ورسول الله يقول لهم استغفروا لأخيكم فإنه الآن يُسأل ، وقيمة هذه المعاني ليس أن تحفظ وليس أن تقال على المنابر أو تكتب في الكتب ، وإنمـا القيمة أن تكون معي ومعك في كـل خطـوة أخطوهـا علـى هـذه الأرض ، وأن نجاتي من هذه الأهوال من أوجب الواجبات ، وإلا أكـون قد اخـترت العـذاب الذي لا أموت فيه ولا أحيا ، ونلاحظ أن المأمون بعد ما فزَّعنـا وأفْزَعنـا بعلـز المـوت وكَرْبِه وما بعده وما بعد الذي بعده ، كأنه استشـعر أننـا الآن في حاجـة إلى الطريـق الـذي ينجينـا مـن هـذه الأهـوال الـتي لا شـك في أننـا مـع الغفلـة سنواجهها ، فذكر أن العمل الصالح الذي أمرنا الله به هو وحـده السـبيل للنجـاة من هذه الكروب ، مع ملاحظة أن الفطرة النظيفة تحب العمل الصالح ، ولـو لم يكن سبيلاً إلى النجاة من هذه الأهـوال ، لأن العمل الصالح هـو الـبرّ والرحمـة والعـدل والصدق ، ولستَ في حاجة إلى أجرٍ لتَعْمل هذا ، ثم أضاف أنـه عمـل صالح أمر الله به والله ـ سبحانه ـ هـو الـذي أنشـأ لنـا السـمع والبصـر والفـؤاد ،

وسعينا الدائم في مرضاته مما توجبه المروءة وليس لطلب المزيد من الثواب ، لأنه سبحانه أنعم بالنعم التي لو جَعَلْتَ حياتك كلها لشكر واحدة منها ما وَفَّيْتها ، ولهذا أحب جملة نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، فإذا توفّر كل هذا وبقينا في مَعْصية الله فلا نلوم إلا أنفسنا ونحن نصطرخ في الجحيم ، ونقول ربنا أخرجنا نعمل صالحًا ، ثم لفت المأمون إلى شيء نحن جميعًا نحفظه ونحن جميعًا نغفله ، وهو أننا نعلم أن الذين سبقونا إلى الله وفوجئوا بالتقصير يطلبون من الله أن يعودوا إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحًا ، فلا يجابون ويقال لهم : ﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (المؤمنون:١٠٨) ويذكر الكتاب العزيز أن أحدهم لو افتدى بملء الأرض ذهبًا ما تُقبِّل منه ، ويعلم الكل أنه ليس فيهم أحد يملك أكثر من كفنه ، وإنما هو من باب الفرض والتخييل ليبين لنا ربنا هول ما سنجده هناك ، ثم بعد ما بين المأمون هذا قال لنا أنتم الآن في المهلة التي يطلبها من سبقوكم وهم ممنوعون منها ، فهل يمكن أن تُضيّعوا منها لحظة في غير مرضاة الله ؟ وهبوا أنكم مُتُّم معهم وطلبتم المهلة وأجابكم الله لها فهل من العقل أن تُضيِّعُوا منها لحظة في غير مرضاة الله ؟ واقرأ هذه الجملة التي لا نرى كلامًا يعطف القلوب نحو العمل الصالح مثلها ، قال : «وكونوا قومًا سألوا الرَّجْعة فأعطوها إذ منعها الذين طلبوها فإنه ليس يَتمَنَّى المتقدمون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم» وراجع حالتك وأنت لا تزال حيًّا بحالَ أبيك وأُمك وجدك الذين سبقوك وأنت في فُسْحَةٍ ، يتمنى كل واحد منهم أن ينالها ولو كان صالحًا ليزداد صلاحًا .

من سوء سمعة الحجاج

وبلغ الحجاج من سوء سمعته أنه بعد موته أقسم رجل بالطلاق أن الحجاج

في النار ، ولما رجع إلى بيته امْتنعَتْ منه امرأته ، فشكا ذلك إلى رجل من الصالحين فقال له اذهب إلى بيتك وعش مع أهلك ، ولو كان الحجاج في الجنة فلن يضرك أن تعيش مع امرأتك في الحرام ، وكان من أبشع ما قرأته عن الحجاج أنه كان يُحدِّث عن ابن مسعود الصحابي الجليل بوصفه عبد هذيل ، وقسمه بالله لئن ظفر به لَيَقْتُلنَّه ، وقوله لسعيد بن جبير اختر أي قتلة شئت ، فقال له : بل اختر أنت لنفسك فإن القصاص أمامك ، هذا الحجاج له خطبة ذكر فيها الموت لما أرجف الناس بموت الحجاج قال فيها : «هل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسرني ألا أموت وإن لي الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رضي بالتخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس ، ولقد دعا الله العبدُ الصالح فقال رب اغفر لي وهب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي فأعطاه ذلك إلا البقاء ، فما عسى أن يكون أيها الرجل وكلكم ذلك الرجل كأني والله بكل حيّ منكم ميتًا وبكل رطب يابسًا ، ونُقِلَ في ثياب أكفانه إلى ثلاثة أذرع طولا في ذراع عرضا ، وأكلت الأرض لحمه ، ومصَّتْ صَدِيدَه ، وانصرف الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله ، إن الذين يعقلون يعلمون ما أقول ، ثم نزل» راجع الكلام ولا تدع غيرك يراجع نيابة عنك لأن تذوق البيان وفهمه على وجهه مما لا يجوز النيابة فيه ، ابن قتيبة قال أرجف الناس بموت الحجاج ، قال وهل يرجو الحجاجُ الخير إلا بعد الموت ؟ وهذه الجملة رد على إرجافهم بموته ، وأنه يرجو الخير بهذا الموت ، بل هو لا يرجو الخير إلا بهذا الموت ، وبهذا توجه كل كلام الحجاج إلى الرد على الذي أرجف به الناس . وانتقل من هذه الجملة المؤكدة بطريق القصر وطريق الاستفهام الإنكاري وهي وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ، وكأن كل ما هو فيه من إمارة ليس فيه خير

يرجوه ، وإنما هو يرجو الخير في الذي بعد الموت لأنه ادَّخَر لنفسه عند ربه خيرًا كثيرًا يوم يقوم الناس لرب العالمين ، انتقل من هذه الجملة وبدأ بالقسم بلفظ الجلالة وقال : « والله ما يسرني ألا أموت وإن لي الدنيا وما فيها » ولم أعرف أحدًا قال مثل هذا ، وإنما الذي أعرفه أن الكل كان يخاف من الموت ، وأنه أهول من كل ما قبله وأهون من كل ما بعده ، ثم أعرف أيضًا أن أهل الله يستصغرون ما قدموا من أعمال صالحة وإن جَلَّت ويستعظمون ذنوبهم وإن قلّت ، والحجاج يفاجئ الناس بأنه ينتظر الموت بشوق ، وأنه لو خير في البقاء وله الدنيا لاختار الذي له عند الله ، وقد أُمرنا بأن نقبل من الناس ظواهرهم وأن نترك لله سرائرهم ، ولا تقل أي أجر له ينتظره من الله وقد أقسم لئن لقي عبد هذيل يعني ابن مسعود كما كان يسميه ليقتلنه ؟ وأي ثواب ينتظره من الله من قتل سعيد بن جبير ، ويدهشك وهو يحدثك عن رغبته في أن يموت وأنه يفضل الموت على الحياة ولو ملك الدنيا كلها ، وهذا غير معقول ، ثم يحدثك عن الموت وأنه قبر طوله ثلاثة أذرع وعرضه ذراع والأرض تأكل لحمك وتمتص صديدك ، والذي أفهمه أن تصف قبرًا هو روضة من رياض الجنة ما دمت أقسمت بالله أنك تفضله على بقائك حيًّا ولو ملكت الدنيا كلها ، وللحجاج كلمات طيبة أرجو أن يغفر الله له بها مثل قوله : « إني رأيت الصبر على محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله » ، وآخر ما أعلق به على خطبة الحجاج هذه هو أنه كان يتحدث عن نفسه ، وأنه يبتغي وجه الله في كل ما يفعل ، وأنه واثق أن الذي له عند الله بعد موته ، أفضل من الدنيا وما فيها قبل موته ، وأن المأمون كان يخاطب الأمة ويصور لهم جَزَع الموت وَهَوْلَه وعَلَزَه ، وأن ما بعده أهول منه ، وأن سبيل النجاة هو العمل الصالح ، وفرق شاسع بين

من يدور كلامه حول نفسه ومن يوجه كلامه إلى قومه ، وتعجب من ثقة الحجاج في الذي له عند الله ، وكان أبو بكر وعمر يبكيان من خشية الله ، وقال عمر بن عبد العزيز في خطبة له : « وما أعلم أن عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي فأستغفر الله وأتوب إليه » ثم رفع طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى الناس من حوله ، وإذا كانت الإمارة توجب على الأمير أن يأخذ الناس بالحزم والعزم والشدة ما دام ذلك للصالح العام ، فإن الله ﷻ جعل جزاء السيئة سيئة مثلها ، فإن زدنا في عقاب المسيء ولو مثقال حبة من خردل صار المسيء الظالم مظلومًا بزيادة حَبَّةٍ من خردل ، وهذا موضع الزلل الذي يقع فيه الأمراء ، وكان الحجاج يتجاوز في ذلك ويقول لآخذنَّ المحسن بالمسيء ، والطائع بالعاصي ، والمقيم بالظاعن ، فقيل له إن الله قال خلاف ذلك وأنه لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ، وأن جزاء السيئة سيئةٌ مثلها ، فقال إنه لا يصل إلى الحق إلا إذا خاض له الباطل ، والمطلوب يا سعادة الوالي الأمير هو أن تَصِلَ إلى الحق من غير أنت تَخُوض له الباطل ، فإذا لم تكن قادرًا على ذلك فليسعك بيتك واترك الأمر لأهله .. وذكر ابن قتيبة أن الحجاج خطب فشكا سوء طاعة أهل العراق ، فقال له جامع المحاربي : أما إنهم لو أحَبُّوك لأطاعوك على أنهم لم يشنؤوك لنسبك ولا لبلدك ولا لذات نفسك فدع ما يباعدهم عنك إلى ما يقربهم إليك ، والتمس العافية في مَنْ دُونك تُعْطَها ممن فوقك ، وليكن إيقاعك بَعْدَ وعيدك ، ووعيدُك بعد وَعْدِكَ ، فقال الحجاج : والله ما أراني يَرُدّ بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف ، فقال له : أيُّها الأمير إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار ، قال الحجاج : الخيار يومئذ لله . قال : أجل ولكنك لا تدري لمن يجعله . فقال : يا هذا ، إنك من محارب ، فقال جامع :

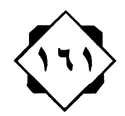
وللحرب سُمّينا وكُنّا محاربًا إذا ما القَنا أمْسَى من الطَّعن أحْمرَا

فقال الحجاج : والله لقد هَمَمْتُ أن أطلع لسانك فأضرب به وجهك ، فقال له : يا حجاج إن صدقناك أغضبناك وإن كذبناك أغضبنا الله ، فغضب الأمير أهون من غضب الله . انتهى ما ذكره ابن قتيبة .

هذا الحوار يجب أن تراجعه أنت لأنه بين طرفين أحدهما وهو جامع المحاربي رجل عاقل وراشد ، ويتوجه بخطابه إلى أمير ، وكلامه في مصلحة الأمير وفي مصلحة البلاد والعباد ، والأمير تغريه السلطة والقوة والرغبة في الاستبداد برفض الكلام الصادق ، وتلاحظ أن جامعا المحاربي كان شديد الأدب والاحترام للأمير ، وشديد الصدق والوضوح وأنهم لو أحَبُّوك لأطاعوك ، وهذه لا ينكرها عاقل ، واعتقادي أن الحجاج يُقرُّها ، ثم إنه لو كان كلامه يعني أنهم لا يحبونك لما ذكر له أنهم لم يكرهوك لنسبك وأنك ثقفي ، ولا لبلدك وأنك طائفي ، ولا لذات نفسك ، ولم يبق إلا أنهم يكرهونك لفعلك ، وقد وصل جامع المحاربي لهذه الحقيقة من غير أن يصرح بها ، ثم قال له بصدق وحب وإخلاص : « فدع ما يباعدهم منك إلى ما يقربهم منك » ولو كان أقرب الناس هو الذي يخاطب الحجاج لقال له هذه الجملة الكريمة ، ولكن قوة الإمارة وطغيان الحكم صرف الحجاج عن الحق البيِّن ، ثم إن المحاربي قال له يمكنك الوصول إلى ما يقربهم منك بأن يكون إيقاعك الذي تميل إليه بعد وعيدك ، وأن يكون وعيدُك بعد وَعْدِك ، يعني ابدأ بالذي هو خير وهو الوعد ، فإذا لم تصل إلى ما تريد فاذكر الوعيد وانتظر لعل الوعيد تستقيم به الأمور ، فإذا لم يتحقق ما تريد فليكن إيقاعك بهم وتكون قد أعذرت ، وليس في سياسة الناس أفضل من الذي قاله جامع ، ثم يدهشك أن الحجاج الذي لا يشك في صواب

ما قاله جامع تطغيه القوة ويقسم بالله أنه يـرى أن أبنـاء اللكيعـة لا يـردهم إلى طاعته إلا السيف ، والمفروض أن يكون السيف في يـد المجاهـدين الـذين هـم الجيش وألا يكون في يد الأمير لأن الناس لا يقادون بالسيف ، وإنمـا بالسياسـة والكياسة والحكمة ، فإذا كـان سيـف المجاهـدين في يـد الحـاكم يسـلطه علـى الشعب فذلك هو الخسران المبين ، ثم إن الحجاج يحدث عـن العـراقيين بكـل تاريخهـم ، وعلمهم ، وعلمـائهم ، وشعـرائهم ، ويصفهم بـأنهم أبنـاء اللكيعـة ، ولا تجد في السوء أسوأ من أن يزدري الحاكم شعبه ، وإذا كـانوا أبنـاء اللكيعـة فما حاجتك إلى طاعتهم ، وهل تعلو بك الرتب إذا كنت حاكمًا لأبناء اللكيعة ، ومن حكمة جامع أنه لما سمع هـذا الغلـو والشـطط في الباطـل لم ييـأس مـن إصلاحه ، فقال له : أيها الأمير إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيـار ، وهـذه أكرم جملة قالها جامع ، لأنه إذا بدأ سفك الدماء فلا يدري أحـد متـى ينتهـي ، ويجب أن يكون هذا المعنى واضحًا كل الوضوح عند كل من يعمل بالسياسة ، لأن أهم شيء في حياة الناس هو تجنّب سـفك الـدماء ، اختلِفُـوا مـا شـاء لكـم الاختلاف والسيوف مُغْمَدَةٌ والدماء مصـونة ، ثم إن جامعًا قال لـه أيهـا الأمـير ولا يزال يخاطبه بأحب أوصافه إليه ، فقال له الحجاج الخيـار يومئـذ لله ، قـال جامع أجل ولكنك لا تدري لمن يجعلـه الله ، فلمـا ضَـيَّق جامعٌ الحـوار علـى الحجاج لم يعد عند الحجاج كلام إلا السَّـفه علـى جامع ، فقـال لـه إنـك مـن محـارب ، وكأنه يسقط كل هـذا الكـلام الـذي كلـه صـدق وكلـه سـداد وكلـه لصالح الحجاج ، فردّ جامع على الحجاج ببيت شعر يعـرف بـه قيمـة محـارب وأنهم كما قال :

وللحـرب سُـمّيْنَا وكنـا محاربًـا إذا ما القنا أمْسَى مـن الطَّعْـن أحمـرا



فهاج الحجاج وأساء إلى هذا الرجل الكريم ، وقال لقد هممتُ أن أخلع لسانك فأضرب به وجهك ، فرد عليه جامع بكلمة أسوأ من كلمته وهي إن صدقناك أغضبناك ، ولا يذم الرجل بأسوأ من أنه يغضبه الصدق ، ثم قال وإن كذبناك أغضبنا الله ولن نُغْضِبَ الله ولن نحيد عن صدقك الذي يغضبك ، ومع كل هذا لك أن تقول إن الحجاج يجسب أن نذكر له أنه أحضر هذا العالم الصادق مجلسه ، وتركه يتكلم بالذي عنده ، لأن الحجاجين الذين جاءوا بعد الثقفي لم يَسْمَحُوا للعلماء بالدخول في مجالسهم ، والحديث معهم بالذي في نفوسهم ، وأن الثقفي سمع من العالم ولم يعمل بالذي سمع ، والذين جاءوا بعده لم يسمعوا فضلاً عن أنهم لم يعملوا ، ولا يجوز أن تهمل ما في هذا الحوار من صبر الصادق الأمين على الأمير حتى يسمعه كل ما في نفسه من صدق وحرص على مصلحة البلاد والعباد ، وإن كان الأمير قد طغى وبغى أن رآه استغنى .

كلام في تعريف البلاغة

ومن الكلام الجيد الذي سجله ابن قتيبة في « عيون الأخبار » قوله: سئل بعض الحكماء عن البلاغة فقال : « من أخَذَ معاني كثيرة فأدَّاها بألفاظ قليلة ، أو أخذ معاني قليلة فولّد منها ألفاظًا كثيرة » وباب البيان في عيون الأخبار فيه تعريفات كثيرة للبلاغة مروية عن العرب وعن العجم وهي مشهورة في الكتب ، واخترت منها هذا التعريف لأنه صالح لأن يُدَرِّبَ الناشئُ نفسه عليه ، وأن الأصل فيه هو أن تسيطر طاقتك البيانية على الفكرة وعلى المعاني ، وأن تحاول أن تضُمَّ نشر المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة ، أو أن تحاول أن تولد من المعاني القليلة معاني كثيرة فَتوسِّعها وتفصلها وتستخرج من قريبها وبعيدها ، وترى ذلك في البيان

إن كنت شغلت نفسك بالتحليل ترى في الشعر بيتًا جامعًا للمعاني التي تأتي بعده، وتراه في النثر كثيرًا جدًا وهو واضح وضوحًا جليًا في كلام سيدنا رسول الله ، تجد غالب الجملة الأولى كأنها جملة من الجمل حفظت كثيرًا من المعاني في صياغتها ، ثم جاءت جملة من الجمل شارحة لهذه الجملة التي كأنها أم لهذه العائلة بعدها ، ولا أشك في أن تحليلك للشعر يعلمك الشّعر أكثر مما يعلمك كلام العلماء في الشعر ، وأن تدبرك لكلام الله يعلمك الإعجاز أكثر مما يعلمك كلام العلماء في الإعجاز ، مع أنه لا غنى لك عن كلام العلماء في الشعر ، ولا غنى لك عن كلام العلماء في الإعجاز ، لأن كلام العلماء في الشعر مستخرج من الشعر ، وكلام العلماء في الإعجاز مستخرج من التدبر في كلام الله ، وتعجب حين تفاجأ بشاعرين كبيرين يرفضان كلام العلماء في الشعر لأنهم ليسوا شعراء ، وإنما يعرف الشعر كما قال البحتري من دفع إلى مضايقه ، وهذا يعني أنك ما دمت لست شاعرًا فأمسك لسانك عن الكلام في الشعر ، وقد أنكر البحتري علم ثعلب بالشعر ، مع أن أبا العباس له كتاب مؤلف في الشعر ، وكان الناس في زمن البحتري يلتفون حول ثعلب ، ويسعى كثير منهم إلى مجلسه ليسمع كلامه في الشعر ، وقال البحتري في جملته الظالمة على ثعلب : رأيت أبا عباسكم هذا يستحسن شعرًا ليس هو أحسن الشعر ، وهذه تهمة تدمر كل كلام ثعلب في الشعر ، لأنه إذا كان لا يعرف الأحسن فلا يسمع له قول في الشعر ، وهذه تهمة ظالمة لأن الذي حدث فيها أنه قيل للبحتري إنه استحسن قول فلان كذا فذكر البحتري شعرًا أجود مما استحسنه أبو العباس ، وإذا كنت تستحسن بيتًا وفي الشعر أجود منه فلا تعاب باستحسانك للذي استحسنت ، لأن أبا العباس لم يقل إن هذا البيت أحسن ما قالته العرب في معناه ، وإنما

استحسنه وهو حسن وفي الشعر ما هو أحسن منه ، وأسوأ من موقف البحتري من ثعلب موقف أبي نواس من أبي عبيدة والأصمعي ، روى ابن قتيبة أنه قيل لأبي نواس قد بعثوا إلى أبي عبيدة والأصمعي ليجمع بينهما فقال : أما أبو عبيدة فإن أمكنوه من شُقَره قرأ عليهم أساطير الأولين ، وأما الأصمعي فبُلبُل في قفص يُطربهم بنغماته». انتهى كلام أبي نواس ، والشُّقر كطُرَد الكذب يعني أن أبا عبيدة حين يتكلم في الشعر فليس هو إلا رجلاً صاحب شقر يقرأ على الناس أساطير الأولين ، وهذا يعني أن ما في كتب البلاغة والنقد منقولاً عن أبي عبيدة لا صلة له بالشعر ، والأصمعي حافظ للشعر ويحسن إنشاده فهو بُلْبل محبوس في قفص ، ولاحظ أن أبا نواس والبحتري من كبار شعرائنا ، ولم يكتب واحد منهم ولا من غيرهم من شعرائنا شيئًا في الشعر ، وإذا كان هؤلاء الكبار أبو عبيدة والأصمعي وثعلب لا علم عندهم بالشعر فمعنى هذا أنه ليس عندنا علم بالشعر ، وأن العلوم التي استخلصت من علم العلماء بالشعر لا أصل لها ، والواقع يرفض هذا ، وتحليل العلماء للشعر شاهد على قدرة متميزة في فهم أسرار الشعر والبيان ، بل إن النحاة في إعرابهم للشعر وشرح ما شرحوه من دواوين لهم نظرات دالة على بعد رؤيتهم وتمام أدواتهم في فهم الشعر ، ولو أخذنا بكلام البحتري وأبي نواس وأنه لا يتكلم في الشعر إلا الشعراء ، ثم إن الشعراء لم يتكلموا في الشعر ، لألغينا الكلام في الشعر من تراثنا مع أنه هو العلم الذي لم يكن لأوائلنا علم سواه .

والذي عليه الأكثر وأنا منهم أنني أتعلم الشعر من كلام العلماء في الشعر ، وأتعلم الشعر من الشعر ، وطالما حاولت قراءة علم البلاغة في المفضليات ودواوين الشعراء الأربعة الكبار امرؤ القيس والنابغة وزهير والأعشى وكنت وأنا

أقرأ البلاغة في الشعر أجد بين يدي شعرا ومن ورائه بلاغة ، وكنت وأنا أقرأ البلاغة في كتب البلاغة أجد بين يدي بلاغة ومن ورائها شعرًا ، وفرق بين أن تكون بين يديك بلاغة ومن ورائها شعر وأن يكون بين يديك شعر ومن ورائه بلاغة .

وكان ابن قتيبة يريح قارئه ببعض النوادر المريحة كالذي رواه من أن أعرابيًّا سمع ابن عباس يقرأ قوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ (آل عمران:١٠٣) فقال الأعرابي : والله ما أنقذهم منها وهو يريد أن يدخلهم فيها ، فقال ابن عباس : خذوها من غير فقيه ، وذكر أيضًا أن أعرابيًّا دخل على عبد الملك بن مروان فقال له يا أعرابي صِفِ الخمر . فقال :

شمول إذ جُشَّت وَفِي الكأسِ مُزَّةٌ لَهَا في عظام الشَّاربين دَبيبُ

تُريكَ القَذَى دُونها وهي دُونَهُ لوجه أخيها في الإناء قطوبُ

فقال : ويحك يا أعرابي لقد اتهمك عندي حسنُ وصفك لها ، فقال : يا أمير المؤمنين واتهمك عندي معرفتك بحسن وصفي لها ، وقال رجل من أهل الحجاز لابن شُبْرَمة : «من عندنا خرج العلم» قال ابن شبرمة : ثم لم يعد إليكم ، وكتاب «عيون الأخبار» مشحون بأمثال هذه الكلمات الدالة على فرط الذكاء والألمعية وسُرْعَةُ حضور الخاطر ، وهذا مفيد لأنه يوقظ من الغفلة ويحفز العقل ، ومن هذا ما ذكره من أن أحد الخلفاء أمسك برجل وقال له : أنت عندي مُتّهم بكذا وكذا ، ولن أرسلك حتى تدلني على رجل يعرفك وينفي عنك هذه التّهم ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ليس هنا أحد يعرفني كما تعرفني أنت ، فقال له : كيف أعرفك وأنت من العراق وأنا في الشام ، فقال له الرجل : كيف تتهمني وأنا من العراق وأنت في الشام ، فاستحسن جوابه وأطلقه .

المستحسن من التشبيهات

وقد لاحظت أن ما استحسنه ابن قتيبة من تشبيهات الشعراء أكثره منقول في كتب البلاغة ، من ذلك قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رَطْبًا ويَابِسًا لَدَى وَكْرِها العنابُ والحشفُ البالي

وقول طرفة :

لَعَمرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطَأَ الفَتَى لكالطَوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ في اليَدِ

وقالوا إن الجودة في بيت امرئ القيس أنه جمع تشبيهين في بيت واحد مع أن تشيه طرفة جودته راجعة إلى التشبيه نفسه ، وأن تراخي عمر الفتى لا يعني أن الموت أغفله وإنما هو كالطِّوَل المرخى وثنياهُ في اليَدِ وهذا أجود من جمع تشبيهين في بيت واحد ، ولو أنصفوا امرأ القيس لذكروا أن جودته راجعة إلى أنه شبه قلوب الطير الرطبة بالعناب ، وقلوب الطير اليابسة بالحشف البالي ، وذكر قول عدي بن الرقاع :

تُزْجِي أغَنَّ كأنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أصَابَ مِن الدواة مدادها

وفضله أنه فطن إلى مشبه قلَّما يُلتفت إليه وهو طرف قرن الغزال الصغير الأغن ، وأصاب له مشبهًا به من الوادي البعيد وهو قلم أصاب من الدواة مدادها ، فجمع بين طرفين متباعدين ، ومما لم يُشهر في كتب البلاغة وهو جيد قول بشار :

جَفَتْ عَيْنِيَ التغميضَ حتَّى كأن جُفُونَها عَنْها قصارُ

راجع حتى كأن جفونها عنها قصار وهو من البعيد القريب .

وذكر ابن قتيبة كثيراً من الشعر الذي لا مثيل له يعني أنه متفرد في بابه مثل قول أوس :

أيتها النفسُ أجْمِلي جَزَعًا ... إن الذي تَحْذَرين قد وَقَعَا

ولم أقرأ هذا المعنى في أفضل من هذا البيت، وقول أبي ذؤيب:

والنفس راغبةٌ إذا رَغَّبْتَها ... وإذَا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعِ

وهذا معنى جيد ونادر ولم أقرأه في كلام أفضل من هذا البيت، وذكر قول الشاعر:

سَتُبْدِي لَكَ الأيامُ ما كُنْتُ جَاهِلاً ... ويأتيك بالأخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزَوَّدِ

وقال فيه ابن عباس إنها كلمة نبي.

وقول عمرو بن الإطنابة:

وقَوْلِي كلما جَشَأتْ وجَاشَتْ ... مَكَانَكِ تُحمدي أوْ تَسْتَرِيحي

وقوله «مكانك تحمدي أو تستريحي» بالغة في الجودة والسداد ودالة على فرط الشجاعة، وذكر قول قَطَرِيّ بن الفُجاءة:

وقولي كُلّمَا جشأت لِنَفْسِي ... من الأبْطَالِ وَيْحَكِ لا تُراعِي

فإنَّكِ لَوْ سَألْتِ بقاء يَوْمٍ ... على الأجل الذي لك لَنْ تُطاعي

وقطري كان شجاعًا كريمًا أديبًا، ولست أدري كيف قبل القول بتكفير المسلمين، وكل هذا من المشهور في الكتب، وذكر قول جميل وليس من المشهور:

أقَلِّبُ طَرْفِي في السماء لَعَلَّهُ ... يُوافِقُ طَرْفِي طَرْفَها حين أنْظرُ

وهذا معنى لم أعرفه إلا في هذا البيت وإن كان أشبه بمعاني الممّرورِين.

ثم ذكر ابن قتيبة بعض من أرتج عليهم على المنبر وهم فصحاء ولكن يحدث أنه تَعْتريهِ حالةٌ فلا يَجِدُ كلامًا يقوله، وأُرتج عليه بالبناء للمجهول من

قولهم أرتَجَ الباب أي أغلقه ، وكأن وجوه الكلام صار بينه وبينها رتاج ، وهو ما يُغلق به الباب ، وسأذكر من ذلك حالة واحدة هي حالة أبو العباس أول خلفاء بني العباس ، صَعَد المنبر ثم أُرتج عليه ووجهه كما قال ابن قتيبة كورقة المصحف ، فنهض داود بن علي وصعد المنبر ، فقال المنصور وهو أخو أبي العباس « شيخنا وكبيرُنا » وهو يريد داود بن علي من الطالبيين ، وكان العباسيون يحذرون الطالبيين ويُعِدُّون أنفسهم لمواجهتهم لو طلبوا الخلافة ، قال المنصور شيخنا وكبيرنا لو دعا لنفسه فلن يختلف عليه اثنان ، قال فانتضيت سيفي وغطيت ثوبي وقلت إن فعل ناجزته فقال رَقَى عَتَبًا استقبل الناس بوجهه دون أبي العباس ثم قال : « أيها الناسُ إن أمير المؤمنين يَكره أن يتقدم قولُه فعلَه ولأَثَرُ الفعال عليكم أجدى من تشفيق المقال ، وحَسْبكم بكتاب الله مُتمثّلاً فيكم وابن عم رسول الله خليفة عليكم ، والله قسمًا بَرًّا لا أريد إلا الله به ما قام هذا المقام أحد بعد رسول الله أحق به من علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين هذا ، قال أبو جعفر فنزل وشمت سيفي » وأعد قراءة هذا وتعرف على سوء ظن العباسيين بأبناء أبي طالب ، وأن المنصور لما صعد شيخهم وكبيرهم وهو داود بن علي انتضى سَيْفه وغطَّاه بثوبه واستعد لمنازلته لو دعا لنفسه ، وما وراء ذلك من حرص على الخلافة ليس لقرابة رسول الله لأن القرابة تُحْمَى بها الدماء ولا تُسْفك ، وإن كان لك حق في هذه الخلافة وتنازلت حَقْنًا للدماء وكنت أقرب وأبَرَّ برسول الله ﷺ ، ولكن أبَا جَعْفر لم يَطُفْ هذا بخياله وإنما الذي طاف بخياله هو أن يدعو داود بن علي لأولاد أبي طالب ، ثم إن شيخ بني هاشم وكبيرهم كما وصفه أبو جعفر المنصور أقسم بالله يَمينًا بَرًّا لا يراد به إلا وجه الله أن هذا المنبر لم يصعد عليه أحد بعد رسول الله وبعد علي

ابن أبي طالب أكرم من أبي العباس، وقد صعد عليه أبو بكر، وعمر، وعثمان، وكل خلفاء بني أمية، مع ملاحظة أني لا أفضل أحدًا من بني هاشم لم يَرَ رسول الله ﷺ على من رآه من غيرهم لأن أصل الصُّحْبَة ليس النسب، وإنما الإسلام والرؤية وأن هؤلاء جميعًا بالنسبة لنا كالنجوم بأيهم اقتدينا اهتدينا، وهذا كلام رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فمعاوية ابن أبي سفيان أفضل عندي من كل ولد علي بن أبي طالب، وكل ولد العباس الذين لم يروا رسول الله ﷺ، ثم إن كبير وشيخ بني هاشم أقسم بالله أن أبا العباس الجالس على المنبر ووجهه كورق المصحف وقد أُرتج عليه، أفضل من أبي بكر وعُمر وعثمان، وهم من الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله، وأولئك هم الصادقون، فما وجه يمين كبير بني هاشم وشيخهم داود بن علي في أفضلية أبي العباس عليهم بعد ما شهد لهم ربهم بهذه الآية؟

والقول بأن خلافة المسلمين بعد رسول الله في آل بيته كلام من لهم رغبة في الخلافة، وليس هذا من الدين في شيء، لأنه لو كان من الدين لبلَّغه لنا رسول الله ﷺ بلاغًا مُبينًا، لأنه أمر الله وليس لرسول الله فيه إلا البلاغ، ولم يذهب واحد ممن عاشوا مع رسول الله ﷺ وجاهدوا معه إلى هذا المعنى، فالأنصار الذين آوَوْا ونَصَرُوا اجتمعوا في الثقيفة، واختاروا من بينهم رئيسًا وذهب إليهم أبو بكر وعمر وبايعوا جميعًا أبا بكر، ولو كانوا يتوهمون أن الأمر بعد رسول الله لواحد من أهله ما اختلفوا لحظة واحدة في مبايعة أقرب الناس إليه وهو عمه العباس، وكان سيدًا من سادات مَكَّة في الجاهلية والإسلام، ثم إن من كرام أصحاب رسول الله ﷺ من ناصر معاوية على سيدنا علي، وهم

لا يجهلون فضل علي ، ولا سابقة علي ، وإنما يعلمون أن سياسة الأمة في حاجة إلى دهاء معاوية أكثر من حاجتها إلى صلاح علي وتقواه ، وأنا أترك أمر هذا لله وأستمسك بقول سيدنا رسول الله الذي لا ينطق إلا بوحي ربه أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، وحسبي هذا والله هو الذي يعلم مدى حبي لآل بيت رسول الله ﷺ ، وأن حُبِّي لهم من حبي لرسول الله ﷺ ، وأنا امرؤ يحب نفسه وولده وأهله وماله ، فلما رزقني الله حبه وحب نبيّه ﷺ ذُقْتُ بهذه المحبة مَحَبَّةً فوق كل محبة ، وكان حبي لنفسي وأولادي وأهلي ومالي غاية الحب ، ثم كان حبي لله ولرسوله حبًا فوق كل غايات الحب ، وعرفت وذقت أن كل حب فوقه حب إلا حبك لله ولرسوله ، فهو الحب الذي لا مكان في قلبك لحب فوقه . وراجع ما قاله علي ـ كرم الله وجهه ـ يوم قبض أبي بكر وأن يوم موته كان كيوم موت رسول الله ﷺ ، ولم أقرأ في كلام عليّ كلمة واحدة تفيد أنه أولى بالخلافة لقرابته من رسول الله ﷺ ، وإنما بايعه المسلمون بعد عثمان وكان من الستة الذين رشّحهُمُ عمر رضي الله عنه لِيُخْتَار منهم واحد ، وحارب معاوية لأنه رفض بيعته وخرج على إجماع الأمة ، واحتج بتسليم قتلة عثمان لأنه من أولياء دمه ، وكان ما كان ، ذكر ابن قتيبة أن أعرابيًا قال في خطبته : « فخذوا أيها الناس لِمَقَرِّكُمْ من مَمَرِّكم ... ففي الدنيا أُحْيِيتُمْ ولغيرها خُلِقْتُم » وهذه معان معلومة وشائعة ، ولكن البيان عنها قد يأتي بصورة يجعلها كأنها جديدة ، فالدنيا ممر والآخرة مقر ، ومن لم يأخذ من مَمَرّه لمقرَّه فالويل له في مَقَرّه وفي الدنيا حياتنا وللآخرة خلقنا ، يعني لم نخلق لهذه الدنيا مع أن حياتنا فيها ، فمن شغلته الفانية عن الباقية التي خلق لها فقد ضل عقله وخسر اختياره وذلك هو الخسران المبين .

قلت إن ابن قتيبة كان يقطع كلامه ليحدث عن شيء ليس من العلم في شيء، لِيُرَوِّحَ عن قارئ كتابه ولِيُجدِّدَ به نشاط نفسه وكان هذا شائعًا في كتب كثيرة، وقد سمعناه من بعض شيوخنا الذين درسوا لنا، وكيف كان أحدهم يبعث النشاط والجد والوعي في الطلاب بلطيفة خارجة عن الدرس. قال ابن قتيبة: ذكر عن بعضهم قال سمعت بعض أهل الأدب يقول ما أشبه تأويل الرافضة للقرآن بتأويل رجل للشعر، فإنه قال يومًا ما سمعت أكذب من بني تميم زعموا أن قول القائل:

بَيْتٌ زُرَارَةَ مُحْتَبٍ بِفِنائِهِ ... ومُجَاشِعٌ وأَبُو الفوارس نَهْشَلُ

إنما هو في رجال منهم. فقيل له ما تقول أنت؟ قال البيت بيت الله وزُرَارة الحجر، قيل فمجاشع؟ قال زمزم جَشَعَتْ بالماء. قيل فأبو الفوارس؟ قال أبو قبيس، قيل فنهشل؟ قال نهشل أشَدَّ وفكّر ساعة ثم قال: نعم نهشل مصباح الكعبة طويل أسود فذاك نهشل. انتهى الخبر، وفي «العقد الفريد» أن الذي قال سمعت بعض أهل الأدب هو الشعبي، وأن الرجل الذي كان يؤول هو مضعوف من بني مخزوم من أهل مكة، وجده الشعبي قاعدًا بفناء الكعبة، وراجع أنت هذا الضرب من تحليل الشعر لترى الحجر محتبيًا بفناء البيت، وترى زمزمًا جشع ماؤها فهي مجاشع، وترى أبا قبيس هو أبو الفوارس، ولقد قرأت وأظنك قرأت أيضًا مناهج في تحليل الشعر الجاهلي ليست بعيدة عن تحليل هذا المضعوف المخزومي، وإن كان المخزومي عوَّل في الشرح على الدلالات اللغوية أحيانًا، وهذه التحليلات التي قرأتها لا تَسْتَنِدُ على دلالة لغوية ولا دلالة سياقية، ولا شيء إلا محض الوهم فالناقة إله، وفرس امرئ القيس الذي بات بعينه قائمًا غير مرسل هو الشبق الذي يعاني منه امرؤ القيس، والمضعوف لا يستحي مما يستحي منه الناس.

نص في آخر كتاب العلم والبيان

وقبل أن أُنهي الكلام في كتاب العلم والبيان أكتب نصًّا لم يَـرْوِه ابـن قتيبـة ، وإنما ذكره الناسخ ، قال : كتبه الفقير إلى رحمة الله إبراهيم بن عمر بـن محمـد ابن علي الواعظ الجزري ، وذلك في شهور سنة أربع وتسعين وخمسـمائة ، ثـم قال : قال بعضهم وذكر النص ، وقد أنكرته أول ما قرأته لأنه صـادم لـي لأنـني وأنت لم نعرف كلمة بني الإسلام على خمس إلا لبيان أركان الإسلام الـتي هـي الشهادتان ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت الله الحـرام لمن استطاع إليه سبيلاً ، والقائل قـال بـني الإسـلام علـى خمـس وذكـر أشـياء أخرى ، وبعد المراجعة وجدت النص شرحًا لقول رسول الله ﷺ الدين النصيحة قيـل لمـن يـا رسـول الله ، قـال : « لله ولكتابـه ولرسـوله ولعامـة المسـلمين وخاصتهم » والنص كله نصيحة لخاصة المسلمين وعامتهم ، ثم إنني رأيـت فيـه معاني أو قل مواجع لم يَخَلُ منها المجتمع في كل أزمنـة التاريخ ، ولمـا كـان الهدف هو البحث عن الذي يفيد الناس الذين هم أهل الشهادتين رأيت أن أكتبه ، وقد التمست له وجهًا وإن كان لم يقله وهـو أن سيدنا رسـول الله ﷺ لمـا قـال الدين النصيحة وجعل الدين كله في النصـيحة ، كمـا قـال الحـج عرفـة وجعـل الحج كله عرفة ، رأى هذا القائل أن شرح النصيحة لو صيغت في صياغة أركان الإسلام لا يكـون في ذلـك حـرج ، والمعـاني الخمسـة الـتي ذكرهـا مـن أكـرم المعاني التي لا تسكن إلا في قلوب أهل الله الذين إذا ذكروا الله وَجِلَتْ قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا ، جعلنا الله من خُدَّامِهم ، قال : بني الإسـلام على خمس « التواضع عند الدولة ، والعفو عند المقدرة ، والسـخاء مـع القلـة ، والعطية من غير مِنّة ، والنصيحة للعامة » .

والسلطة غالبًا ما يصاحبها الاستعلاء والغَطْرسَةُ والتكبر وأحيانًا يُنْسِيه الكبرياءُ والغطرسة أنه مخلوق ، ويقول لقومه أنا ربكم الأعلى كما قال فرعون ، ولاحظ أن فرعون لم يَقُل إنه رب الناس ، وإنما قال للمصريين أنا ربكم أنتم ولم يزد كما قال ما علمت لكم من إله غيري ، وخصهم بهذه الألوهية ، ثم علت الغطرسة وعلى التميز وعلى الكبرياء عند النمروذ بن كنعان لما آتاه الله الملك وقال إنني أحيي وأميت ، وكان أول من ادعى الألوهية العامة مع أن الفراعنة الذين سبقوه خصوا الألوهية بالشعب الذي حكموه ، لأن إبراهيم عليه السلام الذي حاج النمروذ جاء إلى مصر في الأسرة الفرعونية الثانية عشر ، ثم إن إبراهيم عليه السلام ارتحل إلى فلسطين خوفًا من بطش النمروذ ، ولم تكن فلسطين أرض إبراهيم عليه السلام ولا أرض قومه ، وإنما كان فيها وحده وولد فيها إسماعيل وإسحاق ، وكان شعب فلسطين أقام بيت المقدس الذي صارت به أرضًا مباركة قبل زمن إبراهيم بتسعة عشر قرنًا ، وقد ذكرت هذا لأنه من التاريخ المسكوت عنه ، والذي يعلمه اليهود ويسكتون عنه ، لأنه ينفي نفيًا قاطعًا أن تكون فلسطين لليهود ، نعم صاروا بعد أبيهم يعقوب من سكانها ، والمهم أن صاحب النص جعل الركن الأول من الأركان التي بني عليها الإسلام التواضع عند السلطة ، وأن الغطرسة عند السلطة والتكبر والاستعلاء وضَعَهُ مَوْضِعَ من يُنكر الشهادتين في التعبير الأصلي لقولنا بني الإسلام على خمس أولها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، والركن الثاني عند هذا القائل الذي احْتَرقَتْ أكبادُه بالذي يراه من الاستعلاء عند السلطة هو العفو عند المقدرة ، وأنه رأى القدرة تُغْرِي بالانتقام ، وأن روح الانتقام روح شريرة هي التي غلبت على نفس إبليس لما نَقَلَ عداوته من آدم إلى ذريته ، وأقسم للذي خلقه ليقعدن لهم صراطك

المستقيم ولم أرها في الناس إلا في أشد الناس شرًّا ، والعفو عند القدرة هو الخلق الأسْمَى والأرفع والأشْبَه بالروح الإنسانية والأكثر حُبًّا وتآلفًا في الجماعة .. والعفو عند القدرة يعني أن طرفا اعتدى وأن المعتدى عليه مطالب بالعفو مع قدرته على أخذ حقه ، فإذا أصَرَّ على القصاص فله ذلك بشرط ألا يزيد عن حقه مثقال حبة من خردل ، فإذا زاد هذه الحبَّة صار معتديًا ، فإذا لم يكن هناك اعتداء وإنما هو تسلط واستعلاء ورغبة في الانتقام لأي سبب آخر ، واتُّهم هذا الإنسان زورًا وشهد شُهَّاد الزور بإدانته ، فذلك سلوك آخر ، وشر آخر ، وإجرام آخر ، وسوء في حياة الجماعة لا يُحاطُ بخطره ، وأن تَجِدَ نفسك مُتَّهمًا وأنت بريء ويُنْتَقَمُ منك وأنت بريء ، ولذلك تجد الخمسة التي بني عليها الإسلام في هذا النص بعيدة الأثر في حياة الجماعة ، وتمتد وتتفرع ، وأن ضدها من أحط خسائس النفس الإنسانية ، وأن النفس التي تتواضع عند السلطة هي من أكرم النفوس والتي تغفر عند القدرة هي من أكرم النفوس ، وبمقدار ما ترى من خساسة من التكبر عند السلطة ترى من فضيلة عند التواضع عند السلطة ، وهكذا ترى العفو عند القدرة من شيم النفوس الكريمة العالية ، وترى عكسه من شيم النفوس الخسيسة المُفْرطة في الخساسة ، والركن الثالث من أركان الإسلام هو السخاء مع القلة ، وقد وُفِّق صاحب هذا النص في جمع النفوس ذات الفضائل النادرة ، لأن السخاء عند القِلّة يعني نفسًا محبة للعطاء ، ثم هي مع القِلَّة ليست جوادًا فحسب وإنما هي سخيَّة ، وهذا الصِّنْف فوق الذي وقاه الله شح نفسه لأن نفسه ليست فقط نظيفة من الشح ، وإنما هي محبة للسخاء مع القِلَّة ، يعني يعطيك من طعامه وشرابه ، ولو شاع هذا في الناس فلن تجد فيهم من يبيت شبعانًا وجاره جائع، والركن الرابع العطاء من غير مِنّة ، لأن المَنّ

من الأذى ، ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ﴾ (البقرة:٢٦٣) ، ونجد الحق ـ جل وتقدس ـ أكرم نفس الفقير المحتاج حين وصف الصدقة بأنها قَرْضٌ لله ، وهذا معنى لا ينتهي منه العجب ، لأن الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى جعل الدرهم الذي يخرج من يدك ليد الفقير قَرْضًا حَسَنًا له ، وجعل هذا الدرهم يقع في يد الله قبل أن يقع في يد صاحب الحاجة ، لتبذل أنت أيها المعطي بسخاء لأنك تقرض الله ، ولأنك تضع درهمك في يد الله ، وليأخذ صاحب الحاجة ليس من يدك وإنما من يد الله . وتلاحظ أن السخاء مع القلة قريب جدًا من العطاء من غير منة ، وأن التواضع مع السلطة قريب جدًا من العفو مع القدرة ، والركن الخامس هو النصيحة للعامة ، وأكرم نصح للعامة ، هو أن تعلمهم الأفضل ويدخل فيه كل الذي مضى من التواضع عند السلطة ، والعفو عند القدرة ، والسخاء مع القلة ، والعطاء من غير منة ، وكأن النصح للعامة فاصلة لهذا النص جامعة لكل ما مضى فيه .

ثم إن هذا الناسخ الصالح أضاف إلى هذا النص بيتين من الشعر ، وأربعة أبيات من شعر الشافعي ، والبيتان هما :

وإذا ابْتُليتَ بِمحْنَةٍ فالْبَسْ لها ... ثوبَ السكوتِ فإنَّ ذلك أسْلَمُ
لا تشكونّ إلى العباد فإنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

وذكر قول الشافعي :

نَعيبُ زَمانَنَا والعيبُ فينا ... ومَا لزمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانا
وقد نهجوا الزمان بغير جُرْمٍ ... ولَوْ نَطَقَ الزمانُ بنا هجانا
فدنيانا التصنُّعُ والترائي ... ونحن به نخادع من يَرَانَا

وليس الذئبُ يأكل لَحمْ ذئبٍ ويأكُلُ بعضُنَا بَعْضا عيانا

وتعجب حين يكون هذا في زمن الشافعي الذي عاش في القرن الثاني وتوفي ٢٠٤هـ ، وعاش في زمن الأئمة وولد سنة ١٥٠هـ ، يعني الشافعي الذي ملأ الدنيا علمًا عاش أربعًا وخمسين سنة ، ورأى ما ذكر من أحوال الناس من التصنّع والترائي ، ولو نطق الزمان بنا هجانا ، ثم إنه يبلغ الإحساس به بخطايا الناس حتى إنه ليفضّلُ الذئاب على الناس ، لأن الذئب لا يأكل لحم الذئب ويأكل بعضنا بعضًا ، ومقصودي من كل هذا أن الخطايا لم تَخْلُ منها الأمة واستمرت مسيرتها واستمر عطاؤها ، فلا يجوز أن يزعجنا ما نحن فيه ، ولا أن يتسرب اليأس إلى نفوسنا لأن وجود الشر في الأرض حقيقة ثابتة ولن تتغيّر ، ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف:١٠٣) ، ويعجبني جدًّا قول الأول : فإنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم .

والآن أنتقل إلى كتاب الزهد .

* * *

كتاب الزهد

الحديث في الزهد فيه دقائق لو أغفلناها أفسدنا معناه مع أنه من أجل المفاهيم التي تعمر بها الحياة ، وتتم بها خلافة الإنسان لله في الأرض ، وتمام خلافة الإنسان لله في الأرض يعني تمامها إعمارها وعمرانها وازدهار الحياة فيها ، وكلمة الزهد تعني عدم الرغبة ، يقال زهد في كذا بكسر الهاء يعني رغب عنه ولم يرغب فيه ، وكثيراً ما تتعلق كلمة الزهد بالدنيا ، فيقال زهد في الدنيا ، أي رغب عنها ولم يرغب فيها ، وهذه الدنيا التي رغب عنها ولم يرغب فيها لا حياة له إلا فيها ، ولا عمل له إلا فيها ، ولا منجاة له في آخرته إلا بعمل يعمله فيها ، ولا عيش له إلا منها ، ولا أكل ولا شرب ولا كساء ولا شيء له هو بذاته متعلق به إلا بهذه التي رغب عنها وزهد فيها ، ومن حكم الله التي لا تنتهي عجائبها أنه سبحانه لما جعل الإنسان خليفة في الأرض وخلقه لعبادته، وجعل الأرض مسجده ، والسعي فيها محرابه وقبلته وصلاته ، أقول لما قضى الله أن يكون الإنسان خليفة في الأرض خلقه وكوّنه وأَوْدَعَ فيه من الحاجات اللازمة لحياته ما يؤهله لهذه الخلافة ، وأودع في الأرض من لطائف حكمته ، وأَسْكَنَ فيها من حاجات هذا الإنسان ما يشغل هذا الخليفة بهذه الأرض ، وأن حياته متوقفة على شغله بهذه الأرض ، فجعل له حاجة إلى الطعام والشراب والسكن والمَلْبَس والمركب ، وجعل كل ذلك في الأرض ، ولا يصل إليه هذا الخليفة إلا بالعمل الذي تعمر به الأرض ، وتَصِيرُ به الخلافة . فرزقه في الأرض ، ولكنه لا يجده على سطحها وإنما هو في الأرض ومن أقواتها وطاقاتها ، وعليه

(م ١٢ : من مناهجنا الغائبة في إعداد أجيالنا)

أن يضع البذرة وأن يرعاها حتى تكون سَبْعة سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، وهكذا يأكل هو ومن حوله ، وهكذا كل شيء أسكنه الله في هذا الإنسان الخليفة هو في هذه الأرض ساكن فيها وعلى الساكن في الإنسان أن يستخرج الذي يرومه من الساكن في هذه الأرض ، وهذه عبادة الإنسان وهذا تسبيحه وهذه صلاته ، وهذا عام في المؤمن والكافر ، ويتميز المؤمن بشيء يزيد وهو أن أبانا آدم لما هبط من الجنة إلى الأرض كان سبب هبوطه أن الله ـ سبحانه ـ قال له كل من حيث شئت من شجر الجنة إلا شجرة واحدة نهاه عن الأكل منها ، فوسوس له إبليس وأغراه بالأكل منها وكان هذا في عمارة الأرض ، شرع الله لنا شرعًا وأحَلَّ فيه أشياء وحرم فيه أشياء ، وجعل هذا الحِلَّ وهذه الحُرمة من أصول خلافة الأرض وإعمارها وعمرانها ، فالصدق والأمانة والجد والإتقان كل ذلك من عمرانها وهكذا ، وسبحان من لا تنتهي عجائب حكمته ، لما نهانا عن أشياء وكلف أنفسنا بالمكاره في دفعها ، جعل هذه المكاره هي الجدار الذي حفت به الجنة ، ولما خلق فينا الشهوات والأهواء جعلها هي الجدار الذي حفت به النار ، وقال لنا سيدنا ونحن نتقلب في الأرض حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ، وأنت في كل يوم تواجه المكاره وتواجه الشهوات والجنة والنار بين عينيك وأنت تَسْعى في الأرض وتضرب فيها تَبْتَغي من فضل الله ، وقوله تعالى : **﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾** (الجمعة: ١٠) فيه معنى أن الصلاة من العوامل التي تُهَيِئكَ للانتشار في الأرض حتى يكون انتشار أهل الذكر ، وأهل الطهر ، وأهل القرب ، وأهل المحبة ، وأهل الرحمة ، وأهل العدل ، وهذا هو الفرق بين إعمار الأرض بأيدي أهل الله وإعمارها بأيدي الذين لا يعرفون الله .

ليس الزهد أن تغمض عينيك عن الدنيا لأنك خلقت فيها وخلقت لإعمارها ،

وليس الزهد أن تجعل هذه الدنيا كل همك لأنها فانية والآخرة خير ، وإنما الزهد أن تجعل دنياك لآخرتك ، وأن تبذل في هذه الدنيا أقصى طاقاتك في العمل الذي تعمله لتحقيق أكرم الخير لك ولقومك وشعبك وأمتك ، فإن كنت صانِعًا بذلت أقصى ما عندك من إتقان حتى تكون صناعة أُمَّتِك خير صناعة أخرجت للناس ، وإن كنت باحثًا بذلت في بحوثك غاية الإتقان حتى تكون بحوث أُمتك خير بحوث أخرجت للناس، وهكذا قل في كل شأن ، وأكْبَرُ أخطائنا أننا نعيش بنفوس فردية لا تعرف الجماعة ، ولا نفكر في شأنها العام ولا نلتفت إلى هذا الشأن العام ، ولا نعمل من أجله ، وإنما كل مشغول بنفسه وهذا لا يوجد إلا في أزمنة التخلف ، لأن أبناء الدول التي شاع فيها التعليم الصحيح والصناعة الصحيحة ، والسياسة الصحيحة ، والعلوم الصحيحة ، كلهم يحملون هموم شعوبهم ، ويجعلون هذه الهموم على عواتقهم ، ويجعلون تقدم شعوبهم من أهم أغراضهم ، وهؤلاء هم الزهاد لأنهم يعملون لشعوبهم ، ومن يعملون لشعوبهم هم الذين يتوجهون إلى الله ويعملون ابتغاء فضله ، وإن كانوا لا يعرفون الله كانوا يعملون بالإسلام وليسوا مسلمين كما قال الشيخ محمد عبده وجدت في الغرب إسلامًا ولم أجد مسلمين . وهذه كلمة جيدة جدًّا .

كلام للإمام علي في الدنيا

ذكر ابن قتيبة أن رجلاً ذم الدنيا عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال عليه السلام : «الدنيا دار صِدْق لمن صَدَّقَها ، ودار نجاة لمن فَهِمَ عنها ، ودار غِنًى لمن تزوَّدَ منها ، مَهْبِطُ وحيِ الله ، ومُصَلَّى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومَتْجَرُ أوْليائه ، ربحوا منها الرحمة ، واحتسبوا فيها الجنة ، فمن ذا يَذُمُّها وقد آذنت بَبيْنها ؟ ونادت بفراقها ؟ وشبّهت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ترغيبًا وترهيبًا»

وهذا كلام هو فصل الخطاب في شأن هذه الدنيا ، وقد أثاره في نفس علي ـ كرم الله وجهه ـ ما سمعه من ذم الدنيا ، وأن هذا الذم قد يُفْضي إلى خراب الدارين الدنيا والآخرة ، وأنه يخالف بديهة العقل لأنه لا حياة لنا إلا فيها ، ولا طاعة لنا إلا فيها ، ولا يُفْتَحُ لنا باب الرحمة إلا بالذي نعمله فيها ، ولذلك كان كلام الإمام من أكرم كلامه وهو يكشف لنا الحقيقة التي إذا غابت عنا غاب عنا كل خير ، وهذا النص من أكرم كلام الإمام علي ، والأمر الملبس في هذا هو أن سعيك في الدنيا فرض محتوم عليك ، لأنك لن تعيش فيها إلا بهذا السعي ، فإن كان سعيك فيها لها وحدها خسرتها وخسرت الآخرة معها ، وإن كان سعيك فيها لآخرتك ربحتها وربحت الآخرة ، ومرجع الفرق بين الحالتين هو النية التي ينعقد عليها سَعْيُك ، والسَّعْي فيها لآخرتك يعني أن الله ـ جل وتقدس ـ الذي خلقك وخلقها وخلق سعيك فيها إن كان حاضراً في نفسك في غدوك ورواحك ، وكان ذكره حيًّا في قلبك نجحت ونجح سعيك ونجحتْ دنياك ونجحت آخرتك ، وراجع كلام الإمام وهو بيان ظاهر لموقعنا في الدنيا ، وأننا لا نستطيع الزهد فيها ، ولا نستطيع أن نطلقها طلاقًا بائنًا يحرم علينا بعده النظر في وجهها ، ولن يكون هذا إلا بالموت ، راجع قوله كرم الله وجهه إنها « دار صدق لمن صدَّقها » وهذه كلمة عالية لا يقولها إلا من كان في طبقة الإمام ، وكلمة (صدّقها) كلمة حيَّة وكأن لها لسانًا يحدثني عنها ويقول لي من يعمل فيَّ مثقال ذرة خيرًا يره ، ومن يعمل فيَّ مثقال ذرة شرًّا يره ، وأنك تحيا فيَّ وإن كنت خلقت لغيري ، وأن هذا من صنع الله خلقنا لآخرتنا وأحيانا في دنيانا ، لأنه سبحانه خلقنا للبقاء ، « وضلّت أمة يحسبونهم للنفاد » كما قال أبو العلاء ، وكلمة الإمام أن من صدق الدنيا وهي تحدثنا عن أنفسنا وعنها

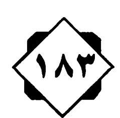
صارت له الدنيا دار صدق ، ولم تكن دار صدق إلا لأن كل حديثها صدق ، ثم قال كرم الله وجهه : « ودار نجاة لمن فهم عنها » ودار النجاة ليست بعيدة عن دار الصدق ، ومن فهم عنها ليس بعيدًا عن مَنْ صدَّقها ، وكأن الإمام أراد أن يزيد الأولى بيانًا وأن يقول لنا لا تعيشوا في الدنيا غير فاهمين عنها، ومن فهمكم عنها أن تعلموا أنكم مرتحلون عنها ، وأنكم ضيوف ، وأن ما في أيديكم عارية فَبَادِرُوا إلى الأعمال الصالحة وكُفُّوا أيديكم عن كل ما حرَّمه الله عليكم وخذوا من صحتكم لمرضكم ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، ونستطيع أن نعود بكل كلمة من كلام الإمام إلى أصلها في كلام الله وكلام رسوله ، وأن الفهم عن الله ورسوله هو الفهم عن الدنيا ، وأن تصديق الله ورسوله هو ذاته تصديق الدنيا حين تكلمنا بلسانها العالم بسر خلق الله لنا فيها ، ثم قال كرم الله وجهه : « ودار غنى لمن تزوّد منها » وهذا هو الفهم السديد لمعنى الغنى ، لأن أي غنى إن لم يكن لنا في الآخرة فليس من الغنى في شيء ، ولو ملكت ملء الأرض ذهبًا ، ثم إن هذا الغنى الحقيقي لا سبيل إليه إلا التزود بالعمل الصالح من هذه الدنيا ، وعباراته رضي الله عنه عامرة وزاخرة ، ولاحظ أن هذا الكلام لم يكن بعد تروية وإعداد وإنما سمع رجلاً طيِّبًا يَذُمُ الدنيا فخاف أن ينزلق به الفهم وأن يغفل عن الانتفاع بالخير الذي لا يتاح له إلا في هذه الدنيا ، فقال هذا الكلام الذي لا يقوله إلا مثله على البديهة ومن غير مراجعة ، لأن قلبه رضي الله عنه عامر بالحق والصدق والعلم الصادق ، وقوله : « مهبط وحي الله » توجه جديد للحديث عن الدنيا بعدما أوْجَزَ موقع الإنسان منها ، وأنها في ذاتها لها عند الله كرامة وأول كرامتها أنها مهبط وحي الله الذي أوحاه لكل نبي بعثه في هذه الأرض ، ومهبط كل كتب الله ، وكل شرع شرعه سبحانه لكل أُمَّة من أُممِ أنبيائه ، ثم هي مصلى ملائكته

الذين ينزلون إلى هذه الأرض سواء بوحيه أو طوافون يُحيطون بمجالس ذكره ، أو كانوا حَفظة يلازمُون كل عبد من عباده يكتبون ما يصنع ، ثم هي مسجد أنبيائه لم يصل نبي من المصطفين الأخيار إلا على ترابها ، ولم تسجد جباه الصالحين الطيبين الخاشعين إلا على ترابها ، ثم عاد رضوان الله عليه إلى معنى قاله ، وهي أنها دار غنى لمن تزوَّدَ منها ، وذكره مرة ثانية في صياغة جديدة وهي أنها متجر أوْليائه ، وذَكَرَ الأولياء الذين هم بعد الأنبياء . ونعم المتجر ونعم التاجر ، وهل ترى متجراً يَعْلُو متجراً ربحه الرحمة ، واحتسابه الجنة ؟ ثم اتجه إلى الرجل الذي أثار في نفسه كل هذه المعاني وقال من ذا يَذُمُّها ؟ ولاحظ أن الإمام يعلمنا كيف نعلم لأنه سمع رجلاً أخطأ ولم يقل له هذا خطأ ، وإنما شرح له ولغيره وجه الصواب ، ثم أنكر ذمها بقوله من ذا يَذُمُّها ، ثم نبّه الرجل ونبهنا جميعًا إلى أنها آذنت بالفراق لأن أجلك أقرب إليك من كل قريب ، ولم يكتف بقوله « آذنت ببينها » وإنما وضح أكثر وقال « ونادت بفراقها » وكلنا يَجِبُ أن يكونوا سمعوا هذا النداء ، حتى يتزوّدُوا من غناها ويسارعوا إلى الرحمة من متجرها ، وكأنها لما نادت بفراقها نبهتنا ، وفي هذا إشارة خفية إلى حفاوتها بنا ، ثم زادت هذه الحفاوة في الجملة الأخيرة وهي « شَبَّهت بسرورها السرور وببلائها البلاء ترغيبًا وترهيبًا » ووجه الحفاوة أنها أذاقتنا سروراً يشبه السرور الذي يجب أن نتزود منها بالذي يبلغنا إليه في آخرتنا ، وهذا هو الترغيب ، وأذاقتنا بلاء يشبه البلاء الذي يجب أن نحذره في الذي نحن صائرون إليه في آخرتنا ، وهذا هو الترهيب ، ثم إنه كرم الله وجهه لما ذكر لنا أن الدنيا مهبط وحي الله ، ومصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومتجر أوليائه ، كأنه يقول لنا اجعلوها دار حُبٍّ وَعَدْلٍ وبرٍّ ورَحْمة ، حتى

تكونوا أشبه بهؤلاء الكرام ، واحذروا أن تظلموا أو تقهروا أو تتسلَّطُوا في مصلى الملائكة ، ومساجد الأنبياء، ومتاجر الأولياء ، ولا أظن أنه يقال في الزهد كلام أفضل من هذا الكلام ، وقد أصاب ابن قتيبة حين ذكر هذا النص في باب الزهد.

دفاع الله عن أوليائه

وقد ذكر ابن قتيبة في هذا الباب كثيرًا مما أَوْحَى الله به إلى أنبيائه ، وقال في الذي أوحاه الله إلى موسى عليه السلام : «اعلم أن من أَهَانَ لي وَلِيًّا أو أَخَافَه فقد بارزني بالمحاربة ، وبادأني وعرضني لنفسه ، ودعاني إليها ، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي ، أَفَيَظُنُّ الذي يحاربني أنه يقوم لي ؟ أم يظن الذي يعاديني منهم أنه يُعْجِزُني ؟ أم يظن الذي يبادرني إليهم أنه يسبقني أو يفوتني؟» انتهى ما أردته من النص ، وراجع لتتبين إلى أي مدى يغضب ربنا من الإساءة إلى أوليائه ، وأنهم أهله ، وأنه يَحْميهم ، ويهدّدُ من يُؤْذيهم ، لأنهم خير خلقه في الأرض بعد الأنبياء ، وهم العلماء كما قال الشافعي إذا لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي ، وإنما يحميهم ربنا لأنه بعلمهم تعمرُ الأرضُ وتعمر الحياة ، ولاحظ أن الشافعي لما قال العلماء هم أولياء الله لم يعن علماء الفقه والتفسير والشرائع ، وإنما العلماء في كل علم تَحْتَاجُه الأمة ، وهم الذين تعلموه لخدمة الأمة ، وشغلوا به لِنَفْعِ الأمة وعلموه لأبناء الأمة ، وليسوا هم الغافلين عن هذه المعاني لأن الغفلة عنها تحرم عالم الفقه من ثواب علم الفقه ، لأنه لا عمل إلا بنية ولا أجر إلا باحتساب ، وإذا رأيت أي جماعة أو أي شعب أو أي نظام يحترم العلم والعلماء ويعني بالعلم والعلماء فاشهد له بالخير ، وإذا وجدت أي شعب أو أي نظام يهين العلم والعلماء فلا تظن به خيرًا ، لأنهم هم النور الذي



يضيء للأمة طريقها ومن يضطهدهم هو الذي يطفئ النور الذي يهدي قومه إلى طريق التقدم .

ومما قاله الله لشعيا : « كيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور ويَتَقَوَّون عليه بطعمة الحرام ؟ وكيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يُحادّني وينتهك محارمي ؟ أم كيف أستجيب دعاءهم وإنما هو قول بألسنتهم والعمل من ذلك بعيد» . انتهى ما أردته . وأكرم ما في هذا النص أنه يقول لنا إذا لم تجعلوا حياتكم نَقِيَّة مضيئة طاهرةً بمعرفة الله ، فاجْتَهِدُوا على الأقل في أن تجعلوا أوقات ذكر الله بعيدةً عن هذه الخطايا ، فإذا لم تحاولوا البعد عن قول الزور فحاولوا البعد عنه وأنتم صائمون ، وإذا لم تحاولوا أن تبعدوا قلوبكم عن الصَّغو إلى الذين يحادون الله فحاولوا أن تبعدوها عنهم في صلاتكم ، احترموا أوقات ذكر الله ، وابعدوها عن الذي يُغاضبه لأن مباشرة ما يُغْضِبُه في أوقات ذكره ليس ذنبًا فحسب وإنما هو سوء أدب في حضرة الله .

قال ابن قتيبة : « وفي بعض الكتب يقول تعالى : «عبدي ما يزال مَلَك كريم قد صعد إليَّ منك بعمل قَبِيح ، أتقرب إليك بالنعم ، وتتمقت إليّ بالمعاصي ، خيري إليك نازل ، وشرك إليّ صاعد» وكأن الحق يستنفر ما فطرك عليه من خلق وحياء ، ومروءة ، حتى تتخلّى عن هذه الخساسة وهذه الغفلة ، الخير إليك من الله نازل ، وشرك إلى الله صاعد .

قال : ومما أوحى الله به إلى الحَوَاريّين : «أن شجرة الأرض بِمَطَرِ السماء تعيشُ وتزكو ، وكذلك القلوب بنور الحكمة تُبصر وتهتدي» وفي هذا إشارة كريمة إلى أن مخلوقات الله تنتفع بعطاياه ، وإن لم تكن ذات عقل ، فأولى بذوي العقول أن يكونوا كذلك ، قال وفي الإنجيل : «لا تجعلوا كنوزكم في الأرض ولكن اجعلوها في السماء ، وحيث تكون كنوزكم تكون قلوبكم» .

وقد ملأ ابن قتيبة بأمثال هذه الفوائد والفرائد أكثر من عشرين صفحة ، وكلها في كتاب الزهد ، ثم ذكر باب الدعاء ، والمناجاة ، والبكاء ، والتهجد ، والموت ، والشيب ، ومقامات الزهاد ، وكل هذا دال على أن الزهد هو حضور دائم في معيَّة الله ، وطاعة دائمة لله وَمَحْيَا وممات لله ، وكل هذا وأنت تباشر ما تباشر من أعمال ، وليس فيه لحظة قطيعة بينك وبين السعي فيها والمشي في مناكبها وابتغاء فضل الله وأنت مباشر لترابها ، ويحذرك أولياء الله الذين يحرسهم بذاته وجلاله من أن تموت وأنت مُفَرِّطُ في الذكر والتوبة والضراعة والسعي في عمارة الأرض ، وأن تتمنى الرجعة بعد الموت لتعمل عملاً صالحًا فلا يؤذن لك ، انتهز فرصة أنك حيّ وأنك في الفُسْحة التي يتمناها من سبقوك من أهلك ولكنهم لم ينالوها ، ثم إن الله ـ سبحانه ـ أكرمنا بشيء هو أن الحياة المُقْترنة بذكره وبحضرته أمْتَعُ وأطْيَبُ وأكرم ، وجَعَل ذكره سبحانه سبيلاً إلى اطمئنان القلوب : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨) ، ولو أن الله أذاقنا ذلك لكان اطمئنان قلوبنا بذكره هو ثواب ذكره وهو زائد ، وإذا كان ذكره سبحانه لا يزاد عليه شيء ، والحديث في الأجر ، والأجر يزيد وينقص .

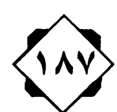
جملة من أدعية الصالحين

ذكر ابن قتيبة جملة من الأدْعية جرت بها ألسنة الداعين من العلماء وغير العلماء ، والدعاء كله واحد وهو عند باب الله سواء ، وإنما يفضل بعضه بعضًا بمقدار الإخلاص ، وصِدْقِ الإحساس ، وقوة الرجاء ، وشدة الرغبة والرهبة ، وهذه المعاني لا ترتبط بالمستوى العلمي ولا بأي مستوى ، وإنما هي راجعة إلى الذي في قلبك ، وسأقف عند بعض الأدعية ، سمع الإمام علي بن أبي طالب وهو في العمرة رجلاً متعلقًا بأستار الكعبة ويقول : « يا من لا يَشْغَلُه سَمْعٌ عن

سَمْع ، ولا تَغْلِطُه المسائل ، ولا يُبْرِمُه إلحاحُ المُلِحِّين ، أذقني بَردَ عفوك ، وحلاوة مغفرتك» فقال عليّ : «والذي نفسي بيده لو قلتها وعليك ملء السموات والأرض ذنوبًا لغُفر لك» حاول أن تتعرف على المعنى الذي وقع في نفس سيدنا علي من هذه الكلمات ، حتى أقسم بالذي نفسه في يده أنك لو قلتها وعليك ملء السموات والأرض ذنوبًا لغُفِر لك ، وقوله «لو قلتها» تاء الخطاب فيها لكل من يصح له الخطاب وليست لمخاطب مُعَيّن ، وإنما لو قالها أي قائل لغفرت بها ذنوبه ولو كانت ملء السموات والأرض ، وليس لتعلق الداعي بأستار الكعبة أثر في هذا الثواب ، والذي ليس عندي غيره هو أن الرجل ذكر الله بصفاته الخاصة التي لا يوصف بها غيره وأنه ليس كمثله شيء ، فالكل يشغله سمع عن سمع ، والذي لا يشغله سمع عن سمع هو وحده سبحانه ، والكل تغلطه المسائل ، والذي لا تغلطه المسائل هو وحده سبحانه ، والكل يُبْرِمه الإلحاح ، والذي لا يُبْرِمه الإلحاح هو وحده سبحانه ، وآية ليس كمثله شيء نزلت على كل الأنبياء ، وكل الأنبياء حدّثوا عن الله ما حدّث سبحانه عن نفسه ، ولم يَقُلْ الرجل الصالح اغفر لي يا غفار ، وارحمني يا رحمن ، أو استرني يا ستار ، أعني لم يدع الله بأسمائه الحسنى ، وإنما ذكر كلمات ثلاث هي جامعة لأمهات ما تتحدّث به عن ربنا ـ سبحانه ـ وأنه سبحانه ليس كمثله شيء ، ثم إن الرجل لما انتقل من هذا التعظيم والإجلال إلى ذكر حاجته لم يطلب العفو ولا المغفرة ، وإنما طمع في أن يُذيقَهُ بَرْد العفو ، وكأنه يحترق من ذنبه ، وأن يذيقه حلاوة المغفرة التي هو في أشد الحاجة إليها لتذهب عن نفسه مرارة المعصية ، وأنت حين يزيد طمعك في الذي عند الله تكون غالبًا في حالة أقرب إلى الله ، وإن وجدت غير ذلك فحدث به ، ورسول الله أمرنا بذلك

وأغرانا به وقال : « إن من علم الناس آية من كتاب الله أو كلمة من سنة في دين الله حَثَا اللهُ له من الثواب حَثْوًا » ، ومن الغبن لنفسك أن تُضيّع عليها هذا الحثو الذي هو من يد الله ، وخصوصًا أن الذي وجدته في صدرك وحبسته هو أيضًا من عطاء الله .

قال ابن قتيبة : دعا أعرابي عند الملتزم فقال : « اللهم إن لك علي حقوقًا فَتَصَدَّقْ بها علي ، وللناس من قِبَلِي تَبِعَاتٌ فتحملها عَنِّي ، وقد أَوْجَبْتَ لكل ضيف قِرًى وأنا ضيفك ، فاجعل قراي الليلة الجنة » ويلاحظ أن هذا الأعرابي لم يسلك في دعائه الطريق المتبع الذي شرحته لنا سورة الفاتحة ، وهو الابتداء بحمد الله وذكر جلاله ونعمه ، وأنه خالقي وأنا عبده ، ثم أطلب منه ما أرجوه ، راجع الفاتحة بدأت بالرحمن الرحيم وهو مدخل حسن جدًّا لطلب الهداية ، لأن الهداية من الرحمن الرحيم ثم ثَنَّتْ بالحمد وعرفان النِّعم ، وذِكْرِهَا وشُكْرِها ، وهذا هو تهيئة قلب الداعي لِتَلقي الإجابة وذكرها وشكرها حتى يصل الكلام والذكر إلى نَخُصُّك بالعبادة ونَخُصُّكَ بالاستعانة ، وأعلى صور الاستعانة التي لا تكون إلا منك هي الهداية للصراط المستقيم ، وكأن الكلام ساق إليها وهي شاطئ الهداية ، وهكذا ترى دعاء الصالحين ، وهكذا فعل الذي قال لا يشغله سمع عن سمع وكأنه اختار السمع لأنه يناجيه ، أما الدعاء الذي معنا فقد دخل مباشرة على مراده من غير أن يقدم لِمدْخَلِهِ هذا بالذكر والتَّهَيُّؤ ، مما يشعر بإحساسه بثقل ما على كاهله من حقوق لله وحقوق للعباد . ويشعر أيضًا بقوة ثقته في عطاء الله وكرم الله ، وأنه من حيث هو عبد الله فله استحقاق في كرم الله ، حتى إنه ليملأ يَدَيْه من عطاء ربه من غير استئذان ، والواقفون على باب الكريم يدخل من يشاء أن يدخل منهم من الطريق المألوف والباب المعروف ، ويدخل



من يشاء منهم أن يدخل من أي باب ، ومن أي طريق ، وكرم صاحب الساحة يقبل الكل ويعطي الكل ؛ ويحتضن الكل ، وسائل الله لا يخيب من غير أن تسأل بأي شكل سأل ، ثم إن هذا الأعرابي اختصر مطالب ثلاثة لا أرى للمؤمنين بالله عند الله أعزّ منها ، الأول : التصدق عليه بذنوبه التي هي من حق الله ، والثاني : تحمل ما عليه للناس ، والثالث : الجنة ، ويلاحظ أن الأعرابي كأنه يقول لربه يا ربيّ إني أرجو منك ما طلبته أنت مني ومن عبادك ، فقد طلبت منا أن نتصدق وأغريتنا بالصدقة ، وقلت إنها قَرْضٌ حَسَنٌ عندك ، وأنها تقع في يدك قبل أن تقع في يد المسكين ، وأنا الآن أطلب منك أن تتصدق عليّ بحقك عندي ، ثم إنك طلبت منا أن نتحمَّل عن الغارمين وجعلت تحملنا عن الغارمين بابًا من أبواب البر ، ومصرفًا من مصاريف الزكاة ، وأنا الآن أطلب أن تتحمل عني حقوق عبادك لأني غارم ، لا أستطيع أداءها ، وأنا أعلم أن كل حق لعبادك عليّ لك فيه حق ، لأني حين ظلمت خالفت نهيك لي عن الظلم وهذا حقك ، ثم ظلمت من ظلمت وهذا حقه ، وقد تصدّقت عليّ بحقك ، وأخبرنا المبلغ عنك صلوات الله وسلامه عليه أنك تحبس عبادك الذين غفرت لهم ذنوبهم على قنطرة بين الجنة و النار للمقاصة حتى تقتص للعجماء من القرناء ، وأعلم أيضًا أنه لا حرج على فضلك ، وأنك بواسع عطائك تعطي من له حق علي حتى يرضى ويخلصني من هذا الحق ، ثم إنك سبحانك طالما حَثَثْتَنَا على إكرام الضيف وأنا الآن ضيفك وأطلب قِرىً خاصا وهو الجنة فاجعل قراي الليلة عندك الجنة ، وهكذا كان طمع الأعرابي في سعة رحمة الله ، مغفرة ذنوبه وتحمل ما عليه لعباده ثم الجنة ، وإذا قلت أي شيء قدّمه لله حتى يَطْلبَ منه كل ذلك ، قُلْتُ لك لحظة الدعاء والرجاء هي أكرم لحظة يعيشها أهل الله ، وأن

هذا الأعرابي وهو واقف بين يدي الله ويقر بذنوبه التي عليه لله وحقوق العباد عليه هو في حالة اعتراف ، والاعتراف بالذنب توبة ، وإقراري بحقوق الناس عليّ اعتذار مني للناس ، حتى إنه لا يحسن من الإنسان أن تُقِرَّ لَهُ بحقِّه عليك ثم لا يسامحك بهذا الإقرار ، ثم إن الطمع في الجنة لا يكون أبدًا إلا من فرط حُبّك لله وفرط إحسَاسِكَ بسعة رحمته ، وفي النهاية إن الله حيٌّ كريم إذا رفع عبدُه إليه يَدَيْه لا يردهما صِفْرًا حتى يضع فيهما خيرًا ، فارفع لله يديك حتى لا تحرم من خير يضعه خالق السموات والأرض فيهما ، لأنك لن يقع في يديك خيرٌ أفضل من خير يضعه الله فيهما ، واحذر أن تكون من الغافلين ، أو أن تتردَّدَ في رفع يديك لكثرة ذنوبك لأنك في كنف رحمن رحيم .

من دعاء شيخ ابن قتيبة

قال ابن قتيبة قرأت في كتاب شيخ لنا : اللهم إنه من تهيأ أو تعبأ وأعدَّ واستعدَّ لوفادة مخلوق رجاء رِفْده وطلب نَيْله فإن تهيئي وتعبُّئي وإعدادي واستعدادي لك رجاء رِفْدِك وطلب نائلك الذي لا خطر له ولا مِثْل ، اللهم إني لم آتك بعمل صالح قدمتُه ، ولا بشفاعة مخلوق رجوته ، أتيتك مُقِرًّا بالظلم ، والإساءة على نفسي ، أتيْتُكَ بأني لا حجّةَ لي ، أرجو عظيم عفوك ، الذي عُذتَ به على الخطائين ثم لم يَمْنعك عكوفُهم على عظيم الجُرم أن جُدْت عليهم بالمغفرة ، فيا من رحمته واسعة وفضله عظيم اغفر الذنب العظيم» .

ابن قتيبة توفي سنة ٢٧٦هـ ، وشيوخ ابن قتيبة غالبًا ما عاشوا بعض عمرهم في القرن الثاني ، يعني في زمن البخاري ، وأحمد ، والشافعي ، والخليل ، وسيبويه ، والمازني ، وهم غالبًا الطبقة الأولى التي عاشت على الأرض بعد

التابعين ، وفي كلام هذه الطبقة أسرار تَصِلُ إلى القلوب قلما تجدها في كلام غيرهم ، وإنما يتميز كلامهم بالذي تحمله قلوبهم ، وراجع القسم الأول من كلامه الذي يعده مَقْدَمِة لوفادته على الله ، راجع قوله : تَهيًّا أو تعبًّأ وأعدّ واستعد ، وكان يكفي أن يقول إنه من تهيأ لوفادة مخلوق ، وإنما ذكر ذلك كله لا ليؤكد فحسب من تهيأ لوفادة مخلوق ، وإنما ليؤكد تهيؤه هو ، وتعبؤه هو ، وإعداده هو ، واستعداده هو ، للوفادة على ربه لطلب رِفْده ونَيْله الذي لا خطر له ولا مثل ، هذا وقد أصاب وأصاب في بيان البينونة بين من تهيأ للوفادة على المخلوق والوفادة على الله ، وأن الوفادة على الله هي شأن أهل الله المحبين لله والطامعين في عطاء الله ، والطمع في نَيْل المخلوق شيء والطمع في نيل الخالق شيء آخر ، لأنك تقترب من الخالق أكثر بمقدار إفراطك في طمعك من عطائه ، وهذا من كرم وإكرام الله الذي لا يكون إلا منه سبحانه ، ومن فطنة هذا الشيخ الجليل الذي ربّى لنا ابن قتيبة أنه لما ذكر لنا تَهيُّؤه وتعبؤه وإعداده واستعداده للوفادة على الله وطلب الرفد الذي لا نظير له ، رأينا هذا التفرد في العطاء الذي يطلبه تفردًا ظاهرًا لأنه رجا عظيم عفو الله الذي ليس يعطيه للخطائين ، وإنما يعود عليه بهم المرة بعد المرة وهم خطاؤون ، ثم هم عاكفون على الجرم ، وعكوفهم على الجرم لا ينقطع وعطاء الله لهم لا ينقطع ، وهذه معان متميزة واختيار لأحوال متفردة ، وعطاء الله فيها عطاء متفرد ، ثم راجع كيف ابتدأ كلامًا ثانيًا بعد المقدمة وكيف ابتدأه بقوله اللهم ، ثم قال لم آتِكَ بِعَمَل صالح قدَّمْتُه ، لأنه يرى أن كل عمل صالح قدّمه ومنْه تربية وإعداد علماء في طبقة ابن قتيبة ، أقول كل عمل صالح قدمه لا يكافئ شكر نعمة من أقل نعم الله عليه ، وأهل الله يرون أن صالح أعمالهم إن لم تكن لشكر نعم سابقة فهي أقل مكافأة من شكر

نعمة توفيقهم إلى العمل الصالح ، يعني أن صدقاتي مهما كثرت لا تكافئ شكر الله على توفيقي في إنفاق هذه الصدقات . وقوله : « أتيتك مُقرًا بالظلم والإساءة على نفسي » اعتراف بالذنب والاعتراف بالذنب توبة منه ، لأن قلب المعترف قلب نادم وقلب عازم على ألا يعود ، وهذه هي التوبة ، ولهذا قالوا الاعتراف يهدم الاقتراف ، ثم إن لحظة الاعتراف بالذنب لله رب العالمين هي من أشد لحظات الخوف ، ومن أشد لحظات الرجاء ، ثم إن عبارة هذا الشيخ الصالح التي هي إقرار بالظلم مقرونًا بالإقرار بالإساءة إلى النفس واضحة الدلالة على أنني حين ظلمت لم أكن ظالمًا للذي ظلمته فحسب ، وإنما كان ظلمي لنفسي أشد من ظلمي له ، وأن الذي يقهر الناس إنما يقهر نفسه قهرًا أشد من قهره للناس ، حتى الذي يقتل إنما قتل نفسه بضراوة أشد من الضراوة التي قتل بها من قتل ، كما قال سعيد بن جبير للحجاج لما قال له اختر لنفسك قتلة ، قال له اختر أنت لأن الذي توقعه بي سيقع عليك ، وقوله : « أرجو عظيم عفوك » بعد ما ذكر أنه ليس له عمل صالح وإنما جاء ربه وهو ظالم لغيره وظالم لنفسه ، وأنه لا حجة له ولا شافع له ، أقول رجاؤه لعظيم عفو ربه مع هذا يعني أن طمع أهل الله في عفو الله هو محض رجاء ومحض طمع في فيض هذا العفو ، فأقبلوا على الله وليس لكم عند الله إلا محض الرجاء ، ومحض الطمع في الذي عنده ، وفي هذا معنى التحذير من اليأس من رحمته ، وأن الذنب مهما عظم فاليأس من مغفرة الله له أعظم منه ، وفوق ذلك أنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون ، وهذا هو فتح باب الرجاء والطمع لمن لا عمل له إلا الظلم والإساءة إلى النفس ، وأخيرًا رأى هذا الشيخ الجليل أن يكون مع الخطائين العاكفين على خطاياهم ، وعطاء الله وَجُودُه ومغفرته لا تنقطع عنهم مع

عكوفهم هذا ، ثم جرى لسان الشيخ بكلمة هي خلاصة كل الذي مضى ، وهي قوله فيا من رحمته واسعة وفضله عظيم اغفر الذنب العظيم ، والفاء التي فتح بها هذه الجملة ترتب معناها على كل الذي مضى .

من كلام الأوزاعي

ذكر ابن قتيبة قول الأوزاعي : « من قال اللهم إني أستغفرك لما تُبْتُ إليك منه ، ثم عدت إليه ، وأستغفرك لما وعدتك من نفسي وأخلفتك ، وأستغفرك لما أَرَدْتُ به وجهك فخالطه ما ليس لك ، وأستغفرك للنِّعم التي أنعمت بها عليَّ فتقويتُ بها على معصيتك ، وأستغفرك لكل ذنب أذنبته ، ومعصية ارتكبتها ، غُفِرَ له ولو كانت ذنوبه عدد ورق شجر ، ورمل عالج وقطر السماء » وعالجٌ مَوْضعٌ بالبادية به رمل متراكم ، ومتداخل بعضه فوق بعض ، قيمة تحليل البيان التعرُّف على الذي جرى في قلوب الذين قالوه ، فإذا كان هذا البيان دعاء مُتَّجهًا إلى الله كانت قيمته أعْلَى وأنفع ، لأنك تتعرف على قلوب أهل الله وهم واقفون على الأعتاب ، وقلوبهم وَجِلَةٌ ومتوهجة أيضًا برجاءٌ وخطاب رب العالمين ، ومن أفضل اللحظات التي تَعيشُها وأنت مع البيان اللحظة التي ترى فيها أهل الله ، وأيديهم ممدودةٌ إلى الله بذنوبهم يرجون مغفرتها .

وأول ما تلاحظه أن الأوزاعي يختار الذنوب التي يستغفر الله منها ، وأنها أَبْشَعُ ذنوبه ، وأنّ أولها وأولاها وأبْشَعَها هو ذنب تاب إلى الله منه ثم عاد إليه ، ولاحظ أسلوب الخطاب ، وأنه يحدِّث الله أعني لم يقل أستغفر الله من ذنب تُبْتُ إليه منه ثم عُدْتُ إليه ، وإنما يقول أستغفرك ، فهو مع ذكر هذه الذنوب التي هي أبْشَعُ وأشنع في حضرة الله ، ويخاطب الله بها ، وهذا اقتراب شديد من الله مع ذكر أبشع ما يُغْضب الله . وهذا لا يكون إلا مع فرط اليقين في سعة

رحمة الله ، ثم إن الذنب الذي تاب إلى الله منه هو لا محالة من الكبائر ، لأن التوبة لا تكون إلا من كبيرة ، والتوبة تَعْنِي النَّدَمَ والعَزْم على ألاَّ يعود ، ثم عاد ونَقَضَ العَزْم ، ونقض التوبة ، وفي هذا قدر من التهاون ، والعبث في التعامل مع الله ، ولكن رحمته أوسع ، حتى إنهم قالوا لو تبت من الذنب ثم عدت إليه وتُبْتَ منه ، وتكرر ذلك مائة مرة ، قبل الله توبتك في المرة المائة كما قَبِلَ توبَتِكَ في المرة الأولى ، ولا يهلك على الله إلا هالك ، ثم استأنف جملة ثانية بذنب آخر فيه شوب من هذا العبث من التعامل مع الله ، وذلك قوله : « وأستَغْفِركَ لما وَعَدْتُكَ من نفسي وأخلفتك » وكلنا وعد الله من نفسه على فعل ما أمر وترك ما نهى ، وكلنا أخلف الله ما وعد ، وتلاحظ أنه قال هناك « ثم عدت إليه » وهنا قال « وأخلفتك » ولم يقل ثم أخلفتك ، وذلك لأن كلمة (ثم) هناك تشير إلى التباعد بين التوبة الأولى والعودة إلى الذنب ، وهذا التباعد صالح لأن يكون في الزمن وأن يكون في الرُّتْبة وهو الأظهر ، لأن العودة إلى الكبيرة بعد التوبة منها تصير بها الكبيرة أكبر ، وتلاحظ أن التوبة مَوْعِدَةٌ لله منك ألا تعود ، فإذا عدت كنت أخلفت موعدتك ، فهي داخلة في الثانية وإن كانت الثانية أوسع ، لأنه يدخل فيها الموعدة بالعمل الصالح ، والواو هنا مناسبة جدًّا لأنها تعني الجمع بين المعطوف الذي هو « أخلفتك » والمعطوف عليه الذي هو « وعدتك » ، والجمع بين الأمرين جمع واحد كان بينهما زمن طويل أو قصير ، ثم إن هذه الجملة الثانية « وأستغفرك لما وعدتك من نفسي وأخلفتك » مع قوة صلتها بالجملة الأولى هي مُهيِّئة للجملة الثالثة « وأستغفرك لما أردت به وجهك فخالطه مَا لَيْسَ لك » لأن إرادة وجه الله لا غير في كل ما نبتغي به وجه الله هو موعدة منا لله ، ومن أبشع الذنوب وأنكرها أن يخالط عملك الذي تبتغي به وجه الله ما ليس لله ، لأن هذا الذي يخالطه لو زاد لدخل عملك في الرياء . والخلوص من هذا الذنب لن يكون إلا بالعزم الصادق ، وامتلاء القلب بجلال

الله ، وأن عملي الذي اتَّجِهُ به إليه اكتسب من توجهي به إلى الله في نفسي جلالاً وهيبة يرفعانه ويسموان به عن أن يكون فيه ذرة لغير الله تخالطه أو تقاربه ، وقوله « وأستغفرك للنعم التي أنعمت بها عليّ فتقوَّيْتُ بها على معصيتك » وترى هذه الجملة شاملة لكل ما مضى ، وكل ما سيأتي ، لأنك لم تعص الله إلا بنعمة أنعم الله بها عليك ، فاللسان الذي يعصى الله هو نعمة من نعم الله عليك ، لأن فكرك ونطقك وحركة لسانك بين فكيّك كل ذلك من نعم الله ، ويدك التي تبطش بها على خلق الله من نعم الله ، والقوة والاقتدار الذي تظلم بهما عباد الله من نعم الله ، والسلطة التي أنت فيها وتَقْهَر وتظلم وتستبد من نعم الله ، ولو سلب الله منا كل نعمه ما عصيناه في صغيرة ولا كبيرة ، لأننا سنكون جمادًا ، وما بكم من نعمة فمن الله ، ولذلك ذكر الشيخ الأوزاعي بعدها وأستغفرك من كل ذنب إلى آخره ، ولاحظ أن معصية المنعم بنعمه التي أنعم بها فيها شيء يزيد عن الذنب ، وأن الله أكرمك بالنعمة التي وجب عليك أن تشكره عليها ، وبدلاً من ذلك عَصَيْتَهُ بها ، كالذي يستقوى عليك بالذي ساعدته به ، وهذا لا يكفي في وصْفِه نفي المروءة ، لأنه تجاوز عدم المروءة إلى الذي دونها ، وتعجب أن الله ﷻ الذي ليس كمثله شيء يغفر كل هذا ويتقبَّل منا كل هذا ، لأنه ليس لِسعَةِ رحمته مثل وليس لمغفرته مثل ، وليس لعطائه مثل ، ولا تُغفل قول الأوزاعي في سعة المغفرة بهذا الدعاء الذي لا يزيد عن ثَلاثَةِ سطور ، وأن الله يغفر به ذنوبه ولو كانت كورق الشجر ، وهذا لا حصر له ، وكان هذا يكفي ولكن الشيخ الأوزاعي أراد توكيد أن هذا الدعاء يغفر الله به ذنوبًا لا حَصْرَ لها فأضاف رمل عالج ، ثم رأى أن هذا لا يكفي فأضاف قطر السماء ، مع ملاحظة أن هذه الذنوب التي هذا عددها كلها من الكبائر ، لأن مغفرة الصغائر لا تحتاج إلى استغفار وتوبة .

ذكر ابن قتيبة دعاء لرجل صالح شديد الشَّبه بالدعاء الذي ذكره الأوزاعي ،

والذي يغفر الله به ذنوبًا ولو كان عددها كورق الشجر ، وهو قوله : من دعاء بعض الصالحين : «اللهم إني أستغفرك من كل ذنب قوي عليه بدني بعافيتك ، ونَالَتْهُ يدي بفضل نعمتك ، وانبسطت إليه بسعة رزقك ، واحْتَجَبْتُ فيه عن الناس بسترك ، واتكلتُ فيه على أناتك وحلمك ، وعوَّلتُ فيه على كريم عفوك» كل هذا الدعاء لا يخرج عن قول الأوزاعي : وأستغفرك للنعم التي أنعمت بها عليّ فتقوَّيْتُ بها على معصيتك» ، وهذا الداعي شرح النعم وبيَّنها وأن أصلها عافية في بدنه ، ومنها ما نالته يده ، ومنها سعة رزقه ، ثم اكتفى بهذا القدر الذي كانت النعم في بدنه وسعة رزقه وانتقل إلى شق آخر من المعصية وهو أنه احتجب فيها عن الناس بستر الله ، ثم إنه قصد إليها مُتكلاً على حلم الله ، واجترأ عليها مُعَوِّلاً على كريم عفو الله ، وكل هذا ندم وإدانة منه لنفسه وأوْبَةٌ منه إلى ربه ، وبراءة منه لكل الذي كان منه ، وأنَّهُ ما كان ينبغي أن يكون ، وأن عافيتي التي هي نعمة منك والتي عصيتك بها كان يجب أن تكون في طاعتك وشكرك ، وأن سترك الذي سترتني به وأنا أحتجب عن الناس في معصيتك كان يجب أن يكون سترًا لي عن معصيتك ، وأن حِلْمَكَ الذي اتكلت عليه في إقدامي على المعصية كان يجب أن يكون زادًا لي في دوام اقترابي من حضرتك ، وأن تعويلي على سعة رحمتك في مغفرة ذنبي كان يجب أن يكون اليقين في سعة رحمتك حَادِيًا يَحْدُوني إلى المسارعة إليك ، قلت هذا الدعاء نَدَمٌ واستغفار وأوْبَةٌ وتوبة وتبرئة مطلقة من الحول والطول ، وأن حاجتنا الدائمة إلى ربنا في طاعتنا ومعصيتنا ، وأننا كما أننا لا نطيعه إلا بعطائه كذلك لا نعصيه إلا بعطائه ، وكأن هذا الرجل الصالح يقول إذا كنت أذنبت ذنبًا ليس من عطائك فلا تغفره لي ، لأني لا أخطو خطوة واحدة ولا أتحرك حركة واحدة إلا وهي بنعمة من نعمك ، لأن كُلِّي

من رأسي إلى قدمي وهواي وحبي وبُغْضِي وصلاتي ونسكي ومحياي ومماتي كلي لك ولست وحدي وإنما أنت رب العالمين ، وهذا بعض إقرار هذا العبد الصالح .

ذكر ابن قتيبة أن سليم بن منصور روى عن أبيه قال : « كنت بالكوفة فخرجت في بعض الليالي لحاجة وأنا أظن أني قد أصْبَحْتُ فإذا عليَّ لَيْلٌ ، فمِلْتُ إلى بعض أبوابها أنتظر الصبح ، فسمعتُ من وراء الباب كلام رجل وهو يقول : فَوَعِزَّتُك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بنَكالِكَ جَاهِلٌ ولا بعقوبتك ولا بنظرك مُسْتَخفّ ، ولكن سوَّلت لي نفسي وأعانني على ذلك شِقْوتي ، وغرّني سترك المرخي عليّ ، فعَصَيْتُك بجهل وخالفتك بجهل ، فالآن من عذابك من يستنقذني ؟ وبِحَبْل مَنْ أعْتَصِمُ إذا قطعت حَبْلَك عني ؟ فوا سوأتاه من الوقوف بين يديك غدًا ، إذا قيل لِلْمُخفِّينَ جُوزُوا وللمثقلين حُطُّوا ؟ أفمع المثقلين أحَطّ أم مع المخفين أجوز ؟ وَيْلِي كلما كبرت سنيٍّ كثرت ذنوبي ، وَيْلِي كلما طال عمري كثرت معاصي فمِنْ كم أتوب ؟ وفي كم أعود ؟ أما آن لي أن أستحي من ربي؟» لا أسْتَطيلُ نقلاً نقله ابن قتيبة لأن النص عند ابن قتيبة هو المقصود من الكتاب ، لأن الكتاب من أوَّلِهِ إلى آخره اختيار من النثر يَضَعُه ابن قتيبة بين يدي القارئ ، كما وضع علماء الشعر المختار من الشعر بين يدي القارئ فشُغِلَ الناس بالشعر عن النثر ، مع أن النثر أكثر من الشعر وأجرى في الألسنة كلها وبهاء العربية ورونقها وماؤها إذا شاع في النثر كان ذلك أبين في دلالته على قرب العربية من الأفئدة ، وهذا هو المطلوب ، وإنما سماه عيون الأخبار لأن ما اختاره من النثر يتضمّن أخبارًا ذكية كأنها من الأخبار عيونها ، وذلك ليكون فيه قوة تدفع الناس إلى الاقتراب

الأكثر من النثر ، لأن الشعر اختطف أهواء الناس وأفئدتهم ، وهذا اختطاف ظالم لأن النثر هو المادة البيانية التي فيها ومنها البيان الذي هو نهاية الطاقة الإنسانية ، وهو بيانه ﷺ وفيها ومنها البيان الذي هو فوق الطاقة الإنسانية ، والذي يَبِينُ عن هذه الطاقة بينونة تَقْطَعُ الأطماعَ وتَقهَرُ القوى والقُدَر .

وأعود إلى ما رواه سليم بن منصور عن أبيه ، وأبدأ بالإشارة إلى لَمْحة تدل على علو بيان هذا الراوي الكريم ، وهي قوله : « فإذا عليّ ليل » أراد فإذا أنا لم أصبح ولكنه لم يقل هذا وإنما قال فإذا عليّ ليل ، وهو المقابل لقوله وأنا أظن أني قد أصبحت ، وهذه الفروق الصغيرة في الكلام هي التي يتميز بها الكلام ويفضل بعضه بعضًا ، وعليك أنت أن تراجع مناجاة رجل في جوف الليل ، وهو في داره ، ويغلبه الإحساس بالذنب فيعلو صوته ويخرج من بابه ، وعليك أن تراجع الشيء الذي غلبه في هذه الساعة من الليل حتى صاح بالذي صاح به . والذي يُفْتَتَحُ به الكلام غالبًا ما يكون جامعًا لغرضه ، وقد فتح الكلام بقوله « وعزتك وجلالك » فأشار بذلك إلى أن عزة الله وجلال الله لهما الشأن الأعلى في هذه المناجاة ، وعُد وانظر في الدعاء من أوله إلى آخره ، وستجد العزة والجلال هما القطب الذي دار عليه هذا الدعاء ، ولا تنس أنه في حالة هذا الخوف وهذا النَّدَم لم يناج ربه وهو بعيد عنه متهيب من القرب منه ، وإنما جَعَل نفسه في حضرة هذه العزة وهذا الجلال ، وخاطب ربه خطابًا مباشرًا ، وقال فوعزتك وجلالك ، وجعلهما في موضع التقدير والتقديس وأقسم بهما ، وهذه الفاء التي في قوله « فوعزتك » تقول إنه سبق ذلك كلام لم يسمعه منصور الذي روى ابنه عنه ، ثم إن هذا القسم انصبَّ على ثلاثة أشياء هي المراد به : الأول : أنه ما أراد بمعصية الله مخالفة الله ، وإنما هو مطيع لك يا ذا الجلال

وهو مطيع ومطيع لك وهو يعصيك لأنه عرف جلالك وسلطانك ، ولا يرضى إلا أن يكون مطيعًا لك في الأحوال كلها ، والمعنى الثاني قوله : «وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بنكالك جاهل» والمعنى أنني وأنا أباشر معصيتك لم يتزحزح يقيني بنكالك قِيدَ نَمْلَة ، وإنما عصيتك ويقيني القاطع أنك شديد العذاب ، وأن بطشك شديد ، وأن عذابك هو العذاب الأليم ، والثالث قوله : «ولا بعقوبتك ولا بنظرك مستخف» وهذا غير الأول ، لأن الأول في وصف غضب الله وعذابه بصورة عامة ، وهذا خاص بعقوبة الذنب الذي عصى الله فيه ، وأنه باشر المعصية وهو يعلم عقوبته ، وجيدة جدًّا كلمة «ولا بنظرك مستخف» لأن الحقيقة أن الأهول عند أهل الله هو أنهم يباشرون معصية الله وهو معهم أينما كانوا ، وأنهم يَسْتَخْفُون من الناس ولا يَسْتَخْفُون منه ، ووقع هذا على نفوس الصالحين أشد من وقع العذاب ، وهذه هي الثلاثة التي كان عِزُّ الله في قَلْبِهِ وجلالُ الله في نفسه وروحه مُثْبِتًا لها في قلبه في أسوأ حالةٍ من حالاته وهي حالة ملابسة معصية الله ، لم يُردْ قَطَّ في هذه الحالة الأَسْوَأَ مخالفة الله ، ولم يغفل لحظة عن بطش ربه الشديد ، ولم يستهن لحظة بعقوبة الذنب الذي يباشره ، ولم يستخف لحظة بنظر الله إليه وهو يزاول شر ما يزايل مما يجلب عليه غضب ربه ، وبقي أن يحدثنا هذا الساهر الصائح في جوف الليل صيَاحًا يُناجي فيه ربه وهو في عُقْر داره ، ثم يغلبه ما هو فيه حتى يخرج صوته من بابه ، بَقِيَ أن يحدثنا عن الذي أوقعه في معصية الله وهو لم يتزحزح لحظة عن حُب الله ، قال : «ولكن سوّلت لي نفسي ، وأعانني على ذلك شِقْوتي ، وغَرَّني سِتْرُك المُرْخَى عليَّ» هذه الثلاثة هي التي كانت وراء معصيته لله الذي حالت عزته وجلاله أن يريد مخالفته ، وحالت عزته وجلاله أن يعصيه وهو يجهل

بطشه ، وحالت عزته وجلاله أن ينسى عقوبة ذنبه ، أو أن يستخف بنظر الله إليه وهو يعصيه ، فكيف هدمت هذه الثلاثة الحواجز العالية التي بَيْنَه وبين معصية الله ؟ ومعنى تسويل النفس غلبة الشهوات والأهواء ، وعجزه عن مواجهتها وهي المكاره التي حُفَّت بها الجنة ، والشهوات والأهواء التي حفت بها النار ، ثم أضاف إليها أمْرًا غَيْبيًّا وهو شِقْوته ، وساعد هذين الأمرين ستر الله الذي أرخاه على عباده كل عباده الصالح وغير الصالح ، لأن ستره سبحانه من نعمه العامة ، وقوله : « فعصيتك بجهل وخالفتك بجهل » الفاء في رأس الجملة الأولى تعني ترتيب العصية بجهل على هذه الثلاثة سولت لي نفسي ، وشقوتي ، وغرني سترك ، وجملة وخالفتك بجهل معطوفة على التي قبلها وداخلة في حيز الفاء ، ومعناها أن هذه الثلاثة نَزَعَتْنِي من العلم بعزك وجلالك إلى الجهل فأقدمت على المعصية ، وليس في قلبي ولا عقلي إلا الجهل ، وهذا تصوير جيد ليس لواقعه هو فقط ، وإنما هو تصوير جيد لكل من يقع في معصية الله وهو من المحبين لله الساعين في مرضاته السابقين إلى مغفرته ، حين تغلبهم الأهواء والشهوات ويركبهم الجهل ، ويغيب الحق وجلال الحق من قلوبهم ، ويكونون كما قال رسول الله ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر شاربها حين يشربها وهو مؤمن » ويقاس على ذلك لا يغتاب المغتاب حين يغتاب وهو مؤمن ، ولا يكذب الكذاب حين يكذب وهو مؤمن ، ولا ينافق المنافق حين ينافق وهو مؤمن ، فتأكد أنك حين تسمع الكذاب أنك تسمع غير مؤمن وإن فتح كلامه بالفاتحة ، وحين تسمع المنافق تأكد أنك تسمع غير مؤمن ، وكذلك حين تسمع من يذكر الناس بسوء أحياء كانوا أو أمواتًا وقد انتشر هذا وهو من غضب الله ، ثم إن هؤلاء لم يَغرهم ستر الله المرخي على

عباده ، لأنهم يكذبون وينافقون على مرأى ومسمع من ملايين البشر الذين يعلمون أنهم يكذبون وينافقون ، والمهم في سياقنا أن الداعي الكريم لما وصل إلى هذه الحقيقة وأنه يعصى الله بجهل ، ويخالفه بجهل ، وأن الجهل يعني خلو القلب والعقل من الحق ، وأعلاه معرفة جلال الله وعزه وسلطانه ، واستشعر أنه لما لم يَعْصِ الله وهو مؤمن حَضَرَتْهُ لحظة العذاب واستشعرها وهو في داره فقال : « الآن من عذابك من يستنقذني » هو الآن في العذاب وكأنه تجاوز الموت والقبر وكل أهوال القيامة وحوسب ودخل النار ، واستشعر شدة العذاب ودل عليها بقوله « يستنقذني » ولم يقل ينقذني لأن الذي تستنقذه ساقط في معمعة من الهول أبعد غوراً وأفظع وأبشع من الذي تنقذه ، وزيادة المبني لا يكون إلا لزيادة المعنى ، ولاحظ أنه يخاطب ربه ويقول « من عذابك » ويقدم العذاب المضاف لضمير ذي الجلال جل وتقدس وهو الآن واقع في العذاب ، ولم يرج من الله أن ينقذه وإنما يقول من يستنقذني من عذابك ، فيقر بأنه الواحد الأحد وليس في الوجود من ينفذ من عذابه ، ثم أردف جملة ثانية حذيت حذو الجلمة قبلها وقال : « وبحبل من أعتصم إذا قطعت حبلك عني » فيقدم الجار والمجرور وكأنه استُنْقِذَ من معمعة العذاب ، ولكن الله ـ سبحانه ـ طرده من حضرته وقطع سببه الذي هو حبله به ، وهو الآن لا يجد من يركن إليه بعدما رَمَتْ به المعصية في هذه الحالة الأسوأ ، وقوله : « فوا سوأتاه من الوقوف بين يديك غداً إذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطوا أفمع المثقلين أحط أم مع المخفين أجوز » ، وهذا بيان لحالة واحدة ، هي الوقوف بين يدي الله ، وراجع قوله « فواسوأتاه » وهذه الفاء ترتب ما بعدها على ما قبلها وهو ترتيب في الذكر وليس في الزمن ، لأن الزمن بعدها رجع إلى الوراء بعدما حفزه ذكره

لمعصية الله بجهله إلى القفز إلى النار ، وتجاوز كل ما بينه وبين النار من موت وقبر وبعث وصراط وحساب ، لأن النار تكون بعد كل ذلك ، ويبدو أن نفسه هدأت قليلاً فذكر أنه حيّ في بيته ، وأن الذي يخافه هو الغد وليس اليوم ، فنادى سوأته وكأنه يقول لها يا سوأتي هَلُمّي فهذا أوانك ، وهو هناك في عذاب الله ويقول من يستنقذني ، وهو هنا يقول إنه لا يدري هل سيكون مع المثقلين من الذنوب فيحط أم من المخفين فيجوز ، وكل هذه أحوال وخواطر ألمّتْ به وطوّحت به وأبعدت في أحوال الآخرة واقتربت ، وقوله : « ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي ويلي كلما طال عمري كثرت معاصي » هو الآن عاد إلى واقعه الذي يعيشه ، وصارت مشكلته مع نفسه وترك الآخرة وعذابها والوقوف بين يدي الله والمثقلين والمُخفّين ، والحزاز الذي يجده الآن هو واقعه ، وأنه كلما كَبَرت سنه كثرت ذنوبه ، ووَصَفْتُ هذا بأنه حزاز لأنه كَرَّرَهُ لأن قوله « طال عمري » هو قوله « كَبِرَتْ سِني » وقوله « كثرت معاصي » هو قوله « كثرت ذنوبي » ثم إنه لما كرر المعنى لم يكتف بعطفه عليه ويقول وَيْلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي ، وكلما طال عمري كثرت معاصي ، وإنما كرر مع الجملة الثانية كلمة « وَيْلِي » وهي الكلمة الواصفة للذي يجده في نفسه من هذا السوء الذي هو كثرة الذنوب مع طول العمر ، والأصل أن كِبَر السنِّ وطول العمر يُدْخل الإنسان في مرحلة تَقِلُّ فيها الذنوب والمعاصي ، ويكثر فيها الذكر استعدادًا للقريب الذي على الأبواب ، وقوله : « أما آن لي أن أسْتَحِي من ربي » هو اختصار بَيِّنٌ لكلامه من أول قوله « ولكن سوَّلَتْ لي نفسي إلى آخره » ولست متكلفًا حين أقول فيها ما قلته في نظائرها إنها تشبه الفاصلة الجامعة لكل ما في الآية ، وهي رجوع إلى النفس ومواجهتها بأبْشَعِ ما يكون منها مع

الله ، لأن عدم حيائك من الله وأنت تعصيه وهو معك أفْظع من الذنب ، وتعجب من أن الله ـ سبحانه ـ الذي لا تستحي منه في حال معصيته وهو معنا هو بذاته وجلاله الذي خلقنا وجَعَل لنا سمعًا وأبصارًا وأفئدة ولا نعصيه إلا بالذي أنعم به علينا ، لأن كل ما نحن فيه من نعم هذا المعبود بحق والذي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، يستحي منا إذا رفعنا إليه أيدينا لا يَرُدُّها صِفْرًا حتى يضع فيها خيرًا ، ويجب أن نذكر ونحن نقرأ مثل هذا الدعاء وكأنه لم يعمل عملاً صالحًا ، وكأن كل حياته في معصية الله يجب أن نذكر أن أهل الله يستعظمون ذنوبهم وإن كانت صغيرةً ، ويَسْتَقِلُّون عبادتهم وذكرهم وإن كان كثيرًا ، ولهذا نعد كل ذلك من النَّدم والتوبة والاستغفار ، وندم الصالحين واستغفار الصالحين له عندهم مذاق ، وخصوصًا أنهم لم يَسْلَمُوا كما لم يَسْلَم أحد من الوقوع في الخطأ ، وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التَّوابون ، وقد أخطأ أبونا آدم وعصى ربه ، فإذا وقع واحد من الصالحين في الخطأ رجع وتاب ، وأنَابَ ، وأكْثَرَ من الذكر والعبادة ورجاء المغفرة ، حتى إنك لترى حياته بعد الوقوع في الخطأ أكثر قربًا من الله ، وكأن هذا الخطأ كان من عطاء الله له ، وأرى في الدعاء الذي مضى صورة من هذه الصور ، ولو كان الذي جعله لا ينام مع أولاده ، وإنما يقوم في داره ويصيح بالذي صاح به هو ذنب ارتكبه ، فقد أنعم الله عليه بهذا الذنب الذي صار به من خَيْر الخطائين ، وصار من الأوَّابين والتائبين الذين يحبهم الله ، ومن سعة رحمة الله التي ينتفع بها عباده الصالحون أنه سبحانه حذَّرَنا من غضبه ، وحذَّرَنا من عذابه ، ولم يكتف بذلك وإنما قال لنا حَذِّرُوا أنفسكم وأهليكم وذلك في قوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ

شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم:٦) وهذه من الآيات التي أحب قراءتها لأنها تَقْطرُ رحمة ومحبَّة من الله للذين آمنوا ، وأنه سبحانه يُبْعدهم عن غضبه ، وعذابه ، ويُوصي كل الذين آمنوا أن يَقُوا أنفسهم وأهليهم نارًا ، ثم يصف النار وصفًا مُفْزعًا وأنها ليس وقودها الحطب كناركم في الدنيا وإنما وقودها الناس ، وهذا هول ليس بعده هول .

كان أهل الله ينشرون في الناس صور العذاب

وكان أهل الله من المحبين لأقوامهم يعلمون دوافع الشهوات والأهواء ، وأنها قوية في دَفْعِها إلى ما حرّم اللهُ ، فكانوا يَنْشِرُون في الناس صور العذاب لتكون هذه الصور أقدر على كبح الشهوات والأهواء ، فأشاعوا في الكتب أن ثوبًا من ثياب أهل النار لو عُلّق بين السماء والأرض لأذاهم جميعًا فكيف بمن يتقمصَّه؟ ولو أن ذنوبًا من صديد أهل النار صُبّ على ماء الأرض لأحَمَّهُ فكيف بمن يتجرعه ؟ ولو أن حَلْقة من سلاسل جهنم وُضِعتْ على جبل لذاب فكيف من يُسْلَكُ فيها ؟ ويُردُّ فضلها على عاتقه ، وراجع هذا وحدّث به الناس ، واعلم أنت وأعْلِم الناس أنه حقيقة ، لأن الذي يعرف الله لا يستطيع أن يضيف إلى دينه حرفًا ليس منه ، وكل ذلك مذكور في الكتاب ، يقول تعالى : ﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ ﴾ (الحج:١٩،٢٠) وكذلك الصديد والسلسلة التي ذرعها سبعون ذراعًا ، لا يكفي أن نقول لقومنا إن الله توعَّد العصاة بالجحيم ، ولأبُدَّ أن نُحَدّثهم عن هذا الجحيم كما حدثنا ربنا ، وكما حدثنا المبلغ عن ربه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يجب أن تكون صور العذاب واضحة عند الناس ، حتى يكف القَتَلَةُ عن القتل ، ويكف المُذْنبُون عن الخطايا ، ولا أعرف واحدًا يحب أرضه ويقتل رجالها ، ولا أعرف

واحدًا يحب وطنه ويهين رجاله ، وكان مالك بن دينار يخرج إلى القبور كل يوم خميس ويقول عندها :

ألا حَيِّ القبورَ ومن يهِنَّه ... وجوه في القبور أُحبُّهُنَّه

فلو أن القبور سَمِعْنَ صَوتي ... إذن لأجَبْنَني من وَجْدهِنّه

ولكن القبورَ صَمَتْنَ عَنِّي ... فأُبْتُ بحَسْرَةٍ من عندهِنّه

ثم يبكي ويبكي من معه .

وشيوع أهوال الآخرة وأهوال العذاب هيأ الناس لسماع النصيحة ، لأن الذي ينصحني يأخذ بحُجْزَتِي حتى لا أقع في النار ، وليس أقرب إليك ولا أحب إليك من الذي يذكرك بالله واليوم الآخر ، والنصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين وخاصتهم من أهم ما أمَرَنَا الله به حتى إن رسول الله ﷺ لخص الدين في النصيحة وقال : « الدين النصيحة » .

أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك

ذكر ابن قتيبة : « أن أعرابيًّا وقف بين يَدَيْ سليمان بن عبد الملك وقال له إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فيه بعض الغِلظة فاحْتَمِلْه إن كَرِهْتَهُ فإن وراءه ما تحب إن قَبِلْتَه ، قال هات يا أعرابي . قال : سأطلق لساني بما خرست عليه الألسن من عظتك تأدية لحق الله وحق إمامتك ، إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم فابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة سِلْمٌ للدنيا فلا تأمنهم على ما أتمنك الله عليه فإنهم لم يألوا للأمانة تضييعًا ، والأمة عَسْفًا وخَسْفًا ، وأنت مسؤول عما اجترحوا وليسوا مسؤولين عما اجترحت ، فلا تُصْلح دنياهم بفساد

آخرتك ، فإن أعظم الناس غبنًا من باع آخرته بدنيا غيره» انتهى كلام الأعرابي .
راجع أنت كلام الأعرابي قبل أن تراجع كلامي ، وربما وَقَعْتَ على دقائق فيه لم أقع عليها ، لأن الكلام زاخر بالمعاني ويُعْطِي كل ناظر فيه بمقدار تأمله ، راجع قوله «إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فيه بعض الغلظة» وكيف أقْدَمَ على كلام يُكلِّمّ فيه أمير المؤمنين وفيه بعض الغلظة ؟ وأنه لا مصلحة له في هذا الكلام الذي فيه بعض الغلظة ؟ وإنما هي مصلحة الأمة والجماعة ومصلحة أمير المؤمنين ، وأن وراء ذلك قلب هذا الأعرابي الصادق المُحِبّ للحق والصدق ومصلحة الأمة وليس فيه مثقال حبة من خردل لهذا الأعرابي ، وما أحوجنا إلى هذه القلوب التي تتجرد للحق والصدق ومصلحة البلاد والعباد ، ثم إن هذا الأعرابي الذي لم يدرس العلوم السياسية وإنما يتكلم بالفطرة ، وكيف كان شديد التوقير لأمير المؤمنين ومخاطبته بوصفه أمير المؤمنين ، وأن رسول الله ﷺ أوصانا بأن نوقِّر الرجل في سلطانه ، كما أوصانا بأن نُوقِّر ذا الشيبة في الإسلام ، وحافظ القرآن ، وكيف كان نقده للذين حول أمير المؤمنين ؟ ولم يوجه إليه نقدًا واحدًا مع أن الذي جعلهم حول أمير المؤمنين هو أمير المؤمنين نفسه ، ولو شاء لجعل مكانهم رجالاً صادقين مخلصين ، ثم إنه لما ذكر بعض الغلظة دعاه بلطف ورفق أن يحتمله وقال : «فاحتمله إن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قَبِلته» وهذه كلمة عالية ، ومعناها : إن سبقت كراهيتك لما أقول فاسمعه وراجعه لأنك ستجد فيه الخير لك إن قبلته ، وهي من صريح قول الحق سبحانه : **﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾** ومن ورائها **﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾** (البقرة:٢١٦) وقد أدرك سليمان حقيقة كلام الأعرابي فقال له : «هات يا أعرابي» ، ومن المفيد أن نذكر أن سليمان بن عبد الملك بن مروان

ابن الحكم بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيٍّ أعني أننا ما زلنا في نور أبناء عبد مناف ، وأن عبد شمس أخو هاشم جد سيدنا رسول الله ﷺ ، فليس من الغريب أن يقول الأعرابي في كلامي بعض الغلظة ، ويقول أَحَدُ أحفاد عبد مناف هات يا أعرابي ، قال الأعرابي : « سأطلق لساني بما خَرِسَت عليه الألسن من عظتك» وراجع كلمة « خَرِسَتْ عليه الألسن» لأن معناها أن هذه الألسنة كانت تريد أن تنطلق بالذي سأطلق فيه لساني ولكنها خرست ، وهابت ، وخافت ، ولو أطْلَقَتْها لكفت ووفَّتْ وانتشر الحق بالذي أطلقت فيه ألسنتها ، فانتشر الباطل لما أُخْرِسَتْ ، وانتشار الحق يعني انتشار العدل والضياء في حياة الجماعة ، وانتشار الباطل يعني انتشار الظلم والظلام في حياة الجماعة ، وكأن الأعرابي يوصي أمير المؤمنين بإطلاق ألسنة الحق، ويحذره من إسكاتها ، لأن هذا ضار بك أيها الأمير وبقومك ، وهذه حقائق ثابتة في تاريخ الأمم والشعوب ، وفي تاريخ سياستها وساستها ، وليست خاصة بزمن ، وليست مما يوجبه الدين فحسب وإنما هي مما يوجبه العقل وتوجبه الفطرة ، يأخُذُ بِهِ المؤمنُ وغيرُ المؤمن ، ثم إن الأعرابي قال بعد ذلك كلمة جليلة ونافذة وهي قوله : « تأديةً لحق الله ، وحق إمامتك» ومعناها : أن قول كلمة الحق هي حق الله أوجبه علينا ، ولا يجوز لمؤمن بالله أن يضيق بالذي أوجبه الله علينا ، ثم إن إمامتك التي هي من عطاء الله لك لها علينا حق ، وهو أن نَصْدُقَك وأن نُخْلِصَ لك ، ومعناها أيضًا : إذا توجهت وأنت صادق بنصح إلى مسؤول وكان يحسن التفكير ، وكان أهلاً للمسؤولية ، عليه أن يعرف أن نصحك له حق له عليك ، وهذا معنى جليل وغائب ولو أحضرناه وصدقنا وأخلصنا لتغير كثير من واقع سيئ إلى واقع حسن وأحسن ، وقوله : « إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار

لأنفسهم» راجع هذا لتدرك فطنة وذكاء الأعرابي ، وأنه بدأ نقد الرجال الذين اكتنفوا أمير المؤمنين وصاروا ستارًا بينه وبين جماهير شعبه ، بدأ نقدهم بما يدل على حرصه عليه وعليهم لأنهم أساءوا إلى أنفسهم ، وأول شيء يجب عليهم هو أن يحسنوا إلى أنفسهم ولو أحسنوا إلى أنفسهم لتخلصوا من الذي هم عليه ، وهذا من أرقى وأزكى صور التوجيه وأبْينها في صفاء نفس الموجه ؛ وأنه يبدأ بإرادة الخير للذي يوجه إليه نقده ، وتوجيهه ، وقوله : « فابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك» لاحظ أن أصل هذه الجمل الثلاث هي الجملة الأولى ، لأن الذي ابتاع دنياك بدينه يعني اشترى دنياك وجعل ثمنها دينَه هو الذي اشترى رضاك بسخط الله ، وهو الذي خافك في الله ولم يخف الله فيك ، والذي خافك في الله هو الذي يفعل ويقول ما يرضيك ويغضب الله ، والذي يخاف الله فيك هو الذي يقول ويفعل ما يرضي الله ولو أغضبك ، وأهم من كل الذي قُلْتُه هو أنه لما ذكر إساءتهم لأنفسهم ذكر صورة من أشنع وأبشع الصور ، وليس في حياة الناس أخَسُّ ولا أحَطُّ من الذي يشتري دنياك بدينه ، والذي رخص عليه دينه فباعه لدنيا غيره ، لا يقربه ولا يستعمله ولا يأمنه إلا الذي هو في طبقته ليس في الإجرام فحسب ، وإنما أيضًا في الجهل والغباء والعمى ، لأن الذي يبيع دينه بدنياه هو ذاته الذي باع الجنة بالنار ، ولا يبيع الجنة بالنار إلا الذي في عمى وعمه ، وقوله : « فهم حَرْبٌ للآخرة سِلْم للدنيا» خلاصة للذي مضى لأن حرب الآخرة هو الذي يُدَمّر آخرته ، وسلم للدنيا هو الذي يعمر دنياه يعني هو الذي يعمّر الفانية بخراب الباقية ، وهو الذي أردته بأنهم باعوا الجنة بالنار ، وبعدما بيَّن ووضَّح سوء هؤلاء لأنفسهم واختصر وأصاب وأجاد أسَّسَ على ذلك ما يجب

أن يُؤَسَّسَ عليه ، وهو أن الذي كان منه لنفسه كل هذا السوء وانتهى بهم العمى والعمه إلى أن صاروا يدمرون الباقية ويَبْنُون الفانية ، الذي كان منه هذا يا أمير المؤمنين لا يجوز لعاقل أن يأتمنه على شيء ، فضلاً عن أن تأتمنهم على أمانة لم يأتمنها عليك الشعب ، وإنما الذي أئتمنك عليها هو الذي شاء أن تكون أمير المؤمنين ، ولذلك نجد كلمة « فلا تأتمنهم على ما أتمنك الله عليه » واقعة أحسن موقع ، وأن موقعها هذا يَمْنَحُها من المعنى أكثر مما تمنحها كلماتها وإن كانت غزيرة المعنى ، لأن أمانة الله في يدك فوق كل أمانة ، فاحذر أن تضعها في يد من شأنه أن يُضَيِّع الأمانات ، وهذه هي الكلمة الأعلى في كلام الأعرابي وفيها بعض الغلظة ، ووراءها ما يحب أمير المؤمنين إن قبلها وراجع الفاء التي في قوله « فلا تأمنهم » لأن هذه الحروف تجد أحيانًا تحتها فيضًا يفيض وكأنها جَمَعَتْ كل ماءِ الكلام وجعلته نهرًا يجري تحتها ، لأنها جَمَعت كل ما قاله من أول قوله « قد اكتنفك رجال » وراجع مرة ثانية وثالثة قوله « فلا تأمَنْهُمْ على ما أتمنك الله عليه » وضع لسانك مرة بعد مرة على كلمة « ما أتمنك الله عليه » واحفظ أمانة الله فلا تضعها إلا في يد هي أكثر حفظًا لها من يدك ، لأن هذا هو الذي فيه ما تحب إن قَبِلْته . وقوله : « فإنهم لن يألوا للأمانة تَضْيِيعًا وللأمة عَسْفًا وخَسْفًا » معناه واضح ، والفاء في أوله ظاهرة الدلالة لأن معناها أن من كان كذلك فهو لا محالة مضيع لأمانة الأمة ، وهو لا محالة لا يعنيه أمرها ، وهو لا محالة يَعْمَلُ على عَسَفها وخَسْفها ، لأنك لو وضعت أي أمر من أمور الأمة في اليد التي تحب أن تأخذ فقد ضيَّعْت هذا الأمر ، لأن كل أمر للأمة يجب أن يوضع في اليد التي تحب أن تعطي ، وفرق بين يد تُضيّع الأمة ويد تحميها ، فاعتبروا يا أولي الأبصار ، وقبل أن أنتقل إلى

ما خاطب به أمير المؤمنين الذي هو سليمان حفيد عبد مناف الذي حفيده أيضًا سيد الخلق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، وأن حبل سليمان موصول بحبل سيد الأنام ، أقول راجع لن يألوا الأمة عَسْفًا وخَسْفًا لأنها أبْشَع من لن يألوا الأمانة تضييعًا ، لأن العَسْفَ والخسف ثمرة تضييع الأمانة ، والعَسْف هو الظلم والإهانة والقهر ، وهذا بلاء ، وأبشع منه الخسف الذي يعني تغييب الأمة ، وتفردك أنت ومن يكتنفونك بإدارة شؤونها ثم ضياعها لأن الخسف ضياع والضائع غائب ، ولم يقع مسؤول من أول التاريخ إلى يومنا هذا في شر أشنع من الشر الذي يُغَيِّبُ فيه شَعبه عن إدارة شؤون بلاده ، ثم يغيب شعبه عن ساحة الوجود الإنساني ، ويضَيِّعُه ويفتح أبواب بلاده لكل الطامعين فيه ، لأن من غاب لا قوة له ولن يحمي شيئًا ، أقول بعد ما وصف المكتنفين له بهذه الصفات التي لم يعرف التاريخ أخطر ولا أخَسَّ منها ، قال له : « وأنت مسؤول عما اجترحوه وليسوا مسؤولين عما اجترحت» وهذه الواو واو استئناف معنى جديد بدأ به بنقل الحديث إلى أمير المؤمنين بعدما فرغ من الحديث عن الذين يكتنفونه ، وهذا الاستئناف يُحَمَّل فيه أمير المؤمنين كل أوزار هؤلاء الذين يضيعون الأمانة ، ويُضيِّعون الأمة التي هي أكبر أمة على وجه الأرض في هذا الزمن ، يُصيبُونها بالعَسْف والخَسْف ، كل هذا يا أمير المؤمنين أنت مسؤول عنه ، وهذا من أصرح وأصدق وأوجع ما يخاطب به أمير المؤمنين ، لأنه ليس أميرًا على قُطْر وإنما هو أمير على المؤمنين كافة في كل بقاع الأرض ، ثم إنهم ليسوا مسؤولين عما اجترحت أنت ، وإن كانوا سببًا فيه ، وما داموا استطاعوا أن ينفذوا إليك وقَبلْتَهُم ، وحدثوك بالذي عندهم وقبلته ، واجترحوا ما اجترحوا وتركتهم ، فأنت مسؤول عن كل ذلك ، والأعرابي يعرف خطر الشأن العام وسياسة

الشعوب والبحث عن مصالحها ، وأنها يجب أن تكون محرابًا لأهل الفهم وأهل الصدق وأهل الوعي وأهل الحق ، أقول إن قوله أنت مسؤول عما اجترحوا وليسوا مسؤولين عما اجترحت من أقوى ما قاله الأعرابي لأكبر مسؤول في الدولة ، ولا يقول غير الأعرابي لأكبر مسؤول أشد وأصرح وأشد من هذا ، وأن تحملك أيها المسؤول الكبير لمسؤولية هذه الملايين إما أن تقبل فيها كل نصح و تعمل فيها الخير بكل طاقتك ، وتبعد أهل الخساسة عن مِنْبَرك ومحرابك ، إما أن تفعل هذا وأكثر منه ، أو تجلس في بيتك وتترك الأمر لأهله ، وقوله بعد ذلك : « فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غبنًا من باع آخرته بدنيا غيره » وهذا أشد وأقوى من كل ما مضى ، وفيها فاءان الأولى في قوله « فلا تصلح دنياهم » إلى آخره ، والثانية في قوله « فإن أعظم الناس غبنًا » إلى آخره ، ولو أحسنا أن ننطق هاتين الفاءين بالذي تحتهما لأوجزا لنا كل الذي قاله الأعرابي من قوله « سأطلق لساني بما خرست عليه الألسن » ثم لاحظ أنه وصفهم بكل شر وأنهم باعوا دينهم لدنياهم ، وأن أمير المؤمنين زاد عنهم لأنه باع آخرته ليس لدنياه وإنما لدينا غيره ، وبهذا صار أعظم الناس غبنًا ، وانتهى الكلام بأنه اكتنفك أسوأ الناس وأنهم انْتَهَوْا بك إلى أن صرت أسوأ من الأسوأ ، ولا تنْسَ أن سليمان فهم كل هذا وأوسع منه ولم يُسْكِتْه ولم يَنْهرْه ولم يخرس لسانه وسواء فعل بنصحه أو لم يفعل ، ثم إن كل هذا الكلام فيه معنى يتنبه إليه المسؤول الأول وعامة الناس ، وهو أن الخطر على البلاد والعباد أن يحيط بالمسؤول الأول الذين همهم أن يأخذوا ، ولو كان المسؤول من أهل الرشد لاختار مَنْ حوله بهذا الاختيار السهل ، فإذا وجد المتطلع للأخذ أبعده ، لأن الشأن العام لا يصلح إلا بالذي يريد أن يعطي ، ويحب أن يعطي ،

ويحرص على أن يعطي ، وهذا الصنف لم تخل الأمة منه يومًا كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ ، وأن الخير في أمته إلى يوم القيامة ، وإذا كان المسؤول الأول يغلب عليه حب العطاء وليس حب الأخذ فلن تجد حوله إلا أهل العطاء الذين هم أهل الخير ، ويمكن لعامة الناس أن يتعرفوا على سداد الذي في يده الأمر بالنظر إلى الذين حوله ، فإن كانوا من المُتَربِّحين بالسياسة فليعلموا أن الأمر أسند إلى غير أهله ، وإذا كانوا متربحين بعطائهم لأوطانهم وشعوبهم فليعلموا أن الأمر أسند إلى أهله ، ولسنا في حاجة إلى علم بالسياسة والكياسة وفلسفة السياسة ولا إلى أي شيء يدرس في الأكاديميات .

مخاطبة عمرو بن عبيد للمنصور

ذكر ابن قتيبة أن عمرو بن عبيد قال للمنصور : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها ، واذكر لَيْلَةً تَمْخَضُ عن يوم لا ليلة بعده ، فوجم أبو جعفر من قوله فقال له الربيع : يا عمرو غَمَمْتَ أمير المؤمنين ، فقال عمرو : إن هذا صحبك عشرين سنة لم يَرَ لَكَ عليه أن يَنْصَحَك يومًا واحدًا وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه ، قال أبو جعفر فما أصنع ؟ قد قلت لك خاتمي في يدك فتعالى وأصحابك فاكفني ، قال عمرو ادعنا بعدلك تَسْخُ قلوبنا بعونك . ببابك ألف مظلمة أُرْدُدْ منها شيئًا نعلم أنك صادق» انتهى ما ذكره ابن قتيبة ، وهذا طريق غير طريق الأعرابي مع سليمان بن عبد الملك ، لأن الأعرابي كان يوجه نقده للرجال الذين اكتنفوا أمير المؤمنين ، وإن كان في النهاية أدان أمير المؤمنين إدانة أشد من إدانته للذين اكتنفوه ، وعمرو بن عبيد يوجه كلامه ونصحه وموعظته إلى أبي جعفر وهو الخليفة الثاني من خلفاء العباسيين والأول كان أخاه ، والذي يعنيني المواقف المتميزة للعلماء سواء كان

رأس المعتزلة ، أو رأس الأشاعرة ، أو رأس الصوفية ، أو السلفية ، وأنا مع كل قلب يخشع عند ذكر الله ، وعمرو له مواقف جليلة مع المنصور وهذا أحدها ، ومن سعة علمه ورجاحة فكره أنه يصل إلى مراده بأوجز لفظ كالذي تراه في هذا الكلام ، راجع قوله : « إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها » هل ترى أوجز وأسْلَس وأسْهل من هذه الكلمة ، وهل يمكن لمن يُخَاطَبُ بها أن يتردَّد في قَبُولها والعمل بها ؟ وإذا أردت أن تحث الخليفة على العدل والبر والرحمة ، وأن تحذره من الظلم والتسلط والقهر هل تجد أخصر من أن تقول له إن الله أعطاك الدنيا بأسْرها فاشتر نفسك منه ببعضها ، وهل ترى طباقًا أوقع في القلب من الطباق الذي هو أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها ؟ وهل يتخلف مؤمن بالبعث والثواب والعقاب عن شراء نفسه من الله ببعض ما أعطاه الله ؟ الغريب أننا نقرأ الكلام ونتوهم أنه كلام شائع ، وأننا يمكن أن نقوله ، فإذا راجعناه وجدناه من السهل الممتنع ، وكلمة « بأسرها » لم تأت في كلام عمرو للتأكيد وإنما هي مقصودة لذاتها ، لأن أبا جعفر كان رأس دولة العباسيين ، ولم تكن دولة في هذا التاريخ على هذا الكوكب تنازع دولة العباسيين ولم تكن قوة يمكنها أن تواجهها ، وكذلك كان الحال في دولة بني أُمية ، وكان الحال في دولة العثمانيين ، كانت الخلافة في كل هذا التاريخ هي القوة الأولى على هذه الأرض ، لأن الأُمَّة التي قال لها ربها أنتم أمة واحدة كانت أمة واحدة ، ودولة واحدة ، وتكاملاً اقتصاديًا واحدًا ، وتكاملاً عسكريًّا واحدًا ، وانتبه أعداء الإسلام إلى هذه القوة وأيقنوا أنها ستظل غالبة ما دامت هذه الخلافة قائمة ، وكانت الخلافة العثمانية في أشد حالات ضعفها ، ولم تستطع دولة أوربية واحدة أن تواجهها وهي في أضعف حالاتها ، فاجتمعت الدول الأوربية لإسقاطها ، وهذا تاريخ لا يستطيع أحد أن ينكره ،

ولا يجوز لأحد أن يسكت عنه ، ثم بدأت سيطرة هذه الدول الأوربية على هذه الدول التي أقامتها بديلاً للخلافة وبدأ العلم يتغير وبدأت الحملة على الخلافة الإسلامية وتشويه تاريخها وتشويه تاريخ العثمانيين ، والذين رُبّوا من أبنائنا على هذه الثقافة تكلموا فينا بلغة أعدائنا ، وحملوا على الخلافة الإسلامية وأثّموا من يذكرها بخير مع أن واقعها التاريخي على هذا الكوكب هو الذي يذكرها بخير ، ولسانه لا يعرف الكذب لأنه واقع ، ودخل موضوع الخلافة في حومة النزاع والمتاجرة بين المتخاصمين ، وتكلمت في الخلافة جماعات لخصت الأمة في أنفسها وصاروا هم الشعوب ، حتى إن كلمة « الأخ » التي هي في الكتاب والسنة لكل من شهد الشهادتين هم لا يصفون بها إلا من كان منهم ، وهذه تقسيمات لم تعرفها الأمة في تاريخها كله مع أنها لم تخل من أكرم الدعاة يومًا واحدًا في أي إقليم من أقاليمها ، وارجع إلى سيدنا عمرو بن عبيد لما قال للمنصور « أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها » ومع أن هذه صَفْقَةٌ لا يتردد فيها عاقل ، أراد عمرو أن يحفز المنصور إليها بأقوى حافز وهو أن يذكره بالموت الذي سينزع منه الدنيا بأسرها ، ولم يشأ عمرو أن يذكر الموت بالصيغة المألوفة التي تتكرر كل يوم ، فذكر الموت بوصف آخر هو أفظع عند من يكون في مثل أبهَّة الخليفة الذي أعطاه الله الدنيا بأسرها ، فقال له : « واذكر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده » يعني يأتيك صبح هذه الليلة لا لَيْلَة ولا صُبْحٌ بعده ، يعني ليلة تختطف أنت فيها من كل الدنيا التي أعطاكها الله ، ولم تُخْتَطَفُ هي منك ، لأنك قادر على حمايتها ، أما حين تختطف أنت فلا حول ولا قوة ، والعجيب في اللغة والفطرة الإنسانية في تلقيها أن المعاني المألوفة قد تُعبّر عنها بصيغ جديدة فتقع في نفوسنا موقعًا غير مألوف ، وكلمة ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده نفذت في وعي أبي جعفر فوجم وكان رقيق القلب ، ولم يكن بينه

وبين جده عبد الله بن عباس أكثر من جيلين أو ثلاثة ، فلما وجم أبو جعفر قال الربيع « يا عمرو غمَمْتَ أمير المؤمنين » وهذه العبارة صادرة عن إحساس الربيع بواجبه نحو أمير المؤمنين ، وهو إبعاد الهمّ والغم عن مولانا ، من غير أن يدرك الربيع أن أكرم لحظة يعيشها أمير المؤمنين وغير أمير المؤمنين هي لحظة ذكر الله والرجوع إلى النفس ومساءلتها عن الذي أعدته للقاء الله ، ولم يكن يعني عمرو شيئًا كما يعنيه إحضار هذه اللحظة الطيبة المباركة عند الأمير وغير الأمير ، وهذا هو الفرق القاطع بين الرجلين أو بين النموذجين من نماذج الرجال ، رجل أو نموذج هو عند نفسه لا يزيد عن أن يكون بمثابة « مِنَشَّة » تَنُشُّ الهم والغم حتى لا يقترب من مولانا ، ورجل همُّه وغايته أن يعيش مولانا لحظة لآخرته وهو على عرش دولة هو من عطاء الله له ، وهو عطاء ملك به الدنيا بأسرها ، وكانت كلمة الربيع هذه صارفةً عَمْرًا إليه ، ولكنه لم يلتفت إليه بالخطاب ولم يَقُلْ له قصّرت في كذا وكذا ، ولكنه أهمله والتفت إلى أبي جعفر وحمّله مسؤولية وجود مثل الربيع في مجلسه وعلى بابه ومن ورائه ، ولاحظ أن الربيع لا يزال في مجلس أبي منصور إلى يومنا هذا ولم تتغيّر إلاّ الأسماء والألقاب ، ولاحظ أيضًا أن عمرو بن عبيد لا يزال فينا ولم تتغير إلا الأسماء ، والناس هم الناس وما أشبه الليلة بالبارحة واليوم بالأمس ، قال عمرو : « إن هذا صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يومًا واحدًا » وهذا معناه أن أبا جعفر لم يكن مبتدئًا في خلافته ، وإنما مضى أكثرها والربيع في مجلسه ، وأنه الآن في مشارف نهاية خلافته ولم يفكر في تغيير الخطأ والخطر الذي هو فيه ، ثم إن علم عمرو بن عبيد النافذ الرائع لم يذكر أن من واجب الربيع أن يذكرك وأن ينصحك لأنه أهمل الربيع ، وإنما ذكر أنه لم ير لك حقًّا عليه ، لأن النصيحة لولي الأمر ليست واجبة على العلماء فحسب ، وإنما هي حق

لولي الأمر عليهم ، فمن ضيعها فقد ضَيَّع حق ولي الأمر عليه ، وهذا معنى لو فهمه كبيرنا وصغيرنا لكان مفيدًا جدًّا ومريحًا جدًّا ، وابْتَعَد بنا عن المزايدات التي نتَلَهَّى بها عن أقدس واجباتنا نَحْو أوطاننا ، لو أحسن وعيها ولي الأمر لتلقى النصح بالقبول وشكر الناصح وقرّبه ، ولو أحسن فهمها العالم لأداها من غير أن يقصد إلى شيء أي شيء من ورائها ، ولأحسن الكل الظن بالكل ، وربما تجد كلمة واحدة نافذة من عقل صادق مخلص ونافذ تُرِيحُ الكل مثل كلمة عمرو «لم ير لك حقًّا عليه» ، وراجعت لغة عمرو وعمق إحساسه بمعانيه ، قال «صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يومًا واحدًا» راجع ما وراء تأكيد اليوم بأنه يوم واحد ، وعدد أيام العشرين سنة لم يتنبه فيها لحظة واحدة في يوم واحد ويرى حقك عليه، وهذا حسبه في هذا الجزء من المعنى ، ثم انتقل إلى ما هو أخطر وأن هذا وصف للربيع في ذات نفسه ، والذي سيأتي عليك أنت مسؤوليته لأنك مكَّنْتَه من العمل وراء بابك عشرين سنة ولم يعمل فيها بكتاب الله ولا بسنة رسوله ، ومهما كان حجم خطئه في هذا فإن خطأك يا أمير المؤمنين هو الأكبر ، لأنك أنت الذي مكنته ووضَعْتَ الأمر الذي لا يعمل فيه بكتاب الله ولا بسُنَّة رسوله بين يديه ، وهكذا ترى صدق وإخلاص العلماء يواجهون به الخطأ والمخطئين ، ولا يبالون من كان على باب أمير المؤمنين ، ولا على من كان وراء بابه ، ولا على أمير المؤمنين أنفسهم ، وهذا هو الحق وهذه هي غلبته وهؤلاء هم رجاله ، وقد قال المنصور لجماعة مَدَحُوه وفيهم عمرو بن عبيد الذي لم يمدحه ، وإنما ذكره بالله ، فقال لهم كلكم طالب صَيْد غير عمرو بن عبيد ، وهذا كلامه له الآن بعد عشرين سنة من خلافته ، وهذا كلام غَيْرُ كلام الطالب صيد ، ولاحظ أن عمرًا لم يذكر كلمة واحدة تذكر أبا جعفر بأنه حفيد عبد الله بن عباس حبر الأمة وابن عم رسول الله ﷺ ، لأن

رسول الله ﷺ حذّر أهله أن يأتيه الناس بالأعمال ويأتيه هم بالأنساب ، وقال لنا ربنـا : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة:٧،٨) ، وكلنا نحب آل بيت رسول الله وهذا شيء والحساب شيء آخـر ، ثم إن كلام عمرو لأبي جعفر وأنه ترك رجـلاً يعمـل وراء بابـه بغـير كتـاب الله وبغير سنة نبيه لم يدفع أبا جعفر لإسكاته مع أنه اتهـام مباشـر لـه ، وإنمـا قـال أبو جعفر : «فما أصنع قلت لك خاتمي في يدك فتعالى وأصحابك فـاكفني» وهذه الفاء التي في قوله «فما أصنع» ترتب كل ما بعدها على ما قاله عمـرو ، وأنها تعني التسليم لعمرو بكل ما قاله حتى القول بـأن أبـا جعفـر تـرك الربيـع وأمثـال الربيع يقضـون وراء بابـه بغير كتـاب الله وسنـة رسولـه ، ولـم يدافـع أبو جعفر عن نفسه في هذه التهمة المهلكة ، لأن القَضَاء بين الناس بغـير كتـاب الله وسنة رسول الله إبعادٌ لأمر الله ونهيه ، وليس في خراب الـدنيا والـدين أَبْشَـع من ذلك ، ومعنى كلمة المنصور أنني لم أُرِدْ بدعوتك أنت ومن معـك لتكونـوا مكان الربيع ، وإنما دعوتك ومن معك ليكون معكـم خَتْمـي ولتكفُـونِي الأمـرَ كله ، ولتتولى أنت ومن معـك شـؤون الـبلاد والعبـاد ، وليكـون الأمـر كلـه في أيديكم ، لأن الذي معه خاتم المُلك معه المُلك ، وهذا الرد لـيس كافيًـا ولـيس مبررًا لفعل الربيع ، وكأن البلاد ليس فيها إلا عمرو بن عبيد ومن معه أو الربيع ومن معه ، وليس الأمر كذلك لأن البلاد عامرة بالعلم والعلمـاء ، والـزمن زمـن مالك عالم المدينة ، وزمن الشافعي ، وزمن أبي حنيفة ، وزمن كبـار الأئمـة في الفقه والتفسير واللغة ، ولا تقل إن هؤلاء كانوا غارقين في علومهم ولم يشـغلوا بالذي في الخلافة ، لأن أبا منصور نفسه كان مـن أهـل العلـم وكـان قريبًـا مـن مالك بن أنس ، وهو الذي طلب منه أن يكتب للناس كتابًا في الفقه يتجنب فيـه شدائد عمر ورخص ابن عباس ، فلا يجوز أبدًا لمن قال هـذا لمالـك أن يُسَـوِّغ

لمثل الربيع أن يعمل من وراء بابه بغير كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وعمرو ابن عبيد لم يَرُدَّ عليه في هذه الجهة ، وإنما رد عليه من جهة أخرى تدينه أكثر ، قال عمرو «ادعنا بعدلك تسخو قلوبنا بعونك» والجملة كما ترى جملة مصقولة في غرابة معناها وتناسق مبناها ، ترى هذا التناسق في التقارب الشديد بين عدلك وعونك، وغرابة المعنى في أن دعوتك لنا بلسانك لم تجد منا إجابة، فإذا سكت لسانك ونطق عدلك ودعانا رأيت قلوبنا تسخوا بعونك ، ولغة الفعل أفعل في القلوب من لغة القول ، وهذا الصقل جاء من غير صقل لأن عمرًا قال هذا على البديهة ، فدلنا على أن اللسان لم يصقل بيانًا وإنما يصقله القلب الخارج منه ، ثم أراد أن يشرح لأبي جعفر كيف يدعونا بعدله وكيف يُنطق أبو جعفر عدله بنداء أهل الحق فتسمعه قلوبهم فتسخوا بعونه ، فقال له : «ببابك ألف مظلمة ارْدُدْ منها شيئًا نعلم أنك صادق» وراجع النقد الصريح الموجع لأبي جعفر الذي أتاه الله الدنيا بأسرها وببابه ألف مظلمة لم تُعكر عليه صفو أُبهّته ، مع أنها بالباب توشك أن تدخل عليه ، وكلمة (ألف) ليس المقصود منها عدد المظالم وإنما المقصود كثرة المظالم ، ثم إن عمرًا لم يطلب منه أن يردها يعني يقضي فيها بالحق والعدل ، وإنما طلب منه أن يرد منها (شيئًا) ، ونكر كلمة شيء ليقول له رُدّ منها شيئًا أي شيء ، وأنك لا ترد من المظالم التي على بابك شيئًا ، وكلمة «نعلم أنك صادق» أشد من كل الذي مضى لأنها صريحة في أن وجود هذه المظالم على بابك ، ثم تقول تعال أنت وأصحابك فاكفني وتعطيني خاتمك ، أقول لك قولك هذا مع وجود هذه المظالم على بابك لا يعني أنك صادق ، وإذا كنا في هذا المقام نذكر لعمرو ابن عبيد صدقه وإخلاصه وتجرده في دفاعه عن أحوال البلاد والعباد ، وأنه لا يبغي من ذلك شيئًا له أي شيء ، ثم هو يدخل في نقد شديد لأبي جعفر

الذي هو ثاني خلفاء بني العباس ، ولم يسبقه إلا أخوه أبو العباس الذي كان ندًّا له في تأسيس دولة بني العباس ، أقول إذا كنا نذكر ذلك لعمرو العالم الصادق ، فلا يجوز أن ننسى تحمُّل أبي جعفر لهذه المخاشنة التي كان لا يتردّد عمرو في أن يواجهه بها ، وظني أن عمرًا لم يواجهه بهذه المخاشنة إلا وهو يعلم من أخلاق أبي جعفر وأهليته للموقع الذي هو فيه أنه يتحمَّلُها ، بل ويرضاها وتَقَرَّ عينه بها ، وكان يحب عمرًا ويقربه ، وقد دعاه إلى أن يكون معه في موقف آخر ، فقال له عمرًا : « ارفع علم الحق يتبعك ذووه » ، وهذا من جنس الكلام الذي قاله في هذا الموقف ، ولا فرق بين ادعنا بعدلك تَسْخُ قلوبنا بعونك ، وبين ارفع علم الحق يتبعك ذوُوه ، ولن تقوى البلاد ولن تسود إلا إذا كان في الناس مثل عمرو ، وكان على رأس البلاد مثل أبي جعفر .

والآن أنتقل إلى كتاب آخر من كتب « عيون الأخبار » ، وهو كتاب الإخوان .

* * *

كِتَابُ الإِخْوَانِ

لم تكن دراستي لأي كتاب من كتب «عيون الأخبار» ومن غيره إلا البحث عن الذي نحن في حاجة إليه ، وأحوال الناس في زمانهم تفرض عليهم فنونًا من المعرفة لا تفرضها حاجة أخرى في زمن آخر ، والمطلوب أن نضع كل الذي بين أيدينا تحت عيون الجيل الجديد الذي يجب أن يتوفر كل عملنا على إعداده ، حتى يكون أفضل منا ، لأن مستقبل البلاد به يجب أن يكون أفضل من الذي نحن عليه الآن ، والتحديات التي ستواجهه أشد وأعتى من التحديات التي تواجهنا ، وخصوصًا إذا بقيت إسرائيل على تراب العرب ، ومستقبل البلاد يعني مستقبل أولادنا وأحفادنا على هذه البلاد ، والذين يهملون هذا الجيل هم الذين يهملون مستقبل البلاد والذين يعيشون عليها وهؤلاء كأنهم ليسوا أبناء هذه الأرض ، وإن كانوا يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ولا تظن أن كتاب الإخوان في «عيون الأخبار» بمعزل عن الأخوة التي في كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، وأن المؤمنين إخوة كما قال ربنا ، وأن مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء كما قال لنا رسول الله ﷺ ، وقد كرر على قلوبنا وأسماعنا أن المسلم أخو المسلم ، وكل هذا من التراحم والتآلف والتماسك والتعاطف ، ومن أعجب ما أسكنه الله في نفوس أهل الشهادتين أن تجد المسلم في أقصى شرق الأرض مُتَعَاطِفًا مع المسلم في أقصى غربها وهو لا يعرفه وإنما يعرف أن

لا إله إلا الله ، قد استقرت في قرار يقينه حتى إنه لا يستيقن شيئًا أثبت منها في قلبه ، ويعرف أن محمدًا عبد الله ورسوله ، وأن هذا قد استقر في يقينه مع لا إله إلا الله حتى لا يعرف في نفسه يقينًا أعلى من هذا ، وفي يقينه أيضًا أن الله ورسوله أحب إليه من كل شيء حتى من نفسه وولده وأهله فضلاً عن ماله ، وأن هذا الحب هو أصل الإيمان ، وأنه من عطاء الله ، وأن حبك لله ولرسوله ملأ قلبك حبًّا بكل من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وقال لنا ربنا إن هذا من عطائه : ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ (الأنفال:٦٣) وهذا من عطاء الله لخير أمة أخرجت للناس ، وهي خير أمة وهي فقيرة ، وهي متخلفة ، وهي جاهلة ، وهي كما تراها فيها ظلم ، وفيها قهر ، وفيها استبداد ، لأن الخيريَّة أساسها التوحيد الخالص الذي لم يبق إلا فيها ، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله أنزل الله عليه القرآن الذي هو آيات بيّنات بإعجازه ، والذي هو مصدق لما بين يديه من كتب الله ومهيمن عليها ، ولم أفهم الوجه الذي اعتمدته جماعة خصصت لفظ الإخوان بها ولها نظام ولها مرشد ، وإذا قالوا كلمة الأخ لا يريدون بها المسلم كما هو صريح كلام الله وكلام رسوله ، وإنما يريدون بها الواحد من هذه الجماعة ، ولم أعرف في تاريخ الإسلام أن داعية مهما كان قدره قد كَوَّن جماعة تابعة له ، ولم تَخْلُ الأمة في أي إقليم من أقاليمها وفي أي زمان من أزمنتها من أكرم الدعاة وأكرم العلماء وأكرم الأولياء ابتداء من الحسن البصري الذي أرضعته أمنا أم سلمة ، وذكر الرافعي أن فصاحة الحسن البصري راجعةٌ إلى هذا الرضاع الذي كان في بيت النبوة ، أقول لم يفكر واحد من هؤلاء أن يُكَوِّن له جماعة ، ولو فعل كل داعية هذا وكوّن له جماعة لكانت الأمة الآن جماعات لا حصر

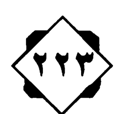
لها ، وكلهم يعلم أن الله نهانا عن أن نحدث تفريقًا في الأمة فاجتهد كل بالذي عنده ، ولقي الله وتركها جماعة واحدة وكلهم بصريح كلام الله وكلام رسوله إخوان مسلمون ، والله ما كتبت هذا إلا خشية من الله أن ألقاه وفي نفسي حق ينفع الأمة ، ولم أكتبه وأرفض رفضًا قاطعًا أن يقع عليهم عذاب وتعذيب وظلم، لأن الله ﷻ ما حرم علينا شيئًا ثم قال لنا إنه حرّمه على نفسه قبل أن يحرمه علينا إلا الظلم ، وتعجب حين تسمع قوله تعالى في الحديث القدسي : « يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تتظالموا » ، وقلت تَعْجب لأنه سبحانه قال يا عبادي فنادى عباده ولم يخص المؤمنين وهو يعلم أن عباده منهم المؤمن ومنهم الكافر ، وأن أكْثَر الناس ولو حرصت ليسوا مؤمنين ، ثم يحرم الظلم يعني حرم الله ظلم الكافر فما بالك بالمسلم الذي تخالفه في أي وجه من وجوه الخلاف ، ثم يأتي رسول الله ﷺ ويزيد تحريم ظلم الحيوان ثم يزيد تحريم إهانة الحيوان ، ويحرم علينا ضرب الحمار على وجهه ، والذي يعرف هذا ويؤمن به لا يقبل أن يقع ظلم على إنسان أو حيوان ، واعلم أني أذكر قول الشافعي وأذكرك به وهو أن الذي عندي صواب يحتمل الخطأ وأن الذي خالفته هو عندي خطأ يحتمل الصواب ، هذا والله أعلم، ولنعد إلى ابن قتيبة . وأعوذ بالله وأبرأ إلى الله من أن ألقاه وقد قلت كلمة أنصر بها ظالمًا وأخذل بها صالحًا ، وإنما هي كلمة الحق يرضى بها من يرضى ويغضب من يغضب ، والذي سيحاسب الناس هو الذي يعلم ما في قلوبهم ، وقد يغضب من هذا من لا أحب أن أغضبه وقد يرضى بهذا من لا أحب أن أرضيه وإنما هو الذي أراه حقًّا ويجب أن أكتبه . وأول شيء يواجهك به ابن قتيبة هو أنه بعقليته العلمية المتميزة يستخرج لك من هذا العنوان الذي هو

« الإخوان » فيضًا من المعاني والأبواب ، حتى إنك لتجد نفسك مع كتاب مستقل عنوانه « الإخوان » ، ولستَ مع فَصْلٍ أو بابٍ من كتاب .

ابن قتيبة يضع لك الخطوط الأولى

وترى ابن قتيبة يضع لك الخطوط الأولى للأبواب التي يستخرجها ويَخْطُو في كل باب بعض الخطوات ثم يترك لك الباقي بعدما علمك كيف تَخْطُو ، ففي كتاب الإخوان تجد هذه الموضوعات : الحث على البحث عن الإخوان ، واختيارهم ، والمودة بالتشاكل وتقارب الطباع ، والمحبة ، وما يجب للأخ على أخيه ، والإنصاف والمعاتبة والوداع ـ والهدايا ـ والعيادة ـ والتعازي ـ والتهاني ـ وشرار الإخوان ، وكل هذه أبواب وابن قتيبة بهذا يعلمك كيف تستخرج من الباب الواحد عِدَّةَ أبواب ، وإذا كنت تتحدث في باب واحد كيف تنفذ إليه من كل جهة حتى تستخرج منه جملة من المعاني وتستقصي كل خاطرة تَحُومُ حول كل مسألة ، وكيف ينفذ عقلك وقلمك من ظاهر المعرفة إلى باطنها ، وكيف ترى في الباطن خفاياه وأسراره ، ولا أشك في أن ابن قتيبة بهذا يُكوِّنُ عند قارئه العقلية العلميّة ، لأن أهم خصائص وتميز العقلية العلمية هو أن تتسع المعرفة بتأملها وتدبرها وطول النظر في ظاهرها وباطنها ، وأنه بعد مراجعة المسألة وتدقيق نظره في ظاهرها وباطنها تَصِيرُ المسألة أوسع وأغزر ، وبهذا وحده تنمو المعرفة وتتسع العلوم ، والعقل العلمي هو الذي ينفذ من كل فكرة إلى فكرة مكنونة تحت هذه الفكرة ، وكل علم تحته علم مكنون في ستر مستور لا يَراهُ ولا يستخرجه إلا المنقطعون الصادقون المخلصون ، وهم أقرب الناس إلى المطهرين الذين هم وحدهم يَمسُّون اللوح المكنون ، ولا تظن أني أتوهم ، واقرأ تاريخ المعرفة عندنا وعند غيرنا لم تتسع ولم تتنوع إلا بهذه

العقليات المنقطعة الصابرة ، وهذا بين أيدينا ولكن الغفلة أذهلتنا عنه ، راجع كيف استخرج عبد القاهر باب القصر من قول أبي علي الفارسي إن إنما بمعنى ما وإلا ، ثم يطرق عبد القاهر هذه الجملة من كلام الشيخ طرقة تفتح له كل باب القصر الذي لم يكتب في تاريخ العربية كما كُتب في دلائل الإعجاز ، وهذه الطرقة التي طرقتها عقلية علمية متميزة تعرف كيف تتسع المعرفة بتأملها هي قوله : « فرق بين أن يكون الشيء بمعنى الشيء وأن يكون الشيء الشيء» ثم يخطو إلى الأمام ليبيِّن الذي به كانت إنما بمعنى ما وإلا ، ولم تكن إنما هي ما وإلا فيرى باب القصر بين يديه ويضعه في أيدينا ، ابن قتيبة الذي كان قبل عبد القاهر بزمن يقول لنا إن المعرفة تنمو بالتدبر ، والمراجعة ، وإعمال العقل فيها بعد تحصيلها ، لأن تحصيل المعرفة هو باب دخول المعرفة ، ومن يقف عند التحصيل وضع قدمه على العتبة ثم وقف ، كالذي يكبر تكبيرة الإحرام ثم لا يصلي ، وكل عمل طالب العلم وكلنا طلاب علم هو بعد تحصيل العلم ، وابن قتيبة لم يشرح لنا هذا كما أشرحه لأن عنده قدرة ليست عندي ، وهو أنه وضع تحت عيوننا كيف يستخرج أبوابًا متعددة ومختلفة ومتنوعة من تحت لفظ واحد هو الإخوان ، ونظير ذلك ما تجده في كلام الكرام الكبار مثل ابن قتيبة حين يقولون لنا البلاغة أن تستخرج من المعنى الواحد جملة معانٍ ، وهذه هي البلاغة التي في صدور أهل البيان وليست في كتب العلماء ، المهم أن يكون قلبك وعقلك خِصبًا إذا أَلْقَيْتَ فيه بذرة من الأفكار أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، وابن قتيبة من علماء الشعر يعني من كبار علماء البلاغة التي في الصدور والقلوب والعقول ، والتي ليست في كتب علماء البلاغة ، ابن قتيبة يفيض عليك بالمعاني الجليلة والجديدة ويقربك من حسن البيان ، ويفتح شهيتك لأكرم ما تشتهيه أكرم النفوس وهو البيان ، وليس هذا هو الشيء الذي

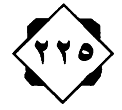


أُعني به في كتاب الإخوان مع أهميته الشديدة ومع شدة حاجتنا إليه ، والذي أعني به أكثر وأراه ضائعًا فينا هو تزويد الجَبْهة الأكثر والأعرض من أبناء البلاد بالوعي والمعرفة والثقافة ومكارم الأخلاق ، وليس الطريق أن يقتربوا هم من المعرفة واليقظة وكل ما يورث البلاد خيرًا ، وإنما الطريق أن نقرِّب نحن لهم المعرفة واليقظة ونجعلها في طريقهم ومن أمامهم ومن ورائهم ومن فوقهم ومن تحتهم ، ولا تظن أنني أبالغ لأننا الآن نجعل الجهل والغلظة والغباوة من ورائهم ومن أمامهم ومن فوقهم ومن تحتهم ، وإذا كنت مثلي تمشي في الناس وتسمع الجيل الجديد حين يغضب ، وحين يختلف ، وتسمع ألفاظه وترى أفعاله ، وكان همُّك هو مستقبل هذه الأرض التي أنت عليها وهي تراب آبائنا ، أيقنت أننا نحن الذين تركناه للضياع بل فرضنا عليه الضياع ، فلا عِلْم ولا عمل ولا شغل ولا مستقبل ، وإنما فراغ وجهل وحاجة ويأس ، وقد رأيت ابن قتيبة يَسْقِي الجيل الجديد المعاني النبيلة في رحيق من البيان والحكمة ، فيبدأ الحديث عن الإخوان ليس بالذي يقوله وإنما بالذي قاله الناس من قبلنا ، ليعلم الجيل أن هذا الذي يقدم له مما رضيه علماء وعقلاء الناس وأَقَرُّوه وهو قولهم : « أعجز الناس من فرَّط في طلب الإخوان وأعجز منه من ضيّع من ظفر به منهم » ويلحق ابن قتيبة هذا بقول الشاعر :

لَعَمَرُكَ مَا مَالُ الفَتَى بِذَخِيرَةٍ ولكنّ إخوانَ الثّقاتِ الذخائرُ

ولو سألتني عن معنى أن أعجز الناس من فرّط في طلب الإخوان ، وأعجزُ من الأعجز من ضيّع من ظفر به منهم ، لم أجد لك عندي إجابة تقنعني فضلاً عن أن تقعنك ، لأني لا أتصور واحدًا يبحث في الناس عن أخ له ، وهب أنني بحثت في الناس عن الذي أرضاه أخًا لِي ثم وجدته ثم رفض هو أن يكون أخًا لي ، ولم أعرف أحدًا له إخوان لأنه بحث عنهم ، وإنما الذي أعرفه هو أن

استقامة أخلاقك وصدقك وطبيعة إلف الناس ومحبة الناس فيك هي التي تجلب لك الإخوان ، والذي فرَّط في طلب الإخوان الذي هو أعجز الناس هو الإنسان الذي لا يألف ولا يُؤْلَف ، وأن الباحث الحقيقي عن الإخوان فينا جميعًا هو الفطرة النَّقِيّة هو المحبة للناس والمتعاطفة مع الناس ، والتي فيها وُدّ للناس وتراحم وتعاطف مع الناس ، ولو قلت إن الذين لا يفرطون في البحث عن الإخوان هم الذين وصفهم سيدنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقال إنهم أحب إليه وأقربهم منه مجالس يوم القيامة ، وهم أحاسِنُنَا أخلاقًا الموطؤون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون ، وأن من كان حوله أحد من هؤلاء ثم اخشوشنَ عليهم هو الأبعد عن هذه الصفات ، وأفهم بيت الشعر في ضوء هذا الفهم لمعنى طلب الإخوان ، وأن الشاعر يقول لنا أنتم تركضون وراء جمع الثروة ، ولأن يكون حولكم إخوان الثقات أكرم وأنبل من أن تكون حولكم الثروة ، فكونوا من الموطئين أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون ، وإذا كنتم كذلك فأنتم أفضل وأكرم من الذين في أيديهم المال الكثير ، ولم أستطع ولم أسْتَسِغْ التفتيش في الناس وتقليبهم وتَحسسهمْ وتجسسهمْ لأجد منهم من أتخذه أخًا ، وقد نقل ابن قتيبة كلام رجل من كرام الرجال في هذا الباب ليس بعيدًا عن الذي قلته ، وقد ذكرت قبل ذلك أن حديث ابن قتيبة عن الإخوان ليس بعيدًا عن كلام الله وكلام رسوله ، لأن عقل ابن قتيبة زاخر بكلام الله وكلام رسوله رغم أنه قال في مقدمة الكتاب إنه ليس في الحلال والحرام ، قال ابن قتيبة قال أبو الجراح العُقيلي : «وجدت أعراض الدنيا وذخائرها يَعْرض لها المتالف إلا ذخيرة الأدب وعقيلة الخُلّة فاستكثروا من الإخوان واستعصموا بعرى الآداب» لاحظ الربط بين ذخائر الآداب وعقيلة الخُلّة الذين هم كرام الإخوان ، وأن ذخائر الآداب مَجْلَبةٌ لكرائم الإخوان ، ولا قيمة للأدب فضلاً عن ذخائره ما لم يُنقّ طبعك ونفسك من



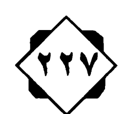
الغلظة والشراسة وسوء الأخلاق ، وأن هذه الغلظة والشراسة وسوء الأخلاق هي التي تجعلك أعجز الناس في طلب الإخوان ، لأنك لو طلبت فلن تجد ، وإنما الطالب للإخوان والصوت الذي ينادى فيُجاب هو أن تكون تألف وتؤلف وأن تكون من أهل محاسن الأخلاق الموطئين أكنافًا ، ابن قتيبة يقول لأجيالنا استعصموا بعرى الآداب التي ليس لها سبيل إلا القراءة والفهم والتدبر ، واحذروا الغلظة والجهل والخشونة وسوء الأخلاق ، ولاحظ أن العقيلي لم يقل استكثروا من الإخوان واستعصموا بعرى الآداب إلا بعد أن قدم لهذا بمقدمة توشك أن تكون هذه المقدمة ناطقة بهذه الوصية ، وأنه رأى ما دون هاتين من أعراض الدنيا وذخائرها بعرض المتالف ، وأن كل ما أنت فيه من مال وجاه وأُبَّهة حكم ، كل ذلك تَتَسَلَّلُ إليه المتالف ، وأمران مُحَصَّنان من هذه المتالف وهما ذخائر الأدب وعقائل الإخوان ، هكذا قال عقيل بني عُقيل ، وراجع الكلام لتتأكد أن كرم الكلام وكرم القائل وكرم أكرومة القائل كله بلاغة واحدة .

من كلام الإمام الحسن بن علي

ذكر ابن قتيبة قول سيدنا الحسن : « المؤمن لا يَحِيفُ على من يُبْغض ولا يأثم فيمن يحب» وحين أقول لك راجع فاعلم أني لا أقولها إلا إذا وجدت في الكلام سَعَةً لا أستطيع أن أُحيط لك بها ، وقد سبق قول عقيل بني عقيل وقلت إنه من أكرم الكلام الذي يقوله أكرم الرجال من أكرم أرومة ، وكلمة الحسن هذه شيء آخر وباب آخر ومعنى آخر ، وقد تجد الفرق بين الأكرم والأكرم يَتَّسع حتى يكون كالفرق بين السماء والأرض ، وأهم ما في كلمة سيدنا الحسن أنه جعل الإيمان ميزانًا ضابطًا لأهواء النفوس وشهواتها ، وأن هذا الإيمان يكفح غضبك ويطفئه ويمحوه إذا كنت بصدد القضاء في الذي هو أنت أشد الناس

بغضًا له ، وهو كذلك يرى نفسه أشد الناس بغضًا لك ، ثم يبقى ميزان العدل لا يتحرك لا يبغضك له ولا يبغضه لك ، وإنما يحركه الحق والعدل لا غير ، راجع إلى هذا الحَدِّ يكون للحق والعدل سَطوة وصولة وقوة في حياة الجماعة التي صنع الإيمان أركانها ، وراجع ما يكون من عكس ذلك إذا تتدخل الشياطين في إفساد القضاء ، وصرت عرضة لأن تُدانَ وأنت بريء ، ثم راجع الصورة الثانية المقابلة في كلام الحسن وهي قوله : «ولا يأثم فيمن يحب» وإنما تأثم فيمن تحب إذا أعطيته ما ليس لك وليس له ، وإنما هو الحق والعدل ، وضع الجملتين متوازيتين وتأمل المقابلة بين المبنى والمعنى ، وسهولة المَبْنَى وسداد المعنى واتساع المعنى ، وراجع كيف يُصْقَل الكلام وهو لا يزال بعيدًا عن اللسان ، وكيف يكون صقله من مخرجه صقلاً طبيعيًّا ، وللحسن في العلم بصيرة متميزة ويوشك أن يكون صنو ابن عباس .

ولما ذكر ابن قتيبة قول سيدنا الحسن إن المؤمن لا يحيف على من يبغض ، أراد أن يؤكدها لك واقعًا عمليًّا في حياة أصحاب رسول الله ﷺ ، وأنها مهما كانت صعوبتها ومهما كانت أسباب البغض فإن الإيمان له صولة فوق كل صولة ، ذكر ابن قتيبة لقاء العجلي قاتل زيد بن الخطاب في حروب الرِّدَّة ، وكان العجلي لا يزال كافرًا ولقي عمر وهو أمير المؤمنين ، وكان موت زيد في حروب الردة شديدًا جدًّا على عمر ، فقال عمر للعجلي : «أقتلت زيدًا» فقال : يا أمير المؤمنين قد قتلت رجلاً يسمَّى زيدًا فإن يكن أخاك فهو الذي أكرمه الله بيدي ، ولم يُهنيِّ به» يريد قتلته وهو مسلم فلقي الله شهيدًا ، ولم يقتلني وأنا كافر فألقى الله مهانًا ، ثم لم ير من عمر بعد ذلك شيئًا أي شيء يكرهه ،



وأكتفي بهذا في هذا الباب ، وأذكرك بأنني لم أكتب لك ما أكتبه لتكتفي به عن قراءة كتاب « عيون الأخبار » ، وإنما أكتب لك الذي أكتبه لأغريك بقراءة كتاب « عيون الأخبار » ، لأن الذي تركته أوسع وأفضل وأنفع من الذي كتبته .

والآن أنتقل إلى بيان شيء في الذي كتبه في باب التعازي وفيه نفاذ عجيب وتغلغل في المصائب ، واستخراج معان منها تعكس وقعها على النفوس ، فلم يعد الكلام في التعزية لتهدئة الخواطر وإنما صارت المصائب عند أهل الله الذين هم أهل البصائر نعما توجب التهنئة بدل التعزية ، وذلك لأنهم لم ينظروا إلى المصيبة من جهة أنها فاجعة تفجع نفوس أهل المتوفى ، وإنما نظروا إليها من جهة أن أهل المتوفى لو صبروا واحتسبوا لكان لهم من الأجر والقرب من الله ما يجعل مصابهم هذا إكرامًا من الله لهم . ذكر ابن قتيبة أن سهل بن هارون قال : « التهنئة على آجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المصيبة » ولاحظ أن هذه التهنئة أفعل في النفس من كل ما يقال في التعزية ، وأنهم يعزون بهذه التهنئة تعزية أبلغ من كل تعزية ، لأنهم يَنْزِعُون الإنسان الذي يعزونه من موقفه الصعب الشديد إلى موقف آخر هو قريب منه وهو موقفه بين يدي الله ، وأنه هناك سيجد أجر الصبر والاحتساب وهو في أشد الحاجة إليه ، وأن هذا الأجر الذي بين يدي الله والذي هو من يد الله هو الأقدر على خلعه من الحالة التي هو فيها ، قال ابن قتيبة وكتب عبد الله بن طاهر إلى أَبِي دُلَف : « المصائب حالة لا بد منها فمنها ما يكون رحمة من الله ، ولطفًا بعبده ، وآية ذلك أن يوفقه للصبر ، ويلهمه الرضا ويبسط أَمَلَهُ فيما عنده من الثواب الآجل والخلف العاجل ، ومنها ما يكون سخطًا وانتقامًا أوله حزن وأوسطه قنوط وآخره ندامة ، وهي المصيبة حقًّا الجامعة لخسران الدنيا والآخرة » راجع عقلية عبد الله ابن طاهر وهو يخاطب صاحب المصيبة ويجعله بين أمرين مختلفين أشد

الاختلاف ، أحدهما أن يكون وهو في المصيبة في نِعْمةٍ ورضى والأمل المبسوط في الذي عند الله ، وكيف يكون هذا الأمل ثوابًا آجلاً وخلفًا عاجلاً ، ويقابل هذا الحزنُ واليأسُ والندامة وليس أسوأ منهما ، وأنه يمكنك أن تختار هذه أو تلك وكأنه يقول لأبي دلف مثلك لا محالة يختار الثواب الآجل والخلف العاجل وينبسط أمله في الذي عند الله ، ولن تكون من الذين يختارون الحزن واليأس والندامة والحرمان من الثواب الآجل والخلف العاجل ، ثم إن كل ذلك لا يأتي بشيء ، وبهذا تنتقل النفوس من جو المصيبة المقبض إلى جو الرجاء والرحمة وانتظار الخلف العاجل والثواب الآجل ، ومثل هذا يجب أن يشيع في مجتمعاتنا وأجيالنا ، وكأن ابن قتيبة يجاهد لا لِيُشيع هذا في زمانه وإنما ليشيع هذا في الأمة كلها ، وفي أزمنتها كلها وهؤلاء هم رجال الأمم ، ولما شاع هذا في الناس قالوا كلمة هي منه وإن كانت أجلَّ منه ، وهو قولهم المصيبة الفاجعة تُدِرُّ ذكر الله ، قلت هي أجل لأن الكلام انتقل من الرجاء في الثواب الآجل والخلف العاجل إلى شغل القلب بذكر الله ، وليس في حياتك ولا في حياتي ولا في حياة أي مسلم هو على يقين أنه سيكون يومًا مع كل الناس كالفراش المبثوث ، أقول ليس في الحياة أفضل من لحظة الذكر فضلاً عن اللحظة التي تعيش فيها حدثًا يُدرّ هذا الذكر ، وكلمة يُدِرُّ يعني أنك لن تكون في لحظة ذكر وإنما تكون في نشوة وغبطة بهذا الذكر ، كتلك اللحظة التي يكون فيها الرضيع في حاجة إلى ثدي أمه ، ثم يبدأ الرضاع ويدر عليه هذا الثّدْي ما هو مشتاق إليه ، وراجع كلمة « في قلب المؤمن » وأن ذكر الله غسل قلبه مما هو فيه من ألم المصيبة ، وأسْكن فيه الرضا والغبطة والبهجة بذكر الله ، وليس معنى هذا أننا نطلب المصايب وإنما أمرنا أن نتلقاها بالصبر والاحتساب والذكر .

قال صالح المري يعزي رجلاً

ذكر ابن قتيبة أن صالحًا المُرِّي قال لرجل يُعزِّيه : « إن لم تكن مصيبتك أحدثت في نفسك موعظة فمصيبتك بنفسك أعظم » وتعجب حين يكون بين يديك جملة من كلام أهل البصيرة في شيء واحد ، وأن كل بصيرة تنظر إلى هذا الشيء الواحد من جهة من جهاته ، وكلام صالح المري هذا لم ينظر إلى المصيبة من جهة الثواب الآجل ولا الخلف العاجل ، ولا أنها تدر ذكر الله في القلب وليس في اللسان ، وإنما ينظر إليها من جهة أن لها عطاء من الفهم والوعي يضاف إلى ما في نفس الذي ابتلاه الله بها ، فتصير نفسه بالمصيبة أكثر وعيًا وأكثر فهمًا لطبيعة الحياة ، وأن هذا هو الشأن فيها مع النفوس السليمة ، فإذا لم تُغَيِّر هذه النفس ولم تَزِدْ في وَعْيها بالحياة والأحياء فالمصيبة ليست في المصاب من عزيز افتقدناه ، وإنما في الذي يُعزَّى فيه ، وفي المصيبة فوائد جمة وأن الذي طوى نفسه على الحزن عَمِيَ عن هذه الفوائد التي كان الشأن فيها أن تُغَيِّر نفسه ، وذكر ابن قتيبة قول الشاعر وهو قريب جدًا من هذه المعاني المكنونة في قلب الرزايا قال :

كَمْ مَن يَدٍ لا يُستقَلُّ بشكرها ... لله في ظِلِّ المكارِهِ كَامِنَه

عبر عن المصيبة بكلمة « يد » والمراد بها النعمة ، وأن المصائب التي هي نعم كثيرة ، وعبر عن ذلك بقوله « كم من يَدٍ » وأنها ليست كالنعم التي نوفيها شكرها وإنما هي نعم لا يُسْتَقَلُّ بشكرها ، وأنها من الرحمن الرحيم الذي لا يأتينا منه إلا الخير ، يستوي في ذلك الخير المعروف أنّهُ خير والمصايب التي تكمن فيها النِّعم ، وكلمة « في ظل المكاره كامنة » كلمة جليلة جدًا ، وأن النعم تأتيك من الله كامنة في ظل المكاره ، وبُعْد هذا عن عامتنا وخاصتنا

خسـران لا يجوز أن يبقى ، وذكر ابن قتيبة أن أبا الـدرداء كـان يعـود جـارًا لـه نصرانيًّا ، وأن شبيبًا بن شيبة عزى رجـلاً من اليهود ودعا لليهـود دعـوة ترضـي هذا اليهودي ولا يأثم فيها شبيب ، وهي قوله « أعطاك الله على مصيبتك أفضـل مـا أعطى أحـدًا مـن أهـل ملتك » وهـذه معـان إنسانية لم أعـرف في ديـن الله ما يحرمها ، وغيبة الفهم الصحيح لدين الله أفْرَزَتْ أفكـارًا تُسِيءُ إلى ديـن الله ، كالذين يحرمـون تهنئـة النصـارى بعيـدهم ، والـذين عاشـوا الحيـاة المتجـاورة والمتقاربـة في ريـف مصـر بـين المسـلمين والمسـيحيين رأوا تواصـلاً وتقاربًـا وتراحمًا بينهم ، حتى إنك لا تستطيع أن تفرق بين جار مسلم وجار مسـيحي ، وقـد سمعت رجلاً مـن المسلمين يقـول لصاحبـه النصراني ، والله إنـي أحبـك يا فلان وأخشى عليك من عذاب الله يوم القيامة ، فياليتـك تُسْلِمُ حتـى أطمـئن إلى أنك لن تعذب ، وكانا يأكلان معًا ، فقال صاحبه النصراني بعدما بلع الـذي في فمه ، والله إني أحبك يـا فـلان وأخشـى عليـك مـن عـذاب الله يـوم القيامـة فياليتك تتنَصَّر حتى أطمئن إلى أنك لن تدخل النار ، وضحك الرجلان وانتهـى الأمر ، ولذلك كنت أرى أن ما يوصف بالفتنـة الطائفيـة إنمـا هـو أمـر غريـب ومفتعل ودخيل على شعب هذا شأنه ، والقول بأن الاتجاه الإسلامي يُحْدِث فتنة طائفية قول ظالم ، لأن الاتجاه الإسلامي الذي يحدث فتنة طائفية اتجاه لا يفهم الإسلام ، والمطلوب أن نحدّد المعـاني وأن نقـول إن مـن يزعمـون أنهـم اتجـاه إسلامي يُحْدثون فتنة طائفيـة باسـم الإسـلام والإسـلام بـريء منهـا ، لأن الـذين يعرفون ألف باء في الإسلام يعلمون أن رسول الله ﷺ أوصانا بمن يعيشون معنا من غير ملتنا ، وأخبرنا بأنهم في عهد الله وعهد رسـوله ، وأن مـن يُسِيءُ إلـيهم يرتكب ذنبين ذنب هو الإساءة الذي يحاسب عليه كما لو أسـاء إلى مسـلم ، ثـم

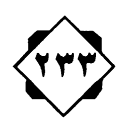
ذَنْبٌ آخر وهو نقضه لعهد الله وعهد رسوله ، والعهد معناه الذمة ، وأن ذمة الله تحميهم حماية خاصة ، ولكننا لما حذفنا التعليم الديني من مدارسنا لنتنوّر صَنَعنا بأنفسنا هذا الخلل في حياتنا ، وكتيب صغير في المقررات لا يمثّل عبئًا على الطلاب ويضيء لهم الطريق المستقيم .

ذكر ابن قتيبة إن إبراهيم بن يحيى الأسلمي كتب إلى المهدي يُعَزّيه في ولده قال : «أما بعد فإن أحق من عرف حق الله فيما أخذ منه مَنْ عظَّم حق الله عليه فيما أبقى له ، واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي بَعْدك ، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم عليهم من النعمة فيما يعافون منه» وإنما أكرر النظر في هذا لأزداد علمًا بأن الأسلمي يخاطب المهدي كما يخاطب عامة الناس ، ويعظه ويعلمه كما يعظ ويعلم عامة الناس ، ويقول له اعلم كما يقول المعلم لمن يعلمه ، وأعلم أن المهدي من أقدر وأظهر وأشهر رجال بني العباس ، وأنه كان رأس دولة ليس في الأرض كلها دولة تقاربها ، وأن هذا لم يخرجه من كونه واحدًا من عامة رجال هذه الأمة ، وأن التميز والتسلط والتجبّر لم يكن يومًا ما من شأن الأقوياء وإنما هو من شأن الذين ترفعهم المناصب ، وليس من شأن الذين ترتفع بهم المناصب ، وأول ما تجده في كلام الأسلمي أنه رجع في هذه المصيبة التي هي مصيبة والد في ولده ، وهي من أوجع المصائب إلى المهدي ، وأن المهدي إذا كان عظّم حق الله في الذي أبقى له من الأولاد عرف حق الله في الذي أخذ ، لأن الكل من عطائه ، ولله ما أخذ ولله ما أبقى ، وربط الأسلمي بين الأمرين وأن مقدار مَعْرِفَتك حق الله في الذي أخذه هو مقدار معرفتك حق الله في الذي أبقى ، وهذا يعني أنك إذا أُصِبْتَ بالجزع والحزن في الذي أخذ الله منك فأنت غير معظم حق الله في الذي أبقى لك ، فاحذر أن تكون كذلك ، لأن حزنك وجزعك سيكون دليلاً قاطعًا على أنك لم تُعَظِّم حق الله ، وتلاحظ أن

الطباق والمقابلة كثيرًا ما يجريان في كلام أهل الطبع ، حق الله فيما أخذ وحق الله فيما أبقى ، والماضي قبلك هو الباقي بعدك ، وتلاحظ الدقة في استخراج المعاني وتصريفها ، فالماضي قبلك هو الباقي بعدك ، فالباقي بعدك ليس هو ولدك الذي ستموت وتتركه وإنما هو الذي مات ومضى قبلك ، وكأن بباطن المعاني والأحداث يَسْكُن فيها ضد ظاهرها ، فالذي مات هو الباقي ، والباقي هو الذي مات لأنه ليس لي فيه أجر مُدَّخَرٌ لي عند الله ، وأنا أتعلم من هذا التغلغل في المعاني حتى أخرج من باطنها ما هو ضد ظاهرها ، وكأن الأسلمي استشعر أن هذا المعنى يحتاج إلى مزيد من البيان فقال الجملة الأخيرة ، وهي : « أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظَمُ من النعمة فيما يعافون منه » فأجرك في الذي أُخذَ منك يعني ولدك الذي مات أعظم من نعمة الله عليك في الذي أبقاه لك ، والتدقيق في المعاني إذا وعيته علمك وصار حبًّا في نفسك ، وإذا قرأته بغفلة لم تنتفع به ، وليس في الخسران أَبْشَع من عدم الانتفاع بما ينفع ، وليس لنا طريق إلى التعلم إلا أن نقرأ ونفكر فيما نقرأ .

أحق الناس بالإحسان

ذكر ابن قتيبة أن رجلاً قال لبعض السلاطين : « أحقُّ الناس بالإحسان من أحسن الله إليه ، وأولاهم بالإنْصَافِ مَنْ بُسِطَت القدرة بين يديه ، فاستدم ما أوتيت من النعم بتأدية ما عليك من حق » ، وقول ابن قتيبة إن رجلاً قال لبعض السلاطين من غير أن يذكر اسم الرجل ، ومن غير أن يذكر اسم السلطان فيه إشارة إلى شيوع مخاطبة عامة الناس للسلاطين ، وأن لقاء السلاطين وخطابهم كان أمرًا ميسورًا ، لأنهم من الناس ، يسمعون من الناس ويسمع الناس منهم ، وهذا من أفضل ما يكون عليه أهل الحكم الذين هم أهل له ، وأنهم وُلُّوا

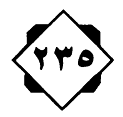


على الناس وليسوا خيار الناس كما قال سيدنا أبو بكر ، ويبدو أن هذا الرجل كان يحب هذا السلطان لأنه دَلَّه على الطريق الذي يحفظ الله به سلطانه ، يقول : « فاستدم ما أُوتيتَ من نعم بتأدية ما عليك من حق » وهذه الجملة من أكرم المعاني وأوسعها وأسَدِّها وأصدقها ، وليست خاصة بالسلطان ، وإنما هي عامة في الناس جميعًا ، وأن كل عطاء الله لك ليس لك إلى حفظه إلا طريق واحد وهو تأدية ما عليك من حق فيه ، ويوشك أن يكون هذا المعنى مقتبسًا من قول سيدنا رسول الله : « احفظوا جوار نعم الله فإنها إن ذهبت عن قوم قلما تعود إليهم » ، وهذا الرجل قدَّم لهذه الجملة بما يوشك أن يكون ناطقًا بها على عادة أصحاب البيان الحر ، وتعجب حين تجد الكلام سهلا رَهْوًا يجري به اللسان من غير حاجة إلى عناء في استخراجه ، فإذا راجعته وجدت له غَوْرًا بعيدًا مثل عبارة « أحق الناس بالإحسان من أحسن الله إليه » تراها قريبة وسهلة مع أن لها بعدًا آخر ، وكأنه يقول لصاحب السلطان إن الله يحب منك أن تكون مع خلقه كما كان معك ، فإذا أعطاك يحب منك أن تعطي ، وإذا سامحك يحب منك أن تسامح ، ولك أن تطلب من الله ما تريد وهو أن تعمل ما تريده من الله مع خلقه ، فإن أردت أن يرحمك فارحم خلقه، وإن أردت أن يوسع عليك فوسّع على خلقه ، وهكذا نجد جملة « أحق الناس بالإحسان من أحسن الله إليه » مَتْنًا مُختصرًا وتحته معان غزيرة وجليلة ، لأنها اختصرت أن الخالق يعطي المخلوق ويحب من المخلوق أن يعطي كما أعطاه ، والكلام موجه للسلطان ، وأن ما أنت فيه هو عطاء الله لك فبادر وأدِّ حَقَّ الله ليدوم لك ما أنت فيه ، وهذا يعني الحرص عليه وعلى بقاء سلطانه ، وأنه لم يأخذ شيئًا بالغلبة والسيف وأن قلوب أهله حوله ، وأن قائل هذا رجل نكرة فيطلق على كل رجل ، وكأن ابن قتيبة لما أهمل ذكر اسمه إنما أراد أن يقول هذا لسان أبناء شَعبه جميعًا ،

وقوله : « وأولاهم بالإنصاف من بسطت القدرة بين يديه » راجع كلمة « بسطت القدرة بين يديه » ، وأن هناك باسطًا بسط القدرة ، بين يديه وأن يديه لا دخل لهما في هذه القدرة ، ثم إنها قدرة بُسطت واتَّسعت تحت عينه وتحت يده يتصرف فيها وحده ، وأن الكريم الذي هو أهل لسيادة قومه هو الذي تُغْريه هذه القدرة التي لم يطلبها بلسان ولا بسنان بل بمزيد من العدل والإنصاف ، فإذا بُسطت بين يدي خسيس لئيم لم يعرف العدل ولا الإنصاف ، وإنما ظلم وقتل وعَرْبدة ، ولاحظ أن أولى الناس بالإحسان من أحسن الله إليه ، وأحقهم بالإنصاف من بسطت القدرة بين يديه ، كل هذا ذكر للإنسان الذي هو أهل لنعمة الله والذي يسوق الله إليه نعمه ، وآية حب هذا الرجل لهذا السلطان هو قوله : « فاستدم ما أوتيت من النَّعمِ بتأدية ما عليك من حق » وقد التفت إليه وخاطبه في هذه الجملة وبدأها بقوله : « فاستدم ما أوتيت من نعم » وبنى فعل أوتيت للمجهول ، وأن النعم التي أنت فيها أيها السلطان هي محض عطاء أهديت لك وبُسطت لك ، وعليك أن تحافظ عليها بتأدية ما عليك من حق ، فتقيم العدل بين الناس فلا يظلم على تراب وطنك أحد ما دمت تحب تراب هذا الوطن ، وأن تبذل من الإحسان كل ما تستطيع ، وليس الإحسان أن تعطي من مال وإنما الإحسان في الأمر كله ، ولاحظ أن كل ما خاطب به السلطان هو صالح لأن يخاطب به الناس جميعًا ، وأن كل من أحسن الله إليه يجب أن يكون محسنًا في الأمر كله ، وأن كل من منحه الله القدرة يجب أن يكون من أهل العدل والإنصاف ، وأن كل من أعطاه الله خيرًا يجب أن يحافظ على هذا الخير بأن يُوَفِّي حق الله عليه .

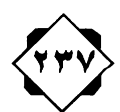
من كلام عبد الله بن عمرو بن العاص

روى ابن قتيبة عن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله : « أربع خلال إن



أُعطيتهنَّ فلا يَضرُّك ما عُدِل به عنك من الدنيا : حسنُ خليقة ، وعفاف طعمة ، وصدق حديث ، وحفظ أمانة» ومن الغَفْلة أن نحفظ ما يُنقل إلينا من علم كرامنا من غير أن نقف ونتأمل لغة علمهم ، لأن لغة العلم جزء من العلم ، وحفظ لغة العلم عمل جيد ، وتدبر لغة العلم عمل أجود ، قلت هذا لأن المقدمة التي قدم بها عبد الله بن عمرو بن العاص مقدمة لا تقل قيمة عن المعاني الكريمة التي قدم لها بهذه المقدمة ، وقوله : «إن أُعطيتهن فلا يَضُرُّك ما عُدِل به عنك من الدنيا» والدلالة الظاهرة أن هذه الأربع أفضل ما يحصله المرء من الدنيا ، وأنها إن كنّ فيك فلم يضرك شيء فاتك من الدنيا مهما كانت سعته ، ومهما كان قدره عندك وعند الناس ، وبناء فعل أُعطيتهن للمجهول ، وراءه أنك طلبتهن فاجتهدت وأفرغت كل مجهودك في طلبهن ، ولن تَنَالَهُنَّ إلا إذا أَذِنَ الله لك أن تنالهن ، لأنهن من خزائن الله ومن يد الله ، ولن تصل يد إليهن مهما جَدَّت إلا إذا قَدَّمَتْهن إليها يد الله ، وهذا يعني أن هذه المقدمة حَدَّثَتْ عن مكانتهن وعن قدرهن قَبْل أن تذكرهن ، وكذلك بناء فعل «عُدِلَ به عنك» ومعناه أنك تحرم ما تحرم بيد الله وتنال ما تنال من يد الله ، والذي عليك هو أن تختار وتجد في تحصيل ما تختار ثم تترك الأمر للذي في يده الأمر ، وهذا هو شأن المؤمن ، وعبد الله بن عمرو بن العاص من أكرم من فهموا عن رسول الله ﷺ ، ثم اختصر الكلمات الأربع في نصف سطر أعني في كلمات هنّ أقل من الكلمات اللائي قدم بهن ، الأولى : حسن خليقة وإنما قدمها لأن كيان الإنسان وشَرَفَه وكَرَمه ونُبْلَه في حسن خلقه وطيب نفسه وما في قلبه من حُبٍّ وتراحم ، وتعاطف ، وبُؤسه وخِسَّتُه ودناءته في قبح خليقته ، وما في قلبه من الحِقْد والقسوة والنُّفرة ، وقد لخص رسول الله ﷺ رسالته في

إصلاح وصلاح بناء الإنسان لما قال : « إنما بعثت لأُتمِّم مكارم الأخلاق » . وشيوع مكارم الأخلاق في الجماعة يَعْنِي شيوع التعاطف والتراحم والألفة والمحبة ، وهذا شأن الشعوب الكريمة المتجهة دائمًا إلى بناء الخير وعمارة الأرض ، ولن تكون أبدًا من الشعوب المتخلفة ، لأن مكارم الأخلاق تتناقض أَشَدَّ التناقض مع التخلف ، والثانية قوله : « وعَفَافُ الطعمة » ، والطعمة التي بها قوام الحياة هي التي يَبْذُل المرء نفسه في طلبها في حياته كلها له ولمن يعول ، وعفافها يعني إبعاد الإنسان الساعي في طلبها عن كل ما يعكِّر هذا العفاف ، وأنه يسعى في الأرض بعفاف ، ويَمْشِي في مناكبها بعفاف ، ويطلب عطاء الله ورزقه من هذه الأرض بعفاف ، فلا غش ، ولا كذب ، ولا نفاق ، ولا أي شيء يخدش المروءة ، وإذا كان هذا في سعيه وعمله فعل مثل ذلك في قوله وحديثه ، ولاحظ أن لسان الكريم ابن الكريم عبد الله بن عمرو بن العاص يقدم الصفة على الموصوف ، فيقول : حسن الخليقة وهو يريد الخليقة الحسنة ، ويقول : عفاف الطعمة وهو يريد الطعمة العفيفة ، ويقول : صدق الحديث وهو يريد الحديث الصادق ، وذلك لتأكيد أن المقصود من هذه الخلال هي صفاتها وإنما يقدمون الذي بيانه أهم وهم بشأنه أعنِي كما قال أهل الوعي والبصيرة والنفاذ ، ولم أفهم من حفظ الأمانة أن المراد به فقط أنه يؤدي إلى الناس أماناتهم التي استودعوها عنده ، وإنما أفهم أن أسرار الناس عنده أمانة ، وستر الناس وما عساه أن يكون رآه من عوراتهم عنده أمانة ، وأن العلم عنده أمانة ، وأن حفظ أمانة العلم أن يُعلّمه للناس ، بل إن دين الله عنده أمانة ، وإذا أعطيت هذه الأربع لا يضرك ما فاتك من غنى لأنك ستكون أغنى من الذي في يده مفاتيح قارون ، ولا يضرك ما فاتك من سلطة لأنك ستكون أكرم من الذي ملك ولو ملك ملك



فرعون وهذه الأنهار تجري من تحته ، وهذا كما ترى كلامٌ جيد جداً ، ونشره في الأمة أجود ، ووَضْعُه في طريق الجيل الجديد أجود وأجود ، ووَضْعُه من أمامه ومن ورائه ومن فوقه ومن تحته أجود من كل أجود ، وليس لنا طريق للتخلص من التخلف والفقر والحاجة إلا هذا ، والذي لا يجد في هذا ليس بعيداً عن الذي يتولى يوم الزحف ، وأي قيادة سياسية لا تقوم وتقعد بهذا فهي ليست أهلا للقيادة .

روى ابن قتيبة عن سعيد بن العاص بن أمية قال : « كنت عند ابن عباس فأتاه رجل فمتَّ إليه برحم بعيدة فلان له . وقال : قال رسول الله ﷺ اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم ، فإنه لا قرب بالرحم إذا قطعت وإن كانت قريبة ولا بعد لها إذا وُصِلت وإنت كانت بعيدة » .

راجع هذه الفاءات الثلاث : « فأتاه رجل فمتَّ إليه فَلانَ لَهُ » وكيف أوقعها مواقعها لسان حفيد عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، ولاحظ أن جده أمية ابن عم عبد المطلب وأن أباه العاص ابن عم العباس ، ولا يخدعنك التشهير ببني أمية فَتَنْسى صلتهم ببني هاشم الذي هو أخو عبد شمس ، والمهم أن هذه الفاءات آذنت بتلاحق ما دخلت عليه من أفعال ، وأنه ما إن أتاه حتى مَتَّ إليه برحم بعيدة ، وما إن متّ إليه بهذه الرحم حتى لانَ له ابنُ عباس ، وليس المقصود الأهم معرفة تتابع الأفعال وإنما المقصود الأهم معرفة ما في النفوس من دوافع تتابعت لها الأفعال ، أعني معرفة ما في نفس هذا الرجل من دافع تعريف ابن عباس بقرابته منه ، فما إن أتاه حتى متَّ إليه بهذه القرابة ومعرفة ما جرى في نفس ابن عباس لما عرف هذه القرابة ، وأنه ما إن عرفها حتى لان له وتعاطف معه وأظهر له مَسَرَّته وغبطته بهذه القرابة ، ثم إن ابن عباس لم

يكتف بأنه لان له وإنما بادَرَه أيضًا بوصية رسول الله به وبكل من كان على حالته من ذوي الأرحام البعيدة ، وقول رسول الله ﷺ «اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم» من الكلام الذي هو فوق كل كلامنا ، وهو عليه السلام سيدنا وكلامه سيد كلامنا ليس لأنه أفصحنا فحسب وإنما لأن كلامه وحي الله إلينا ، وجملة «اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم» هي الجملة الأم في الحديث والذي بعدها شرح لها ، وكلمة «تصلوا أرحامكم» الواقعة جواب الأمر هي المقصود من هذا الأمر ، فليس لمعرفة الأنساب غاية إلا صلة الأرحام ، فمعرفتي لنسبي من جهة والدي يوجب عليَّ أن أصل قرابتي من جهة والدي وإن بعدت ، فأصل الأعمام وأبناء الأعمام وإن بعدوا ، وليس فقط أن أصل قرابة والدي وإن بعدت ، وإنما أيضًا أن أصل ما وصل والدي وكانوا أهل وُدْ ، وإن لم يكونوا من نسبه ، وأن أعرف نسبي من جهة أمي فأصل خالاتي وأخوالي وإن مَتُّوا إلى أمي بنسب وإن بَعُدَ ، ولا أقول لك إن هذا يعني إشاعة الحب والتراحم بين الناس فحسب وإنما مَنّ الله بمنّ أكبر وأعلى وأجل ، وذلك أن الأبرار الذين هم في عليين على الأرائك ينظرون هم الواصلون لأرحامهم ، قال محارب بن دينار : إنما سُمُّوا أبرارًا لأنهم بَرُّوا الآباء والأبناء ، وكما أن لوالدك عليك حقًّا فكذلك لولدك عليك حق ، ونحن جميعًا ندعوا الله أن يتوفانا مع الأبرار ، والبر بالآباء الذي يكتمل ببر أهل برهم لا يجعلنا مع الأبرار وإنما يجعلنا أبرارًا ، وفرق بين أن تكون منهم وأن تكون معهم ، والتدبر في نعم الله وعطاياه يَزيدُكَ حُبًّا وقُرْبًا وصِدْقًا وإخلاصًا لله ، والذي هنا من هذه النعم هو أن برك بوالدك وبولدك وهما من دوافع الفطرة ، ولا تستطيع أن تتخلى عن البر بهما ترى ربك بهذا البر يمُنُّ عليك ويجعلك من الأبرار الذين هم في عِلّيّين على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، كما أن الدرهم الذي تنفقه على ولدك أكثر

أجرًا من الدرهم الذي تتصدَّق به على يتيم ذي مقربة أو مسكين ذي متربة ـ وقوله ﷺ : «فإنه لا قرب بالرحم إذا قطعت ، وإن كانت قريبة ، ولا بُعْد لها إذا وُصِلَتْ وإن كانت بعيدة» وهذه المقابلة التي جاءت عفوًا في كلامه ﷺ وكأن المعنى فرضها وجاء بها هي مقابلة كاملة تجد لا قرب بالرحم في الأولى تقابل ولا بعد لها في الثانية ، وإذا قطعت في الأولى تقابل إذا وصلت في الثانية ، وإن كانت قريبة في الأولى تقابل وإن كانت بعيدة في الثانية ، ووضوح هذه المقابلة يعني مزيد التوضيح للجملة الأم التي هي «اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم» وأن قيمة معرفة الأنساب هي صلة الأرحام ، وأن هذه الصلة إن قطعت ذهبت الرحم وإنت كانت قريبة ، وإن وصلت بقيت الرحم وإن كانت بعيدة ، ثم إن هذه المقابلة تهمس في أذنك همسًا آخر خفيًّا وهو أن الله ـ سبحانه ـ يصل من وصلها ويقطع من قطعها ، وأن لك أن تختار قطعها فيقطعك الله وأن تختار وصلها فيصلك الله ، وحسبك ذكر كلمتي قطع ووصل الواردتان في الحديث القدسي : «أترضين أن أصل من وصلك وأن أقطع من قطعك» ، وتَنادي الكلمات في البيان حقيقة ولو قلت إنه ليس من باب المجاز لقبلت ذلك منك ، وخصوصًا تنادي كلمات سيدنا رسول الله لنفس الكلمة الواردة في كلام الله ، وخصوصًا إذا قلنا إن قوله ﷺ : «اعرفوا أنسابكم تصلوا أرحامكم» إنه من قوله تعالى في الحديث القدسي أصل من وصلك وأقطع من قطعك ، وقد تَلَقَّف الشعر معنى هذه المقابلة ، وقال الشاعر :

فإذا القرابة لا تُقَرِّبُ قاطعًا ... وإذا المودّةُ أقرب الأنساب

والشطر الأول هو قوله ﷺ : «لا قرب بالرحم إذا قطعت» ، والشطر الثاني هو قوله ﷺ : «وإذا المودة أقرب الأنساب» .

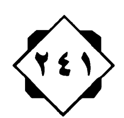
إذا أحب أحدكم أخاه فَلْيُعْلِمْهُ أنه يحبه

ومما هو من عائلة معاني هذا الحديث قوله عليه السلام : « إذا أحب أحدكم أخاه فلْيُعْلِمْه أنه يحبه » وراجع عناية سيدنا عليه السلام بإعلام أخيك أنك تحبه ، جاء بلام الأمر في قوله « فليعلمه » ثم أكد هذا الإعلام بإنّ المؤكدة التي هي أم باب التوكيد ، وأسأل عن القيمة التي قصد إليها رسول الله ﷺ من وراء إعلام أخي أنني أحبه ؟ وكان من الممكن أن أكتفي بأنني أحبه ، وإنما الغاية هي أن يشيع التحاب بينكم ويشيع التراحم والتواد بينكم ، لأن حياتكم تطيب بالتحاب والتراحم ، وتكدَّر وتنكد بالبغضاء وإشاعة البغضاء والحقد والانتقام ، والحب والتراحم لا يسكن إلا في النفوس الطيبة ، والحقد والانتقام ومطاردة الناس بالخَسْف والعَسْف لا يكون إلا في النفوس الخبيثة ، واحرصوا على أن تكونوا من ذوي النفوس الطيبة ، واحذروا أن تكونوا من أهل الحقد لأنهم هم أهل الخساسة والدناءة ، ويدخل في هذا المعنى قول سيدنا عليه السلام في الحديث المرفوع : « من لم يقبل من مُعْتَذِرٍ صادقًا كان أو كاذبًا لم يَرِدْ عليَّ الحوض » أرأيت الحرمان من ورود حوض رسول الله ﷺ لأنك لم تقبل عذر من اعتذر ولو كان كذابًا في هذا الاعتذار ، وهل رأيت رسول الله ﷺ يدعونا لقبول الكذب في غير هذا الباب الذي يزيل فيه الكذب سخائم النفوس ، ويلزمها إلزامًا بقبول اعتذار الكذاب ، وإذا لم تفعل فلن ترد على رسول الله ﷺ الحوض ؟ ولم يُصب الشاعر الذي قال :

وقد يَنْبُت المَرْعَى على دِمَنِ الثَّرَى ... وتَبْقَى حزازاتُ النفوسِ كما هِيَ

وأصاب وأحسن الذي قال :

إذا امرؤٌ من ذَنْبه جاء تائبًا ... إليك فلم له تَغْفِرُ فَلَكَ الذَّنْبُ



وكان ابن قتيبة أحيانًا ينقل بَيْتَ شعر ويكتفي به لأن فيه معنى يريد ابن قتيبة أن يصل إلى القارئ لأنه لم يكتب في علم من العلوم وإنما ينتقي ويختار ما يوقظ العقول وما يصقلها وما يرتقي بها ، لأن هذا الصقل وهذه اليقظة هي السبيل إلى الإصلاح والتقدم وعمارة أرضنا وزيادة قواتنا ، والجهل والغفلة هما حَضَّانة التخلف ، وقد رأيت ابن قتيبة ينقل نصف سطر من كلام أفلاطون وفي نصف السطر هذا فائدة لا يحاط بها ، قال ابن قتيبة : قيل لأفلاطون بماذا ينتقم الإنسان من عدوه ؟ فقال : بأن يَزْدَادَ فضلاً في نفسه . وإذا سألتني عن علاقة جواب أفلاطون بسؤال السائل لا أجد لك جوابًا إلا أن يكون أفلاطون أجاب من خلال فكره وفلسفته التي تعاف الانتقام والمنازعة وتدعو إلى التسامح والتحاب والتَّرَاضِي ، وكل ما هو أشبه بما سماه الناس بعد أفلاطون « المثل الأفلاطونية » وهي مثل عليا ترى زيادة الفضل بدل المنازعة والانتقام ، ومعنى أن تزداد فضلاً يعني أن تزداد عِلْمًا ، وفكرًا ، وسُمُوًا ، وتَعالِيًا ، ونظرًا ، وتدبرًا في كل ما هو خير ، وأن تزداد بعدًا عن كل شر ، وإذا قلت لي ما هو الفضل الذي كان يزداد منه أفلاطون ، قلت لك هو كل تراثه الفكري والأخلاقي والفلسفي ، وقد عاش أفلاطون كما عاش غيره من علمائنا زمَانًا كله منازعات واستبداد واستعلاء ، حتى إن أفلاطون وكان شاعرًا طلب منه الملك أن يمدحه بقصيدة فرفض لأن الملك ما كان يستحق أن يمدح ، وقالوا إن الملك أمْسَك به وباعه في سوق الرقيق فنهض رجل يعرف قدر أفلاطون واشتراه وأعتقه ، وقد قرأت هذا في تاريخ هذا الفيلسوف الذي لم أعرف أكرم نفسًا وخلقًا وعلمًا منه في زمانه من أهل مِلّته ، وأنه واحد من أكرم ولد آدم عليه السلام ، وكان زمنه قبل زمن المسيح بخمسة قرون ، وكأنه كان بِفكره ومُثُله الأفلاطونية يروم أن يجعل الأرض جَنّةً وليس فيها الشجرة التي أغْوَتْ أبانا آدم فأكل منها وعَصَى آدم ربه

فغوى ، وتعجب حين ترى هذا المفكر الرائع يعيش في زمن هذا الملك الغبي الجاهل ، ويبتعد عن السياسة وينقطع للذي انقطع له لأنه وجد أن منازعته لهذا الملك الجاهل سَتَعَوّقُ مسيرته التي ارتضاها لنفسه ، ولن تغير شيئًا في سياسة هذا الجاهل ، ورأيت نظائر ذلك في حياة مالك والشافعي وسيبويه وغيرهم من صناع العلم ، وأنهم عاشوا أزمنة كلها صراع سياسي ، ورأوا أن دخولهم فيها لن يصلح منها شيئًا فانقطعوا للعلم وأفادُوا شعوبهم ، ومن العبث الضار في حياتنا أنك تجد كفاءات علمية تُهْدرَ وتُضيّع لدخولها في منازعات مع السلطة من غير أن تغير في السلطة مثقال حبة من خردل ، لأن السلطة ما دام في يدها القوة فلن تَلْتَفِتَ إلى الحجة ، وخصوصًا في الدول التي لا صوت فيها للشعوب ، وكل الذي أحاوله ويحاوله غيري هو إيقاظ الأجيال القادمة وزيادة وعيها وزيادة علمها حتى يكون لها صوت في إدارة شؤونها ، ولا تترك أمرها في يد أحد كائنًا من كان ، وهذا شأن الشعوب المتقدمة التي أحرص أشد الحرص على أن يكون شعبنا منها ، ولن يكون شيء من ذلك إلا بأن يقرأ الناس وأكثر الشعوب قراءة هو أكثرها تقدمًا ، ثم إن القراءة تعني زيادة في إنسانية الإنسان ، وإهمالها يعني زيادة في حيوانية الإنسان ، فلا يجوز أبدًا أن نعمل على زيادة حيوانيتنا ، وإنما الواجب أن يعمل كل منا على زيادة إنسانيته رجلاً كان او امرأة .

والآن أنتقل إلى ما قاله ابن قتيبة في :

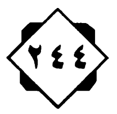
* * *

كتاب الحوائج

ولن ألتفت إلى كلام أصحاب الحوائج ولطف خطابهم لمن يتوجهون إليهم راغبين في قضاء حوائجهم ، لأن هذا لا فائدة منه ، والقيمة في أن نَتَبَيَّن حوائج الناس الذين كتب ابن قتيبة كتابًا في حوائجهم ، وأن تكون معرفة حوائج الناس نافذة تُطِلُّ منها على الذي كان في صدور الناس ويرغبون فيه ويتطلَّعون إليه .

وكتاب الحوائج ليس ككتاب الطباع والشرف والسؤدد ، لأن الطباع يشترك فيها الناس وكذلك الشرف والسؤدد لأنهم مُتَّفِقُون على المعاني التي يكون بها الإنسان شريفًا ، والتي يكون بها الخسيس خسيسًا ، والحوائج ليست كذلك لأنها متغيرة تَغَيُّرًا شديدًا بحسب الأحوال والأزمان ، فحاجة الناس في وطن مستقر وقادر على حماية ترابه وناسه وحاضره ومستقبله ليست هي حاجة الناس في وطن اعتدى عليه عدوه وداس أرضه واستعمره وأذل ناسه ونهب خيراته ، لا ترى مواطنًا يعيش على هذه الأرض إلا وحاجته الأولى والأخيرة هي أن يُطَهِّر بلاده من هذا الاحتلال وهذا العدوان ، ونجد إصراره الأكيد على هذه الحاجة مهما كان ضعفه ، ومهما كانت قوة عدوه ، واقرأ جهاد الشعوب في تحرير أوطانها ، لترى أن الناس كلهم في ذلك سواء لا فرق بين جاهل ومتعلم وغني وفقير ، الكل يقوم ويقعد وليس له همٌّ إلا تحرير تراب وطنه ، وكأن أبا العلاء لما قال :

صاحِ خَفِّف الوطءَ ما أظُنّ أديمَ ... الأرضِ إلا مِنْ هذه الأجْسَادِ



قال حقيقة وليس ظنًّا ، وقيمة تراب الأوطان عند من وُلِدَ عليها وعاش عليها وكان سعيه وعيشه عليها ومنها كأن هذا التراب هو جسد آبائه وأجداده ، وكأنه مع آبائه وأجداده وهو يغدو عليه ويروح ، وكأن جسد آبائه هو الذي ينبت له الحب والزرع وما يعيش به ، والذي قال :

وما حُبُّ الديارِ شَغَلْن قَلبَي ولكن حُبُّ من سَكِن الديار

لم يَعْنِ مَنْ سكنها وهم لا يزالون أحْيَاء وإنما من سكنها قبلنا من آبائنا وأجدادنا ، واخلع الشعر من سياقه الضيِّق الذي يراد به الصاحبة ، وافهم الشعر بسياقه اللغوي المتسع ، وكنت وأنا أقرأ تاريخ مصر زمن الاستعمار الفرنسي أو الإنجليزي ، أرى وَلَع كل مصري بالمشاركة في تحرير تراب مصر ، حتى إنني كنت أقرأ أن مواطنًا ينادي في الحيّ الفلاني ويقول لأصحاب الحيّ إخوانكم في حَيٍّ كذا مشتبكون مع الفرنسيين فلا يبقى في الحي بعد هذه الكلمة قادر على الجهاد إلا انتقل إلى إخوانه المشتبكين مع المستعمر ، أقول حوائج الناس في مثل هذا الوطن ليست كحوائج الناس الذين كتب عنهم ابن قتيبة ، والدولة غالبة وحامية لأرضها وترابها وأحيائها وموتاها ، وهكذا قُل إن حاجة الناس في بلد مُتخلِّف غلبه الجهل وغلبته الحاجة وانتشر فيه الظلمُ والقهرُ ، واشتُهِرتْ فيه الغَطْرسة وتَسَلَّط الأقوياء على الضعفاء ، ليست حوائجهم كحوائج غيرهم ، وإنما حاجتهم إلى العلم والتقدم والثروة والعدل والإنصاف ، والمهم أن يشغل الناس كل الناس بهذا الشأن العام ، لأن أي تغيير لن يَحْدُث في أي شعب بإرادة القيادة السياسية ولا بإرادة النخبة ، وإنما بإرادة الشعب كل الشعب ، لابد أن تغلب إرادة الخروج من التخلف على كل إرادة ، وأن يعزم الكل وأن يعمل الكل ، ولا يمكن حَشْدُ الشعب كله نحو غاية وطنية واحدة إلا إذا أيْقَظَته وعلَّمته ونشرت فيه الوعي والعلم واليقظة ، وأصَرَّ الأستاذ في كلية

الطب أن يخرّج جيلاً أفضل منه ، وأصَرَّ الأستاذ في كلية الهندسة أن يخرج جيلاً أفضل منه ، وانْعَقَدَ عزم الكل على هذا ، واستشعر الجيل الجديد هذا ، وأن أساتذتهم يريدون منهم أن يكونوا أكثر تفوقًا وامتيازًا ووعيًا منهم ، وإلا ضاعت البلاد وخصوصًا أن على حدودها الشرقية أشدُّ الناس عداوة لها ، والذي أخبرنا بذلك هو خالقنا ـ جل وتقدس ـ ، وتعجب للجملة القرآنية التي فيها هذا الإخبار وأوَّلُ شيء فيها أنها أول جملة في أول جزء وهي قوله تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ﴾ (المائدة:٨٢) . ويدهشك أن الحق ـ جل وتقدس ـ الذي ليس كمثله شيء يقسم لنا ولام القسم هي أول ما يجري به اللسان ، ثم يُتبعُ ذلك بنون التوكيد الثقيلة وهو أول الجزء السادس واسمه لَتَجِدنَّ ، وَوُضِعَ هذا القسم عنوانًا للجزء ليكون ذلك شائعًا بينكم ، ولو صانعهم منا ألف هَلْفوت وألْفَ نَدْل فلن يغير من الأمر شيئًا لأن كلمة الله لا تمحوها الأجيال كلها ، قلت إن الجيل القادم لابد أن يكون أفضل منا ، ولن تحفظ أرضنا إلا إذا كان حفظها أول الأوليات ليس عندي ولا عندك ولا عند الساسة وإنما عند كل مواطن ، ومن الجهاد ضد أشد الناس عداوة لنا هو أن أُلِحَّ في تنبيه الجيل الجديد إلى خطره ، وأن أُلح في تنبيه الجيل الجديد إلى أن جهاده لا يكون إلا بعلم فوق علمه ، وصناعة فوق صناعته ، وسياسة فوق سياسته ، واقتصاد فوق اقتصاده ، واحتشاد فوق احتشاده ، وليس في هذا أي صعوبة لأنه كله يمكن أن يتم بسرعة شديدة مع الوعي والإصرار والعَزْم القاطع ، ويعلم هذا العدو الأشد أن الذي سيقضي عليه هو هذا الشعب ، ولا أشك في أن هذا الأشد عداوة وكل من وراءه يحاولون بكل وسيلة ألا تقوم لبلادنا قائمة ، ويشغلونها بأنفسها وبقضايا داخلية حتى تقول إن عدوها من داخلها وتشغل بذلك عن العدو الأشد ، ثم إن الدول المجاورة لفلسطين المحتلة كلها مشغولة

بنفسها ، فالشعب السوري منقسم على نفسه وفي تنازع ، والشعب العراقي منقسم على نفسه وفي تنازع ، والمحاولة الآن أن ينقسم الشعب الإيراني على نفسه ويُصْبِحُ في تنازع ، واعلم أنني لما راجعت باب الحوائج في «عيون الأخبار» ولم أجد حاجة واحدة عند أي مواطن تتعلق بالشأن العام فكرت أن أتجاوز هذا الباب ثم رأيت أن أكتب في حوائجنا ، ويقيني أن تكون حوائج كل واحد يعيش على أرضنا هي هذا الشأن العام ، وأن من كان يكتب عنهم ابن قتيبة كانوا أبناء خلافة ليس في الأرض دولة تنازعها ، لا في قوتها ولا في سياستها ، ولا في علمها ، ولا في صناعتها ، ولا في اقتصادها ، حتى إنهم جاء عليهم وقت لم يجدوا فيه أحدًا يستحق مال الزكاة ، لأن الكل كان في غنى وليس فيها فقير ولا مسكين ، والذي نحن فيه مختلف كل الاختلاف ، ولا خلاص لنا مطلقًا مما نحن فيه إلا بأن يَعْزِمَ الكل وأن يحتشد الكل وأن يعمل الكل على تقدم البلاد ونهضة البلاد ، وليس هذا بعيد المنال ، وفينا علماء ويمكن أن يزيدوا ، وفينا صناع جيدون ويمكن أن يزيدوا ، ولابد أن نُصِرّ على أن نُصَدِّر ، ولابد أن نصر على ألاَّ نَسْتَوِردَ ، ولا تظن أن هذه أحلام ، ولو كانت أحلامًا فلا شك أن العزم والإصرار يحوِّل الأحلام إلى حقائق ، وقد بدأت البلاد إعداد نفسها للنهضة الواجبة لما فرضت التعليم الإلزامي حتى لا يكون فينا من لا يقرأ ولا يكتب ، وبذلك يُعدّ الشعب للقراءة التي هي الطريق الذي ليس له طريق سواه ، وكنت وأنا أقرأ شعر هذيل أقف عند مُشْتَار العسل وهو يكابد المشقات في صعوده إلى الشَّهْدةِ ، وتَدْمَي قدماه وهو مصر على أن يصل إلى الشهدة أو يموت ، وكان يعجبني هذا جدًّا ، وأقول لسنا في حاجة إلا إلى عزيمة هذا الهُذَلي ونُصرّ على أن نصل إلى ما نريده لنحيا الحياة الأفضل ، ولا نموت وقد زرع الله ـ سبحانه ـ حب الأرض في فطرة الناس ، حتى إن

الموتى حين يُخْرجون من قبورهم يقولون يا ويليتنا من بعثنا من مرقدنا ، وكأنه حَنَّ إلى مرقده ، ولا أعرف إنسانًا سليم الفطرة لا يشغل بشأن بلاده ، ليخرجها من التخلف إلى التقدم ، ومن الظلمات إلى النور ، وهذه هي الفطرة وهذا هو الدين ، ومن الجهل أن تتهم أحدًا بعدم حبه لوطنه .

شرف سؤال الكريم

ومما ذكره ابن قتيبة في باب الحوائج أن كثيرًا من الناس كانوا يسألون الكرام وهم في غنى عنهم وعن أموالهم ، ولكنهم كانوا يعتقدون أن سؤال الكريم شرف وأن قَبُولَ عطاياه شَرَفٌ ، وقال أبو تمام : رأيت سؤالاً يَجْتَنِي شرفًا ، وحَمِدَ المنصور أمرًا من رجل كريم وطلب منه المنصور أن يسأله حاجته فقال له : يُبقيك الله يا أمير المؤمنين، قال المنصور سَلْ فليس يمكنك ذلك في كل وقت، فقال الرجل : ولِمَ يا أمير المؤمنين فوالله لا أسْتَقْصِرُ عمرك ، ولا أرْهَب بُخْلك ، ولا أغتَنِمُ مالك ، وأن سؤالك لَزَيْن ، وإن عَطَاءَكَ لشَرَف ، وما على أحد بذل وجهه إليك نقص ، ولا شين ، فأمر المنصور بحشو فمه من الدر ، ولاحظ كيف يعتذر عن قبول عطية المنصور ، وهو يقول له إن سؤلك لزين ، وإن عطاءك لشرف ؛ ثم يحفظ لمن يسألون المنصور حرمتهم ويقول ، وما على أحد بذل وجهه إليك نقص ولا شين ، ثم إن المنصور لما أمر بحشو فمه من الدر كأنه يقول لنا ليس هذا عطائي له لما سألته أن يسألني حَاجَته لأنه اعتذر عن قبول هذا العطاء ، وإنما عطائي له لأدبه العالي ولغته العالية وفطنته وبراعة عقله ، لأن البلاغة التي في لسانه إنما وافته من أقاصي قلبه وعقله ، وراجع الكلام وتقصَّى مَنبَعه ومخرجه ، وتتبع لا النافية الداخلة على ثلاثة أفعال والمسبوقة بالقسم وقف عند كل فعل منها ، وراجع أصله في نفس الرجل ووقعه

على نفس المنصور ، ثم راجع الأسلوب الجديد الذي جاء عكس الأول ، لأن الأول نَفْيٌ والثاني توكيد ، وهما كاليمين والشمال وخلف وقدام ، ثم كيف ختم بجملة هي جامعة لكل ما قبلها وتزيد ، وليس في الفضل أفضل من أن يكون سؤالك زين ، وما على أحد بذل وجهه إليك نقص ولا عيب مع أن بذل الوجه من أشد عيوب النقص وأشد عيوب الشين ، والغريب أن كلام أهل البيان الخلص تجد فيه تلاؤمًا شديدًا بين المعني والمبني ، وهذا التلاؤم يظهر في كلامهم أكثر مما يظهر في كلام غيرهم ، راجع مرة ثانية التشابه الذي بين الجمل الثلاث المنفية بلا ، والجملتين بعدهما المؤكدتين بإن ، وأسرار البيان لا تعطيك بعضها حتى تعطيها كلك ، لأنها من العلم المضنون به على غير أهله .

السعي في قضاء الحاجات

وذكر ابن قتيبة حكاية رجل من الذين خُلِقُوا من رحمة الله ، وبرحمة الله ، ولرحمة الله ، وهم المولعون بقضاء حوائج الناس ، وأخشى أن تمل قولي راجع وهي تتسلط عليَّ في كل ما أفكر فيه ، وأنا هنا أقول لك راجع كيف يفتح الله أبواب رحماته كلها لمن يَقْضُون حوائج الناس ، مع أن قضاء حوائج الناس ليس صلاة ولا صيامًا ولا زكاة ، راجع مرة ثانية لترى كيف تكون علاقاتنا التي ترضي ربنا والتي يدخلنا بها في رحمته ، قال ابن قتيبة : عن إبراهيم بن السندي قال : قلت في أيام ولايتي الكوفة لرجل من وجهائها ، كان لا يَجِفُّ لِبْده ولا يستريح قَلْبُه ولا تسكن حركتُه في طلب حوائج الرجال ، وإدخال المرافق على الضعفاء ، وكان رجلاً مفوَّهًا ، خَبِّرني عن الشيء الذي هوّن عليك النَصَبَ ، وقوَّاك على التعب ما هو ؟ قال : قد والله سَمِعْتُ تغريد الطير بالأسحار في أفنان الأشجار ، وسمعت خَفْق أوتار العيدان ، وترجيع أصوات القيان الحسان ،

ما طربت من صوت قط طربي من ثناء حسن ، بلسان حسن ، على رجل قد أحسن ، ومن شكر حر لمنعم حر ، ومن شفاعة محتسب لطالب شاكر ، قال إبراهيم : لله أبوك لقد حُشيت كَرَمًا فزادك الله كرمًا ، فبأي شيء سَهُلَتْ عليك المعاودة والطلب ؟ قال : لأني لا أبلغ المجهود ، ولا أسأل ما لا يجوز ، وليس صدق العُذْر أكْرَه إليَّ من إنجاز الوعد ، ولست لإكداء السائل أكره مني للإجحاف بالمسؤول ، ولا أرى الراغب أوجب علي حقًا للذي قدّم من حسن ظنه ، من المرغوب إليه ، قال إبراهيم : ما سمعت كلامًا قط أشدَّ موافقة لموضعه ولا أليق بمكانه من هذا الكلام» انتهى ما نقله ابن قتيبة ، وأول ما يفهم من هذا أن ترى أنك مع صانع المعروف المفرط في حبه لصناعة المعروف لخلق الله ، والذي يَفْعل ذلك في صمت ولم يحدث عن نفسه ، وأنك مع رجل آخر هو وال من ولاتنا وكأنه عَيْن من عيوننا تتعرف على كرامنا وتقاربهم وتُقرِّبهم وتحدثنا عنهم ، ثم ترى أن صانع المعروف هذا لم يَنْقَطِعْ في تاريخ الأمة ، وسواء كان معروفهم من باب قضاء الحوائج كصاحبنا هذا ، أو من باب الدعوة إلى الله ، وكلهم يؤدي ما يجب عليه ، ثم ينتقل إلى ربه راجيًا المغفرة والتوبة ، وليس من بينهم من فكر في تكوين جماعة تَنْتَسِبُ إليه وهو مرشد لها لأنهم جميعًا يعلمون أن أي نظام سياسي لا يقبل تكوين جماعات في الأمة ، لأن هذا غالبًا ما ينشأ عنه تفرقها وتنازعها ، وقد نهانا ربنا عن التنازع ونهانا عن فتح أبواب التنازع وحذرنا منه بأنه يبوء بنا إلى الفشل وقال : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْ ﴾ (الأنفال:٤٦) وهو يعلم سبحانه أننا سنختلف ، وقال لكم أن تختلفوا ولكن لا يجوز أن يُفضى بكم الخلاف إلى التنازع ، وعليكم أن تَصْبرُوا وأن يَقْبل بعضكم بعضًا مع هذا الخلاف ، والجامع لكم والذي به عَقْدُ اجتماعكم هو الصالح العام ، ومصلحة البلاد ، والعباد ، وتقدم

البلاد والعباد ، وهذا من طاعة الله ورسوله ، قلت إن صانع المعروف هذا صنع ما صنع في صمت وحب وتراحم واحتساب ، وحدثنا عنه الوالي ، ولو كوّن جماعة وجعل نفسه مرشدًا لها وجعل لها بَيْعة له لكان أول من يتصدّى إليه هو إبراهيم السندي ، لأني لم أعرف ولم يعرف غيري في التاريخ أن داعية بلغ ما بلغ منذ الحسن البصري كوَّن جماعة تعرف باسمه وهو مرشدها ، ولو فعل الدعاة ذلك لرأيت أننا في جماعات تنتسب إلى كرام الدعاة لا حصر لها ، واعلم أني لم أكتب هذا إلا في آخر كتبي وأرفضه من أول حياتي ، ولم أكتب رفضه وإنما كتبته الآن لأني أخشى أن ألقى الله وفي صدري كلمة من الصواب لم أكتبها لأُمتي ، وأذكر بما قاله الشافعي : « الذي أراه صواب يحتمل الخطأ والذي لا أرضاه هو عندي خطأ يحتمل الصواب » ولنعد إلى ما قاله السندي لهذا الكريم وما رد به الكريم عليه ، وأول شيء تراه هو قول إبراهيم بن السندي « من وجهائها » يَعْني أن هذا الرجل لم يقصد بعمله هذا أن يكون من الوجهاء لأنه من الوجهاء ، وقد ذكرها إبراهيم ليُهيِّئَ نفسك إلى معرفة ما سَكَنَ في نفس هذا الكريم الرائع ، ثم وَصَفَهُ إبراهيم بأنه « لا يَجِفُّ لِبْدُه ولا يستريح قلبُه ولا تسكن حركته » ولا يجف لبده يعني دوام عرق فرسه ، واللبد ما يكون تحت السرج ، وعرق الفرس من دلائل كرمه فهو كريم لا يجف لبد فرسه الكريم من سَعْيِهِ في قضاء حوائج الناس ، ولا يستريح قلبه لأنه مهموم دائمًا بقضاء حوائج الناس ، ولا تسكن نفسه إلا إذا سكنت نفوس من يَسْعى في قضاء حوائجهم ، وهذا بيان بارع من هذا الوالي الكريم الذي هو نعم الوالي ، وجملة وادخال المرافق على الضعفاء بعد جملة قضاء حوائج الناس ، تشعرك بتَعَاطُفِ هذا الوجيه مع جماعة الضعفاء من حوله ، وأنه حَفِيٌّ ، ومعنيٌّ بأن يُدْخل عليهم ما يَسُرُّهم ، وهذه هي الوجاهة الحقيقية وليست الوجاهة المستعلية

والمُتَغَطْرِسة ، ثم وصفه إبراهيم بأنه كان مُفَوَّهًا يعني فصيحًا ، وأن البلاغة والبيان العالي من لوازم الوجاهة ، ولن تجد وجيهًا كريمًا عَيِيًّا ، لأن كل هذه صفات مُمْسِكٌ بعضها ببعض ، حُبُّ مصالح الناس ، وإدخال الخير على الضعفاء ، والوجاهة ، والفصاحة ، كلها عائلةٌ واحدة ، كأنها أسرة واحدة ساكنة في قلب الكريم ، وسأله إبراهيم الذي رأى تَعَبَهُ وأنه لا يستريح قلبُه ولا تَسكُنُ حركته ، سأله عن الذي أغراه بهذا فقال في الجواب : « قد والله سمعت تَغْرِيدَ الطير بالأسْحَار في أفْنَانِ الأشجار ، وسمعت خَفْق أوتار العِيدَان وترجيع أصوات القيّان الحسان ، ما طربت من صوت قط طربي من ثناء حسن ، بلسان حسن ، على رجل قد أحسن ، ومن شكر حُرٍّ لمنعم حُرٍّ ومن شفاعة محتسب لطالب شاكر » ونقلت هذا كاملاً لأنه ممسك بعضه بأعناق بعض ، وكاشف عن الشيء الذي جعله لا يجف لِبْدُه ولا يسكن قلبه إلا بفعله ، ولاحظ أن قول إبراهيم السندي وكان رجلاً مُفوها إنما قاله لما سمع منه هذا ، وكان قوله وكان رجلاً مفوها مقدمة لحكاية هذه الفصاحة ، ولاحظ النشوة التي داخلته وهو يحكي قصة نفسه مع مزاولة هذا الأمر الذي عاش يُزاوِله ، لاحظ السجع الذي فَرَضَهُ ما يجده في نفسه في قوله تغريدِ الطير بالأسحار في أفناء الأشجار ، واختيار التّغْريد بدل الغناء ، وكأن الطير الذي يغرد في الأسحار على أفنان الأشجار قد اعترته النشوة ، والطربة فدعا الناس إلى سماعه فسمعه من سمعه واعترَتْهُ النشوة والطربة ، ومنهم هذا الرجل ، وراجع كلمة « خفق أوتار العيدان » وأن الأوتار لها قلوب تخفق عند سماعها ، ولم يقل الرجل الكريم هذه الكلمة إلا لمَّا خفق قلبه لأوتار العيدان ، وقل مثل ذلك في ترجيع أصوات القيان ، ولو لم يلامس هذا الترجيع قلبه لقال وسمعت أصوات القيان وإنما كل هذا داخل قلبه ومازج نفسه ، ثم سمع الثَّناء الحسن بلسان حسن على رجل قد

أحسن فَغَلَبَ هذا الصوت كل هذه الأصوات ، وجَعل سعيه وكدَّه في طلب الثناء الحسن بلسان حسن على رجل قد أحسن ، وأراد أن يكون هو هذا الرجل الذي قد أحسن ، لأن تغريد الطير وأوتار العيدان وترجيع أصوات الحسان كل ذلك لم يكن وراءه الذي وراء الثناء الحسن باللسان الحسن على رجل قد أحسن ، لأن الذي وراء ذلك هو إدخال السرور على قلوب الضعفاء ، وهذا هُوَ بَيْتُ القصيد عند هذا الوجيه الكريم صاحب القلب الطيب الذي ليس أطيب عنده في هذه الحياة من أن يُدْخِلَ المسرَّة في قلوب الضعفاء . وهذا هو الذي فهمه الوالي الكريم ودفعه إلى أن يقول له لله أبوك لقد حُشِيت كَرَمًا ، ولم يقل له لله درك لأنه أراد أن يقول له أنت كريم وابن كريم ، وأن هذا الكرم الذي حشيت به من كرم أبيك فلله أبوك ولله ما ولد ، ثم انتقل السِّنْدي إلى الذي أعانه على مسيرة الخير التي يعاني فيها ما يعاني ، وما الذي سَهَّلْها عليه ، وهذا السؤال الثاني دليل على أن إبراهيم قد وَعَى مَسَاعِي هذا الرجل المُتسِّعة في الخير ، وأراد أن يبين لنا المعاني والأحوال التي تساعد من يروم منا أن يَسْعَى مَسَعَاة هذا الكريم ابن الكريم ، قال له : « فبأي شيء سهلت عليك المعاونة والطلب» ولاحظ ذكاء السؤال لأن إبراهيم لم يكن أقل مروءة ولا ذكاء من صاحبه الذي حُشي كرمًا ، يقول له كنت بين اثنين ضعفاء يطلبون حوائجهم ، وإدخال الخير لهم ، وبين رجال موسرين تطلب أنت منهم هذه الحاجات ، وكأن الضعفاء خف عليهم سؤالك وثَقُلَ عليهم سؤال هؤلاء الموسرين ، فما الذي سهَّل عليك الاستمرار ، وقد أصبحت مسؤولاً وسائلاً ، وكلاهما مقلق ومُثير ؟ فقال : « لأني لا أبلغ المجهود ، ولا أسأل ما لا يجوز» وهذه هي الأولى يعني لم أطلب من أحد شيئًا يُجْهده ، ولا يتخطى في السؤال إلى ما لا يجوز ، وإنما كل أسئلته مقبولة ومعقولة وفي حدود إمكان المسؤول ، وكان يكفي هذا ولكنه أضاف أن بعض

من يسألهم كانوا يعتذرون ، وأنه بحكمته ورجاحة عقله كان عذر من يعتذر عنده كاستجابة من يستجيب ، ولم يُضَايقُه عُذر من يعتذر ، ثم أضاف معنى آخر ، وهو أنه قد يكون بين إكداء السائل يعني عدم تحقيق ما أراده من سؤاله وبين إجحاف المسؤول يعني التضييق عليه وإحراجه حتى يجيب ، وأن إكداء السائل ليس أبغض إليه من الحيف على المسؤول ، لأنه يكره الحيف على المسؤول ولو لم يجب السائل ، وهكذا كانت السهولة وكان أخذه العفو ، ولا يزيد في طلب ما يطلب من الناس عن الأمر بالعرف ، ولا فرق عنده بين من يعتذر ومن ينجز ، ولم يقع في إحراج المسؤول ولو لم يجب السائل ، وبهذا استمر في عمل البر ونجح فيه ، ثم أضاف شيئًا آخر فيه وصف لذات نفسه وحسن تقديره للمواقف وأنه يزنها بميزان دقيق ، وأن الذي يقصد إليه لقضاء حاجة له من ذوي الحاجات له عليه حق لحسن ظنه به ، ولكن هذا الكريم لم يَرَ أن هذا الحق أوجب عليه من حق من طلب منه قضاء هذه الحاجة ، لأنه احتمل طلبه مع ثقل مسؤولياته وتكاليف حياته ، وعبارته الكريمة هي « ولا أرى الراغب أوجب علي حقًّا للذي قدَّم من حسن ظنه من المرغوب إليه الذي احتمل من كَلِّهِ» والكل هو الثقل والأعباء التي ربما كلَّ الناس من حملها ، وأن حق من قصدني لقضاء حاجته ليس أوجب عليّ من حق الذي رضى طلبي وقدّره واحتمل الوفاء به ، وبهذا ترى حقيقة كرم النفوس الكريمة ، وأن الذي قصدني له عليّ حق ، والذي أجابني أيضًا له عليَّ حق ، لأنه إنما أجابني لقدري عنده ، كما أن الذي قصدني ما قصدني إلا لقدري عنده ، وأنا أحفظ لهما ما حفظا من قدري ، ولما سمع إبراهيم بن السندي هذا السَّدَاد في التصرف وهذه البصيرة في وزن الأمور لم يقل له حشيت كرمًا كما قال في الأولى ، وإنما قال : « ما سمعت كلامًا قط أشد موافقة لموضوعه ولا أَلْيَق

بمكانه من هذا الكلام» لأن الإجابة لم تكن حول السؤال ، وإنما كانت إجابة عن حقيقة السؤال ، يعني باللغة التي تعلمناها من علمائنا ، الإجابة مطابقة تمام المطابقة لمقتضى الحال ، ولا شك أن هذا الكريم الذي اكتشفه والي الكوفة له نظائر كثيرة ، كما أن والي الكوفة له نظائر كثيرة ، وهذا من أهم ما تتميز به الأمم المتقدمة ، وأن وجهاءها خدم لضعفائها وليسوا سادة لهم ، وأن ولاتها لهم ولع بخدمة وتقريب هؤلاء الوجهاء الذين رأوهم خدمًا لضعفائهم ، ولم يفكروا في أن يجعلوا هؤلاء الوجهاء مدَّاحين لهم ، وتجد عكس هذا مع التخلف ، ولو قلت لي ماذا كان يعمل هذا الكريم لو كان في زماننا ؟ لقلت لك كان لا يجف لبده ولا تسكن نفسه من دعوة أبناء البلاد إلى ضرورة أن يحتشدوا كلهم عالمهم وجاهلهم وغنيهم وفقيرهم لإخراج البلاد من التخلف لأنه عار ، ولا يهادنه إلا الذي لا يخجل من العار ، وأن يتخذوا كل الوسائل التي تغسل عنهم وعن ترابهم هذا العار ، وإذا كان أشد الناس عداوة لهم على حدودهم الشرقية ، وتفوق في صناعة أداة الحرب التي يقتلهم بها ، فإنه من أوجب الواجبات عليهم أن يتفوقوا عليه في صناعة الأسلحة التي يحمون أنفسهم بها ، وأن يتفوقوا عليه في كل شأن من شؤون حياتهم الاقتصادية والعلمية ، والسياسية ، وليس من الطبيعي أن تجتمع عصابة من كل جنس وكل جهة وأن تقيم بالباطل دَوْلَة على أرضنا ثم تتفوق علينا في أي باب ، قُلْتُ لو أن هذا الكريم في زماننا لرفض كل الذي قبلناه ، ولقال لنا إن إخراج البلاد من الظلمات إلى النور هو أفضل أبواب الجهاد المتاح لنا ، وأن من قعد عنه كان من الذين إذا قيل لهم انفروا في سبيل الله اثاقلوا إلى الأرض ، ولا تظن أني أُبالغ وراجع الحالة بقليل من العقل ، لو أن هذا العدو الأشد عداوة لنا استمر في تقدمه وبقينا نحن في هذا الذي نحن فيه نستورد طعامنا ودواءنا وسلاحنا وجاء

جيلنا الجديد وحاله كحالنا ، يعني هو مشغول بقضاياه وأن عدوه من داخله ، وأنه يحارب الإرهاب نيابة عن العالم ، وأن الإرهاب هو الإسلام السياسي ، وجاء جيل الصهاينة وهو أكثر تقدمًا من آبائه وأشد عداوة لنا من آبائه ، عليك أن تتصور ماذا سيكون الحال وهو يعلم أن آباءَه دفنوا شبابنا في أرضنا وهم أحياء ، هل سيتردد في أن يفِعل في أجيالنا أبشع ما فعله آباؤه فينا ؟ هل يجوز أن نسكت عن هذا ؟ هل يجوز لواحد منا أن يقعد عن الجهاد في مواجهة هذا ؟

وأدع هذا وأتابع ابن قتيبة في الذي نقله عن حُبَّى المدينية .

من كلام حُبَّى المدينية

قال ابن قتيبة «قيل لحبَّى المدينية ما الجُرح الذي لا يندمل ؟ قالت : حاجة الكريم إلى اللئيم ثم يردُّه ، قيل لها : فما الذُّل ؟ قالت : وقوف الشريف بباب اللئيم ثم لا يؤذن له ، قيل : فما الشرف ؟ قالت : اعتقاد المِنن في رقاب الرجال» وأول ما يقع في نفسي وأنا أقرأ مثل هذا الكلام هو معرفة ما كان عليه أهلونا الأولون زمن تقدمنا وتفوقنا وقوتنا واقتدارنا ، وأنهم بمثل هذا الفهم ، وهذا الوعي ، وهذا التفوق ، أحرزوا ما كانوا فيه من تقدم وقوة وغلبة ، وأن عودته إلينا ليس أمرًا بعيدًا ، لأنه إرثنا يعود إلينا ، ولهذا كان كل همي هو بَثّ الوَعْي والمعرفة واليقظة والعلم في نفوس أجيالنا القادمة ، ولن ألقى الله بعمل أفضل من هذا ، لأن يقيني الذي لا يقاربه شك أن أقرب القربات إلى الله هو العمل في صالح هذه الأمة ، ولن أعيد إليك عامل النظافة الذي رآه رسول الله ﷺ يتقلب في الجنة لأنه أزاح غصن شوك عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين ، هذه الزحزحة فتحت له كل أبواب الجنة ، وأنا أرجو وأنت ترجو أن يكون لي ولك نصيب من هذه الزحزحة ، والتخلف ليس غصن شوك وإنما هو كل

الشوك ، وأعود إلى كلام حُبَّي المدينية التي لم تتخرج من الجامعة ولم تدرس دراسات عليا ولا غير عليا ، ولها فهم وعلم وذكاء اقتبسته من المجتمع المتقدم الذي كان هو نفسه مدرسة وجامعة ، وترى عمق إحساسها بالشرف والدناءة والخساسة ، ولم تكن إجاباتها هي الرائعة فحسب وإنما كانت الأسئلة أيضًا رائعة ، والسؤال الأول هو الجرح الذي لا يندمل ، وهو لا شك يريد الجرح النفسي وليس الحسي ، وأنه لا يندمل يعني لا تنساه النفس ويصبح عندها من الماضي ، وإنما هو في النفس حيّ ينزف وهذا جيد جدًّا ، وقد أجَابتُ حُبَّي بأنه حاجة الكريم إلى اللئيم ، ثم إن اللئيم لا يعرف لكريم قدرًا فيقضي له حاجته ، وإنما تغريه خساسته وتغريه رغبته في الاستعلاء على الكريم في لحظة حاجته فيرده ، ولم أفهم من هذا أن كريمًا سأل لئيمًا حاجة فردها ، وإنما حُبَّى تتكلم عن اللحظة السيئة التي هي خطأ في حياة الناس سواء وقعت أو لم تقع ، ونَرْجُو الله أن يحفظ الكرام من أن تكون لهم حاجة عند اللئام ، والسؤال الثاني عن الذل ما هو ، والأصل أنه معروف ولكن السائل رأى في حُبَّى نفاذًا وبصيرة وحبًّا للكرام ونفرة من اللئام ، فسألها عن المعلوم وهو يتوقع منها إجابة جديدة ، فأجابت بقولها « وقوف الشريف بباب اللئيم ثم لا يؤذن له » ، ولم أعرف أن شريفًا يقبل أن يقف بباب اللئيم يطلب الإذن ، وحُبَّى تتحدث عن الذل وكأنها تعرف حقائق الأشياء مع صرف النظر عن وقوعها أو عدم وقوعها ، والسؤال الثالث سؤال عن أمر معروف وهو فما الشرف وأجابت حُبَّي إجابة كأنها من بطون كتب الفلسفة والأخلاق ، لأنها جعلت الشرف حقيقة مكنونة في الاعتقاد ، وأن الشريف هو الذي استقر في اعتقاده أن عليه مِننًا يعني عطايا لذوي الحاجات ، فهو لا يعطي ليذكر أو يشكر وإنما يعطي لأن اعتقاده أن هذا حق في عنقه لذوي الحاجات ، وهذا هو المعنى الحقيقي للشرف ، ولله درك يا حُبَّى

لأنك أخبرتينا أن من آبائنا من كان يسكن في قلبه هذا الاعتقاد ، الذي لو بحثتُ عنه في نفوس الناس لم أجده في المائة التي لا تجد فيها راحلة كما قال سيدنا ﷺ . وأكرر أن هذا الوعي اكتسبته حُبَّى من المجتمع وربما من مجالس العلم التي لا تنقطع في مساجد الأمة ، والمهم أن حُبَّى في زماننا الأول كانت تتكلم بعلم وحكمة في المعاني الإنسانية النبيلة وتزكيها في نفوس قومها ، ولم تتكلم في حقوق المرأة وأن الرجل ظالم وتنشر هذه السموم في البيوت ، لأن كل بيت فيه رجال ونساء ، وشيوع القول بأن الرجل ظالم قد ينفذ في الذي بين الأب وبناته ويُهيّجهُنَّ عليه، ثم تجد حُبَّى التي في زماننا تهاجم المجتمع كله وأنه ذكوري مع أن الحقيقة أنه ذكوري ، لأن الله ـ سبحانه ـ خلق آدم أولاً ثم خلق منه حواء ، فإذا كان المجتمع ذكوريًا لأن آدم خلق أولاً ، فإن حواء التي هي المرأة جزء من هذا الذكر ، والترابط الذي بين الرجال والنساء هو الترابط الذي بين الشيء وبعضه ، والواجب على حُبَّى التي في زماننا أن تقرأ عمق تفكير حُبَّى التي كانت في زمن آبائنا يوم أن كنا ظاهرين في الأرض .

روى ابن قتيبة قول عمرو بن الحارث : « وكنتُ متى شئتُ أجد من يَعِدُ ويُنْجز ، فقد أعياني من يَعِدُ ولا يُنجزُ ، قال وكانوا يفعلون ولا يقولون ، فقد صاروا يقولون ويفعلون ، ثم صاروا يقولون ولا يفعلون ، ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون» .

وهذا النص من النصوص المهمة في دراسة أزمنة وتاريخ الأمم ، كل الذي في كتاب « عيون الأخبار » هو أقوال وأحوال القرون الثلاثة المفضلة ، وعمرو ابن الحارث في هذا النص يشير إلى تغيّر سريع جدًا في أحوال الناس وفي قيمة من أهم القيم وأعلاها وهي الوعد والإنجاز ، وليس هذا خاصًا بعطاء المال لأن

الوعد والإنجاز أوسع من هذا ، فقد يكون وعدًا بشفاعة ، أو بمشورة ، أو بعمل علمي ، أو بالمعاونة في مشروع خيري إلى آخره ، وقد بدأ عمرو بن الحارث بصورة من أكرم صور المجتمعات ، وهي الذين يعدون وينجزون وأنهم الناس كل الناس ، حتى إنه كان يُعيبه أن يجد من يَعد ولا ينجز ، وقد وصف أهل هذه المرحلة بأنهم يفعلون ولا يقولون ، يعني لم تنطق الألسنة وإنما تنطق الأفعال ، وهذه هي أكرم ما يكون عليه الناس ، لأن لسان الحال لا يكذب ، وليس هناك أكرم ولا أفضل من الصمت المطبق الذي وراءه عمل دؤوب ، ثم تزحزح هؤلاء قليلاً وبقي الفعل كما كان ، ولكن الزحزحة في أن دخل القول مع الفعل فصاروا يقولون ويفعلون ، ولاحظ أن دخول القول كان خَدْشًا في الحالة الأولى التي هي يفعلون ولا يقولون ، وقد راجعت كيف يكون القول زحزحة إلى اليسار بالنسبة لمن يفعل ولا يقول فلم أجد إلا أن القول وإن كان بريئًا لا يتهم ، إلا أنه مظنة أن يقاربه ما ليس لله فيخالط ما هو لله ، ولذلك جعله ابن الحارث خطوة تَصِلُ بنا إلى « يقولون ولا يفعلون » ، وبعد ما بذلوا القول وضَنُّوا بالفعل انتقلوا إلى خطوة الضَّنّ بالقول والفعل معًا ، وختم عمرو بعكس ما بدأ به ، فقد بدأ بيفعلون ولا يقولون ، وختم بلا يقولون ولا يفعلون ، وكأن الزمن الذي عاش فيه عمرو بن الحارث شهد في الجماعة هذه الدورة السيئة التي انتقلت فيها الجماعة من أحسن الحالات وأكرمها ، وهي أنهم يفعلون ولا يقولون إلى أسوأ الحالات وأفجعها ، وهي أنهم لا يقولون ولا يفعلون ، وظاهر من هذا الكلام أن هَمَّ عمرو بن الحارث هو هَمُّ الأمة والجماعة التي هو منها ، وأنه كان يروم كما يروم كل أبنائها الأبرار أن تكون خطواتها تقدمًا إلى الأمام ، فإذا رأوا خطوة إلى الوراء في واحد من أبنائها

أغضبهم ذلك وحذروا منه ، وشبيه بالذي يقوله ما رُوِيَ من أن أمنا عائشة ـ رضوان الله عليها ـ لما قرأت قول لبيد :

ذهَبَ الذين يُعاشُ في أكنافِهم وبقيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأجْرَبِ

قالت : ماذا كان يقول لبيد لو عاش في زماننا ، وكأنها كانت ترى زمانها قد خطا خطوة إلى الوراء مع أنها كانت في زمن الصحابة الذين هم كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، والزمن الذي بينها وبين لبيد ليس زمنًا طويلاً ، وقال من سمعها ماذا كانت تقول أمنا لو عاشت في زماننا ، وأفهم من كل هذا أن هؤلاء جميعًا ومنهم لبيد كانوا يحملون هموم الأمة وكانت غاياتهم وحاجاتهم أن تخطو الأمة إلى الأمام في أخلاقها وسلوكها وفي كل أعمالها ، فإذا رأوا خطوة إلى الوراء في الذين هم حولها أزعجهم ذلك وأثارهم ، وكان أهل الله يستكثرون المخالفة وإن قلّت ويستعظمون الذنب وإن صغر ، وكانت حسنات الأبرار سيئات المقربين .

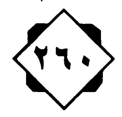
وكما أن العطاء الذي هو مِنَنٌ مغروس في فطرة أهل الشرف كما قالت حُبَّى المدينية ، كان الشكر الذي يقابله أيضًا مغروسًا في فطرة الذين يأخذون المِنَن ، ومن أكرم ما قرأته في الشكر في كتاب «عيون الأخبار» ثلاثة أبيات ، ذكر ابن قتيبة أن أهل زمانه نسبوها إلى البحتري ، فسأله ابن قتيبة عنها فبعث البحتري إلى ابن قتيبة أنه لم يقلها وهي :

فلو كانَ للشكر شَخْصٌ يَبينُ به إذا ما تأمَّلَهُ الناظرُ

لبيّنْتُه لك حتى تراه فتعلم أني امرؤ شاكر

ولكنه ساكنٌ في الضمير يُحرّكُهُ الكَلِمُ السائرُ

ولم أقرأ أن شاعرًا ذكر مثل هذا المعنى ، وأنه لو كان يمكن أن يكون



للشكر شخص يبين به أنه شكر ، لشكرك الشاعر شكرًا يصير شكره لك شخصًا تراه ، يعني لو كانت الكلمات يمكن أن تحول معانيها إلى أشخاص تراها العيون لحوّلَتْ كلماتُ شكري لك معانيها إلى شخص تراه عينك ، ولكن هذا التحوّل ليس في طوق الكلم ، والشكر ساكن في ضمير الشاكر ، وكل ما في طاقة الكلم أنها تحركه وأنها تنطقه فينطق الشكر بكلمات الشاكر ، ولاحظ كلمة « الكلم السائر » وأن شعري بشكرك سائر في الناس يذيعه بينهم وإن سكن شكرك في ضميري ، وكلنا يحب المعنى الكريم الساكن في الضمير ، وقريب من هذا قول حُبَّى المدينية إن حقوق ذوي الحاجات ليست ساكنة في ضمير ذوي الشرف ، وإنما هي في اعتقادهم وكأنها هناك مجاورة للإيمان بالله واليوم الآخر ، وهذا هو سر بيانها .

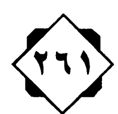
وكانت أمنا عائشة كثيرًا ما تتمثّل بقول الشاعر :

يَجْزيك أو يَثْنِي عليك وإن مَنْ ... يَثْنِي عليك بما فعلت فقد جَزَى

وتمثلها رضوان الله عليها بهذا البيت يعني وصيتنا بأن نحرص على مجازاة صانع المعروف ، لأن هذا مما توجبه الفطرة ، فإذا لم نجد ما نكافئه به كافأناه بالثناء ، وهذا أَضْعَفُ المكافأة وهذا من التَّوادّ والتراحم والعيش الكريم الذي يجب أن نحرص عليه بيننا ، أما أن تأخذ المعروف ثم لا نكافئ ولو بالثناء فهذا ما أوصتنا أمنا بأن نتجنّبه ، وكان أبو تمام يعتبر عدم المكافأة ولو بالثناء من أكل المعروف سحتًا ، وقال :

وغَيْري يأكلُ المعروفَ سُحتا ... وتَشْحَبُ عنده بيضُ الأيادي

ولم يرد بغيري أحدًا من الناس ، وإنما أراد بها ما أضيف إليها وهو ضميره ، يعني أنا لا آكل المعروف سحتًا ، والسحت الحرام ، وكأنك إذا لم تكافئ تكون



أكلت ما أعطيت من المعروف حرامًا ، والذي يجعله حلالاً هو شكرك لصانعه وثنائك عليه ، وكان سيدنا المقداد بن الأسود الصحابي الجليل يقول : ما كنت أعلم أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ أعلم بالشعر ولا قريضه من عائشة ـ رضوان الله عليها ـ ، أقول وكان الشعر علم العرب الذي ليس عندهم علم سواه ، يعني أن أمنا كانت أعلم الناس بعلم قومها الذي ليس عندهم علم سواه ، وكأن أمنا ـ رضوان الله عليها ـ وهي توصينا بضرورة المكافأة ولو بالثناء الذي هو باللسان تعلم أن الله ـ سبحانه ـ أسكن في قلب الذي يعطي الصنيعة الرغبة في أن يجد أثرها ولو بكلمة ذكر وشكر من آخذها ، حتى يشعر معطي الصنيعة أن آخذها قد اغتبط بها ، ولهذا قالوا إنه لا يستغنى عن الشكر سيد مهما كانت منزلته :

فلو كان يَسْتغنى عن الشكر سيدٌ ... لِعزَّة مُلْكٍ أو عُلُوّ مكانِ

لما أمَرَ اللهُ الجليلُ بشكره ... فقال اشكروني أيها الثقلان

ونحن نعلم أننا لو كنا جميعًا على أتقى قلب رجل فينا ما زاد ذلك من ملكه شيئًا ، ولو كنا جميعًا على أفجر قلب رجل فينا ما نقص ذلك من ملكه شيئًا ، ولكنه سبحانه يعلمنا كيف يكون تعامل بعضنا مع بعض ، وأن من لم يشكر الناس لم يشكر الله ، وهو سبحانه صاحب النعم كلها ، ولو جعلت حياتك كلها لشكر نعمة واحدة من نعمه سبحانه ما وفّيتها حقها ، ولكنه سبحانه وتقدس يعطي الكثير ويرضى منا بالقليل ، حتى إنك لو ذكرت أن هذه النعمة منه سبحانه لكان ذكرك لذلك شكرا لها ، وأن نعمة سمعي وبصري من الله لكان ذلك عنده جل وتقدس كافيًا لشكر النعمة .

أربعة ليست لأعمالهم ثمرة

ذكر ابن قتيبة أنه قرأ كتابًا من كتب الهنود ووجد فيه : « أربعة ليست لأعمالهم ثمرة : مُسَارُّ الأصَمِّ ، والباذر في السَّبَخَةِ ـ والمُسْرِجُ في الشمس ـ وواضع المعروف عند من لا شكر له » انتهى ما ذكره ، ولو فهمنا هذا بدلالته اللغوية الظاهرة لرأينا أنه ما كان يستحق أن يقال فضلاً عن أن يكتب وأن يقرأه شيخ جليل كابن قتيبة وينقله إلينا ، لأننا لا نَعْرف أحدًا يُسارُّ أصَمًّا ، ولا نعرف أحدًا يبذر في السبخ ، ولا نعْرِفُ أحدًا يُسْرِج مصباحًا في الشمس ، والغاية ليست في هذا الظاهر الذي لا يجهله أحد ، وإنما يقول لك إن أردت النجاح والتميّز فادرس خطواتك بدقة ، وابذل مجهودك حيث تكون النتائج في أفضل صورها ، فإذا أردت المسارّة فابحث عن أفضل من تسارُّه ، وإن أردت البذر فابحث عن أطيب تربة حتى تعطيك بذرتك أفضل العطاء ، وإن كنت تريد أن تسرج مصباحًا فابحث عن الظلمة التي تريد لمصباحك أن يمحوها ، واجتهد في ذلك وابذل فيه أقصى ما تستطيع يعطيك مجهودك أفضل النتائج التي تريد ، ابحث عن أفضل الطرق التي لو سلكها قومك خرجوا من ظلمة التخلف ، وأَوْقِدْ مَنَارك في جَنباته لتعينهم على السير فيه ، وابحث عن الأذكياء وازرع بذور المعرفة في قلوبهم تجد منهم العلماء ، وابحث عن اليقظ المتنبه الذي يسمع الصوت ويسمع الهَمْسَ الخفيَّ المصاحب للصوت ، وبهذا الفهم تظهر قيمة هذا الكلام ، وإنما نقله إلينا ابنُ قتيبة لأنه أدرك منه هذا وما هو فوقه ، وكأن ابن قتيبة يقول لنا احذروا من أن تبذلوا جهودكم فيما لا يفيد ، ابحثوا عن الأولويات وابدؤوا بها ، ابدؤوا بالإنسان وتكوينه وإعداده إن كنتم ترومون تقدم بلادكم ، لأن هذا الإنسان هو صانع التَّقَدُّم ، ولو أهملتموه ورصفتم ألف طريق

فلن تخطو خطوة إلى الأمام ، أعدوا الإنسان قبل أن تعدوا أي شيء ، وهكذا يمكنك أن ترى في هذه الأربع منهج حياة يخرج بها أصحابها من الظلمات إلى النور ، والغريب أنه جَعَل واضع المعروف عند من لا شكر له مع هذه الثلاثة ، وكأن صانع المعروف لا غاية له من صُنْعة إلا أن يُشْكَر ، فإذا وضعه عند من لا شكر له كأنه ألقى بذرة في سبخة ، والأمر ليس كذلك لأن صناعة المعروف من المعاني الإنسانية التي تَرْغُبُ فيها النفوسُ الطيبة من غير نظر إلى شكر أو مكافأة ، وحسبه أنه أدخل السرور على قلب من وضع عنده المعروف ، وكان البعض يكتفي بهذا ولا يبغي شكراً ، بل وكان البعض يشكر من وضع عنده المعروف لأنه أتاح له أن يصنع معروفًا ، ويذكر عمران بن حطان أن باذل العطية أكثر ربْحًا من آخذها لأن أجرها مدخور له في الآخرة ، وعمران ابن حطان من الأسماء التي إذا صادفتني في الكتب هَشَّت لها نفسي ، وتوقعت أني سأقرأ كلامًا حسنًا لأنه من المحسنين ، رغم أن أخاه من قيادات الخوارج ، ومن كلامه الجيد قوله :

وقد عرضَتْ لي حاجةٌ وأظُنُّني ... بأني إذَا أنزلْتُها بك مُنْجِحُ

فإن أك في أخذ العطية مُرْبَحًا ... فإنك في بَذْلِ العطية أرْبَحُ

لأن لك العقبى من الأجر خالصًا ... وشكري في الدنيا فحظك أربَحُ

وكأن طالب المعروف حين يطلب منك خيراً إنما يريد لك أن تأخذ أنت أفضل مما تعطي ، وإن كان سيشكرك وشكره يفنى بفناء الدنيا وأجر عطيتك عند الله أفضل من العطية ، وكلمة (مُرْبَح) اسم مفعول بفتح الباء ، وأختم الحديث في هذا الكتاب ببيت شعر قالته امرأة من ولد حسان بن ثابت :

سَلِ الخيْرَ أهْلَ الخَيْر قِدْمًا ولا تَسَلْ ... فَتًى ذاق طَعْم العَيْش مُنْذ قريب

وفي معنى هذا البيت قول الآخر :

إذا سألنا قومَنَا فخيارهم مَنْ كان أفضلُهم أبُوه الأوَّلُ
أعطى الذي أعْطَى أبوه قبله وتَبَخَّلَتْ أبناء من يَتَمَحَّلُ

وقالوا المِنَّة تهدم الصّنيعة .

أفْسَدْتَ بالمنِّ ما أسْدَيْتَ من حَسَنٍ ليس الكريمُ إذا أسْدَى بمنَّانِ

وقال رجل لابن شبرمة : فعلت بفلان كذا ، وفعلت به كذا ، فقال لا خير في المعروف إذا أُحْصِي .

كتبت كل هذا لأتعلَّمَهُ ولأعلمه للناس ، وابن قتيبة لم يكتبه إلا لهذا ، ولا خير في علم محبوس في الكتب ، والمطلوب بل الواجب وجوب الفرائض أن نُعلّم الناس حتى يتغيّر الناس وتتغير البلاد والعباد ، ولا تغيير إلا بالعلم ولا علم إلا بالقراءة .

وبقي في كتاب «عيون الأخبار» كتاب الأطعمة ، وكتاب النساء ، وسأكتفي بما ذكرت وأترك لك هذين الكتابين ، لأني أريد التعريف بكتاب «العقد الفريد» ، وأوصيك بكتاب النساء لأن كل ما فيه مما تراه حيًّا في حياة الناس ، ولا تضيّع شيئًا ينفعك وينفع من حولك ، وقد ختم باب النساء بأبيات جليلة في الغزل ، ومنها أبيات لأبي كبير الهذلي ، ولم أقرأ شعرًا أخملها منذ هذا الزمن البعيد وهي :

أما والذي أبْكَى وأضْحَكَ والذي أمَاتَ وأحْيَا والذي أمْرُه الأمْرُ
لقد تركتْنِي أحْسُدُ الوَحْشَ أن أرى أليفين منها لا يَرُوعُهمَا الذُّعرُ
فيا هَجْرَهَا قد بَلَغْتَ بِيَ المَدَى وزدْتَ على ما لم يكن بَلَغَ الهَجْرُ

ويا حبَّها زدني جوًى كل لَيْلةٍ ... ويا سَلْوة الأيامِ مَوْعدكُ الحَشْرُ
وَصَلْتُكَ حتى قِيلَ لا يَعْرف القِلَى ... وزُرْتُك حتى قُلْتِ لَيْسَ له صَبْرُ
عجبت لسَعْي الدهر بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سَكَن الدهرُ
إذا ذُكِرتْ يَرْتاحُ قَلْبي لذكرها ... كما انْتَفَض العُصْفُورَ بلّلَهُ القَطْرُ
هل الوجد إلا أن قلبي لَوْ دَنَا ... من الجَمْر قِيدَ الرمح لاحْتَرَقَ الجَمْرُ

أريت هذا الشيخ الذي لا يرى في الوحش وَحْشة وإنما يرى فيه أُلفة ومحبة ، وكيف ينادي حبها وينادي السلوى ويقول للحب زدني جوى كل ليلة ، ويقول للسلوى موعدك الحشر وليس الموت ، ولا نجد مناسبة بين قوله يرتاح قلبي لذكرها ، وقوله كما انتفض العصفور بلّلَهُ القطر ، لأن انتفاض العصفور ليس فيه ارتياح ، والرواية الصحيحة :

وإنّي لتعروُنِ لذكراك هِزَّةٌ ... كما انتفض العصفور بلَّله القطرُ

* * *

المبحث الثاني

كتاب العقد الفريد

لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي
المولود سنة ٢٤٦هـ والمتوفى ٣٢٧هـ

كتاب «العقد الفريد» أشبه الكتب بكتاب «عيون الأخبار» ، وقد عاش ابن قتيبة في دينور وعاش ابن عبد ربه في قرطبة ، وولد ابن عبد ربه قبل وفاة ابن قتيبة بثلاثين سنة ، فزمانهما زمان واحد ، والمادة العلمية المختارة في الكتابين من زمن واحد ، ثم إن هذه المادة العلمية المختارة من كلام العلماء والحكماء هي أصل الكتابين ، وَحَدَّثَ ابنَ عبد ربه عن كتابه هذا وقال : «وقد أَلَّفْتُ هذا الكتاب وتخيَّرْتُ جواهره من مُتَخيَّر جواهر الآداب ، ومحصول جوامع البيان ، فكان جوهرة الجوهر ، ولباب اللباب ، وإنما لي فيه تأليف الأخبار ، وفضل الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش في صدر كل كتاب وما سواه فمأخوذ من كلام العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء» ولو وصفت «عيون الأخبار» بهذا الوصف لكان وصفًا صحيحًا ، وترى ابن عبد ربه يؤكد على أن كتابه ليس مختاراً من جوهر الآداب وإنما هو مختار من المتخيَّر من هذا الجوهر ، ولما ذكر أن كل الذي له في كتابه هو هذا الاختيار من المختار ، أشار إلى أن اختيار الكلام أصْعَبُ من تأليفه ، وقد قالوا : اختيار الرجل وافد



عقله ، وقال أفلاطون : عقول الناس مُدَوَّنة في أطراف أقلامهم ، وظاهرة في حسن اختيارهم ، وكرَّرَ اختياره وأنه ليس من الحكم وإنما من جواهرها ، وليس من الأمثال وإنما من نوادرها ، وقصد إلى أشرفها جوهرًا ، وأظهرها رونقًا ، وألطفها معنًى ، وأجزلها لفظًا ، وأحسنها ديباجة ، وأكثرها طلاوة ، وحلاوة ، أخذًا بقول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ (الزمر:١٨) وأن مراتب الحسن كثيرة، وأن مراتب الأحسن أكثر وأغمض ، وهو في كل هذا كما قال فقد تهتدي إلى اختيار الحسن ، ثم بمزيد من المشقة تختار الأحسن من الحسن ، ثم بمزيد من المشقة أكثر تختار أحسن الأحسن ، وكل هذا واضح في كلام ابن عبد ربه ، ولك ولي أن نضيف شيئًا آخر من الصعوبة ، وهو أنك إذا أردت أن تعرف الشيء الذي صار به الحسن حسنًا فقد تصل إلى هذا بقدر من الصعوبة ، وإذا أردت أن تعرف الشيء الذي صار به الأحسن أحسن فإنك لا محالة محتاج إلى صعوبة أكثر ، وإذا أردت أن تعرف الشيء الذي صار به الكلام أحسن من الأحسن ، وكنت مُصرًا على أن تضع يدك على السبب الحقيقي وَجَدْتَ صعوبة أصْعب ، ومشقة أشق ، وأخشى أن أقول لك وجدت الباب مغلقًا ، وهذا يواجهني كثيرًا في دروسي حين أواجه من كلام العلماء قولهم ، ومن اللطيف قوله كذا وألطف منه قول فلان كذا ، وقبل أن يسألني طالب ويقول لي لماذا كان هذا ألطف أحاول أنا أن أتعرف وقد تجاوزت الثمانين فلم أقع على السبب الذي يقنعني ، ولم يكن لي مخرج من طلابي إلا قول مالك ومن قال لا أدري فقد أجاب ، وأقول لهم إن أفضل ما تتعلمونه مني هو أن تقولوا صراحة لطلابكم لا أدري ، ومن الخيانة للعلم ولأمانة العلم ولطلاب العلم أن أحدث بغير علم ، وكتب علمائنا القديمة والجديدة مليئة بمثل قولهم وهذا حسن وهذا أحسن من غير أن يبينوا سر

الحسن والأحسن ، ولهذا كنت شديد العناية بالتحليل لا لأن هذا يضع أيدينا على سر الحسن والأحسن ، وإنما لأنه هو الطريق الذي من الممكن لو كثر سيرنا فيه أن يضع أيدينا على سر الحسن والأحسن .

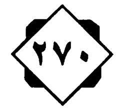
واعلم أن هذا اللون من الكتب التي هي مؤسسة على اختيار أفضل الأفضل هي المنهج الغائب في إعداد أجيالنا ، ثم إن الكرام الذين كتبوها لم يتوجهوا بها إلى أهل العلم ، وإنما توجهوا بها إلى كل من على أرضنا من العامة والخاصة والملوك والسوقة ، لأن المطلوب الأول هو رفع مستوى كل من يعيش على أرضنا من عامتنا وخاصتنا ، لأن كل هؤلاء يجب أن يكونوا على قلب رجل واحد في خدمة البلاد والعباد وإخراج الأرض والناس من التخلف إلى التقدم ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الغفلة إلى اليقظة ، لأنهم إن خرجوا هذا الخروج الواجب تَغيّر كل شيء ، تَغيَّرَتْ صناعتنا ، وزراعتنا ، وعلومنا ، وطبنا ، ودواؤنا ، وسلاحنا ، وصرنا كما يجب أن نكون ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ (آل عمران:١٣٩) وليس لاشتغالي بهذه الكتب غاية إلا هذه ، وليس لكتابي غاية إلا أن أدعوك إلى مراجعة هذه الكتب لأنك لن تتعرف على ما فيها من علم وأخلاق وسلوك وبلاغة وبيان إلا منها ، والآن نبدأ مع ابن عبد ربه في كتاب السلطان أو كما قال هو اللؤلؤة في كتاب السلطان ، لأنه لما سمى كتابه «العقد الفريد» سمّى كل كتاب فيه باسم حَبَّة من حَبَّات هذا العقد الفريد ، فهذا كتاب اللؤلؤة في السلطان ، وهذا كتاب الفريدة في الحروب ، وهذا كتاب الزبرجدة في الأصفَاد ، وهذا كتاب الجُمانة في الوُفُود إلى آخره .

* * *

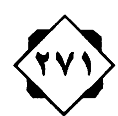
كِتَابُ السُّلطَانِ

لا شك أنك ستجد نصوصًا في كتاب «عيون الأخبار» وهي بنصها في «العقد الفريد» ، لأن مادة الكتابين من أفواه العلماء ومن بطون الكتب ، وهذا لا يَعْنِي أن يكون ابن عبد ربه نقلها من عيون الأخبار ، ثم إنه لا فرق بين أن يكون نقلها من أفواه العلماء ومن بطون الكتب أو من عيون الأخبار لأنها أقوال مسندة إلى أصحابها ، ومن أهم ما رأيته شديد الحفاوة به في كتاب السلطان مسألة لا تزال قائمة في كل ديار الإسلام ، وهي أن المسؤول الذي ليس في درجة الخليفة تأتيه كتب من المسؤول فوقه وتطلب منه فعل شيء لا يوافق شريعة الله وهو مأمور بإنفاذه ، ومن ذلك أن أحد العمال الذين تأتيهم هذه الكتب سأل سالم ابن أبي أُميّة التَّيْمِي فقال له سالم : «قد أتاك كتاب من الله قبل كتاب الخليفة فأيهما اتبعت كنت من أهله» واكتفى بهذا الجواب ، وليس هناك مسلم يُخَيَّرُ بَيْنَ أن يكون من أهل الله وأن يكون من أهل الوالي ثم يختار أن يكون من أهل الوالي .

قال ابن عبد ربه : ونظير هذا ما رواه الأعمش عن الشعبي أن زيادًا كتب إلى الحكم بن عمرو الغفاري وكان على الصائفة ، ـ أي الذين يغزون في الصيف ولهم غنائم ـ ، قال زياد : إن أمير المؤمنين يعني معاوية كتب إليّ بأمرين أن أصْطَفِي له الصفراء والبيضاء يعني الذهب والفضة ، فلا تَقْسِم بين الناس ذهبًا



ولا فِضّة واقسم ما سوى ذلك ، فكتب إليه إني وجدت كتاب الله قبل كتاب الأمير ، والله لو أن السموات والأرض كانتا رَتَقًا على عبد فاتَّقَى الله لجعل له منها مَخْرجًا ، ثم نادى في الناس فقَسَّم فيهم ما اجتمع له من الفيء» انتهى ما رواه الأعمش ، وتلاحظ أن زيادًا لما كتب لهذا الغفاري الكريم كتب إليه أن أمير المؤمنين كتب إليه بهذا ، لأنه يعلم أنه لا يجوز له أن يطلب هذا الطلب من عامل إلا إذا كان قد أمره الخليفة بذلك ، ويعلم الغفاري أن معاوية من أصحاب رسول الله ﷺ ومن كُتَّاب الوحي ، ولكُتَّاب الوحي مقام أي مقام ، ومع ذلك فإن الغفاري لم ير إلا رأيًا واحدًا وهو أن هذه حقوق هؤلاء الجند ولابد أن تُقَسَّم بينهم ، وقول الغفاري «والله لو أن السموات والأرض كانتا رتقًا على عبد فاتقى الله لجعل له منها مخرجًا» والرتق يعني مضمومًا بعضها إلى بعض وليس بينها أي فُرْجة وكان العبد بينهما واتقى الله لجعل الله له مخرجًا ، ولفتق له في الرتق فَتقًا ـ يُنجيه منه ـ وهكذا كانت قيادات الكتائب التي تغزوا وتنتصر وتَغْنَم ، ثم إن الغفاري في قوله هذا كان يستشعر أن رفضه لطلب معاوية قد يعرضه للعقوبة ، فافترض العقوبة في أسوأ صورها الخيالية وهي أن تكون السموات والأرض كل واحدة منهما ممسكة بالأخرى ، والعبد الذي اتقى الله بينهما جعل الله له مخرجًا وأن قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ (الطلاق:٢) كانت أثْبتَ في قلب هذا القائد المنتصر ، والذي عاد بالنصر والغنيمة من الجبال الراسيات ، وهكذا كان الذين غلبوا وسَادُوا ، وكلما رأيت صورة من هذه الصور النادرة اعتراني يقين بأن مثله لا يزال بيننا ، لأن هذه الصور هي الخير الذي لن ينقطع عن هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وكان فيما ذكره ابن قتيبة وابن عبد ربه أن بعض العلماء كانوا يَرِقُّون لهؤلاء العمال ،



ويرون أحيانًا أنهم إذا لم يفعلوا ما أُمروا به عوقبوا عقابًا قاسيًا ، فكانوا يقولون لهم سدّدوا وقاربوا ، وذكر ابن عبد ربه في هذا أن ابن هُبَيْرة أرسل إلى الحسن البصري وإلى الشعبي ، فقال للحسن ما ترى يا أبا سعيد في كتب تأتينا من عند يزيد بن عبد الملك فيها بعض ما فيها ، فإن أنفذتها وافقت سَخَط الله ، وإنْ لم أُنفِذْها خشيت على دَمِي ، فقال له الحسن البصري هذا عندك الشعبي فقيه أهل الحجاز ، فسأله فرق له الشعبي وقال له قارب وسدِّد فإنما أنت عبد مأمور ، ثم التفت ابن هبيرة إلى الحسن البصري ، وقال له ما تقول يا أبا سعيد ، فقال الحسن : يا ابن هبيرة خف الله في يَزِيد ، ولا تخف يزيد في الله .. يا ابن هبيرة إن الله مانعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله . يا ابن هبيرة لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فانظر ما كتب إليك فيه يزيد فاعرضه على كتاب الله ـ تعالى ـ فما وافق كتاب الله ـ تعالى ـ فأنفذه ، وما خالف كتاب الله فلا تنفذه ، فإن الله أولى بك من يزيد ، وكتاب الله أولى بك من كتابه ، فضرب ابن هبيرة على كتفه وقال هذا الشيخ صدقني ورب الكعبة» كان حُكْمُ بني أمية يُعِدُّ راحلته في زمن يزيد بن عبد الملك ، وعبد الملك كان من أقوى خلفاء بني أمية ، وكان عالمًا وصالحًا ، ويزيد جاء بعد أبيه بزمن لأن أخوة يزيد سبقوه إلى الحكم ، وكان عبد الملك يوصف بأنه أبو الخلفاء ، ومما يدلك على افتقاد يزيد للحكمة التي تجعله يحمي الملك قول ابن هبيرة «وإن لم أنفذها خشيت على دمي» وما كان يجوز ليزيد أن يكتب في الذي يخالف كتاب الله ، فضلاً عن أن يُهَدِّدَ من لم ينفذ ما يُخالف كتاب الله بالقتل ، ومعاوية لم يعاقب الغفاري ، ولو بكلمة فضلاً عن أن يكون أراد الأصغر والأبيض لصالح الأمة ، وبعيد جدًّا أن يكون أراد الأصفر والأبيض لنفسه ، وقول ابن هبيرة خشيت على

دمي هو الذي دعا الشّعْبِي إلى أن يَرِقَّ له ، وجملة « سددوا وقاربوا » من كلام سيدنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ قد وقعوا في حرج شديد ، لما نزل قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ (النساء:١٢٣) وقالوا أينا لم يعمل سوءًا وأن أقل لحظة في النار لا تطاق وشق عليهم الأمر ، فلم يجد رسول الله ﷺ إلا أن يقول لهم سَدِّدُوا وقَارِبُوا ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:١١٠) ، ولاحظ أن الشعبي وهو إمام جليل لم يقل له أنفذ كتاب يزيد ، وإنما قال له سدد وقارب يعني حاول أن تبتعد عن معصية الله وأن ترضي الأمير ، وراجع كلام الحسن البصري تجد فيه تقديره لصعوبة موقف ابن هبيرة ، ولذلك ألحَّ على بيان الخوف من الله وقال خف الله في يزيد ، ولا تخف يزيد في الله وكان هذا كافيًا ، وإنما أضاف إن الله مانعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله ، ووراء هذا من الجهة الثانية أن يزيدًا لا يخاف الله في الناس ، ولا يمنعه الله من إيذائهم إذا خالفوه ولو كانوا في منزلة ومكانة ابن هبيرة ، ولا شك أن كثيرًا من الكلام تجد في خيوطه التي نُسِجَ منها إشارات غامضة ، وأنك كلما استنطقت الكلام نطق ، ثم إن الحسن رضي الله عنه لم يأخذ بحجزة ابن هبيرة ويجذبه بعيدًا عن معصية الله فحسب ، وإنما يحمي يزيد أيضًا من أن يُنفَّذ في الأمة توجيه له فيه ما يغضب الله ، ثم يحمي الأمة من أن يشيع فيها السلوك المخالف لصراط الله المستقيم ، وهكذا تجد الحق والصدق فيه مساحة متسعة من الخير ، وكلمة « عبد المأمور » التي جرت على لسان الشعبي الطيب الصالح كلمة لا أقبلها لأن الآمر والمأمور والكل خلق الله وعبيده وعباده وأكرمكم عند الله أتقاكم ، وربما كان أصغر مأمور أتقى من



أعلى آمر فهو أكرم عند الله منه ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وربما تكون أضيفت إلى كلام الشعبي لأنها من معجم التخلف . وموقف الشعبي هذا لو اقتربت أكثر منه حدّثك بشيء من حماقة يزيد،وأنه لا يتقي الله في الناس، وأن الشعبي امتلأ قلبه بالخوف على ابن هبيرة الذي قال له « خشيت على دمي »، وأي حاكم هذا الذي يستبيح دماء الناس إذا لم ينفذوا أمره المخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وإذا كُنْتَ هنا مع الشعبي فقيه أهل الحجاز كما وصفه الحسن البصري ومع البصري رضيع بيت النبوة أرضعته أمنا أم سلمة ، أقول إذا كنت هنا مع العلماء الذين يتكلمون في دين الله بعلم ، وأن الأمة لم تَخْلُ منهم ، ويقيني أن الحسن البصري باق فينا ، وأن الشعبي باق فينا ، وأن هذه الأمة كَنْزٌ من كنوز الخير الذي لم ينقطع منها أكرم الرجال ، أقول مع كل هذا فإنك واجد في مجتمعاتنا القديمة كالذي تجده في مجتمعاتنا الحديثة ، وهم الذين يتكلمون في دين الله بغير علم وبغير خوف من الله وبالجُرءة القبيحة على دين الله ، وأن هؤلاء أيضًا لم ينقطعوا عن الأمة منذ زمن سيدنا رسول الله ﷺ ، ويكفي أن نتعرف على المنافقين في زمنه ﷺ ، وقد بلغ بهم الشطط في زمن الوليد بن عبد الملك أن جمهرة منهم قالوا للوليد ولخلفاء بني أمية إن الله سبحانه وتعالى إذا استرعى عبدًا من عبيده رعية من خلقه كتب له الحسنات ولم يكتب عليه السيئات ، وهذا كلام المفروض أن يرفضه كل من يسمعه لآية واحدة في صغار السور التي يحفظها أولادنا والحمد لله فور الفراغ من الرضاع وهي قوله تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾

(الزلزلة:٧-٨) راجع مثقال الذرة وراجع التعميم في (من يعمل)، قال ابن عبد ربه : دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك فقال له ما حديث يحدثنا به أهل

الشام ؟ قال يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعية كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات ؟ قال : باطل يا أمير المؤمنين ، أنبي خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبي ؟ قال : بل نبي خليفة ، قال فإن الله ـ تعالى ـ يقول لنبيه داود عليه السلام : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (ص:٢٦) فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة فما ظنك بخليفة غير نبي ، قال : إن الناس لَيُغْوُونَنَا عن دِيننا » .

وظني والله أعلم أن الوليد كان يعلم بطلان ما يقوله الناس ، وإنما سأل الأوزاعي ليعلم الناس بطلان هذا الباطل من فم الأوزاعي العالم الذي لا يشك أحد في علمه ، وذلك رغبة من الوليد في استئصال هذا الباطل حتى لا يحوم حول نفوس الناس ، وكان من عادة علمائنا وعقلائنا أن يتَّبعُوا أقل الشبهات في دين الله ، والتي لا تستحق أن تُردّ لشدة ضعفها ، كانوا يتَّتبعُونَ ذلك ما دام في الدين ، وكنت أقرأ في الكتب ردود العلماء على شبه شديدة الضعف ، وأقول جرت العادة على أنه لا يُردُّ إلا على من له صواب أخذه الناس عنه ، ثم كان له خطأ يَرُدّه العلماء حتى لا يؤاخذ خطؤه كما أُخذ صوابه ، ثم ظهر لي أن هذا في كل أبواب العلم إلا الشُّبَه التي تثار في الدين ، فإنه يُرَّد عليها مهما كان ضعفها ، ثم إن هؤلاء الذين قالوا للخلفاء إن الله رفع عنكم كتابة السيئات وهم طبَّالة وزمَّارة زماننا القديم لأنهم كانوا في النّصف الأول من القرن الثاني لم يُقطع دابرهم ، وإنما لهم أحفاد وكثر أحفادهم في زماننا وطوَّروا باطلهم وزعموا أنهم من المجتهدين في الدين ، كالذين يقولون إن حجاب المرأة ليس من الدين ، مع أن هذا إنكار لما علم من الدين بالضرورة لأن الحجاب إجماع الأمة ، أو الذين يقولون لا سياسة في الدين مع أن القرآن فيه سورة اسمها سورة

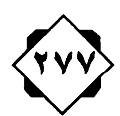
الشورى ، وكل ما فيها أنزله الله في كل كتبه وأوحى به إلى كل أنبيائه ، ولا خلاف في أن الشورى من أركان السياسة ، وفي القرآن سورة اسمها سورة القتال ، وآيات الجهاد كثيرة في الكتاب والسنة وكل هذا شأن خاص بالسياسة ، نعم القرآن ليس فيه طريقة تشكيل الحكومة ، ولا اختيار الوزراء ، وإن كان أوصى بإسناد الأمر إلى أهله ، فلا نضيف منصبًا إلى أحد وفي الناس من هو أعلم منه بهذا المنصب، وأبعد من كل هذا وأدخل منه في الجهل والغفلة ما كان مثل القول بأن الشافعي لو كان في زماننا لكتب فقهًا آخر ، وكأنَّ الشافعي كتب الفقه بعيدًا عن الكتاب والسنة ، وإنما كان مصدره الوحيد هو أحوال الناس ، وبناء على هذا الفهم الفاسد فهموا أن صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان معناها أن يتغير الإسلام بتغير الأزمنة والأمكنة ، ولو نظروا ببعض عقل لوجدوا أن هذا ينفي صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، لأنه لا يصلح للأزمنة كلها والأمكنة كلها إلا وهو ثابت على ما أنزله الله وأوحى به لنبيه ﷺ ، أما أن إسلام اليوم غير إسلام الأمس وإسلام الغد غير إسلام اليوم فليس له معنى إلا معنى واحد وهو إلغاء ما أنزله الله علينا ، ثم إن الأشياء التي تتغيّر الفتوى فيها محصورة جدًّا ، وكان على الفقهاء أن يشرحوها للناس حتى لا تدخلهم في الباطل الذي دخلوا فيه ، وغاب عن هؤلاء جميعًا أن الدين كله لله وعلينا أن نقول ومعنا رسول الله ﷺ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، وقال ربنا لنبينا : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ (آل عمران:١٢٨) .

قلت : إن الواجب علينا ليس فقط أن يَنْقَطِعَ الباحثُ في الفقه إلى الفقه ، والباحث في اللغة إلى اللغة ، والباحث في علوم الصنائع إلى علوم الصنائع مع أهمية ذلك ، وأنه لا تقدم بدونه ، ولا حياة كريمة بدونه ، وطالبُ الحياة الكريمة بعيدة عن انقطاع العلماء إلى العلم ، وبعيدة عن العلم لن يصل إلا إلى

وهم ، وقد يصل إلى حياة كريمة يتكلم بها الناس ويعيشون في غيرها ، قلت إن هذا الانقطاع ضروري ولا حياة كريمة بدونه ، ولكنه ليس كافيًا وأنه علينا أن ندعو كل جماهيرنا إلى المعرفة التي توقظ عقولهم التي بهذه العقول وحدها تَعْمُر أوطانُهم ، وأقول أيضًا ليس هذا كافيًا ، وإنما علينا نحن جماعة المنقطعين إلى علومنا أن نقرب لهم العلم وأن نجعله بين أيديهم ومن أمامهم ومن خلفهم ومن فوقهم وتحتهم ، لأننا لن نتقدم خطوة إلى الأمام وفينا جبهة غافلة ليست ممتلئة بالجدِّ والنشاط ، والاحتشاد ، وهذا ما فعله ابن قتيبة ، وما فعله ابن عبد ربه ، وما أريد أن أُنبّه إليه ، وقلت إن كل ما في الكتابين منقول من أفواه العلماء ، ومن بطون الكتب ، فلم أشْغل نفسي بالنص الذي أشير إليه من العقد الفريد أمنقول هو من عيون الأخبار أم من غير عيون الأخبار ، المهم أنه كلام من قالوه وليس من كلام ابن قتيبة حتى يقال إن ابن عبد ربه نقله منه .

أي الأمور أشد تأييدًا للفتى

قال ابن عبد ربه : « سئل بعض الحكماء : أي الأمور أشدُّ تأييدًا للفتى وأيها أشدُّ إضرارًا به ؟ فقال أشدها تأييدًا له ثلاثة : مشاورة العلماء ، وتجربة الأمور ، وحسن التثبُّت ، وأشدها إضرارًا به : الاستبداد والتهاون والعجلة » وكل كلمة في كلام العلماء لابد أن تكون موضع عناية من القارئ وإلا كان فهمه ناقصًا ، وكان يمكن لابن عبد ربه أن يقول : قالوا الأمور التي هي أشد تأييدًا للفتى هي كذا وكذا ، والأمور التي هي أشد إضرارًا به هي كذا وكذا ، ولكنه قال سئل أحد الحكماء ، ليذكر لك أن الكلام الذي بين يديك هو كلام الحكماء ، والشأن في كلام الحكماء أن يجد منك عناية أكثر ، لأن الحكماء قلة في الناس ،



فإذا صادفك كلام من ألْسِنة وعقول هذه القلة فلابد أن تقرأه بعناية خاصة ، وابن عبد ربه يدعوك إلى القراءة ويَحُثّك عليها ، لأنه يعلم أن إشاعتها في المجتمع هي الوسيلة الوحيدة التي تُخرج الجماعة التي هي جماعته وجماعتنا من الظلمات إلى النور ، وحسبك أن الكتاب الذي أنزله ربنا ليخرج الناس من الظلمات إلى النور كانت أول كلمة منه هي اقرأ ، وكان الأمر بالقراءة موجهًا إلى رسول الله ﷺ ولأمته من ورائه ، وهذا قاطع في أنكم إما أن تقرؤوا لتخرجوا من الظلمات إلى النور وإلا بقيتم في الظلمات ، القراءة هي طريق بناء الإنسان ، والإنسان الذي بُنِيَ عَقْله هو الذي يخرج من الظلمات إلى النور ، والشعب القارئ هو الذي يخرج بلاده من الظلمات إلى النور ، وتعجب أن القراءة التي يرتقي بها عقلك فقط من غير أن تتعلم لتعلِّم هي أفضل من صلاة النافلة ، وأنا أكرر هذا كثيراً لأن المفزع هو أننا غَيْرُ قُرَّاء ، وهذا لا معنى له إلا بقاءنا في التخلف الذي هو عار وزراية ، قال الحكيم : الأمور التي هي أشد تأييدًا للفتى أولها مشورة العلماء ، وهذا هو سداد كلام الحكماء ، لأن العلماء أكثر الناس يقظة عقل ، وسداد رأي ، وصحة فهم ، وأن مشاورتهم تغني عقلك ، وتزيد وعيك ، وتصيب بها السداد ، والأمر الثاني هو تجربة الأمور ، يعني تحليل التجارب التي تعيشها ويعيشها الناس من حولك ، ومعرفة ما يَنْجَح وما يَفْشَلُ ، وأن تأخذ بالتجارب الناجحة وتَبْتَعِدْ عن التجارب الفاشلة ، والذين يكررون التجارب الفاشلة هم الفاشلون حقًا والفاشلون جدًا ، وإذا كان بعيدًا عن الشأن العام كان فَشَلُه مصيبةً خاصة به ، وإذا كان يعمل في الشأن العام كان فشله مصيبة على قومه ، ولاحظ أن مشاورة العلماء تَعْنِي تحصيل فضل عقل ، والوعي بالتجارب يعني أيضًا تحصيل فضل عقل وعمل ، يعني أن كلام

الحكيم يدور حول نضج العقل ، ونضج الوعي ، وتمام البصيرة ، وهذا هو طريق النجاح الذي به يكون تأييد الفتى أعني قوته وسداده ، والثالثة هي التثبت أعني المراجعة ، والتأكد من سلامة الخطوة ، وليس التثبت بعيدًا عن المشاورة وتجربة الأمور ، والثلاثة الضارة بالفتى والمدمرة لحياته إذا كان يعيش بمعزل عن الشأن العام فدماره خاص به ، وإذا كان يعمل في الشأن العام فدماره دمار له ولقومه ، وأولها الاستبداد الذي هو ضد مشاورة العلماء ، والاستبداد خراب وخطر على الناس، ولا يستبد إلا جاهل أحمق لا يعرف قيمة مشاورة العلماء، ونهى ربنا عنه في كل الشرائع ، وأمر كل أنبيائه وهم صفوة خلقه بأن يشاوروا قومهم ، وأثنى على الذين أَمْرُهُمْ شُورَى بينهم ، وقال لسيدنا الذي هو أكرم خلقه وأزكاهم وأنار التنزيل بصيرته ﷺ قال له ربنا : «وشاورهم» والجماعة التي تقبل الاستبداد هي التي قبلت الخراب ، وقبلت الخروج من كل شرائع الأنبياء ، وأن الله ـ سبحانه ـ لم يأمر بالشورى في كل رسالاته سبحانه إلا لأن الاستبداد خطر مُحَقّق على عباده ، والحكيم جَعَلَه أَوَّلَ الإضرار بالفتى ، والهادم الأول لتأييده وقدَّمه على التهاون ، مع أن التهاون قلما ينجح معه عمل ، لأنه يعني ترك الجد والاحتياط والتدبير ، والنظر في العواقب ، والتهاون هو أخو الإهمال ، وهو مضاد لتجربة الأمور والوعي بنتائجها ، والأخذ بأسباب النجاح فيها ، والثالث العجلة ، والعجلة لا مراجعة فيها ولا دراسة ، وإلغاء كل ما يُعَدُّ من أسباب النجاح ، والفلاح ، وهو المقابل للتثبت . والخلاصة من كلام الحكيم أن ما يؤيد الفتى هو إعمال العقل ، وكل ما يضر الفتى هو إهمال العقل ، ولاحظ أن الحكيم هو من أنارت الحكمةُ عقله فرأى إعمال عقله سببًا لكل نجاح وإهماله سببًا لكل فساد ، وهذا جيد جدًّا ومختصر جدًّا ، والذين يَرُومُون

نجاح بلادهم فليس لديهم إلا تكوين هذا العقل الذي تضيئه المعرفة ، ولو نطق الواقع لقال كلام الحكيم هذا ، وقد أَتْبَعَ ابن عبد ربه كلام هذا الحكيم ببيتين من الشعر يذكران أن الاستبداد ليل مُسْوَدٌّ جوانبه قال :

والرأي كالليل مُسْوَدٌّ جوانبه ... والليل لا يَنْجَلِي إلا بإصْبَاحِ

فاضْمُمْ مصابيح الرجال إلى ... مَصْبَاح رأيك تَزْدَدْ ضوء إصبَاح

والبيت الأول مقدمة للبيت الثاني الذي هو المقصود ، ولذلك بدأه بالفاء التي في قوله فاضمم ، وهذه الفاء تشير إلى أن ما بعدها وهو الشورى التي هي ضمُّ مصابيح الرجال إلى مصباح رأيك مرتب على ما قبلها ، وهو أن الرأي الواحد ليل مظلم ، وأن الجماعة الذين يقودهم رأي واحد في ليل مظلم ، وهذا الليل المظلم لا ينجلي إلا بالرأي المضيء وهذا الرأي المضيء لا يكون مضيئًا لطريق الجماعة إلا إذا ضُمَّ إليه آراء مضيئة ، وهذان البيتان فيهما نفح من الحكمة ، ولِبَشَاعةِ الاستبداد ، وجرّ الخراب للبلاد والعباد ، أَنْكَرَه العَالَمُ ، وصار في الأرض كبقايا السلالات المُنْقَرِضِة التي لا تراها إلا في الكهوف التاريخية القديمة ، ولاحظ أن الشاعر جعل رأي الفرد ليلاً مسودًّا جوانِبُه ولو كان رأيًا صحيحًا ، لأنه قال بعد ذلك أنك إذا ضَمَمْتَ مصابيح الرجال على مصباح رأيك ، صار رأيك هذا مضيئًا ، وأكد إضاءته بتقديم الصفة وقال مصباح رأيك ولم يقل رأيك الذي كالمصباح ، ثم قال تَزْدَدْ ضوء إصباح ، فجعل الزيادة في ضوء إصباحك وكأن صباحك ليس كصباح الناس ، وإنما هو صباح أكثر إصباحًا ، وكأنه طَلَعَتْ فيه شموس ، وليست شمسًا واحدة ، ثم إنه قال « مصابيح الرجال » وعرف الرجال بالألف واللام أعني الرجال الموصوفون بالصفات التي يكونون بها أهلاً لهذه الصفة ، وهذا يعني أن تَتَخَيَّر للمشاورة

أهْلَ الفهم وأهل الصدق ، ولا تُعَوِّل على من حولك الذين يشيرون عليك بما تحب وتريد وليس بما ينفع ، قال ابن عبد ربه : « قالت الحكماء أحزم الملوك من قهر جدُّه هَزْلَه ، وغلب رأيُه هواه ، وجَعَلَ له الفكر صاحبًا يُحسِّنُ له العواقب ؛ وأعرب عن ضميره فعلُه ، ولم يخدعه رضاه عن سخطه ، ولا غضبه عن كَيْده » وأول ما يلفتك في هذا النص الصادر عن الحكماء والمملوء بالحكمة هو هذه الواوات الخمس الداخلة على هذه الجمل ، والمؤذنة ببيان أن أحزم الملوك هو من ضَمَّ هذه المعاني ولم يقتصر على بعضها ، ثم إن هذه الواوات تقول لنا إن هذه المعاني التي في هذه الجمل بَيْنَها رَحِمٌ لأن الواو لا تتوسط بين كلام وكلام ، إلا إذا كان بين الكلامين مناسبة فادرس هذه المعاني ، ثم راجع الرحم التي بينها ، وكلها تعالج ما يجده أحزم الملوك في نفسه من صراعات ، فإن غلب على الذي في داخل نفسه ، فهو أهل لأن يكون حازمًا في تعامله ، مع الذين له عليهم سلطان ، ثم إن هذه الجمل تشترك في أن كل واحدة منها تُفْضِي إلى الأفضل والأكرم ، والأشبه بالحق ، والعدل ، وقد كتب ابن عبد ربه هذا النص تحت عنوان ما يأخذ به السلطان من الحَزْم والعَزْم ، والذي يتبادر من هذا العنوان ما يأخذ به السلطان الناس من الحزم والعزم ، وبعد هذا النص كان كل كلام ابن عبد ربه في الباب مما يأخذ به السلطان الناس من العزم والحزم ، ولَفَتَنِي أنه بدأ بهذا النص ليقول إن السلطان حين يأخذ الناس بالعزم والحزم عليه أن يبدأ بنفسه ، فإذا أفلح في أخذ نفسه بالحزم والعزم أجابه الناس بأخذه لهم بالحزم والعزم ؛ وإن عَجَزَ عن أخذ نفسه بالحزم والعزم كان أكثر عجزًا عليهم ، وكانوا أبعد من إجابته ، والكلام كله جملة واحدة لأن كل هذه الجمل خبر المبتدأ الذي هو أحزم الملوك ، والجملة الأولى في هذا الحيز تجد فيها كلمة « قهر » للإشارة إلى أن القوتين المتصارعتين داخل

نفسه وهما الجد والهزل بلغا في الشّدَّة والحدة والصراع مبلغًا ، ولولا فضل قوة في جده لما تغلب على هزله ، وكأن هزله عاد مقهوراً لأن مسرته وغبطته أن يتغلب على جده ، ولم تجد هذه الحدة في الجملة الثانية « وغلب رأيه هواه » مع أن الهزل والهوى من عائلة واحدة ، وإن كان في كلمة « غلب » قدرٌ من الحِدَّة وأن هواه لم يكن هينًا ، وجملة « وجعل له الفكر صاحبًا » ابتعدت عن هذا الصراع ، وأنه لما قهر جده هزله وغلب رأيه هواه بدأ يزاول مُهمَّاته ، وما كان له أن يزاول شيئًا إلا بعد قهر هَزْلِهِ وإبعاد هواه ، ثم هو لابد أن يكون صاحب فكر ، وليس غبيًّا غافلاً ، وويل للناس من الغبي الغافل إذا تولى أمرهم ، ثم إن فكر هذا جَعَلَه مُصاحبًا له لا يفارقه في كل أمر يزاوله ، وأن قيمة هذا الفكر في معرفة النتائج وأنه يجنبه سوء العاقبة ، ولاحظ أن كل هذه المعاني من صلاح الإنسان سواء كان ملكًا أو غير ملك ، وكلنا محتاج إلى أن يقهر جده هزله ، وأن يغلب رأيه هواه ، وأن يكون العقل والفكر مصاحبًا له في كل خطوة ، حتى يُقدِّر لِرجْلِه قبل الخطو موضعها ، وقوله « وأعرب عن ضميره فعله » جيدة جدًّا ، لأن الفعل المعرب عن الضمير لا يكذب ، لأنه لا يحدث بلسان وإنما يحدث بالواقع الذي على الأرض ، والواقع الذي على الأرض لا يكذب ، ولاحظ الخطوات من الأول : الأول أن يغلب جدُّه هزلَه ورأيُهُ هواه ، وكأنه جهز نفسه للعمل ثم وقد دخل العمل بَجْعل الفكر مصاحبًا له ، والآن وقد فعل فإن الذي يحدث عن ضميره ورغبته في الخير لبني قومه هو الفِعْل الذي أنتجه صحبة الفكر ، والجملة التي تلي هذه هي « ولم يخدعه رضاه عن سخطه » وأفهم منها أنه لو أخطأ أحد من الذين يرضى عنهم لصداقة أو قرابة أو غيرهما فإن رضاه عن الذي أخطأ لا يجعله لا يسخط عليه ولا يُعاقبه ، وبهذا يكون انتقل كلام الحكماء من أحوال الملك وأعماله إلى موقفه من الذين

حوله ، وهكذا يسلك كلامُ العقلاء طريقه حتى يحيط بالمعنى الذي يتَحدَّث فيه ، ولا يخدعه غضبه عن كيده ، يعني لا يكفي بأن يغضب لخطأ من يرضى عنهم ، وإنما لابد من العقوبة التي من شأنه أن يوقعها بغيرهم ، ثم إن كلام الحكماء يقول للملك إن الصراع الذي بين الناس وأنت مسؤول عنه هو بين جَنْبيك ، فإن أفلحت في معالجته أفلحت في معالجته بين الناس ، وإن فشلت في معالجة الذي بين جنبيك فأنت في فشلك لعلاجه بين الناس أجدر وأولى ، وكل واحد منا مطالب بأن يصلح ما بين جنبيه والسلطان أولى منا بذلك ، لأن عيون الناس معقودة عليه ، فإن كان مُصْلِحًا في ذات نفسه كان مصلحًا في قومه ، ولهذا قالوا إن صلاح الناس بصلاح سلطانهم ، وقالوا السلطان ظل الله في الأرض ، وظل الله لابد أن يكون بعيدًا عن كل فساد ، والذي كتبته من العقد الفريد في هذا الباب أقل القليل من الذي فيه ، والذي تركته فيه فوائد أجل من الذي كتبته ، وبقي عليّ فيه حادثة طريفة حدثت في عهد عمر رضي الله عنه أطلَّتْ فيها نَزْعَةٌ من نزعات الجاهلية ، لأن الناس دخلوا في دين الله بصدق ويقين ، ولكن بقيت بقايا الجاهلية لأنها كانت متجذرة في النفوس بقيت في بعضهم ، وقد لاحظت ذلك في بعض الكرام من أصحاب رسول الله مثل ابن اللُّتَبيَّة الذي بعثه رسول الله ﷺ لجمع أموال الزكاة ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ووضع بين يديه أموال الزكاة وهدايا أهديت له ، وقال لرسول الله ﷺ هذا لكم وهذا لي ، وهو معتقد أن قبول العامل للهدية ليس حرامًا ، فقال له رسول الله ﷺ هلا قعدت في بيت أبيك وأمك ورأيت أيهدى لك أم لا ، ولا شك أن هذا الصحابي الجليل لم تكن كل تعاليم الدين قد اكتملت عنده ، وهذا غير قادح في أحد منهم ، والذي أريده الآن هو ما قاله ابن عبد ربه ، «من أن عمر رضي الله عنه ضرب رجلاً بالدِّرة فنادى يا لقُصَيّ ، فقال له أبو سفيان يا ابن أخي لو قَبْل اليوم تنادي قُصيًّا لأتَتْكَ

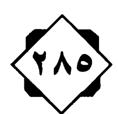
منها الغطاريف ، فقال له عمر : اسكت لا أبا لك ، قال أبو سفيان ها ووضع سبابته على فيه» الرجل الذي ضربه عمر بالدرة لا شك أن عمر لم يكن ظالمًا له ، وكأن الرجل نَسِيَ أن الذي ضربه أمير المؤمنين ، وتذكر فقط أنه من عَدِّي ، وأن الرجل من ولد قصي ، وأن بني عدي كبني تيم وبني سهم وبني مخزوم ليسوا من ولد قصيّ ، وقصيّ كان سيد قريش ، وأبناؤه هم بنو عبد الدار ، وبنو عبد مناف ، وبنو عبد مناف هم بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وبنو نوفل ، وبنو أمية ، وهم سادة قريش بلا منازع ، وكان هاشم سيد بني عبد مناف ومن بعده ابنه عبد المطلب ومن بعده ابنه العباس ، وهذا الرجل الكريم الطيب الصالح الذي ضربه عمر بالدرّة يفهم ذلك فهمًا جيدًا ويعيشه ، وغلبه إحساسه بالتميز ، فنادى أبناء قُصيّ فنبهه أبو سفيان ، وأن ذلك كان والذي نحن فيه شيء آخر ، ولما قال له «لو قَبْل اليوم تنادي قصيًّا لأتتك منها الغطاريف» لم تعجب هذه الكلمة عمر لأنها ذكر لِمَا كانوا عليه في الجاهلية ، وقد حرّمه الإسلام ، فقال عمر لأبي سفيان الذي هو أحد سادات أبناء قصي ، اسكت لا أب لك ، وهي كلمة تقال في الذم فيكون الذم بها موجعًا ، وتقال في المدح فيكون المدح بها مُبْهجًا ، وأراد عمر أن يسمع الرجل الذي نادى آل قصيّ ذمه لسيد من أبناء قصيّ حتى يُميت في نفسه هذه النزعة التي غلبته ، ولاحظ أن أبا سفيان ابن عم رسول الله ﷺ ، لأن عبد مناف جده الثالث وهو جد رسول الله ﷺ الثالث ، جده الأول عبد المطلب وجده الثاني هاشم والثالث عبد مناف ، وجد أبي سفيان الأول أمية والثاني عبد شمس والثالث عبد مناف ، وهذه قرابة قريبة ، ولما وضع أبو سفيان إصبعه على فمه كأنه يقول لعمر لو غلبتنا ألسنتنا أسكتناها بأيدينا . هذا والله أعلم .

* * *

كِتَابُ الأجْوَادِ وَالأصْفَادِ

الذي كتبته في كتاب الحرب في عيون الأخبار اكتفيت به ، وتجاوزت هذا الباب في العقد الفريد ، والأصْفاد جمع صَفَد وهو العطاء ، وقد أجمع العرب والعجم على أن الجود من أكرم أخلاق أهل الشرف والسُّؤْدَد ، وليس الفضل فيه أنه يعطي مالا لأننا جميعًا نحب الجواد ولا نَنْتظِرُ أن يصيبنا من جوده شيءٌ نحبه لأنه صاحب نفس من شأنها العطاء ، وأنها نفس تُؤثِرُ على نفسها وأنها تحب الخير لغيرها ، ثم هي تُعْطي كل ما عندها ، سواء كان مالاً ، أو كان حبًّا وبرًا ، وعطفًا ، ومودة ، أو علمًا أو نصحًا أو رأيًا ، هي نفس نافِعَةٌ لغيرها ، تجد المدرس الجواد في درسه يجتهد ليعطي طلابه أفضل ما عنده ، وهكذا الطبيب ، وهكذا الصانع ، والسياسي الكل يعطي بلاده وقومه أفضل ما عنده ، ولذلك قالوا إن الجواد يغني الناس ، وإن كان فقيراً ، قال رجل من مَنْبِج : قدم علينا الحَكَمُ بن حَنْطَب فأغنانا وهو مملق ، قيل له كيف أغناكم وهو مملق؟ قال : عَلَّمنا المكارم فعاد غنينا على فقيرنا ، ومعنى هذا أنهم لم يَرَوْه يُعطِي لأنه ليس عنده شيء يعطيه ، وإنما رأوا نفسًا تجود بكل ما عندها .

وقد فتح ابن عبد ربه باب الجود والصَّفَد بذكر أن الجود أشرف ملابس الدنيا ؛ وأزْيَنُ حُلَلِها ، وأجلبها لحمد ، وأسترها لِعَيْب ، وأنه كرم طبيعة ، يتحلّى بها السَّمْحُ السَّريّ والجوادُ السَّخيُّ ، وهذا كلام جيد لأنه تجاوز الجود الذي هو عطاء باليد ، إلى الجود الساكن في الطبع ، وذكر قول ابن عباس « سادة



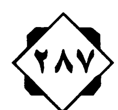
الناس في الدنيا الأسْخِياءَ وفي الآخرة الأتقياء» مع أن الأسخياء يمكن أن يكونوا أتقياء ، ويكونوا سادة في الدنيا والآخرة ، هذا إذا قصدوا بسخائهم وجه الله الذي يكافئ على الحسنة بعشرة أمثالها ؛ والحسنة ليست فقط عطاء مال ، وإنما هي عطاء ما ينفع الناس ، ولعل ابن عباس أراد أن يحفظ سيادة أمثال حاتم الطائي ، وهرم بن سنان ، وغيرهم من أجواد الجاهلية الذين كانوا سادة في الدنيا ، ومن الذي أغفلناه وضاع بغفلته منا خير كثير ، أننا لم نقصد بكل شيء صالح نعمله في الدنيا وجه الله ، ولو قصدنا إلى ذلك لكانت كل خطوة نخطوها في الأرض داخلة في ابتغاء مرضاة الله ، ولو فَعَلْنا هذا سنكون سادة في الدنيا والآخرة معًا ، لأن الذي سيُحضِر وجه الله يُتْقِنُ ما يعمل ، وإذا أتقن كل منا ما يعمل صرنا أحسن ، وأفضل ، في كل شأن من شؤوننا ، وهذا هو طريق التقدم ، وذكر ابن عبد ربه في هذا الباب : الجود مع الإقلال والحاجة ، والعطاء قبل السؤال ، واستنجاز المواعيد ، وكل هذا في «عيون الأخبار» .

وذكر قول أبي مسلم الخولاني ما شيء أحسن من المعروف إلا ثوابه ؛ وقال :

إنّ المكارمَ كلها حَسَنٌ والبَذْلُ أحْسَنُ ذلك الحَسَن

وصانع العروف يجد لذته في صُنْعه ، غير منتظر ثوابًا له ، وطبيعة الناس تحب صانع المعروف فتبذل له من الثواب ما هو أوسع من معروفه ، وهي مغتبطة بذلك ، ومسرورة به ، لأن لذَّة مكافأة المعروف هي ذاتها لذة صناعة المعروف ، والذي خلقنا فطرنا على ذلك ، وهو يكافئ الحسنة بعشرة أمثالها ، وخلق أبانا آدم على صورته ، فأهل المعروف من ولد آدم ومن أهل ترابه بقيت

في نفوسهم بقية من صورة أبيهم آدم ، وراجع مرة ثانية الكلمة الجليلة التي قالها سيدنا جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب : « إنّ الله خلق خلقًا من رحمته ، برحمته ، لرحمته ، وهم الذين يَقضُون حوائج الناس ، فمن استطاع منكم أن يكون فليكن » ، واعلم أن قضاء الحوائج من أهم صنائع المعروف ، وراجع ليتعلم قلبك الخَيْر ، ويتعلم بيانُك الخير ، راجع من رحمته برحمته لرحمته ، وتأمل هذا المخلوق الذي خلق من الرحمة بالرحمة وللرحمة ، وأنه يمكنك أن تكونه وأن قعودك عن أن تكونه ترجو من الله أن يكون هذا القعود غَفْلة ، وألاَّ يكون زهدًا في الذي عند الله ، ولو كان بيدي من الأمر شيء لكتبت هذه الجملة على باب كل مصلحة للناس لهم فيها حاجات ، واعلم أن قضاء الحوائج متسع جدًّا ، فمن حوائج الناس أن يعرفوا كلام سيدنا جعفر ، فإذا كتبته لهم كنت قضيت لهم حاجة ، ومن حوائج الطلاب أن يفهموا ما لم يفهموا ، فإذا أفْهَمْتهم كنت قضيت لهم حاجة ، ومن حوائج أهل البلاد أن تتقدم صناعتهم ، فإذا أتقنت صنعتك كنت قضيت لهم حاجة ، وهكذا قُلْ في كل شأن من شؤون الناس ، وكما قال ابن قتيبة الطرق إلى الله كثيرة ، وإذا كان الله في قَلْبِك فكل طريق أنت فيه هو طريق سائر بك إلى الله ، وراجع قولهم في مروان بن الحكم بن أُميَّة ابن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي أن رغبته في الإنْعَام فوق رغبته في الشكر ، وحاجته إلى قضاء الحاجة أشد من حاجة صاحب الحاجة ، ومروان هذا هو جد عمر بن عبد العزيز ، وكيف تنتقل أخلاق الكرم والشرف مع الأنساب . وتأكد أن مروان لا يزال فينا ، وأن عمر بن عبد العزيز لا يزال فينا ، وهم أنهار الخير الجارية في الأمة ، ولم تنقطع عنها ، وأن الرغبة في الإنعام فوق الرغبة في الشكر ، لأن الرغبة في الإنعام بقية الفطرة التي فطر الله الناس



عليها ، وأن قضاء الحاجة عند مروان أشد من صاحب الحاجة ، وعلمك بهذا من نعم الله عليك ، وإشاعتك هذا في أمة خاتم الأنبياء نعمة أوسع ، واطلب الذي في يد الله يضعه الله في يدك ، وكن مع الله يكن الله معك ، واذكر الله يذكرك ، وكل هذا في طريق السائرين إلى الله ، واحرص على أن تكون معهم ، واحذر الغفلة ، لأنها تَحْرِمُك من خير لا حصر له .

ولع عبد الملك بن مروان بأبيات عروة

والغريب أن عبد الله بن مروان يتجاوز هذا الفضل الساطع لأبيه مروان ابن الحكم ، ويقول : ما كنت أحب أن أحدًا ولدني من العرب إلا عروة بن الوَرْد لقوله :

أتهزأ منِّي أن سَمِنْتَ وأن ترى ... بجسمي مَسَّ الجوع والجوعُ جاهدُ

لأني امرؤٌ عَافى إنائي شِركةٌ ... وأنت امرؤٌ عافى إنائك واحد

أُقَسِّمُ جسمي في جسوم كثيرة ... وأحْسُو قَراحَ الماءِ والماءُ باردُ

راجع ولع عبد الملك بالعطاء ، وأن عافى إنائه أي ما بقي فيه هو شركة بينه وبين أصحاب الحاجات ، وأنه يُقَسِّم جِسْمَه في جسومٍ كثيرةٍ ، وأنه يعطي من لحمه ودمه ؛ ويزرعه في لحوم الآخرين ودمائهم ، ولن نَتَقدَّم خطوةً واحدة إلى الأمام ما لم نكن كذلك ، ولو أردت أن تتعرف على الشيء الذي أغرى عبد الملك بأن يكون أبوه عُرْوة ، مع أنه ابن مروان الذي عرفنا شيئًا من خلقه ، لوجدت ذلك في تعاطف عبد الملك مع ذوي الحاجات ، وأنه أكْبَر عروة لأنه قَبِلَ مَسَّ الجوع والجوعُ جاهدْ ، وأعطى طعامه لذوي الحاجات الأشد ، وهذا لا يقاس به زهد أبيه في الشكر ، ولا أن رغبته في قضاء الحاجة أشد من رغبة

صاحب الحاجة ، وكل هذا من أجَلِّ المكارم التي أراد ابن قتيبة وابن عبد ربه إشاعتها في الناس ، وقد يكون الخَبَرُ صغيراً غير لافت ويذكره الشيخان لأنهما يعلمان أنك لو فكرت فيه فسيهديك الفكر إلى أشياء جليلة في هذا الخبر الصغير غير اللافت ، من ذلك ما ذكراه من أن المنذر بن أبي سَبْرة نظر إلى أبي الأسود الدؤلي وعليه قميص مَرْقُوع فقال له : «ما أصْبَرك على هذا القميص ؟ فقال له: رُبَّ مَمْلُوكٍ لا يُستطاع فراقُه، فبعث إليه بتَخْتٍ من ثياب» انتهى الخبر ، وليس الذي فيه أن المنذر بعث إلى أبي الأسود بتخت من ثياب ، وإن كان هذا محموداً من كرامنا مع كرام علمائنا ، والذي أرَدْته من ذكر هذا الخبر ليس هذا ، وإنما هو أن عقلية أبي الأسود الدؤلي لم تكن في تاريخنا عقلية متميزة فحسب ، وإنما كانت عقلية متفردة ، فلم يكن نحويًّا كسيبويه ، والخليل ، ولم يكن أعلى من طبقتهم ، وإنما فتح باب علم النحو بمعنى أنه هَدَى إلى علم في كَتْم الغيب ، وفتح باب النحو ليس كفتح باب البلاغة ، لأن أوائل البلاغيين وجدوا الناس بفطرتهم يستحسنون كلامًا ويستهجنون كلامًا ، فبدؤوا من هذه النقطة ونظروا في المُسْتَحْسن وحاولوا استخراج سبب حسنه ، ونظروا في المُسْتَهْجَن ، وحاولوا استخراج سبب هُجْنَتَه ، وساروا في الطريق ، والفقهاء وجدوا كلامًا في الحلال والحرام ونظروا في الكتاب والسنة ، وهكذا وجد الشيوخ الأوائل لكل علم شيئًا هداهم إلى الطريق فسلكوا فيه ، والنحو لم يكن كذلك وإنما كانت اللغة قائمة على ضوابطها النحوية والصرفية التي غرسها الله في سليقة العرب منذ الزمن البعيد فرفعوا الفاعل ونصبوا المفعول ، ولم يتحدثوا بكلمة واحدة عن رفع الفاعل ، ولا نَصْبِ المفعول حتى إن مجالسهم في الجاهلية التي ذكر حازم القرطاجني أنهم كانوا يعقدونها لتقويم ملكاتهم كانت في باب الاستحسان ، وذكر حاتم الذي قالوا إن بلاغته يونانية أن

الذي كان يدور في هذه المجالس كان من مراجع البلاغيين ، وأن هذه الملاحظات الجاهلية هي أصل علم البلاغة ، أقول : إن هذه المجالس لم يكن فيها لَحْنٌ ، لأن اللحن لم يظهر في العربية إلا بعد الاختلاط بغير العرب ، الذي بدأ أول ما بدأ في زمن أبي الأسود ، ولذلك قالوا إن كلام العرب قبل زمن الاختلاط يُحتجُّ به ولا يُحْتَجُّ عليه ، ولا يجوز أن يقال إن امرأ القيس لحن ، ولا إن النابغة لحن ، وإنما كل ما نطقت به ألسنتهم فهو عربي فصيح ، لحظ أبو الأسود أن اللحن تسلّل إلى العربية ، فبدأ يفكر في وضع علم يحفظ هذه العربية ليس فقط لأن حفظها حفظ لكلام الله ، وإن كان هذا كافيًا وفوق الكفاية ، وإنما لأنها أيضًا لغة الأمة وأن ضعفها يعني ضعف الأمة ، وأن قوتها تعني قوة الأمة ، وبدأ تفكيره النادر الفريد في نقل هذه السليقة التي تعرضت للتغيير واللحن في علم يحفظها ويحفظ معها لغتها ، لأن النحو ليس فقط قواعد تحفظ اللغة من اللحن ، وإنما هو أيضًا حفظ لسليقة الأمة ، وأن من سلك طريقه فقد سلك طريق هذه السليقة ، ولهذا كان يقول ابن جني إن النحاة لاحقون بالعرب الأوائل ولو كانوا عجمًا كسيبويه ، واستشهد بعضهم بلغة سيبويه لأن النحو لم يكن عنده علمًا في كتاب وإنما كان أيضًا سليقة في نفسه ، والذي له كتبت خبر أبي الأسود الذي كان عليه قميص مرفوع يعني قميصًا قصيرًا ، هو هذا العالم الجليل الذي كان هذا بعض عطائه ، وكان صديقًا لسيدنا الإمام علي بن أبي طالب ، وكان مشغولاً بسياسة الإمام ، وكَشَفِ الحجاب الساتر لهذا العلم الجليل ، ولو شغل بنفسه وبعيشه لكان عنده أكثر من الذي عند المنذر الذي بعث إليه بتَخْتٍ من الثياب ، وإنما انصرف كله إلى العطاء ولم يفكر لحظة في الذي يأخذه ، لا ثوابا لفتحه باب علم ، ولا ثوابًا للذي كان منه في صحبة الإمام ، وهكذا كان الذين أسسوا وأبدعوا ونهضوا وسادوا ، ولن

نهض ولن نتقدم نصف خطوة إلى الأمام إلا إذا كان هَمُّنا العطاء لبلادنا وقومنا ، ولا نفكر في الأخذ حتى لو لبسنا قميصًا مَرْفُوعًا كقميص أبي الأسود ، الذي قال للمنذر بن أبي سَبْرة لما تعجب من صبره على هذا القميص : « رب مملوك لا يُستطاع فراقه » يعني أنه ليس عنده غير هذا القميص القصير ، وهذا النحو الذي تواترت عليه عقول الأئمة في كل عصر صار أبوابًا كباب المرفوعات ، وباب المنصوبات ، وترى أحدنا يأخذ جدوله في باب من هذه الأبواب ويطلب عدم تغييره ، حتى إنه ينتهي به العمر وهو في هذا الباب لم يضف إليه حرفًا ، ويتسع رزقه من هذا الباب فيبني بَيْتًا ويركب سيارة ثم يشكو أنه مظلوم ، وأنه لم يأخذ ما يستحق ، ولم يذكر أحدنا قميص أبي الأسود المرفوع ، وهذا هو الفرق بين حاجات أبناء الأمة في زمن تخلفها ، وفقرها ، وعجزها عن حماية أرضها وترابها ، وحاجات أبناء الأمة في زمن تفوقها وسيادتها وتقدمها ، ولابد لنا أن نكتب هذا ، وأن نضعه بين أيدي الأجيال القادمة ، وعليهم أن يختاروا بين القميص المرفوع مع التقدم ، والتفوق ، والاقتدار ، والازدهار ، والبناء ، وبين الأثرة والأنانية التي لا تشبع ، والتي هي حركة سريعة إلى الوراء والعجز ، ولا يجوز لهم أن ينسوا العدو الأشد عداوة لهم والذي أسكنه أعداؤهم على حدود بلادهم وفي قلب أوطانهم ، وأشعل النار في كل الدول المجاورة له حتى يُشْغل الكل بعدوه الداخلي ، ومن لم يفهم لا يستحق أن يعيش ، ومن يعتقد أن الحكام عليهم وحدهم أن ينهضوا بالبلاد لا يستحق أن يعيش ، لأن هذا الفهم معناه أنه يعتقد أن الديار ديار الحكام وأنه ساكن عند السادة الحكام ، وبمثل هذا تتأخر الأوطان .

ومن أعجب ما تقرأ عن كرامنا أنهم كانوا يشكرون من تفضّل عليهم ، وأتَاحَ لهم أن يكرموه ، يعني أن الشكر لم يكن من الذي أخذ للذي أعطى ،

وإنما كان الشكر من الذي أعطى للذي أخذ من مناهجنا الغائبة في إعداد أجيالنا ، قال ابن عبد ربه قال عبد العزيز بن مروان : إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع معروفي عنده فيده عندي أعظم من يدي عنده ، وأنشد لابن عباس رضي الله عنه :

إذا طَارقاتُ الهَمِّ أضْجَعْتِ الفتى	وأعْمَل فكرَ اللَّيْل والليلُ عاكرُ
وباكرني في حاجة لم يكن لها	سواي ولا من نكبة الدهر ناصِرُ
فرَجْتُ بمالي هَمَّه عن خِناقه	وزايله الهَمُّ الطروقُ المساورُ
وكان له فضل عليَّ بظنّه	بِيَ الخير إنّي بالذي ظنّ شاكرُ

هذا حديث عن عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء ، ويرى أن الذي يضع يده عنده هو الذي له على عبد العزيز يَدٌ وأن شكره واجب على عبد العزيز ، ثم هو ابن مروان بن الحكم الذي كان حرصه على قضاء الحاجة أكثر من حرص صاحب الحاجة ، ثم هو أخو عبد الملك الذي وَدّ لو كان من ولد عُرْوة بن الوَرْد الذي كان يجود بطعامه وهو يعاني مَسَّ الجوع والجوع جاهد ، وراجع كيف كانت المكارم متوارثة في البيوتات وكان ذلك في الزمان كله ، وقد أدركنا شيئًا منه ، وكان في مصر بيوتات علم كبيت آل شاكر ، وبيت آل هارون ، وبيت آل الدواخلي ، ثم كان ما كان ورأينا محمودًا شاكرًا في المعتقل ، وارجع إلى أبيات ابن عباس وراجع طارقات الهم التي ضاجعت الفتى ، ونسأل الله السلامة من هذه المضاجعات ، وأراد أن يَدُلَّ على أنها حَرَمَتْه من النوم طول الليل فقال « وأعمل فكر الليل » والمراد أعمل فكره في الليل ، وفرق بين فكر الليل وفكر في الليل ، لأن فكر الليل يعني أن الليل كله كان فكرًا . وقوله « وباكرني » يعني أن فكر الليل كانت له نتيجة

واحدة وهي أن يباكر إليه وليس لأي أحد آخر ووراء ذلك ما تعلم ، وأكد ذلك بقوله « لم يكن لها سواي » وقلت إنه توكيد لأن المعنى مفهوم من قوله « باكرني بحاجة » وموضع الشاهد قوله « وكان له فضل علي » ، ثم أكد هذا بقوله « إني للذي ظن شاكر » ولا تنس أن بيت ابن عباس من بيوتات المكارم لأنهم قالوا من أراد الفقه وجده عند عبد الله بن عباس ، ومن أراد العطاء وجده عند عبيد الله ابن عباس ، ومن أراد الوجاهة وجدها عند الفضل بن عباس .

أجواد أهل الجاهلية وأهل الإسلام

كتب ابن عبد ربه عن أجواد أهل الجاهلية وأجواد أهل الإسلام ، وتذكَّر دائمًا أن حفاوة العرب والعجم بالأجواد ليست حفاوة بالجود الذي يخرج من أيديهم ، وإنما هي حفاوة بالنفوس التي من شأنها أنها تعطي ، وليس من شأنها أنها تأخذ ، حفاوة بالنفوس التي من شأنها الإيثار ، وليس من شأنها الأثرة ، لأن الذين من شأنهم العطاء والإيثار هم صناع الغبطة والبهجة والحب في هذه الأرض ، والذين من شأنهم الأثرة والأنانية هم صناع البغضاء في هذه الأرض ، وهم موضع الاحتقار والزراية حتى من أنفسهم ، ذكر ابن عبد ربه ثلاثة ممن عرفوا بالجود في الجاهلية وأولهم وأشهرهم : حاتم الطائي الذي قال عنه رسول الله ﷺ أنه كان يحب مكارم الأخلاق ، قالها لابنة حاتم لما وجدها في الأسر وأطلقها ، وثانيهم : هرم بن سنان ، وثالثهم : كعب بن مامة ، وذكر في جود حاتم حكايات عجيبة وعطايا لا تكون إلا من حاتم ، والذي يعنيني منها أن حاتمًا كان إذا اشتد البرد واشتدَّ الشتاءُ أمر غلامه فأوقد نارًا في يفاع أي ما ارتفع من الأرض لينظر إليها ويهتدي بها من ضل في هذا الليل الشديد وقال في ذلك :

أوقِدْ فإن الليلَ ليلٌ قَرُّ والريحُ يا غلام ريح صِرُّ
عسى يرى نارك من يَمُرُّ إن جَلبْتَ ضيفا فأنت حُرُّ

وإيقاد النار في اليفاع كان من شأن العرب ، ولم يتميز بذلك أهل الجود ، والذي لا يفعل ذلك يعاب ويُذَمَّ ، والزائد في فعل حاتم أنه أغرى غلامه بالجد والبحث عن الضيف وقال له إن جَلَبْتَ ضيفًا فأنت حُرّ ، وليس عند الغلام أفضل من أن يصبح حُرًّا ، وهكذا كان حرص حاتم على أن يُسعِفَ المنكوبين في هذا الليل الشديد البرد والشديد الريح ، وهذا هو طبعه وهذا هو شأنه ، وذكروا أنه مَرَّ على قبيلة عَنَزة وعندهم أسير فاستغاث الأسير بحاتم ولم يكن مع حاتم ما يُفْدِي الأسير به ، فاشتراه من العنزيين وأطلقه وقام في مكانه في القيد حتى يؤدي فداءه ، ويمكن أن تقرأ هذا وأفضل منه بغفلة وكأنك لم تقرأ شيئًا ، فإذا حضر الوعى وحضرت اليقظة رأيت في هذا الموقف النَّبيل الذي يداخل نفسك ، وكان من الممكن لحاتم ما دام ليس معه ما يفدي الأسير به أن يراه ثم يمضي لشأنه ، ولكن رجولة حاتم ومروءة حاتم وشرف نفس حاتم كل ذلك وأكثر منه أبى عليه أن يرى مكروبًا يستغيث به ثم لا يغيثُه ، ولو كان الثمن أن يضع نفسه في القيد مكانه حتى جاءه الفداء ، وقد رأى العنزيون ذلك ، ولم يكن حاتم رجلاً غير معروف ووضعوا رجل حاتم في القيد ، وكان أقَلَّ ما يجب عليهم أن يَنْتظروه حتى يأتيهم بالفداء أو أن يطلقوه إكرامًا لحاتم لما استغاث الرجل به ، ولكن هكذا كان ، وهؤلاء العنزيون هم أنفسهم الذين حاربوا بعد سنوات قليلة تحت راية مسليمة الكذاب ، وقالوا له إنك لتعلم أنك كاذب وإنا لنعلم أنك كاذب وإنا لنعلم أنك تعلم أننا نعلم أنك كاذب ولكن كاذب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر ، ولم يكن في ربيعة إلا بنو شيبان

وكانوا يقولون إن كنت من ربيعة فكاثر ببني شيبان وفاخر ببني شيبان ولاقي عدوك ببني شيبان ، وما سادتْ عنزةُ إلا بالمكر والتآمر .

أما هرم بن سنان فقد اكتفى ابن عبد ربه بذكر شعر زهير فيه ، وكان أبوه سنان سيد غطفان ، وحسبك من شعر زهير فيه لأن شعر زهير في هرم كان باعثَ تفوقه هو ذاته تَفَوَّقُ هرم ، وكان زهير كما فهمه سيدنا عمر لا يمدح الرجل إلا بالذي هو فيه ، وهذا معناه أن جودة شعر زهير في هرم راجعة للذي كان عليه هرم ، وهذه حقيقة من حقائق فهم الشعر ونقده وتذوقه ، تجد شعر المتنبي في سيف الدولة يختلف عن بقية شعره ، لأن سيف الدولة كان له في الدولة ما ليس لغيره ، وقد شرح حازم القرطاجني هذه المسألة شرحًا جيدًا ، وذكر ابن عبد ربه قول زهير في هِرَم :

قومٌ أبوهم سِنانٌ حين تَنْسُبُهم	طابوا وطابَ من الأولادِ مَا وَلَدُوا
لو كان يَقْعُدُ فوق الشمس من كَرَمٍ	قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
جِنٌّ إذا فزعوا إنسٌ إذا أمِنوا	مُرَزّءون بهاليلٌ إذا قُصِدُوا
مُحَسَّدُون على ما كان من نَعَمٍ	لا يَنْزِعُ الله منهم ماله حُسِدُوا

قوله « طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا » لم أقرأ في معناه أفضل منه مع سهولته وسلاسته ووضوحه وتداول معناه ، وعجيب أن يرتفع البيان مع شهرة المعنى ، وتداوله وسلاسة اللفظ وقُرْبه وسهولته ، وقوله « لو كان يقعد فوق الشمس من كرم إلى آخره » حاول كثير من الشعراء أن يقول في معناه ما يُخمْله ولكن لم يُفْلح واحد منهم ، وبقي البيت متفردًا في لفظه ومعناه ، ومثله قوله « بهاليل إذا قصدوا » ثم إنه أزال الفزع الذي يعتريك من قوله « جن إذا فزعوا » ونسأل الله السلامة من الجن فزعوا أو لم يفزعوا بقوله : « إنْسٌ إذا

أمنوا» ، وقوله «لا ينزع الله منهم ماله حسدوا» يوشك أن يكون من كلام أهل الله ، وقد قرأت ديوان زهير مرات وأراه لو أدرك الإسلام لكان من السابقين ، لأنه إذا عَرَف الحق لم يتردّد في النطق به ، أما كعب بن مامة فله حادثة واحدة صار بها فوق كل الكرام ، وهي إيثاره رفيقه بشربة ماء كانت له ضرورة حياة فآثر بها صاحبه فشربها صاحبه وعاش ومات كعبٌ ظمأ ، وهذا أكثر من كل ما كان من غيره وله يقول حبيب :

يَجُودُ بالنفس إن ضَنَّ البخيلُ بها ... والجودُ بالنَّفْسِ أقْصى غايةِ الجودِ

هكذا في كتاب العقد الفريد ، والصواب يجود بالنفس إن ضنَّ الجواد بها ، لأن البخيل يضن بكل شيء ، وليس لكعب ذكر في الجود مثل ما لغيره كهرم وحاتم ، وربما كان له ، ولكن هذه غلبت على كل شيء ، وأنه في لحظة حاسمة بلغ به حُبُّ العطاء فآثر صاحبه وهو يعلم أنه سيموت ظمأ ، فلم تكن حادثة مختلفة عن غيرها من الحوادث ، وإنما هي نفس مختلفة عن غيرها من النفوس ، وهذه اللحظة تلقتها النفوس بكل حفاوة ، وكل حب وكل تقدير ، وتناقلتها الأحقاب ، ثم هي تهُزُّ كل جيل كما تهزنا ، وكأنها حدثت في يومنا الذي نعيشه ، وهكذا تصنع النفوس الجليلة أحداثًا جليلة تَمُوت الأجيال وهي لا تموت ، ثم ذكر أجواد الإسلام فذكر أجواد الحجاز ، وأجواد البصرة ، وأجواد الكوفة ، وأشهر أجواد الحجاز وأولهم عبيد الله بن عباس ، وعبد الله ابن جعفر بن أبي طالب ، وسعيد بن العاص بن أمية ، وكلهم من ولد عبد مناف ، وقال في عبيد الله بن عباس إنه أول من أفطر جيرانه ، وأول من وضع الموائد على الطرقات ، وقال فيه الشاعر :

وفي السنة الشهباءِ أطعَمْتَ حامضًا ... وحُلْـوا ولَحْمًا تامكا ومُمَزَّعا

وأنت ربيع لليتامى وعِصمةٌ إذا المحْلُ من جوِّ السماء تطلعا
أبوك أبو الفضل الذي كان رحمة وغوثًا ونورًا للخلافة أجمعا

وحديث الشعراء في العطاء يهتم كثيرًا بالسنة الشهباء ، واغبرت آفاق السماء لأن شدة الوقت مع الحاجة تجعل العطاء أكثر بِرًّا وأكثر رحمة ، وتجعل القلوب أكثر حبًّا وقربًا لصاحب هذا العطاء ، لأنه مظهر من مظاهر البر والرحمة والتعاطف والتراحم ، ومهما كانت غفلة الناس فإن شدَّة حاجة البؤساء في زمن المَحْل تُحدث حُبًّا في كل قلب ، وتُحْدثُ تعاطفًا ، وحبًّا مع كل من يتقدم فيها بأي شيء يخفف لأواءها ، ثم إنك لا تجد في كلام الله ولا في كلام رسوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أجزل عطاء ، وأبر ثوابًا ، وأسرع إلى مغفرة الذنب ، وفتح أبواب الرحمة من هؤلاء الذين يُعْطُون اليتامى وذوي الحاجات ، ويكرمهم ربنا ويكرم اليتامى وذوي الحاجات حين يجعل عطاءك لهم قرضًا حسنًا لله رب العالمين ، وراجع الكرم الأعلى والأعظم يعطيك المال ويغريك بالثواب لتعطي عباده كما أعطاك ، ويزيد على أن يجعل عطاءك لعباده قرضًا حسنًا عنده هو سبحانه ، يوفيك به يوم يقوم الناس لرب العالمين ، ويزيد بأن يجعل الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد المسكين ، ثم إن الفقير يصير آخذًا من يد الله وليس من يدك ، وهكذا كلما تَدَبَّرْت في كلام الله وكلام رسوله اتسع لك المعنى ، حتى إننا لم نعد بين فقير يأخذ وغني يعطي ، وإنما نحن أمام غني يعطي والله يأخذ ، وفقير يأخذ من يد الله والله ـ سبحانه ـ قد اقترض والغني أقرض ، والله ـ سبحانه ـ سيسدد القرض ، الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ثم يزيد ، ومهما كانت حفاوة الناس بأهل العطاء فإن الذي لهم عند الله لا يقاس بالذي لهم عند الناس .

ولم يكن عطاء النفوس التي من شأنها العطاء متوقفًا عند العطاء الذي يسد حاجة الجوع في زمن الشدة ، وإنما كان العطاء يتجاوز ذلك ، حتى إنه ليسد حاجة من تعلق قلبه بجارية ، ولم يكن في يده ما يسعفه بالوصول إليها ، تجد واحدًا ممن رزقوا حب العطاء وحب إسعاف النفوس المتطلعة ، والتي لا تجد ما تنفقه يشتريها له وإن غالى صاحبها في ثمنها .

وكل ذلك مكتوب بلغة مختارة عالية ، وكأن شيوع اللغة المختارة العالية هو صنو شيوع هذه المعاني الإنسانية المختارة العالية ، لأن شيوع اللغة العالية من أهم مكونات الإنسان الأفضل ، كشيوع هذه المعاني العالية ، وليس للكتاب غاية أعلى وأكرم من غاية بناء وتكوين الإنسان الأفضل ، وعلى أصحاب الأقلام أن يقدموا له المادة التي تكوِّنُه ، وعليه هو أن يقرأ وأن يتدبر تدبرًا يدخل به هذه المادة في تكوين قلبه وعقله ، وكما أن أصحاب الأقلام حملوا همَّ تقديم ما تُبْنَى به القلوب والعقول ، فالواجب أن يحمل الناس كل الناس همَّ تكوين قلوبهم وعقولهم ، وكما أدى أصحاب الأقلام ما يجب عليهم نحو غيرهم ، فالواجب على الناس أن يؤدوا ما يجب عليهم نحو أنفسهم . هذا والله أعلم .

* * *

كِتَابُ الوُفُودِ

كانت الوفود التي تفد على الملوك والخلفاء من كرام قومها ومن أَصَحهّم عقلاً وأسدِّهم رأيًا وأفْصَحهم بيانًا ، وكان الوفد يختار منه من يتكلم عنهم ، فكان المتحدثون في الوفود خيارًا من خيار ، وكانت لغتهم عالية ويقظتهم حاضرة ، ولهذا كان هذا الباب من أهم أبواب كتاب العقد الفريد ، وقد وصف ابن عبد ربه الوفود بقوله : « إنها مقامات فضل ، ومشاهد حفل ، يُتخيَّرُ لها الكلام ، وتُسْتَهْذَبُ الألفاظ ، وتُسْتَجْزلُ المعاني ، ولابد للوافد من قومه أن يكون عميدَهم وزعيمهم الذي عن قوته يَنْزِعُون ، وعن رأيه يُصدرون ، فهو واحد يعدل قبيلة ، ولسان يُعْرِبُ عن أَلْسِنة » راجع كيف كان العرب في جاهليتهم يختارون وافدهم ، وأنه واحد يعدل قبيلة ، والذين اختارتهم القبيلة كأنها اختارت من يعدلها ، لأن قيمتها ، وقوتها ، وبأسها ، وشرفها في هذا الذي تختاره . واسأل نفسك ماذا كانوا يفعلون لو كانوا يختارون رئيس دولتهم ؟ وهل كان يمكن أن يَقْبَل هؤلاء أن يسوسهم ظالم ؟ أو فاسد ؟ أو موال لأعدائهم ؟ مثل هذه المقامات تقول لنا إن تاريخ الجاهلية مجهول لنا ، وطَبَّقْنَا كلمة الجاهلية على كل ما كان منهم ، وهي إنما كانت فقط في عبادة الأوثان ، واختيار الوفود في زمنهم يشبه اختيارنا لِنُوابِنَا ، فهل نحن الآن نُدقّق في اختيار من ينوبون عنا في مجالسنا هذا التدقيق ؟ ونقول لابُدَّ أن يكون الذي يمثلنا رجلاً يعدل كل الجماعة التي اختارته ؟ وأن يكون لسانُه معبرًا عن الذي في صدور هذه الجماعة التي اختارته ؟ ولو قلت إن اختيار الجاهليين للذي ينوب عنهم أعْلَى من اختيار

أكثر شعوب الأرض الآن تَقَدُّمًا لم تكن مخطئًا ، ولو قرأت كلام أعضاء الوفود لزاد اقتناعك بالذي أقوله ، ولا قيمة لهذا ولا لغيره إذا لم تقرأه شعوبنا وتَتَدبَّره ، ويُحْدِثُ في سلوكها تغييراً .

ذكر ابن عبد ربه « أن قَيْسًا بن عاصم لما وفد على رسول الله ﷺ بسط له الرداء » ، لأنه عليه السلام يَعْلَم أن قومه لا يقدمون إلا من هو أهل لأن يكون مُقَدَّمًا ، وأن تاريخهم كله ليس فيه حالة واحدة قدموا فيها كذابًا أو غادراً أو متآمراً ، أو مواليًا لعدو ، وهذا عجيب جدًّا في تاريخ هذه العرب ، ومثل هذا في العجب في زماننا ما أراه وتراه من تساند هذه الشعوب وتراحمها وتعاطفها وتماسكها رغم ما يكون أحيانًا بين السياسات من الاختلاف ، تشعر أن العرب من الخليج إلى المحيط كأنهم أبناء عائلة واحدة ، يتعاطف الذي في أقصى المغرب مع الذي في أقصى المشرق ، مع أنه ظهر فينا من يقولون إن حبَّك لبلاد العرب يُخْصَمُ من حبك لبلدك الذي أنت فيه ، يَعْني أن الذي لا يحب العرب يحب مصر أكثر من الذي يحب العرب ، وأرى مثل هذا ليس في صالح أحد إلا إسرائيل ، وهي تحرص على أن تضع تحت ألسنة رجال منا ما تريد ، ولذلك وجب الحذر من كل كلام تسمعه وفيه مصلحة لإسرائيل ، ثم إن ابن عبد ربه وضع تحت عَيْنَيْكِ كلام الوفود ، وعليك أنت أن تتعرف تخيُّر الكلام ، وتهذيب الألفاظ ، وجزالة المعاني ، أولاً لأن هذا مما لا يهديك إليه إلا تأمُّلك في البيان ، ومن الخطأ الذي وقعنا فيه هو أننا اكتفينا بالذي يقوله الناس في البيان من غير أن نعالج نحن هذا البيان بذائقتنا اللغوية ، وكأن الذي وصفوا به البيان هو كل ما فيه ، وَلاَ بُدَّ لنا أن نعالج البيان كما عالجوه ، ولو لم نستخرج منه إلا الذي استخرجوه ، والأمر الثاني الذي ننتفع به من وضع كلام الوفود بين أيدينا هو أن كلام هذه الوفود فيه من الحكمة واليقظة والبصيرة ما ننتفع به ، لأنه كلام الصفوة

المتميزة ، وخير ما تعالجه وتنظر فيه هو كلام الكرام الكبار الذين كانوا في مواقع قيادية لأقوامهم ، وحفظوا لهم مكانهم وأرضهم ، وعزهم ، ومَنَعتهم . وسترى ذلك ظاهرًا بينًا في كلام الوفود .

النعمان بن المنذر وفد على كسرى

وأول ما ذكره ابن عبد ربه في الوفود هو أن النعمان بن المنذر وَفَد على كِسْرى وعنده وفود من الروم ، ومن الهند ، ومن الصين ، فتكلم النعمان كلامًا رفع فيه العرب على غيرهم من أمم الأرض ، بما في ذلك الفرس ، الذين هو في دارهم ، وأن ذلك أثار غضب كسرى ، فتكلم كسرى وذكر الروم ، وأن لهم دولة وسياسة ، ودين ، وأن لهم مدنًا ، ومصانع ، ومثلهم الهند ، وذكر أنهار الهند ، وخصوبة بلادهم ورغد عيشهم ، وعلمهم ، ومصانعهم ، وذكر الصين ونوَّه بصناعة الصين لأدوات الحرب ، ونوَّه بفروسيتهم ، ثم ذكر العرب وأنهم دون كل هذه الأُمم ، وليس لهم دولة ، ولا سلطان ، ولا سياسة ، ولا دين ، وأن أرضهم لا خير فيها ، وأنهم يعيشون مع الوحوش في الخرائب ، ويأكلون لحوم الإبل ، مع أن الحيوانات تعافُ لحوم الإبل ، فطلب النعمان الكلمة وبدأها بالثناء على الفرس ، وعلى دولتهم ، ثم طلب من كسرى أن يأذن له في مراجعة ما قال وأن يعطيه الأمان ، ليقول الذي عنده ، فأذِنَ له كسرى ، وأعطاه الأمان ، وكان كسرى قال عن العرب ولم أر لهم شيئًا من خصال الخير في أمْرِ دين ولا دنيا ، ولم أر لهم حَزْمًا ولا قوة ، ثم قال يقتلون أولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضًا من الحاجة ، وإن أكرم أحدهم ضيفًا عدَّها مكرمة ، وقد أدرك النعمان أن الذي هيّجَ كسرى ليس لأن النعمان فَضَّل العرب على الهنود والصينيين والروم ، وإنما لأنه فضلهم على الفرس ، فتفادى ذلك في الكلمة الثانية بذكاء شديد ،

وهو أنه ذكر مقدار الدولة الفارسية ، ومقدار حكمة ملوكها الذين هم آباء كسرى ، ولم يفضلها على العرب ، ثم بدأ يرد كلام كسرى في أدب شديد ، حتى إنه نفى أنه يَرُدُّ عليه ، أو يكذب كلمة قالها كسرى ، وإنما هي الحقيقة الغائبة أراد بيانها ، وفتح كلامه في الدفاع عن أمته بقوله : « إن الهند والصين والروم والأمم التي ذكرها كسرى أيُّ أُمَّةٍ منها تُقْرَن بالعرب فَضَلَتْهَا العرب فقال له كسرى بماذا ؟ فلخّص الجواب في سطر ونصف وقال بعزها ومنعتها وحسن وجوهها ، وبأسها ، وسخائها ، وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها ، وأَنَفَتِهَا ووفائها ، ثم أخذ في شرح هذه الخلال ، وأولها وأفضلها وأقواها هو ما بدأ به من عِزّتَها ومنعتها ، لأن الأمم لا تَفْضُل بشيء كما تفضل بالعزة والمنعة ، ومن ذكاء النعمان العجيب أنه أثبت هذا للعرب بالذي يُرضي كِسْرى ، وهو أنهم عاشوا في تاريخهم كله مجاورين لدولة الفرس التي دوَّخت العالم ، ولكن العرب سَلِمُوا منها فظَلُّوا سادة بلادهم ، وقال في بيان ذلك حصونهم ظهور خيلهم ، ومِهادُهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجُنّتُهم السيوف ، وعُدّتهم الصبرُ ، وكان هذا أيضًا ردًّا على قول كسرى في الذين فضلهم على العرب إن لهم حصونًا وجيوشًا وعتادًا ، وذكر في سخائهم أن الرجل قد يكون عنده ناقة وليس عنده غيرها فينحرها لضيفه مؤثرًا حُسْن الأُحْدوثة على ما به يكون قوام حياته ، ثم ذكر حكمة أَلْسِنتهم وأن الله ـ سبحانه ـ رزقهم من رونق البيان والقدرة على ضرب الأمثال ما لم يرزقه لغيرهم من البشر ، وأما دينهم فحسبهم أن لهم أشهرًا حرامًا لو لَقِي أحدُهم قاتل أبيه أو أخيه لم يفكر لحظة في أخذ ثأره ، ثم إن لهم بيتًا مَحْجُوجًا وبلدًا حرامًا ، وأما وفاؤهم فإنك لا تجد أمة تنكر الغدر كما تنكره العرب ، وإن الرجل قد يَسْتَجِيرُ بالرجل وهو لا يعرفه فيحميه بنفسه وأهله ، وأخذ يعدد فضائل قومه وكسرى يستوعب ذلك كله بدقة شديدة ،

ويحكم بما يقتنع به ، وكان مما قاله النعمان في الرد على أن العرب لم يكن لهم ملك كالذي عند الأمم ، هو أن الحاجة في وجود دولة تَحْمي مصدره العجز في الدفاع عن الأرض والنفس . وهذا العجز لم يكن يخامر العرب ، ولهذا كانوا في غنى عن الملك الذي كان لغيرهم ، وذكر ابن عبد ربه أن كسرى أُعجب بما قاله النعمان وقال له إنك أهل لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك ، ولِمَا هُوَ أفضل منه . ولا شك أن كسرى أعجبه من النعمان دفاعه عن قومه ، وصدق ولائه وحُبِّه لقومه ، لأن كسرى رجل دولة يُقدِّرُ الرجال ، ويُقَدِّرُ صدق ولائهم لأقوامهم ، ولم يفكر النعمان في أن يصانع كسرى ويَقبْل كلامه في العرب ، ويزداد قربًا منه ، ثم إن النعمان بحسّه السياسي استشعر أن صورة العرب عند كسرى الذي حدَّث عنها قَبْلَ أن يَرُدّ عليه النعمان ربما كان وراءها التفكير في غَزْو العرب ، فلما رجع دَعَا رؤساء العشائر ، وأخبرهم بما سمعه من كسرى، وبما ردّ به عليه ، وطلب منهم أن يذهبوا إلى كسرى وأن يسمعوه، ليس في موضوع مُحَدَّد ، وإنما أراد النعمان أن يسمع كسرى من قادة العرب ما هم عليه من عَقْل وحكمة ، وبَأْو وعِزّة ، والرفض القاطع من خضوعهم إلى الغير ، والحرص الكامل على الوفاء للجار ، وكان منهم أكثم بن صيفي ، والحاجب ابن زرارة، وعامر بن الطفيل، وعمرو بن الشَّريد، والحارث بن ظالم، وأرسل معهم رسالة رتَّب فيها أسماءهم على الوجه الذي أراد ، فذهبوا إلى كسرى وقرأ الرسالة ودعاهم بالترتيب الذي ذكره النعمان وسمع منهم ، وكان مما قاله أكثم ابن صيفي : « إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعَمُّها نفعًا ، وخير الأزْمِنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقهم ، والصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشرُّ لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وَطِيء ، آفة الرأي الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور

الصبر ، حسن الظن وَرْطة ، وسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي ، من فسدت بطانته كان كالغاصِّ بالماء ، شر البلاد بلاد لا أمير فيه ، شر الملوك من خافه البريء» وواضح أن أكثم وهو من خير حكماء العرب لم يتكلم في موضوع محدد كما أوصاهم النعمان ، وإنما كان يعرض حكمته وبصره وبصيرته ، ولما سمع كسرى هذا وهو رجل دولة يعرف أقدار العقول قال لأكثم : وَيْحَكَ يا أكثم ما أحكمك وأوْثَقَ كلامك ، لولا وضعك كلامك في غير موضعه ، لو لم يكن للعرب غيرك لكفى ، ثم سمع كلام بقية الوَفْد واتضحت له قدرة وصلابة هذه القيادات ، وأنه لا يمكن أن يفكر في احتلال أرض هؤلاء هم رجالها ، وأنه لا يمكن أن يتحول شعب أنتج هؤلاء الرجال إلى طَمَاطِمة تحت قيادة الفرس مهما كانت قوتهم ، وآخر الكلمات كانت كلمة الحارث بن ظالم ، وقد أغضب فيها كسرى ، والكلمة في أربعة سطور هي : « إن من آفة المنطق الكذبُ ، ومن لُؤم الأخلاق المَلَقُ ، ومن خَطَل الرأي خِفَّةُ المَلِك المسلَّط ، فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن ائتلاف ، وانقيادنا لك عن تصاف ، فما أنت لقبول ذلك منا بخليق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفاء بالعهود ، وإحكام وَلْثِ العقد « وَلْثُ العقود يعني إحكامه بين اثنين» ، والأمر بيننا وبينك معتدل ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل» . وقال له كسرى : من أنت ؟ قال : الحارث بن ظالم ، قال : إن في أسماء آبائك دليلاً على قلة وفائك ، وأن تكون أول من غدر وأقرب من الوِزْر ، وهكذا اشتد غضب كسرى فرد عليه الحارث وقال : « إن في الحق مَغْضَبةً والسَّرْو والتغافل (والسرو معناه المروءة) يعني أن المروءة مع التغافل ، ثم قال الحارث : ولن يَسْتَوْجِبَ أحدٌ الحلمَ إلا مع القدرة ، فَلْتُشْبِه أفعالُك مَجْلسك» ، وأدرك كسرى أن الحارث يؤدِّبه ، فقال : هذا فتى القوم .

جبلة يفد على عمر

ومن الوفود التي ذكرها ابن عبد ربه وفد جَبَلَةَ بن الأيهم بن شَمِر الغسَّاني الذي كان ملكًا في الشام ، أراد الدخول في الإسلام ، فأرسل إلى عمر بذلك واستأذنه في القدوم عليه في المدينة ففرح عمر بذلك وأذن له ؛ فقدم على عمر ومعه خمسمائة فارس ، فلما دنا من المدينة ألْبسهم ثياب الوَشْي المنسوج بالذهب والفضة ، ولبس هو التاج وعليه قُرْطُ مارية جَدَّتُه التي ذكرها حسان في شعره ، فدخل المدينة وقد خرج الناس ينظرون إليه وإلى من معه ، وبقي في المدينة حتى جاء موعد الحج فخرج إلى الحج ، ثم قدَّر الله ما قدّر ، ووطئ فَزَارِيٌّ ثوب إزاره وهو يطوف فحل إزاره ، فنظر إليه جبلة وهو مغضب فضربه فهَشَمَ أنفه فشكاه الفزاري إلى عمر ، فقال جبلة لعمر : نعم ضربته لأنه وطئ إزاري فحلَّه ، فقال له عمر : إما أن ترضيه أو جعلتُه يضربك كما ضربته ، فقال : أيَقُود مِنِّي وهو سوقة وأنا ملك ؟ فقال عمر : لقد سوّى الإسلام بينكما ، فقال جبلة : لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية ، وما دام الإسلام يسوّى بيني وبين السوقة إذن أتنصرّ ، فقال عمر : لو تنصّرت لضربت عنقك ، لأنك حينئذ مُرْتَدٌّ عن الإسلام ، وهذا حكم الله في المرتد ، فقال : أمْهِلْني إلى الغد ، فقال له : لك ذلك ، فتسلَّل من ساعته إلى القسطنطينية ولَقِيه هرقل وتنصّر وأكرمه وأنزله منازل الملوك ، ولما بعث عمر برسالة إلى هرقل يطلب منه الإسلام ، فعرض هرقل الصُّلح على غير الإسلام ، وقال للرسول هل لقيت ابن عمك الذي بيننا ؟ يريد جبلة فقال له لا . فقال اذهب فألْقه وتعال غدًا تأخذ جوابنا لعمر ، فذهب الرسول فوجد بيت جبلة محفوفًا بالأُبّهة والرجال كبيت هرقل ، فلما دخل عليه أجلسه على سريره ، وكرَّمه وسأله عن المسلمين ، فقال تضاعف عددهم عن الذي تعرف ، وكان إذا ذكر رسول الله صلَّى عليه وسلَّم

فطمع الرسول في إسلامه فعرض عليه الإسلام ، فقال : يمكن أن أرجع مسلمًا إذا زوجني عمر ابنته ، وجعل لي الأمر من بعده ، فقال له الرسول أضْمَنُ لك الأولى ، ولا أضْمَنُ لك الثانية ، ثم دعا جبلة جواريه وجئن وغَنَيْنَ وقلن :

لله درُّ عِصَابَةٍ نادمتُهم يَوْمًا بجلَّق في الزمن الأوَّلِ
يسقون من وَرَدَ البَرِيصَ عليهم بَرَدَى يُصَفِّقُ بالرحيق السَّلْسَلِ
أولاد جَفْنَةَ حول قبر أبيهم قبر ابن مَارية الكريم المُفْضِلِ
يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كلابهم لا يسألون عن السَّوَادِ المُقبلِ
بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسَابُهم شُمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأولِ

ثم سأل الرسول أتعرف هذا الشعر ؟ فقال لا . فقال هو حسان صاحب رسول الله ﷺ ، ثم غنت الجواري شعراً آخر لحسان بكى فيه ديار أولاد جفنة ، فبكى جبلة ، ثم حمَّله هدايا إلى حسان ، فلما عاد أخبر عمر بالذي كان وأرسل عمر إلى حسان وأخذ هداياه وانصرف وهو يقول :

إنّ ابنَ جَفْنَةَ من بَقِيَّةِ مَعْشَرٍ لم يغْذُهم آباؤهم باللُّومِ
لم يَنْسَنِ بالشام إذ هو رَبُّها ملكا ولا متنصرًا بالروم

فقال له رجل كان في مجلس عمر ، أتذكر ملوكًا كفره أبَادَهُم الله وأفناهم ؟ فقال حسان مِمَّن الرجل ؟ فقال مُزنى ، قال أما والله لولا سوابق قومك مع رسول الله ﷺ لطوقتك طوق الحمامة ، وحسان صاحب رسول الله ﷺ يعلم أن ذكر فضل أهل الفضل الذين لم يدخلوا في دين الله ليس إثما ولا حرج عليك أن تذكر فضل عتبة بن ربيعة وأنه كان متفردًا في قريش التي سوَّدَتْه وهو فقير ، ولم يسودوا فقيراً سواه ، ولا حرج عليك إذا ذكرت فضل أبي جهل الذي سوّدته قريش قبل أن تنبت لحيته وجلس في مجالس شيوخهم وكان أصغر الجالسين ،

وإنما الإثم أن تدعو الله أن يغفر لهم لأن الله لا يغفر أن يشرك به ، وربما كان شيخنا الكريم المزني الذي اعترض على ذكر حسان لأولاد جفنة ، ربما كان جَدًّا لأصحابنا الذين يُحَرِّمُون على المسلم أن يقول لجاره المسيحي في أعياد النصارى كل عام وأنتم بخير ، المشكلة هي عدم القراءة ، والمشكلة التي بُنِيَتْ عليها وهي أبشع منها أنك تتكلم بغير علم ، وقالوا لو سكت من لم يعلم لاستراح الناس ، وهذا معناه أن كلام من لم يعلم فيه تعب للناس ، وشقاء للناس ، وبَلْبَلَة في الناس ، وسيدنا عبد الله بن عباس الذي رُبِّيَ في صحبة سيد الثقلين وسمع أحسن ما يُسْمع ، وامتلأ قلبه وعقله من سماع أحسن ما يُسْمع ، قال لو أن فرعونًا أَسْدَى إليَّ معروفًا لشكرته عليه ، وأحدث ما سمعته ممن لا يعلم قوله إنه لا يُقَدِّسُ التراث ، وأنه ليس عبدًا للتراث ، وأول ما سمعت هذا أدركت أنه يَسْتَقِي ما يقول من أفواه غير العلماء ، وأنه شاع بينهم أن التراث جامد ، ثم إنه جمَّد عقول من تعلموه ، وأن صاحبنا يُريدُ أن يكون حُرَّ الفكر وأن يكون مُتَنَوِّرًا ، وقد قضيت عمري في قراءة التراث ولم أجد فيه كلمة واحدة توهم أن أحدًا قدَّس التراث ، فضلاً عن أن تدل على ذلك ، ولم أجد فيه كلمة لعالم صغيرًا كان أو كبيرًا ، قال إنه عبد للتراث ، وإنما كل كلام يُؤْخَذُ منه ويترك إلا صاحب هذا القبر ، وقالها مالك في الزمن الأول ، وتمام كلمة مالك أن كلام صاحب هذا القبر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يؤخذ كله إذا كان وحيًا أوحاه الله إليه ، وأن كل من شهد الشهادتين يقول لوحي الله في الكتاب والسنة سَمِعْنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، وأن سيدنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إذا تكلم بغير وحي كان كلامه مثل كلام الناس يؤخذ منه ويترك ، وكان أصحابه يسألونه أهذا وحي أوحاه الله إليك ، فإن قال هذا وحي قالوا سمعنا وأطعنا ، وإن لم يكن وحيًا ناقشوا كلامه وقبلوا منه ورفضوا ، وكان عليه السلام يقبل منهم هذا ،

وكان يتنازل عن قوله الذي قاله ويأخذ برأيهم الذي يخالف رأيه ، وهذا ما أمره الله به لما قال له : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ (آل عمران:١٥٩) وهو خير من خلق الله وبرأ ، ولو كان غاية الذكاء وغاية البصيرة وغاية السداد يُكْتَفَى به عن الشورى لكان هو ﷺ والنبيون من قبله ، لأن الله ـ سبحانه ـ أمر كل أنبيائه بالشورى ، ولم أعرف عِلْمًا واحدًا من علومنا خلا من الخلاف ، ففي الفقه خلاف ، وفي اللغة خلاف ، وكل ما هو من صناعة الإنسان فيه خلاف ، ولست أدري من أين جاء المتحدث المتنور بالقول بتقديس التراث إلا أن يكون قد اختلق هو هذا الباطل وجعل منه قضية ، ثم إن القول بأن من الناس من هو عبد للتراث افتراء وكذب ، لأن الكل ليس عبدًا إلا لله الذي خلقه ، وأظن أن هؤلاء الذين يتكلمون في الدين وغير الدين بغير علم يعتقدون أن الكتاب والسنة من التراث ، وهذا هو الجهل الأجهل لأنه يُفْضِي إلى الكبيرة ، وإنما التراث هو كلام الناس ، والقرآن كلام الله والسنة وحي من الله بلَّغه لنا رسولنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

الأحنف يفد على عمر

ذكر ابن عبد ربه أن الأحنف بن قيس وفد على عمر رضي الله عنه وعنده وفود أخرى ، وقد تكلم كل واحد في شأنه الخاص وتكلم الأحنف في شأن عام ، وأن البلاد التي هو منها لها حاجة ماسَّة في أن يُحفر فيها نهر ليكون لهم منه خِصْبٌ يدفع عنهم الفاقة ، وليجدوا الماء العذب الذي لا يجدونه الآن إلا بمشقة ، ولو لم يأمر عمر بحفر النهر هلك الناس ، فعقّب عمر على هذا الموقف الذي فيه رعاية مصالح الناس ، وأن قائله لم يشغله أمر نفسه ، وقال : هذا والله السيد ، ويكرر الجملة التي أكدها بالقسم بالله وجعل القسم معترضًا بين المبتدأ والخبر ، وهذا الاعتراض دال على شدة العناية بهذا الأمر ، ويسمع إخواننا الذين

شغلتهم مصالحهم الخاصة ، وقسم عمر فيه معنى مدلول عليه بتعريف طرفي الجملة يعني هو وحده السيد ، وقال الأحنف : ما زلت أسمعها بعده . ويُهيج ذلك رجلاً من جبلة فيقول لعمر وهو يريد النيل من الأحنف إنه ليس هناك وأمه باهلية ، فيرد عليه عمر ويقول له إنه خير منك إن كان صادقًا يعني في الذي حدَّث به عن الجماعة الذين هم في حاجة شديدة إلى النهر ، ويرد الأحنف على ابن جبلة ويقول :

أنا ابن الباهلية أرْضَعَتْني ... بثَدْيٍ لا أجدٍّ ولا وخيم

أغُضُّ على القَذَى أجْفَان عَيْنِي ... إذا شَرَّ السفيه إلى الحليم

والثدي الأجد هو اليابس الذي لا لبن فيه ، والوخيم الذي لبنه غير زاك ، ولاحظ الأحنف واقتداره وأن أول ما افتخر به هو أمه الباهلية التي عابها المتكلم ، وأن الأحنف جعل ما سمعه منه ضَرْبًا مِنَ القذى وأنه شر شرَّه سفيه إلى حليم ، ثم إن عمر يُمثل بعقليته الواعية المسؤول الذي هو أهل للمسؤولية ، وأن الكرام الذين يراهم هو كرامًا هم الذين يشغلهم أمر الناس ، والذين لهم عيون تدور في الجماعة التي هم منها ، وتتعرف على حاجاتهم وتشغل بها وتطالب المسؤولين بسَدِّها ، وليسوا هم الذين ترى كلَّ واحد منهم مشغولاً بشأنه هو ، وأشد ما ينقصنا وأخطر ما نعانيه هو اشتغال كل واحد منا بالذي يخصه حتى صار الشأن العام في مَضْيَعة ، ولن نتقدَّم خطوة واحدة إلى الأمام إلا إذا شغلنا جميعًا وليس بعضنا ولا أكثرنا بهذا الشأن العام الذي هو في الحقيقة مستقبل البلاد ومن عليها من الناس الذين هم أولادنا وأحفادنا وأكبادنا تمشي على الأرض .

سودة تفد على معاوية

وفَدَتْ سَوْدة بنت عمارة الهمدانية على معاوية ، وكان أخوها وقومها من

جنود الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ ، وكانوا يقاتلون معه قِتَالَ المجاهدين في سبيل الله ، لأنهم كانوا يرونه على الحق ، ولما دخلت على معاوية قال لها أنت القائلة لأخيك :

شمِّر كفعل أبيكَ يابنَ عمارةٍ   يومَ الطِّعانِ ومُلتقى الأقرانِ
وانْصُرْ عَلِيًّا والحسينَ ورَهْطَه   واقصِدْ لهندٍ وابنها بِهَوانِ
إن الإمام أخو النبي محمد   عَلَمَ الهدى ومنارةَ الإيمانِ
فَقُدِ الجيوشَ وسِرْ أمام لوائه   قدما بأبيض صارمٍ وسنانِ

قالت : « يا أمير المؤمنين مات الرأس وبُتر الذنب» وهذا مثل يضرب عند فقد القوة والبأس ، فقال لها معاوية : إن ما كان من أخيك لا يُنسى ، فقالت له : نعم كان أخي كما قالت الخنساء :

وإنَّ صَخْرًا لتأتم الهُداةُ به   كأنه عَلَمٌ في رأسه نارُ

واستعفته من الحديث في الذي مضى فأعفاها ، وقال لها ما حاجتك ؟ ذكرت أن عماله فيهم يسومونهم سوء الخسف ، وكان عمال بني أُمية يَتَرَصَّدُون الذين كانوا مع علي سواء كانوا جنودًا أو عمالاً أو كانوا من أهل الولاء لعلي وينزلون بهم الخَسْف والهوان بصورة بشعة ، حتى إن عاملاً لمعاوية نزل محلة كان عامل علي فيها عبيد الله بن عباس ، فهرب منه عبيد الله فذبح ولديه تحت بصر أمهما ، وكان هذا من أشنع وأبشع ما في تاريخ بني أمية ، والمهم أن الهمدانية شكت له من عماله ، وأنه قتل رجالها وأخذ مالها ، وأن معاوية هو المسؤول بين يدي الله عن هذا ، وقالت لمعاوية : لولا الطاعة لكان فينا عِزٌّ ومَنَعَة ، فإما عزلته عنا فشكرناك وإما لا فعرفناك ، وهذا تهديد صريح وصارخ لمعاوية ، وفَهْم وفِقْهٌ من سودة الهمدانية ، لأنها قالت لولا الطاعة ، ومعنى

العبارة أننا كنا نحاربك حتى لا تكون أمير المؤمنين ، ثم تغلّبت فأوْجَبَ الله علينا طاعتك ، فطاعتنا لك ليست أمرًا أوجبناه على أنفسنا وإنما هو أمر أوجبه الله علينا ، فإن دَفَعْتَ عنا جَوْر عمالك شكرناك وإلا عرفناك ، لأن عزنا وقوتنا ومنعتنا تحْمِينَا منك ومن جَوْر عمالك ، فغضب معاوية فقال لها « إياي تهددينني بقومك ؟ والله لقد هممت أن أردك إليه على قتب أشرس ، والقتب بردعة توضع على سنام البعير لا تسع إلا راكبا واحدًا ، والأشرس صفة للبعير ، والمراد غلظته وخشونته ، فسكتت قليلاً ثم قالت :

صلّى الإلهُ على روحٍ تَضَمَّنه ... قبرٌ فأصبح فيه العَدْلُ مَدْفُونا

قد حَالَفَ الحقَّ لا يبغي به ثَمَنًا ... فصار بالحقِ والإيمانِ مَقْرونا

وظاهر أنها تريد عليًا ، ومع ذلك سألها معاوية ومَنْ ذلك ؟ قالت : علي ابن أبي طالب رَحِمَهُ اللَّهُ ، فقال لها معاوية : ما أرى له عليك أثر ؟ أراد النعمة ، فقالت : جئته يومًا في شأن رجل وَلاَّه على صدقاتنا فوجدته قائمًا يصلي ، فلما فرغ من صلاته اتجه إليَّ وقال برأفة وعطف ولطف ألك حاجة ؟ فلما أخبرته بالذي كان يكون من عامل الزكاة من غلظة وخشونة وغطرسة بكى ورفع يديه إلى السماء وقال : يارب أنت تعلم أنني ما أمرتهم بظلم خلقك ، ولا بترك حقك ، وكتب كتابًا أعطاه لي مكشوفًا غير مختوم ، قال فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ » فأخذته منه وما حزمه بحزام ولا ختمه بختام ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها ، فقالت : أَلِيَ خاصة أم لقومي عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ، قالت : هي والله إذن الفحشاء واللؤم إن لم يكن

عدلاً شاملاً ، وإلا يَسَعُني ما يَسَعُ قومي ، قال معاوية : هيهات لمظكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان فبطيئًا ما تُفطمون ، وغركم قوله :

فلو كنت بَوابًا على بَابِ جَنَةٍ لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

ثم أمر بأن يكتبوا لها في حاجتها وحاجة قومها» من الجهل والغفلة أن أعقب على هذا بالقَوْل بأن المرأة كانت تُشغل بالشأن العام ، لأن هذا من المعلوم بالضرورة لكل من قرأ شيئًا في التاريخ ، وإنما الذي أريد التنبيه إليه هو أن معاوية كان يملؤه الغيظ من همدان الذين كانوا يواجهونه في الحرب وكأنهم يواجهون عدوا من أعداء الله ، واستطاعت سيدتنا سودة بصدقها وصرامتها وذكائها وبقاء ولائها لسيدنا علي أن تهدم في نفس معاوية هذا الغيظ ، ولم تتزحزح عن حبها وولائها للإمام قِيد نَمْلة ، وقالت لمعاوية إن الله أوجب علينا أن نَدْخل في طاعتك لما تغلبت فدخلنا فيها ، وأوجب عليك العدل والحق لمن كانوا عليك ، وأنهم صاروا كالذين كانوا معك لما أدَخلهم الله في طاعتك ، وهذا هو دين الله الذي يجب أن يكون معلومًا لكل من صار صاحب سلطان بالغلبة ، يجب أن يعامل الكل معاملة واحدة ، وليس من الدين ولا من السياسة أن يطارد من انتهى إليه الأمر واحدًا ممن كانوا عليه وأنهم خَونَة وأعداء البلاد والعباد إلى آخره ، وما دمت صرت رئيسًا للبلاد فأنت مسؤول عن كل واحد فيها ، وهذا هو الدين وهذا هو التاريخ ، وهذا هو العقل ، وهذه هي الفطرة ، وكلما وجدت نظامًا سياسيًّا جاء عقب نظام وكل شواغله هي أن النظام الذي كان قبله نظام رجعي أو عميل أو خطر على البلاد والعباد ، أيقنت أنه لن يتقدم خطوة إلى الأمام ، لأن الذي يمتلئ عَقْلُه وقلبه بتقدم البلاد يفرغ نفسه من كل هذا ، ويدعو الكل للعمل معه في مصلحة البلاد والعباد ، والمخطئ يحاسبه

القضاء الذي لا سلطان لأحد عليه إلا الحق والعدل ، ولاحظ أن سودة الهمدانية رفضت أن يَرفَعَ عنها معاوية الظلم وحدها ، وقالت إما عدل شامل وإلا يَسَعُها ما يَسَعُ قومها ، وهذه هي الروح التي تبنى بها الأوطان .

دخلت بكارة على معاوية

قال ابن عبد ربه : دخلت بكارة الهلالية على معاوية وقد أسَنَّتْ وعَشَى بَصَرُها ، وامتلكها الضعف وهي تَرْعَشُ بين خَادِمَيْن وكانت بالمدينة ، وكان معاوية بالمدينة فقال لها معاوية كيف أنت يا خالة ؟ فقالت بخير يا أمير المؤمنين ، فقال لها غيَّرك الدهر ، فقالت كذلك هو ذو غير من عاش كَبِرَ ومن مات قُبِرَ ، وكبر بكسر الباء من باب طرب أي أسنّ ، وكَبُر بضمها يكبرُ إذا عظم ، ولاحظ أنها ترعش بين خادمين وعشى بصرها ، وتَلَقَّاها معاوية برفق ولطف وذكرها بأنه يعرفها قبل أن يغيرها الدهر ، وأن هذه المعرفة القديمة بمثابة رحم ، ويعرف من أمر خصومتها هي وقومها له ما يعرف ، ولكنه عاملها بهذا اللطف ، وفي المجلس عمرو بن العاص ، فقال هي والله القائلة :

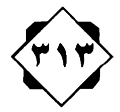
يا زيدُ دونك فاسْتَثِره من دارنا ... سَيْفًا حُسَامًا في التراب دَفِينا
قد كنت أذْخُره ليوم كريهةٍ ... فاليومَ أبْرَزَه الزمانُ مَصونا

قال مروان هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أتُرَى ابن هند للخلافة مالكًا ... هيهات ذاك وإن أراد بَعيدُ
منّتْكَ نَفْسُكَ في الخلاء ضلالةً ... أغراك عمروٌ لِلشَّقَا وسعيد

وقال سعيد بن العاص هي والله القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى ... فوق المنابر من أُمية خاطبا



فـــالله أخّـــر مُـــدَّتي فَتطاوَلَـــتْ ... حـــتى رأيـــت مـــن الزمـــان عجائبـــا

في كُـــلِّ يـــوم للزمـــان خطيـــبُهم ... بـــين الجميـــع لآلِ أحمـــدَ عائبـــا

ثم سكتوا ، فقالت : أنا والله قائلة ما قالوا ، وما خفي عليك مني أكثر ، فضحك معاوية ، وقال ليس يمنعنا ذلك من برّك ، اذكري حاجتك ، قالت الآن فلا ، وخرجت ، وتعجب من هؤلاء الثلاثة وكيف تتابعوا وهم يَرَوْنَ عجوزًا تُرْعَشُ بين خادمين ، والثلاثة من كبار كرامنا ، ولو أردت أن تخُصَّ مَرْوان ابن الحكم الذي كانت حاجة الناس عنده أشد من حاجتها عندهم مَنَعك من ذلك سعيد بن العاص الذي كان يوشك أن يكون سيد سادات بني أمية ، ثم صُحْبَة عمرو بن العاص لسيدنا رسول الله ﷺ ، وأن ولده عبد الله كان قريبًا جدًّا من رسول الله ﷺ ولم أَجِدْ شيئًا يسوّغ موقفهم هذا ، وأن معاوية أكرم هذه الهلالية وهو يعلم منها ما يعلمون ، ثم إنها كانت في هذه اللحظة أفضل من الثلاثة لأنها قالت إن الذي كان مني أكثر من الذي تقولون ، وهذا يعني أنه لا قيمة لما تقولون ، ثم خرجت ورفضت أن تذكر حاجتها ، وهي لا شك حاجة مهمة لأنها جاءت وهي تُرْعَشُ بين خادمين ، وما كان لها أن تفعل ذلك إلا لأمر مهم ، وإنما استصغرت ما كان منهم وأبت أن تذكر حاجتها في مجلس هم فيه ، ولو كان مجلس أمير المؤمنين وهذه هي النفوس التي تسَجّل مواقع يَمُوتُ الناسُ ويموتُ الزمانُ وتبقى هي حية ترويها الأجيال والأحقاب ، وأنا أكره وقوع الصغار من الكرام ولكنني لا أستبعده لأن كل ابن آدم خطاء .

دارميَّةَ الحجونية تلقى معاوية

ذكر ابن عبد ربه « أن معاوية حج وذكر وهو في مكة التي ولد ونشأ فيها امرأة كانت تسكن الحجون تسمى دارَمِيَّة الحجونية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ،

فسأل عنها فأخبر بسلامتها ، فبعث إليها فجاءت ، فقال لها : مالك يا ابنة حام ، فقالت له : لستُ ابنة حام وإنما أردت أن تعييني أنا امرأة من كنانة ، ثم قال لها : أتدرين لماذا بعثت إليك ؟ قالت : الله أعلم ، فقال لها : بعثت إليك لأسألك لماذا أحببت عليا وأبْغَضْتِيني ؟ وواليته وعاديتني ؟ فقالت له : أعفني من الجواب ، فقال لها : لابد ، فقالت له : أحْبَبْتُه لعَدْلِه في الرَّعِيّة ، وقسمته بالسوية ، وأبْغَضْتُك لأنك قاتلت الرجل عن حقه ، وطَمِعْت فيما ليس لك .. وواليته على ما عِنْدَ لَهُ من رسول الله من الولاء لما قال من عادى عليا فقد عاداني ومن والاه فقد والاني ، ولأنه كان يحب المساكين ، ويُعَظّمُ أهل الدين ، وعاديتك لسفكك الدماء ، وجورك في القضاء ، واتباعك للهوى» راجع وتذكر أنها تخاطب أمير المؤمنين ، وهي امرأة مفردة وإن كانت من كنانة التي هي من أعظم بطون مُضر ، ومعاوية يسمع منها أنه طمع في غير حقه ، وسفك الدماء ليصل إلى غير حقه ، وسمع منها أنه يجور في القضاء ، وأنه يتبع الهوى ، ومعاوية يسمع هذا ولم يغضب ، ولم يكفها عن الاسترسال في الثناء على عليّ ـ كرم الله وجهه ـ ، والاسترسال في هجائه مع أن الأمر قد انتهى إليه ، ولكنه انصرف إلى الفتوحات وبناء الدولة ولم يشغل بمطاردة الذين خالفوه ، وحاربوه ، وهكذا السياسة وهكذا الساسة ، وقصارى ما عقب به على كل هجائها له هو قوله : ولهذا انتفخ بطنك وعظم ثدياك وربت عجيزتك . فردّت عليه بما هو أشد وقالت له : الذي كان يضرب بها المثل في انتفاخ البطن وعظم الثدي وضخامة العجيزة هي هند أمك ولست أنا ، فيتراجع معاوية ويقول لها أربعي فلم أقل إلا خيراً ، ومعنى أربعي راجعي وانظري لأن الذي ذكرتُ من فضائل النساء ، فالمنتفخة البطن هي التي يكتمل ولدها ، والكبيرة الثدي هي التي يُروَى رضيعُها ، والكبيرة العجز هي التي ترزن في مجلسها ، فتهدأ الكنانية ، ثم ينتقل

معاوية فيقول لها : هل رأيت عليًّا ؟ فتقول له : نعم ، فيسألها كيف رأيتيه ؟ فقالت : لم يفتنه الملك الذي فتنك ، ولم تشغله الدنيا التي شغلتك ، سألها معاوية وهو يعلم أنها ستجيبه بما لا يحب ، ثم إنها لم تَقُلْ له لم يفتنه الملك وتسكت وإنما قالت له الذي فتنك ، ثم قالت ولم تشغله الدنيا وكان هذا كافيًا ولكنها أضافت التي شغلتك ، ثم قال لها : هل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم ، كان والله يجلو القلب ، ويذهب رَيْنَ النفس ، ويعقب معاوية على هذا ويقول لها صدقت ، فهل لك من حاجة ؟ قالت : أو تفعل إذ سألتك ؟ قال : نعم ، راجع يا سيدنا لتتعلم كيف تكون السياسة ، وكيف يكون الساسة يسألها عن حاجتها ويعدها بأنه يجيبها إذا سألته مع أنها وصفته بالجور والظلم والطمع في الذي ليس له ، وسفك الدماء ليأخذ حق غيره ، وأنه لا يعدل في الرعيّة ولا يقسم بالسوية ، وأنه فَتَنَهُ الملك وشغلته الدنيا ، كل هذا تجاوزه الرئيس الذي هو جدير بأن يكون رئيسًا ، ولاحظ أنها ليس لها عنده حاجة لأنها لم تأته وإنما هو الذي أرسل إليها ، ومع كل ذلك أراد إكرامها ، ولذلك تعجبت منه لما قال لها أو لك حاجة ، وقالت له أو تفعل ؟ ثم لما وعدها بالإجابة وسَّعت في حاجتها وطلبت مائة ناقة حمراء ، وحمر النعم خير مال العرب ، ولم تكتف بهذا وإنما زادت معها فحلها ، وراعيها ، فسألها ، وماذا تفعلين بها ؟ فقالت : أُرضع الأطفال من ألبانها ؛ وأساعد المحتاجين وأصلح بين العشائر وأكتسب بها المكارم ، فعاد معاوية إلى الذي لِعَليٍّ عندها لو أعطاها سؤلها وقال لو أعطيتك هذه المائة الناقة الحمراء أكون عندك كعلي ؟ فأجابت إجابة كانت غير متوقعة عند معاوية ، لأنها قالت مَاءٌ ولا كصَدَاء ومَرْعًى ولا كالسَّعْدان وفَتًى ولا كمالك ، وهذا مثل يقوله من حصل على خير وكان يريد خيرًا أفضل منه ، لأن صداء ماء عذب جدًّا ، والسعدان مرعى جيد جدًّا ، ومالك فتى لا يساويه

أحد ، وخلاصة الجواب : أني أرضى منك لو فعلت ويبقى عليٌّ في مقامه الذي لا يصل إليه غيره ، ولن تكون مثله ، ولو فعلْتَ وفَعَلْت ، وهكذا تَصْدُق الألسنة الصادقة ، وهكذا يسمع العقلاء الذين يؤول أمر الناس إليهم ، فيجتمع من كانوا عليه ليكونوا معه لخير البلاد والعباد ، ولا يعيشون في مطاردة من كانوا عليهم ، لأن مصلحة البلاد والعباد يُنْسِيهم أنْفُسَهم ، فضلاً عن مشاكل قد انتهى زمانها ، ثم أعطاها معاوية المائة ناقة الحمراء ومعها راعيها وفحلها ، وختم الكلام معها بقوله : لو كان عليٌّ حيا ما أعطاك منها شيئًا ، فأجابت بقولها : لا والله ولا وَبَرَة واحدة ، من مال المسلمين ، تريد أن عليًّا كان شحيحًا بمال الأمة ولست كذلك ، وهذا آخر ما شكرت به معاوية ، ولما سمع منها هذا نطق بما يجب على المسؤول أن يكون عليه إذا كان أهلاً للمسؤولية وقال :

إذا لَمْ أعُدْ بالحلم مِنّي عليكمُ فَمَنْ ذاك الذي بَعْدِي يؤمَّل بالحلمِ

خذيها هنيئًا واذكري فعل ماجد جزاك على حَرب العداوة بالسِّلم

ولن يتقدم أي بلد إلا إذا كان المسؤول الأول فيه يجازي على حرب العداوة بالسلم مع قومه ، لأنهم شركاء في الوطن ، ولن يستطيع أحد أن يلغي هذا الحق ، ثم إن الذي يجازي على حرب العداوة بالسلم مع قومه هو الذي يجازي الحرب بالحرب مع أعداء قومه ، وبهذا يستقيم الميزان ، أما الذي يجازي الخلاف بالحرب مع قومه ويجازي حرب العداوة بالسلم مع أعداء قومه فلم أعرفه في تاريخ الأمة ، وأظنه لو وجد لرفضت الأرض الحرة وجوده على ظهرها ، اللهم إلا أن يقهر التراب أيضًا ، هذا والله أعلم .

* * *



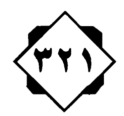
كتاب مخاطبة الملوك

ذكر ابن عبد ربه كتاب مخاطبة الملوك بعد كتاب الوفود للمناسبة القوية بينهما ، لأن الوفود غالبًا ما تكون على الخلفاء والملوك ، وكتاب مخاطبة الملوك كتاب في البيان ، لأن المخاطبة بيان ، ولهذا كان هذا الكتاب من أبرز الكتب التي توفِّر فيها حُسْن البيان ، لأن المتكلمين فيها وهم من صفوة الناس لم يكن القَصْد من كلامهم أن يمتع الأسماع ، وإنما القصد من كلامهم أن يَنْفُذَ إلى القلوب لقضاء الأوطار التي هي حوائج الناس ، وما تمليه المروءة ، وصدق النفس والرغبة في الخير ، ولما كان الأصل في مخاطبة الملوك هو سموُّ البيان وعلو طبقته بدأه ابن عبد ربه بتعريف للبيان ، واعلم وفقك الله أن الكلام وإن كان ظاهرًا مكشوفًا مُتَداولاً حتى لا يظن أن فيه معنى غير هذا الظاهر المتداول المبذول ، إذا أعملت فيه عقلك وأحْسَنْت تأمُّله وتدبره استخرجت منه شيئًا غير هذا الظاهر المتداول ، وذلك مشروط بشرط وهو أن يكون عقلك الذي تتدبر به عقلاً مُشْبعًا بالمعرفة والعلم ، لأن طلب العلم هو شاغلك الذي لم يشغلك عنه شيء وإنما هو شاغلك الذي شغلك عن كل شيء ، ولا تظن أنك ستجد عندي هذا أو شيئًا منه ، مع أنني أحاوله ، وإنما أقول لك حقيقة من حقائق العلم لأني أعلم أن الذي لا أستطيع فيه شيء ، يُصيبه من يستطيعه ، وأول ما في العلم أنه يعلمك أن تنكر ذاتك ، وأن تخلص للعلم وليس لها ، قال ابن عبد ربه في تعريف البيان : «كل شيء كشف لك قناع المعنى الخفي ، حتى يتأدَّى إلى الفهم ويتقبَّله العقل ، فذلك البيان الذي ذكره الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه ومنَّ به على

عباده فقال تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ (الرحمن:١-٤)» وكلمة «قناع المعنى» تعني أن البيان هو ما كشف مُخَبآت المعاني اللائي لهن قناع ، وعليهن حجاب ، وبيننا وبينهن أستار ، وكأن قناع المعنى لم يكف ابن عبد ربه في بيان أن المراد المعاني المُتَسَتِّرة والمُتَسَرْبلة فأضاف كلمة الخفي ، وهذا يعني أنه لا يَقْصِدُ إلى المعاني المتداولة والقريبة والتي ليست مُخبأة ولا متسربلة ، وإنما يَعْنِي أبكار المعاني ، وجدَّتها وهي الخارجة من وراء الأسْتار ، ثم إنه قال كل شيء كشف لك ، وإذا كان يتكلم عن اللغة وحدها لم يقل كل شيء ، وإنما أراد كل ما يكشف لك معنى مخبوءًا كالإشارة باليد أو بالرأس أو بالعين أو بما شئت مما تعلم ، وبهذا لم يعد اللسان مالكًا زمام البيان ، ثم إنك تلاحظ أن رسالة البيان لا تتخطَّى كشف القناع ، وأن هذا الكشف ليس هو نهاية الطريق ، وإنما هو بدايته ، فإذا وقفنا في البيان عند كشف القناع نكون قد وقفنا في البيان عند بدايته ، مع أن المهمة تبدأ من هذه البداية وهي مهمة طويلة ومتسعة ، وقد اختصرها ابن عبد ربه في قوله «حتى يتأدى إلى الفهم ويتقبله العقل» وكلمة «حتى يتأدى إلى الفهم» تشير إلى أن كشف القناع أَعَدَّ لك ما وراء القناع لتتعامل معه على الوجه الذي تريد ، والشأن أن أول خطوة تريدها من المعنى الذي أزال البيان لك عنه الحجاب هو الفهم ، وليس الفهم الذي من كثرة استعمالنا له ابتذلنا معناه ، وإنما أن تفهم المعاني فهمًا يستوعبها ويجمع نَشْرها ويَعِي تفاصيلها ودقائقها حتى لا تفوتك منه خاطرة ، ثم يلي ذلك الفهم تدبر هذا المعنى وإعمال العقل فيه من جهة قبوله أو رفضه أو تصحيحه أو الإضافة إليه ، والمهم أنه بعد فهمه وتدبره وتفليته على جهاته يكون مُعَدًّا لأن يكون علما يسكن في القلب والعقل ، ويتلقاه القلب والعقل بغبطة وحفاوة ،

أو يكون غير ذلك ، وكأن هذا الجزء من التعريف يبين دراسة وبحث ونقد الذي وراء القناع ، وأن الذي وراء القناع هو ما تعمل فيه عقول أهل الرأي ، وأهل العلم ، وأهل النظر ، وأن الذي وراء القناع هو المضمار ، وليس الذي قَبْل كشف القناع ، وتأكد أنني لم أُصِبْ غَوْر كلمات ابن عبد ربه وأن كل الذي قلته عالق بحروف وكلمات ما قال وليس مختبئًا تحتها ، وقوله «ومنّ به على عباده» أفهم أن هذا المنّ ليس لأن الله ذكره من نعمه فحسب ، وإنما لأنه ذكره عقب أول كلمة في السورة ، والسورة فتحت بكلمة الرحمن ، وهي كلمة تفيض رحمتها على السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، ولم أعرف سورة فتحت بكلمة واحدة تهز عرش القلب كما فتحت سورة الرحمن بكلمة الرحمن ، ثم إن المنّ من الله الذي لم تنقطع نعمه عن خلقه المؤمن والكافر ، وتعجب حين تجد نعمه سبحانه تفيض وتستمر في الفيض للذين يحادونه ويصدون عن سبيله ، المهم عندي هو أن المنّ من الرحمن الذي لا تنفد خزائنه معناه التنبيه على العناية بهذه النعمة ، وأنها نعمة عظيمة فلا تستعملوها في غير الحق والصدق والنطق الذي يرضى الله ، واحذروا حصائد الألسنة التي تكب الناس على مناخرهم في النار ، ثم إن الآية الكريمة تنبهنا بعد ذكر الرحمن إلى أعظم وأجل وأكرم نعم الرحمن وهي «علَّم القرآن» ولم يقل أنزل القرآن ليقربنا بتعلمه وليس بمجرد تلاوته ، وأن حظك من فضل الرحمن الأوْفَى هو مقدار ما تتعلم من هذا القرآن ، وقدم كلمة علم القرآن على خلق الإنسان مع أن الأصل في النظر أن يقدم المخلوق الذي علمه ، ثم يذكر أنه علمه ، وذلك للإشارة إلى أن ما خُلِق إلا ليعبد الله ، ولا تستقيم العبادة إلا إذا كانت على الوجه الذي بَيّنه ربنا في هذا القرآن ، ثم إن تكرار كلمة علم مع القرآن ومع البيان فيها إشارة إلى أن تعلمكم القرآن طريقه هو تعلمكم البيان ، لأن البيان

الذي هو لسانكم الذي نزل به القرآن إذا أتقنتم علمه أتقنتم علم القرآن ، وهذا اللسان يبين عن المعاني بطرائق وأحوال وليس بدلالة الألفاظ فحسب ، فالتنكير له دلالة ، والتعريف له دلالة ، والتقديم له دلالة ، والتأخير له دلالة ، والوَصْلُ له دلالة ، والفَصْلُ له دلالة ، إلى آخر ما هو من مكونات اللغة التي تبين بها اللغة عن المعاني ، فإذا دَرَسْتُم الشعر بمعزل عن هذه الأحوال اللغوية كانت دراستكم للشعر ناقصة ، لأن هذه الأحوال اللغوية من التعريف والتنكير والتقديم والفصْل والوصل إلى آخره هي أوْعِيَةٌ لأحوال اللغة مملوءة بالمعاني والمقاصد ، ولهذا يقول كرام العلماء إنه قدم لأنه أراد كذا ، ووصل لأنه أراد كذا ، وقصر لأنه أراد كذا ، فدلُّوا دلالة صريحة على أن هذه الأحوال اللغوية أوعية أَفرغَ فيها المتكلمون مقاصدهم ، وكل الذي تقولونه في اللغة هو طريق تعلمكم القرآن ، لأن الله أنزله بلسانكم وأجراه على الطريقة التي تجرون بها كلامكم ، ولهذا أمسك القرآن الكريم بهـذه اللغة على الحالـة التي كانت عليها يوم نزل ، وكل ما كان عليه هذا اللسان يوم نزل به القرآن لا يزال قائمًا في هذا اللسان ، وهذا باب من أبواب إعجازه ، فعليكم أن تحسنوا تَعَلُّم البيان لتحسنوا تعلم القرآن ، ولأهميَّة هذا التعليم جاءت كلمة علم مع القرآن ومع البيان ، ثم إن كلمة «علم» مع القرآن ذكر لها مفعول واحد وهو القرآن ، ولم يذكر المفعول الذي علمه الله القرآن وهذا بخلاف علمه البيان الذي خص فيه الإنسان ، وفي هذا إشارة إلى أنه علم الإنسان أي الإنس البيان ، وعلم الإنس والجن القرآن ، وأكثر من هذا أن كل من خلقه الله في السموات والأرض يسبح بحمده ويسجد له ، وأن تسبيحها هو صلاتها وكأنها تعلمت القرآن ، ثم إنه سبحانه أردف قوله «علمه البيان» بقوله «الشمس والقمر بحسبان» وكأن ما أسكنه الله من دقائق ورقائق وأسرار في علم البيان هو من جنس ما أسكنه الله من دقائق ورقائق



وأسرار في حركة الشمس والقمر بحسبان ، وأن أهل العلم بالبيان يعكفون على ما أودعه الله في البيان من حقائق ودقائق وأسرار ، كما يعكف علماء الكون والفلك على ما أسكنه الله من دقائق ورقائق وأسرار في هذه الأكوان ، ثم تمضي قليلاً في السورة لتقع على قوله : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن:٧-٩) وتلاحظ أنه سبحانه اكتفى في السماء بقوله «رفعها» ومع هذه الرفعة والسمو والعلو ذكر الميزان الذي هو الحق والعدل والقضاء الصادق ، الذي ليس فوقه إلا الميزان ، ثم مدّ الكلام ونهى عن مَسٍّ الميزان وسمَّى مس العدل والحق المدلول عليه بالميزان طغيانًا ، ثم مدّ الكلام أكثر وأمر بإقامة الوزن بالقسط الذي هو العدل والحق ، ولم يكتف بهذا سبحانه وإنما أضاف ولا تخسروا الميزان ، وذلك ليكون العدل والقسط والميزان البالغ الدقة هو الأصل في هذا الوجود ، وأن من يروم بالقضاء غير ذلك هو الخاسر وهو الطاغي ، وقدم كل هذا على قوله والأرض وضعها للأنام ، يعني قبل أن يضع الأرض للأنام وضع الميزان ، وتكررت كلمة وضع مع الميزان ومع الأرض ، وقَدَّمَ وضع الميزان على وضع الأرض ومن كان له ذوق فليذق .

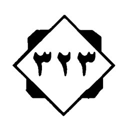
واعلم أن التفكير في العلم الذي هو كلام العلماء ينتج خواطر وأفكارًا صالحة بالتتبع والمراجعة والنقد والتصفية إلى أن تكون علمًا ، وأن الله ـ سبحانه ـ أسكن في العلم عناصر مُسْتَتِرة وخبيئة وكأنها مُجهَّزة للتدبر والمراجعة والاستنباط ، فإذا صادفت عقلاً يحسنُ التدبر والمراجعة والاستنباط وأثارها كانت علمًا ليس هو علم العلماء ولكنه كان منه وكان به ، وبهذا تنمو العلوم وتتسع ، وإذا سرت على هذا الدرب بعد انقطاعك لطلب العلم وصدقك في طلب الحقيقة ، فأنت تسير على درب العلماء الذين هم أولياء الله كما قال

الشافعي ، فإذا أصَبْتَ في تدبرك واستنباطك كنت منهم ، وإن لم تصب كان حسبك أنك تَلْقَى الله وأنت على درب أوليائه الذين هم العلماء ، وإذا أصبت فمن واجب الذي يقرأ لك ما أصبت فيه أن يراجع ، وأن يتفقد ، وأن يستخرج صوابه ، وأن يستبعد خطأه ، حتى يجهزه لأن يكون علمًا ينفع الناس ، والعلم الذي ينفع الناس ، هو العلم الذي تواترت عليه العقول وراجعته ونقَّحَتْه وهذّبته .

ومن أبرز وأهم ما في كتاب الوفود اللغة العالية التي تكلم بعض الوافدين ، وأنها كانت في سياق ومقام اسْتَخْرج من المتكلمين أعلى وأرْقى صور البيان ، لأنهم كانوا في قبضة الخلفاء بعدما كانوا خارجين عليهم ، وكانوا يقاتلونهم بالسيوف والرجال مع من كانوا يقاتلونهم ، أو أن بعضهم استقطع أرضًا من أرض الخلافة وأقام عليها سلطانًا له ، وما هو من هذا الباب الذي لا يتوقع أحد المسامحة والعفو فيه ، وكان يروقني أن الخلفاء يسمعون هذا البيان العالي وينفذ في مستقر أفئدتهم ويُطفِئ نار الغضب ويعفون بعد ما أعدوا السيف والنِّطع لقتل الخارج عليهم ، وموضع إعجابي بهذه المواقف هو أن المقتدر أولى بأن يعفو ، وأن العفو على المسيء هو الذي يجعل الجماعة الوطنية في حالة من الحب والتسامح والتعاون لبناء البلاد وبحث مصالح العباد ، وأن المطاردة وامتلاء قلوب المسؤولين بالأحقاد والرغبة في الانتقام يشيع في البلاد روح الانتقام والأحقاد ، ويشغل الكل بذلك ويحدث الفرقة والشقاق ، ويوسع الخصومات ، وتشتعل في البلاد نار الأحقاد ، وتصير مقدسة كنار المجوس ، ولم أجد في التاريخ كله بلادًا تقدمت خطوة إلى الأمام وقد اشتغلت فيها هذه النار .

فضيلة الصفح والتسامح

ثم إن سيدنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بلغنا عن ربنا ما يوجب علينا



التسامح والتصافي مهما كان بيننا من خلافات، وذلك قوله عليه السلام: «من لم يقبل من مُتَنَصِّلٌ عُذْرًا صادقًا كان أو كاذبًا لم يَرِد على الحوض» وقوله عليه السلام: «المعترف بالذنب كمن لا ذنب له»، وراجع أنك مطالب بأن تتقبَّل من مُتَنَصِّل عذراً وهو كاذب، وأنك إن لم تقبل تَنَصُّلَه وهو كاذب لن ترد على رسول الله ﷺ الحوض، وكأنه أبعدك عن أمته لأنك لم تقبل تنصُّل الكاذب من ذنبه، وفكر في هذا وأنك حين ترفض اليد التي امتدت إليك طالبة الصلح لن تَرِدَ الحوض مع رسول الله ﷺ ولو كانت يد كذاب، حَدِّثُوا كبارنا بهذا لتتغيّر أحوالنا وقولوا لهم اقبلوا اليد التي امتدت وطلبت الصلح حتى يَرِدُوا حوض رسول الله ﷺ، وأن حبكم لهم وحرصكم عليهم يوجب عليكم أن تحذروهم من طردهم عن حوض رسول الله ﷺ، ومن أجل هذا الحديث قد عَفَوْت عن كل من أساء إليَّ جاء متنصلاً أو لم يجئ، وكيف لا أفعل وأنا أرى سيد الثقلين الذي لا ينطق إلا بوحي الله يقف بجوار المخطئ الذي جاء متنصلاً وهو كاذب، وليست المسألة قبول تَنَصُّل المُتنَصل وإنما المسألة أن تعيش الأمة في حب وسلام، وعفو، وإحسان، وهذا وحده هو الذي يجمعها لتَصْنَع تقدمها وازدهارها وعزها ومنعتها، أما التناحر والمطاردة بالسيف فإنها لا تصنع إلا الخراب، قال ابن عبد ربه: «هَجَا نَهارُ بنُ توسعة مسلم بن قتيبة وكان والي خراسان بعد يزيد بن المهلب وقال:

كانت خُراسانُ أَرْضًا إذْ يَزِيدُ بها ... وكلُّ باب من الخَيْراتِ مَفْتُوحُ
فبُدّلت بعده قردًا يَطُوف بها ... كأنما وجَهه بالخلِّ مَنْضوحُ

فطلبه قتيبة بن مسلم فهرب منه، ثم دخل عليه بكتاب من أُمِّه يعني أم قتيبة فقال له: وَيْحَكَ بأي وجه تلقاني ؟ قال بالوجه الذي ألقى به ربي وذنوبي إليه

أكثرُ من ذنوبي إليك ، فقرّبه ووصله ، وأحسن إليه » وأنا أحب مسلم بن قتيبة لأنه من كبار الفاتحين ، ولو وضع في الميزان مع يزيد بن المهلب لرجح ، ثم إن الشاعر لو كان مُنَافِقًا لمدح الذي تولى ولكنه مدح الذي انتهت ولايته ، وهجا الذي تولَّى ، والذي يعنيني هو إصابته وسداده في إجابته لقول مسلم بأي وجه تلقاني ، وأننا نلقى الله بذنوبنا وهي كثيرة فلا حرج علينا أن يلقى بعضنا بعضًا بذنوبه وهي قليلة ، ويبدو أن هذه الإجابة ذكّرت مسلم بذنوبه التي يلقى الله بها فغفر له ذنبه طمعًا في أن يغفر الله لمسلم ذنبه ، ولم يكتف بالعفو عنه وإنما قرَّبه وأحسن إليه ، وهذه هي أخلاق السَّادَة يا سَادة .

قال المبارك بن فضالة : كنت عند أبي جعفر جالسًا في السِّماط إذ أَمَرَ برجل أن يُقْتَل ، فقلت يا أمير المؤمنين قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ بين يدي الله : ألا من كانت له عند الله يد فليتقدم ، فلا يتقدم إلا من عفا عن ذنب ، فأمر المنصور بإطلاقه » ابن المبارك لم يعرف الرجل الذي كان المنصور قد أمر بقتله وبالطبع لم يعرف ذنبه ، وإنما عرف فقط أن الله ﷻ جعل لمن يعفو عن مذنب يدًا له عند الله ، وهل يمكن أن يصل بك الأمل والطموح والرجاء والخيال إلى أن يكون لك يدٌ عند الله؟ وهذا لا يكفي فيه العجب ، وأن الله سبحانه وتعالى الذي أخبرنا أنه يغفر ذنوبنا عنده ، ولا يغفر ذنوبنا التي هي حق عباده ، وإنما يغفرها أصحابها ، وإلا أخذت المقاصة بين الناس في القنطرة التي بين الجنة والنار ، وليس معك إلا حسناتك ، فيأخذ أصحاب الحقوق منها ، فإن استنفدوها حُمِّلتَ من سيئاتهم ، ومع ذلك يوجهنا إلى أن يغفر بعضنا لبعض ، وأن يسامح بعضنا بعضًا حتى تكون المسامحة بيننا فتزداد المحبة ويزداد التواصل ، ويجعل لمن يسامح أخاه يدًا عند الله ، وليس هذا فقط وإنما ينادي المنادي يوم القيامة في الموقف المشهود ويقول من كانت له عند

الله يد فليتقدم ، فلا يتقدم الشهداء ولا الأولياء الذين هم العلماء ، وإنما يتقدم من عفا عن ذنب، فهل يجوز لك أن تتأخر لحظة في العفو عن ذنوب عباد الله ، وخصوصًا إذا كنت قادرًا على الانتقام منهم وأنت مسؤول عنهم ، فإن اخترت الانتقام ورفضت أن تكون لك يَدٌ عند الله فقد اخترت الأسوأ ، والذي يختار الأسوأ لا يرجى منه إلا الأسوأ ، وأنا وأنت طول اليوم نقول اللهم اغفر لنا ذنوبنا ونحن لم نغفر لخلقه ذنوبهم ، وربنا يقول لنا اغفروا ذنوب الناس أغفر لكم ذنوبكم ، وأطعموا الناس أطعمكم ، وارحموهم أرحمكم ، ولا يهلك على الله إلا هالك .

وأكره الفرقة وأكره الداعين إلى الفرقة ، وأحب التآلف والتحاب والتعاون مع أبناء البلاد ، وأرى ذلك طريق التقدم ، وأرى الفرقة طريق التخلف ، وأفهم من الاصطفاف في صلاة الجماعة وقد تكون في الصف مصطفًا مع الذي بينك وبينه خلاف ، وقد تكون بين اثنين والثلاثة مختلفون ، وأرى أن الله ـ سبحانه ـ يعلمنا أن نكون صفًّا واحدًا في صالح البلاد والعباد مع ما يمكن أن يكون بيننا من خلاف ، وكان يقال يا ولي الأمر إن الله فعل لك ما تحبه وهو ولاية الأمر فافعل له ما يُحبُّه وهو العفو عن عباده .

وقالوا :

ما أحْسَنَ العفوَ من قادرٍ لاسيَّما عن غَيْر ذِي ناصِرِ

وقالوا :

اقبل معاذير من يأتيك معتذرًا إن برَّ عندك فيما قال أو فجرا

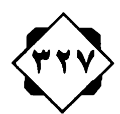
خير الخليطين من أغفَى لصاحبه ولو أراد انتصارا منه لانتصرا

وكان إسحاق بن مسلم وهو أحد كبار رجال الأمة يجلس في مجلس

المنصور ، فقال له المنصور يومًا : أفرطت في وفائك لبني أُمَيّة ، قال يا أمير المؤمنين : من وفّى لمن لا يُرْجَى كان لمن يرجى أوْفَى ، ذكرت ذلك لأبين أن مجلس المنصور اتسع لمن أفرطوا في ولائهم لبني أُمية ، وهذه هي السياسة التي تجمع الأمة ليتعاون الكل على بنائها ، وليست الأحقاد والمطاردات ، ولم يضعف هذا حكم بني العباس وإنما أكدَّه وقوَّاه ، لم يكن عقل المنصور وحسن سياسته تبيح له أن يبعد إسحاق بن مسلم لأنه كفاءة وطنية ، فضلاً عن أن يسكنه في قاع مظلمة ، لأنهم يعلمون أن شر ما تكون عليه البلاد هي أن ترى لها كفاءات عقلية ووطنية في قاع مظلمة ، لأن هذا لا معنى له إلا تصفية البلاد من الكفاءات ، وهذا أخطر ما يكون على البلاد ، ولا يُرْضِي عدوَّها المتربصَ بها شيءٌ كما يُرْضيه أن يَرَى بعض الكفاءات في قاع مظلمة ، كان إسحاق بن مسلم مع بني أمية لما كان أمر البلاد في أيديهم ، ثم كان مع بني العباس لما كان أمر البلاد في أيديهم ، لأنه يرى ضرورة أن تكون مع من آل إليه أمر البلاد لنتعاون ونجتهد في مصلحة البلاد والعباد ، وتصدق في حديثك مع الذي آل إليه أمر البلاد ، وتقول له في الذي أحسن فيه أحسنت وفي الذي لم يحسن فيه لم تحسنْ ، لأن مستقبل البلاد هو القبلة التي تجمعنا ، ومن يفهم خلاف ذلك فله أن يفهم ما يشاء، وإنما هكذا تُفسِّر مواقف الرجال من أمثال إسحاق بن مسلم، وفكرة أنه كان مع مصلحته لم أجدها في الرجال الذين هم رجال التاريخ ورجال الدول ، وإنما ظهرت واتسعت في كلام من ليسوا منهم .

صفح جليل للمعتصم

بقيت صورة رواها لنا أحمد بن أبي دؤاد وأنقلها إليك بلفظه وإن طال ، لأن أحمد بن أبي دؤاد كان يقال عنه في فهمه لكتاب الله وسعة علمه به ووفرة عمله بالذي علم « كأن القرآن أُنزل عليه » ، وكان محمد إقبال الفيلسوف المسلم الهندي



يقول إن أبي وهو يعلمني القرآن كان يقول لي اقرأ القرآن وكأنما عليك أنزل ، قال أحمد : « ما رأينا رجلاً نزل به الموت فما شغله ذلك ولا أذهله عما كان يجب أن يفعله إلا تميم بن جميل ، فإنه كان تَغلَّب على شاطئ الفرات ، وأوفى به الرسول باب أمير المؤمنين المعتصم في يوم الموكب ، حين يجلس للعامة ودخل عليه ، فلما مَثَلَ بين يديه دعا بالنطع والسيف فأحضر ، فجعل تميم ابن جميل ينظر إليهما ولا يقول شيئًا ، وجعل المعتصم يُصعِّدُ النظر فيه ويصوّبه وكان جسيمًا وسيمًا ، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جَنَانه ولسانه من منظره ، فقال يا تميم إن كان لك عذر فأت به ، أو حجة فأدْل بها ، فقال أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فإني أقول الحمد للذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نَسْلَه من سلالة من ماء مهين ، يا أمير المؤمنين إن الذنوب تُخرِسُ الألْسنة ، وتصدَعُ الأفئدة ، ولقد عظمت الجريرة ، وكبُر الذنب ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما منك ، وأسرعهما إليك ، أولاهما بإمامتك وأشبَهَهُمَا بخلافتك ، ثم أنشأ يقول :

أرى الموتَ بين السَّيفِ والنِّطْع كامنًا ... يلاحظُنِي من حَيْثُما أتَلَفّتُ

وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله يُفْلِتُ

ومن ذا الذي يُدْلِي بعذر وحجة ... وسيف المنايا بين عينيه مُصْلَتُ

يعز على الأوس بن تغالب موقف ... تُسَلُّ عليّ السيف فيه وأسْكُتُ

وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مُؤقتُ

ولكن خلفي صِبْية قد تركتهم ... وأكبادُهم من حَسْرةٍ تتفتّتُ

كأني أراهم حين أُنْعَى إليهم ... قد خَمَشوا تلك الوجوه وصوَّتوا

وإن عشت عاشوا خافضين بغبطةٍ أزود الرَّدىَ عنهم وإن مِتُّ مُوِّتوا

فكم قائل لا يُبعدُ الله روحه وآخر جذلان يُسَرُّ ويَشْمِتُ

فتسبّم المعتصم وقال : كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العزل ، اذهب فقد غفرت لك الصبوة وتركتك للصبية» .

المهم في هذه القصة أن المعتصم خلَّى سبيل رجل اقتطع أرضًا من الدولة وأقام له مملكة عليها من أجل أطفاله ، وهكذا كانت رعاية الأطفال لها هذه المكانة في نفوس الكبار الكرام ، المعتصم يغفر هذا الذنب العظيم ويتركه ليرعى أولاده ، ثم إن المعتصم صاحب هذا القلب الطيب والذي رقّ لرعاية الأطفال هو الذي قال لملك الروم جوابي إليك جيش أوله عندك وآخره عندي ، وهو الذي فتح عمورية ولم يلتفت إلى نصح المنجمين ، وهو الذي نادته المرأة الزبطرية وقالت وامعتصماه فلبى نداءها ، هذا موقفه من أعداء أمته ، وهذا موقفه من أبناء أمته ، فإذا رأيت عكس ذلك فاعلم أن الأمر محتاج إلى مراجعة .

* * *

كِتَابُ اليَاقُوتَةِ فِي العِلْمِ وَالأدَبِ

هذا الكتاب من أوسع كتب العقد الفريد وفيه مباحث كثيرة وجيدة ومفيدة ، مثل فنون العلم ، واتساع هذه الفنون ، وما يجب عليك أن تحيط به منها ، مما لا يسعك الجهل به ، والحَضُّ على طلب العلم ، وأن طلب العلم من ضروريات الحياة ، وأن بقاءك مع الأحياء يعني بقاءك مع القراءة ، وأنك ما دمت تُغَذِّي جسمك كل يوم بالطعام والشراب فالواجب أن تداوم على غذاء عقلك بالقراءة ، وإلا تَضَخَّمتْ فيك الحاسة وضَمُرت فيك الروح، وكنت أقرب إلى غير الناطق، وهذا وإن لم يكن بلفظ ابن عبد ربه فإنه من لوازم معناه ، ثم إن القراءة في الكتب أفضل من النوافل ، كَطَلَبِ العيش ، والضرب في الأرض ، وابتغاء الرزق ، كل ذلك من النوافل ، والبلاغة ليست ما تَفَيْهَقْتَ به ولكن ما بلغتك الجنّة وما قالوه في قصر الكلام وطوله ، وإصابة المعنى والقصد إلى الحُجَّة ، ثم إنك ترى السؤدَدَ الذي هو كتاب في عيون الأخبار مفردة من مفردات الياقوتة في العلم والأدب ، وابن عبد ربه من الذين يأخذون ثم يزيدون فيفيدون ، والعناية بالسؤدد وأخلاق السؤدد وتكرارها في الكتب من الضّرُوريَّات في مكافحة معاني النذالة والخِسَّة حتى لا تغلب هذه المعاني الدنيئة في المجتمعات ، وأحيانًا تجد وراءها ثروة تُغَذِّيها وترى النفاق أشْيَعَ من الصدق ، وحديث السؤدد له مداخل مُتَعَدِّدة إلى أبواب كثيرة ، وأن أطرافًا منه قادت إلى ذكر الثقلاء وما قيل فيهم ، وأطراف منه قادت إلى التفاؤل بالأسماء وذكر الإخوان ، وأصناف الإخوان ، وحقوق الإخوان ، وهكذا ترى الكلام يَمْتَدُّ من داخله بذكاء

عجيب ووعي بالمعاني بالغ الدقة ، ولا أملك إلا أن أقف عند بعض الأفكار وأُنبِّهُ إلى شيء مما فيها ، وأترك لك البحث في هذا الكتاب الجليل ، وهذه المناهج التَّائهة في توجيه شعوبنا كبيرنا وصغيرنا ، وتثقيفهم وإنضاجهم ، وحضور أمثال هذه الكتب بين أيدي الجيل تؤثر تأثيراً أكبر في وعيه ويقظته ، حتى لا يترك وعيه يرعاه ويكونه من لهم أغراض معيَّنة ، والذي لا أستطيع أن أحيدَ عنه هو إيقاظ الوعي الذي ليس له إلا غاية واحدة هي تقدم البلاد والعباد ، وصلاح أحوال البلاد والعباد ، لأننا أوشكنا أن نصل إلى ما وصل إليه الشاعر القديم في زمن بؤس الأمة ، والذي قال فيه :

هذا الزمانُ الذي كُنَّا نُحَذِّره ... فيما يُحدِّث كَعْبٌ وابنُ مسعود

إن دام هذا الدهرُ لم نَحْزَن علَى ... أحد يموتُ ولم نَفْرحْ بمولود

أو كما قال غيره :

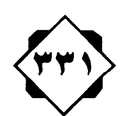
أَيَا دَهْرُ إن كنت عَادَيْتَنَا ... فَهَا قَدْ صَنَعْتَ بنا ما كفاك

جعلت الشرار علينا خيارًا ... وَوَلَّيْتَنَا بعد وجه قفاكا

اللهم باعد عنا الزمن الذي لا نحزن فيه على أحد يموت، ولم نفرح بمولود، وباعد عنا عداوة الدهر التي يصير فيها الشرار علينا خياراً . وقال آخر :

ودهر سادت العُبدانُ فيه ... وعَاثَتْ في جوانبه الذئابُ

وكأنه يشرح لنا معنى أن الدهر جعل الشرار علينا خياراً ، وأن الشرار هم العبيد ، وليس المقصود العبد الذي يباع ويشترى ، وإنما المقصود الخساسة ، وعِبَادَةُ الأهواء ، والشهوات والضلالات ، وأن هؤلاء إن وُجدُوا عاثت في البلاد الذئاب ، وكأن العَبْدُ السَّيد هو الذئب الأكبر ، والمتنبي لما عاش في مصر زمنًا سجّل شيئًا لأجيال مصر في هذا البيت :



نامَتْ نـواطيرُ مِصْـر عـن ثعالبـها ... فقـد بَشِـمْنَ ومَـا تَفْنَـى العناقيـدُ

والثعالب أضعف من الذئاب ، وشبعت الثعالـب وأتَخُمِتْ والعناقيد باقيـة ، ولما تغيّر الزمان والنواطير لا يزالون غَاطِّين في النـوم صـارت الثعالـب ذئابًا ، وفنيت العناقيد ، ولاحظ أننـا لا نـزال في الـزمن القـديم ، وأبْعَـدُ مـن كـل هـذا وأبشع في وصف الزمن وتغير الأحوال قول شاعر آخـر عَـلاَ في زمانـه صَـوْت العَزْف والغناء ، والطرب ، والتهريج ، واختفى صـوت العقـل والفكـر والعلـم ، ولكن الشاعر رأى جماعة لا تزال عاكفة على خدمة العلم فدعاهم إلى التّخلِّـي عن الذي هم فيه وأن ينضموا إلى فريق العزف والغناء وقال :

يَـا طَالِـبَ الأشـعار والنحـو ... هـذا زمـان فاسـدُ الحَشْـوِ

نـهاره أوْحَـشُ مـن لَيْلِـه ... ونَشْـوهُ أخبـث النّشـوِ

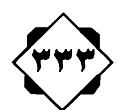
فـدع طـلاب النحـو لا تَبْغِـه ... ولا تقـل شـعرا ولا تَـرْوِ

فـلا يجـوز اليـوم إلا امـرؤ ... مُسْـتحكم العَـزْفِ والشَّـدْوِ

أو طرمـذان قولـه كـاذبٌ ... لا يفعـل الخـير ولا يَنْـوِ

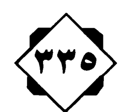
والطرمذان المُدّعِي المُتمَدِّحُ بما ليس عنده ، أعني الذي يقول فعلت كـذا وكذا وهو لم يفعل ، أو يضفي على فعله قيمة كبيرة وليس لفعله قيمة ، ووجود الطرمذان ليس مشكلة لأنه موجود في المجتمعات منذ أن كان هناك مجتمعات ، وإنما المشكلة أن تَهُون الجماعة حتى يعظـم فيهـا الطرمـذان ، وأنـا لسـت مـع الشاعر الذي يدعو ما بقي من أهل الخير على التخلي عما هم فيه ، وأن يكونوا في صُحبة الطُّرمُذَان ، بل إنني على العكس مما قاله الشاعر ، فإذا رأيت الفسـاد يستشري في البلاد أزداد تَمَسُّكي بالخير الذي أنا فيه ، حتى يعلم الجيل الجديد أن البلاد لم تَخلُ من رجال يقومون بحمايـة الحـق والجـد ، وحتـى لا يكتسـح

طُوفَانُ الفساد كل شيء ، ولا أشك في أن كل هذه لحظات غضب من الشعراء سجلوها في أشعارهم ، وقد بدأ ابن عبد ربه هذا الباب بجملة شائعة جدًّا وأن صدق وسداد معناها من أهم أسباب شيوعها ، لأنها لا يختلف عليها اثنان وهي قوله : « العلم والأدب هما القطبان اللذان عليهما مَدَارُ الدين والدنيا » وافتتاح ابن عبد ربه بهذه الجملة فيه وصيَّة لقارئه بأن لا يكون عندك شيء أي شيء أولى وأسبق وأجْدَرُ من العلم والأدب مَا دَامَا القطبين اللذين عليهما مدار الدين والدنيا ، لأن العاقل لا يقدم شيئًا على الذي عليه مدار الحياتين الأولى والثانية ، ولاحظ أن الدين والدنيا بينهما تقارب لَفْظِي شديد يوشك أن يكون جناسًا ، لأن الحقيقة أنهما شيء واحد ، وأنه يمكننا بانتباهة قصيرة جدًّا أن نحوِّل الدنيا كلها إلى دين ، وأنني إذا أسْكَنْتُ الحق والخير وذكر الله في قلبي صارت زراعتي دينا ، وتجارتي دينا ، ومَصْنَعِي دينا ، ومعملي دينا ، وعيادتي دينا ، وهندستي دينا ، وصار المحيا كله لله رب العالمين ، وهذه ليست دروشة لأن استحضار الحق والخيروالعدل وذكر الله في قلبك يعني أنك إنسان مأمونٌ وصادق ، ومجتهد ، وبعيد عن الحرام ، وهذه صفة الإنسان الصالح ، ولك أن تزاول ما شئت وأن تَرْبَح ما شئت ، وأن تحوز من الدنيا ما شئت ، ولكنك مأمون وصادق وطاهر القلب واليد واللسان ، وكأنك وقد بلغت نهاية العمر ، أقول كأنك كيوم ولدت باقيًا على الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهذا هو الإنسان الذي تعمر به الأرض ، وتزدهر وتزدهي بالخير ، وهم بُنَاةُ الأُمَم وبناة الحضارات ، وكل هذا وأكثر منه من الوسوسات الساكنة في الكلمتين المتداولتين اللتين ذكرهما ابن عبد ربه في مفتتح هذا الباب ، وهل يمكن أن تتصوَّر خطوة واحدة خطاها الإنسان على هذا الكوكب تخلو من علم؟ وهل أنْجزَ تَقَدُّمًا أيّ تَقَدّم بغير العلم؟ وهل يتصور وجود أي تقدم في الحاضر أو في المستقبل من غير العلم ؟



وهل يتصور وجود أي لون من ألوان التدين من غير علم ؟ وهل يمكن أن تريد الدنيا من غير طريق العلم ؟ وهل يمكن أن تريد الآخرة من غير طريق العلم ؟ وهل تخرج جملة ابن عبد ربه عن قوله عليه السلام : «من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معًا فعليه بالعلم» ؟ وتعجب يا عزيزي حين يكون هذا هو محض العقل ومحض النّقل ، ومحض الواقع ، ومحض التاريخ ، وأن طريق العلم هو القراءة وليس له طريق سواها ، وأن هذا يوجب أن تكون القراءة لنا عملاً ملازمًا لنا لأن كل الدين والدنيا من العلم ، وليس للعلم باب سواها ، ثم إن ابن عبد ربه يعلم أن العلم صناعة الإنسان ، وأن السماء لا تمطر علمًا ، فينتقل قَلَمُه من هذه الجملة التي ذكر فيها أن مدار الدين والدنيا على العلم إلى شيء ، قَلّما انتقلت إليه الأقلام بل قلما تكلم فيه الناس ، وهذا الشيء هو كيف ينشأ العلم ؟ وأي شيء كان من هذا الإنسان حتى اهتدى إلى صناعة العلم ؟ وهذا لم أقرأه في حياتي وكلها قراءة ، إلا مرتين هذه المرة في كلام ابن عبد ربه وقبلها بزمن في كلام لعمر بن الخطاب ، وإن كان كلام ابن عبد ربه أبين وأوضح ، وقد عشنا نتعلم العلم من أول العمر ولم يخطر ببالنا أي فكرة تبين لنا كيف نشأ العلم ؟ وما هي صناعته ؟ وكيف خطرت الخواطر ؟ وكيف امتدت ؟ وكيف نمَتْ واتسعت ؟ يقول هذا الذكي المتميز : «وقد جعل الله بلطف قدرته وعظيم سلطانه ، بعض الأشياء عُمُدًا لبعض ومتولدًا من بعض ، فإجَالَة الوهم فيما تدركه الحواس تبعث خواطر الذكر ، وخواطر الذكر تنَبّه رويَّة الفكر ، وروية الفكر تثير مكامن الإرادة ، والإرادة تحكم أسباب العمل ، فكل شيء يقوم في العقل ويَمْثُل في الوهم يكون ذكرًا ثم فكرًا ثم إرادة ثم عملاً» وليس هناك فرق بين أن يكون ابن عبد ربه نقل هذا النص من كتب لم نقرأها أو كان وصفًا لأحوال عاشها ، وكثير من مفردات هذه الأحوال تقع

لكثير منا ، فكلنا تتوارد عليه خواطر ، وروية الفكر كثيرًا ما تثير مكامن مستكنة في نفوسنا ، وأن هذا النص الجليل من فطرة الحياة الفكرية ، ولكن الجديد فيه في كلام ابن عبد ربه هو التتبع والتتابع من بداية ولادته خاطرًا إلى أن ينتهي إرادة وعملاً ، ثم بيان بدايته وأن الله بلطف قدرته وعظم سلطانه هيأ لوجوده ، لأنه سبحانه يعلم أنه لا حياة في دين ولا دنيا إلا بالعلم ، فهيأ في الأشياء ولادة العلم ، وهيأ في النفس الإنسانية القدرة على استخراج الأفكار والعلوم التي أسكنها في الوجود ، وأن أصل هذا وأساسه أن الأشياء يتولد بعضها من بعض ، فالذي تراه شيئًا واحدًا يمكن أن تتولد منه جملة أشياء ، ولن تتولد منه وحدها ، ولابد للعقل الإنساني أن يَتَدَخل ، فإجالة الوهم في المحسوسات يبعث خواطر ، وهذه هي الخطوة الأولى والضرورية لإيجاد العلم ، فإذا كان وهمك لا يلابس الحواس ، ولا يتجوَّلُ فيها فلن تحرك شيئًا ، ولن تقع على شيء ، وإنما لابد أن تكون طبيعتك وطبعك هو تأمُّل الأشياء المحسوسة المحيطة بك ، ولن تقع على شيء في كل محسوس يتجوَّل وهمك فيه ، وإنما يكون ذلك في بعض أحوالك وعلى وفق ما فيك من طاقة وقدرة واشتغال بمعرفة أسرار الوجود من حولك ، وقد وقعت ألف عَيْن ويزيد على ألف على تفاحة وهي تسقط على الأرض ولم تعقل منها شيئًا ، ثم وقعت عليها عين نيوتن في لحظة معينة ، فاستخرج منها حقيقة من حقائق هذا الوجود ، وربما رأى نيوتن قبل هذه اللحظة عشرات التفاحات وهي تسقط على الأرض ولكنه لم يكن متهيئًا لإدراك سرها ، وتابع التدرج في كلام ابن عبد ربه ، وأن إجالة الفكر في المحسوس تبعث خواطر الذكر ، وخواطر الذكر تُنَبِّه رويَّة الفكر ، وروية الفكر تنبه مكامن الإرادة ، حتى يصل لا إلى العلم وإنما إلى العمل الذي هو الغاية من العلم ، والذي هو إحداث تغيير في هذا الوجود ، لأن كل ذلك



كان في داخل الإنسان ، فلما بلغ أنَاهُ تحوَّل إلى عمل في الوجود ، وكأن ابن عبد ربه الذي قالوا إنه رُبِّيَ على ثقافة عصره التي كانت اللغة والفقه وعلوم القرآن وعلوم السنة ، يقول لك إن قصة الفكر وقصة العلم وقصة العمل هي المُنْجَز الأول على هذا الكوكب ، وتذكر أن ابن عبد ربه توفى في الربع الأول من القرن الرابع ، وأن كيفية نشأة الفكر وكيفية نشأة العلم وكيفية صناعة التقدم على هذه الأرض بالفكر والعلم والعمل كانت من شواغل آبائنا الأولين في هذا الزمن القديم ، ولابد أن تعود من شواغلنا ، لأن عدم الاشتغال به وهي أصول رعاية الإنسان والأرض يُعدُّ عارًا وزراية .

كلمة لمعاذ في العلم

ذكر ابن عبد ربه قول سيدنا معاذ بن جبل الذي اهتز عرش الرحمن عند موته قال : « تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة وطلبه عبادة وبذله لأهله قربى » .

وهذا سطر صغير ، وتأكد أن سيدنا معاذًا وغيره لا يتكلم في حلال وحرام وثواب وعقاب إلا وهو واثق أن هذا داخل في كتاب أو سنة ، لأن الحذر والخطأ والخطر أن تضيف كلمة واحدة إلى دين الله من عندك أو من عند أكبر عالم تعرفه ، ثم راجع هذا السطر الصغير من فم الرجل الذي اهتز عرش الرحمن عند موته ، واسأل أي مجتمع يُطبِّق هذا السطر الصغير هل ترى فيه جاهلاً ؟ أو غبيًّا ؟ أو ظالمًا ؟ أو جائعًا أو فقيرًا ؟ راجع التدرج المتلائم أشد التلاؤم مع بِنْية الجماعة ، أول خطوة واجبة على الكل يقرأ أو لا يقرأ هي تعلم العلم فلا يبقى فيكم جاهل ، وإذا كنت تتعلم العلم ليرتفع مستوى وَعِيك وفكرِك وتكون إنسانًا أفضل بالعلم ، ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فإن تعلمك هذا الذي ليس له فائدة إلا لرفع مستواك هو عند الله

من الحَسَنات والحسنة بعشرة أمثالها فلا تقعد عن تعلم العلم ، والكلمة الثانية « وطلبه عبادة » ولا تظن أن تعلمه هو طلبه وإلا لكان كلام سيدنا معاذًا كلامًا مكررًا مع أن فيه ما ينفي عنه التكرار ، وهو أنه جعل تعلمه حسنة وجعل طلبه عبادة ، والعبادة أوسع وأقرب وأكرم من الحسنة ، ثم إنك لا يجوز أن تفرغ المعنى الذي أفرغه العامة على كلمة « طلب العلم » وتفسر لي كلام الأولين على هذا الوجه ؟ والذي أفهمه من هذا الحديث ومن غيره أن التعلم هو تعلم علم معلوم ومذكور في الكتب ، وأن الطلب هو بحث عن علم غير مذكور ومكتوب في الكتب ، لأنك لا تطلب الشيء الذي بين يديك ، وإنما تطلب ما غاب ، وأن تطلبه في كلام الذي اهتز له عرش الرحمن يعني الاجتهاد في أن تستخرج علمًا غائبًا أو خفيًّا أو الذي وراء الأستار ، وأن تكشف عنه القناع ، ولا أشك أن في الفقه فقهًا يعني أن الفقه الظاهر الذي نقرؤه ونتعلمه فيه فقه لمن يتدبره ويقيس عليه ويستخرج منه ، وأن سيدنا لما قال : « رب فقيه لا فقه له » يقول لنا إن في الفقه فقهًا ، وقد تكون فقيهًا يحفظ الفقه ولكنك لا فقه لك ، لأنك لم تستخرج من الفقه فقهًا ، ولك أن تقيس على هذا وتقول رب نحوي لا نحو له ، هو نحوي لأنه يعلم علم النحو ، ولا نحو له لأنه لم يستخرج من النحو نحوًا ، وأبو الطيب نقل المعنى إلى الشعر وقال « ولكن لشعري فيك من نفسه شعر » فجعل في شعره شعرًا كما قلنا إن في الفقه فقهاء ، وفي كل علم ظاهر علم باطن ، والطالب من استخرج الباطن والمُتَعلِّم من تعلم الظاهر ، وما دمت تراجع بعقلك كلام العلماء وتفلّيه وتحاوره وتستخرج منه ما خفي وما خفي أعظم فأنت في عبادة ، وكأنك وأنت تبحث في أسرار المعرفة وتكشف الأسرار عن مكنونها كأنك تبحث عن رحمة الله ، والفرق هو أنك قد

تبحث في سر المعرفة ولا يأتيك، ولكنك إذا بحثت عن رحمة الله هي لا محالة تأتيك، والكلمة الثالثة هي: «وبذله لأهله قربى» وهي آخر المطاف لأن بذله لأهله فيه أجر تعلمه الذي هو حسنة، وأجر طلبه الذي هو عبادة، ثم أجر بذله الذي تصير به من أهل القربى، وأنا وقفت عند كلمة سيدنا معاذ وقلت من أهل القربى ولم أقل من المقربين، لأن المقربين في أعلى عليين، والمهم فطنة الصحابي الجليل، هذه الفطنة التي تراها في لفظة واحدة وهي قوله «لأهله» وإنما كان وراءها الفطنة والوعي والبصيرة لأنها تريد من أهل العلم أن يَزْرَعُوا العلم في نفوس هي أشبه بنفوسهم، حتى يحرص الذين زرعوا العلم في نفوسهم أن يزرعوه هم أيضًا في نفوس من هم أشبه بهم، وهكذا يظل العلم بدرجاته الثلاث درجة تعلمه، ودرجة طلبه، ودرجة بذله، قائمًا بين خيار أهل العلم في الأمة إرْثًا يُورِّثه السابق إلى اللاحق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فيعود هذا الإرث إلى الذي أسكنه في الأشياء، والذي خلق بعضها عُمُدا لبعض وبعضها يتولد عن بعض، ومسألة أن طالب العلم هو الباحث عن العلم، وأن الطلب يعني أنه علم غائب، لأن العلم الذي بين أيدينا يقال فيه يتعلم العلم، أقول هذا المعنى هو صريح قول سيدنا المبلغ عن ربه: «ما يزال الرجل عالمًا ما طلب العلم فإذا ظن أنه علم فقد جهل» فالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء هم طلاب العلم، والعلماء الذين هم الأولياء هم طلاب العلم والعلماء الذين يستغفر لهم كل من في السموات والأرض حتى الحيتان في قاع البحر هم طلاب العلم الباحثون فيه، والعامدون في بحوثهم إلى معرفة أسراره وخباياه، وضع مع هذا «إن الملائكة لتضع أجنحتها على طالب العلم رضا بما يفعل»، يعني ما دام الكتاب في يدك لا لتحصل مسائله ولكن لتنظر وتتدبر في مسائله

وتستخرج منها مكنونها ، فإن أجنحة الملائكة عليك رضا بما تفعل ، وضع مع هذا أيضًا : «لِمَدادُ جرت به أقلام العلماء خير من دماء الشهداء في سبيل الله» والشهادة في سبيل الله هي أعلى ما يطلبه طالب رحمة الله ، لأن الشهداء لما رأوا كرامة الله لهم تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا لا ليكونوا ملوكًا وسادة وإنما ليقتلوا مرة ثانية في سبيل الله ، وقد تمنى رسول الله ﷺ ذلك ، ويكرمه ويكرمك الله ويمن عليك ويقول لك لِمَدَادُ جرت به أقلام العلماء خير عند الله من دماء الشهداء ، فهل يجوز لنا أن نتوانى في طلب العلم الذي عليه مدار الدين والدنيا ، وله عند الله هذه المكانة ، وقد قال الشاعر الطيب الذي وعى هذا :

وَمَا مِنْ كاتبٍ إلا سَيَبْقَى ... كتابتُه وإن فَنِيت يداه
فلا تكتب بخطك غيرَ شيء ... يَسُرُّك في القيامة أن تراه

والفكر الذي يسرك في القيامة أن تراه يجب أن يكون أصدق فكر وأطهر فكر ، فهل يجوز أن تكتب نفاقًا ، وتؤلف لأحد ، ومرضاة لذي سلطان ، هل يجوز أن تترك المِدَاد الذي هو خير عند الله من دماء الشهداء وأن تكتب ما يسوؤك في القيامة أن تراه ، وإذا كان الله ـ سبحانه ـ قد مَنَّ عليك وجعل رزقك ورزق أولادك في طلب العلم ، وكنت عضو هيئة تدريس هل يجوز لك أن تترك الكتاب والقلم ما دامت يدك قادرة على حمل الكتاب والقلم ، يقيني أن الذي نحن فيه ليس له سبب إلا غياب هذا الذي أكتبه عنا ، وهذا الذي أكتبه ليس علمًا استخرجته وإنما هو ما قاله العلماء ، ونقله ابن عبد ربه ، وليس لي فيه إلا نقله للأجيال ، ويقيني أن الخير في أجيالنا وأن كثيراً منهم إذا رأوا ذلك جَعَلُوا كل حياتهم من الذي يسرُّهم في القيامة أن يَروْه ، والمطلوب فقط أن يكتب كل من وصله هذا إلى من لم يصله هذا حتى يشيع في الأمة ، ويَرْويه

كبيرها إلى صغيرها ، ويزرعه من يَعْلَمُه في قلب أهله لأنها وصية الله لنا ووديعته التي أودعها في قلوبنا .

وقالوا : « العلم منار سبيل أهل الجنة » وهذه الجملة وحدها تكفي في شيوع العلم في أمة تؤمن بالله واليوم الآخر ، ولا تطلب شيئًا أعلى عندها من رحمة الله التي هي الجنة ، وأن من يزحزحه الله عن النار ويدخله الجنة فقد فاز ، وأن فوزه هو الفوز العظيم ، وأن الزحزحة عن النار تعني أنه على حافتها ويوشك أن يسقط فيها فلا يموت فيها ولا يحيا ، وأن العلم الذي هو الكتاب والقراءة فيه هو منار سبيل أهل الجنة ، يعني أن سبيل الجنة يمكن أن تتغشاه الظلمات ، وأن الكتاب الذي في يديك أيها الناشئ الجديد بمثابة كوكب يضيء لك الطريق الذي يصل بك إلى الجنة ، ولا شك أن هذا لو زُرِعَ في قلوب أبنائنا الذين هم في مدارسنا فسوف يكون الكتاب عندهم له قيمة أعلى لأنه لن يضيء له سبيل جنة الدنيا فحسب ، وإنما سيضيء له سبيل الجنة التي فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، ثم فيها ما لا تعلم نفس ما أُخْفِيَ لهم من قرة عين ، وهذا وعد الله الذي لا يخلف الميعاد ، ومن أعجب العجب أن يكون هذا تائهًا عن القائمين على أمر التعليم وهم من أهل الشهادتين ، ولو علموا هذا لانتفعوا به ، ولكن جهلهم به صيَّرهم إلى القول بإبعاد الدين عن التعليم مع أن هذا سيحفز نفوس الطلاب ويضاعف إقبالهم على العلم ، ولن يشكل عبئًا على المنهج لأنه لا يزيد عن كتيب صغير ، وقد عشت زمانًا أُبعد هذا عن المناهج ثم رأيت في المناهج الكثير من خطب الزعيم وأقواله ثم كان ما كان ، وأدعو الله ألا يتكرر هذا لأنه لن يؤدي إلى مثل الذي كان مع سوئه ، وإنما سيؤدي إلى الذي هو أبشع لأن العدو ينمو ويتطور ويتقدم ، وقد دفن أبناءنا في أرضنا أحياء ، وحرق أبناءنا على أرضنا أحياء ، ولن يكون إلا كذلك وشعوبنا لا تنسى هذا .

القائمون بحجة الله

من كلام الإمام علي رضي الله عنه : «لا تخلو الأرضُ من قائم بحُجَّةِ الله إما ظاهرًا مشهورًا وإما خائفًا مغمورًا ، لئلا تَبْطُل حجج الله وبيِّناتُه ، أولئك والله هم الأَقَلُّون عَدَدًا والأعظمون عند الله قدرًا ، بهم يحفظ الله حُجَجَه وبيِّنَاتِه حتى يُودِعُوها نظراءهم ويزرعوها في قلوب أشباههم» .

كلامه ـ كرم الله وجهه ـ مثل كلام كل أصحاب رسول الله ﷺ مُقْتَبس من نور النبوة ، وأنه لا تزال طائفة من أمته عليه السلام ظاهرين على الحق لا يُضّرهم من خَالَفهم إلى أن تقوم الساعة ، وهؤلاء هم أنْهارُ الخير الجارية في الأمَّة ، وأنها لا تنقطع مع اختلاف الأزمنة والأمكنة وما يَعْتري الناس من أحْوال الشِّدّة والرخاء ، وهؤلاء القائمون بحجة الله والذين هم أنهار الخير في الأمة لا يرون في أنفسهم أكثر من أنهم مجتهدون في مرضاة الله ، ويرجون من الله ـ سبحانه ـ أن يتقبَّل منهم ، وأن يُثَبِّت أقدامهم على الطريق الذي يرضاه ، ولا يرون في أنفسهم أكثر من ذلك ، ثم إنهم ليسوا جماعة يعرف بعضها بعضًا ولهم قيادة ولهم مرشد ، وإنما هم متفرقون في الأُمة ولا يعرف بعضُهم بعضًا إلا أن تُحبَّ واحدًا في الله وأن تزوره في الله ، وأن تراه رجلاً طيبًا صالحًا وكفى ، لأن الأمة أمة واحدة ، وجماعة واحدة ، وتفريقها في جماعات مفسدة ، ولو أن كل داعية كوّن له جماعة لكانت الأمة الواحدة جماعات لا حصر لها ، وتلاحظ في كلام الإمام أنه ركّز على الشخص المفرد ، وقال لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله ، ولم يقل من جماعة قائمة ، لأن كل فرد في الأمة يؤدي ما أوْجبه الله عليه ثم يذهب إلى ربه من غير أن يُحْدِث فيها أي نوع من الفرقة ، ولما ذكر رسول الله ﷺ كلمة جماعة أو عصابة حرص الشراح على بيان أنها ليست

جماعة يعرف بعضها بعضًا ، وأنهم يكوِّنون جسمًا في الأمة متميزًا ، وقالوا هذه العصابة أو هذه الجماعة مُفرَّقة في الأرض لا يعرف بعضهم بعضًا ، ثم إن الصالح يعيش حياته كلها وهو يطلب من الله حسن الخاتمة ، خوفًا من أن يكون من الذين يعملون بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، ولذلك نهينا عن أن نحكم على أحد بأنه في جنة أو نار ، وكلنا تتعلق قلوبنا بأن نكون من القائمين بحجة الله ، وكلمة «لا تخلو الأرض» كلمة جليلة جدًّا وتقول لي ولك لا يوحشك أهلُ الضلالة في المجتمع الذي أنت فيه ، وتأكد أن أهل الله حولك ، وأن حُمَاة دين الله حولك ، ولكنهم لا يقولون إنهم أهل الله ، ولا إنهم حُماة دين الله ، وإنما يفعلون ولا يقولون ، هم الذين تجد لهم فعلاً ولا تسمع لهم صوتًا ، وقوله : «إما ظاهرًا مشهورًا وإما خائفًا مغمورًا» كأنه جواب لسؤال مقدر أثاره قوله : «لا تخلو الأرض» وأن المراد كل أرض المسلمين ، وقد يكون المسلمون أقلية في دولة غير مسلمة ، وقد يعلو صوت الباطل في الدولة المسلمة ، وكل هذا يحول بين القائمين على حجة الله وأن يكونوا على الوجه الظاهر المكشوف ، وأن القائم على حجة الله في الزمن الذي يغلب فيه الحق ، ويتكلم الناس فيه بما يعتقدون تراه ظاهرًا مشهورًا ، وليس لأنه يريد الظهور والشهرة ، لأن من يريد ذلك لا يكون قائمًا على حجة الله وإنما تراه يُؤَدِّي واجبه في التعريف بحجة الله وهو آمن ، فإذا كان في قلة بين غير المسلمين ، أو غلب الباطل في بَلَدٍ مسلم حتى يصل إلى اتهام الدعاة إلى الله بأنهم دعاة تخلف ورجوع إلى عصور الظلمات ، لم ينقطع هذا القائم على حجة الله ، وإنما يظل قائمًا عليها وهو خائف مغمور ، وإنما قال الإمام «خائفا» لبيان أن سطوة أهل الباطل قد تخيف الدعاة، ولكنها لا تَقْطَعُ الدعوة ، وإنما هم قائمون على حجة الله وهم

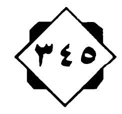
آمنون وقائمون على حجة الله وهم خائفون ، وقوله ـ كرم الله وجهه ـ : « لئلا تبطل حجة الله وبيِّناته» ليس المراد ببطلانها أنها تُمْحَى لأن هذا لن يكون لأنها قائمة في السموات المرفوعة بغير عمد ترونها وفي الأرض الممدودة ، وفي الشمس تجري لمستقر لها ، ثم هي في القرآن الكريم قائمة كقيامها في هذا الكون ، وأن أي سورة في القرآن هي حجة الله كالذي في السموات وفي الأرض ، وسمَّاها ربنا في القرآن آيات وفي الكون آيات ، وأن سورة الفاتحة شاهدة بوحدانية الله ، كالذي تراه في الليل يغشى النهار يَطْلُبُه حَثِيثًا ، وشاهدة بنبوة رسول الله ﷺ بإعجازه ، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثلها لا يأتون ، قلت ليس المراد ببطلان حجج الله في الكون والقرآن أنها تُمحَى وإنما المطلوب تنبيه القلوب والعقول إليها حتى لا تمحوها الغَفْلَة من القلوب والعقول ، ولما ذكر الإمام هذا القائم بحجة الله وأنه قائم على ذلك قيام الحريص المحتشد لحفظ حجة الله ، وأن ذلك شأْنه في الزمان كله والأحوال كلها ، يستوي في ذلك زمن أَمْنِهِ وخَوْفه وحِرْصُه كله ، وقيامُه كله ، لئلا تبطل حجة الله وآياته ، وأنه جعل ذلك همَّه وعَمَلَه وكدَّه ووَكْدَه ، عظم هذا القائم في نفس الإمام فوقف وأقْسَم وقال : « أولئك والله الأقلون عددًا ، والأعظمون عند الله قَدْرًا» واسم الإشارة في قوله «أولئك» يُميِّز المشار إليه أكمل تمييز ، وهذا دليل على شدة العناية بالمشار إليه ، ثم إن موقع اسم الإشارة هنا مشير إلى أن المشار إليه من أجْلِ اتصافه بالصفات التي وُصِفَ بها ، وهي قيامه بحجة الله في الأحوال كلها جديرٌ بالذي يأتي بعد اسم الإشارة ، وهو أنهم الأقل عددًا في الناس لأنهم تميزوا بالذي لا يتميز به من الناس إلا الصَّفوة المختارة ، وأقحم القسم بلفظ الجلالة الدال على اتصاف الحق بكل كمال ، وتنزيه الحق عن كل نقص أقحمه بين المبتدأ والخبر وجاء به معترضًا بين جزئي الجملة ، ولهذا

دلالة أخرى على أهميَّة القسم وأنه اعترض به واعترض له وجَعَل له مكانًا بين جزأين متماسكين ، وأنهم أعظم قدرًا عند الله وليس بعد كونهم أعظم قدرًا عند الله مقام تطمع نفوسهم فيه ، لأن هذا أفضل وأعظم مقام ، ثم أتبع ذلك بقوله : « بهم يحفظ الله حُجَجَه وبيناته » فأشار إشارة أفضل من كل الذي مضى ، وأنهم ما كانوا كذلك بنفوسهم ، وإنما كانوا كذلك بهداية الله لهم واختيار الله لهم ، وأنهم المصطفون الأخيار بعد المصطفين الأخيار الذين هم الأنبياء وأنهم الذين يأتُونَ في عقب الأنبياء ، ويكرمهم الله الكرامة التي يكرم بها أقرب عباده إليه بعد الأنبياء ، ولاحظ أن الله ﷻ نزَّل الذكر الذي هو القرآن وهو حجج الله وبيناته وَهُوَ لَهُ حافظ ، وليس بعد حفظه سبحانه حفظ ، ولكن كرامة الله لهؤلاء أنه سبحانه جعلهم يحفظون ما هو له حافظ وهذه كرامة أخرى ، وناهيك عن كرم الله إذا فاض ، وقوله ـ كرم الله وجهه ـ : « حتى يودعوها نظراءهم » كلمة « يودعوها » تشير إلى أنها أمانة الله أكرمهم الله بأن أودعها لهم ، وجعلهم أهلاً لأن يودع عندهم وديعته ، وأنهم يحملون هذه الأمانة ، حتى يودعوها عند أهلها الذين يعرفون هم أنهم أهلها ، وأن الله ـ سبحانه ـ لم يودعها بعدهم عند أشباههم ونظرائهم ، وإنما أودعها أولاً عندهم وكلفهم بأن يُودعوها هم عند نظرائهم ، وأن من يختارونهم من نظرائهم يصير عند الله مثلهم من الأعظمين عند الله قدرًا ، وأنهم ليسوا عند الله أعظم قدرًا فحسب ، وإنما من يختارونهم من نظرائهم أيضًا يصيرون هم الآخرين أعظم عند الله قدرًا ، وهكذا كلما تأملت وجدت ، وقوله : « ويزرعونها في قلوب أشباههم » لم يَقُلْ ـ رضوان الله عليه ـ ويبلغونها قلوب أشباههم ، وإنما قال يزرعونها حتى تبقى في هذه القلوب ما بقيت هذه القلوب، وتبقى الأمانة زَرْعًا هو أكرم الزرع في قلوب هي أكرم القلوب كأطيب زرع تزرعه في أطيب أرض يؤتى أكله كل حين بإذن ربه ،

وتأكد أنني إذا تأملت الكلام واستخرجت وطال تأملي وكثر استخراجي ازْدَدْتُ يقينًا بأن الباقي في الكلام أفضل من الذي استخرجته ، وإذا وقع في نفسك أن هؤلاء الذين لا تخلو الأرض منهم وهم القائمون بحجة الله ليس لهم عمل إلا هذا فأنت لم تعرفهم ، لأن هؤلاء يعملون كما يعمل الناس ، يضربون في الأرض ويبتغون من فضل الله ، منهم المعلم ، ومنهم الزارع ، ومنهم التاجر ، ومنهم الطبيب ، هم يزاولون حياتهم كما يزاول كل الناس ، والفرق بينهم وبين الناس هو أن الله في قلوبهم ، وهم يراعون الله في كل أحوالهم ، ويذكرون بالله أهل الغفلة ، ويدعون إلى الله بالأفعال ، ولم أعرف واحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كالنجوم بأيهم اقتدينا اهتدينا ، قعد عن طلب عيشه وعيش أولاده ، وكان عبد الرحمن بن عوف الذي مات رسول الله ﷺ وهو عنه راض كان يمشي في الأسواق ، وكذلك كان أبو بكر ، وسيدنا علي نفسه الذي قال لنا هذا لم ينقطع ليكون قائمًا بحجة الله ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، وإنما المطلوب كما أفهم أن يكون الله حاضرًا في قلبك وأنت تمشي في مناكب الأرض وتأكل من رزقه وتعمل أي عمل لأن العمل نفسه ، وطلب الرزق والنفقة على الأولاد كل ذلك من القُرْبَات ، ولن يكون منه شيء من القربات، ما لم تكن هناك نيّة ولا عمل إلا بنية ، ولا أجر إلا باحتساب ، ورأس الأمر هو وجود الحق بجلاله وسلطانه في قلبك حتى تلقاه بقلب سليم ليس فيه إلا الله كما فسره المفسرون ، باشر ما شئت من الأعمال والله في قلبك ، لأنه سبحانه إذا سكن في القلب لا يعلو عليه شيء ، ويصير لله محياك ومماتك ، وتَلْقَى الله وليس في قلبك إلا الله .

وصية تعلم النحو

وقد وجدت في هذا الباب وصية لنا بأن نتعلم النحو كما نتعلم السنن



والفرائض ، والسنن والفرائض هما جل ما في الدين ، وهذا ظاهر في أن تعلُّم النحو كتعلُّم الدين ، ووجه ذكر هذه الوصية في كتاب العلم والأدب اللذين هما القطبان اللذان عليهما مدار الدين والدنيا هو أن العلم لن تبلغ فيه المبلغ الذي يحدث التغيير إلا بالقراءة ، وإذا لم تكن القراءة قراءة صحيحة لن يظهر لك منها معنى ، فشرط الفهم الصحيح القراءة الصحيحة ، والنحو أسهل العلوم وأيسرها ، أعني القدر المطلوب لتصحيح القراءة ، أما الغوص في مسائله فليس مطلوبًا إلا للمتخصصين ، وكانت المطالعة جزءًا من المنهج ، وكنا نتعلم القراءة الصحيحة قبل أن نبدأ في ألف باء النحو ، لأن النطق الصحيح للغة من الفطرة ، ومن العجيب أنه يمكن أن تتعلم من نطقك لكلام العرب النطق الصحيح من غير أن ندرس النحو ، وذكر بعضهم أن البارودي لم يدرس شيئًا في النحو وإنما استقام لسانه من طول القراءة في الشعر ، والذي رأيته بعيني أن بعض من حفظوا القرآن معنا ولم يدخلوا أي تعليم كانوا يقرؤون قراءة أقرب إلى الصواب والصحة لأن القرآن أقام ألسنتهم ، واللحن قبيح ، وكان عبد الملك ابن مروان يقول اللحن أقبح من الفتق في الثوب ، والجدري في الوجه ، وقيل للحسن لنا إمام يلحن ، قال : أميطوه عنكم ، ولم يقل أبعدوه وإنما قال أميطوه كما يقال أماط الأذى عن الطريق ، وقالوا لا يؤخذ الفقه من صاحب لحن .

من دعاء الصالحين

قالوا من دعاء محمد بن المنكدر : « بك عرفناك ، وبك اهتدينا إليك ولولا أنت لم ندر ما أنت سبحانك وتعاليت » هذا الدعاء له أثر بالغ في النفس ، وله دلالة بعيدة القَعْر ، والذي عندي فيه أقل بكثير من الذي فيه ، وليس عليَّ إلا أن أقول الذي عندي ، وغيري يقول الذي عنده ، حتى نكشف حقائق مثل هذا الدعاء ومثل هذا الخطاب لله رب العالمين إلى أجيالنا .

جملة «بك عرفناك» تعني أننا لم نعرفك من كتاب قرأناه ، ولا من رسول حدثنا عنك ، وإنما بك عرفناك لا بغيرك ، وهذه أصدق المعرفة أو قل المعرفة التي ليس فوقها معرفة ، وأن الذي عرفك به هو الذي عرفك من غير أي واسطة ، ثم إن المعنى في «بك عرفناك» تعني بآياتك وآثارك وخلقك وكل ما في هذا الكون مما لا يمكن أن يكون إلا منك ، فليس هناك من يجعل الشمس تجري لمستقر لها إلا أنت ، وليس هناك من يُقَدِّر القمر منازل إلا أنت ، وليس هناك من يُصرِّف السحابَ المسخّر بين السماء والأرض إلا أنت ، وهكذا نَرَاك في كل ما في الكون وعرفناك بكل ما في الكون ، ثم عرفناك بأنفسنا وسمعنا وبصرنا وحَرَكَتِنَا وسكوننا ولَيْلَنا ونهارنا ، وحركة أقلامنا في أيدينا وما يُمْلِيه عَلَيْنَا عَقْلُنا ، كل ذلك عرفناك به لأنك في كل ذلك ، ولولاك لم يكن شيء من ذلك ، وكل هذا ينادي بالإيمان أن آمنوا بربكم ، السحاب المسخر بين السماء والأرض فيه صوت ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم ، والسماء والنجوم والبحار والفلك التي تجري في البحر كل هذا له صوت ينادي ويقول آمنوا بربكم ، وعافيتي ومرضي وعَيْني وسَمْعِي وأنَامِلي التي تحمل قلمي كل هذا فيه صوت ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم ، وهذا بعض معنى جملة «بك عرفناك» ، ولو تكلم أهل العرفان بالعرفان الذي عرفوا لأفاضوا وأفادوا ، وقوله : «وبك اهتدينا إليك» هي أخت التي مضت في المبنى والمعنى ، والفرق هو الفرق بين الأختين مع ملاحظة أن الجملة التي قَبْلها بك عرفناك فيها معنى أنك خلقت الخلق وخلقتنا وأسكنت فينا العقل الدال عليك فدلتنا عقولنا من خلال مخلوقاتك عليك فعرفناك ، وليس هذا المعنى في جملة «بك اهتدينا إليك» لأن معرفتنا لك التي شاركت فيها عقولنا التي هي من عطائك لا تُدخِلنا في الهداية ، والعلم يهيئ للهداية ولا يدخلك في جملة المهتدين ، لأن من الناس

من يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ثم لا يهتدون ، فالهداية إليك التي أكرمتنا بها من محض عطائك ، ولم تشارك فيها عقولنا ولم تشارك فيها آياتك ، لأن آياتك في الكون وفي أنفسنا عرفتنا بك ، والخطوة الثانية التي هي الهداية إنما كانت خالصة كلها من عطائك ، والجملة الثالثة : «لولا أنت لم ندر ما أنت سبحانك وتعاليت» يمكن أن نقول إنها جامعة للجملتين السابقتين ، ويمكن أن نقول إنها خطوة ثالثة ، وأن الخطوة الأولى عرفناك ، والثانية بك اهتدينا ، والثالثة ومفتاح فهمها هو «لم ندر ما أنت» الذي هو جواب لولا ، يعني لولا أنت موجود لم ندر ما أنت ، ولكن وجودك جعلنا ندري ما أنت ، فما الذي دَريناه أي علمناه عن ربنا ؟ لا شك أننا ما علمنا عن ربنا إلا الذي علمه لنا ، لأنه هو الذي يحدثنا عن نفسه ، وقد حدثنا بأنه ليس كمثله شيء ، وأنه الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار إلى آخر ما حدثنا به ربنا عن نفسه ، وأنه سبحانه كما لا يُعبَدُ إلا على الوجه الذي أمر ، كذلك لا نُحدِّثُ عنه إلا بالذي علمنا ، وكما لا يجوز أن نتجاوز في العبادة ما أمر ، كذلك لا يجوز أن نتجاوز في الحديث عنه ما علمنا ، فإذا تكلمنا عنه بغير ما علمنا كنا نتكلم عنه بغير علم ، لأن العلم به لا يكون إلا منه ، وهذا يعني أن هذه الجملة الثالثة نقلتنا إلى القرآن لأنه هو الذي علمنا ما نتحدَّثُ به عن الله ، وراجع ترتيب الجمل الثلاث الأولى بك عرفناك ، والثانية بك اهتدينا إليك ، أعني دخولنا في العبادة والذكر والحديث عنك ، ثم تلاحظ أن القرآن الكريم في كثير من آياته يحدثنا عن آيات ربنا في الكون كـ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ (الشمس:١-٦) إلى آخر ما هو من هذا الباب ، وأن الآيات التي خَلقها معجزة أبان عنها الكتاب

العزيز ببيان مُعْجز ، فصارت الآية آيتين ، آية في الخلق وآية في الإبانة عن الخلق ، وكما أن هذه الآيات في هذا الوجود لا تكون إلا من الله ، كذلك الإبانة عنها ، وكما أن الشمس وضحاها التي تراها في الكون فيها صوت ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم ، كذلك الشمس وضحاها التي في المصحف ببيانها المعجز فيها صوت ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم ، وآيات المصحف الأخرى التي لا تتحدث عن آيات الكون كالفاتحة الإعجاز الذي فيها فيه صوت ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم ، وكل سطر في المصحف ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم ، ومن أجل أن نطمئن على أن معنى «لم نَدْر مَا أنْت» هو لم ندر كيف نتحدث عنك ، أتبعها ابن المنكدر العالم الصالح بقوله سبحانك وتعاليت ، يعني التنزيه المطلق الذي هو الوصف بكل كمال ، والتنزيه عن كل نقص ، ابن المنكدر يقول معرفتي لك عطاء منك وهدايتي إليك عطاء منك ، وذكرى لك عطاء منك ، وخوفي منك عطاء منك ، ورجائي لرحمتك عطاء منك ، وليس لي أي حول ، ولا أي طول ، ولا أي قوة ، وأنك إن وكلتني إلى نفسي قربتني من الشر ، وأبعدتني عن الخير ، وأني لا أثق إلا في عطائك ، ولا أطمع إلا في رحمتك ، وهذه هي عبوديتي لك وهذه هي عبادتي لك .

الثقة لا يبلغ

بقيت كلمات سأكتفي بذكر بعضها لك وعليك أنت أن تنظر إلى أثرها في حياة الجماعة ، وليس لنا زاد في رحلتنا إلى الله أطيب من اجتهادنا في إحداث الخير لهذه الجماعة التي لا يَعْبُد اللهَ من خلقه في هذه الأرض على الوجه الذي يرضاه إلا هي ، ومن العار والزراية أن تكون متخلفة ، ومن العار الأشد والزراية الأبعد ، أن لا يقوم رجالها ويقعدون لإخراجها من هذا التخلف ، « قال مصعب

ابن الزبير للأحنف بن قيس : بلغني كلام قلته فأنكره الأحنف ، فقال مصعب : الذي بلَّغني به ثقة ، فقال الأحنف : الثقة لا يبلّغ » ضع خطًّا تحت كلمة « الثقة لا يُبلّغ » واحفظه وكرره على مسامع الناس حتى يستحي من يبلغ ويعلم أن بلاغه ينزع عنه الثقة ولست أدري هل تُقْبَلَ شهادته أم ترد ؟ وقالوا : « قبول النميمة شَرٌّ من النميمة » فإذا جاءك نمام فأسْكتهُ ، وإن كان بجوارك حجر ألقمه الحجر لأنه سيوقعك في ذنب أشد من ذنبه ، وإذا كانت الثقة تنزع من الذي يبلغ فأولى بأن تنزع من النمام ، وأولى بأن تُردّ شهادته .. وقالوا : « الساعون بين الناس قوم يلعنهم الله مع الصدق ، وأنهم أصدق ما يكونون أبغض ما يكونون إلى الله » راجع شدة بغض الله للذي ينقل الحديث بين الناس وهو صادق ، وأنه حين يكون أصدق ما يكون يكون عند الله أبغض ما يكون ، وراجع أيضًا إلى أي مدى يحمي ربنا العلاقات الطيبة التي يجب أن تكون بيننا ، وأن من يفسدها بنقل كلمة يَصُبُّ الله فوق رأسه أشد غضبه .

قالوا : « خرج عمر بن الخطاب يومًا ويَدُه على المعليّ بن الجارود العبدي ، فلقيته امرأة من قريش ، فقالت له : يا عمر فوقف لها ، فقالت له : كنا نعرفك مُدَّة عميراً ثم صرت من بعد عمير عمراً ، ثم صرت من بعد عمر أمير المؤمنين ، فاتق الله يا ابن الخطاب وانظر في أمور المسلمين ، فإنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت خشي الفوت ، فقال المعلي : إيها يا أمة الله فقد أبكيت أمير المؤمنين ، فقال له عمر : اسكت ، أتدري من هذه ويحك ، هذه خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من سمائه ، فعمر أحرى أن يسمع قولها ويقتدي به » .

وأول ما يلفت في هذه القصة أن خولة قالت له يا عمر ولم تقل له يا أمير

المؤمنين ، ووجه ذلك في الذي أراه أنها ستحدثه عن عمير التي بدأ بها حياته ، فكان الأقرب أن تناديه بعمر لتبدأ الحديث عن عمير ، وقد كررت كلمة «عمير» وكان يمكن أن تقول ثم صرت عمر ، ولكنها قالت ثم صرت من بعد عمير عمر ، وقولها «كنا نعرفك» يعني لم تعرف في الناس إلا بهذا الاسم المُصَغَّر وهو عمير ، ومجيء «ثم» هنا للإشارة إلى التباعد الزمني والرتبي معها ، وكذلك قولها ثم صرت من بعد عمر أمير المؤمنين ، وإنما روت له هذه المراحل لتذكره بنعمة الله عليه ، وأن عميرًا في النهاية صار أمير المؤمنين ، وأن الذي رعاك من زمن عمير إلى أمير المؤمنين يوجب عليك التفرغ للنظر في أمور المسلمين ، وهذا هو بيت القصيد ، وأن خولة لم توقف عمرًا إلا لتقول له هذه الجملة ، والذي بعدها في كلام خولة ليس إلا حثًّا عليها ، وهنا تقف لتنظر كيف كان المسلمون رجالهم ونساؤهم حريصين على نُصْح ولي الأمر ، وأن هذا النصح هو النظر في مصالح المسلمين ، وأن هذا النصح من حقه على الناس ، ومن حق الناس عليه ، وأنك لا تنتظر به حتى يَحْدُث من ولي الأمر خطأ أو فساد ، وإنما تؤكد عليه مع مزيد استقامته ، لأن عمر كان شديد الحرص على النظر في مصالح المسلمين ، وكان يزاول ذلك في ليله ونهاره ، ولم تكن خولة تزايد على عمر وإنما كانت تؤدي واجبها لأمتها ، لأن النصح لولي الأمر واجب على كل قادر عليه رجلاً كان أو امرأة ، وولي الأمر الصالح يقف ويسمع ويعمل بما يسمع ، ولا يرى في نصحه غضاضة ولا نيلا منه ، ولا اتهامها له بالإهمال ، كل هذه أفكار الضّعَفَة ، الذين لا يصلحون لولاية أمر الناس ، والحاكم العاقل يعلم أن المنصب الذي هو فيه لمباشرة مصالح كل أبناء الشعب ، ومن حق كل واحد منهم أن يتكلم بالذي يراه ، والشرط الذي لابُدَّ منه أن يكون

كلامك مجردًا لصالح البلاد والعباد وليس وراءه أي شيء خلاف ذلك ، والكل يحسن الظن بالكل ، وبهذا تنتقل البلاد من السيئ إلى الحسن ومن الحسن إلى الأحسن ، وهذه هي الغاية التي يسعى إليها الكل ، ومن يتلكّأ في السعي نحوها فهو عاق لأرضه التي عاش عليها وعاش من خيراتها ، وعاق لقومه الذين هو منهم ، وهذا عقوق بئس العقوق ، لأن الأوطان أم لنا وأب ، ومثله في عقوقه الذي هو بئس العقوق من يرى البلاد متخلفة وكأن الأمر لا يعنيه، وقول خولة : «فانظر في حقوق الناس» هو واجب كل حر ، وقبول المسؤول له هو واجب كل مسؤول هو أهل للمسؤولية ، وقولها : «فإنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت خَشِيَ الفوت» أول ما يبدو من الجملتين هو ما بُنِيتَا عليه من تناسق النّغم ، وأن هذا التناسق في اللفظ ، ما كان له أن يكون لولا أنه تناسق النغم في داخل النفس ، وأن الجملتين تحضان على الأمر بالنظر في أحوال المسلمين ، الذي هو الأصل الذي له أوقفت عمر وذكرته بأنه كان عميراً ثم عمر ، ثم أمير المؤمنين ، وأن النظر في أمور المسلمين ليس أمرًا سهلاً ، وإنما هو جِدٌّ واستمرار وشاق أيضًا ، ولكن يخففه خوف الوعيد ، لأن خوف الوعيد يُعين على الوصول إلى البعيد ، بل إنه يقربه ، ويعين عليه أيضًا ذكر الموت والخوف من مبادرته ، لأن من خاف الموت بادر إلى العمل الذي يرضى الله وفيه قدرة على الإنجاز ، خوف أن يأتي الوقت الذي لا يستطيع فيه أن يبادر خشية الفوت ، وما دام الموت بين عينيّ فلابد أن أُسَارع إلى العمل الذي أجد جزاءه بعد الموت ، وربما كانت هاتان الجملتان سبب بكاء عمر ، وأن عمر كان شديد الحرص على شكر الله الذي أكرمه، وصيَّر بإكرامه عميرًا أميرًا للمؤمنين، ثم إن هذه الصحابية الجليلة لم تكلم عمر بما علمت، وإنما تكلمه بما عملت،

وأنها خافت الوعيد في شأنها الخاص فقرب إليها البعيد ، وخافت الموت فسارعت إلى العمل الصالح خشية الفوت ، وقول المعلى لها : « إيها يا أمة الله فقد أبكيت أمير المؤمنين » جاء بعد قولها « من خاف الوعيد قرّب الله عليه البعيد ومن خاف الموت خشي الفوت » دال على أن هاتين الجملتين هما اللتان أبكيتا عمر ، ويستحيل أن يكون المعليّ قال هذا تقربًا لعمر ، وإنما يرى أن عمر جادٌّ في النظر في مصالح المسلمين وأنه يخاف الوعيد ، وأنه في كل شأن في الذي يرضى الله يُعجِّل خشية الفوت ، ثم رآه يبكي وهو لا يعرف هذه المرأة ، ولا شك أن مكانتها عند الله أكسب كلامها لعمر قوة ونفاذًا ، كان من أهم أسباب بكائه ، ولو عرف المعلى أن هذه التي سمع الله قولها لخاطبها خطابًا آخر أو لسكت ، وهذا مما أدْركه عمر لأنه قال له : « اسكت أتدري من هذه ويحك » وهذا خطاب الغاضب من خطاب المعلى لها « هذه خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من سمائه » وكانت زوجة لابن عمها أوس ابن الصامت ، وكان مريضًا وأسَنّ وأوصاها رسول الله ﷺ بإكرام ابن عمها ، وكان زوجها تتغشّاه حالات فيقول الشيء ثم يرجع عنه ، وكان قال لها لما أغضبته أنت عليّ كظهر أمي ، وكان هذا في الجاهلية يعني التحريم ، فقال لها رسول الله ﷺ أراك حرمت عليه ، فنـزلت آيات أول سورة المجادلة وخولة لا تزال في مجلس رسول الله ﷺ ، وهذا من إكرام الله لخولة ، ولعله مما أراده عمر بقوله « التي سمع الله قولها من سمائه » وقد شرع الله في هذه الآيات كفارة الظهار ، وأنكر عليهم هذا القول وقال : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ (المجادلة:٢) ، وفي سورة الأحزاب ذكر في أولها ثلاث جمل الأولى ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى

جَوْفِهِۦ ﴾ ، والثانية ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ ، والثالثة ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب:٤-٥) ، وكانوا يقولون في زيد بن حارثة زيد بن محمد .

المهدي وقصيدة لزهير

ذكر ابن عبد ربه أن بعض الرواة دخل على المهدي فقال له أنشدني قول زهير : « لِمَن الديارُ بقُنَّةِ الحِجْر » فأنشدها حتى أتى على آخرها ، فقال المهدي : ذهب والله من كان يقول هذا ، فقال الراوي : كما ذهب والله مَنْ يقال فيه ، فاستجهله المهدي واستحمقه . انتهى الخبر ، والقصيدة قيلت في هرم بن سنان ، وقال زهير بعد ثلاثة أبيات :

دع ذا وعَدّ القول في هَرِمٍ ... خَيْر الكُهُولِ وسَيِّد الحَضْرِ

تالله ذا قسما لقد علمت ... ذبيانُ عام الحَبْسِ والحَصْر

أن نعم مُعتَرَك الجياع إذا ... خَبَّ السفيرُ وسابئُ الخمر

ولنعم مأوى القوم قد علموا ... إن عضهم جِلٌّ من الأمْر

والحبس والأصر واحد ، ومعترك الجياع : المكان الذي يتزاحمون فيه ، وخب السفير : أسرع ورق الشجر لشدة الريح ، وسابئ الخمر : مشتريها للإخوان ، وهذا مما يمدحون به ، وسابئ الخمر راجع إلى نعم أي نعم سابئ الخمر يراد الممدوح ، وجِلٌّ من الأمر : الأمر الجلل .

ولنعم حشو الدرع أنت إذا ... دُعيت نزال ولُجَّ في الذُّعر

وفيها : الستر دُونَ الفاحشات وما ... يلقاك دون الخير من ستر

والراوي لم يخطئ لما قال ذهب والله من يقال فيه ، لأن هرم بن سنان أنطق زهيرًا بأجود شعره ، والمعتصم أنطق أبا تمام بأجود شعره ، وسيف الدولة أنطق أبا الطيب بأجود شعره ، وأن الأحداث الكبار والرجال الكرام كان من أهم عوامل تجويد الشعر وتثقيفه ، وحازم القرطاجني تكلم في هذا كلامًا جيدًا ، وكأن الشاعر ليس وحده صانع شعره ، ولو خلت البلاد من هؤلاء لخفت صوت الشعر ، ولكن المهدي رغم حكمته وسداده لم يعجبه هذا .

والآن أنتقل إلى كتاب الأمثال أو كتاب الجوهرة في الأمثال كما يسميه ابن عبد ربه .

* * *

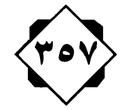
كِتَابُ الجَوْهَرَةِ فِي الأَمْثَالِ

قال ابن عبد ربه في الأمثال : هي « وشي الكلام وجَوْهَرُ اللفظ ، وحَلْيُ المعنى ، والتي تخيرتْها العرب وقدمتها العجم ، ونُطق بها في كل زمان وعلى كل لسان ، فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، ولم يَسِر شيء سَيْرها ولا عم عمومها » انتهى كلامه ، لا شك أن ابن عبد ربه كان وَصَّافًا للبيان ، وكان صانعًا له ، وأن علم البلاغة ما علمنا منه وما لم نعلم كامن ومختبئ تَحْتَ هذه الأوصاف المبهمة التي نحاول أن نَتَبَيَّنَها فلا نصيب إلا أطرفا منها ، ويسهل علينا حفظها وتكرارها ، وهي مع الحفظ والتكرار لا تزيد شيئًا ولا تزيد شَرْحًا وبيانًا ، وإنما تبقى مبهمة وكأننا أدخلناها معنا في « محلك سر » مع العلم بأن الذي في علوم البلاغة الثلاثة ، إنما كان شَرْحًا وبيانًا لكلمات هي كالإشارة ، والرّمز كما قال عبد القاهر ، ولكنه رَحِمَهُ اللهُ مع جهده المتميز لم يشرح كل ما قاله أهل البيان في أوصاف البيان ، ومنه الذي بين أيدينا من كلام ابن عبد ربه ، لأننا لم نعرف كيف يكون المثل وَشيًا ؟ ولم نعرف الشيء الذي به تتحوَّل ألفاظ اللغة حتى تكون جَوْهرًا ودُرًّا ؟ نعم نفهم تَخَيَّرَتها العرب وقدمتها العجم ، ونُطِق بها في كل زمان ، ولا شك أنك وأنت تقرأ الشعر أو غير الشعر حين تقع على المثل تدرك إدراكًا ظاهرًا أنك وقعت على شيء جديد ونفيس ، وأنه كموضع الوَشْي في الثياب ، وكما أن موضع الوشى في الثياب هو الموضع المتميز في جماله ، كذلك موضع هذا المثل هو موضع التميز الأكثر ، فالمثل في الشعر هو صَفْوُ ما تميز به الشعر ، ويقول لنا ابن عبد ربه إن هذا الصَّفْو وهذا التميّز

تتحوَّل فيه كلمات اللغة إلى جواهر ، وكأنك تلفظ بلفظ المثل الدُّرَّ ، ثم ترى المعنى به وإن كان معنى غُفْلاً صار بالمثل شيئًا جديدًا ، وكأن المثل ميَّزه وقرّطه وشنَّفَه كما كان يقول الكرام الكبار ، ويزيد عبد القاهر ولم يكتف بأن المثل شَبَّ من نار المعنى وإنما يقول إنه يَنْفُذُ به إلى أقاصي الأفئدة ، ويجعل أقاصي الأفئدة ويحوّلها إلى أن تكون كلها بالبيان صَبابةً وكَلفًا ، ثم إن هذا الولع بالبيان ليس خاصًّا بلغة ، ولا بجنس من الناس ، وإنما هو شأن النفس الإنسانية في كل اللغات ، وكل الأجناس ، وأنه من البلاغة المشتركة أوْ قُلْ من البلاغة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها يوم خلق الإنسان وعلمه البيان ، وكل هذا مَوْجُودٌ عند ابن عبد ربه وعند غيره ، وقد وقف عبد القاهر عند هذا وقال لا يجوز لأحد أن يجعل المجاز والتشبيه وفنون البلاغة خاصًّا بالعربية ، لأن الخاص بالعربية مَحدُودٌ جدًّا كالمنع من الصرف ، وصيغ الجموع ، وما عدا ذلك وشبهه فهو من أحوال النفس الإنسانية الذي لا محالة هو في لغتها ما دام في فطرتها ، وراجع مرة ثانية أن وَشْيَ الأمثال وجواهر ألفاظه وحلى معانيه ساكن في اللغات كلها ، لأنه ساكن في النفوس كلها ، وكأنه ينادي أن ابحثوا البلاغة المشتركة بين اللغات المشتركة ، لأنه قبل ذلك في النفوس ، لتتقاربوا أكثر ، ولتتعارفوا أكثر ، وأنها إرثكم من النفس الواحدة التي خلقكم الله منها ، وجعلكم شعوبًا وقبائل لتتعارفوا بها وبغيرها ، واتركوا هذا التنازع وهذا التباغض وهذه الأثرة والأنانية .

جملة من الأمثال

وابن عبد ربه بعد ما عرف ووَصف الأمثال بالكلام الجيد النافذ الذي قدمناه دخل بنا في فيض من الأمثال ، ويفتح لنا في أمثاله بابًا بعد باب ، فيريك الأمثال



وقد أمْسَكَتْ بأسماء رجال ونساء لهم أوصاف حَرَصَت العرب على أن تظل هذه الأوصاف قائمة في الأجيال ، فصيروا هذه الأوصاف أمثالاً ممسكة بهذه الأسماء ، فقالوا أسْخَى من حاتم ، وأشجع من ربيعة بن مُكدّم ، وأدْهَى من قيس بن زهير ، وأعزّ من كليب وائل ، وأوفى من السموأل ، وأسود من قيس ابن عاصم ، وأمْنعَ من الحارث بن ظالم ، وأصدق من أبي ذر الغفاري ، وأكذب من مسيلمة الحنفي ، لاحظ أن كل هذا له هدف واحد وهو بقاء هذه الصفات قائمة في نفوس الأجيال، يستوي في ذلك المحمود منها كصدق أبي ذر الغفاري، وغير المحمود ككذب مسليمة الحنفي ، لأن زرع حب الخير في النفوس معه زرع كراهية الشر فيها ، وقد وصل إلينا سخاء حاتم ، وبيننا وبينه أربعة عشر قرنًا ونصف قرن ، وكأننا رأينا حاتمًا ، وكأنه غمرنا بسخائه ، وكأننا رأينا شجاعة ربيعة بن مكدم وكأنه نازل أعداءنا ، وحَمى ترابنا ، وكأننا رأينا عز كليب وائل وعشنا نتحاشى القُرْبَ من حِمَاه ، وكل هذا ضروري في تربية أجيالنا ، إذا كنا نريد أن نربي أجيالاً تحمي ترابنا ، ولا مفر لنا من ذلك ، وأقول إن كل هذا جيد وأجود منه وأعجب أنك لا تجد في المثل أكثر من كلمتين لا يتسعان لأي صنعة بيانية ، ولكن مُجرّد ذكر سخاء حاتم ، وشجاعة ربيعة بن مكدم ، هو الذي أضْفى على هاتين الكلمتين وشيا ، وحوّل الألفاظ إلى جواهر ، والمعنى إلى حَلْي ، وهذا شيء جديد في البلاغة ، وأن المعنى الكريم في سخاء حاتم ، هو الذي صاغ الوشي ، وجوهر اللفظ ، وحلاوة المعنى ، وكما بَنَتْ العرب كثيرًا من أمثالها على ذكر رجالها كذلك بنت كثيرًا من أمثالها على ذكر نسائها ، فقالوا : أشْأَمَ من البسوس ، وأمنع من أمِّ قرفة ، وأبصر من زرقاء اليمامة ، والبسوس جارة جساس صاحب وصديق كليب وائل وأخو جليلة امرأة كليب ، وهو جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان ، رعت ناقة خالته في حِمَى حماه كليب فرماها كليب ، فقتله جساس وثارت الحرب بين

بكر وتغلب ، وهم أبناء أب واحد وبقيت سنين وقتل فيها من قتل ، وكاد الفريقان يتفانيان لهذا السبب التافه ، وأم قِرْفة امرأة مالك بن حذيفة بن بدر الفزاري ، وكان يُعلَّق في بَيْتها خمسون سيفًا كل سيف منها لذي محرم لها ، وهذه هي منعتها ، وزرقاء اليمامة كانت قويَّة البصر حتى إنها كانت تنظر الراكب على مسيرة ثلاثة أيام ، ومضى ابن عبد ربه فذكر الأمثال التي بنيت على فطرة الحيوان ، كقولهم : أسْمَع من فرس ، وأنْوَمُ من فَهْد ، وأحَنُّ من النيب ، وأشجع من أسد ، وما بني على الطير ، كقولهم : أحذر من غراب ، وأبصر من عقاب ، والوشي في هذه الأمثال واللفظ الجوهر وحلى المعنى أنها تفيدك معرفة ، فتعرف سماع الفرس ، ونوم الفهد ، وحنين الإبل ، ومن شأن الفطرة أنك إذا سُقْتَ إليها معرفة أنها تغتبط بهذه المعرفة ، ثم إنك تمدها بأمثال تُعَدُّ حصيلة في بيانها ، فنقول فلان أحذر من الغراب ، وأسمع من فرس ، وأحَنُّ من الإبل ، وتوق النفس إلى المعرفة عمومًا ومعرفة البيان خصوصًا ساكن فيها لأن الله ـ سبحانه ـ لما خلقه علّمه ، ثم إنه سبحانه علم أبانا الأسماء ، فهذا من خلق الله فينا ثم هو إرثنا من أبينا ، ثم ذكر ابن عبد ربه بعض أمثال أكثم الصيفي الذي يذكر بأنه حكيم العرب ، وسواء كانت هذه الأمثال مما استخرجها أكثم أو كانت مما ارتضاه من كلام غيره ، لأن الذي اخترتَهُ كأنك أنتجته ، ومن أمثال أكثم« من مأمنه يؤتى الحذر» ، « إذا نزل القدرُ عَمىَ البصر » ، « أي الرجال المهذب» ، « أنت منساق على ما أنت لاق» ، « لن تعدم الحسناء ذاما » ، « الحُر حُرّ وإن مسّه الضر » ، « العبد عبد وإن ساعده الجدّ» ، « كل مبذول مملول» ، « وكل ممنوع مرغوب» ، « لكل أجل كتاب» ، « لكل نبأ مستقر » ، « أكثِرْ في الباطل يكن حقًّا » ، « مَنْ عُرف بالكذب لم يجز صدقه» ، « ومن عرف بالصدق جاز كذب» ، « لكل ساقطة لاقطة » ، وهكذا جمع ابن عبد ربه الأمثال الجارية على ألسنة الناس في المعاني المختلفة والمقامات المختلفة ، كقولهم

في الانتقال من الذل إلى العز : « كنت كراعا فصرت ذراعا » والكراع ما دون الركبة إلى الكعب ، وقولهم « كنت بُغاثا فاستنسرت » أي صرت نَسْرًا ، وقالوا في الذل بعد العز : « كان جملا فاستنوق » أي صار ناقة ، وقالوا « الحَوْر بعد الكَوْر » ؛ والحور النقصان والكور الزيادة ، وقالوا في المستضعف : « فلان لا يَعْوِي ولا ينبح » يعني ليس ذئبًا ولا كلبًا ، قالوا في الذليل يستعين بأذل منه : « عَبْدٌ صريخه أمةٌ » ، وكتاب الأمثال كله من هذا البيان العالي الذي تراه في الكلام وشيا وفي الألفاظ جواهرَ وفي المعاني حَلْيًا وحلاوة ، ولا أشك في أننا تخلفنا عن علمائنا وتراثنا ، لأنني في هذا الذي أكتبه أرى ابن عبد ربه الذي ولد وتربى في الأندلس التي لم تكن مَهْدًا لعلومنا وعلمائنا يعرض عليّ وعليك بيانًا عاليا ويَصِفُه بأنه وشي للكلام ، وجواهر للألفاظ ، وحلي للمعاني ، وكأنه يقول لي ولك هذا بيان وهذا وَصْفه ، وليس عليك إلا أن تستخرج هذا الوصف من هذا الموصوف ، فتقول للناس في كل مثل هذا وشْيُه وهذه جواهر ألفاظه وهذا حَلّيُ معانيه ، وأراني عاجزًا عن هذا مع شدة عنايتي بالتحليل من أول حياتي ، وقلت قبل ذلك إنني كنت أبحث في الكتب والشواهد عن التحليل ، وكنت أحرص على قراءة مجلة الشعر التي كان فيها في كل عدد تحليل قصيدة ، ولما نشر المرحوم محمود شاكر تحليل قصيدة « إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمه لا بطل » في مجلة المجلة كنت أكتب مقالاته في كراسة لا تزال عندي ، لأننا لم نكن نعلم أنه سيخرجها في كتاب ، وكنت أخشى أن تضيع مني بعض أعداد المجلة ، ومع كل ذلك كلما كتبت تحليلاً لشعر أو لنثر أحسست أنني لم أُصِبْ حاقَّ السر الذي هو فيه ، ومع ذلك سأتناول تحليل بعض أمثال أكثم ابن صيفي لأني أُحبُّه ، لأنه كان حكيمًا قديمًا في قومي وليس في زماني من يشغل مكانه .

وأبدأ بقوله : « من مأمنه يؤتى الحذر » والمعنى المتبادر من الجملة أول

ما يطرق النفس وهو هنا معنى فيه مفاجأة ، لأننا ألفنا أن نحذر موضع المخافة وليس موضع الأمن ، والجملة تقول لنا يأتيك الشر من جهة أمنك وليس من جهة مخافتك التي حذرتها فقط يعني أن الشر محيط بك ، وأنه اسْتَبَاح منك جهة الأمن ، فضلا عن جهة المخافة ، ثم إن هذا المعنى غير المألوف بدأ خطابه لي بأصله وهو كلمة « من مأمنه » ولو قال يؤتى الحذر من مأمنه لما كان كما قال ، ثم إن بناء فعل « يؤتى » للمجهول فيه الكثير من معنى المثل ، وأنني أجهل الذي يأتيني بالشر من الجهة التي أظن أنه لا شر فيها ، ثم إن الشر المجهول فاعلُه يأتيني من جهة الأمن ، وأنا حذر محتشد لدفعه ، ثم إن الفاعل المجهول في كلمة « يؤتى » هي القدر الذي في قول الناس لا ينفع حذر من قدر .

وقوله : « إذا نزل القدر عمي البصر » كأنه شرح لقوله من مأمنه يؤتى الحذر ، وأن المجهول هو القدر ، وأنه إذا نزل أبطل كل ما فيك من قدرات على مواجهته ، حتى إن عينيك اللتين ترى الشر حين نزوله بك يُصِيبُهَا العمى وهي مفتوحة وهي ترى إلا هذا الشر الذي نزل به القدر فلن تراه ، وهذا أشد من المثل السابق ، لأن هذا إذا نزل أحدث هولا أشد من كل الأشد وهو عمى البصر ، وفيه معنى إبطال كل قوة تدافع وتدفع ما نزل به القدر ، ثم إن في المثل إشارة أخرى أشد فزعًا وهي أن أداة الشرط « إذا » تفيد أن ما دخلت عليه كثير متوقع ، وأنك في حياتك معرض في أكثر أحوالك إلى نزول القدر الذي مع نزوله يعمى البصر ، وكأن عمى البصر مقدمة لنزوله ، فكيف يكون هو؟ وقوله : « أي الرجال المهذب » من كلام النابغة وهو جيد جدًّا وسهل جدًّا ، وخفيف على النفس ، ويهيئها إلى قبول الأخطاء والخطايا ، لأنها لابد أن تعلم أن المهذب الذي لا خطأ ولا خطيئة له ليس موجودًا ، وإذا أردت أن تعيش مع جماعة ليس فيها خطاؤون فاذهب إلى كوكب آخر ، النابغة يعتذر عنا جميعًا

ويقول لكل من تقع منا إساءة إليه سامح لأنه ليس في الرجال من لم تقع منه أخطاء ، ولُمَّ الناس حولك على شعثهم ، ولو أردت من لاشعث له فلن يكون حولك أحد ، وتعجب أن يصل النابغة في الجاهلية إلى هذا المستوى من الوعي الذي نحن في أشد الحاجة إليه ، لأننا لا نلُمْ أحدًا على شَعَثٍ ، وليس في الرجال مهذب ، فأوشكنا أن نعيش فرادى .

وقوله : « مُنْساقٌ إلى مَا أَنْتَ لاق » أبرز ما فيه عُنْصر الغيب الذي لا حيلة لنا في مدافعته ، وأننا وإن كنا نتصرف بحرية واختيار فإننا في الحقيقة منساقون إلى الذي كتب علينا أن نَلْقاه ، ويدهشك أنك حرٌّ مختار ، ثم أنت مُنْساق إلى ما أنت لاق ، وكأن حُرِّيتي واختياري وَهْمٌ أعيش فيه ، ثم إنني منساق ولم أعْرِف لي سائقًا يسوقني ، وبداية المثل بكلمة « منساق » بداية بمحْض موضوع المثل ، ومهما اجتهدت في تحليل الأمثال والحكم وجوامع الكلم ، فلن تجد مُتسعًا في الكلام يُتيحُ لك أن تراجع مكوناته ، وأن تبحث فيها عن خفايا المعاني ، وإنما ستجد أنك أَمَامَ أَمْرِيْنِ من أهم ما يوصف بهما الكلام ، وهو قصر الألفاظ ، وطول المعاني ، ثم إن طول المعاني واتساعها وامتدادها ، مع إصابتها وسدادها كما رأينا في كل الأمثال التي حاولت بيانها ، والذي لم أحاوله هو أهم ما في الأمثال ، ويجب ونحن نحلل الأمثال والحِكم وكل ما هو من جوامع الكلم أن نتخفف قليلاً من إدخال المعاني التي ليست داخلة في صُلْبِ الكلام ، لأن هذا قد يجوز في الشعر ولكنه لا يجوز أبدًا مع الأمثال ، لأن كل قيمة الأمثال والحكم وجوامع الكلم إصابة المعنى واتساعه وسداده مع إيجاز اللفظ وهذا حسبها .

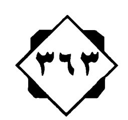
وأكتفي بهذا وعليك أن تتابع أنت، ولو تمكنت من حفظ ما أَوْرَدَ ابن عبد ربه من أمثال فلا تتردّد .

* * *

كِتَابُ ٱلزُّمُرُّدَةِ فِي ٱلْمَوَاعِظِ وَٱلزُّهْدِ

كان ابن عبد ربه يختم الكلام في الكتاب الذي مضى ويفتح الكلام في الكتاب الجديد ، وترى في ختمه للذي فرغ منه وتقديمه للذي هو قادم عليه كلامًا مختصرًا جدًّا ومفيدًا جدًّا ، ومبينًا للذي أراده في الذي مضى ومبيِّنًا أيضًا للذي يراه فيما هو مقدم عليه ، وهذا شأن الكاتب الممتلك لناصية فكره ، وشأن الكاتب الذي يرى فراغًا في ثقافة قومه ، وما حمل قلمه إلا ليملأ هذه الفراغات ، فلا يكتب إلا الذي يرى قومه في حاجة إليه ، وحاجة الجماعة هي الغاية وهي الهدف ، وهي العمل ، وهي الشاغل ، وبهذا وحده تتغيّر الشعوب وتتقدم ، والأقلام في يد العلماء لها أصوات تَحْدُو شعوبَها إلى الذي هو خير ، قال بعد الفراغ من باب الأمثال وفتح باب المواعظ والزهد : « قد مضى قولنا في الأمثال وما تفننوا فيه على كل لسان ومع كل زمان ، ونحن نبدأ بعون الله وتوفيقه بالقول في الزهد ، ورجاله المشهورين به ، ونذكر المُتَنَخَّل من كلامهم والمواعظ التي وعظت بها الأنبياء ، واستنخلصها الآباء للأبناء ، وجرت بين الحكماء والأدباء ، ومقامات العباد ، وبين أيدي الخلفاء » .

راجع الكلمات القليلة التي قالها في الأمثال وهو يقدِّم لباب الزهد وأنها من كنوز الحكمة ، وكنوز الأدب ، وقد أقبل عليها الناس في كل زمان ، وكل لسان ، لأنهم يجدون فيها صِقَالاً لعقولهم ، وثراء لتجاربهم ، وحَادِيًا يحدوهم في حياتهم نحو الأفضل ، والأكرم ، ليس في الناس عرق ولا لغة إلا وهو آخذ بحظه من هذا التراث الإنساني المشترك بين الناس ، هذا التراث المُنقَّى



والمصطفى ، وإن اختلفوا في العقائد وفي الألسنة لم يمنعهم هذا الاختلاف في أن يأخذ بعضهم عن بعض هذه الأمثال ، لا ترى لك مبرِّرًا يُبَرِّرُ لك انصرافك عنها وقد اشترك فيه الناس من أول زمانهم ، وسَيظلُّ الناس كُلُّ الناس يَرِدُونه إلى آخر زمانهم ، ابن عبد ربه يشير إلى أن أهل القرآن يحفظون القرآن ، وأهل التوراة يحفظون التوراة ، وأهل الإنجيل يحفظون الإنجيل ، ثم إن الكل يحفظ هذه الأمثال لأنها هي المعنى الإنساني الجامع لكل الناس ، وإن فرقَّتهم العقائد ، وابن عبد ربه لم يذكر هذا بلفظه ولكنه لا يخرج عن قوله : « تفننوا فيه على كل لسان ومع كل زمان» ويحفزك إلى قراءة كتاب الزهد بقوله : « ورجاله المشهورين فيه والمختار المُتَنخّل من كلامهم» وهل يجوز لك أن تتساهل في تحصيل الكلام المختار المُتَنَخَّل للرجال المشهورين في باب الزهد ؟ وخصوصًا أن الزهد قد أفسد العامة معناه وحصروه في طلاق الدنيا ، وأن الزاهد من طلق الدنيا وخاف الفتنا ، مع أن الذي طلّق الدنيا لن يجد لها بديلاً يصنع فيه الصالحات ، ويبادر فيه إلى الخيرات ، ويسارع فيه إلى جنة عرضها الأرض والسموات ، وكل شيء في الآخرة له مقابل في الدنيا ، فالبعث والحساب إنما هو لحسابك على كل ما اقترفت في هذه الدنيا ، والثواب إنما هو لعملك الصالح في هذه الدنيا ، والعقاب إنما هو لعملك السيئ في هذه الدنيا ، وكل ما أمرنا الله به وما نهانا عنه ليس له مكان إلا في هذه الدنيا ، وكل نبي من أنبياء الله إنما بعثه الله في هذه الدنيا ، وكل كتب الله إنما نزلت في هذه الدنيا ، والزهاد ليسوا هم الذين طلقوا الدنيا ، وإنما هم الذين جعلوا كل عملهم في هذه الدنيا في مرضاة الله ، هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وهم المجاهدون في سبيل الله ، وكل ذلك في هذه الدنيا ، وقال لنا رسول الله ﷺ : « إنها خَضِرَةٌ حُلْوة فمن أخذها بحقها بورك له فيها ومن أخذها بغير حقها

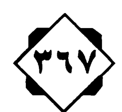
كالظامئ الذي لا يَرْوَى» والزهاد هم الذين أخذوها بحقها وبارك الله لهم فيها ، وقيل لرسول الله ﷺ : «الزهد في الدنيا ؟ قال : أما إنه ما هو بتحريم الحلال ، ولا بإضاعة المال ، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أغْنَى منك بما في يدك» ومن نافلة القول أن أقول لك إنني أحَلل كثيراً من الكلام المختار من الأمثال والحكم وغير الأمثال والحكم ، فإذا ما بدأت النظر في كلام رسول الله ﷺ وجدت لكلامه مذاقًا مختلفًا ، ورأيت أضواء النبوة تُشْرِق من أول كلمة ، قلت هذا وأنا أعلم أن سيد الثقلين غني عن التزيد ، ولا يرضاه منا لا لَهُ ولا لغيره ، وإنما قلته لأنبهك إلى الذي أجده والذي سيحاسبني هو الله الذي يعلم من نفسي ما أعلم وما لا أعلم ، وقد رأيته عليه السلام وهو يسأل عن الزهد ما هو لا يجيب في أول كلامه عن الزهد ما هو ، ولو أنه قال الزهد أن تكون بما في يد الله أغنى منك عن الذي في يدك لكان كلامًا ككلام الناس ، ثم إنه لم يبدأ بقوله ما هو بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال ، وإنما بدأ بقوله «أما إنه ما هو بتحريم الحلال» وذكر كلمة «أما» ثم التأكيد بإن ثم ما النافية الداخلة على ضمير الزهد ثم الياء الداخلة على الخير ، كل ذلك لتأكيد نفي المعنى الذي قد يغلب على الناس من لفظ الزهد في الدنيا يعني الانصراف عنها ، وبدأ بنفي تحريم الحلال . وقد أحلَّ الله لنا الطيبات من الرزق ، فليس من الزهد أن تحرم على نفسك الطيبات وإنما تأكل الطيبات ، وأطيب الطيبات ، وأن تلبس أحسن ما يُلْبس ، وأن تسكن أحسن ما يُسكن ، وأن تعيش بمالك الحلال أفضل العيش وأنت زاهدٌ ، وقال لنا ربنا : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ (الأعراف:٣٢) فلك من زينة الدنيا كل شيء وأنت زاهد ، ولاحظ أن سيدنا يحدثنا الحديث الذي يهيئ عقولنا لقبول معنى الزهد ، ثم قال : «ولا بإضاعة المال» وهذا يعني أن يكون في يدك مال فتدمره

لاعتقادك بأن الزهد هو الفقر ، ويعني أيضًا أن تقعد عن كسب المال ، وسيدنا رسول الله ينفي ذلك ويقول لك اسع كل سعيك ، وابذل كل طاقتك في أن تأكل أطيب الطيبات ، وأن تسكن أفضل مسكن ، وأن تكون لك أكبر ثروة ، وأن تترقى بجهدك إلى أعلى الماصب ، وكل ذلك لا ينافي الزهد ، لأن الزهد أن يكون الذي في يد الله أغنى لك وأقرب إليك من الذي في يدك ، وما دام هذا المعنى في قلبك فأنت من الزاهدين وتسعى بكل جهدك لتحصيل ما تريد تحصيله ، وأنت غير ناظر إلى ما تريد تحصيله وإنما أنت ناظر للذي في يد الله ، راض بعطائه لك ، أصَبْتَ ما تريد أو لم تصب ، أبو بكر كان من الزاهدين وكان من رجال الثروات ، ومثله عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، ولم يحرموا على أنفسهم شيئًا أحله الله ، وأبو بكر كان زاهدًا وهو على رأس الدولة ، وعمر كان زاهدًا وهو على رأس الدولة ، وكان عملهم في ليلهم ونهارهم لصالح الأمة ، وقَبْلَ أن يكونوا خلفاء كان عملهم في ليلهم ونهارهم لنصرة الله ، ورسوله ، ولا أعرف وجهًا لنصرة الله ورسوله إلا العمل لصالح الأمة ، التي لو هلكت فلن يعبد الله في الأرض ، لأنه ليس هناك من يعبد الله على الوجه الذي أمر إلا هذه الأمة ، وهذا من معنى أنها خير أمة أخرجت للناس ، والعمل الواجب الآن على الزاهد وغير الزاهد هو إخراجها من التخلف ، لأنه من العار أن نَرْضى بتخلفها ، وهي أمة سيد الأولين والآخرين .

الرجوع بالموعظة إلى نبعها الأول

ويرجع ابن عبد ربه بالموعظة إلى نبعها الأول وهو ليس الإنسان وإنما خالق الإنسان ، والذي خلقه هو الذي يعلم ما به صلاحه ، ولهذا كان أصل الموعظة عنده هو كلام الأنبياء عليهم السلام ، وهو إرث النبوات ، والأمم التي كذبت الأنبياء منذ

زمن نوح عليه السلام هلكت وبقي منها من آمن ، وهؤلاء الذين آمنوا هم الذين كانوا يَرِثُون كلام أنبيائهم وما نقل إليهم من كلام الأنبياء السابقين ، وابن عبد ربه حين يجعل أصل الموعظة كلام الأنبياء كأنه يقول لنا دققوا في مواعظكم ، لأن الموعظة التي تفتح القلب المغلق هي الموعظة التي من كلام النبوة لأنها من وحي الله الذي يعلم كيف تُفْتَح مغاليق القلوب ، وقالوا الموعظة نعمة حسنة ، وأحسن ما تكون إذا كانت من قلب صادق ، وخاشع لله ، وتكون أحسن وأحسن إذا كانت موجهة إلى قلب مشتاق إليها ، ومتطلع لها لينتفع بها ، وهذا يعني أن الموعظة ليس حسنها راجعًا لذاتها فقط ، وإنما هناك عوامل من خارجها تزيدها حسنًا ، مثل خشوع قلب الواعظ ، وتشوق الذي تتجه إليه هذه الموعظة ، وضرب ابن عبد ربه وغيره لذلك مثلاً وهو أن التاج الذي على رأس مولانا شيءٌ نفيس جدًّا فإذا وضع على رأس هو أهل للملك كان أنفس وأكرم ، ومثله الدر شيء نفيس فإذا وضع على نحر حسناء كان أنفس وأبهى ، وإذا وضع التاج على رأس مسيلمة ، فبئس التاج ، وإذا وضع الدر على عنق حمقاء فبئس الدُّر ، وهكذا تتغيّر أقدار الأشياء بتغير أقدار الأحوال ، ثم يذكر أن أحرص الناس على تَخَيُّر أفضل المواعظ هم الآباء الذين يوجهون مواعظهم لأبنائهم ، وأنهم يجتهدون في البحث عن مواعظ الأنبياء ليقينهم أنها من الخالق ، وأن الخالق أعلم بأحوال خلقه ، وأنها أَبَـرُّ بهم من كل فلسفة وكل حكمة ، لأن الذي من الله لا يعدله شيء من غيره سبحانه ، وكما أنه سبحانه ليس كمثله شيء كذلك كلامه ليس كمثله كلام ، وكذلك موعظته ليس كمثلها موعظة ، وقل مثل ذلك في أمره ونهيه ، وادع الله ألا يكون بيننا من يدعوننا إلى أن نبعد الدين عن دنيانا ، وهؤلاء العباد الذين كانت لهم مواقف بين أيدي الملوك والخلفاء هم



من صناعة الموعظة ، وأن مواعظ الأنبياء صَنَعَتْ لنا رجالاً هم من قادة الأمة ، وكان بعضهم كأنه « عليك أمير المؤمنين أمير » لأنهم كان يطلب الخلفاء منهم أن يقتربوا من الخلفاء فيقولون لهم تغيّروا حتى نستطيع الاقتراب منكم لأن الله نهانا عن أن نركن إلى الذين ظلموا .

وقد بدأ ابن عبد ربه ذكر المواعظ بقول سيدنا صلوات الله وسلامه عليه : « يكفي أحدكم من الدنيا قَدْرَ زَادِ المُسافر » وهذه الجملة الواحدة معناها مُتّسِعٌ جدًّا ، لأن هذا المسافر له أحوال إما أن يكون همُّه وكده وجده أن يلقى الله وهو عليه راض ، وهذا له زاد ، وإما أن يكون غافلاً عن ذلك وهو مؤمن به وهذا له زاد ، وبين هذين عدد لا يُحْصَى وكل له زاد ، وهذا إذا قلنا إنه خطاب لأمته ﷺ ، ثم هو صالح لأن يدخل فيه من ليسوا من أمته، ويكون قوله ﷺ يكفي أحدكم أيها الأحياء على هذا الكوكب وهؤلاء غير المؤمنين لهم زاد ، ثم إن زاد المسافر القاصد إلى مرضاة الله ، من زاده تربية أولاده حتى يصل بهم إلى أقصى قدراتهم في كل ما يصيبون به خير الدنيا والآخرة ، ومن زاده ضَرْبُه في الأرض ابتغاء رضوان الله ، وكشف كُرْبة المكروب ، والسعي في الخير ، وكلمة الحق ، ودفع الظلم عن المظلومين إن أمكنه ذلك ، والسعي على الأرملة والمسكين ، وإحسان كل ما يُزَاوِلُه من عمل إن كان مُعلِّمًا أو طبيبًا أو باحثًا في مختبر ، وكل ما يزاوله من خير للأمة ، وكل ما ينفع به ذوي القربى والمسكين ذي المقربة والمسكين ذي المتربة وكل ما لا حصر له مما يبغي به وجه الله ، وأن كل الذي في يده لحظة الموت يذهب كله عنه وينتهي زاده إلى ما كان له عند الله ، وأنا فقط أفتح أبواب المعنى في هذه الجملة الجليلة التي تلخص معركتنا وحياتنا على هذه الأرض ، وقيمة المسلم العالية هي أن يعمل لإخراج

البلاد والعباد من التخلف إلى التقدم ، ومن الفقر إلى الثروة ، ومن الضعف إلى القوة والمنعة ، وما يلزم كل ذلك من تقدم في العلم والصناعة ، وليس شيء من ذلك مستحيلاً ، وإنما هو في حاجة إلى الهمِّ والعَزْمِ ، ولَسْتُ من الذين يرون أن هذا مسؤولية السلطة لأن تقدم البلاد مسؤولية كل أبنائها ، ثم ذكر ابن عبد ربه مواعظ المسيح للحواريين ، وموعظة يحيى لبني إسرائيل وكان قد ضاق بهم وقال لهم : « يا نَسْلَ الأفاعِي من دلكم على الدخول في مساقط الله الموبقة لكم ، وَيْلكم . تقربوا إلى الله بالعمل الصالح ، ولا يغرنكم قرابتكم من إبراهيم عليه السلام ، فإن الله قادر على أن يستخرج من هذه الجنادل نسلاً لإبراهيم » وهذا يعني أن كل إنسان بما كسب رهين ولن يغني أحد عن أحد شيئًا ، وهذا من وحي الله لنبيه يحيى ، كما هو وحي الله لنبينا عليه السلام لما قال لعمته صفية ولابنته فاطمة إنه لن يغني عنهم من الله شيئًا ، وقوله عليه السلام إن الله قادر على أن يخرج من هذه الجنادل نسلاً لإبراهيم فيه إشارة إلى أنه سيكون من نسل إبراهيم من لا صلة له بالروح الإنسانية ، وهذا ما عليه اليهود الذين يقاربهم منا من ليسوا منا ، وكلام يحيى لهم وَحْيٌ وهو قريب جدًّا من قول الله ـ تعالى ـ في قصة البقرة التي ذبحوها وضربوا القتيل بشيء منها فأحياه الله وأخبرهم عن قاتله بعد ما اختلفوا، ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ﴾ (البقرة:٧٤) والقلوب التي أشد قسوة من الحجارة هي نسل الجنادل في كلام يحيى .

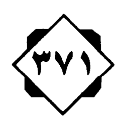
ومن مواعظ الإنجيل التي ذكرها ابن عبد ربه قوله : « وفي الإنجيل شَوَّقْنَاكم فلم تشتاقوا ، ونُحنا لكم فلم تَبكُوا ، يا صاحب الخمسين ما قدمت وما أخرت؟



ويا صاحب الستين قد دنا حصادك ، ويا صاحب السبعين هَلُـمّ إلى الحسـاب» وأفهم من قولـه «شـوقناكم فلـم تشـتاقوا» يعـني ذكرنـا لكـم المغفـرة والجنـة والرضوان فلم تشتاقوا ، ونُحْنا لكم يعني ذكرنا لكم العقاب والنار فلـم تبكـوا ، ثم انتقل إلى خطابهم في آخر العمـر وابتـدأ بالخمسين وأن علـى صاحبها أن يراجع الذي قدمه لنفسه ، وأن على صاحب الستين أن يعلـم أنـه دنـا حصـاده ، وأن صاحب السبعين كأنه الآن يُسأل .

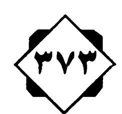
ومن المواعظ الجليلة التي يجب أن نذكرها دائمًا قول ابن عبـد ربـه : «وفي الحديث خَيْرٌ من العُجْب بالطاعـة ألا تـأتي بالطاعـة» وهـذا تحـذير بـالغ مـن العجب بعمل صالح ، ولو بينك وبين نفسك ، لأن أقل العجب بالطاعة لا يبطـل ثوابها فحسب ويجعلها كالعدم ، وإنما يجعـل العـدم خـيرًا منهـا ، لأن العجـب بالطاعة يفضي بك إلى الإثم ، لأن في هذا طرحًا شديدًا منك لـنعم الله ، وأنـك تَعْتَدَّ بعمل صالح له وتنسى أن كل ما أنت فيه من نعمـه ، حتـى الطاعـة نفسـها نِعمة لا تفي الطاعة بشكرها ، لأن أي طاعة تعني أنك في وقتها مع الله ، وليس في الدنيا وما عليها ما يفـي بلحظـة كنـت فيهـا مـع الله ، فلنحـذر جميعًـا هـذا العجب الذي قد يتسلل إلى نفوسنا فيفسد علينا أمرنا كلـه ، والـذي أراه هـو أن نذكر ذنوبنا بدل أن نذكر طاعتنا ، وقد رأيـت الصالحين وذنـوبهم دائمًـا ماثلـة ومتمثلة بين أعينهم ، ذكروا أن عمر بن عبد العزيز في آخر خطبة خطبهـا قـال بعد ما ذكر الناس بالحساب والجنـة والنـار : «وايْـمُ الله إنـي لأقـول لكـم هـذه المقالة وما أعلم عند أحـدكم مـن الـذنوب أكثـر ممـا عنـدي فأستغفر الله لـي ولكم» وذنوب المؤمن تعظم في نفسه بمقدار إحساسه بعظمة الله وجلاله ، حتى الصغيرة تصير مع عظمة وجلال الذي عَصَيْتَهُ بهـا كـبيرة ، وعلـى هـذا اسـتعظم الصالحون معصيتهم لله ، وفي مقابل ذلك يستصغر أهل الفجور والغفلة ذنوبهم ،

وإن كانت كبيرة ، كالظلم ، والقتل ، والقهر ، وتدمير بيوت الناس على رؤوسهم ، وغير ذلك مما لو كانوا خلقوا من جنادل كما قال يحيى عليه السلام لكانوا أفضل من ذلك ، وعلى هذا الأساس أقسم عمر بن عبد العزيز أنه ليس فيهم أكثر ذنوبًا منه ، وهو لا يعرف ذنوبهم ، وإنما يعرف مقدار إحساسه بجلال الذي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وأن مَعْصيته لهذا الذي هذا بعض شأنه لا يَقر له معها قرار ، ومن هذا المعنى ما ذكروه من أن عابدًا لقي عابدًا فقال أحدهما لصاحبه : والله إني أحبك في الله ، فقال له : لو اطلعت على سريرتي لأبغضتني في الله ، ولا شك أن قوة الإحساس بالذنب من كرم الله الذي يغفر الذنب بالاعتراف به ، ولهذا قالوا الاعتراف يهدم الاقتراف ، وهذا عام في كل الموحدين من عظمت عنده الصغيرة ومن هانت عنده الكبيرة ، وذكر وهب بن مُنَبّه أن داود عليه السلام قال : « يا رب ابن آدم ليس منه شعرة إلا وتحتها لك نعمة ، وفوقها لك نعمة ، فمن أين يكافئك بما أعطيته ؟ فأوحى الله إليه يا داود إني أعطي الكثير وأرْضي من عبادي بالقليل ، وأرضى من شكر نعمتي بأن يعلم العبد أن ما به من نعمة فمن عندي لا من عند نفسه » وهذا من الكلام الذي يجب أن نزرعه في نفوس أجيالنا ، وأنه سبحانه يكفي عنده شكر نعمه أن تعلم أنها منه ليظل إحساسك بعطائه لك قائمًا ، ويظل وجوده في قلبك قائمًا ، ويظل ذكره عندك حاضرًا ، وحضور الله في قلبي بعطائه ، وإحسانه ، ونعمه أبرّ بي من حضوره في قلبي بجبروته ، وعذابه ، وبطشه ، وإن كان لا غنى لي عن هذه الثانية لتُعِينَنِي عن كف الشهوات ، ثم إن الله سبحانه وتعالى كأنه يوصينا بأن لا يشق بعضنا على بعض إذا أحسن بعضنا إلى بعض ، وأن لا نبالغ في طلب المكافأة والمجازاة ، وإنما نكتفي بالقليل مكافأة على الجليل ، وهذا لا يكون إلا بين كرام الناس ، وربنا يأخذ بأيدي أمة أكرم الخلق لتكون من أكرم الناس ، ومن



الخير أن نوسِّع الكلام أكثر في سعة فضل الله حتى لا تكون ذنوبنا مُبْعدةً لنا عن بابه ، ورجاء عفوه ، ورأيت هذا في كلام بعض الصالحين من علماء السَّلف ـ رضوان الله عليهم ـ . من مثل قول الفضيل بن عياض : « وَعَدَ الله من خَافَه أن يدخله الجنة » وتلا قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن:٤٦) ولا شك أن المراد بالخوف فعل الطاعات ، وترك المنكرات ، وقالوا قال رجل لبعض الحكماء عظني قال : « لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك » وقالوا : « ما أحسن الموعظة ، وهي من الفاضل التقي أحسن » واعلم أن الخوف من مقام ربك يفضي لا محالة إلى الخوف على نفسك ، وأن عمل الصالحات التي لا يَفْقِدك الله فيها واجتناب السيئات التي لا يراك الله فيها ، كل ذلك وإن كان من إحساسك بجلال الله ، وعظمته ، وحُبُّك للذي يرضاه ، وبُغْضُك للذي يُبْغضه كل ذلك فيه قدر من خوفك على نفسك ، ولهذا كان يُلخص بعضُ الصالحين القول ويقول كما قال ابن السماك : « إني لخائف على نفسي من قلة خوفي عليها » ويقول لنا ربنا في شأن أصحاب النار إنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، فالقضية في النهاية هي أنت ونفسك ، وكأن أمر الله ونهيه إنما كان لإنصاف نفسك منك ، فالمجرم الفاجر الذي يقهر الناس ، ويحرم الأطفال من آبائهم ، ظالم لنفسه ، ظلمًا هو أبْشَعُ من ظلمه لمن قتله ، أو أهانه ، وتسلط عليه ، ولما ظفر الحجاج بسعيد بن جبير وأراد قتله قال له اختر لنفسك قِتْلة أقتلك بها ، فقال له سعيد اختر أنت لأن القَوَدَ قادِمٌ لا محالة ، يعني القصاص ، ومما كان يلهج به عباد الله : « يا من تُرْجَى لكل عظيم اغفر الذنب العظيم » وكان عطاء بن رَبَاح يقول : « اللهم ارحم في الدنيا غُرْبَتِي ، وعند الموت صَرْعَتِي ، وفي القبر وحْدتِي ، ومقامي غدا بين يديك » وقد بدأ ابن رباح بقوله « اللهم ارحم في الدنيا غربتي » لأن الرحمة إذا لحقتك في الدنيا هانت

عليك صَرْعَةُ الموت ، ووحدة القبر ، والمقام بين يدي الله ، وابن رباح ينفي تعلقه بالدنيا بذكر كلمة غربتي ، مستحضرًا قول رسول الله ﷺ : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » ومعناه أن يكون كل تصرفي في هذه الدنيا قاصدًا إلى ابتغاء وجهك ، والقصد إلى ابتغاء وجه الله في عملك يعني إحسان هذا العمل ، وتجويده ، وإتقانه ، فإن كنت صانعًا أتْقَنْتَ صنعتك ، وإن كنت معلمًا أتقنت تعليمك ، وإن كنت طبيبًا أتقنت طبَّك ، وهذا هو طريق التقدم في أمة خير الثقلين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، ولا يَقْبَلُ بقاءها متخلفة من يزعم أن يحب سيدها ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، ثم إن صرعة الموت لا مفر لك منها ، ووحدة القبر لا مفر لك منها ، والوقوف بين يدي الله لا مفر لك منه ، فكيف تغفل عن الذي لا مفر لك منه ؟ وسيدنا علي بن أبي طالب الذي وعى علم الكتاب والسنة قال : « عجبًا لمن يَهْلك ومعه النجاة . قيل له وما هي ؟ قال التّوبة والاستغفار » وتعجب من سعة فضل الله وأنه لا يغفر الذنب بالتوبة ، وأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، أقول ليس هذا فحسب وإنما يضيف كرم ربنا أنه يُبدِّل سيئات أعمالهم حسنات ، وليس هذا فحسب وإنما يُثيبُ على التوبة لأنها عمل صالح ، وليس هذا فحسب وإنما يضيف ما هو أفضل من كل ذلك ، وأنه سبحانه يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، وراجع كلمة المتطهرين وهم الذين دنّستهم الذنوب ، وتطهروا منها بالتوبة ، فصاروا من أهل محبة الله ، ليس الذين يحبون الله فحسب وإنما الذين يحبهم الله ، لأن التوبة والتطهير لا يكونان إلا بقوة اليقين ، وقوة الخوف ، وقوة الرجاء ، وقوة حسن الظن بالله ، وسمع النبي ﷺ رجلاً يقول : « اللهم إني أسألك بأنك أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد » فقال النبي ﷺ : « لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سئل به أعطى » وراجع هذا لأن رسول الله ﷺ أطلق



المعنى بقوله إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى من غير أن يذكر الذنب ، وأنه كبيرة أو أكبر من الكبيرة ، وكأنه يقول مهما كان ذنبك فادع الله باسمه الأعظم تظفر بالإجابة ، ولا يهلك على الله إلا هالك ، واعلم أن أهل الله قالوا إن خيرًا من الخير فاعل الخير ، وأفضل من الصالحات فاعل الصالحات ، وأكرم من البِرّ صانع البر ، وأن شرًّا من الشر فاعل الشر ، وأبشع من الظلم صانع الظلم ، والأقبح من الفساد صانع الفساد ، والأخسّ من الكذب ، صانع الكذب ، والأحقر من النفاق فاعل النفاق ، وأن الخير والشر في هذا الوجود يَنْتَهِيَان إلى الإنسان فاعل الخير ، وفاعل الشر ، وإذا كنت قاتلاً وتَقَتَّل من يقول إنك قاتل تكون في حاجة إلى درك جديد من الجحيم ، لأنك أضَفْتَ إلى الشر بابًا لم يكن معروفًا للناس ، وأنت في هذه الحالة لست أسوأ من القتل ، ولكنك أسوأ من الأسوأ ، وهكذا يمتد بك حبلُ السوء بمقدار امتدادك في الفجور ، وإبداعك في الطغيان ، والشيء الباقي في هذا الباب هو مقام العلماء بين أيدي الخلفاء ، والعلماء وَرَثَةُ الأنبياء يعني يأتون بعد الأنبياء كما يأتي الوارث بعد الذي ورّثه ، وكيف كانوا يحترمون الخلفاء ، ويسوقون لهم الموعظة التي تنجيهم من عذاب الله ، والذي يسوق الموعظة التي تُنجِّي من عذاب الله يسوقها بحبٍّ وتقدير ويتقبلها من تُساق إليه بحب وتقدير ، وهذا هو الأصل في الدين والعقل والمروءة ، ويجب أن نذكر أن العلماء يعلمون أن الله سبحانه وتعالى حرَّم الخروج على الحاكم إلا في حالة واحدة فقط وهي أن يكون منه كفر بواح ليس له عند الله سلطان ، أي حجة تخرجه من كونه كفرًا بواحًا ، وذلك لدفع الفتنة التي تستباح فيها الدماء وتفرق الأمة فتتهالك ، وكل ذلك لا يكون إلا لحساب عدوها ، وليس فيه خير للأمة أي خير ، والأمة يجب أن تبقى جسدًا واحدًا إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء ، وإذا ظهر الفساد وظهر البغي وتوقفت الأمة عن

مسيرة التقدم التي بها تحمي أرضها حماية حقيقية وتُسعدُ شعبها سعادة حقيقية، فإن الله الذي حرّم علينا الخروج على الحكام أوجب علينا النصيحة لهم ، بشرط أن يكون نصحنا وكلامنا مؤسسًا على معرفة صحيحة بالذي نتكلم فيه ، وأن يكون كلامنا ونصحنا خالصًا خلوصًا كاملاً لمصلحة البلاد والعباد ، وليس فيه أي شائبة أو أي إشارة لأي غرض آخر ، لا مُعَارَضة ولا رغبة في التشهير بأحد، وأن يكون كل ذلك مُبْعدًا إبعادًا كاملاً ، ونحن في كل ذلك سواء يستوي صغيرنا مع كبيرنا لأنه لا يجمعنا ولا يسوِّي بيننا شيء كمصلحة البلاد والعباد ، الكل مع الكل ، والكل يعين الكل ، ولا يجوز أن يتسرّب إلى أحدنا أي خاطر أنك تشهِّرُ به ، أو أنك تتعالم عليه ، أو أنك تطمع في الذي في يده ، لأن كل ذلك فكر متخلف، ولا ينتج لبلادنا إلا التخلف، ونحن نعيش في عالم لا مكان فيه للضعيف ، والأرض التي ليس عليها قوة ومنعة تحميها أرض ضائعة ، والثروة التي ليس لها قوة ومَنعة تحميها ثروة ضائعة، وقد علمنا ربنا أنه لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصًا مخلصًا له ليس فيه أي شائبة تعكر هذا الإخلاص ، أقول علمنا ربنا هذا لأنه يعلم أن الأوطان لا تقبل إلا العمل الخالص المخلص لها ، وأن هذا الإخلاص الصادق لها هو العقد الاجتماعي الجامع لكل أبنائها ، ولهم أن يختلفوا في أي شيء ، وليس لهم أن يختلفوا أي اختلاف في رعاية مصالحها وتقدمها في كل شأن من شؤونها .

مواقف العلماء من الحكام

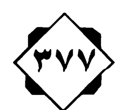
وهذه بعض مواقف علمائنا الذين هم أولياء الله مع بعض حكامنا ، وأبدأ بذكر حديث العالم الصالح : صالح بن عبد الجليل للمهدي ... والمهدي ابن أبي جعفر المنصور ووالد هارون الرشيد ، وقد كان حكمه في مفصل من أهم

مفاصل الدولة العباسية ، والمهم في الحديث أنه بيان أن الله سبحانه وتعالى أوجب البلاغ على العلماء ، وأن هذا البلاغ فَرْضٌ عليهم ، منوط بأعناقهم ، وأنه سبحانه أوجب على الخلفاء الذين هم الحكام أن يستمعوا إليهم ، والعالم لا يبغي في نصحه إلا وجه الله الذي هو مصلحة البلاد والعباد ، والوالي لا يبغي في استماعه إلا وجه الله الذي هو مصلحة البلاد والعباد ، وسأترك صالح ابن عبد الجليل يحدثنا بلسانه .

قالوا : قام صالح بن عبد الجليل بن يدي المهدي ، فقال له : « إِنَّهُ لَمَّا سَهُلَ علينا ما توعَّر على غيرنا من الوصول إليك ، قمنا مقامَ الأداء عنهم وعن رسول الله ﷺ بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي عند انقطاع عذر الكتمان ، ولاسيما حين اتسَمْتَ بِسِمَةِ التواضع ، ووعدتَ الله وحملة كتابه إيثارَ الحق على ما سواه ، فجمعنا وإياك مشهد من مشاهد التَّمْحيص ، وقد جاء في الأثر من حجب الله عنه العلم عذّبه على الجهل ، وأشدُّ منه عذابًا مَنْ أقبل عليه العلم فأدْبَرَ عنه ، فأقبل يا أمير المؤمنين ما أُهدى إليك من أَلْسِنَتِنَا قبول تحقيق وعمل لا قبول سمعة ورياء ، فإنما هو تنبيه من غفلة ، وتذكير من سَهْو ، وقد وطّنَ الله عز وجل نبيه عليه السلام على نزولها فقال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (فصلت:٣٦) . انتهى ما أردته من كلام صالح بن عبد الجليل .

يقول الفاضل : إن ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي لم يَحُلْ بيننا وبين آدائها إليكم يا معشر الحكام إلا تَوعُّر الوصول إليكم ، فافتحوا الأبواب ، وسهّلوا وصول أهل الحق إليكم ، لينفعكم الله بالذي عندهم ، ثم إنه لما تسهَّل به الوصول الذي لم يتسهل لغيره ، رأى أن في عُنُقِه أن يقول ما يجب عليه ، وأن

ينوب عن العلماء الذين لم يتسهل لهم ما تسهّل له ، وراجع حرص العالم على آداء ما يجب عليه من النصح للوالي ، وتذكر أن الذي حرَّم الخروج على الوالي قابل ذلك بإيجاب نصحه ، وأوجب عليه سماع النصح ، ولا يجوز أن تتذكّر فقط أن الله حرم الخروج عليه ، وإنما لابد أن يكون مع هذا الحكم وأن يقترن به واجب النصيحة على المسلمين جميعًا وعلى العلماء خصوصًا ، ولم يوجب الله له النصح فقط ، وإنما أوجب عليه قبوله وبهذا تتكامل الأحكام ، وراجع مرة ومرة قوله « قمنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله ﷺ» وأنك في النصح والبلاغ لا تؤدى ما وجب عليك ، ولا ما وجب على العلماء الذين صِرْت نائبًا عنهم لما تسهل لك الدخول ، وإنما أيضًا تبلغ عن رسول الله ﷺ ، وهذا ظاهر في أنك حين تبلغ بلاغ رسول الله ﷺ تكون كأنك نائب عنه في البلاغ ، وفكِّر في هذا يا صاحبي وانظر إلى الكرم والإكرام الذي أنت فيه ، حين تقول قال رسول الله ﷺ كذا وأنك نائب عنه في بلاغه ، فهل تروم كرامة أفضل من كرامة أن تكون نائبًا عن سيد الثقلين ، وهذه لا يعدلها في العطاء إلا أنك حين تضع الصدقة في يد الفقير تكون بمثابة من يضعها في يد الله ، وليس هذا فحسب يا سيدنا وإنما أنت تضعها في يد الله وتقرض الله بها قرضًا حسنًا ، المطلوب التفكير والتدبر والمراجعة ، لأن ذلك يؤدي إلى تغيير أشياء كثيرة وخلق مذاقات جديدة لأشياء تعودنا عليها ، وأغفلنا أسرارها ، ثم إن العالم الذكي المهذب الذي يعرف كيف يبلغ بلاغ سيد الثقلين لما ذكر بلاغه للمهدي أتبعه بقوله : « حين اتسمت بسمة التواضع » وسبقه بقوله : « عند انقطاع عذر الكتمان» يعني ليس لي الآن عذر بين يدي الله، فأعتمد عليه في السكوت لأن عذر الكتمان انقطع بوصولي إليك ، وإنما أتكلم وأعوِّل على ما رزقك الله من التواضع ، وأنك وعدت الله وحملة كتابه على إيثار الحق ، وراجع عطف جَمَلة



الكتاب على لفظ الجلالة وأن من وعد الله على إيثار الحق هو بمثابة من وعد حملة كتابه الذين في أعناقهم فريضة بيان الحق ، وقوله : « فجمعنا وإياك مشهد من مشاهد التمحيص » يعني ليس فينا معلم يعلم وإنما أنا وأنت نراجع وندقق ونمحص حتى يتبين لنا الحق الذي واعدت الله على إيثاره ، ثم إن الشيخ الصالح مع هذا اللين وهذا الأدب أراد أن يلزم المهدي بسماع ما يقول ، والعمل بما يقول ، وكأنه يقول لنا الوصول إلى المقصود يكون بالرفق واللطف أفضل ، لأن الغاية أن يسمع المهدي وأن يعمل بما يسمع ، فلا بأس من ملاينته ثم إفهامه ، هذا الإلزام ليس من جهة المتكلم وإنما من جهة رسول الله ﷺ الذي لا يُرَدّ له كلام ، فقال الذي في الأثر وهو أن الجهل لا يعذر به صاحبه ، وإنما الجاهل حجب الله عنه العلم ، وفي هذا من التهديد بغضب الله ما فيه ، ومن حجب الله عنه العلم عذَّبه لأنه لم يَجِدَّ في طلبه ، وهذه خطوة فيها قدر من الخشونة الهادئة ، ثم أتبعها بالذي هو أشد وقال : « وأشد منه عذابًا من أقبل عليه العلم فأدبر عنه » وها هو العلم يقبل عليك وأعوذك بالله أن تدبر عنه ، فاقبل يا أمير المؤمنين ليس على ما نقوله لك وإنما ما نُهْديه إليك، ثم إنك لا تجهل ما نقوله وإنما نقوله لا لنعلمك به ، وإنما لنذكرك به ، والغفلة ليست عيبًا يعاب به الناس ، لأن الله ـ سبحانه ـ نبه رسوله على أنه قد تَعْتريه الغفلة ، وقال له ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ (فصلت:٣٦). وكان من أهم أسباب نجاح العلماء في نصح الأمراء أن العلماء لم يتكلموا إلا في الشأن العام ، الذي هو أحوال البلاد والعباد ، وليس فيهم من يتكلم في شأن يخصه ، بل إنهم كانوا يرفضون عطايا الأمراء ويحرصون على ألا يبعثوا في طلبهم ، ومن يتكلم في الشأن العام وهو صادق لا يستطيع أحد أن يعيبه ، ولا أن يسكته ، لأن الشأن العام هو شأن كل من يعيش على هذه الأرض من أبنائها الذين يعيشون عليها

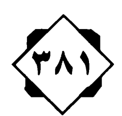
ومن أجيالهم وأحفادهم ، والعجيب أنهم كانوا يعلمون أن الشأن العام يخصهم أكثر من شأنهم الخاص ، لأنك لو تركت أولادك وهم أغنياء في بلاد فيها فساد وظلم واستعلاء لا ينفعهم المال ولن يعيشوا به آمنين ، وخير من ذلك أن تتركهم فقراء في بلد آمن فيه نظام وفيه احترام للإنسان وفيه قضاء عادل وفيه أمن ، ولهذا كان شغلك بالشأن العام أبرّ بك وبأولادك من شغلك بالشأن الخاص ، ثم إنه لا تعارض بينهما ، ومن أهم مقاصد هذا الكتاب هو دعوة أبناء البلاد إلى الاشتغال بشأن البلاد ، وذكرت أن العلماء وأهل الموعظة وأهل الزهد كانوا لا يتكلمون مع الأمراء إلا في الشأن العام، وكان هذا شائعًا في غير العلماء وأصحاب الموعظة، حتى إن رجلاً من عامَّة الناس كان يطوف بالبيت وأبو جعفر المنصور يطوف فسمع الرجلَ يدعو الله أن يُخَلِّص البلاد من الفساد، وأبو جعفر يعتقد أنه مسؤول عن تخليص البلاد من الفساد ، فلما فرغ من طوافه بعث من يُحضر له هذا الرجل ، قال الراوي : بينما المنصور في الطواف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول : «اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ، فخرج المنصور فجلس بناحية من المسجد وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلّم عليه بالخلافة ، فقال له المنصور ما الذي سمعتك تذكر من ظهور الفساد والبغي في الأرض ؟ وما الذي يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني ؟ فقال الرجل : إن أمَّنْتَنِي يا أمير المؤمنين أعلمك الأمور من أصولها وإلا احتجزت منك، واقتصرت على نفسي ، فلي فيها شاغل ، قال : فأنت آمن على نفسك فقل . فقال : يا أمير المؤمنين إن الذي دخله الطمع وحال بينه وبين ما ظهر في الأرض من فساد والبغي لأنت، فقال : فكيف ذلك وَيْحَك ، ثم قال : إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم ، فأغْفَلْت

أمرهم ، واهْتَمَمْتَ بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حُجَّابًا وأبوابًا من حديد ، وحُرّاسًا معهم السلاح ، ثم سَجَنْتَ نفسك عنهم ، وبعثت عمالك في جبايات الأموال وجمعها » وأطال الرجل البيان في الواقع الظالم الذي كان سببه احتجاب الخليفة وراء الحُجَّاب والحراس ، وانقطاعه عن السماع من الناس ، وإنما الذي يسمع من الناس هم الحجاب ويبلغونه ما يريدون ، ويخفون ما لا يريدون ، وأن أهم أسباب الصلاح والفلاح هو ألا يكون بين الناس ومن استرعاه الله أمرهم هذه الحُجُب الكثيفة ، وأن يرى المسؤول بعينه هو ، وأن يسمع بأذنه هو ، ثم حدث أن نودي للصلاة فقام أبو جعفر وصلى ثم عاد إلى مكانه وطلب الرجل فلم يجده ، والمهم في أمر هذا الرجل أنه وهو يطوف ونحن في الطواف غالبًا ما نشغل بالدعاء أن يغفر الله لنا ذنوبنا وأن يُؤنِسنَا في قبورنا ، وأن يصرف عنا عذاب جهنم ، وترى الرجل مشغولاً بظهور الفساد ، والبغي في الأرض ، وإلى هذا الحد كان عامة الناس مشغولين بالشأن العام ، ثم إن المنصور وهو الخليفة الثاني من خلفاء بني العباس شغله ذلك وحشا مَسَامِعَه ما أرمضه ، ولما جاء الرجل وطلب الأمان لنفسه كان شديد الصراحة ، وقال للمنصور إن الذي دخله الطمع هو أنت ، والذي أظهر الفساد في البلاد هو أنت ، والذي نشر البغي في البلاد هو أنت، لأنك أنت المسؤول عن كل ذلك ولكنك أخطأت الخطأ الفادح ، وهو بُعدك عن الناس ، ووضعت هؤلاء بينك وبين الناس ، وهو صادق فيما قال لأنه لا يجوز لمسؤول عن مصالح الناس أن يُعْزَلَ عنهم ، وإنما لابد أن يكون بينهم ، وأن يسمع منهم ، ومن الكلمات الجيدة جدًا في كلام هذا الرجل قوله للمنصور « وإلا احتجزت منك واقتصرت على نفسي فلي فيها شاغل» ، وهذا صريح في أن النظم السياسية التي تُؤَمِّنُ من يقولون كلمة الحق هي التي ترى الناس فيها يشغلون

بقضايا بلادهم ، وهذا جيد وواجب لأن الناس ما داموا شغلوا بقضايا بلادهم سيتقدمون ، لأن كل المشغول بقضايا وطنه حريص على تقدمه ، وأن النظم السياسية التي لا يأمن فيها أصحاب الحق أن يقولوه وأن يدعو إليه هي التي تدفع الناس دفعًا لأن يشغلوا بشأنهم الخاص ، وأن يقتصروا على أنفسهم ، وتبقى البلاد لا يرعاها أهلها ، ومهما كان جِدُّ وصِدْق وإخلاص النظام السياسي فإن البلاد لا تتقدم به وحده ، وإنما تتقدم بكل أبنائها ، وكان يمكن لهذا الرجل الصادق أن ينحرف بكلامه قليلاً فيرضي المنصور ، ويأخذ جائزته ، وذلك بأن يقول له إن الفساد والبغي من بقايا حكم بني أمية ، ولكن الحرص على البلاد الذي كان عند هذا الرجل التائه المجهول يأبى إلا مَحْضَ الصدق ، ووضع اليد على موطن الداء ، لأن التراب ترابنا ، وهو من أجساد آبائنا ، وحُرْمته وحمايته توجب غاية الصدق ، وغاية التجرد ، وهكذا فَعَلَ هذا الرجل ، ثم غاب بعد ما أدَّى واجبه نحو بلاده وقومه ، وهو يعلم والمنصور يعلم وكل سياسي يفهم السياسة أن وضع اليد على موطن الخلل هو في صالح النظام السياسي ، كما هو في صالح البلاد والعباد ، وأن النفاق والكذب وإن كان يراد بهما القرب من النظام فهو في الحقيقة ليس في صالح أحد .

محبة المنصور للقاء العلماء

وكان المنصور من أكثر الخلفاء الذين يُحِبُّون لقاء العلماء ويحبون السماع منهم حتى إنه كان يعرف بعضهم ، وهم لا يعرفونه ، ذكروا أنه كان يطوف وسفيان الثوري يَطُوف والمنصور يعرف سفيانًا وسفيان لا يعرفه ، فضرب المنصور بيده على عاتق سفيان ، وقال له : أتعرفني ؟ قال : لا ولكنك قَبَضْتَ عليَّ قبضة جبَّار .. قال له المنصور : عظني يا أبا عبد الله ، قال : وما عملت

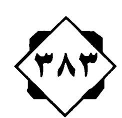


فيما علمت فأَعِظُك فيما جهلت ؟ قال : فما يمنعك من أن تأتينا ؟ قال : إن الله نهى عنكم وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (هود:١١٣) فمسح أبو جعفر يده به ثم التفت إلى أصحابه فقال : قد ألقينا الحب للعلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا » انتهى ما أردته . وأشك في أن أبا جعفر قال « قد ألقينا الحب للعلماء فلقطوا » لأن أبا جعفر كان شديد الحفاوة بالعلماء ، وقد عرض عطاياه على كثير منهم فرفضوا ، ثم إن في هذه الجملة إدانة للمنصور ، وأنه ألقى الحب للعلماء وليس في هذا أي مصلحة له ولا للعلم ولا للبلاد ، إلا أن يكون المراد التشهير بالعلماء ، وليس هذا في مصلحة أحد ، إلا أن يكون المراد القول بأن الذين ورثوا علم النبوة وأسكنوه في قلوبهم لم يكف نفوسهم عن الطمع والطأطأة لالتقاط الدراهم التي يرميها لهم الحكام ، وهذا وإن كان طعنًا في العلماء فهو طعن في الدين ، وأن إرث النبوة كله لم يُصلح أحوال الذين حفظوه ، ثم إن قول سفيان لأبي جعفر « وماذا عملت فيما علمت حتى أعلمك ما جهلت» كلام جليل جدًا ، وأن المسألة ليس أن تملأ رأسك بعلم الدين ، وإنما العلم والعمل مقترنان ، فإذا علمت شيئًا فاعمل به ثم اسأل عن غيره لِتعلمه فتعمل به ، وهكذا فلا يجوز أن تتعلم علمًا متسعًا تسكنه في قلبك من غير أن تعمل به ، ثم إن الخبر فيه ما يكذب القول بأننا ألقينا الحب للعلماء فلقطوا إلا سفيان ، وذلك أن سفيان لم يكن يعرف المنصور ، ولو كان ألقى له الحب لعرفه ، وإنما هي خسيسة النيل من العلماء .

وموقف آخر بين أبي جعفر وسفيان الثوري ، قالوا : « أرسل أبو جعفر إلى سفيان الثوري ، فلما دخل عليه قال أبو جعفر : سلني حاجتك يا أبا عبد الله ، قال سفيان : أو تقضيها يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم . قال فإن حاجتي إليك ألا

ترسل إليَّ حتى آتيك ولا تعطني شيئًا حتى أسألك ثم خرج » راجع قول سفيان أو تقضيها يا أمير المؤمنين وأنه أخذ منه وعدًا بقضاء حاجته ، ثم كانت حاجته ألا يرسل إليه ولا يعطيه ، وهكذا ترى زهد العالم بالذي في يد الحاكم ، وشوق الحاكم للذي في يد العالم ، وهذا هو الذي عليه الناس إذا كانوا متقدمين وأقوياء ولهم منعة ويسوسهم ساسة يعرفون السياسة .

وكان من علمائنا من إذا سئلوا الموعظة نبهوا السائل إلى شيء هو أنك إذا جهلت عاقبك الله على جهلك ، وإذا علمت ولم تعمل عاقبك عقوبة أشد على عدم عملك بما علمت ، فمن الخير لك ألا أعظك حتى تكون عقوبتك أخف ، لأني إذا وعظتك ولم تعمل كانت موعظتي لك حجة عليك عند الله ، وهذا شيء يجب أن يكون معلومًا في الأمة حتى يعمل كل بما علم ، وإذا علم علمًا جديدًا عليه أن يعمل به ، وهكذا العلم عند الله يجب أن يعقبه العمل ، والعالم هو العامل بعلمه ومن لم يعمل بعلمه لا يجوز أن يقال إنه عالم ، والشافعي لما قال : إذا لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي ، يعني العالم العامل بعلمه ، لأن العالم غير العامل بعلمه لا يمكن أن يكون وليّ الله ، لأن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وهذا يعني أن كلمة العالم عند الشافعي لا تطلق إلا على العالم العامل بعلمه ، وهذا موافق للذي في الكتب من أن العلم ينادي العمل ، فإن أجابه العمل بقي العلم ، وإن لم يجبه العمل رحل العلم ، وهذا صريح في أن الذي لم يعمل بعلمه رحل عنه علمه لأن العلم لا يبقى بدون عمل به ، ثم إني فكرت في كلمة علم وكلمة عمل فوجدت الكلمتين مكونتين من حروف واحدة ، وأن اللام في العلم تقابلها الميم في العمل ، لأن العلم سابق والعمل لاحق ، ووجدت أن الميم في حروف الهجاء تأتي بعد اللام مباشرة ،

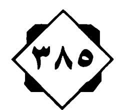


فأدهشني هذا الترتيب ، وأن اللام في العلم يعقبها الميم في العمل ، وهذا في الهجاء وفي الواقع العلم يعقبه العمل ، وقلت بَعيدٌ أن يكون أصحاب اللغة الأقدمون الذين وضعوا الأسماء للمسميات فطنوا إلى هذا الارتباط بين العلم والعمل ، ووضعوا الكلمتين من حروف واحدة وجعلوا اللام من العلم تعقبها الميم في العمل وفي الهجاء ، ثم ذكرت قول ابن جني الذي كان كلما أمعن النظر في قواعد اللغة وأصولها في النحو وفي الاشتقاق تأكد له أن أمْرًا إلهيًّا داخل هذه اللغة ، وهدى أصحابها الأوائل إلى هذه الدقة التي فيها ، وذلك لتهيئتها لنزول القرآن بها ، وكان يَفْترضُ أحيانًا أن الله ﷻ خلق لها جيلاً هم أزكى منا عقولاً وأعلى منا بصيرة وأدق نظرا فقرروا أصولها على هذا الوجه ، وإلا فكيف يكون العلم والعمل من حروف لغوية واحدة ، ثم تكون اللام في العلم الذي يجب أن يكون أولاً وتلحقه في الهجاء الميم مباشرة ، وهذا مما ساق إليه الكلام فإن لم تقتنع به فلا حرج عليك ، وأعود إلى ما كان يقوله علماؤنا إذا سُئلوا الموعظة ، ولا زلنا مع المنصور الذي كان من أكثر الخلفاء حفاوة بالعلماء وبالمناسبة الذين ألقى إليهم الحب فلقطوا ليسوا علماء ، لأن العالم هو العامل بعلمه والعامل بعلمه لا يلقط الحب الذي يلقيه إليه مولانا الكبير ، قال الأوزاعي : « دخلت على أبي جعفر فقال له ما الذي أبطأك عني ؟ قلت وما يريد مني أمير المؤمنين ؟ قال الاقتباس منك ، قلت يا أمير المؤمنين انظر ما تقول ، فإن مكحولاً حدَّثني عن عطية بن بسر أن رسول الله ﷺ قال : « من بَلَغَتْه عن الله نصيحة في دينه فهي رحمة من الله سبقت إليه فإن قبلها من الله بشكر وإلا فهي حجة من الله عليه ليزداد إثمًا ويزداد الله عليه غضبًا ، وإن بلغه شيء من الحق فرضى فله الرضا فإن سخط فله السخط ومن كرهه فقد كره

الله ﷻ لأن الله هو الحق المبين» وهذا مدخل لكلام طويل قاله الأوزاعي للمنصور ، ولا أظن أن الذي قال للأوزاعي ما الذي أبْطأك عني وأنه يريد الاقتباس من الأوزاعي هو الذي قال ألقينا للعلماء الحب فَلَقَطُوا إلا سفيان الثوري فقد أعيانا ، لأن الكلام يدخل فيه الأوزاعي وأنه من الذين لقطوا ، ويدخل فيه عمرو بن عبيد الذي قال له المنصور كن معي وأعطيك خاتمي ، فقال له : اقض في المظالم التي أمام بابك تَسْخُ نفوسنا بمساعدتك ، والمهم في الذي نحن فيه كلام الأوزاعي لأنه دين ويخاطب به رأس الدولة ، ولن أستطيع أن أستخرج من كلام العلماء كل ما فيه لأني لم أعرف أحدًا استخرج من الكلام سواء كان كلام العلماء أو كلام غيرهم كل ما فيه ، وإنما أقول الذي عندي ، والذي عندي أن سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه مكحول يقول لنا « إن النصيحة في دين الله نعمة من الله» ، وهذا وصف ثابت لها ، وتختلف النفوس اختلافًا كثيرًا ومتسعًا في تَلَقِّيها ، وذلك على وفق درجة هذه النفوس من الحرص على مرضاة الله وما يَعْتَرِي بعضها من الغفلة في هذا الباب ، بل وما تبالغ بعض النفوس في البعد عن الموعظة وعدم الانتفاع بها ، بل وما يكون إذا غَلَبَ الفجورُ والباطلُ على هذه النفوس ، فترى منها السخط عند الموعظة ، وترى منها الكراهية للحق ولله الذي هو الحق المبين ، كل ذلك والنصيحة في دين الله نعمة لم تتغير حين يرضاها الذي له الرضى ، وحين يسخطها الذي له السخط .

سيدنا رسول الله يوصي بقبول النصيحة

وراجع كلام سيدنا رسول الله وكيف انتفع به الأوزاعي : قال عليه السلام : « من بلغه عن الله نصيحة» فجعل الحديث في بلاغ النّصيحة ، وحسب النصيحة أنها



في دين الله ، والأوزاعي يشير إلى تباطئه عن الخليفة الذي يريد الاقتباس منه ، وأن هذا التباطؤ هو خير لك يا أمير المؤمنين ، لأن بلاغ النصائح في الدين تكليف لازم بالعمل به ، وإلا اشتدت مؤاخذة الله على من بلغته ، وراجع قول سيدنا عليه السلام : « فإن قبلها من الله بشكر وإلا فهي حجة من الله عليه ، ليزداد إثمًا ، إلى آخره» . والملاحظة أن سيدنا رسول الله حذف جواب إن في قوله : « فإن قبلها من الله بشكر » وأن المقابل الذي ذكره تنوع وفيه غضب من الله وفيه مزيد غضب وفيه سخط وفيه كره لدين الله إلى آخره ، وهذا يعني أن المقابل الذي حذفه وهو جواب فإن شكر لا يحاط به ، وأنك إذا بلغتك النصيحة في دين الله وأدركت أنها نعمة ، وأنها في حاجة إلى الشكر ، وأن هذا زائد على وجوب العمل به أعطاك الله عطاء لا يحد ولا يُعدُّ ، ثم تلاحظ أن هذا الصنف الذي يَتَلَقَى النصيحة بغبطة وحب كأنه كان يبحث عنها كما يبحث الباحث عن ضالته قليل جدًّا ، ودَلَّ سيدنا على ذلك باستعمال أداة الشرط (إن) في قوله : « فإن قبلها من الله بشكر » وراجع كلمة « من الله » وكأن الذي بلّغها له هو الله وهو سبحانه الذي وضَعَها بين يديه ، وكل ذلك يهيئ لوفرة العطاء إن شكرها ، ويهيئ لوفرة الغضب إن لم يقبلها بالذي يليق بها من حيث هي بلاغ من الله له ، ونعمة من الله له ، وتحية وإكرام من الله له ، وراجع قوله عليه السلام : « وإلا فهي حجة من الله عليه» وكيف تتَحوَّلُ النعمة التي وضعها الله بين يديه إلى حجة عليه ، ومن أشهر دعائنا أننا نقول اللهم اجعل القرآن حجة لنا ، ولا تجعله حجة علينا ، والفرق شاسع بين حجة لنا وحجة علينا ، ولاحظ أن الذي صارت النصيحة حجة عليه هو من الآثمين قبل النصيحة لأن سيدنا قال « ليزداد إثمًا » ، ومثله « ويزداد الله عليه غضبًا » يعني كان قبل النصيحة من المغضوب عليهم وأصبح بعدها من الذين زاد الغضب عليهم ، وكل ذلك للإشارة إلى أن الذي

لا يَتَقبَّل النصيحة بالشكر هو من الآثمين قبلها ، ولم ينتفع ببلاغ قبلها فيزداد ببلاغها إثمًا ، ويزداد غضب الله عليه ، وقوله عليه السلام : « وإن بلغه شيء من الحق فرضي فله الرضا » استئناف معنى جديد وليس شرحًا للذي كان البلاغ حجة عليه ، وهو أقرب إلى بيان شيء من عطاء الله للذي شكر ، وراجع كلمة « شيء » وتنكيرها في هذا السياق وأنه شيء أي شيء وإن قل ، فرضى بهذا الشيء القليل من الله فله الرضا ، والرضا معرف بالألف واللام ، ويعني هذا الرضا المتعارف المعلوم الذي ليس فوقه رضا ، وتقديم الخبر الجار والمجرور « فله » يعني التأكيد ، وأن رضاه بالقليل من الحق يقابله أن يكون الرضا المُتعَالم المشهور الذي هو رضا الله الذي ليس فوقه رضا يكون له ، وكأنه امتلكه وصار في حوزته ، وهذا عطاء ليس فوقه عطاء ، وأن الله ـ سبحانه ـ يكافئ القليل منكم بالكثير منه ، ومن يعرف ذلك ثم يتردد في قبول ما يأتيه من الحق فقد خسر خسرانًا مبينًا ، لأن البيع من الله بيع رابح ، ثم إن مجيء هذه الجملة التي تفيض بالعطاء عقب ذكر الذي يزداد إثما ويزداد غضب الله عليه فيها إشارة إلى أن هذا الذي يزداد إثما ويزداد غضب الله عليه لو رجع وقبل شيئًا قليلاً من الحق ورضيه فله الرضا ، وأن قبول الحق يمحو الله به السيئات ويزيد به الحسنات ، وقوله عليه السلام : « وإن سخط فله السخط » وهي مقابلة للجملة التي قبلها في المعنى والمبنى ، وكلنا يستعيذ بالله من أن يكون له السخط لأن السخط من الله هلاك ليس بعده هلاك ، ثم إنه هنا سَخِطَ شيئًا من الحق وإن قَلَّ وتسأل وأسأل ، من الذي إذا بَلغه شيء من الحق سخط هل هو من فجار المسلمين ، وأن توغلهم في الفجور جعلهم يسخطون إذا ذكروا بالله ، فإذا قلت للظالم القاتل المستبد اتق الله وارحم نفسك وكف عن الظلم والقتل والاستبداد سخط منك وسخط عليك وظلمك وانتهك حرمتك ، أم هو من غير

أمة رسول الله وأن بلاغه عليه السلام بلاغ للناس جميعًا ، وأنه مبلغ الحق لمن آمن ومن لم يؤمن ؟ ثم إن هذه الجملة أعْقَبَها عليه السلام بقوله : « ومن كرهه فقد كره الله لأن الله هو الحق المبين » وهذا الذي كره الحق وكره الله لا يكون من أهل الشهادتين ، ويبقى من سخط محتملاً لأن يكون من أهل الشهادتين ، وإن كان سخطه للحق يضع قدمه على عتبة كره الحق ، ويخرجه من أهل الشهادتين ، لأن الإيمان يزيد بعمل الصالحات وينقص بعمل السيئات ، والفجور من أسوأ السيئات لأنه من مزاولة الكبائر كالقتل ، والظلم ، والقهر ، والاستبداد ، ومن ألف مزاولة الكبائر ليس بعيدًا عن أكبر الكبائر ، ولاحظ أن الأوزاعي يحدث المنصور بما حدث به رسول الله ﷺ الناس أجمعين ، وأن كل هذا الجزء من حديثه هو بيان لموقف الناس من بلاغ الحق الذي عاتب المنصور الأوزاعي لأنه أبطأ عليه وهو يريد الاقتباس منه ، وليس الاقتباس إلا بلاغ ما عند الأوزاعي من وحي الله لرسوله ﷺ ، فبلغه الأوزاعي هذا القسم من الوحي الذي هو محفوف بالخطر إلا إذا تقبله المؤمن بالشكر والرضا ، ونزغ الشيطان لم يسلم منه أحد حتى الذي هو خير من خلق الله وبرأ قال له ربنا : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ﴾ (فصلت:٣٦) ثم إنك تلاحظ تكرار كلمة الحق وأنه نعمة من الله توجب الشكر ، وأن من رضيه فله الرضا ومن سخط فله السخط ، ومن كرهه فقد كره الله ، ولست مخطئًا إذا فهمت منها التعميم وأن الله ـ سبحانه ـ يكره من كره الحق ، ولو كنا نناقش قضايانا السياسية أو الاجتماعية أو التعليمية أو الاقتصادية بل ولو كنا في مسألة علمية فالواجب على الكل إذا ظهر الحق في أي باب نتكلم فيه أن يَنْصَاع للحق ، ومن أنكره وجحده بعد ما تبين فهو من الذين ينكرون الحق ، وأن إنكار الحق داخل في غضب الله ، وأن الله ـ سبحانه ـ لم يغضب على أحد كغضبه على الذين ينكرون الحق بعد

ما تبين ، لأن هذا الوجود الإنساني لا يستقيم على هذه الأرض إلا بالإقرار بالحق ، والعمل بالحق ، والانصياع للحق في أي شأن من شؤون حياتنا في الدين والدنيا ، ولهذا أوجب الله علينا المشورة ، لأن المشورة النظيفة والهادفة إلى معرفة الحق هي سبيل الحياة الكريمة ، ولا يمكن أن توجد حياة كريمة مع فرض الرأي ومع الاستبداد .

ثم انتقل الأوزاعي إلى مقطع آخر وتجد الترتيب الدقيق في أفكار الأوزاعي ، مع أنه يقول على البديهة ولم يعد كلامه ، لأن المنصور فرض عليه موضوع الكلام لما قال أريد أن أقبس منك ، قال الأوزاعي : « ثم قلت : يا أمير المؤمنين إنك تحملت أمانة هذه الأمة ، وقد عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وقد جاء عن جدك عبد الله بن عباس في تفسير قول الله ﷻ : ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ (الكهف:٤٩) قال : الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ، فما ظنك بالقول والعمل ، فأعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى قرابتك من رسول الله ﷺ ، تنفعك مع المخالفة لأمره ، فقد قال ﷺ : يا صفية عمة محمد ويا فاطمة بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله فإني لا أُغني عنكما من الله شيئًا ، وكذلك جدك العباس سأل إمارة من النبي ﷺ فقال : أي عمي نفسٌ تحميها خير من إمارة لا تحصيها نظرًا لعمه وشفقة عليه من أن يَلِيَ فيحيد عن سنته جناح بعوضة فلا يستطيع له نفعًا ولا عنه دفعًا » . هذا القسم من كلام الأوزاعي يدور حول بيان ثقل الأمانة الملقاة عليك يا أمير المؤمنين ، وقدم له في القسم الذي مضى بأن يكون عملك بما علمت هو الشاغل لك ، وأن علمك بما لم تعلم هو شغل لك زائد ، لأنه لا يجوز لك ولا لغيرك أن تعلم شيئًا من وحي الله لعباده إلا إذا

عملت به ، وقد بدأ كلامه بقوله « إنك تحملت أمانة هذه الأمة وقد عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها » والذي عرضه الله على السموات والأرض والجبال فأبين حمله وأشْفقنَ منه هو التكاليف الشرعية ، وكأن من تحمل أمانة هذه الأمة قد تحمل كل التكاليف الشرعية ، لأنه مسؤول عن أمر دينها ودنياها ، وليس في التكاليف الشرعية شيء يخرج عن أمور الدين والدنيا ، مع أن الأوزاعي يعلم أنه هو والمنصور وكل إنسان مُتَحمِّل لهذه الأمانة ، وكل إنسان مسؤول عن هذه التكاليف في حدود حياته ، وسلوكه ، ومهنته ، وعمله ، بخلاف الوالي فإنه مسؤول عن هذه التكاليف في حدود الأمة ، والجماعة التي تحمل أمانتها ، وإذا سألت نفسك كيف حملها الإنسان بعد ما أَبتْ السموات والأرض والجبال حملها وجدت ذلك يوم أن قال الله لأبوينا آدم وحواء كلا من الجنة حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة ، لأن هذا أول تكليف للإنسان ، وأنَّهما قبلا هذا التكليف وكان ما كان ، والمهم في الذي نحن فيه أن مسؤولية الخليفة أو الملك أو رئيس الدولة هي كل مسؤولية هذه الجماعة التي تحمَّل أمانتها ، وأن الأمانة التي تحملها هي كل التكاليف التي عرضت على السموات والأرض ، وليس في الحياة أشق ولا أصعب ولا أوسع ولا أخطر من تحمل هذه الأمانة ، ثم زادها الأوزاعي صعوبة وخطورة في قوله « وقد جاء عن جدك عبد الله بن عباس في تفسير قول الله ﷻ : ﴿ **لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا** ﴾ (الكهف:٤٩) قال : الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك » وهذا يعني أن كتابك يا أمير المؤمنين وكتابي وكتاب كل مُكَلَّف لا يحصى الحسنات والسيئات وما أمر الله وما نهى ، وإنما سيحصى علينا كل شيء حتى المباحات ، لأن التبسم والضحك لا يدخلان في التكليف ، والقول

بأن التبسم صغيرة والضحك كبيرة لا يعني الذنوب الصغيرة والكبيرة ، وإنما يعني ما يكون منا من كل شيء صغيرًا كان كالتبسم أو أكبر منه قليلاً وهو الضحك ، وهذا حق لا ريب فيه لأن جدك حبر الأمة ولا يتكلم في كتاب الله إلا بعلم علمه من رسول الله ﷺ ، وإذا كان الكتاب سيحصى التبسم والضحك فكيف بالأقوال والأفعال ، وفيها ما يرضاه الله وفيها ما لا يرضاه ، وقد تحملت أوسع وأشق وأصعب ما يتحمله بشر على هذه الأرض وهو أمانة الناس ، ومثلك في هذا كل مسؤول تحمل أمانة شعبه فلم يعد في شعبه أثقل حملاً من حمله هو ، وهذا تخويف للمنصور وكل من يقوم مقام المنصور في هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وكان من الضروري والواجب أن يكون هذا معلومًا لكل من يتولى مسؤولية شعب ملكًا كان أو رئيسًا أو أميرًا حتى يحتاطوا ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة ، وحتى يقل حرص الناس عليها ، لأن الموت آت لا محالة والقبر آت لا محالة ، والحساب آت لا محالة ، والكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة آت لا محالة ، وكلنا سيجد ما عمل حاضرًا لا محالة ، وحَسْبُ كل منا أن يتحمل مسؤولية نفسه ، أما المسؤولية الكبرى التي هي الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فلا يجوز أن يطلبها إلا الذي هو عالم بما يُنَجِّيه من ويلاتها كما سيشرح الأوزاعي ، وتأمل صدق العلماء في مخاطبة الرؤساء ، وكيف كانوا يحمون الرؤساء من أطماعهم وشهواتهم ، وأهوائهم ، لأن أبا جعفر طلبها وحرص عليها ، وانتزعها من بني أمية ، وقول الأوزاعي : « فأعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى قرابتك من رسول الله ﷺ تنفعك» يعلم المنصور وغير المنصور أن القرابة من رسول الله لا تنفع ، وتَعْلَم صفية عمة رسول الله أن قرابتها من رسول الله لا تنفع ، كما

تعلم فاطمة بنت محمد هذا ، لأن كل ذلك شائع في الأمة فما وجه ذكر الأوزاعي له ؟ لا أعرف لذلك وجهًا ولا يجوز أن نقول إن الأوزاعي أراد أن يُنَبِّه إلى مكانة بني العباس وقرابتهم من رسول الله ، قلت لك إن هذا معروف وشائع وأن الكل يعلم أن عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ ، وأكرر ما وجه ذكر الأوزاعي لذلك ؟ وربما قلت إن الفاء التي في قوله « فأعيذك يا أمير المؤمنين » ربما كان وراءها إشارة إلى شيء يدور في ألسنة الناس من أن أمر المسلمين عاد إلى آل رسول الله ﷺ ، وأنه عاد إلى نصابه في بيت النبوة والرحمة ، وأنه أخذ القوس باريها ، وعاد السهم إلى النزعة كما كان يقول بعضهم ، وأن هذا ربما أغرى بالطمع في شفاعة رسول الله ﷺ لهم ، قلت ربما ، ولم أعرف أكثر من ذلك ، وقوله عليه السلام لعمته صفية وابنته فاطمة « استوهبا أنفسكما من الله » كلمة « استوهبا أنفسكما » فيها معنى أن كل نفس بما كسبت رهينة وأن نفوسنا كلنا رهائن عند الله ، وأننا نرجو من الله أن يهب لنا نفوسنا بالطاعة والعمل الصالح ، وإلا خسرناها ونعوذ بالله من ذلك ، وقوله عليه السلام لعمه العباس « نفس تحميها خير من إمارة لا تحصيها » يعني تفرغ لحماية نفسك من غضب الله ، لأن هذا خير لك من إمارة لا تستطيع حصر ما يمكن أن يكون فيها من صواب وخطأ ، وفسّرها الأوزاعي بقوله « نظرا لعمه وشفقة عليه من أن يلي فيحيد عن سنته جناح بعوضة فلا يستطيع له نفعًا ولا عنه دَفْعًا » وراجع أن يحيد عن سنة ابن أخيه جناح بعوضة ، فلا يملك له شيئًا ، ولو قال الأوزاعي فيحيد عن كتاب الله أو عن دين الله أو أمره ونهيه لدل على مراده ، ولكنه آثر كلمة سنته ﷺ ليشير إلى مكانة سيدنا رسول الله في دين الله ، وعند الله ، ثم هو لا يملك لعمه نفعًا ، ولا يدفع عنه شيئًا ، وهذا تأكيد أن ليس لأحد

من الأمر في الآخرة شيء ، ثم إن كلام الأوزاعي موجه إلى أمير المؤمنين وفيه من التعميم ما يشمل غير أمير المؤمنين ، فإذا كان أمير المؤمنين تحمَّل أمانة الأمة ، فأنت أيها الصانع تحملت أمانة مهنتك ، وأنت أيها التاجر تحملت أمانة مهنتك ، وأنت أيها المعلم تحملت أمانة مهنتك ، والحساب على كل من تحمل أمانة ، وكلكم راع وكل راع مسؤول عن رَعِيَّته .

ثم إن الأوزاعي رأى أن كلامه هذا يزهد الناس في ولاية الأمر ، ويخوفهم من الإمارة ويُبْعد كل من خاف على نفسه عنها ، وأنها غالبًا ما تُفْضي إلى الجحيم ، وأن سيدنا رسول الله ﷺ رفضها لعمه العباس مع أنه كان يُجِلُّه ، وقالت عائشة ـ رضوان الله عليها ـ ما رأيت رسول الله ﷺ يجل أحدًا كما كان يجل عمه العباس ، وهو صنو أبيه ، وكل هذه المحبة والقرابة جعلته يحجزه عن الإمارة ، أقول لما رأى الأوزاعي هذا بدأ يذكر ما يَنْجُو به أمير المؤمنين ويشرح حقوقها على من يتولاها ، ومعلوم أن من يعطيها حقها يكون يوم القيامة على منبر من نور ، وأن الإمام العادل يظله الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وهذا يغري بها ، قال الأوزاعي : « حقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظرًا ، ولما استطاع من عوراتها ساترًا ، وبالحق فيها قائمًا ، فلا يتخوفُ مُحسنُهم منه رَهَقًا ، ولا مسيئهم عدوانًا ، فقد كانت في يد رسول الله ﷺ جريدة يُستاك بها ويَرْدَعُ المنافقين عنه ، فأتاه جبريل فقال له يا محمد ما هذه الجريدة التي معك ؟ اتركها لا تملأ قلوبهم رُعْبًا فما ظنك بمن سفك دماءهم ، وقطع أستارهم ، ونهب أموالهم ، يا أمير المؤمنين إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بَخْدشٍ خدشه أعرابيًا لم يتعمده ، فقال جبريل يا محمد إن الله لم يبعثك جبارًا تكسر قرون أمتك ، واعلم يا أمير

المؤمنين أن كل ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ، ولا ثمرة من ثمارها ، ولو أن ثوبًا من ثياب أهل النار عُلق بين السماء والأرض لأهلك الناسَ رائحتُه فكيف بمن تقمّصه ؟ ولو أن ذنوبًا من صديد أهل النار صُبّ على ماء الدنيا لأحَمَّه فكيف بمن تجرعه ؟ ولو أن حَلْقةً من سلاسل جهنم وُضعت على جبل لأذابته فكيف بمن يُسلك فيها ؟ ويُردُّ فضلها على عنقه » .

وهذا القسم الأخير من كلام الأوزاعي فيه بيانٌ شافٍ وكافٍ ومختصر لواجبات الوالي نحو قومه ، ثم الحرص الشديد والأشد على إحساسهم جميعًا بالأمن ، وألا يكون منه ما يأذَنْ بِتَسَرُّب أي خوف أو أي رُعْب لأي مواطن ولو كان مسيئًا ، ثم بيان ثواب من أدَّى واجبه وبيان عقاب من انحرف بالسلطة إلى أي جهة غير جهة العدل ، والرحمة ، والأمن ، وهذا الأوزاعي العالم المسلم بين واجبات رئيس الدولة ، خليفة كان ، أو ملكًا أو رئيسًا تحديدًا واعيًا جدًّا ، لا نجد اعتراضًا عليه عند أكثر الأمم تحضرًا ، وكأنه يضع عقدًا بين رئيس الناس وبين الناس ، وعلى الذين يقولون ليس في الإسلام سياسة أن يقرؤوا هذا ، وعذرهم أنهم لم يطلعوا عليه ، وأن الذي في الإسلام مبادئ عامة تَضْبِط حياة الناس في سياستهم ، وفي اجتماعهم ، وفي أعمالهم ، وسيتبين لنا الكثير عند تحليل هذا النص الذي هو فوق الرائع .

واجب الوالي

قوله : « حقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظرًا ، ولما استطاع من عوراتهم ساترًا ، وبالحق قائمًا » وهذه الجمل الثلاث تلخص الحق الحقيق يَعْني الواجب المؤكد على الوالي ، وأولها أن يكون لرعيته ناظرًا ، يعني أن يكون قائمًا على رعاية مصالحها ، وليس له شغل ، ولا شاغل إلا رعاية هذه المصالح ، وكلمة

«ناظرًا» يعني النظر العقلي، فلابد أن يكون عنده علم بكل مصالحها، وأن يكون له فهم وله بصيرة، وله نظر، فلا يقدم إلا ما يجب أن يُقَدَّم، ورعاية الإنسان في تعليمه وفي صحته وفي توفير فرص العمل له هي الأوليات قبل أن يشغل بأي شاغل من شواغل الدولة، وأن نظره وعلمه وفَهْمه يوجب عليه ذلك، لأن الإنسان هو صانع كل شيء على أرضه، فلا يجوز أن يتقدم شيء على إعداده لصناعة الخير على أرضه، فهو الذي تتقدم به صناعة البلاد، ويتقدم به البحث العلمي، ويتقدم به الاختراع المنتج الخير للبلاد، فهو الأول الذي لا أول قبله، وقوله: «ولمن استطاع من عوراتهم ساترًا» وتعجب كيف كان ستر عورات الناس هي القضية والعمل الثاني لرأس الدولة، وكيف قدَّمها على القيام بالحق، لأن ستر عورات الناس عند الله بمكان، وأن من يفضح عورات الناس يفضح الله عورته في عقر داره، وأن من يرى عورة بعينيه ويسترها كأنما أحيى موءودة، ومن أبْشَع ما أسمعه أن أسمع أن هناك ملفات للناس، فيها أسرارهم، وفضائحهم، وهذه الأسرار لو أذيعت لكانت إهانة لأولادهم، ولأهلهم، وأقول إلى متى تَظَلُّ أسرارُنا سلاحًا يقتل به بعضنا بعضًا، ومتى يكون فينا أهل الرشد الذين يحرمون هذا، والأوزاعي العالم المسلم يوجب على الوالي أن يستر هذه الأسرار، يعني هو لا يتركها ولا شأن له بها وإنما يسترها، وهذا شيء واعتبارها سلاحًا نُهَدِّدُ به خصومنا شيء آخر، وأن الوالي المنقطع للنظر في مصالح الناس هو الساتر لهذه العورات، ومعنى أنه منقطع لمصالح الناس أن مصالح الناس محرابُه وصلاتُه وصيامُه ومسجده، لأنك لا تجد عملاً أحب إلى الله من المنقطع لمصالح خلق الله، ومن كانت مصالحهم مسجدًا له فهو لا محالة ساترٌ لعوراتهم، ولا يفضح أسرارهم إلا الذي استباح مصالحهم، وقوله: «وبالحق

فيهم قائمًا » كنت أتوقع أن تكون الجملة الأولى ، لأن الوالي القائم في قومه بالحق هو الذي سنده الحق ، وغايته الحق ، وهو الحارس للقضاء الحق ، وهو الذي يَنْشُر الأمن في قومه ، وهو الذي يأمن كل مواطن في بلده على وصول حقه إليه ، لأن الحق هو الغالب ، وأن الضعيف يقوى بالحق ، وكما قال أبو بكر الذي فهم السياسة في الإسلام : القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ، وأن الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ، وشيوع هذا في الجماعة الوطنية له أثر بالغ في جدّ الكل ، وإخلاص الكل ، واطمئنان الكل ، وأن الحاكم الذي سنده الحق هو الذي سنده الله ، لأن الله هو الحق ، وبهذا يقوى الوالي ويقوى الناس ، وتكون الدولة ذات قوة ، وذات منعة ، وذات رهبة في نفوس أعدائها ، بخلاف شيوع الظلم والباطل فإن ذلك من خراب البلاد ، ولا قيمة لسلطان قائم في بلد خراب ، لم أشك في أن هذه الثلاثة التي تكون سطرًا واحدًا هي خلاصة واجب الوالي ، وأنها هي السياسة وهي الفطرة وهي الدين ، وقوله : « فلا يتخوف مُحْسنهم منه رهقا ولا مسيئهم منه عدوانًا » وكون المحسن لا يتخوف من الوالي رهقًا ظاهرة لأن جزاء الإحسان هو الإحسان ، وهكذا يقول العقل وتقول الفطرة ، أما المسيء الذي لا يتخوف عدوانًا فإن هذا معناه أن المسيء يعلم أن في وطنه قضاء لا سلطان لأحد عليه إلا الحق ، والعدل ، وأنه سيُحاسَبُ على إساءته بقدر إساءته ، ولن يزيد القضاء عليه في العقوبة مثقال حبة من خردل ، لأن لو زاد مثقال حبة من خردل كان ذلك عدوانًا ، وسياسة الإسلام تقول لو زدتم في عقوبة الظالم جناح بعوضة صار الظالم بزيادة جناح البعوضة مظلومًا ، ولاحظ أن الناس بين مُحْسن ومسيء ، أو خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا ، ونفي الخوف عن المحسن والمسيء يعني

نفي الخوف عن كل الجماعة الوطنية ، وسيادة الأمن في البلاد وهذه من أنعم النعم ، لأن رُعْب الناس وخَوفَ الناس وافتقاد الأمن تتحوّل بها الأوطان إلى جحيم مقيم ، والله ﷻ يقدر أمن الناس تقديرًا خاصًّا كما يعاقب على رُعبهم وفزعهم عقابًا خاصًّا ، وكنت وأنا أقرأ وصف أهل الجنة بالأمن أسأل نفسي هل يتصور أن يكون في الجنة التي لهم فيها ما تشتهي الأنفس عوامل خوف ؟ ثم أدركت أن وصف أهل الجنة بالأمن يراد به بيان قيمة الأمن في الدنيا ، وكأننا إذا افتقدنا الأمن في أرضنا صرنا كأننا في الجحيم ، وأن تثبيت الأمن في البلاد لا يكون إلا بزيادة الأمن ، وأن الخوف لا يأتي بأمن ، وإنما الذي يأتي بالأمن هو الأمن ، والأوزاعي العالم المسلم الذي يحدث أبا جعفر عن واجبات الوالي في الإسلام يَنْتقل من قوله « فلا يتخوف محسنهم منه رهقًا ولا مسيئهم عدوانًا » إلى قوله : كانت في يد رسول الله ﷺ جريدة يستاك بها ويَرْدَع المنافقين عنه فأتاه جبريل فقال له يا محمد ما هذه الجريدة التي معك ؟ اتركها لا تملأ قلوبهم رعبًا » راجع يا سيدنا لتدرك المعاني التي لم تركب متون الألفاظ ، وإنما انزوت وسكنت في أكناف الألفاظ ، أولا الفاء التي في قوله « فلا يتخوف محسنهم منه رهقا ولا مسيئهم عدوانًا » رتبت الأمن العام والشامل لكل أبناء الوطن ، لأنهم إما محسن وإما مسيء ولا ثالث لهم ، والمحسن أمن فنفى عنه الخوف ، والمسي أيضًا أمن ، ومنفي عنه الخوف ، وهذه الفاء رتبت هذا الأمن الشامل لكل من على الأرض من بني البشر على قيامه بالعدل والحق ، وأن هذا الحق والعدل في ربوع البلاد هو الأمن ذاته ، فلا تطلبوا أمن البلاد بالرعب ، والتخويف ، لأن هذا لا يأتي إلا بأمن كذوب ، ولكن اطلبوا أمن البلاد بالحق والعدل ، والحق أخو الأمن الأكبر ، حيثما وجد الحق وجد بجواره الأمن ،

والفاء التي في قوله فقد كانت في يد رسول الله جريدة ، دالة على أن الكلام قبلها وهو قيامه بالحق والعدل ، وأن المحسن لا يخاف والمسيء لا يخاف ، كلام في الأمن ونفي أي رعب يُمكن أن يتسلَّلَ إلى أي مواطن ، ولن تجد الأمن عامًّا وشاملاً لربوع البلاد إلا مع السياسة الرشيدة الآمنة ، لأن تفزيع السياسة للناس يعني أن السياسة نفسها بداخلها فزع ، وخوف ، ورعب ، وتأكد أن كل ما يصيب به النظام الناس من أحوال هي قائمة في ذات النظام ، فالنظام الآمن هو الذي يحرص على أمن قومه ، والنظام المرعوب هو الذي ينشر الرعب في قومه ، ثم إن مسألة الجريدة التي في يد رسول الله ﷺ يعلم الله ويعلم جبريل ويعلم كل أصحاب رسول الله ﷺ أنه لم يفزّع بها إنسانًا ، وقد وصفه ربنا بأنه على خلق عظيم ، ولكن المسألة ليست مسألة محمد ﷺ وجيله الذي عاش معه ، وإنما كل وحي من الله لسيدنا رسول الله وسيدنا جبريل إنما هو لهذه الأمة من ساعة الوحي إلى أن تقوم الساعة ، والأمة هم الناس جميعًا الذي أرسل إليهم رسول الله ﷺ ومنهم المؤمن والكافر ، فالمطلوب في السياسة الإسلامية يا من تنكرونها ألا تكون في يد الوالي أقل قوة يمكن أن تبعث الرعب في نفوس الناس ، ولابد أن نعلم أن الوالي في يده كل قدرات المجتمع من الجيش والشرطة وغيرهما ، وهذا لا كلام فيه ، وإنما الكلام في أن لا يوجه شيء من ذلك إلى تخويف الناس ، ونشر الرعب بينهم ، وأنت يا أيها الوالي ويا حريص على الأمن أمامك طريق لا يخطئ أبدًا ، وهو أن تدعو الأمن بالأمن لأن الأمن لا يساق بالعصا يا سيد الساسة ، وإنما يُصْغِي فقط إلى صوت الأمن ويجيبه ، وتَدبَّر كلمة سيدنا جبريل « لا تملأ قلوبهم رعبًا » وأسأل سيدنا جبريل هل ترى أن هذه الجريدة التي هي سواك طال قليلاً يمكن أن تملأ قلوب الناس رعبًا ؟

وهل أردت بكلمة « تملأ قلوب الناس رعبًا » التي لا نجد لها واقعًا من حمل سواك امتد أردت ما يكون في المستقبل من امتلاك الوالي من عناصر القوة ما يمكنه به أن يملأ قلوب الناس رعبًا ؟ وقول الأوزاعي : « فما ظنك بمن سفك دماءهم ، وقطع أستارهم ، ونهب أموالهم » لا شك أن الكلام فيه حدود وفواصل ومفاصل ، وأن العالم المسلم السياسي صاحب البصيرة الذي هو الأوزاعي حين ينتقل من قول جبريل لسيد الثقلين لا تملأ قلوبهم رعبًا إلى قوله فما ظنك بمن سفك دماءهم وقطع أستارهم ونهب أموالهم ، إنما هو يقارن ويوازن بين السياسة التي أَمَرَنَا الله بها وحدّد حدودها ، والواقع السياسي الذي يعيشه الناس إذا أداروا ظهورهم للذي حدده الله لهم ، وقال مَنْ قال : « إنه لا سياسة في الإسلام » الأوزاعي يضع أمامك الصورة التي يتحدث فيها جبريل الذي هو سيد الملائكة مع سيدنا رسول الله الذي هو سيد الثقلين ، ثم يضع لك الصورة الحيَّة الناطقة الواقعة على الأرض ، والتي هي صناعة من أداروا ظهورهم إلى كلام جبريل وكلام سيد الثقلين ، وقول الأوزاعي بعد ذلك : « يا أمير المؤمنين إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيًّا لم يتعمده ، فقال جبريل يا محمد إن الله لم يبعثك جَبَّارًا تكسر قرون أمتك » . وازن بين الحالة الأولى والحالة الثانية : الأولى فيها أنه أمسك بيده جريدة يَسْتَاكُ بها ويَرْدَعُ عنه المنافقين بها ، وأُمِر بتركها لأنها تبعث الرعب في نفوس الناس ، والثانية خدش لم يتعمده وإنما فيه قطرة دم نزلت ، وَدَعا السَّلِيْهِلاَ إلى القصاص مع أنه لم يتعمده ، وقال له جبريل من أجل قطرة دم نزلت من خدش لم يتعمده إن الله لم يبعثك جبارًا تكسر قرون أمتك ، وهذا أشد بكثير من أمره بترك الجريدة ، وأن قطرة الدم التي

كانت من خدش لم يتعمده ﷺ كانت فعل جبار يكسر قرون أمته ، والله ـ سبحانه ـ الذي أوحى إلى جبريل بما قال يعلم أن محمدًا ليس جبارًا ، وأنه لم يكسر قرون أمته ، وإنما هو وَحْيٌ لنا وَوَحْي لمن يتولى أمرنا ، وأن الحرص على حقن دماء الأمة التي وَلاَّك الله أمرها حرص لا يجوز التهاون فيه بقطرة تسقط من غير عمد ، وأن قرون الأمة التي هي قوة دفاعها عن أرضها ونفسها وأموالها وأعراضها يَكْسِرُها أن تُسْتَبَاح قطرةٌ من دمائها ، ولو كانت من غير عمد ، فكيف بمن يزاول القتل والقهر ويستبيح الدماء ، والأموال والأعراض ، جبريل يقول لنا إذا رأيتم ذلك فاعلموا أنكم مع من يهلك قوتكم ، وجيوشكم ، ومنعتكم ، ويجعلكم أحياء من غير قوة تحميكم ، ويجعلكم كالشاة التي لا قرون لها فلا تحمي نفسها من القرناوات ، وأن عدوكم لا ينام عن إعداد قوته ومنعته وغلبته ، فإذا شاع فيكم أخطر الخطر وهو أنكم تستبيحون دماءكم ، فأنتم تعدون أنفسكم وأرضكم وأعراضكم وأموالكم للعدو الذي يدخل عليكم كالشاة القرناء الداخلة على الشاة الجلحاء تصيبها من غير أن تصاب ، كل هذا قيل لرسول الله ﷺ والله يعلم أنه لا يكون منه ، ثم هو سبحانه يعلم أن أُمَّته ستواجهه وسيكون فيها من يتسلط عليها ، ويكسر قرونها ، وقد حرَّم الله علينا الخروج عليه ، وفي الوقت نفسه أوجب علينا النصيحة التي هي في صالحه ، وفي صالحنا وفي صالح أرضنا وأجيالنا ، والتي لن تجد لها أُذُنًا تسمعها إلا إذا كانت خالصة لوجه الله ، ووجه الله هو مصلحة البلاد والعباد ، قل النصح للحاكم بشرط أن تكون فاهمًا لما تقول ، وأن تكون فاهمًا لما يفعل ، وأن تكون صادق النيّة وليس لك من وراء ذلك غاية إلا غاية واحدة ، وهي مصلحة الكل الحاكم والمحكوم والبلاد والأجيال القادمة ، وهذا من صلب السياسة في

الإسلام ، واعلم أنني أعلم أنه لا يجوز لي ولا لغيري أن يقول في الإسلام سياسة إذا لم يكن في الإسلام سياسة ، وأني حين أقول بوجود السياسة في الدين وليس في الدين سياسة يكون ذنبي كذنب الذي يقول ليس في الدين سياسة وفي الدين سياسة ، إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حرّم علينا أمرين أن ندخل في الدين ما ليس منه ، وأن نخرج من الدين ما هو فيه ، واعلم أن الحاكم الذي يَبُثُّ الخوف والرعب بين أبناء وطنه الذين هم أبناء أبيه ، أو الذي يستبيح الدماء التي هي دماء أبناء وطنه الذين هم أبناء أبيه غير قاصد ، إلى أن يكسر قرون الأمة لأن الله لم يَتّهمْه بذلك ، وإنما أعلمه بأن استباحة الدماء ولو قطرة من خدش غير مقصود هي كسر لقوة الأمة ومنعتها ، التي تحمي بها أرضها وأهلها ، وتاريخها ، ودينها ، ولغتها ، وكل ما به تكون الأمة أمة ، قلت هذا لنحذر الرمي بالتُّهم وأن نقول لكل من يستبيح دمًا إنك تكسر قرون الأمة ، وأنك علينا ومع عدونا ، لأن هذه التُّهم تزيد التنازع وتزيد الاختلاف ، وأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي يتكلم بوحي ربه ما قصد إلى ذلك ، وإنما قصد إلى أن يعلم ويبين ، وكل وحي الله هو بيان للناس ليتبين لهم الرشد من الغي ، وليس تهما للناس يزداد بها التنازع ، لأننا نهينا عن التنازع لأن التنازع أيضًا يكسر قروننا **﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾** أي قوتكم أي قرونكم ، وقول الأوزاعي : «واعلم يا أمير المؤمنين أن كل ما في يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ولا ثمرة من ثمارها» انتقل الأوزاعي بأمير المؤمنين وبنا إلى الآخرة التي هي خير وهي الباقية ، والتي لم تكن الدنيا إلا لتكون مزرعة لها ، يزرع فيها أهل الخير الخير فيكون لهم في الآخرة خير ، ويزرع فيها أهل الشر الشر فيكون لهم في الآخرة الشر ، وبدأ الشيخ بنعيم الآخرة وأن الدولة والصولة والجولة وكل ما أنت فيه يا أبا جعفر

من نعمة وخير وأبهة لا يعدل شربة واحدة من شراب الآخرة ، ولا يعدل ثمرة واحدة من ثمار الآخرة ، فاحذر أن ينسيك ما أنت فيه فيضيع عليك ثواب لا يقادر قدره ، ويمكنك أن تحصل على الأمرين ما أنت فيه وشراب الآخرة وثمارها إذا عشت ولا عمل لك إلا النظر في مصالح المسلمين ، وحفظ أسرارهم ، وستر عوراتهم ، وقمت فيهم بالحق ، وملأت أرضهم وحياتهم أمنًا ، وكان عدوك الذي تحمي قومك منه هو الخوف والرعب فتطارده من أرضهم ، ولم يكن لك هم إلا حفظ دمائهم وأموالهم وأعراضهم ، وهذا هو خير الدارين يا أمير المؤمنين ، ومن ورائك كل مَلِكٍ وكُلُّ أمير وكل رئيس دولة إلى أن ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله ، وقول الأوزاعي : « ولو أن ثوبًا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لأهلك الناسَ رائحتُه ، فكيف بمن تقمصه ؟ ولو أن ذنوبًا من صديد أهل النار صُبَّ على ماء الدنيا لأحمَّه فكيف بمن تجرعه ؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لأذابته فكيف بمن يسلك فيها ويرد فضلها على عنقه؟ » لما فرغ من ذكر شراب الجنة وثمارها للذين أقاموا سياستهم في قومهم وديارهم على الوجه الذي شرعه الله ، انتقل إلى بيان بعض صور النار للذين أقاموا سياستهم في قومهم وديارهم على غير الوجه الذي شرعه الله ، وملؤوا أرضهم بالخوف والرعب ، واستباحوا الدماء ، وفضحوا الأسرار .

وكما أنه هناك اقتصر على شراب الجنة وثمارها ، وترك ما وراء ذلك مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وما أُخْفي لهم من قرة عين ، فعل مثل ذلك هنا واقتصر على ذكر الثياب التي قطعت من نار ، وذكر الحميم ، الذي يتجرعونه ويصب فوق رؤوسهم فيُصْهَرُ به ما في بطونهم والجلود ، وذكر السلسلة التي

ذرعها سبعون ذراعًا التي يُغَلُّ فيها أهل النار ويسلكون فيها ، وكان الأوزاعي وصافًا ولم يكن مبتكرًا لهذه الأوصاف ، وإنما أحسن فهمها في كتاب الله ثم أحسن بيان ما فهم ، وعليك أنت أن تتأمل الثوب الذي لو علق وحده في هذا الفضاء الذي لا حدود له بين السماء والأرض لأهلك الناس رائحتُه ، ثم تنظر إلى حال من يتقمصه أي يصير له قميصًا ، والمشكلة أو قل المصيبة أننا نقرأ ونسمع هذا وكأنه لغيرنا ، وليس لنا ، ولم يحاول أحدنا أن يسلك السلوك الذي يبعده عن أن يتقمص هذا القميص ، وكأننا نتعلم لنتكلم ، ولم نتعلّم لنعمل ، وقل مثل ذلك في غيره ، تقرأ مثلاً أن الناس يكونون كالفراش المبثوث ، وكأن هؤلاء الناس غيرنا ، وعلينا أن نتحدث عنهم ولم نفهم أننا سنكون بينهم كالفراش المبثوث ، وأن من ثقلت موازينه ومن خفت موازينه هم ناس نتكلم عنهم ، وكأننا لم نكن ممن ثقلت موازينه أو من خفت موازينه ، وهذه مصيبة كما قلت ، لأن كل الذي وصف به القرآن أحوال الناس هو وصف لأحوالنا ، وأننا إمَّا أن نشرب من شراب الجنة وإما أن نشرب من الحميم ، وإما أن نلبس ثيابًا خضرًا من سندس وإستبرق الذي هو ثياب أهل الجنة ، وإما أن نتقمص هذا القميص الذي تهلك رائحته الناس لو علق ما بين السماء والأرض ، فكيف وأنا ملفوف فيه ، وراجع ذنوبًا واحدًا من صديد أهل النار صُب على ماء الدنيا بأنهارها كلها وبحارها كلها لصار كل ماء الدنيا حميمًا بهذا الذنوب ، أي الكوب ، فكيف بمن يتجرعه ، حدِّث الناس بما في دين الله وأنت منهم ، وحدّث نفسك به أولاً ، فإن خفت فحدث الناس تخوفهم ، اسأل نفسك كيف أتجرع الصديد وأنا في الجحيم لا أموت فيه ولا أحيا ولا ماء لي إلا هذا الصديد الذي لو صب ذنوب منه على ماء الأرض لصار كل ماء الأرض صديدًا

محميًّا ، ثم إذا كانت حلقة واحدة من السلسلة التي ذرعها سبعون ذراعًا على كل جبال الأرض لأذابتها ، كيف أطيق أن أسلك فيها ، ثم يُردُّ باقيها عليّ ، ليس في كلام الأوزاعي شيء أي شيء يخرج عن الذي في الكتاب والسنة ، لأنه عالم يعلم خطر أن تضيف إلى دين الله شيئًا ليس فيه ، وأنه لو فعل لكان كمن يسعى إلى قميص أهل النار ، وكمن يعد نفسه بشراب صديد أهل النار ، ومن يعد نفسه ليسلك في التي لو وُضِعَتْ حلقةٌ منه على جبال الأرض لأذابته .

* * *

كِتَابُ ٱلدُّرَّةِ فِي ٱلنَّوَادِبِ وَٱلتَّعَازِي وَٱلمَرَاثِي

فتح ابن عبد ربه هذا الباب بقوله : «ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في النوادب والمراثي والتعازي بأبلغ ما وجدنا من الفطر الذكية والألفاظ الشجيّة التي ترق القلوب القاسية وتذيب الدموع الجامدة» هذه السطور حددت مادة الكتاب والهدف منه ، أما مادته فهي أبلغ ما وجده من الفطر الذكية والألفاظ الشجية ، يعني ليس من كلام الفطر الذكية ، وإنما أبلغ ما وجده من كلام هذه الفطر ، فالباب متخير من متخيّر الكلام ، وحسب ابن عبد ربه فضلاً أن يضع بين أيدي عامة قومه وخاصتهم خيار المتخيّر من البيان ، ثم هو من الفطرة الذكية المتميزة ، ومن شأن من كان كذلك أنه تَشْتَاقُه الفطرة ، وما كان له أن يقتصر في هذا الباب على أن يضع تحت عيون قومه أبلغ ما وقع عليه من البيان إلا وهو يعلم أن اللّبنة الأساسية في تكوين الإنسان هي اللغة العالية ، وأنك إذا أعددت عقل الإنسان من خلال إسكان اللغة العالية في نفسه فقد أعددت لبلادك الإنسان الذي يعمرها ، ويتقدم في كل شيء يزاوله فيها من زراعة وصناعة وسياسة وما شئت ، لأنه لا معنى للعناية بالأوطان إلا العناية أولاً بهذا الإنسان الذي هو أنفس وأغلى ما يمشي على تراب الأوطان ، وأن أي نظام سياسي يهمل هذا الإنسان ويَعْتَنِي بكل شيء ، فالحقيقة أنه لم يعتن بشيء ، لأن الإنسان هو كل شيء ، فإذا أهملته فأنت لم تعتن بشيء ، وإذا كان هو أول عنايتك فأنت تعتني بكل شيء وتعجب من أن الذي خلقه جعل أمنه بمثابة طعامه وشرابه ، وأنك إذا أفقدته أمنه كأنك أفقدته طعامه وشرابه ، كما قال ربنا

في إنعامه على قريش أنه سبحانه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، فجعل الأمان ونفى الخوف قرين الإطعام من جوع ، ابن عبد ربه ليس له عمل في هذا الباب إلا أن يتخيَّر من كلام الأخيار أبلغه ، ويَضَعُه تحت عيون وألسنة قومه لإعداد الإنسان الصانع لكل خير على أرضه ، هذه مادة الكتاب ، أما الهدف من هذه المادة فقد لخصه بقوله ترقيق القلوب القاسية وإذابة الدموع الجامدة ، ومعنى هذا أن المطلوب من هذا البيان الأعلى أن ينفذ إلى القلوب فيصقلها ، ويذهب قسوتها وغلظتها ، ويسكن فيها الرحمة والرقة ، فتعيش مع الناس في مودة وتعاطف وتراحم ، فتَنْبعث في قومه لكشف الكربة وإزالة الغمَّة ، الذي يعنيني هو معرفة الهم ليس الذي في الكتاب ، وإنما الذي في نفس كاتب الكتاب ، والذي له كتب الكتاب ، وابن عبد ربه كشف لنا سر نفسه في زيادة عنايته بأن يَسْقِيَ عامة قومه وخاصتهم من البيان العالي ، لا لتطول ألسنتهم بالكلام ، وإنما لترق قلوبهم بأحوالهم وأحوال من حولهم من بني قومهم ، وأنا لا أعرف شيئًا في هذه الحياة يعمله الإنسان أفضل من صناعة الإنسان ، وإنما بعث الله الأنبياء لصناعة الإنسان ، وأنزل كتبه لصناعة الإنسان ، ثم إن كل هذه الصناعة التي بعث لها الأنبياء وتنزّلت لها الكتب إلا الارتقاء بإنسانية الإنسان ، ولا يضيق صدري بشيء يحدث في بلادي التي هي كل بلاد العرب وكل بلاد المسلمين كما يضيق حين أرى الإنسان يُهَان ، ثم إن ابن عبد ربه لما ذكر رقّة القلوب وإذابة الدمع الجامد أتبعه بقوله : «مع اختلاف النوادب عند نزول المصائب ، فنادبة تثير الحزن من رَبْضَتِه وتبعث الوجد من رَقْدَتِه بصوت كترجيع الطير تقطع أنفاس المآتم وتنزل صدعا في القلوب الجلامد» راجع نفاذ الكلام الذي ينفذ في مستقر القلوب حتى يثير الأحزان الرابضة في هذه القلوب ، وراجع إحساس ابن عبد ربه بصوت النادبة وأنه كترجيع الطير ، وكأن ابن عبد ربه

حين يجمع لنا خيار المختار من البيان إنما يحدثنا عن حسه هو بالبيان ، والنادبة الأخرى هي التي لا تثير هذه الأحزان ، وإنما تخاطب شيئًا آخر في النفوس وهو الصبر والاستسلام والثقة في جزيل ثواب الصابرين المحتسبين.

أقسام المراثي

ومن دقائق ابن عبد ربه وحسن ترتيبه أنه قسَّم المراثي تقسيمًا خاصًّا مؤسسًا على نبع معاني الرثاء من نفس الشاعر ، وبدأ برثاء الشاعر نفسه ، وترى في هذا الضرب مرثيًا حيًّا يبكي نفسه ، ويحدثك عن قبره ، وعن كفنه ، وعن غسله ، وترجيلهم لشعره ، وهذا الضرب من الرثاء له مذاق آخر يختلف عن رثاء الأموات ، وروى عن ابن قتيبة أن أول من بكى نفسه وذكر موته في شعره يزيد ابن حذاق في قصيدته :

هل للفتى من بناتِ الدهرِ من وَاقِي … أم هَلْ لَهُ من حِمَامِ الموت مِن رَاقِي

وذكر عددًا من الشعراء الذين ذكروا موتهم ودفنهم وقبورهم في شعرهم ، منهم مالك بن الريب في قصيدته التي منها :

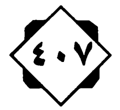
فيا صاحِبَيْ رَحْلي دنا الموت فاحفرا … برابية إني مقيم لياليا

وخطَّا بأطراف الأسنة مَضْجَعي … وردَّا على عينيَّ فضلَ رِدَائيا

راجع كيف كان قلب مالك يتقطع وهو يقول إني مقيم لياليا ، أو وهو يقول وردوا على عيني فضل ردائيا .

ثم أتبع ذلك رثاء الآباء للأبناء ، وهو أشد لوعة من رثاء الشاعر نفسه ، وذكر من ذلك :

يا كبدا قد قطَّعت كَبِدي … وَحَرَّقَتْهَا لواعجُ الكَمَدِ



مــا مــات حــيٌّ لِميّــتٍ أسَــفًا ... أعْــذَر مــن وَالــدٍ علــى ولــد

يــا رحمــة الله جَــاوِرِي جَــدَثًا ... دَفَنْــتُ فيــه حشاشــتي بيــدي

ونــوِّري ظلمــة القبــور علــى ... مــن لم يصــل ظُلْمُــه إلى أحــد

راجع دفنت فيه حشاشتي بيدي .

وقد كثر شعره في هذا الباب ، وذكر قصيدة أبي دؤيب العينية :

أمِــنَ المنــون وريبــها تتوجــع ... والدهر ليس بــمُعْتبٍ مــن تَجْـزَعُ

وقيل لأعرابية مات ولدها ، ما أحسن عزاءك ؟ قالت : إن فقدي إياه آمنني كل فقد ، وإن مصيبتي فيه هوّنت عليَّ المصائب بعده .

ومن أعجب ما في هذا الباب ما رواه الرياشي قال : وجدت تحت الفراش الذي مات عليه أبو نواس رقعة مكتوبًا فيها هذه الأبيات :

يا رب إن عَظُمَــتْ ذنوبــي كثـرةً ... فلقد عَلِمْــتُ بــأن عَفْــوك أعْظَــمُ

إن كـــان لا يرجــوك إلا مُحْسِــنٌ ... فــبمَنْ يَلــوذُ ويســتجيرُ الــمُجرمُ

أدعــوك رب كمــا أمــرت تضــرَعا ... فــإذا رَدَدْت يــدي فمــن ذا يَــرْحَمُ

مــالي إليــك وســيلة إلا الرَّجَــا ... وجميــلَ عفــوك ثم إنــي مســلم

وتعجب لأبي نواس الذي لم يترك إثمًا إلا ارتكبه ، وعاش ما عاش وهو يقول : قالوا حرام قل حرام واللذاذة في الحرام ، والله ـ سبحانه ـ ساكن في قلبه ، والخوف من العذاب ساكن في قلبه ، وله أبيات في التوبة والرجاء والتعلق برحمة الله أقوى من هذه الأبيات ، وإن كان أبو نواس انسلخ عن الدين في سلوكه ، فهو لم ينسلخ عن الدين في فطرته وقوة الإسلام ، إنه دين الفطرة يعلم ذلك من آمن به ومن كفر ، وقد استشهد ابن عبد ربه بالشعر وغير الشعر في

باب وجع الآباء بفقد الأبناء ، وكان الحِسُّ الشِّعْرِي عند ابن عبد ربه معينًا له على اختيار الكلام الذي أخرج أبْعَد ما داخل هذه النفوس من ألم وحسرة ، ثم انتقل إلى رثاء الأخوة وفتح باب رثاء الأخوة برثاء مُتَمِّم بن نويرة لأخيه مالك الذي قتله خالد بن الوليد ، وكان خالد على رأس جيش أبي بكر في حروب الردة ، ولما فرغ متمّم من الصلاة مع أبي بكر أنشد قوله :

نعم القتيلُ إذا الرياحُ تناوحَتْ ... بينَ البيوتِ قتلت يابْنَ الأزْوَرِ

أدعوته بالله ثم قتلته ... لو هو دعاك بذمة لم يَغْدِرِ

لا يضمر الفحشاء تحت ردائه ... حلو شمائله عفيف المئزر

ثم بكى حتى سالت عينه العوراء ، قال أبو بكر ما دعوته ولا قتلته ، وابن الأزور هو ضرار بن الأزور الأسدي ، أمره خالد بقتل مالك فقتله ، وراجع شعر متمّم ، واقرأ كلمة تناوحت مرة ثانية وكيف صَيَّر مُتمّمٌ الرياح تنوح بين بيوت مالك بن الريب وكأنها تنوح مع نسائهم ، ثم اقرأ « لو هو دعاك بذمة لم يغدر » والغضب الذي تحت كلمة « هو » بضم الهاء وسكون الواو وهو هو مالك ، ولا يضمر الفحشاء تحت ردائه كما أضمرت وغدرت ، والحقيقة أن هذا الباب الذي هو باب الرثاء مليء بالمعاني العالية وبالروح الإنسانية ، وتقسيم ابن عبد ربه له من جهة صلة الراثي بالمرثى تقسيم جيد يدعو الباحث إلى أن يستخرج من رثاء الآباء للأبناء شيئًا لا يجده في رثاء الأخوة ، وهكذا تتابع أشعار الرثاء في هذا الباب ، راجع رثاء قتيلة بنت النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة ابن عبد مناف بن عبد الدار ابن عم رسول الله ﷺ وقد أمر رسول الله ﷺ عليًّا بقتله ، وكان شديد العداوة لرسول الله ﷺ ، وأبيات قتيلة في رثائه ملأت الكتب وهي :

يـــا راكبًـــا إن الأثيـــل مَظِنَّـــةٌ	من صـبح خامسـةٍ وأنـت مُوَفَّـقُ
أبلـــغ بـــها مَيْتًـــا بـــأن تحيَّـــة	ما إن تزالُ بـــها النجائـبُ تَخفِـقُ
مـــني إليـــك وعَـــبرَة مَسْـــفُوحَةٌ	جـادت بواكفهـا وأخـرى تَخْنـقُ
هـــل يسمعنـــي النضـــر إن ناديتُـــه	أم كيـف يسـمع مَيِّـتٌ لا ينطـق
أمحمـــد يـــا خـــير ضِـــنء كريـــمةٍ	في قومهـا والفحـلُ فحـلٌ مُعَـرِّقُ
ما كان ضَرَّكَ لـــو مَنَنْـــتَ وربـــما	منّ الفـتى وهـو المغـيظ الـمحنق
فالنضر أقـــرب مـــن أســـرت قرابـــة	وأحقهـم إن كـان عنـق يعتـق
ظلـــت ســـيوف بـــني أبيـــه تنوشـــه	لله أرحـام هنـاك تشـقق
صـــبرًا يُقـــادُ إلى الـــمنيَّه مُتعَبًـــا	رَصـف المقيّـد وهـو عـانٍ موثـق

وسيوف بني أبيه هو سيف علي ، وعلي والنضر جدهما قصي ، ولن أعقب على اللوعة التي في نفس قتيلة ، والتي أنبأت عنها هذه الأبيات ، وراجع نواح قتيلة في قولها (يا راكبًا) وفي هذا النداء معنى كثير جدًا ، وراجع تحيتها التي ما تزال تخفق بها قلوب النجائب وكأنها تبكي لبكاء قتيلة ، ثم راجع الحسرة في قولها «هل يَسَمْعني النضر» وعتابها الشديد لسيدنا رسول الله في قولها : «ما كان ضرّك لو مننت» ثم ركز على الصورة وموقعها في نفس قتيلة ، وذلك في قولها «ظلت سيوف بني أبيه تنوشه» وكأن وجع قتيلة يرجع كثير منه إلى أن قتله كان بسيوف بني أبيه ، وكأنه لو قتله غير أبناء قصي لخف المصاب ، وقتل اليمنى صَعْبٌ وبيد اليمَنَى أصعب ، وقتل السوري صَعْبٌ وبيد السوري أصعب ، وقتل اللِّيبي صَعْبٌ وبيد الليبي أصعب ، ولما أشعل الزعيم الخالد النار بين اليمانيين لينزع الملك من الأمير البدر ، ودارت رحى الحرب بين اليمانيين

كان لا يزال في الناس من لهم عقل وبصيرة ، فوقف زعيم حقيقي يمني بين الفريقين المتصارعين وأنشد قول شاعر قديم :

إذا احتربت يومًا ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

فأسقطوا السيوف من أيديهم ، ولكننا اليوم لا نجد من يقول تذكرت القربى ففاضت دموعها ، وإنما نجد من يضع السلاح في يد فريق ليقتل أكثر ، ويقابله من يضع السلاح في يد فريق آخر ليقتل أكثر ، وكأن هناك مؤامرة على العرب بأن يصفي بعضهم بعضًا لتخلو أرضهم لإسرائيل ، ولا أظن أن هذا بعيد لأن الذين يضعون الأسلحة في أيدي أبناء الأب الواحد ليقتل بعضهم بعضًا ليسوا من المقاطعين لإسرائيل ، ولن أعقب على أبيات قتيلة ، ويكفيك تعقيبًا ما روي من أن رسول الله ﷺ قال: «لو بلغني هذا الشعر قبل قتله ما قتلته» ، وأغلب وأشهر شعر الرثاء هو رثاء الأخوة ، وأشهره رثاء الخنساء لأخيها صخر ، ولما سمع رسول الله ﷺ إنشاد الخنساء لشعرها هذا قال لها هيه يا خناس ، ومن أشهر شعر رثاء الإخوة رثاء كعب الغنوي لأخيه أبي المغوار ، ومنه الأبيات المشهورة :

وداعٍ دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يُجِبْه عند ذاك مُجيبُ

فقلت ادع أخرى وارفع الصوت ثانيا لعلى أبا المغوار منك قريبُ

يُجبْك كما قد كان يَفعَلُ إنه بأمثالها رحب الذراع أريبُ

راجع قوله «فقلت ادع أخرى» وما بعده ، وكأن أبا المغوار لا يزال حيًّا ، وقالوا أعذب الشعر أكذبه ، ولك أن تقول وأكذب الشعر أصدقه لأن الشاعر وإن كذب في الظاهر ، لأن أبا المغوار لن يجيب وهو في قبره ، إلا أن هذا الكذب في اللفظ وراءه صدق في النفس، لأن كعبًا لا يريد أن يقر بأن أبا المغوار مات ، وإنما يرفض هذا الواقع ، هكذا تدعوه نفسه ، وتجد هذا المعنى تنطق به

الفطرة على لسان الأخت أو الأم التي تقول لمن يحملون جنازة ولدها أو أخيها لا تدفنوه ، وكأنهم سيدفنونه وهو حيّ .

ومن المسكوت عنه في باب الرثاء وهو مما لا يجوز أن يجهله أحد رثاء الأشراف ، ومعناه أن كل جيل من أجيالنا كان يعيش فيه رجال منا ، هم من الأشراف والسادة ، والشرف والسيادة لم يكن سلطانًا ولا مالا ، وإنما كانوا رجالاً فيهم من العقل ، والفهم ، والحكمة ، وحب الأوطان ، وحب سكان الأوطان ، ما جعلهم يسكنون في قلوب الناس حيث يسكن الأهل والعشيرة ، وكأنهم صاروا عشيرة لأهل الوطن جميعًا ، لأنهم هم أنفسهم يشعرون أن أهل الوطن عشيرتهم ، وهم في المجتمعات عناصر الخير ، وعناصر الأمن وعناصر الحب ، وعناصر التراحم ، والتواصل ، والتواد ، والتعاطف ، وكما وصفهم عمر ابن عتيبة « كأنما خلقوا لتحسين ما قبَّحت الدنيا » ومن فطرة الناس أنهم يحبون من يحبون أوطانهم ، لأن حب الوطن لا معنى له إلا حب الناس الذين هم أهل الوطن ، ولم يكن في أيدي الأشراف سيف إلا سيف واحد يحمون به الأرض ، التي هي أرضنا ، وفي قلوبهم الحب الغامر الذي يسع البلاد كلها ، وأهل البلاد كلهم ، وكأن الله ﷻ جعلهم أنهار خير تجري في البلاد من أمثال : معن ابن زائدة ، وأحنف بن قيس ، وقيس بن عاصم ، ويزيد بن مزيد ، ومنهم من كان يقربهم الحاكم ليقترب هو بقُرْبهم منه إلى قلوب أهل البلاد ، وكنا ولا زلنا ندعو الله ألا تخلو بلادنا من هؤلاء ، وقد أخبرنا سيدنا أن الخير في أمته إلى يوم القيامة ، وهذا يعني أنهم موجودون .

وفي باب التعازي لُمَحٌ غريبة دالة على أن بعضنا يعيش على الأرض وقلبه هناك في الآخرة فترى بعض هؤلاء يتجاوزون الدعاء للذي يعزونه بالصبر إلى

ذكر ثواب الله وعطائه لمن صبر واحتسب ، وأن الله ـ سبحانه ـ يعطيه بصبره وحمده واحتسابه ثوابًا يزيد على أضعاف المصيبة التي نزلت به ، روى الأصمعي عن صالح المُري أنه عزّى رجلاً فقال له : « إن كانت مصيبتك لم تحدث لك موعظة فمصيبتك بنفسك أعظم من مصيبتك بابنك ، واعلم أن التهنئة على آجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المصيبة » إلى هذا وصل عمق الإحساس بثواب الله لمن صبر واحتسب وحمد ، حتى صارت التهنئة بموت الولد أولى من التعزية ، لأن عمق الألم بفراق الولد مع الصبر والاحتساب يكون أوفر في عطاء الله ، وقد قال رسول الله ﷺ لواحد من أصحابه مات ولده وكان يزور رسول الله ﷺ مع أبيه ، فلما جاء الرجل إلى مجلس رسول الله ﷺ بعد موت ولده قال له سيدنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « أترضى أن يكون منتظرًا لك عند باب الجنة » فسُرِّي عن الرجل ، وموعظة صالح المري قريبة جدًّا من هذه الموعظة من رسول الله ﷺ ، وقد شاع شيء من هذا في الأمة وقالوا : « إن البلايا عطاء وإن المصيبات بعض النعم » ، وجملة « إن لله وإنا إليه راجعون » التي يقولها الذين إذا أصابتهم مصيبة حِصْنٌ لا يُحَصِّنُ النفوس من الهَمّ والغم فحسب ، وإنما ترينا النور في قلب الظلمات ، وتفتح لنا باب النعيم في قلب الملمات ، وهذا حسبي في باب الدرة في النوادب والتعازي والمراثي .

* * *

كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب

بدأ ابن عبد ربه هذا الباب بقوله : « ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في النسب الذي هو سبب التعارف ، وسُلّم التواصل ، به تتعاطف الأرحام ، وعليه تحافظ الأواصر القريبة ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (الحجرات:١٣) فمن لم يَعْرِف النسب لم يعرف الناس ، ومن لم يعرف الناس لم يُعدّ من الناس» .

وكلام العلماء في باطنه أكثر من الذي في ظاهره ، فكل من بينك وبينهم نسب بينك وبينهم تواصل وتعاطف وتراحم ، وبذلك تكونون خليَّة كبيرة في المجتمع متراحمة ومتعاطفة ، ويأخذ كل منكم بيد أخيه ويكشف كَرْبَه ويُعينه في حاجته ، فإذا دخلتم واندمجتم في المجتمع الكبير وهذا لازم وواقع ، كان بينكم وبين الشُّعُوب والقبائل الأخرى تعارف ، وليس المعنى واقفًا عند يعرف بعضكم بعضًا ، وإنما التعارف منه العرف ، والعرف هو المعروف ، ويكون بينكم مع التعارف الذي يعرف به بعضكم بعضًا عرف ومعروف ومحبة وتواصل ، ثم إن العرف من معانيه الطيِّب ، وتكون أنت ومن حولك جليسًا صالحًا كحامل المسك وهكذا تطيب الحياة ، ويكثر فيها الخير ، ويكثر فيها الوُدُّ ، ويكثر فيها التراحم ، والسيوف مغمدة ، إنما تُسل في لحظة واحدة هي حمايتكم وحماية أرضكم وأعراضكم وأموالكم من عدوكم ، والذي يَسُلُّ سيفه على قومه ويغمد سيفه عن عدوه هو فيكم شيطان ، ولو قرأ صحف إبراهيم

وموسى وعيسى ومحمد ـ صلوات الله عليهم جميعًا ـ ثم إن الله ـ سبحانه ـ الذي خلقكم من ذكر وأنثى وجعلكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا منَّ عليكم منًّا أوسع من كل ذلك ، وأبرَّ من كل ذلك ، لما جعلكم في دينه إخوة وألَّف بين قلوبكم ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ (الأنفال:٦٣) ، فكان هذا التآلف والتراحم والتواصل بين أهل الشهادتين عطاء من الله ولن يكون إلا منه ، وهو من المعجزات في تاريخ الأديان كلها ، لأن الله ـ سبحانه ـ لم يذكر أنه ألَّف بين أتباع أي نبى كما ألف بين أتباع رسول الله ﷺ ، ولم يكن كل ذلك إلا لأمر واحد هو أن الحياة تَسْتقيم وتحلُو وتَطيبُ بالعرف والمعروف والتراحم ، وليس بالسيف ولا بالقهر ولا بالغطرسة ، والتاريخ يحكي لنا وهو الصادق الذي لا يكذب أن الشعوب التي يُسَلّ لها السيف لم تتقدم لا في صناعة ، ولا في علم ، ولا في أي شأن من شئون الحياة ، لأنه لم يظهر فيها العلماء المتميزون الذين هم رُوَّاد التقدم ، ورُوَّادُ الصناعة ، ورواد كل ما تَحرِزُ به البلاد خطوة إلى الأمام ، لأن السيف الذي فوق الرؤوس يقتل النبوغ ، وحدثنا عن عبقرية واحدة بزغت وبرزت وتجلَّت في زمن السيف المسلول عليها ، نعم روى لنا التاريخ شيئًا آخر وهو قولهم « سَلُّوا صَارِمًا وتلَوْا بَاطِلاً ، وقالوا صدقنا فقلنا نعم » ، وهل تنتظر نبوغًا من الذين قالوا للباطل نعم ؟

ومن المهم جدًّا قول ابن عبد ربه : « من لم يعرف النسب لم يعرف الناس ومن لم يعرف الناس لم يُعدّ من الناس » ومعنى قوله « من لم يعرف النسب لم يعرف الناس » أن النسب هو الذي يتميز به الناس ، وأنك فلان ابن فلان ، وليس في الأحياء من يقال له ابن فلان إلا الإنسان ، وقد أحاط الإسلام هذه الأنساب بكل وسائل الحياطة فشرع الحدود لكل ما يمسّ هذه الأنساب ، ولهذا كانت

الأنساب تعريفًا خاصًّا بالإنسان ، وأن من جهلها جهل الناس ، ووراء ذلك معنى آخر ، وهو أنني إذا تجاهلت أرْحَامِي وعشْتُ بعيدًا عنهم وهم ناسي كأنني لم أعد منهم ، وهذا هو ما صَرَّحَتْ به الجملة الثانية « ومن لم يعرف الناس لم يُعَدّ من الناس » وكأنك معدود من الناس بمقدار تقاربك وتواصلك وتراحمك مع من حولك ، فإذا عزلت نفسك عن من حولك فلا تُعدُّ منهم ، وتعجب من ابن عبد ربه حين يُفَرِّعُ هذا عن معرفة الأنساب وأن نسبك هو ذات إنسانيتك ، فإن تجاهلته فلا يجوز أن تُعَد من هذه الجماعة الإنسانية التي جعلها الله شعوبًا وقبائل لتتعارف ، ومن لم يتعارف بها وفيها فليس منها ، وبدأ ابن عبد ربه بعد هذه المقدمة يتحدث عن أصل النسب يعني جذره الأقدم ، ولم أعرف أن أحدًا تحدث عن أصل النسب في الزمن الذي كان بين أبوينا آدم ونوح عليهما السلام ، وكل من كانوا في زمن نوح ولم يؤمنوا أهلكهم الله وأغرقهم وقال له ربنا : ﴿ ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾ (هود: ٤٠) يعني من كل حي غير الإنسان ذكرًا وأنثى ، ومن الإنسان أهلك لأنه لم ينج من الغرق في السفينة من الناس إلا ذرية نوح عليه السلام ، ولهذا يبدأ الحديث في تاريخ الناس من أولاد نوح الثلاثة ، وأنهم هم الذين بقوا خلائف في الأرض ، وهم سام ، وحام ، ويافث ، وولد سام العرب والفرس والروم ، وولد حام السودان والبربر والنبط ، وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج ، ولما ولد نوح ثلاثة ولد كل واحد من أولاده ثلاثة ، وقد يجد العرب بينهم واحدًا من أبناء عمهم الفرس ، وقد يجد السودانيون بينهم واحد من أبناء عمهم البربر ، وقد يجد الترك بينهم واحدًا من أبناء عمهم الصقالبة ، ولكن لم يجد أحد بينهم واحدًا من أبناء عمهم يأجوج ومأجوج ، وقالوا إنهم وراء الرَّدْم الذي بناه الإسكندر وأن عددهم أكثر من عدد غيرهم ، وأنهم لم يستطيعوا أن يَظْهُروا الرَّدْمَ ولم يستطيعوا له نقبًا ، وهذا هو

الذي في الكتب ، والله أعلم بالحقائق ، والمهم أن ابن عبد ربه لم يشغل في ذلك أكثر من ثلاثة سطور ، ثم بدأ في ذكر قريش ، ثم القبائل كلها عدنانية ويمانية ، ولم يوسع الكلام في ذكر أي قبيلة كما وسّعه في ذكر قريش ، وجد قريش هو النضر بن كنانة ، وكل من ولده النضر فهو قرشي ، وكان أولاد النضر مُفرقين في كنانة الذي هو جدهم ، فجمعهم قصيّ وسماهم قريشًا من التقرش وهو التجمع ، فليس قريش جدًا ولكنه وصف وسمّي قصيّ مجمعًا لهذا ، وذكر ابن عبد ربه أن كلمة قريش اقتصرت على من ولدهم فهر بن مالك بن النضر ، وكل من كانوا قبل فهر ليسوا من قريش ، وكل ولد فهر ومن ولدوا إلى اليوم هم قريش ، وكأن بين قصيّ وجده فهر خمسة آباء وهم كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي بن غالب بن فهر ، وهذا يعني أن قصيًا تتبع كل من ولده هؤلاء الآباء الخمسة ، ولم يكونوا في مكان واحد ، ولم يكن قصي يعلم أن منهم ومن ولده رسول الله ﷺ ، وإنما هو الحرص على الأنساب والأرحام ، وتعجب أن قصيًا جمعهم وأسكنهم في البلد الحرام ، وقصي هو الذي بنى المشعر الحرام وكان يقوم عليه في الحج ، وسماه الله مشعرًا وأمر بالوقوف عنده ، وإذا أراد الله شيئًا هيأ له أسبابه ، ثم إن الذي بين رسول الله ﷺ وجده قصي هم عبد الله ، وعبد المطلب ، وهاشم ، وعبد مناف ، وقصي ، وكانت قريش تسمى آل الله ، وجيران الله وسكان حرم الله ، وفي ذلك يقول عبد المطلب بن هاشم جد سيدنا رسول الله ﷺ :

نحن آلُ اللهِ في ذمَّته ... لم نَزَلْ فيها على عهد قدُم

إن للبيت لربًّا مانعًا ... من يرد فيه بإثم يُخترم

لم تزل لله فينا حرمة ... يدفع الله بها عنا النقم

وأكرر أن هذا ما في الكتب والله أعلم ، وقوله من يرد فيه بإثم يخترم من قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ (الحج:٢٥) . وقوله يدفع الله به عنا النقم من كلام أهل الإسلام .

وقد انتهى الشرف في قريش إلى عشرة في الجاهلية كانوا بطون قريش وهم : هاشم بن عبد مناف، وأمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ونوفل، وعبد المطلب، وعبد الدار ، وهم جميعًا من ولد قصيّ ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وجُمَح ، وسهم ، وقد تقاسموا خدمة البيت ورعاية حُجَّاجه وعُمّارِه ، فمنهم من كانت له السقاية ، ومنهم من كانت له الرفادة ، وهي رعاية من انقطع من الحَجِيج إلى آخره ، ثم ذكر فضل قريش وهو فصاحتها ورجاحة عقولها وشجاعتها وسخاؤها ، وأن لُغَتهم سَهُلَتْ عليهم كما سهلت عليهم أنفاسهم فابتذلوا أموالهم ، وصانوا أعراضهم ، وأن السيوف كانت تكره مذاقة لحومهم ، وأنهم كانوا من العرب كالجؤجئ أي الصدر من الطائر ، وأن العرب كانوا لها كجناحي الطائر ، ومن أبرز ما ذكره ابن عبد ربه في فضل العرب قول ابن المقفع : يجود أحدهم بقوته ، ويتفضّل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قُدْوةً ، ويفعله فيصير حُجَّة ، ويُحسّن ما شاء فيحْسُنُ ، ويُقَبِّح ما شاء فيقبح .

العلم بالأنساب

والعلم بالأنساب باب واسع جدًا ، وتعجب لعالم الأنساب وكأنه في كل قبيلة واحدًا منها يعلم خيرها ، وشرها ، وكرامها ، وكبارها ، وما هي حاجتهم التي دعتهم للاحتفاظ بأنسابهم ، وأحسابهم ، وأعمال كرامهم ، وكأنهم بحفظهم لها يصونون أكرم ما في حياتهم لِيُوَرِّثُوه لأجيالهم ، ولن أُحَدّثك في ذلك ، ولكنني

سأنقل لك نصًّا رواه ابن عباس عن علي ـ كرم الله وجهه ـ ولن أعتذر لك عن طوله لأنك سترى منه أنني لو اختصرته لضاع منه بهذا الاختصار خير كثير.
قال سيدنا علي: «لما أمر رسول الله ﷺ أن يعرض نفسه على القبائل، خرج مَرَّةً وأَنَا مَعَه وأبو بكر حتى رفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر فسَلَّم، قال علي وكان أبو بكر مُقَدَّمًا في كل خير، وكان رجلاً نَسَّابة فقال مِمَّن القوم؟ قالوا من ربيعة. قال وأي ربيعة أنتم؟ أمن هَامَّاتها؟ قالوا من هاماتها العظمى، قال وأي هاماتها العظمى أنتم؟ قالوا ذهل الأكبر، قال أبو بكر فمنكم عوف بن مُحَلِّم الذي يقال فيه لا حُرَّ بوادي عوف؟ قالوا لا، قال فمنكم جسَّاس بن مرة، الحامي الذمار والمانع الجار؟ قالوا لا، قال فمنكم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا لا، قال فمنكم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا لا، قال أبو بكر فلستم ذهلا الأكبر أنتم ذهل الأصغر، فقام إليه غلام من شيبان حين بَقَل وجهه أي ظهر شعر وجهه يقال له دَغْفَل. فقال:

إنَّا على سائلنا أنْ نَسأله والعِبءُ لا تعرفُه أو تحملَه

يا هذا إنك قد سألتنا فأخبرناك ولم نكتمك شيئًا فمِمَّن الرجل؟ قال أبو بكر: من قريش، قال بخ أهل الشرف والرياسة. فمِنْ أي قريش أنت؟ قال من ولد تيم بن مرة، قال أمكنت والله الرامي من سواء الثغرة، أفمنكم قصيّ بن كلاب الذي جمّع القبائل فسُمّيَ مجمعًا؟ قال لا، قال أفمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مُسْنِتونَ عِجَافُ؟ قال لا، قال أفمنكم شيبة الحمد عبد المطلب مطعم طير السماء وجهه كالقمر في الليلة الظلماء؟ قال لا، قال فمن أهل الإفاضة بالناس أنت؟ قال لا، قال فمن أهل السقاية أنت؟ قال لا، فاجتذب أبو بكر زمام ناقته ورجع إلى رسول الله ﷺ. فقال الغلام:

صَادَفَ دُرُّ السيل دُرًّا يدفعه ـ يهيضه حينًا وحينًا يصدعه

قال : فتبسم النبي ﷺ ، قال علي : فقلت له : وقعت يا أبا بكر من الأعرابي على باتقة ، قال أجل ما من طامة إلا وفوقها أخرى والبلاء موكل بالمنطق والحديث ذو شجون» انتهى ما رواه ابن عباس . وعليك أن تراجع سعة ودقة علم أبي بكر بالأنساب والرجال والمناقب ، وسعة علم الغلام الذي بدأ شعر لحيته يظهر ، يعني هو في سن طلاب الثانوية العامة ، ولم يعرف مدرسة ولا معلمًا ولا كتابًا ، وإنما هي مناقب تروى ويعيشها الناس ، ونفوس شابة تبحث عنها ، وتحفظها وترويها ، وتتشربها وتعيش بها وتعيش فيها ، وأسأل عن مجتمع يحفظ أسماء الكرام ومناقبهم ، ويعيش وهو مولع بالمحامد والفضائل والمناقب ، وتذكر أنه جيل أعده الله ليكون أول جيل من أجيال هذه الأمة ، وإن كنت أستدرك على الغلام سؤالين سألهما لأبي بكر ، هما قوله أفمنكم هاشم وأفمنكم شيبة الحمد لأن هذين من ولد قصي ، وقد سأل أبا بكر أفمنكم قصي قال لا ، وهذا يعني أنه ليس منهم هاشم ولا شيبة الحمد ، ولماذا لم يقل له أبو بكر لا معنى لهذين السؤالين؟ وأدع هذا وأقول إن هذا الغلام كان بعد ذلك من كبار علماء الأنساب ، ورويت عنه أخبار كثيرة في هذا الباب ، وكان كف بصره ، وسأكتفي برواية خبر واحد منها . قالوا : «سلم عليه جماعة من الأنصار فقال ممن القوم ؟ قالوا : سادة اليمن ، فقال أفمن أهل مجدها القديم وشرفها العميم كندة ؟ قالوا لا ، قال أفأنتم الطول قصبًا المخصوص نسبًا بنو عبد المدان ؟ قالوا لا ، قال أفأنتم أقودها للزحوف ، وأخرقها للصفوف وأضربها بالسيوف رهط عمرو بن معديكرب ؟ قالوا لا ، قال أفأنتم أحضرها قرى وأطيبها فناء وأشدها لقاء رهط حاتم بن عبد الله ؟ قالوا لا ، قال فأنتم

الفارسون للخيل، والطاعنون في الحلق، والقائلون بالجلاد الأنصار؟ قالوا نعم» انتهى الخبر.

وتلاحظ أن فروسية عمرو بن معديكرب أنتجت في قومه كتيبة من الفرسان وأن سخاء حاتم بن عبد الله أنشأ في قومه جماعة من الأسخياء، وكأن كل واحد من هؤلاء الكرام صنع في قومه الكثير على مثاله، وكأنهم مدارس لا تعلم هذه المناقب، وإنما تنتج رجالاً تنتقل إليهم هذه المناقب، وكأن الجيل يلتفت دائمًا إلى الذي عليه الذين سبقوه، وأنهم لا يعلمونه ما يشرف به وإنما يرى الجيل ما شرفوا به فيمضي على دربهم الذي مضوا عليه، وهكذا كانت الأفعال وكان السلوك هو الذي يربي الأجيال، ولا شك أن المجتمع الذي فيه جماعة مثلها الأعلى عمرو بن معديكرب، وشجاعته، وفضيلة مثلها الأعلى حاتم الطائي وسخاؤه، وفضيلة مثلها الأعلى قيس بن عاصم وحلمه، لا يكون مجتمعًا متخلفًا ولا مقهورًا ولن تجد فيه جائعًا ولا أحمق.

وتتبع ابن عبد ربه الكلام في القبائل وبطونها وأشهر رجالها ومناقبهم، وبدأ بمضر وبطونها وجماهيرها ثم بربيعة ثم باليمن، وكان هذا الباب خاليًا من التعريض أو انتقاص أحد، وإنما هو فقط ذكر مناقب الرجال وكل قبيلة فيها ما يلحقها من هؤلاء الرجال.

والكلام على فضل العرب لا يعني أبدًا أي إشارة إلى نقص غيرهم، وإنما يعني القصد إلى إشاعة مناقبهم ليتحلى من يشاء بهذه المناقب، وهكذا يقال في ذكر مناقب القبائل، ولم أعرف عاقلاً يفضل نفسه أو قومه على غيرهم بحسب أو نسب أو عرق أو وجود رجال ذوي مناقب في قومه، بل الذي أعرفه أن صاحب المناقب المذكورة والمشهورة سواء كان ذلك في الشجاعة أو في



السخاء لا يرى أن هذا الذي وصف به وتقدم فيه كحاتم مثلاً لا يرى في ذلك فضلاً له على غيره ، وإنما هي طباع جُبِلَتْ على الخير وحب الخير وصار ذلك من فطرتها ، وأرى أن الكلام في الشعوبية ، وأن يفخر العربي بعروبته ، والفارسي بفارسيته ، أرى أن ذلك لم يوجد في المجتمع إلا من الضعاف ، وخصوصًا أن الله الذي نعبُدُه ونرجو رحمته قال لنا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأبعد العرق والحسب والنسب ، وصار المعول عليه هو العمل الصالح وفعل الخيرات وترك المنكرات ، وقال لنا سيدنا ﷺ : « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» وحفظنا في طفولتنا لما حفظنا قصار السور ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة:٧-٨) نعم اعرف نسبك لِتَصل رحمك ولا تتعدى هذه الحدود ، لا بأس أن يظل الكردي ذاكرًا أنه كردي، وأن يظل الأمازيغي ذاكرًا أنه أمازيغي، ولكن قبل هذا يعلم أن المسلم أخو المسلم ، وأن الأخوة في الدين أقوى من الأخوة في النسب ، وأنه إن كان في أقصى جنوب الأرض فهو أخو المسلم في أقصى شمالها وهو لا يعرف اسمه ولا جنسه ، وأنه معه كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء .

قلت إنني أكره الكلام في الشعوبية ، ومع ذلك سأذكر شيئًا مما قاله ابن عبد ربه فيها ، فقد ذكر عنوانًا هو « القول في الشعوبية وَهُمْ أَهْلُ التَّسْوِية» ولم أعرف وجهًا يكون الكلام في الشعوبية من أهل التسوية ، لأنه ذكر أن أهل التسوية يزعمون أن العرب يُفَضِّلُون أنفسهم على العجم ، ولو صلى الأعجمي حتى إنه لا ينام ، وصام حتى إنه لم يفطر ، وأنا لم أقرأ كلامًا كهذا ، ولو صادفني لا أَلْتَفِتُ إليه ولا أناقِشُه ، لأن من يقول كلامًا يناقض الظاهر الشائع

مـن كـلام الله لا يلتفـت إليـه ، والله يقـول : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣) ، وقد وسَّع القوم الكلام في تنقص العرب وكأنهم رجعوا بنا إلى الجاهلية ، والذي كان يقوله كسرى لما ردَّ عليه النعمان بن المنذر لأنهم كـرروا مقالة كسرى وقالوا كل الأمم فيها ممالك إلا أنتم فليس فيكم ملك ، وكل الأمم لها مدائن إلا أنتم فليس فيكم مدن ، وكل الأمم لها قوانين إلا أنـتم فلـيس لكـم قانون ، وكل الأمم لها فلسفات تهذِّبُ أجيالهـا إلا أنـتم ، ثـم يـذكرون حـروب العرب وسَبْي النساء ، ثم إنكم إن كنتم ترون النبوات أساس التفاضل فكل أنبياء الله منا نحن العجم ، وليس منكم إلا هود وصـالح وإسماعيـل ومحمـد ، وزادوا في التفاهة وقالوا آدم ليس عربيًّا ، وهب أن هذا مما يقوله الحمقى والممرورين ، فليس لأهل العلم أن يكتبوه في كتبهم .

ثم انتقل ابن عبد ربه إلى باب آخر وهو :

كلام العرب

وهو امتداد لفضل العرب في الفصاحة والبيان ، لأن الكلام في كلام العرب ليس فيه إلا هذا ، وإنما جِذْر فصاحة العرب وجذر بيانهم العالي هم الأعراب ، وابن عبد ربه يميز كلام الأعراب عن كلام العرب ، وفصاحة الأعراب عن فصاحة العرب ، ثم لم يتكلَّم كلمة واحدة تبين كيف تميز كلام الأعراب عن كلام العرب ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة الكلام في كلام العرب : «ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في كلام الأعراب خاصة ، إذ كان أشْرَفَ الكلام حَسَبًا وأكثره رَوْنَـقًا ، وأحسنه ديباجة ، وأقله كُلفةً ، وأوضحه طريقة ، وإن كان مدار الكلام كله عليه ومُنْتَسبه إليه» وهذا ظاهر ظهورًا لا يلتبس في أن كلام الأعراب متميز عن كلام العرب ، وأن ابن عبد ربه قصد إلى كلامهم خاصة ، وكأن في كلام الأعراب

خصوصية يقصد إليه من أجلها ، وأن هذه الخصوصية هي أنه أكثر الكلام رونقًا، وأحسنه ديباجة، يعني هو مشترك مع كلام العرب في الرونق والديباجة، وإن كان كلام الأعراب أوفى حظًّا فيهما من كلام العرب ، وكلمة (أقله كُلْفَةً) أفهم منها أنه على ألسنتهم كما هو في فطرتهم ، تجري به الفطرة بلا كُلْفة فتجري به الألسنة بلا كلفة ، فلا يتريَّثُ العربي ليختار لفظًا أو معنًى ، وإنما يجد ذلك في صدره فينطق لسانه بالذي في صدره ، ووضوح الطريقة تابع لقلة الكُلْفة ، لأن كل ما تُحدثه في الكلام من مراجعة في اختيار الكلمات ومواقع الكلمات ، والتشبيه والمجاز كل ذلك يحتاج في استخراج المعنى منه إلى مراجعة ، فإذا كان الكلام لا كلفة فيه كان أبْيَن بيانًا ، وأوضح طريقة ، وجملة « وأن مدار الكلام كله عليه ومنتسبه إليه» قاطعة في أن كلام العرب أصله كلام الأعراب ، وأن العرب تعلَّموا من الأعراب ، وأنه إذا كان نسب العرب يرجع إلى الأعراب فإن نسب كلامهم كنسبهم يرجع هو أيضًا إلى الأعراب ، وهذا ما قاله عمر رضي الله عنه في وَصِيّته بالأعراب لما قال هم أصل العرب ، والغائب عنا هو في أي زمان وجد الأعراب ولم يوجد العرب ؟ وفي أي أرض كان ذلك ؟ وما دام العرب نسلاً من الأعراب فمتى كان هذا النسل ؟ وفي أي أرض كان ؟ هل يمكن أن يقال إن سيدنا هود عليه السلام الذي أنذر قومه بالأحقاف لما قال لقومه : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ (الأعراف: ٦٩) أن يكون الأعراب هم النسل الأول لنوح عليه السلام وقومه ، وأنهم كانوا بالأحقاف التي هي أرض يمانية ، وأن يكون الأعراب وجدوا قبل إسماعيل عليه السلام ؟ وأن أرضهم الأولى كانت اليمن ، ذكر المؤرخون العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة ، فهل يمكن أن يقال إن الأعراب هم العرب العاربة ، وأن العرب المستعربة هم أبناء إسماعيل عليه السلام ؟ وأن أباه إبراهيم عليه السلام كان في

العراق، وفي كنعان، فلما أرادوا أن يحرقوه نجاه الله إلى الأرض المباركة التي هي فلسطين؟ وإن كان يعكِّر على ذلك ما ذكره البعض من أن آباء إبراهيم عليه السلام هاجروا من جزيرة العرب قبل زمان آزر بمائة سنة، وأن إبراهيم عليه السلام لما أسكن ولده إسماعيل مكة كان رجع بولده إلى أرض آبائه، ولم يسكن إسماعيل وأمه هاجر في مصر التي هي أرض أمه هاجر؟ كل ذلك غائب عنا مع غيبة التاريخ القديم، والذي ليس غائبًا عنا وإنما نحن الذين غيبناه هو ما تميز به كلام الأعراب، وأنه أشرف الكلام وأكثره ماءً ورونقًا، وأحسنه ديباجة، وأنه جذر فصاحة العرب وبلاغتها، وأن بلاغته متميزة عن بلاغة العرب، حتى كاد يكون كلامًا آخر، كما قالوا: ما لسان حِمْيَر بلساننا ولا بلاغتهم ببلاغتنا، مع أن لسان حمير أعرابي مبين؟ لا شك أن ابن عبد ربه وغير ابن عبد ربه لما وضعوا بين أيدينا كلام الأعراب، وقالوا لنا إنه جذر بلاغة العرب، وأنه متميز عن بلاغة العرب وأعلى من بلاغة العرب، كانوا كأنهم يقولون لنا: وصلنا نحن إلى ما قلناه لكم، وعليكم أنتم أن تنقطعوا للبحث عن الذي تميز به كلام الأعراب عن كلام العرب، وأن تستخرجوه، وها هو بين أيديكم وليس عليكم إلا طول النظر، وطول التدبر، وطول المراجعة حتى تضعوا أيديكم عليه، وإذا قيل لك: إنما هذا الشيء الذي في يدك فيه كذا وكذا وعليك أن تضع يدك عليه، وأن هذا هو الذي يجب أن تُقَدِّمه لقومك، ثم قَعَدْتَ عن ذلك فأنت الذي قَعَدْتَ، ولا شك أن استخراج ما يتميز به كلام عن كلام صعب جدًّا، ودقيق جدًّا، ولكنه ممكن وواجب، وقد ألفنا البعد عن هذا، وقلنا إن للشعر الجاهلي طبقات، وللشعر الإسلامي طبقات، وأن الطبقة الأولى من الشعر الجاهلي هم فلان وفلان، ثم لم نستخرج الشيء الذي تميزت به طبقة عن طبقة، ولو استخرجنا لهان علينا أن نستخرج الشيء الذي تميز به

شعر امرئ القيس ، حتى قيل إنه قُدْوةُ الشعراء ، وليست المسألة أنه أول من شبه كذا بكذا ، وإن كان هذا فتحًا للباب لأنك لو حَذَفْتَ ما قيل إنه تميز به في التشبيه لبقي شعره متميزًا ، وكذا يقال في الذي تميز به شعر النابغة عن شعر زهير ، وأقول الذي تميز ولا أقول الذي به علا وجاد ، وأكتفي بهذا « وفي الزجاجة باق يطلب الباقي » .

وترتيب ذكر المعاني والأحداث لا يأتي في كلام الكرام عفوًا ، وإنما وراءه ما وراءه ، لأن ابن عبد ربه بعد ما ذكر تميز كلام الأعراب وتفوقه ذكر مقالة رجل من منقر قال : « تكلم خالد بنِ صفوان بكلام في صلح لم يَسَمع الناسُ كلامًا قبله مثله ، وإذا أعرابي في بَتٍّ ما في رجليه حذاء « والبت كساء غليظ » فأجابه بكلام وَدِدْتُ أنني مِتُّ قبل أن أسْمَعه ، فلما رأى خالد ما نزل بي قال لي ويحك كيف نجاريهم وإنما نَحْكيهم ، أم كيف نسابقهم ، وإنما نجري بما سبق إلينا من أعراقهم » انتهى الكلام ، ولا شك أن ابن عبد ربه يذكر لنا هذا بعد الكلام الذي تقدم ليقول لنا إن ما قلته من أن بلاغة العرب أصلها بلاغة الأعراب ، وأن العرب وَرِثُوا البلاغة عن الأعراب وها هو خالد بن صفوان وهو من كبار رجال البلاغة في عصره يقول لك ما قلته من أننا لا نجاريهم ، وإنما نحكيهم ولا نسابقهم ، وإنما نجري بالذي سبق إلينا من أعراقهم ، وفي هذه الواقعة تجد هيأة الأعرابي المميزة له ، وأنه عليه ثياب غليظة وليس في رجليه حذاء ، ومع هذا الذي هو فيه من فقر وحاجة يخرج من بين جنبيه كلام لم يسمع الناس مثله ، وهذا من أعجب العجب ، وكأن الفقر المُدقع الذي حرمه من أن يكون في رجليه حذاء لم يتسرب منه شيء إلى الذي بين جنبيه من إلهام وبيان وقوة عقل ، وقوة حجة ، ثم هو لا يتكلم في موضوع رأى أن يتكلم فيه ، وإنما يجيب ويرد على خالد بن صفوان ويتفوق عليه تفوقًا نفذ إلى قلب المنقري ،

فتمنى أن يموت قبل أن يرى هذا الرجل الحافي القدمين يصرع بيانُه بيان خالد ابن صفوان ، وكأنه صرع خالدًا نفسه ، وكان خالد أعلم وأحكم من المِنقري ، وقال له هؤلاء في عليين من البلاغة ، ولم يدر بخلد من يعرفهم ويعرفنا ويعرف بلاغتهم ويعرف بلاغتنا أننا نجاريهم ، وإنما قصارى الذي عندنا هو أن نحكيهم ، فضلاً عن أن نسابقهم لأننا لا نجزي من هذا البيان إلا بالذي ورثناه من أعراقهم ، ويا ليت المِنْقَري يدل توجعه أن يكون نقل إلينا كلام خالد ابن صفوان ، وكلام الأعرابي ، لأن هذا الفرق الكبير كان يعيننا على أن نقول شيئًا أي شيء في الذي تميز به كلام الأعراب .

ربيعة الرأي والأعرابي

ثم ذكر ابن عبد ربه : «أن ربيعة الرأي تكلم في العلم فأكثر فكأن العجب داخله ، فالتفت إلى أعرابي إلى جنبه ، فقال له ما تعدون البلاغة يا أعرابي ؟ قال قِلَّةُ الكلام وإيجازُ الصواب ، قال فما تعدون العيّ ؟ قال ما كنت فيه منذ اليوم . فكأنما ألقمه حجرًا» لاحظ أن ابن عبد ربه في حكاية خالد بن صفوان أكد لك تفوق بلاغة الأعراب ، وأنهم الأصل في البلاغة ، وفي حكاية ربيعة الرأي يؤكد لك شيئًا آخر تَابِعًا للشيء الأول ، وهو أنهم الأصل في نقد الكلام وتخيّره وتمييز فاضله وأفضله ، وأن الأعراب أصل البيان وأصل علم فضل بعض البيان على بعض ، ولو أن ربيعة الرأي الذي أوشك أن يداخله العجب لما أطال الكلام في العلم وأفاد ، لم يناقش الأعرابي ولم يراجعه لما هدم الأعرابي ما كان ربيعة يعتز به ، وعدّ ذلك الذي أوشك أن يختال به ربيعة عيًّا ، ولو كان يعلم أنه يجد من الناس من يوافقه على نقض هدم الأعرابي لِمَا يَرَى نَفْسَهُ أصاب فيه لتكلم ، وإنما سكت وكأن الأعرابي ألقمه حجرًا ، وهذه هي الكلمة

المعبرة عما أراده ابن عبد ربه ، لأن الذي ألقم العجز هو من يتهم ، ولكنه يمتنع ممن لا يريد له في هذا المطلب قولا ، وبذلك أكد ابن عبد ربه الأمرين المتلازمين وهما الأصل في صناعة البيان والأصل في نقدها وتقديرها ولم أعرف أحدًا منهم الآن على أرضنا حتى أرض أبناء المهاجرين والأنصار ، والسؤال هو متى انقطعوا ؟ ولماذا انقطعوا ؟ ومتى كانوا سادة البيان وسادة نقده وتمييزه بفطرتهم وليس بتعليم ولا بتدخل من أي نظام سياسي ؟ ربما كانت عزلتهم القديمة من أهم بقاء قدراتهم البيانية ، ثم إنها لم تعد بسبب امتداد العمران لبوادينا وحواضرنا ، فاختلطوا بغيرهم ففسد الذي هم فيه ، كما اختلط العرب فضاع منهم النطق الصحيح للعربية ، ولاحظ أن الذين سبقونا جميعًا قالوا لنا إن كلام الأعراب الذي نضعه بين أيديكم فيه ما يفضل به بيان العرب الذين أنتم منهم ، وأن عليكم أن تستخرجوه وإن كان صعبًا ، أقول كان هذا منهم لأنهم لم يقبلوا أن يكون من أجيالهم من يعيشون عالة على الذي قالوه ، وإنما يوجبون على أجيالهم أن تَعْمل كما عملوا ، وأن تَسْتَخْرِجَ كما استخرجوا ، وأنه من سوء فهمهم لحركة التاريخ أن يقولوا إن الذين سبقونا لم يفعلوا كذا ولا كذا ، وكأن الذين سبقوهم عليهم أن يفعلوا لهم ما يحتاجون ، وليس عليهم إلا أن يناموا أو يتكلموا بالذي تكلم به من قبلهم ، أما أن يجتهدوا ويعملوا ويتكلموا بالذي استخرجوه ، فإنهم يرون أنفسهم أقل من ذلك ، ولن تُفلح بلاد هؤلاء أجيالها ، ولم أقرأ في تراثنا أن جيلاً قال عن الجيل الذي قبله إنه لم يفعل كذا ، وإنما الكل عمل ما يحتاج إليه زمانه ، وإنما كان هذا في زمن الاستعمار وبعده ، وذلك لتقول إن عندنا فراغات فكرية ونحن في حاجة إليها ، ولا بأس علينا من أن نأخذها من غيرنا ، وبذلك نكون قد صنعنا بأنفسنا مشروعية الغزو الفكري

الذي عاش يطاوله كبار الكتاب، قلت: إن الاختلاط لما أدخل اللحن في اللغة قام النحاة الكرام ووضعوا له العلاج، وهو علم النحو الذي احتفظ بسليقة العرب الأولى، ولكن ما اختلاط الأعراب الذي أفسد بيانهم لم يجد من يضع علاجًا لتمييزهم البياني والنقدي؛ لأن هذا صعب وأصعب من النحو؛ لأن خصوصية الأسلوب بالغة الدقة، وبالغة الغموض، حتى إنك لو سألت العقاد مثلاً عن الذي يتميز به أسلوبه لا يجد لك جوابًا، ومع ذلك علينا أن نحاول وما لا يدرك كله لا يترك كله، فليعمل كلٌّ منا ما يتسع له إدراكه، ولو انتظرنا حتى ندرك الكل فلن نتكلم، ولو استقبلت من حياتي ما استدبرته لجعلتها كلها في الذي يتميز به كلام كبار شعرائنا وفصحائنا؛ لأنه كما يتميز شعر طرفة عن شعر النابغة، كذلك يتميز كلام أبي بكر عن كلام عليّ، وهكذا، وهذا واقع كأنه ينادينا أن نبرزه، ولكننا لم نحفل به

ثم إن ابن عبد ربه لم يزد في هذا الباب على أن ذكر نصوصًا من كلام الأعراب وكلام العرب في أبواب المعاني مثل الدعاء والوقائع أي المصائب والنوازل، والاستطعام أي طلب الصدقة، والمواعظ والزهد، حتى وصل إلى كلامهم في التَّلَصُّص، ولم يشرح قولاً ولم يبين خصوصية، ولم يشر إلى شيء من التمييز، وإنما ترك ذلك لمن يأتي بعده، فحسبه أنه وضع بين يديك الكلامين وقال لك: هذا أكرم وأكثر ماء، ورونقًا، وأحسن ديباجة، ثم إن هذا أصل ذاك، وما عليك إلا أن تنظر وتتروَّى وتدقق وتُبيِّن بعد أن تَتَبيَّن.

أعرابية وابن أبي بكر

قال الأصمعي: «وقفت أعرابية من هوازن على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنهما وعنها أيضًا - فقالت: إني أتيت من أرض

شاسعة تهبطني هابطةٌ وترفعني رافعة ، في بَوادٍ بَرَيْنَ لَحْمِي ، وهِضْـنَ عَظْمـي ، وتركتني والهة قد ضاق بي البلد بعد الأهل والولد وكثـرة مـن العـدد ، لا قرابـة تُؤويني ولا عشيرة تحميني ، فسألت أحياء العرب من المرتجَيَ سَيْبُه ، المأمون غيبه ، الكثير نائله ، المكفي سائله ، فَدُلِلْتُ عليك ، وأنا امرأة من هوازن فقـدت الولد والوالد فاصنع في أمري واحدة من ثلاث : إما أن تُحسِنَ صفدي ، وإما أن تقيم أوَدِي ، وإما أن تَرُدَّنِي إلى بلدي ، قال : بل أجمعهن لك ، ففعل بها ذلك أجمع » انتهى ما ذكره الأصمعي ، وأترك كرم عبد الرحمن وأنه فعل بهـا ذلـك أجمع ، لأن هذا هو المتوقع من ابن أبي بكر ثم لا تَسْتَقِلَّ ما أقولـه ، لأنـني لم أتفرغ للذي أريد أن أقوله ، وإنما أقول ما يتبادر إلى عقلي من القراءة السريعة ، وراجع صقل بناء الكلام وتوافق سجعه ، وتـداخل جناسـه في تهـبطني هابطـة ، وترفعني رافعـة ، وأنها هيأت لذلك بقولهـا قبله أَتَيْتُ من أرض شاسعة ، وأنهـا لا تعرف هذه الأرض وإنما تعرف أن هابطة نكرة لا تعرفهـا هَبَطَـتْ بهـا ، وأن رافعة نكرة لا تعرفها رفعتها ، وقدمت هابطة على رافعة لأن الرافعة تكـون بعـد الهابطة ، ثم ذكرت البوادي نكرة أيضًا وأنها تَقْطع أرضًا مجهولـة ، ولـيس هـذا فحسب وإنما قطعتها وقد بلغ بها الحال ما بلغ ، وأن هذه البوادي الـتي لا عهـد لها بها بَرَيْنَ لَحْمها وهِضْن عظامها ، وإنما يكون برْيُ اللحم أولا ، ثم إن هـذه البوادي تركتها والهة ، ثم ذكرت وهي في هذا الضيق البالغ الـذي بَـرَى لحمهـا وتنقَّص عظامها الأهلَ الذين ذهبوا ، والولد الذي ذهب ، والعشيرة وكثرة العـدَدَ الذي أيضًا ذهب ، المهم أن تَصِلَ إلى عُمْق ما في نفس هذه الأعرابية الكريمة ، وكأن البلَدَ والوَلَدَ والعَدَدَ وتُؤْويني وتحميني وما تسـمعه الأذن مـن نغـم بائس يجري في الكلام هو لَحْنُ الحُزن والكرْب الذي في الضـمير ، ثـم راجـع تـوارُدَ

ذلك وتتابعه في المرتجى سَيْبُه والمأمون غيبه ، وكأن كل جملة لها نغمتها الخاصة ، ثم ذكرت هوازن التي أرضها تجاور قريشًا ، وتَيْمُ بن مرة ، ثم لم يتخلف نغمها في طلبها الأخير من الكريم ابن الكريم ، وأنه إما أن يُحْسِنَ صَفَدها أي عطاءها ، وإما أن يقيم أوَدَها وقد بُري لَحْمُها وهيض عظامها ، وإما أن يردها إلى بلدها ، ولا شك أن أهم ما يتميز به هذا الكلام هو قوة الإحساس بالمعنى ، وعمق هذا الإحساس ، وأن هذه القوة وهذا العمق لابد أن يصاحبهما علم متسع باللغة ، وأحوالها ، حتى يتمكن البيان من تَجْلية.هذا العُمق وهذه القوة ، ثم إن هذا العمق وقوة الإحساس هي التي تصنع البيان وتُسْكن فيه كل ما يكون في النفس ، فإذا وجدت نَغما عَاليًا في البيان من سجع أو طباق أو جناس فاعلم أنه وَافِدُ البيان من هذه النفس ، وإذا وجدت تعريفًا أو تنكيرًا أو تقديمًا أو فصلاً أو وصلاً أو مجازًا إلى آخره ، فاعلم أنه هو الآخر وكل ما في البيان إنما هو ما أفرغته هذه النفس التي قوي إحساسها ، وأن عبد القاهر لما قال إن أيْمَنَ طائرًا وأحسنَ أولاً وآخرًا أن تترك المعاني حُرَّة فَتَبْحث هي عن ألفاظها ، إنما قال هذا بعد تَعَمُّق شديد لمعاناة صاحب البيان لمعانيه ، ورغبة في أن يكون بيانه بيانًا لكل شيء في هذه المعاني ، وقد وَجَدْتُ هذا ظاهرًا في كلام هذه الأعرابية الكريمة ، وعليك أنت وعلى غيرك أن يبحث في هذا ، وأن يستخرج من كلام الأعرابية والأعراب ما يتميز به ويفوق به كلام العرب ، وادع الله وأنت مخلص وصادق أن يُصيب غيرُك أكثر من الذي أصبت ، لأن الغاية هي أن نُصِيب مع صرف النظر عن الذي أصاب ، ولن نتقدم خطوة في العلم إلا إذا أنكرنا أنفسنا ، وكان هدفنا العلم ، والعلم وحده ، وهذا ما عندي في هذا .

من كلام الأعراب

قال أعرابي : من كانت مطيته الليل والنهار ساراً به وإن لم يسر ، وبلغاه وإن لم يبلغ ، وقيل لأعرابي قد مرض : إنك تموت ، قال : وإذا مت فإلى أين يذهب بي ؟ قالوا : إلى الله ، قال : فما كراهيتي إلى أن يذهب بي إلى من لم أجد الخير إلا منه؟

هذه جمل قصيرة لا يظهر فيها الأمر الذي يتميز به بيان الأعراب عن بيان العرب ، ولعل ابن عبد ربه ذكر ذلك ليعلمنا أن اللمحة الخفيفة والخفية أحياناً هي التي يتميز بها البيان ، وقد رأينا علماء البيان يرجعون ببلاغة الجملة إلى كلمة قُدّمت أو أخّرت ، أو عُرفت ، أو نكّرت حتى إن الشيخ عبد القاهر في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ (الأنعام : ١٠٠) جعل تفوق هذه الجملة وإعجازها بسبب أن أخّر لفظ الجن ، والأصل وجعلوا الجن شركاء لله ، ولو رجعت بالكلمة إلى أصلها لذهبت بلاغتها ولم تعد قرآناً ، وأهمية هذا هو ما قلته من أن التفوّق البياني قد يكون بلمحة دالة ، واللمحة الدالة في قول الأعرابي من كانت مطيته الليل والنهار ساراً به وإن لم يسر ، وبلغاه وإن لم يبلغ ، في قوله « وإن لم يَسِرْ » و« إن لم يَبْلُغ » ، لأن في ذلك إثبات للمعنى ونفيه مع بقاء صحته وسداده ، لأنه سار وإن لم يسر ، وبلغ وإن لم يبلغ ، وربما كان أيضاً في قوله « مطيته الليل والنهار » لأن جمع الليل والنهار معاً وليس في الزمن إلا هما ، يعني أنه على هذه المطية في وقته كله وأنه يسار به إلى النهاية في وقته كله ، وهذا خلاف الذي يجعل الليل مطيته في سيره إلى الممدوح مثلاً .

وقول الأعرابي الآخر : « فما كراهيتي إلى أن يذهب بي إلى من لم أجد

الخير إلا منه» . فهذا كلام حسن جداً ، وفيه حب لله وإعظام لنعمه موثقة في شأن هذه النعم التي أفاضها الله علينا في الدنيا وأنها النعم التي لا تكون إلا منه كالسمع والبصر والفؤاد ، وهذه أصل في الآخرة وأنها وإن تمتعنا في الدنيا لم يكن لنا عند الله ما يطمعنا فيها ، وإنما هي عطاء محض منه سبحانه ، أقول كان هذا حسن وجيد ووراءه غفلة في الدين ، لأن الخير في الآخرة لا يكون إلا لمن صنع خيراً في الدنيا ، وعمل صالحاً وهو مؤمن ، لأن الآخرة ليست كالدنيا وإنما هي دار ثواب وعقاب ، فإذا كنا لم نجد الخير في الدنيا إلا منه سبحانه فهذا لا يعني أننا نجد الخير في الآخرة منه سبحانه ، لأن خير الآخرة مرهون بإنفاذ أمر الله ونهيه ، ومثله العقاب في الآخرة ، وأمثال هذه الغفلات تقع كثيراً من الأعراب لعدم فقههم في الدين ، وسبق قول الأعرابي لما سمع القارئ يقرأ قول الله - تعالى - : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ (آل عمران:١٠٣) قال والله ما أنقذهم منها وهو يريد أن يدخلهم فيها ، فقال ابن عباس خذوها من غير فقيه ، وإنما نأخذها لأن فيها طمعنا في رحمة الله ، واحترس ابن عباس وقال من غير فقيه لأن الله ﷻ أنقذ المؤمنين بنبوة محمد ﷺ فشهدوا الشهادتين ، ثم يحاسبهم على الأصل الذي قاله سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (الزلزلة:٧-٨) وسيدنا رسول الله وصف هذه الآية بأنها فاذة ، فالذي كان على شفا حفرة من النار وأنقذه الله ببعثة رسول الله ﷺ وعمل مثقال ذرة شراً سيحاسب عليه ويدخل النار ما لم يَتُبْ ويَقْبل الله توبته ، ومن هذا كان هذا من خصائص كلام الأعراب ، وذكر ابن عبد ربه قول الأعرابي : «لَئِنْ يُساءَ إلى أحد في بطنها وقد أحسن على ظهرها» وهذا مستقيم جداً ، وتجد حسنه في سداد معناه واختصار لفظه ، وهذه



المقابلة السهلة الرهوة بين يساء وأحسن ، وبطنها وظهرها ، وأن الذي أنْتَ عليه وأنت على ظهرها هو الذي ستكون عليه وأنت في بطنها ، فإذا أحْسَنْت على ظهرها وأسأت ، فاعلم أن الإحسان سيوزن والإساءة ستوزن ، فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، ومن خفت موازينه فأمه هاوية ، وهذا من الفقه الذي وعاه الأعرابي .

قالوا : « دخل أعرابي على عبد الله القسري فلما مَثَل بين يديه أنشأ يقول :

أصْلَحك الله قَلَّ ما بِيَدِي فما أُطِيق العيالَ إن كثروا

أناخَ دهر ألْقَى بِكَلْكَلِه فأرسلوني إليك وانتظروا

قال أرسلوك وانتظروا ، والله لا تجلس حتى تعود إليهم بما يسرهم ، فأمر له بأربعة أبعرة موفورة بُرًّا وتمرًا وخلع عليه » ولا شك أن موضع التميز في هذين البيتين هو قوله « أرسلوني إليك وانتظروا » وقوله قل ما في يدي وكثر عيالي وأناخ دهر ألْقَى بكلكله : كل ذلك شائع وليس فيه أي تميز ، وإنما أصاب الأعرابي لأنه لم يقل مثلاً قصدت إليك كما يقول الناس ، ولا دلني الناس عليك ، وإنما جعل عياله هم الذين أرسلوه إليه ، وهذا جيد ، ثم قال وانتظروا ، وهذا أجود ، ولا أشك في أن الذي دفع عبد الله القسري إلى إكرامه هو تصوره لعياله ، وأنهم يعرفون عبد الله القسري وكرمه وشَرَفَهُ وعطاءه ، وأنهم هناك ينتظرون ما أَمَّلُوه فيه ، المهم المفيد أن نُصِيبَ الجملة التي فيها تميز وسداد ، وأن نحاول أن نتعرف على سر هذا التميز وهذا السداد ونجتهد في ذلك ونصيب ونخطئ .

قال الأصمعي : سمعت أعرابيًّا في فلاة من الأرض وهو يقول في دعائه : « اللهم إن استغفاري إياك مع كثرة ذنوبي للؤم ، وإن تركي للاستغفار مع

معرفتي بسعة رحمتك لعجز ، إلهي كم تحببّتَ إليّ بنعمك ، وأنت غني عنِّي ، وكم أتبغّض إليك بذنوبي ، وأنا فقير إليك ، سبحان من إذا توعَّد عفَا وإذا وعد وفًى» .

وقول الأصمعي وهو من أهل البصيرة في اللغة والبيان «في فلاة من الأرض» يعني أنه ليس معه أحد ولم يخاطب إنسانًا ويقول له مثلاً «أرسلوني إليك وانتظروا» ، وإنما هو مع الله وحده ، وحديثه حديث قلب إلى الذي يعلم ما في القلوب ، وأنه يقول ما يجده في قلبه للذي هو أعلم به منه ، ولذلك أخرج من قلبه المعاني المألوفة يُصَاحبها إحْسَاسٌ منه يجعلها غير مألوفة ، وهو الاستغفار مع كثرة الذنوب ، ونحن نواجه كثرة خطايانا بكثرة الاستغفار ، ونكرر الذنب ونكرر الاستغفار ، وعلماؤنا قالوا لنا إن الله يغفر الذنب بالتوبة ولو كررت الذنب مائة مرة وكررت معه مائة توبة ، والأعرابي لم ينظر إلى هذا الأمر من هذه الجهة ، وإنما رأى وهو على حق أن الاستغفار مع كثرة الذنوب لُؤْم وخساسة وأنا معه ، ولكننا لا نملك مع كثرة الذنوب وتكرارها إلا الاستغفار ، ثم إنه الله ـ سبحانه ـ لم يقل لنا استغفروني أغفر لكم فحسب ، وإنما حذرنا من أن نيأس من مغفرته الذنوب مع الاستغفار ، ولا بأس من أن تشعر مع كثرة الاستغفار وتكرار الذنب الواحد أنك سيئ الأدب مع الله ، وأن المغفرة مع الاستغفار من محض الفضل ، ومحض الإكرام ، ومحض قبول الله لك مع سوء أدبك معه سبحانه ، ثم إن الأعرابي العريق يستشعر قدرًا من التضارب في داخل نفسه ، وهو أن الاستغفار مع كثرة الذنوب لؤم ، وعدم الاستغفار مع سعة الرحمة عجز ، لأن الله طلب منا الاستغفار مع كثرة الذنوب وبشاعة هذه الذنوب ، وغرسَ في نفوسنا أمرًا جليلاً جدًا ، وهو أن ذنبي مهما

عظيم فإن مغفرة الله أعظم ، ولا أعرف عطاء فوق هذا العطاء مع أننا نفجع أبناء أب واحد نجد حرجًا شديدًا من الذي أسأنا إليه مرة ونسامحنا ، فنخجل إذا أسأنا إليه مرة ثانية ، وهذا حالي وحالك مع أقرب الناس إلينا ، وهذا حالي وحالك مع الله ، وفي هذه اللحظة أذكر قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى: ١١) ، وأن سلوكنا مع الله ليس كمثله سلوك ، وقول الأعرابي : « إلهي كم تحبَّبتَ إليَّ بنعمك وأنت غَنِيٌّ عني ، وكم أتبغض إليك بذنوبي وأنا فقير إليك » هذه الجملة والجملة التي تقابلها فيها إشارة جعلت النفس مألوفة غير مألوفة وهذا مما يتميز به الكلام العالي ، هذه اللمحة هي أننا جميعًا نعيش ونحن مغمورون بنعم الله ، وما بكم من نعمة فمن الله ، وأن نعم الله عامرة لكل خلقه من الناس وغير الناس ، وأنها غامرة للمؤمن والكافر ، وكأن كرمه سبحانه فاض على من خلقه مؤمنًا كان أو كافرًا ، ولم يخطر ببال أحد أن الله سبحانه يتحبب إلينا بنعمه ، وأن نعمه على المؤمنين به هي نعم تحبُّب ، بخلاف نعمه على من كفر به ، وأنه سبحانه يتحبَّب إلى أهل الإيمان وبالطبع لا يتحبب إلى أهل الكفر ، ثم لما نَزَغ هذا المعنى في قلب هذا الأعرابي وهو في فلاة أتبعه معنى آخر وهو أنه يتحبب إلينا وهو غني عنا ، ومقابل هذا أننا بذنوبنا نتبغَّض إلى الله ونحن فقراء إليه ، وهكذا جرت الجمل المتقابلة جريانًا سَهْلاً رَهْوًا كما ألفناه في كلام الأعراب ، ولعلَّ هذا كان من مراد ابن عبد ربه لما وصف كلام الأعراب بقلة الكُلْفة ، مع أن الواقع أننا لا نتبغض بالذنوب إلى الله ، لأن المؤمن بالله ورسوله هو الذي يكون الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما ، وهذا والحمد لله واقع وليس كلامًا يقال ، ونحن نُذْنِب والله ورسوله أحب إلينا من كل ما سواهما ، وإنما هو الضعف الذي كتبه الله على كل بني آدم وأنهم خطاؤون ،

ولكن الأعرابي لفتنا جرى في خاطره أن الله سبحانه يتحبب إلينا بنعمه، كان الواجب علينا أن نتحبب إليه بالطاعة، وأنه سبحانه سبقنا بالتحبب إلينا، والأصل أن نتحبب نحن إليه أولاً راجين أن يتحبب إلينا على حد قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة:١٥٢)، فالواجب أن نبدأ، ولكن الأعرابي رأى أن قلب الأمر هو الذي بدأ بالمحبة ونحن لم نقابل تحببه بتحبب، ولكننا قابلناه بتبغض، والعياذ بالله من كل هذه التبغض

ومن الدعاء قولهم: «اللهم اجعل الموت خير غائب ننتظره، واجعل القبر خير بيت نعمره، واجعل ما بعده خيراً لنا منه»

أكرر القول بأني أبحث عن الفكرة التي تميز الكلام وتجعله كلاماً آخر مع أن أصله من الكلام المألوف، وأفعل هذا مع يقيني بالعجز، وأدعو الله لك أن تصيب أنت؛ لأن المهم هو أن نقع على ما يتميز به الكلام

ولا شك أننا جميعاً ننتظر الموت، وأننا جميعاً سنسكن القبر، والجديد في هذا الدعاء هو رجاؤه من الله أن يكون الموت الغائب والآتي لا محالة خير غائب ننتظره، وذلك بأن تهدينا إلى العمل الصالح حتى نحب لقاءك، وننتظر يوم لقائك كما ننتظر خير غائب غيّبه عنا شرار خلقك، وهذا هو رأس هذا الدعاء؛ لأنه إذا رزقنا أن يكون الموت خير غائب ننتظره فإن القبر لا محالة سيكون خير بيت نعمره، وأن الذي بعدهما سيكون خيراً منهما، وكأن هذا الداعي يقول لنا كلنا سنموت لا محالة، وكلنا يسكن القبر لا محالة، وكلنا سيواجه ما بعد القبر لا محالة، فهل يعقل أن نغفل هذا الذي لا محالة لنا منه، وأن لا نعمل حتى يكون الموت خير غائب، والقبر خير بيت، هذا الدعاء يقول اعملوا الصالحات لتحبوا لقاء الله، ومن يحب لقاء الله يحب الله لقاءه، يعني



يوم موتك هو يوم لقاء من يحب بالذي يحب ، وهل هناك أفضل من هذا ؟ ثم إن هذا الذي لا أفضل منه تناله من غير تعب ، لأن فِعل الطاعات من الفطرة وتَرْك المنكرات من الفطرة ، فأنت مع الفطرة في هذا الذي تحب فيه لقاء الله فيحب الله لقاءك .

قال ابن عمران المخزومي : أتيت مع أبي واليًا على المدينة من قريش وعنده أعرابي يقال له ابن مُطير ، وإذا مطرٌ جود ، فقال له الوالي صفه فقال دعني أُشرف وأنظر ، فأشرف ونظر ثم نزل فقال :

كَثُرت لكثرة وَدْقِه أطباؤهُ ... فإذا تَحلَّب فاضَت الأطْباءُ

وله رَبَابٌ هَيْدَبٌ لرقيقه ... قبل التَّبَعُّق دِيمَةٌ وطْفَاءُ

وكَأن بارقه حَرِيقٌ تلتقي ... ريحٌ عليه وعَرْفجٌ وألاءُ

وكأن ريِّقه ولَمَّا يَحتَفِل ... دون السماء عَجَاجةٌ طَخَيَاءُ

مستضحك بلوامعٍ مُسْتَعْبرٌ ... بمدامع لم تُمرْها الأقذاء

فله بلا حَزَنٍ ولا بمسرَّة ... ضَحِكٌ يؤلِّفُ بينه وبُكاء

والودق : المطر شديده وهينه ، والأطباء : الضروع ، والرباب : السحاب الذي فوقه سحاب ، والهيدب : المتدلِّي ، والتبعق : الانصباب بشدَّه ، والديمة : المطر ليس معه رعد ولا بَرْق ، والوطفاء : التي تدلّت ذيولها لكثرة مائها ، والعرفج : شجر شديد الاحتراق ، ومثله الآلاء ، وريق المطر : أوله ، والعجاجة : القطعة من الغبار ، والطخياء : المظلمة ، وجعل برقه ضحكا وماءه دمعًا ، فهو يبكي بلا حزن ويضحك بلا مسرة ، وظني أن المخزومي ذكر هذا ورواه لقول الأعرابي دَعْنِي أشرف وأنظر ، ولو أنه وصف المطر من غير أن يشرف وينظر لما تكلف المخزومي ذكر ما رأى ، لأنه من الشائع جدًا وصف المطر ، وليس

من الشائع أن يقول الواصف دعني أشرف وأنظر ، ولا شك أن الأعرابي رأى مطرًا كثيرًا وسمع شعرًا كثيرًا في وصف المطر وربما وصف هو المطر قبل ذلك ، ولكنه يعلم - وهذا هو المهم - أن كل مطر له خصوصية يتميز بها عن غيره ، وأن أمانة البيان توجب أن يكون وصف كل مطر متضمنًا هذه الخصوصية التي تميزه عن أي مطر ، وأن وصف المطر في الشعر لابد أن يكون متباينًا بمقدار تباين المطر الذي نراه ، وقد وصف امرؤ القيس المطر أكثر من مرة ، وترى مطرًا مختلفًا في كل وصف له ، وكذلك قل في غيره ، وقول أوس ابن حجر في وصف السحاب الذي كان قبيل الأرض « يكاد يدفعه من قام بالراح » لم أجد أحدًا قال مثل هذا ، وأن السحاب الذي رآه أوس هو الذي أثار في نفسه هذا المعنى ، وراجع أبيات الأعرابي وأنها هي ما شاهده ونظر إليه وأن أطباءه أي ضروعه كثرت لكثرة وَدْقِه ، فإذا زَادَ وغزر فاضت الأطباء ، وأنه سحاب فوق سحاب ، وأنه قَبْل تدفقه « تَبَعُّقه » مطر بلا رعد ولا صوت ، وبَرقه حريق ليس كأي حريق ، وإنما هو حريق لاقى فيه الريح العَرفج والآلاء ، اقرأ الشعر وكأنك تَقْرأ مطرًا أو تنظر وتُشْرِف كما أشرف الأعرابي ونظر ، وينتهي الأعرابي إلى أن الذي يراه مُسْتضحكًا ببرقه باكيًا بدمعه ، ثم ينتهي بهذه العجيبة وهي بكاء بلا حَزَن وضحك بلا مَسَرة ، ومما ذكره ابن عبد ربه أنه قيل لأعرابي وقد أدخل ناقته في السوق لبيعها : صف لنا ناقتك : قال ما طَلَبْتُ عليها قط إلا أدركت ، وما طُلْبت عليها إلا فُتَّ ، قيل فلم تبيعها ؟ فقال لقول الشاعر :

وقد تُخرِج الحاجاتُ يا أمَّ عامرٍ ... كرائمَ من رَبٍّ بهنَّ ضَنِينُ

ولم أعرف شيئًا في هذا الكلام يتميز به كلام الأعرابي ، أما وصف الناقة بأنه ما طلب بها شيئًا إلا أدْركه ، وما طلب هو في شيء وهو راكبها إلا فات ممن يطلبه ، وهذا كلام مشهور في وصف الإبل وفي وصف الخيل ، وأن بيت الشعر

الذي يمثل به من أكرم الشعر ، والأعرابي إنما يحفظه ويتمثل به ، وكل الناس يتعرضون للحاجة الشديدة التي ترغمهم على بيع أشياء نفوسهم ضنينة بها ، إلا أن يكون ابن عبد ربه يريد أن يقول لنا إن هؤلاء الأعراب يتعرضون لضيق أشد لأنهم أهل بادية والفقر فيها أبشع وأوجع ، وأن هذا الأعرابي تعرض لهذا الذي هو أبشع وأوجع وأن ناقته التي ربما لا يملك سواها قد دفعته الحاجة إلى أن يخرجها من يده ويتخلى عن الكرائم التي هو بهن ضنين ، وربما نفسي حسبك إلى شيء في هذا الكلام لم أستطع النفاذ إليه .

وذكر ابن الأعرابي قول أعرابي يعني امرأة حسناء :

يا زين من ولدت حواء من ولد ... لولاك لم تحسن الدنيا ولم تطب

أنت التي من أراه الله رؤيتها ... نال الخلود فلم يهرم ولم يشب

ثم قال : كاد الغزال يكونها لولا ما تم منها ، ونقص فيه ، وهذا شعر جيد ونثر جيد ، وقوله « يا زين من ولدت حواء » نداء لها وأنها تعرف وأن غيرها يعرف أنها زين من ولدت حواء ، يعني شهرت بذلك وعرفت به ، وتأمل ما وراءه ، وقوله « لولاك لم تحسن الدنيا ولم تطب » من أكرم ما يقال في تعلق القلب بالتي هي زين من ولدت حواء ، ولم أعرف قلبا يتعلق بشيء أفضل من تعلقه بالذي لولاه لم تحسن الدنيا ولم تطب ، واقتح هذا المعنى وفرغه من الحسناء ، وضعه علما على كل شيء يعيش الإنسان له ، وفيه ، ولولاه لم تحسن الدنيا ولم تطب ، وأنا أحب الشعر الذي يمكن أن يتسع معناه وأن يتجاوز المعنى المباشر ، كما كان يفعل كرامنا وينقلون بيت الشعر من الحديث عن المرأة إلى الحديث عن الدنيا ، وكان الحسن البصري يقرأ قول الشاعر :

اليوم عندك دلها وحديثها ... وغدا لغيرك كفها والمعصم

ويبكي لأنه رأى فيه صورة الدنيا التي عندك اليوم دلها ودلالها ، ثم تسلم أنت

بنفسك لغيرك كفها والمعصم، وكان صاحبي يقرأ قول الشاعر: «مُنى النفس في أسماء لو تستطيعها» وأراه كأنه واله فأسأله عن أسماء، فيقول: لا أعرف أسماء ولا غير أسماء، وإنما أعرف الذي هو مُنى النفس، وقوله: «أنت التي من أراه الله رؤيتها التي أخرى أعجب وأبدع» وكأن قوله: «لم تحسن الدنيا ولم تطب هي» النفس لها لأنها لم تعد حسناء وإنما هي سرٌّ من أسرار الله في هذا الوجود، ولن يراها أحد إلا أحد أراه الله رؤيتها، كأنها من وراء حجاب لا ترى إلا إذا كشف الله لك هذا الحجاب، كما قال موسى عليه السلام: ﴿ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ (الأعراف: ١٤٣)، فهو يعلم أنه لن يرى الله إلا إذا أراد الله أن يراه، وأعجب من هذا وهو كل العجب أن من يريه الله هذه يبقى حيًّا شابًّا ناضرًا لم يهرم ولم يشب، وكأن رؤيتها تجديد تغييرًا في الذي تقرر في حياة الناس متى أنهم يبلغون أشدهم، ثم يصيرون شيوخًا، ومع كثرة ما قرأت في شعر النسيب والصبوة فإني لم أقع على هذا المعنى، وهو مما لا يكون إلا من جنس تميز عن جنس الناس، قالوا: «وقف أعرابي بقوم فقال: يا قوم تتابعت علينا سنون جماد شداد لم يكن للسماء فيها رجع، ولا للأرض فيها صدع، فنضب العِدُّ، ونشف الوشل، وأمحل الخصيب، وكلح الجدب، وشف المال، وكسف البال، وشظف المعايش، وذهب الرياش، وطرحتني الأيام إليكم غريب الدار، نائي المحل، ليس لي مال أرجع إليه، ولا عشيرة ألحق بها، فرحم الله امرءًا رحم اغترابي، وجعل المعروف جوابي» انتهى كلامه، وهذا نص جيد ومفيد وتستطيع أن تصل فيه إلى شيء ما يميزه، ومن العجيب أن الله سبحانه وتعالى علمنا منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا أن النظر في الكلام هو طريقك الذي تعرف به خصائص الكلام وما يتميز به، وتعرف به صفات الكلام، وتعرف به أن الذي بين الدفتين مختلف عن كل كلام، وهذا ما دعاني غالبًا إلى التدبر والتحليل، وأول ما نلاحظه في هذا النص أنه يركز ويجتمع ويحتشد ليؤكد شدة حاجة

هذا الأعرابي ، فلم تخرج منه كلمة واحدة إلا وهي في صُلْب هـذه الغايـة الـتي هي بيان شدة الحاجة ، وقد بدأه بقوله تتابعت علينا سنون جماد ، شداد ، وهـذه الجملة هي أول هذا النص وآخره ، لأن كل ما بعدها شرح لها ، وهذا كـثير في كلام أهل الطبع ، ومع كثرته في كلامه تجد منه الخصوصية الـتي تميـز بعضـه عن بعض ، وهي هنا في كلمة «تتابعت» واختيـار السـنون الـتي معنـاه القحـط وشدة الحال، ثم تأكيد هذا المعنى بوصفها بالجماد، ثم إلحاق الجماد بالشداد، واعلم أن التحليل وإن كان ظاهرة تتبع المعنى في اللفظ فـإن حقيقتـه أنـه تتبـع المعنى في نفس القائل ، وليس لأي كلام أي مزية يذكر بها إلا أحـوال جريانـه في نفس القائل ، قُلْتَ هذا لتنتقل من كلامي إلى الذي كان في نفـس الأعرابـي ، وهو يقول تتابعت ثم وهو يختار السنون، ثم وهو يصفها بالجماد، ثم لا يكتفي بها وإنما يضيف شداد ، وقوله «لم يكـن للسـماء فيهـا رجـع ولا لـلأرض فيهـا صدع» مفهوم من ذكر «السنون الجماد الشداد» ولكن الأعرابي أراد مزيد بيـان للشدة ، فذكر أن السماء أمسكت ماءهـا ، ومـا دامـت أمسـكت ماءها فلابـد أن تكون الأرض أمسكت نباتها ، ولكنه ذكـر الأمـرين معًـا ، والرجـع المطـر لأنـه رجع إلى الأرض التي كـان منهـا لمـا تَبخـرَّت ميـاه البحـار وصـارت سـحابًا ، والصدع هو تشقق الأرض بالنبات وصدعه شـقه ، والكلمتـان قرآنيتـان ، وكأنـه يقول بذكرهما إننا نعاني ما قدره الله وكتبه علينا ، وبهذا قد تمَّ هذا المقطع مـن المعنى لا مطر من السماء ولا نبات من الأرض ، فانتقـل إلى اسـتنفادهم للـذي كان عندهم من الماء في العد بكسر العين أي البئر ، قـال فنضـب العـد ونشـف الوشل ، والوشل هو : الماء الذي على سطح الأرض ، وليس المراد ذهابه وإنمـا المراد أنه كان يكون خصبًا للأرض التي يعـيش علـى وجههـا ، فَنَشِـف وذهـب خصبه ، وهذا قـاد الأعرابـي إلى وصـف أظهـر وأقـرب وهـو قولـه : «وأمحـل الخصب وكلح الجدب» من أهم ما يتميز به الكلام اختيار الألفاظ المعبِّـرة عـن

دقة الإحساس ، وأن الذي وجده بعد نضوب العد الذي هو البئر ونشف الوشل هو ذهاب الخصب الذي كان باقيًا في الأرض بعد نضوب العد ، ونشف الوشل ، ولم تكف كلمة أمحل الخصب فأضاف إليها كلح الجدب ، أي : ظهر ظهوراً بينًا ، وقوله : وشف المال أي : ذهب ، وهذا مما يكون أبدا بعد كلح الجدب ، وقوله : « وكسف البال » هو الكائن لا محالة بعد ذهاب المال ، وهذا من دقائق المعاني وبناء بعضها على بعض ، واختيار كسوف البال فيه دقة بيان عن الذي أصاب القوم ، وقوله : « وشظف المعاش » تأكيد لقوله وكِسف ، وقوله : « وذهبت الرياش » إحضار لكل الذي مضى وتلخيص له ، وإنهاء قِصَّة المعاناة التي يعانيها ، ثم بدأ يخاطبهم بعد بيان الذي هو فيه ، وأنه لم يأتهم وإنما طرحته الأيام إليهم ، وأنه لم يعد يملك من أمر نفسه شيئًا ، وإنما هو في يد الأيام الأصعب والأشد تطرحه حيث شاءت هي وليس حيث يشاء هو ، وقوله : « غريب الدار نائي المحل » ليس المقصود به غربته وبعد بلاده فحسب ، وإنما بيان أن هذه « السنون الجماد الشداد » في بلاد بعيدة عنكم ، وأن الله سلم دياركم منها ولم يكتب عليكم ما كتبه علينا ، لأنكم في نعمة ، ومن شكر النعمة أن تُنْعِمُوا على من حُرِمَ من هذه النعمة ، وقوله : « ليس لي مال أرجع إليه » معلوم من كل الذي مضى ، وإنما المراد به تأكيد حاله وبيان الضّرّ الذي هو فيه ، وقوله : « ولا عشيرة أرجع إليها » المراد به أن الشدة التي أصابتنا فرقتنا ونَبَتْ بنا أرضنا ، والعشيرة التي يلحق أبناؤها بها وهي من النعم قد عدمناها ، والكرام هم عشيرة من لا عشيرة له ، وقوله : « رحم الله امرءًا رحم اغترابي » تراه جمع كل ما هو فيه في كلمة « اغترابي » لأنه غريب عن أرضه ، وغريب عن عشيرته ، وغريب عن ماله ، لأنه فقد كل شيء وصار غريبًا عن كل شيء ، وهذا من أكرم البيان وأحكمه . وراجع الكلام من أوله وابحث فيه عن جريان النغم فيه ، وأننا وجدنا ذلك في أكثر كلام الأعراب ، راجع النغم في جماد شداد ، ورَجع وصَدْع

وبعثت المال، وكشف البال، والمعاش والرياش، واغتربتي، وأجوابي، واعلم أن النغم ليس حلية في الكلام، وليس طربة نفس تشفيها هلوستها، وإنما هو مع ذلك وقبل ذلك لغة دالة كالكلمات، وأن قوة تذوق اللغة يضيء معها النغم لغة، تدل دلالة أقوى وأشف من دلالة الألفاظ، واسأل التعبير لماذا يحدو النغم والغناء؟ وهذا ما عندي، وصدقني إذا قلت لك إنني أدعو الله أن يكون الذي عندك أفضل من الذي عندي، ولن نتحرك بلادنا خطوة ولا نصعد خطوة إلى الأمام إلا إذا نسينا أنفسنا وامتلأت نفوسنا بضرورة تقدمها، وما دام كل واحد منا يريد أن يقول ما أنشده: وأنا ابن جلا وطلاع الثنايا، ومتى أضع العمامة تعرفوني، أقول ما دمنا كذلك فلن نبرح مرابض التخلف، وإنما سيهتف بعضنا ببعض ونحن في هذه المرابض: «محلك سر».

كتابٌ في الأجوبة

لما فرغ ابن عبد ربه من كلام الأعراب بدأ كتاب الأجوبة، وأراد به الأجوبة القاطعة التي تكون على البديهة، وفي عجلة ليس فيها روية ولا أناة، مع أنها أجوبة سؤالات دققت وحررت في روية ومراجعة وأناة، ولذلك كان هذا الضرب من الأجوبة من الكلام الصعب الذي لا يحسنه إلا صاحب البديهة الحاضرة واليقظة، والتي وراءها علم متسع، ولهذا قدم لها ابن عبد ربه تقديمًا أوسع، ووصفها بأنها أصعب الكلام وأضيقه مسلكًا، وعلل ذلك، وسأنقل لك كلامه وإن طال لكثرة فوائده:

قال رحمه الله: «ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الجوابات التي هي أصعب الكلام مركبًا، وأعزه مطلبًا، وأغمضه مذهبًا، وأضيقه مسلكًا، لأن صاحبه يعجل مناجاة الفكرة، واستعمال القريحة يروم في بديهة نقض ما أبرم في روية... ولا سيما إذا كان القائل قد أخذ بمجامع الكلام، فقاده بزمامه بعد أن روى فيه، واحتفل، وجمع خواطره، واجتهد، حتى إذا اطمأن شارده وسكن نافره، صك به خصمه جملة واحدة، ثم إذا قيل له أجب ولا تخطئ، وأسرع ولا تبطئ تراه يجاوب من غير أناة ولا استعداد، يطبق المفاصل وينفذ إلى المقاتل» انتهى ما أردته، والمطلوب مراجعته وكيف يعجل المتكلم مناجاة الفكرة؟ وراجع كيف يبني الكلام وكيف يقوده المتكلم بزمامه؟ وكيف يطمئن شارد الكلام، ويسكن نافره؟ راجع ابن عبد ربه وهو يحدثنا عن صناعة الكلام، وكيف يكون تطبيق المفاصل؟ وإصابة المقاتل؟ وأهم ما في باب الأجوبة أنك

تقرأ منه عَقْلاً حيًا ، يُثْبِتُ الفكرة ويؤكدها بعد الرويَّة والمراجعة ، وعقلاً حَيًّا آخر المطلوب منه أن يبادر هذه الفكرة بضربة سريعة يَنْقُضها ، فأنت مع عقلين جليلين وبينهما فكرة واحدة ، هذا يُعْطَي من الوقت ما يشاء لِتثْبيتها ، وهذا لا يعطي أي وقت لنقضها ، وذكر ابن عبد ربه في ذلك كلامًا كثيرًا لأهل البيان المذكورين من أمثال معاوية بن أبي سفيان، وأخيه عتبة، وعقيل بن أبي طالب، وسعيد بن العاص ، وثابت بن عبد الله بن الزبير ، والأحنف بن قيس ، وخالد ابن صفوان ، وبلال بن أبي بردة ، ومما ذكره في ذلك أن معاوية قال يومًا : «أيها الناس إن الله فضل قريشًا بثلاث قال لنبيه عليه السلام : وأنذر عشيرتك الأقربين فنحن عشيرته ، وقال : إنه لذكر لك ولقومك فنحن قومه ، وفالإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، إلى قوله : ﴿ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش:٤) . ونحن قريش ، فأجابه رجل من الأنصار فقال : على رِسْلِك يا معاوية ، فإن الله يقول : وكذّب به قومك ، وأنتم قومه ، وقال : ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ، وأنتم قومه ، وقال الرسول ﷺ : يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ، وأنتم قومه ، ثلاثًا بثلاث ولو زدتنا زدناك فأفحمه» ، وكان يمكن لمعاوية أن يذكر فضل قريش من جهة لا يجد أحد سبيلاً إلى نقضِها ، وهي أن الله تبارك وتعالى اختار خاتم أنبيائه ورسله منهم ، ولكنه عمد إلى القرآن وذكر ما تَقَرُّ به عيون قريش من أنهم عشيرته الأقربين ، وأن يبدأ النبوة بهم ، وأن الكتاب ذكر له ولقومه ، لأنه نزل بلسان قريش ، وأن الله أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، ووجد الأنصاري الرد على معاوية من القرآن الكريم فذكر ثلاثة بثلاثة ، وقال له إن زدتنا زدناك ، وأنت تفخر بقومك علينا ونحن الذين تبوءوا الدار والإيمان نحب من هاجر إلينا .

وذكر ابن عبد ربه أن معاوية قال لرجل من اليمن : ما كان أجْهَل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ، فقال : أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، ولم يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه .. » وكلام اليمني سديد جدًّا ، وأنا أعجب وأنا أقرأ هذه الآيات وقد قالتها أقوام لأنبيائهم قبل قريش ، أيْنَ عُقولكم ورشدكم ؟ لماذا لا يَرْجُون الهداية إذا كان حقًّا ، وإنما تطلبون العذاب الأشد وهو أن يمطر عليهم حجارة من السماء ، فلا يفر منها واحد منهم ؟

وأكثر الأجوبة التي ذكرت في هذا الباب كانت مع معاوية ، وابن عباس ، وعقيل بن أبي طالب ، وعمرو بن العاص ، وسعيد الأشدق ، وكلها في باب المفاخرات بين القبائل ، وأكتفي بهذا ، وأنتقل إلى كتاب الخطب .

* * *

قال أبو عمرو أحمد بن محمد بن عبد ربه : « ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الخطب التي يتخير لها الكلام ، وتفاخرت بها العرب في مشاهدهم ، ونطقت بها الأئمة على منابرهم ، وشهرت بها في مواسمهم ، وقامت بها على رؤوس خلفائهم ، وتباهت بها في أعيادهم ومساجدهم ، ووصلتها بصلواتهم ، وخوطب بها العوام ، واستجزلت لها الألفاظ ، وتخيرت لها المعاني » ومن أهم ما في العقد الفريد أن صاحبه مقتنع بالذي فيه وحريص على أن يقتنعك بالذي فيه ، لأن غايته أن تقرأ وأن تعرف وأن تكون أعلم وأزكى وأكثر يقظة ، وهؤلاء هم صُناع الرجال الذين تعمر بهم الأوطان ، والمهم أنك تراه دائمًا متوجهًا إلى عامة الناس ، لأن خاصتهم عندهم الذي عندك ، والمحتاج هم العامة وهم العدد الأكبر ، وأن تركهم في غفلتهم يعمهون خطر على البلاد ، وكل من يحمل القلم وليس عنده أهم من خدمة قومه وبلاده لابد أن يتوجه إلى هؤلاء ، لأنهم هم الذين إذا تقدموا تقدمت بتَقَدُّمهم البلاد ، ومن السداد المفيد جدًّا أن تستطيع أن تجعل أهم ما في الباب من كلمات قليلة إذا وعاها القارئ تكون قد خطوت به خطوة جيدة كما فعل ابن عبد ربه هنا لأن أهم ما في الخطب هو تخيُّر الكلام ، وهذه الكلمة الشديدة الاختصار لو أسكناها في نفوس أجيالنا لتغير كثير من واقعنا ، واقرأ نص ابن عبد ربه مرة ثانية ستجد أن هذه الجملة هي رأس كلامه في الخطب ، لأن المذكور بعد ذلك هو مقامات الخطب وأنها موضع فخرهم وتباهيهم في مواسمهم ، وأعيادهم ، وأنهم يُلقُونها على منابرهم وبين أيدي

خلفائهم ، وتبقى كلمة « تخير الكلام » هي صناعة الخطب ، ثم أكد هذا المعنى في قوله واستجزلت لها الألفاظ ، وتُخُيِّرتُ لها المعاني ، وأهم عمل يعمله المعلم أو الكاتب المتوجه بعمله إلى رجال أمته أن يهتدي أولاً إلى رأس المعنى الذي يتحدث فيه ، ثم يُعانُ على العبارة عنه بلغة سهلة وقريبة ، فيسكنه في النفوس من غير كُلفة .

وبدأ ابن عبد ربه الكلام في الخطب بسؤال من عبد الملك بن مروان إلى خالد بن سلمة المخزومي قال له : من أخطب الناس؟ قال : أنا . قال : ثم من؟ قال : أنا ، قال : ثم من ؟ قال : شيخ جذام يعني روح بن زنباع ، قال : ثم من ؟ قال : أُخيفش ثقيف يعني الحجاج ، قال : ثم من ؟ قال : أمير المؤمنين ، والأخيفش ضعيف البصر ، ولا شك أن عبد الملك لم يسأل هذا المخزومي عن أخطب الناس إلا وهو يعلم علمه المتسع بالخطابة وحكمه السديد على الخطباء ، ثم لم يغضب منه لما قال أنا وكرر هذا في جواب سؤاله الثاني ، ثم ذكر الحجاج وذكر أمير المؤمنين في المرتبة الرابعة ، وعبد الملك لا يضره أن يكون الرابع أو العاشر ، أو لا يذكر في الخطباء ، لأنه رجل معروف بحكمته وحسن سياسته وكياسته ، ثم إن المخزومي لم يكن منافقًا ومجاملاً له ، لأن المخزومي يعلم أن مكانته ورجولته في صدقه ، وأن من احترامه لعبد الملك أن يكون صادقًا معه ، وهكذا تعامل الرجال مع الرجال ، أما الكذب والنفاق فهذا لا موضع له إلا عند انحطاط الناس ، وانحطاط الدول ، وانحطاط الشعوب ، وثابت القدم بصدقه وجده وإنجازاته لا يقبل أن يكون حوله كذابون ولا منافقون ، وقالوا إذا أردت أن تعرف من أنا فانظر إلى من حولي ، والملاحظ أن عبد الملك كان يريد أن يعرف مكانته في الخطابة ، لأنه لما قال له ثم أمير المؤمنين لم يسأل بعد ذلك .

ثم ذكر ابن عبد ربه : «أن بِشْر بن المعتمر مرَّ بإبراهيم بن جبلة وهو يعلم فتيانهم الخطابة ، فوقف بشر يستمع فظن إبراهيم أنه وقف ليستفيد ، فقال بشر للفتيان : أضربوا عما قال صفحا وأطووا عنه كشْحًا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تنميقه وتحبيره» ومثل هذا الخبر يدلنا على مقدار اهتمام القوم بأجيالهم الجديدة ، وأنهم يَعُدُّونهم لمستقبل أفضل ، وأنهم يَنْقُلُون إليهم كل ما عندهم من علم وخبرة ، ولم تكن الخطابة ضرورة من ضرورات الحياة حتى يعلموها لأجيالهم ، وإنما هي من عوامل نمو الشخصية وثقافتها وتكاملها ، وأن إبراهيم ابن جبلة جمع فتيان قومه ليعلمهم كيف يتخيرون الكلام ويَنْتَقُونَ المعاني ، وأن هذه ثقافة لا غنى لمجتمع متحضر عنها ، ثم إن بشر بن المعتمر لما مَرَّ عليهم وليسوا قومه ، وسمع كلام إبراهيم بن جبلة ورأى أن عنده ما هو أفضل من كلام إبراهيم ، دعا الطلاب إلى طرح كلام إبراهيم وأن يطووا عنه كشحا ، ودَفع إليهم بصحيفته ، وكل هذا دال دلالة قاطعة على عناية الكل برفع مستوى الكل ، وكان هؤلاء الفتيان الذين يُمثّلون الجيل الجديد للبلاد ليسوا أبناء إبراهيم ابن جبلة وحده وإنما هم أيضًا أبناء بشر بن المعتمر ، وهذا هو ما نطمع في الوصول إليه ، وأن البلاد كلها بلدي ، وأن أبناءها كلهم أبنائي ، وبهذه الروح المُحِبَّة للكل يتقدم الكل ، أما القتل والقهر والاستبداد والاستعلاء وحب السيطرة وإرغام الناس على البعد عن أوطانهم فهذه ثقافة التخلف ، وهذا زبور التخلف وإنجيله معًا .

صحيفة بشر بن المعتمر

وصحيفة بشر مشهورة جدًا وفي كتب كثيرة ، وحفظها كثير من البلاغيين ، وكثير من الشعراء ، وعلمها الكبار للصغار ، وبشر بن المعتمر من الكبار الذين

كانوا يجمعون أصل فكرتهم في جملة أو جملتين ، يَرْمُون بذلك أصل الموضوع في نفوس قرائهم ثم يطيلون الكلام في الشرح والتحليل ، وأصل الفكرة عند بشر هي قوله : « خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها لك» ولو أردت أن تلخص التلخيص ، وقلت إن هذه الثلاثة أصلها خذ من نفسك ساعة نشاطك ، وأن فراغ بالك هو من ساعة نشاطك ، وأن إجابتها لك هو الذي ستأخذه من نفسك ، أقول لو لخصت التلخيص لصح لك ذلك ، وكأن صحيفة بشر وصف للذي نجده جميعًا ، وأن ساعة نشاطك وفراغ بالك هي التي تعطيك فيه نفسك أكرم ما عندها ، واقرأ الصحيفة وستجد كل كلمة فيها وصفًا للذي تجده ، ومن توفيق الله للكاتب أن يكتب للناس ما يجدونه في نفوسهم ، وكأنه كان يَغْمِسُ قلمه في هذه النفوس ، وسيخرج قلمُه ما هو فيها وهي غافلة عنه ، ولذلك يسمون العلم تنبيهًا وإيقاظًا ، وكأن ما في العلم هو عندك ولكنك غافل عنه ، ونائم عنه ، ثم إن بشرًا بعد ما أعْلَمك الذي عندك وأنت عنه غافل حذرك من التكلف ، والتَّوعُر لأن ذلك يفسد عليك كلامك ، وهذا أيضًا معلوم ، ثم إنه نبّه إلى أن المعاني تشرف لذاتها ، وليس لأنها من معاني الخاصة ، ولا ينقصها أنها من معاني العامة ، فالمخاطبون بالمعاني لا شأن لهم في شرفها وعدمه ، وإنما الشأن كل الشأن في مقدار نفعها ، ثم إن المطلوب أن تكون الألفاظ من طبقة المعاني ، فإذا رُمتَ معنى شريفًا فالواجب أن تعبر عنه باللفظ الشريف ، وبراعة الكاتب أن يقرب معاني الخاصة من أفهام العامة ، وأكد بشر على هذا وأكد غير بشر على هذا وهو جيد ، ولا زلنا نعاني منه . أولاً لأن تقريب المعنى البعيد وإدناءَهْ من أفهام الخاصة باب صعب ومحتاج إلى موهبة ، وقد ذكروا أن البحتري مع قِلَّة قليلة من الشعراء وهم الذين يُذَلِّلُون المعاني الصعبة ويروِّضُونها حتى تنقاد ، وذكروا مثالاً لذلك وهو

ترويض المهر الأرِن ، وتلي هذه الخطوة التي هي ترويض المهر الأرن خطوة أخرى وهي تقريبها إلى العامة باللفظ الأعذب ، والبيان الأوضح ، ولم أعرف فكرة واحدة في صحيفة بشر نقضها جيل من الأجيال التي بعده .

وبعد ما فرغ ابن عبد ربه من صحيفة بشر بن المعتمر بدأ بذكر الخطب ، وأولها وأعلاها ، وأسراها خطب سيدنا رسول الله ـ صلوات الله وسلامه ـ ثم ما هو أشبه بها من خطب أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، ثم ذكر خطبًا لمعاوية بن أبي سفيان ، وليزيد بن معاوية ، ولعبد الملك بن مروان ، وليزيد ابن عبد الملك ، ولسليمان بن عبد الملك ، ولعمر بن عبد العزيز ، ثم ذكر خطبًا لخلفاء بني العباس مثل داود بن علي ، وهو من ولد أبي طالب ، وذكر خطبًا للمهدي ، وهارون الرشيد ، والمأمون ، ثم رجع إلى الوراء وذكر خطبًا لغير الخلفاء كابن الزبير ، والحجاج ، وزياد ، وعبيد بن زياد ، ثم ذكر خطبًا للخوارج .

وكانت الخطابة غالبًا لا تكون إلا لمواجهة أمر وبيان الصواب فيه ، وإثبات حُجَّةٍ وتنبيه ، وتحذير من مواجهة ما يجب أن يواجه بعقل ووعي وبصيرة ، ولهذا كانت الخطب جانبًا حيًّا من تاريخ الأمة ، ولو تتبعناها في خطواتها التاريخية ، ودرسنا مادتها وتغيّر هذه المادة في مراحل تاريخ الأمة لهدانا ذلك إلى معرفة أشياء في التاريخ لا تعرف إلا من هذا الباب .

وكانت خطب سيدنا رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده ذكرًا وتذكيرًا وحَثًّا على فعل ما يرضي الله ، وزجرًا عن كل ما يغضبه سبحانه ، وكان فعل الخيرات والصالحات والإحسان في الأرض كان كل ذلك يفهم فَهْمًا صحيحًا ، وأن أهم ما يرضي الله هو الصلاح والإصلاح في هذه الأرض ، مع الإيمان به ، ولذلك

نجد اقترانًا قويًّا في الكتاب العزيز بين آمنوا وعملوا الصالحات ، وليس عمل الصالحات أن تصلي وتصوم فحسب ، ولا يجوز تقييد الصالحات بذلك ، لأنها مطلقة في الكتاب ، ومثلها الإحسان لا يجوز في اللغة ولا في الدين أن تحصُرها في الذي يعطي من يده حسنة ، وإنما هي أن تحسن كل عمل تعمله ، يستوي أن تكون معلمًا أو صانعًا أو زارعًا أو تاجرًا أو ما شئت ، المهم الإتقان الذي هو الإحسان ، والكل يذكر أن الله ﷻ جعل الناس خُلفاء له في الأرض وخَلقهم لعبادته ، وكأنه يقول لهم عبادتي هنا في خلافتي في الأرض ، فاسعوا فيها وكلوا من رزقي ، وصلاتكم وصيامكم إنما هي لإعداد نفوسكم لحسن الخلافة ، فإذا قضيتم الصلاة فانتشروا في الأرض ، وكأن الصلاة أعدتكم لهذا الانتشار وإعمار الأرض ، يَعْني أن تزخر أرضكم بالخير والثروة ، والتقدم ، والقوة ، ولن يكون ذلك إلا بتقدمكم في العلم ، والصناعة ، والحرية والمعرفة ، وهذا هو معنى الدين ، ولهذا قالوا لن تجد خيراً في باطنها ما لم تكن فعلت خيراً في ظاهرها ، ومن خاف الله على ظهْرها وبقي فيها جادًّا مشمراً يبغي الخير لنفسه ، ولقومه ، ويَخَاف الله ، ويرجو عونه ، وثوابه ، لن يخاف الله في بطنها ، لأن الله لا يجمع على عبده مخافتين ، إذا خفته في الأولى أمَّنك في الثانية ، وهكذا كان الحث على مرضاة الله حثًّا على عمارة الدنيا بالخير ، والعدل ، والرحمة ، والبر ، والإحسان .

وكل الخطباء الذين ذكرهم ابن عبد ربه ابتداء من معاوية ويزيد وعبد الملك والمأمون والمهدي والحجاج وزياد كل هؤلاء فيهم صفة واحدة جامعة لهم ، وهي أن معاني كتاب الله كانت قوية في نفوسهم ، ما إن يسوقه كلامه في خطبته إلى معنى يَقْتَربُ من الآيات إلا رأيت الآية على لسانه ، وهذه حسنة لابد من ذكرها ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الحجاج الذي كان يوصف بأنه أخيفش

ثقيف ، كانت خطبه لا تخلو من آيات الله ، وأنه كان يحفظ كتاب الله ويستحضر معانيه .

وبدأت السياسة تداخل الخطب من زمن سيدنا علي ، وكان يَغْلب على خطبه ذكر الله ـ سبحانه ـ ، وجلاله ، وحقّه على عباده ، وذكر الجنة ، والنار ، والقبر ، ثم تجد لوعة في كلام الإمام ، وغضبًا شديدًا من الذين خذلوه ، وكذلك خطب معاوية لا تخلو خطبة من ذكر الله ، وما يجب لله ـ سبحانه ـ ، وذكر الآخرة والعمل الصالح ، ثم يشوبها شوب من سياسة معاوية التي لا يخطئك فيها أن تجد شيئًا يرضيك من مثل قوله : « والله لا أحمل السيف على من لا سيف له » ونتمنى أن يكون هذا داخلة ضمن القسم الذي يقسمه الولاة حين تولية الحكم ، وأنه يقسم أن يحافظ على حدود البلاد وثرواتها ، وأنه لا يحمل السيف على من لا سيف له ، والذي لا سيف له هو الشعب وهم الناس عامتهم وخاصتهم ليعيشوا على أرضهم آمنين ، وإنما يحمل الوالي السيف على عدو البلاد الذي يشهر في وجهها السيف ، ويدع الشعب يعمل ويأمن ، لأنه إذا أمن عمل وأحسن وأخلص وأحب التراب والناس ، وإذا كان سيف الوالي مسلطًا على رأسه فلن ينام ، ولن يأمن ، ولن يعمل ، ولن يحسن ، وكان لمعاوية خطب لا سياسة فيها ، وإنما هي وعظ وتذكير ، وسواء وجدت لها أثرًا في نفسك أو لم تجد فليس من حقك أن تقول إنه هو لم يجده ، وكانت خطب عمر بن عبد العزيز كخطب أبي بكر وعمر كلها متوجهةً إلى ذكر الله ، وهو وغيره يعلم أن ذكر الله إذا زُرِعَ في قلب فلن نجد منه إلا الخَيْرَ في القول والفعل ، كما أنك تجد للحجاج خطبًا خالصة للدعوة إلى الله وخالية مما عهدناه في خطبه من خشونة ، وتهديد ، لا يزال البعض الذين لا يعرفون الفرق بين زمان وزمان يرددونها ، من

مثل قوله : إني لأرى رؤوسًا قد أينَعَتْ وَحَان قِطَافُها ، ولما سمعت ذلك تعجبت للذين يرددون كلامًا كان له سياق دعا إليه في زمانهم وليس له سياق يدعو إليه في زماننا ، بل إنه في زماننا يشعل حرائق نحن في غنى عنها ، والمهم هو خطر أن يتكلم من لا يعلم .

ومن الملاحظ أنك تجد خشونة وتهديدًا في خطاب عمال بني أمية كالحجاج وزياد وابن زياد ، ولا تجد هذه الخشونة في خطاب الخلفاء ، وكأن الخلفاء سَلَّطوا هؤلاء ليخيفوا الناس ، وظلوا بعيدًا عن إثارة الخوف ، ومثل هذا لا يزال باقيا في الناس ، تجد جهاتٍ مُوكَّلَةً بالتهديد ، والتخويف ، والتعذيب والتنكيل ، لكف الفساد والمفسدين ، بينما تجد الوالي بعيدًا بابتسامته الوضيئة وإقباله على الناس وعطفه عليهم ، مع أن كل شيء إنما كان به ومنه ، تجد الحجاج يتطاول على واحد من أكرم أصحاب رسول الله ﷺ وهو عبد الله بن مسعود ، ويقسم بالله لو لقيه ليقتلنّه ، ويسميه عبد هذيل وبنو أمية يسمعون ولا يتكلمون ، وزياد يخاطب أهل البصرة وفيها من قيس وبكر وتميم وأسد وغيرهم من أكرم قبائل العرب ، ويقول لهم زياد ويقسم ليأخذنَّ الوليّ بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح بالسقم ، وهذا كلام لا يقره عقل ، ولا دين ، ولم يَقُلْه أحدٌ في جاهلية ولا إسلام ، وبنو أمية يسمعون ولا يتكلمون ، ولا تزال هذه السياسة الظالمة في الناس ، وأكثر من هذا تجد رجال بني أمية يقتلون الحسين ويقطعون رأسه ، وبني أمية يبكون الحسين ولا يحاسبون من فعل هذا المنكر في ابن بنت رسول الله ﷺ ، وإنما كانوا يرون أن هؤلاء الفجرة من عمالهم يحفظون ملكهم وبئس ملك يحفظه الظلم ، والقتل ، والرعب ، والتخويف .

خطب الخوارج

أما خطب الخوارج فقد ذكر ابن عبد ربه أنه ذكرها لجزالة ألفاظهم ، وبلاغة منطقهم ، ووصف خطبة قطري بن الفجاءة في ذم الدنيا بأنها مُنْقطعة النظير ، كما ذكر خطبة أبي حمزة في المدينة التي سمعها مالك بن أنس وقال فيها إنها شكَّكَت المُستَبصِرَ وَرَدَّت المرتاب ، والذي أعلمه هو أننا في حاجة إلى دراسة الخوارج ، دراسة أكثر عمقًا لأن الذي يحدث في زماننا له شبه به ، وتقرأ عن الخوارج في كتاب الكامل للمبرد فتجد كلامًا لا تقرؤه في غيره ، والمهم هو معرفة الأمر الذي أخرجهم منا ، ثم إنهم لم يخرجوا منا ويبتعدوا عَنَّا فحسب ، وإنما خرجوا علينا وحملوا السيوف في وجوهنا ، وهذا بلاء لا يزال فينا ، وكان الخوارج يقتلوننا ليدخلوا الجنة ، وفينا الآن من يقتلنا لِيَدْخل الجنة ، والذي أراه بسرعة وعلى غيري أن يرى أفضل مما أرى ، هو أنني لم أعرف سببًا لخروج الخوارج من الأمة ثم خروجهم علينا إلا سببًا واحدًا وهو الجهل بدين الله ، لأنهم تعلَّقُوا بالتحكيم وقرَّرُوا قَتلَ علي ـ كرم الله وجهه ـ ، وقتل معاوية ، وقتل عمرو بن العاص ، وسكتوا عن أبي موسى الأشعري مع أنه هو الطرف الذي قبل التحكيم ، وهو الذي خدعه عمرو بن العاص ، ولاحظ أنهم لم يُقرّرُوا قتل الثلاثة إلا لأنهم كفَّروهم ، وهذا هو الخطأ الذي صنعهم ولم يقل أحد بكفر المخطئ ، لأنك إن عمدت إلى الخطأ كما عمد عمرو بن العاص في التحكيم فأنت آثم وباب التوبة مفتوح ، وإن قصدت إلى الصواب ووقعت في الخطأ فلك أجر قصدك إلى الصواب ، وهذا هو الدين الذي لم يختلف فيه أحد ، ولم أعرف كيف اقتنع هؤلاء بكفر المخطئ ، مهما كان حجم الخطأ ، ولم أعرف كيف طلبوا ما عند الله من رحمة بقتل المسلمين ؟ والأحاديث ظاهرة ، وأنه إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، وأن من حمل علينا السلاح فليس منا ، وإذا

التقى المسلمان بسيفيهما لم يذكر سيدنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ علة حمل السلاح ، وأنه مهما كان فالواجب على المسلمين أن ينهوا ما بينهم من خلاف بالتفاهم والحجة ، وأن يكون السيف بمعزل عن خلافاتهم ، هل كان قطري ابن الفجاءة وغيره من رؤوس الخوارج يجهلون هذا الأمر الظاهر في دين الله ؟ لا أجد مبررًا لخروجهم على الأمة وهو من أكبر الكبائر إلا هذا السبب ، كذلك لا أجد مبررًا للذين يقتلوننا الآن ليدخلوا الجنة إلا الجهل المطبق بدين الله ، وإن كان هناك أمر زائد في زماننا وهو أن الخارجين علينا يرون العدو الأشد يحتل أرضنا وهو الأولى بجهادهم ، ثم لم يحركوا ساكنًا ضدَّه ، الجولان يحتلها اليهود ، وهم يضربون أهل سوريا ، ويتركون الجولان تحت أقدام أنجس ما خلق الله ، وقل مثل ذلك في غيرهم ، ومن الصدق الواجب أننا نتحمل وزر هؤلاء لأننا لم نعلمهم دين الله ، وظهر فينا من يقول إن التعليم لا دين له ، والدين مكانه المساجد ، والشارع للسياسة فحسب ، وكان هذا من أثر هذا الفكر الضال ، ولم يحرم الله شيئًا كما حرم الدماء ، وكل المسلم على المسلم حرام ، دمه ، وماله ، وعرضه ، وهذا كلام رسول الله ﷺ وهو مبلغ عن الله ، وكان يكفي صفحة واحدة تضاف لمناهج التعليم فيها هذه الأحاديث غَيْر المحتاجة إلى شرح ، وبهذا نُحصِّنُ أبناءنا ممن يتخطفونهم ، ويَضَعُون المال والسلاح في أيديهم ، ويُقْنِعُونَهُمْ بأنهم إن قتلونا دخلوا الجنة ، ولا أشك في أن كل هذه الجماعات الخارجة من الأمة ، والخارجة عن الأمة هي صناعة عدوها الأشد ، وإن لم تكن صناعة أيدي هذا العدو الأشد ، فهي صناعة الذين يحمونهم ويقولون لو لم توجد إسرائيل لأوجدنا إسرائيل ، والغريب المخزي أن الذي قال هذا تستقبله عواصمنا بالحفاوة والغبطة ، ويرون أن بلادنا تَعْلو وتشرف بزيارته .

قطري بن الفجاءة

وقطري بن الفجاءة الذي خطب خطبة في ذم الدنيا ليس لها نظير كما قال ابن عبد ربه كان يعتقد هذا الاعتقاد الفاسد ، والذي هو الخطر على الأمة مع أن كلمات سيدنا رسول الله ﷺ كانت تجري على لسانه ، وهذا يعني أن كلماته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ سكنت في قلبه ، فهو يقول الدنيا حُلَوة خضرة حفت بالشهوات وراقت بالقليل وتحبّبتْ بالعاجلة .. ولم يُمس امرؤ منها في جناح أمن إلا أصبح منها على جناح خوف .. لا خير في شيء منها إلا التقوى من أقلَّ منها استكثر مما يُؤمّنُه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ، كم واثق بها فجعته ، وذي طمأنينة إليها قد صرعته» ولو طاوعت القلم لكتبت إليك أكثر ، وإذا كان في قلبك يا قطري مثل هذا كيف أقبلت بسلاحك تقتل أهل الشهادتين ، وقد علمت أن رسول الله ﷺ قال من شهد الشهادتين عصم منا نفسه وماله ، وأنكر على أسامة ابن زيد قتله لرجل كان يقاتل في صفوف المشركين ولكنه لما رفع أسامة عليه سيفه شهد الشهادتين ، وقال رسول الله ﷺ لأسامة «أقتلته بعد أن قالها» ويقول أسامة لقد قتل من أصحابك فلانًا وفلانًا ، فلا يزيد رسول الله ﷺ على قوله «أقتلته بعد أن قالها» ثم كيف كفَّرت أهل القرآن ؟ كيف كفرت عليًّا وهو من هو ؟ وكيف كفرت معاوية ، وهو كاتب وحي رسول الله ﷺ ، وكيف شَغَلْتَ الأمة بحربك أنت ومن معك ؟ إذا كان قَدْ هَالَكَ أنْ رأيت المسلمين يضرب بعضهم أعناق بعض في حرب علي ومعاوية فقد هالني الذي هَالَك ، وأذهب عني هذا الذي هالني قول رسول الله ﷺ : «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» ، وأن هذا بلاغ بلغه لنا عن ربنا ، وأن الله ـ سبحانه ـ بلغنا هذا وهو يعلم أنهم سيتقاتلون، ونعلم أنهم متأولون فتركت ما كان بينهم لله الذي يعلم

ما في القلوب ، وتمسكت ببالغه وأنهم كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، وأن علماء الأمة الذين عرفوا ما كان بينهم أجمعوا على أنهم عدول لا يجوز لأحد أن يجرِّح واحدًا منهم ، وبعضهم ذكر أن تجريح أي صحابي كفر ، لأنه رد لكلام رسول الله ﷺ ، أيْنَ كنت يا قطري ومن معك من هذا كله ؟ يقيني الذي ألقى الله عليه أن الذين كانوا مع علي ـ كرم الله وجهه ـ كالنجوم بأيهم اقتدينا اهتدينا ، والذين كانوا مع معاوية كالنجوم بأيهم اقتدينا اهتدينا ، ثم إن الذين كانوا مع علي أوْ مَعَ معاوية إما أن يكونوا من المهاجرين أو الأنصار ، أو التابعين بإحسان ، وقد زكاهم القرآن الذي تجري كلماته على لسانك يا قطريُّ وأنت من شيوخ تميم ، وأنت ترى سيد قومك الأحنف بن قيس الذي حارب مع عليّ ثم صار إلى معاوية لما آل الأمر إليه ؟

أبو حمزة

أما أبو حمزة فله شأن آخر ، فقد خطب في مكة خطبة شغل فيها بوصف الذين معه ، والذين يحارب بهم الأمة ، وأنهم شباب عُمِيَتْ عن الشر عيونهم ، بطيئة عن الباطل أرجلهم ، قد نظر الله إليهم في آناء الليل ، مَنْثنِيَّة أصلابهم بمثاني القرآن ، إذا مرَّ أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقًا إليها ، وإذا مرَّ بآية فيها ذكر النار شَهَق شهقة كأن زفير جهنم في أذنيه .. أنضاء عبادة ، قد أكَلَتِ الأرضُ جباههم ، وأيديهم ، وركبهم» وأسألك يا أبا حمزة ألم تفكر في أن تترك هؤلاء يتعلمون ويتعبدون بإعمار الأرض وعمل الصالحات فيها ، أو يشاركون في جيش الأمة الذي يدافع عن أرضها ودينها ، أو يشاركون في الفتوح وتخليص الناس من ظلم الطواغيت الذين كانوا يصدونهم عن سبيل الله ، وأن تترك أنت سلاحك وفرسك وتُريحُ الأمة منك ، ومن فتيانك ؟ بأي قلب وأي عقل وبأي دين قُدْتَ هؤلاء الذين

أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم لحرب أهل الشهاتين ؟ واستباحة دماء رجال هم من خير أمة أخرجت للناس ؟ وفَرّقْتَ الأمة ولم تشارك في فتنة وإنما صَنعْتَ أنت الفتنة ؟ ولاحظ أنني أكتب في رجال زمن قديم ، وأن الذين حولي هم أشبه الناس بهم ، وكأن الذين يقتلوننا ليدخلوا الجنة إنما جاؤونا من هذا الزمن ، وأن دولة تسمّى دولة إسلامية لا هم لها إلا قتلنا وقتل قواتنا ، وأرضنا المحتلة تحت عيونهم لا يرمون فيها حجراً ، وأن أسماء قيادتها تُشْبِه اسم أبي حمزة ، وأبي مصعب ، وكأنهم أحفاد يحفظون أسماء أجدادهم ، وأظن أن الذين صنعوهم في زماننا يا أبا حمزة قرؤوا تاريخكم وانْتَفَعُوا به ، ونحن قرأناه ولكننا لم ننتفع به ، لأن فلاسفتنا قالوا لنا أبعدوا الدين عن التعليم ، لأن التعليم لا دين له ، فتركنا أبناءنا غنيمة سهلة للضلال وللضالين ، وتلهينا وسمينا المخالفين لنا بأنهم خوارج ، وتركنا الخوارج الحقيقيين ، وأخشى أن يكون هذا تضليلاً لنا دخل علينا من خارجنا .

ثم إن أبا حمزة الجد خطب خطبة في المدينة وسمعها سيدنا مالك بن أنس أحد شيوخ فقهائنا في المدينة ، وكانت المدينة عامرة بالصالحين من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقال أبو حمزة فيها يخاطب أهل المدينة : « نَدْعوكُمْ إلى كتاب الله وسنة نبيّه ، والقسم بالسوية والعدل في الرعيّة ، ووضع الأخماس في مواضعها التي أمر الله بها » ، وهذا لا اعتراض لنا عليه لأن الموعظة والنصيحة لله ولرسوله واجبة ، ولا حرج في أن توجه إلى الصالحين وإن كان أبو حمزة لم يوجهها إلى الصالحين ، لأنه قال بعد ذلك « إنا والله ما خرجنا أشراً ولا بطراً ولا لَهْوًا ولا لَعِبًا ولا لدولة ملك ، نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قد نِيلَ منا ، ولكن لما رأينا الأرض قد أظلَمَتْ ، ومعالم الجَوْرِ قد ظهرت ، وكثر الادعاءُ في الدين ، وعُمِلَ بالهوى وعُطّلَتْ الأحكام ، وقُتل القَائم بالقسط ، وعُنّف القائل بالحق ،

وسمعنا مناديًا ينادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فأجبنا داعي الله ، فأقبلنا من قبائل شتى قليلين مستضعفين في الأرض فآوانا الله وأيدنا بنصره ، إلى آخره» .

لاشك أن ظهور هذا الفكر المبكر كان ولا يزال خطرًا على الأمة ، وأصله فساد الفهم ، لأن الله حرَّم الخروج على الحاكم بإجماع الأمة إلا أن يكون منه كفر بواح، وأبو حمزة يدعو الناس إلى كتاب الله وسنة نبيه وفيهم مالك بن أنس ، وكأنه يدعو غير المسلمين إلى الإسلام ، ويقسم أنه لم يخرج هو ومن معه إلا لأن الأرض قد أظلمت ، وكأن الإسلام الذي هو النور ذهب والكفر رجع وهو يخاطب أهل المدينة ، وهذا يعني أنه كلما ظهر فينا فساد ومخالفات لدين الله خرج علينا ناسٌ بالسيوف وليس بالنصح الواجب شرعًا ، مع العلم بأن رسول الله ﷺ بُعِثَ وفي الأرض ظلمات فوق ظلمات ، ولم يبعث بالسيف ، وإنما بعث بالكتاب والحكمة الذي هو النصح ، وهذا هو الطريق الذي ضَلّه الخوارج في الزمن الأول ، وضلّه الخوارج في الزمن الذي نحن فيه ، وكأن أبا حمزة لا يزال فينا ومعه صاحبه أبو مصعب ومعهما مسيلمة الكذاب ، لم يخل زماننا من هؤلاء ، وإن كان مسيلمة لم يخرج علينا بالسيف وإنما خرج علينا بدين جديد يتغيّر بتغير الأحْوال والأزمان ، مَثَلُه كمثل الموديلات ، وإذا أنكر العلماء هذا التغير غضب مسيلمة ومن حوله ووصفوهم بالجمود والجهل بالموديلات الجديدة .

واسمع أبا حمزة وهو يخاطب أهل المدينة وفيهم مالك بن أنس وليس أعلمهم ، لأن من بينهم من هو أعلم من مالك ، قال أبو حمزة أو أبو مصعب : «يا أهل المدينة أوَّلُكُمْ خيرُ أوَّل ، وآخركم شر آخر ، إنكم أطعتم قراءكم وفقهاءكم ، فاختانوكم عن كتاب غير ذي عوج ، بتأويل الجاهلين ، وانتحال المبطلين ، فأصبحتم عن الحق ناكثين أمواتًا غير أحياء وما يشعرون» راجع

الشتائم وأن الذين في المدينة وإن كان آباؤهم خير أول فهم شر آخر ، مع أننا مع الجيل الثاني لأننا لم نبلغ منتصف المائة الثانية من الهجرة ، وأن شر الآخر عند أبي حمزة هم التابعون بإحسان ، ثم لم يكتف بذلك وإنما شتم القراء وشتم الفقهاء واتهمهم بتزوير معاني كتاب الله ، وأنهم فسروا لهم القرآن تفسير الجاهلين وأوَّلُوه تأويل المبطلين ، ومالك بن أنس وجُلّ فقهاء المدينة يسمعون ، وأن التابعين بإحسان أصبحوا عن الحق ناكثين أمواتًا غير أحياء .

ولو أن أبا حمزة من أهل العلم أو من أشباه أهل العلم لسلك طريقًا آخر ، وهو بيان تأويل فقهاء المدينة وعلمائها الذين أولوا تأويل الجاهلين ثم فسّر وبين تأويل العلماء العاملين ، وإذا رأينا الرجل في مقام الاختلاف العلمي يسلك طريق الاتهام والشتائم ، فاعلم أن المسألة ليست علمًا وإنما وراءها ما وراءها ، وإلى الآن لم أعرف الذي كان وراء أبي حمزة وشيعته .

ثم انتقل ابن عبد ربه إلى كتاب التوقيعات ، والفصول ، والصدور ، وأدوات الكتابة ، وأخبار الكتاب وأبرز ما في هذا الكتاب هو أن كل فُصُولِهِ وصُدُوره وتوقيعاته من الكلام الذي تُختار له المعاني ، وتختار له الألفاظ، وهو صور عالية للبلاغة العالية ، والعناية بالبلاغة العالية أمر ملازم لابن عبد ربه ، وكذلك هي أمر ملازم لابن قتيبة ، والرجلان معنيان عناية بالغة ببناء الإنسان ، ولم يَفْعل في بناء الإنسان شيء أقوى من فعل اللغة العالية لأنها هي نفسها مُكوِّن أساسي لبناء العقل الإنساني ، ليس لأنها وعاء العلم فحسب ، وهي الطريق له وإنما لأنها هي نفسها تعلم العقل ، وتكون العقل ، وتجهز الإنسان لمهمته الأساسية التي خلقه الله لها وهي الخلافة في الأرض ، وجعل هذه الخلافة هي عبادة الله في أرضه ، وجعل الأرض كلها مسجدًا لهذه العبادة ، وقالوا إن هذه العربية تعلم العقل ، وإذا قرأت

تاريخ نهضات الأمم وجدتها كلها تبدأ بالنهضة اللغوية التي تعد الإنسان للنهوض ، وقد حدَّثنا ربنا أن الأمة التي أغفلت بناء الإنسان واهتمت ببناء الأبْنية في كل ريعٍ أي في كل مرتفع من الأرض ، فُوجئت بالأيام النحسات لأنها سلكت غير الطريق المألوف ، وهو بناء الإنسان الذي هو الضامن لفعل الخيرات وعمل الصالحات في هذا الوجود ، وقد عَمَرُوا الأرض أكثر مما عمرها غيرهم ، وكانوا أشد من غيرهم قوة ولكنهم أهملوا بناء الإنسان فدمرتهم الأيام النحسات ، ودع كل كلامي وتأمل شيئًا واحدًا وهو أن الله ـ سبحانه ـ بدأ إعداد آدم للخلافة بتعلم الأسماء أي اللغة وهذا حسبك .

فضل الكتابة والكُتَّاب

وذكر ابن عبد ربه فضل الكتابة والكُتَّاب ، وأن الله ﷻ ذكرها لنا في أول سورة نزلت ، وأنها نعمة من أجَلِّ نعمه سبحانه ، وأنه ﷻ علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، ووصف الكُتَّاب بأنهم كرام كاتبون وأنهم سَفَرَةٌ كرامٌ بَررَةٌ ، وهذا يعني أن الأصل في حملة الأقلام الذين يبنون الإنسان أن يكونوا أهل صدق ، وأهل حُبٍّ ، وأهل إخلاص ، وأهل ولاء لأوطانهم ، ولقومهم ، ولدينهم ، فإن كانوا كذابين أو منافقين دمروا هذا الإنسان ، وزلزلوا يقينه ، وربما كان ذلك لحساب الآخرين .

وراجع كلمة « سَفَرة كرام بررة » نعم هم سفرة بين العلم الذي هو أشرف ما في هذا الوجود ، والإنسان الذي أكرمه الله وسخر له البر والبحر ، ثم هم كرام لأن الكتابة عطاء ، وهم بررة لأنهم يُصَفُّون ويُنَقّون ويُراجعُون ويختارون كل ما يكتبونه لأقوامهم ، وأهم ما يجب أن يُعْنى به كل من له مدخل في بناء الإنسان هو أن يُقر بالحق إذا تبيَّن له ببرهانه ، لأن هذا الخُلق أو السلوك هو أوليَّةٌ إنسانية الإنسان ، وليس في الأرض أكرم من الذي ينقاد للحق إذا عرفه ، وليس في الأرض أسوأ من

الذي يُنكر الحق ويجحده بعد ما تبين له ، وإذا تجهّز الإنسان وصار يُقر بالحق بعد ما تبين فقد تجهّز لإعمار الأرض بالحق والعدل والبر والرحمة ، ولا أعرف في القرآن غضبًا لله أشَدَّ من غضبه على الذين ينكرون الحق بعد ما تبين لهم ، وقد أرخى سبحانه العنان لأهل الباطل في جملة جليلة جدًّا لو فطنوا إليها لم يبق في الأرض واحد من أهل الباطل ، هي قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ (البقرة:١١١) ومعناها أن كل حق له برهان يُبَيِّنُه ويؤكّده ، فإذا كنتم بعبادتكم المعبودين بالباطل على حق ، فمن المقطوع به أنكم ستجدون برهانًا لهذا الحق ، فهاتوه ، وإذا جئتم به سنسلم لكم بالذي أنتم فيه ، وهو سبحانه يعلم أنه لا برهان لهم ، وإنما هي فُسحة للمراجعة والتدبر عسى أن تهديهم الفطرة السليمة إلى معرفة الصواب .

ومن شدة الحرص على صواب ونقاء وصفاء وصدق ما تكتبه الأقلام المشاركة في بناء الإنسان ، وأن كل ما تكتبه هذه الأقلام يسلك سبيله إلى قلوب وأبناء هذا الوطن الذين هم خير ما في الوطن ، وأن حُبَّنا لأوطاننا لا معنى له إلا حب هذا الإنسان الذي تراه يغدو ويروح على تراب هذا الوطن ، وأن هذا الإنسان هو لَيْلانَا التي قال فيها جدنا القديم :

وما حُبُّ الديارِ شَغَلْن قلبي ولكن حُبُّ من سَكَن الديارا

أقول من أجل فرط العناية ببناء هذا الإنسان ذكر ابن عبد ربه كلامًا عجيبًا جدًّا ، لو طبقناه لأخذنا الأقلام من كُتَّاب كثيرين ، وهو أنه يجب في الكاتب أن يكون مثل القاضي في الصدق والعلم والأمانة ، ولم أعرف أن علماءنا جمعوا صفات الفضل والأمانة والنزاهة والعلم والوَرَع كما جمعوها للقاضي ، حتى إن بعض علمائنا لما راجعوا الصفات التي أوجب العلماء أن يَتَحلَّى بها القاضي ، قالوا إن

اجتماع هذه الصفات في إنسان أمر بعيد جدًا ويوشك أن يكون مستحيلاً ، وذلك لأن القاضي تُناط به حقوق الناس ، وهي عند الناس كدمائهم ، ثم هو الذي يدفع الظلم عن المظلوم ، ويأخذ حق أضعفنا من أقوانا ، وإذا كنت في دولة فيها هذا القضاء كنت آمنًا كل الأمن ، وتعلم أنك ما لم تُسئ فلن تُساء ، ولم يحرص على نقاء القضاء وصفائه إلا النظام السياسي الرشيد المحب للعدل ، والمحب للخير لأبناء هذه الأرض ، وعكس ذلك إذا كان القضاء قد دَاخله الفساد فلن تأمن أن تُتهم زورًا وأن تصبح في بلاء وهمّ وغمّ ، ثم إن القضاء العادل ليس حاميًا للمظلوم من الظالم فحسب ، وإنما هو يحمي الظالم نفسه ، فلا يوقع عليه عقوبة تزيد على ذنبه مثقال حبة من خردل ، لأن الفقه الذي يقضي به يقول إذا زيد في عقاب الظالم مثقال حبة من خردل صار الظالم مظلومًا ، وهكذا تكون الحياة في ضوء شرع الله ، وفي ضوء الفطرة الإنسانية غير الملوّثة ، وهذا هو الفقه الواجب أن يكون شائعًا بين أبنائنا ، وقد كان ساستنا في زمن قوتنا ومَنعَتنا وتقدُّمنا يعرفون كل ذلك ، ويعرفون قيمة القاضي المُنْصف ، والكاتب الصادق ، وقد حدث أن أبا جعفر المنصور غضب على بعض الكُتَّاب وحَبَسَهُم ، فأرسل الكُتَّاب إليه رسالة ليس فيها إلا بيت شعر واحد وهو :

ونحن الكاتبون وقد أسأنا ... فهبنا للكرام الكاتبينا

فعفا عنهم وأطلقهم من حبسهم ، ولك أن تنظر في وقع هذا الموقف الفاهم المتحضر من المنصور في نفوس حمله الأقلام ، وأنه يعفو عن المسيئين المقرين بإساءتهم من أجل الكرام الكاتبين ، ولا تنس أن إساءة الكاتبين غالبًا ما تكون إساءة إلى سياسة الدولة ، ولهذا كان خطأ الكُتَّاب والصحافيين من الأخطاء التي لا كفارة لها عند الأنظمة التي دخلت السياسة من الباب الآخر .

يقول ابن عبد ربه في الجمع بين الكاتب والقاضي : «وللكُتَّاب أحكام بيّنة كأحكام القضاة يعرفون بها وينسبون إليها ، ويتقلدون التدبير وسياسة الملك بها ، دون غيرها ، وبهم يُقَام الدين وأمور العالمين» القسم الأول من هذا النص يشير إلى أنه كان للكُتَّاب ما يشبه ميثاق شرف المهنة يعرفه الكل ويلتزم به الكل ، وهذا معنى قوله : «أحكام بينة كأحكام القضاء» وأن الخروج عليها يعني خروجه من جماعتها ، وكأنها نقابة ، والحال كذلك في القضاء له ضوابط راسخة ملزمة لكل من يَعمل في هذه المهنة ، وأن من يتزحزح عنها يخرج من هذه الجماعة . وقوله : «يتقلدون التدبير وسياسة الملك بها» يعني أن هذه التقاليد هي التي تُثَبِّتُهم في مواقعهم ، وليس الشهادة ولا أي شيء إلا المحافظة على أخلاق المهنة ، وشرف الانتساب إليها ، وهذا ظاهر وكأنه مقدمة لقوله : «وبهم يُقَامُ الدين وأمور العالمين» وهذه الجملة مختصرة اللفظ متسعة المعنى ، وأن إقامة الدين هو الطريق لإقامة وسداد وصفاء وصواب أمور العالمين ، لأن العالمين خلق الله والدين كُلُّه لله ، وأن الله ـ سبحانه ـ خلق خَلقَه ولم يتركه سُدًى أي مُهْملاً بلا رَاعٍ يرعاه ، يقال إبل سُدًى أي لا راعي لها ، وإنما شرع لهم من الدين ما وصَّى به أنبياءه ، وجعل هذا الدين هو طريق الفلاح ، والنجاح في الدنيا ، والآخرة ، ودينه هو صراطه المستقيم الذي ندعوا الله أن يهدينا إليه في كل صلاة ، وسورة الفاتحة مؤسسة على ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة:٦) والذي قبله تهيئة للإنسان لأن يَدْعو بهذا الدعاء ، لأن الذي قبلها ذكر لله ورحمته وحمده وبيان جلاله ، وأنه مالك يوم الدين ، ثم ندعوا بالهداية إلى الصراط المستقيم ، وما بعد هذا الدعاء هو بيان للصراط المستقيم ، وأنه ليس صراط المغضوب عليهم ولا صراط الضالين ، وإنما هو صراط المهتدين الذين ترضاهم وترحمهم ، وأن أمور العالمين لا يقيمها

إلا هذا الدين ، لأن العالمين خلقه ، والدين دينه ، ولا تستقيم أمور المخلوق لله إلا بالدين الذي كله لله ، وقد نعى الله ﷻ من يَعْبدُون الذي لم يَخْلُق لأن عبادة غير الخالق من الضلال المبين ، وإذا كنتُ لم أكُنْ إلا بخلقه فكيف أعبد غيره ، المسألة مسألة عقل : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ﴾ (البقرة:١١١) ولن تجدوا لكم برهانًا ، ثم إن ضلالهم لم يقف عند عبادة من لا يخلق ، وإنما نزلوا دركًا آخر لأن هؤلاء المعبودين يُخْلَقون ، والواجب على هذا المعبود أن يعبد من خلقه فكيف تعبدون من وجب عليه أن يعبد من خلقه ، جملة ابن عبد ربه تربط صلاح العالمين بإقامة الدين وهو ما يقتضيه النظر العقلي فضلاً عن النَّقْل ، ثم إن غير الإنسان من الأحياء المخلوقين لله لم يكلفوا بشيء ، وقد أوْصَى الله بهم عباده المكلفين بكلمة واحدة بلَّغها لنا رسول الله ﷺ وهي قوله : « في كل ذات كبد رطبة أجْر » وما دام فيها أجر إذا راعيت الله فيها وأكرمتها وأطعمتها ، ولم تحملها من الأمر ما لا تطيق ، فإن فيها عقابًا إذا لم تراع وصية الله فيها وأهنتها وأجعتها وحمَّلتها من الأمر ما لا تطيق ، فإقامة الدين للعالمين من الإنسان وغير الإنسان ، ثم إن في هذه الجملة شيئًا آخر وهو أن إقامة أمور الدين ليست مسؤولية علماء الدين فحسب ، وإنما هي مسؤولية من له عقل وفهم وبصيرة من الكُتَّاب وغير الكُتَّاب الذين يديرون شؤون الناس ، وهم ليسوا الساسة فحسب ، لأن الذي يدير شؤون الناس هم كل الناس الذين يديرون أي شأن وما منا إلا من يدير شأنًا ، وأن هذه الجماعة التي تدير شؤونها هي التي تتقدم بها أو تتخلف بها على وفق اجتهادها ، ونشاطها ، واحتشادها ، وقوة رغبتها في أن يكون يومها أفضل من أمسها ، وأن يكون غدها أفضل من يومها ، ومن فكر التخلف أن يعتقد الناس أن تقدمهم مسؤولية أهل السياسة وحدهم ، نعم أهل السياسة عليهم عبء أكبر ، وكل عليه

من العبء ما يناسب طاقته وقدرته ، ودعوتي لكل من أُحبَّ أن يشغل الله قلبه بالحرص على إيقاظ هذه الأمة ، وأن يَحْشِدَ كل طاقته لتخرج من التخلف الذي ليس منها وليست منه ، لأنها خير أمة أخرجت للناس ، وحسبك شرفًا أن تكون منها .

بلاغة الكلام

وصف ابن عبد ربه بلاغة الكلام بقوله : « أشرف الكلام كله حُسْنًا وأرفعه قدرًا ، وأعظمه من القلوب مَوْقعًا ، وأقله على اللسان عملاً ما دل بعضه على بعض ، وكفى قليلُه عن كثيره ، وشهد ظاهره على باطنه » وقلما يمر يوم من غير أن نقرأ فيه شيئًا في شرف الكلام ، وبلاغته ، وقَلَّما نقرأ من ذلك شيئًا من غير أن نجد فيه لَمْحة جديدة ، ليست في الذي قرأناه قبله ، لأن وصف الكلام بالبلاغة في باطنه زخر مَذْخُور من المعنى لا يبين لك إلا بالتدبر ، والقراءة من غير تدبر قراءة كعدم القراءة ، لأن القراءة لا معنى لها إلا التدبر والمراجعة والبحث في ظاهرها عن باطنها ، ولا شك أن ابن عبد ربه في وصفه هذا لبلاغة الكلام إنما تحرَّى في وصفه واستعمل لغة شريفة حسنة عالية القدر ، وحين أطبق مضمون كلامه في وصف البلاغة على وصفه للبلاغة لا أكون مخطئًا لأنه كغيره يأتي باللغة الشريفة في بيان المعاني الشريفة ، وابن عبد ربه شاعر له شعر يرتقي إلى مستوى الشعراء المذكورين ، وتلاحظ في نَصِّه هذا أنه دقق وأطال في ذكر الكلام العالي ، ثم ذكر في أول قوله « ما دل بعضه على بعض » سبب علو الكلام العالي ، أما الكلام الذي أراد أن يُبيّن علته فهو أشرف الكلام حسنًا هذه واحدة ، وأرفع الكلام قدرًا ، وهذه ثانيه ، وأعظمه في القلوب موقعًا ، وهذه ثالثه ، وأقله على اللسان عملاً ، وهذه هي الخاتمة ، أما الشيء الذي تَحَقَّقَتْ به هذه الأوصاف الأربعة فهي ما دل بعضه على

بعض ، وهذه واحدة وما كفى قليله عن كثيره ، وهذه ثانية وشهد ظاهره لباطنه ، وهذه هي الأخيرة ، ولا شك أن قوله ما دل بعضه على بعض متحقق في الجمل الأربع الأولى ، لأن قوله وأرفعه قدرًا داخل في قوله أشرف الكلام حسنًا ، وأشرف الكلام حسنًا دال عليه ، وإنما عظم موقعه في النفس لشرفه ودلالة بعضه على بعض ، ثم إن هذا الوصف « كَفَى قليلهُ عن كثيره » لأنك لو حاولت أن تستقصي شرف الكلام ورفعة قدره وعظم موقعه في القلب لقلت الكثير ، وبقي دلالة ظاهره على باطنه ، فأي باطن في هذا النص وكيف دل ظاهره عليه ؟ أما ظاهر هذا الكلام فهو الذي تقرؤه ، وهو شرفه في الحسن ، وارتفاع قدره وعظيم موقعه في القلب ، وأما باطنه فهو الشيء الذي في الكلام من لفظ ومعنى أورثا الكلام هذه الصفات ، وعلينا إذن أن نبحث عن المعاني وسدادها وإصابتها ، وأن نبحث في لغتها وكيف أبانت عن هذه المعاني ، وكيف استَقْصَتْها ، وكيف كانت الإبانة بينة واضحة ، وكيف كانت خالية من الكلفة التي من شأنها أن تكدِّر عمل اللسان ، وأي شيء أجراه المتكلم في لغته حتى أشرق فيها المعنى ؟ وأي شيء أجراه فيها حتى كثر ماؤها وحسنت وراقت ديباجتها ؟ وأي شيء أجراه في القلوب حتى عَظُم موقعها ، وأي شيء في الكلام صار به دالاً بعضه على بعض ، وكيف كان هذا الترابط ، وهذا التماسك ، وفي الكلام معان كثيرة ، قد تَقْترب وقد تَبْتَعد ، فإذا ابتعدت فأي شيء في البيان العالي قرَّب هذا التباعد ، وجعل البعيد ممسكًا بالبعيد ، وكأنه صار قريبًا وكيف أضمر باطنًا وراء هذا الظاهر ؟ وكيف أحدث في الظاهر إيماءة إلى هذا الباطن ؟ وهكذا تصبح أمام غابة في اللغة ، وراءها أسرار ، ومن وراء الأسرار أسرار .

وذكر ابن عبد ربه قول الخليل بن أحمد في البلاغة ، وقد سئل الخليل وقيل له ما البلاغة ؟ قال : ما قَرُبَ طرفاه ، وبعد مُنْتهاه ، وهذا السائل الذي سأل الخليل

عن البلاغة سائل فيه ذكاء وفهم ، ونفاذ عجيب ، لأن الخليل شيخ من كبار وكرام شيوخ النحاة ، وكأنه نفذ إلى أن البلاغة ساكنة هناك في مُسْتَسَرِّ النحو ، وأن الذي أخرجها من هذا المسكن البعيد الغَوْر في مُسْتَسَرّ النحو شيخ نحوي من رأسه إلى قدمه بعد ثلاثة قرون من زمن الخليل وزمن سائله ، وكأن هذا السائل كان يرى الغيب من ستر رقيق كما قيل في عبد الله بن عباس، وجواب الخليل بقوله «ما قرب طرفاه وبعد منتهاه» يعني ما قل لفظه وكثر معناه ، وأنا أقول هذا لأنني حفظته ، والخليل يقول ما قرب طرفاه وبعد منتهاه ليس لأنه حفظه وإنما لأنه استخرجه ، وفرق شاسع بين من يتكلم بكلام حفظه عن العلماء ومن يتكلم بكلام استخرجه هو من البيان الذي هو الكلام ، وقد قال الخليل في تعريفه هذا للبلاغة كلامًا ما قَرُبَ طرفاه ، وبعد منتهاه ، فحقق لنا معنى البلاغة بجملة هي من حاق البلاغة ، وبمثل هذا يتكلم الكرام الكبار ، وذكره ابن عبد ربه في قوله : وكفى قليله عن كثيره ، وظني أن الذي ساعد أهل البيان على الإيجاز هو ذكاء الذين يخاطبونهم ، ولما بلغَتْ قريش ذروة البيان في زمن سيد الخلق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان من أهم ما تميز به بيانه هو جوامع الكلم ، وقد أدرك عليه السلام أن جوامع الكلم لا تتم على وجهها إلا بعون من الله ، لصعوبة صناعة الكلام الذي تَقَارَبَ طرفاهُ وبَعُد مُنتهاه ، قال عليه السلام : «إنما أوتيت جوامع الكلم» فأشار إلى أنها في كلامه عليه السلام مع كثرتها وسدادها إنما هي بمدد وعطاء من الله .

وذكر ابن عبد ربه قول سهل بن هارون : (سياسة البلاغة أشد من البلاغة) وهذا من الكلام الذي تقارب طرفاه وتباعد منتهاه ، وذلك لأنه جعل سياسة البلاغة جزءًا من البلاغة ، وسياستها يَعْني أن تقوم بصناعة كلام بليغ ، ولن تكون بلاغيًّا بحفظك لمتون البلاغة وشروحها ، وإنما لابد أن تكون لك قدرة على تحويل ما في هذه المتون والشروح إلى واقع بياني لا تُرى فيه البلاغة متونًا وشروحًا ، وإنما تُرى فيه

البلاغة بيانًا كالبيان الذي استخرج منه البلاغيون هذه المتون وهذه الشروح ، وقل مثل ذلك في النحو ، لن تكون نحويًّا بحفظ كتاب سيبويه ونظائره من الكتب التي درست أبواب النحو ، وإنما لابد أن تكون مع هذا قادرًا على أن تجري هذا النحو في بيان عربي مُبين ، كالبيان الذي استخرج منه النحاة النحو ، وقل مثل ذلك في كل العلوم ، لن تكون فقيهًا بحفظ الفقه ، وإنما لابد أن تكون قادرًا على أن تستنبط فقهًا من الكتاب والسنة ، ولن تكون مفسرًا بحفظ كتب التفسير ، وإنما لابد أن تكون عندك ملكة تُفَسِّرُ بها آيات الله تفسيرًا فيه من الدقة والفهم والاحتياط ، كالذي تعلمته من كتب التفسير ، وهذا يدخل في الباب الذي قالوه في قولهم إن العلم ينادي العمل ، فإن أجابه العمل بقي العلم ، وإن لم يجبه العمل ارتحل العلم ، وهذا هو العلم الذي يغيّر حياة الناس ابتداء بتغييره حياة من تَعَلّمه ، ثم حياة من عَلّمَهم ، ثم حياة الأمة كلها ، ولا وجود حقيقي لعلم لم يحدث هذا التغيير ، ولاحظ أنني لم أستوف جملة سهل بن هارون ، ولم أشرح منها إلا أطرافًا لو سكتُّ عنها ما نقص ذلك منها شيئًا ، لأن سياسة البلاغة التي أرادها سهل بن هارون والتي هي أشد من البلاغة هي البلاغة المعروفة في زمن سهل بن هارون ، وكانت أفكارًا عامة كالذي قاله الخليل وابن عبد ربه ، أو كانت الرمز والإيماء والإشارة في خفاء والتنبيه إلى مكان الدفين ليبحث عنه ويخرج ، كما وصف عبد القاهر التراث البلاغي الذي كان بين يديه في قرب نهاية القرن الخامس ، يعني بعد زمن ابن هارون بقرون ، وليس هناك مانع من أن يكون عقل وذكاء سهل بن هارون نفذ إلى شيء من هذه الرموز والإشارات ، وأن عقلية سهل بن هارون في النفوذ إلى ما يمكن أن تَنْفُذ إليه ليست أقل من عقلية عبد القاهر الذي حوّل الرموز والإشارات والإماءات إلى علم احتاج إلى ضبط معاقده فضبط السكاكي هذه المعاقد ، ولا شك أن التنبيه والمجاز والبديع لم يكن قبل زمن عبد القاهر من

الرمز والإيماء ، وإنما كان مدروسًا على الأقل نصف دراسة ، المهم أن سهل ابن هارون يقول إن الأصعب من معرفة البلاغة هي أن توقعها في الكلام في مواقعها ، كما قال عبد القاهر بعد ذلك إن البلاغة ليست معرفة التقديم والتعريف والتنكير ، وإنما أن توقع هذه الفنون في مواقعها في بناء الكلام ، وهذا من سهل ابن هارون تفكير جيد جدًّا ومتقدم جدًّا .

الخلفاء

ثم شغل ابن عبد ربه بالخلفاء وأخبارهم وتوقيعاتهم مبتدئًا من عمر ، ثم عثمان ، ثم معاوية ، ثم يزيد ، ثم خلفاء بني العباس ، ثم ذكر فصولاً في الأدب والبلاغة وأبواب المعاني ، وكلها مختصرات من كتب الأدب والتاريخ ، وقيمتها أنها مُقَدَّمة لعامة الأمة ، وذلك لرفع مستواهم العلمي والاجتماعي لينعكس ذلك على جهادهم واجتهادهم في تقدم أوطانهم ، لأن العلم والمعرفة هو زاد التقدم ، ولابد أن يشارك عامة أبناء البلاد في تقدم البلاد ، وأن يكون ذلك حيًّا في ذاكرتهم ومقصودًا من مقاصد حياتهم ، أمَّا الغفلة والاستراحة مع الجهل والتخلف فهذا مُخْجلٌ ، ولست أدري كيف نَلْقَى رسولَ الله ﷺ وقد عشنا في أمته وهي في ساقة الأمم ولم نحاول أن نوقظها وندعوها إلى أن تكون خَيْرَ أُمَّةٍ أخرجت للناس ، ولا أشك في أن الله ﷻ الذي قال لنا : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠) سيحاسبنا لأننا لم نعمل فيها لتكون خير أمة أخرجت للناس ، وكل من يزعم أنه سينهض بالبلاد مع فرقته أو جماعته أو مؤسسته دون أن يكون هناك تغيّر عام يوقظها من أقصاها إلى أقصاها ، فهو إما جاهل أو مُخادع ، لأن التاريخ يقول خلاف هذا ، واشتغالى بكتابة ابن قتيبة وابن عبد ربه لم يكن إلا لهذا ، ولم يكتب ابن قتيبة عيون الأخبار إلا لاسْتِنْفَارِ الأُمَّة من أقصاها إلى أقصاها لتظل

خير أمة أخرجت للناس لأنها كانت كذلك ، وكذلك قل في ابن عبد ربه ، قلت إن ابن عبد ربه ولد وعاش ومات في الأندلس في أيام زهائها وزهوها ، وكان شديد الحفاوة بها وبرجالها وبحضارتها ، وتقدمها ، وقد ذكر رجالها وقادتها ، وكانت له طُرْبةٌ وغِبْطةٌ حين يتكلم عن الأُمويين في الأندلس ، وقد أكرمه رجالهم ، ولو لم يكن للأمويين في التاريخ الإسلامي إلا فتح الأندلس لكان ذلكم كافيًا ، وقد صَبَرَ على تسجيل تاريخ زياد ، وابن زياد ، والحجاج ، والبرامكة ، والطالبيين ، وتجاوزت كل ذلك لأننا لسنا في حاجة إلى ذكر الحجاج وزياد وابنه ، وعندنا من أمثالهم ما يكفي ، ثم إنني أكره أن أقرأ ما كان لأبناء أبي طالب على يَدِيّ بني أمية وعلى يدي بني العباس الذي هو أخو أبي طالب ، مع أنني كنت ألاحظ أحيانًا أن العباسيين كانوا يلاطفون الطالبيين ولكن الطالبيين كانوا يرون أنهم أحق بالملك من بني العباس ، وأنا لست مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، والذي ألقى الله عليه هو أن ولاية أمر المسلمين لا صلة لها بالقرابة من رسول الله ﷺ ، ولو كان لها صلة بالقرابة ما سكت عنها رسول الله ﷺ لأنها حينئذ تكون من الدين ، وكان يكون بلاغها إلينا من الدين ، ولم يسكت رسول الله ﷺ عن بلاغ شيء من دين الله ، ولو كان لها صلة بالقرابة ما قبلها أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولما اجتمع الأنصار في ثقيفة بني ساعدة بعد وفاة رسول الله ﷺ ليختاروا من بينهم من يتولى الأمر ، ولم أقرأ كلمة واحدة للإمام على تفيد أنه يرى أنه أحق بالخلافة لقربه من رسول الله ﷺ ، وإنما بايعه المسلمون بعد مقتل عثمان ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ ، ولم يبايع معاوية مُتَذَرِّعًا بِدَمِ عثمان ، ولم يحاربه علي ـ كرم الله وجهه ـ إلا لرفضه البيعة ، وهذا شيء وحبنا لآل رسول الله شِيء آخر ، ونحن نحبهم أكثر من حبنا لحكامنا ، وربما أبعدهم الله عن ولاية أمر المسلمين إكرامًا لهم ، لأن الله يعلم أن

الناس في كثير من الأحوال يكرهون حكامهم ، وقد كتب المرحوم أنيس منصور جملة لا أزال أذكرها قال : إنه يعرف كثيراً من الناس يكرهون حكامهم ، ولم يعرف حكامًا يكرهون شعوبهم إلا في الزمن الذي كان يعيش فيه ، ولهذا أرى أن الله ﷻ لم يلزمنا بأن نُولِّي أمْرنا لآل بيت رسول الله ﷺ إكرامًا له ﵇ وإكرامًا لأهل بيته ، ثم إن الله ﷻ حسم الأمر بكلمة واحدة هي : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَنكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣) و﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة:٧-٨) فليكن الذي يتولى أمرنا من شؤون دنيانا لنحاسبه ونعارضه ، ونخشوشن عليه ويخشوشن علينا ، والمودة في القربى بمعزل عن هذه الساحة ، وقد تكلم ابن عبد ربه في أيام العرب وعدّها يومًا يومًا ، وذكر القبائل ورجال القبائل وقادة القبائل في هذه الحروب ، ولم أر لذكر شيء من ذلك فائدة ، وإن كنت أدركت أن أخوة النسب لم تَعْصِم الدم العربي من سيف ابن أبيه ، لأن الحروب كانت تكون بين قبائل هم أبناء أب واحد ، والذي عصم الدم هو الشهادتان ، وكلما رأيت دماء بين أبناء شعب واحد أيقنت أن سببها هو ضعف الدين ، وقد أمَرنا بأن نصلح بينهم ، ولكن ضَعْف الدين أيضًا جعل كل فريق من المتقاتلين يمده فريق من العرب لأنه يريد له أن ينتصر ، وحساب الكل على الله ، والله أعلم .

* * *

المبحث الثالث

كِتَابُ زَهْرِ الآدَابِ وَثَمَرِ الأَلْبَابِ

لأبي إسحاق إبراهيم الحُصري القيرواني

المتوفى سنة ٤١٣هـ

رأينا ابن قتيبة في عيون الأخبار شديد العناية باللغة العالية ، وكذلك كان ابن عبد ربه في العقد الفريد ، ولم نجد في زهر الآداب شيئًا يشغل أبا إسحاق عن هذه اللغة العالية التي جعل كتابه وقفًا عليها ، ومادة الكتاب هي اختيار الكلام العالي شعرًا كان أو نثرًا ما قاله القدماء والمحدثون وأهل العصر الذي عاش فيه أبو إسحاق ، وليس في الكتاب أبواب ، ولا فصول ، ولا قضايا فكرية ، ولا حديث عن السلطان ، ولا حديث عن السياسة ، ولا حديث عن الحرب والسؤدد ، إلى آخر ما شغل به ابن قتيبة نفسه ، ومثله ابن عبد ربه ، وإنما الكتاب له غاية واحدة هي أن يضع بين يديك حُرّ الكلام والمختار من مختاره ؛ ثم يتابع هذا الحر وهذا المختار وجريانه في ألسنة الشعراء والكُتَّاب ، وأهل البيان ، وينجرُّ معه حيث انجر كما قال هو ، ثم هو يعلم أن الفطرة الإنسانية كَلِفَةٌ ومولعةٌ بحر الكلام ، وأن هذا يغري بالمطالعة في اللغة ، وأن اللغة وحر البيان هما الصانع الأساسي للإنسان ، وأن المهمة الأساسية لحملة الأقلام هي صناعة الإنسان الذي به تعمر الأرض ، وبه تُحمْى الأوطان ، ولا أعرف كتابًا كتبه مؤلف ولا قلمًا حملته يد

كريمة ، إلا والغاية هي صناعة الإنسان الأفضل و الأكرم ، وأنه بمقدار العناية بهذا الإنسان يكون الخير والتقدم والثروة في البلاد ، وإذا أهمل هذا الإنسان فقد ضاع كل خير في هذه الأرض التي أهمل فيها الإنسان ، وهؤلاء الرجال الذين نتحدث عنهم كابن قتيبة وابن عبد ربه وأبي إسحاق الحصري كانوا رجال أمة ، وحراس أمة ، وحماة أمة ، وليسوا من الذين يعملون ليعيشوا ، وإنما يعيشون ليعملوا ، وعملهم هو صناعة الإنسان ، ليسوا ساسة وإنما هم الذين يصنعون الساسة ، وليسوا صناعًا وإنا هم الذين يصنعون الأيدي التي تحسن صناعتها ، ولا يهمل الإنسان إلا الذي يهمل الأوطان ، والذي يَقْهَرُ الإنسان في وطنه هو في الحقيقة يقهر الوطن ، والذي يضطهد الإنسان هو في الحقيقة يضطهد الوطن ، ولا يمكن أبدًا أن يتغنى إنسان بحب البلاد وهو يقهر الإنسان على ترابها ، ومن فعل ذلك فهو كاذب ، ومن الواجب أن تتعرف على غايات هؤلاء المصنفين الكبار الكرام ، لأن مجتمعاتنا التي كان لها السبق في تاريخنا لم توجد وحدها ، وإنما قام على وجودها وصياغتها وإعدادها رجال ، نَهْدِم كل جهودهم حين نسكت عن جهادهم في مؤلفاتهم التي قصدوا بها إلى صناعة الإنسان الأفضل ، ونكتفي بعدِّ مؤلفاتهم من غير أن نبحث عن الغايات في هذه المؤلفات ، وقد تكون الكتب علمية بحتة مثل كتب الفقه ، وعلوم اللغة ، وعلوم القرآن ، ونحن لم نَرَ فيها إلا أنها كتب في هذه العلوم ، ونسكت عن قيمتها ، وأثرها في بناء الإنسان ، ليس فقط من جهة تزويده بما فيها من علم ، لأن هذا ظاهر ويدركه المبتدئ ، وإنما أيضًا من حيث أثرها في بناء عقله ، ويقظته ، وارتفاع مستوى إنسانيته ، وتكوين جماعة يكثر فيها هذا الصنف ، اليقظ الحيّ الحساس الذي يَرْفُضُ أن يرى بلاده تأخُذُ ولا تُعْطي ، وتستورد ولا تصدِّر ، وتستعين بخبرات غيرها ، ولا يستعان بخبراتها ، كل هذا في كتب العلوم ، والفقه ، والرياضة ، والطب ، والتفسير ، لأن كل علم لا يسكن في

العقل إلا إذا سَكَنتْ معه اليقظة ، والوعي ، الذي يرفض التخلف ، والقهر ، والاستبداد ، ومن هنا لا تجد مستبدًّا يهتم بالتعليم ، إلا إذا كان اهتمامًا كلاميًّا أو إعلاميًّا يخدع به الناس ، ولا يضع التعليم على رأس أولوياته إلا الوطني المحب لوطنه والمحب لأهل وطنه ، لأن الاهتمام بالتعليم هو الاهتمام بأهل الوطن أو قل بالوطن .

ومن الحقائق الغائبة التي غيبت معها أفضل منها ، هي أننا لم نزرع في نفوس أبنائنا أن التعليم هو الوسيلة الوحيدة لتكوين العقل والوعي ، واليقظة ، وإعداد الإنسان ليس للانتفاع بالمعلومات التي حصلها في أيام دراسته ، وإنما قبل ذلك إعداده ليكون صاحب بصيرة ، وصاحب رؤية ، وصاحب عقل ، وصاحب مشورة ، لعمل الخير والصلاح الذي تصلح به البلاد والعباد ، وأن التعليم من أول خطوة فيه في الروضة هو لهذا ، لأنه ليس هناك معلومة أي معلومة إلا ولها أثرها الجيد في تنبيه العقل ، والوعي ، وبناء العقل والوعي ، ولو أنك أيها التلميذ لم تنتفع من التعليم إلا بهذا لكان لك من هذا الخير الذي لا غنى لك عنه ما دمت حيًّا ، ولم يكن هذا غائبًا عن أبي إسحاق وهو يكتب كتابًا من ثلاثة أجزاء لا ليعلمنا الفيهقة باللسان ، وإنما يعلم أن كل كلمة عالية تحتها نَفْثَةُ من نفثات العقل ، وأن المطلوب هو بناء العقول وليس طول الألسنة ، يعلم أبو إسحاق أن البيان هو العلم الذي يهيئ العقل الإنساني لكل العلوم ، وأن الذي يكتب في الجغرافيا إذا كان قوي البيان تراه قوي الفهم لمفردات علم الجغرافيا ، وأن الذي يكتب في الطبيعة أو الكيمياء أو ما شئت من العلوم إذا كان قوي البيان كان قويًّا في المادة العلمية التي يكتب فيها ، ولهذا كان إعداد الإنسان للعلم وعمارة الأرض هي القراءة ، وحيثما وجدت القراءة وجد التقدم ، ووجد العمران ، ووجدت الحياة الأطيب ،



وحيثما غابت القراءة وجد التخلف ، ووجد الخلاف ، ووجدت الفتن ، ووجد الخراب ، وتعجب أن أول ما تحرك به لسان جبريل في خطاب سيدنا رسول الله هي كلمة « اقرأ » ، وهو ﷺ من الأميين الذين لا يقرؤون ، والله أعلم ، بذلك وإنما هو التنبيه على ضرورة شيوع القراءة في أمتك التي هي خير أمة أخرجت للناس ، وليقرأ الذي يقرأ وليقرأ الذي لا يقرأ ، وأنها كتنفس الهواء لا غنى لأحد عنه .

وكان سيدنا عمر بن الخطاب فاهمًا ونافذًا ومحدَّثًا حين قال إن هذه العربية تعلم العقل ، والخلاصة أن البلاغات التي هي حُرّ كلام العرب والأعراب لها الأثر البالغ في تكوين العقل الإنساني الذي به تعمر هذه الحياة ، ولهذا رأيت أن أضيف كتاب زهر الآداب إلى عيون الأخبار ، والعقد الفريد لأنها الثلاثة مشتركة في اختيار المختار من كلام العرب والأعراب ، هذا سماه عيون الأخبار ، وهذا سماه عقدًا فريدًا ، وهذا سماه زهر الآداب .

قال أبو إسحاق يصف فعل البلاغات في العقل الإنساني : « معلومٌ أنه ما انجذبت نفس ، ولا اجتمع حِسٌّ ، ولا مال سَرْوٌ ، ولا جال فكر في أفضل من معنى لطيف ظهر في لفظ شريف ، فكساه من حسن الموقع قبولاً لا يُرفَع ، وأبرزه يَخْتَالُ من صفاء السبك ، ونقاء السلك ، وصحة الديباجة ،وكثرة المائية ، في أجمل حُلّة وأجل حِلْية .

يَسْتَنْبِطُ الروحَ اللطيفَ نسيمُه أرَجًا ويؤكَلُ بالفؤاد ويُشْرَبُ

راجع انجذاب النفس ، واجتماع الحس ، وجولان الفكر ، وقد تعودنا على أن نقرأ مثل هذا ونكرره ، ونسكت سكوتًا قاتلاً ، وآثما عن أهم ما فيه ، وهو مداخلة الروح الإنسانية ، وتحريك الطاقات النفسية والعقلية ، وكل ما هو باطن في النفس

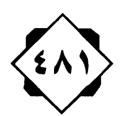
الإنسانية ، وإيقاظه ، وتنشيطه ، وبث اليقظة والوعي فيه ، وليس هناك في بناء الإنسان أقوى وأفعل من هذا ، وابحث عن الغذاء الذي يُولَعُ به الضمير ، فيأكله ويشربه ، ولن تجد شيئًا يزاحم الضمير في وَلَعِه هذا إلا البيان ، وأن الضمير لا يَولَعُ بشيء كولعه بالفكرة الحية الجديدة ، وهي وحدها التي تعطفه على كل جديد في هذه الأرض ، ثم اسأل عن الأثر الحادث في هذا الضمير حين يأكل من هذا الفكر الحيّ ويَشْرب ، أليس من الظلم البيِّن أن نفهم أن بيان العرب والأعراب يعلمنا شقشقة البيان ، ونُغْفِلُ أثَرَه في تكوين الإنسان ، وإعداده لعمارة الأرض ؟ هل ترى في الوجود شيئًا أفضل من شيء يرتقي به الإنسان الذي كرَّمه الله ـ سبحانه ـ ، وسخر له ما في السموات وما في الأرض جميعًا » وتذكَّر أن الله ﷻ لما جعل آدم خليفة في الأرض علمه الأسماء كلها ، وتعليم الأسماء يعني بالضرورة تعليم المسميَّات ، والمعنى أن الله ﷻ علمه اللغة بمضامينها ، ولو كانت اللغة فقط للتفاهم لما كان آدم في حاجة إليها كلها ، لأنه هو وأمنا حواء وأولادهم يكفيهم القليل من اللغة ، وإنما الآية أشارت إلى أن اللغة لها رسالة أخرى تتجاوز التفاهم ، وهي إعداد الإنسان لخلافة الله في الأرض ، ولن يُعدَّ الإنسان لهذه الخلافة إلا بإعداد عقله وفكره الذي تعُدُّه اللغة والبيان ، وقد أكد ربنا أنه علم آدم الأسماء كلها ، وكلمة كلها هنا لها قيمة كبيرة ، ثم إن المعاني التي جعل الله ـ سبحانه ـ في قلوب عبادة وَلَعًا بها حتى إنها لتأكلها بالفؤاد وتشربها ، سهل الله ـ سبحانه ـ طريقها إلى القلوب بأن غرس سبحانه في هذه الفطرة حب اللفظ الكريم ، واللغة العالية ، والولع بالديباجة ، والماء ، والرونق ، وجعل كل ذلك في اللغة ، وغرس في الإنسان القدرة على صناعته ، وقد أشار أبو إسحاق إلى هذا بقوله : « والمعنى إذا استدعى القلوب إلى حفظ ما ظهر من مستحسن لفظه من بارع عبارة ، ونَاصع استعارة ، وعذوبة مورد ، وسهولة مقصد ، وحسن تفضيل ،

وإصابة تمثيل ، وتطابق أنحاء ، وتجانس أجزاء ، وتمكن تركيب ، ولطافة تهذيب» وراجع كل الفنون البلاغية التي أشار إليها أبو إسحاق ابتداء من قوله «مستحسن لفظ ، وبارع عبارة ، وناصع استعارة» كل هذا ليس له غاية إلا غاية واحدة هي إغراء القلوب بحفظ المعاني التي تروم العقول حفظها ، واسأل عن ماهية المعاني التي تروم العقول حفظها ، وابحث عن النسب الذي بينها وبين القلوب ، حتى إن القلوب لا تسكن إلا إذا ضَمَّتُها بين حناياها ، ولن تجد إلا المعاني التي هي غذاء للقلوب ، والعقول ، والتي هي تثقيف لها وتنشيط ، وأن الله ـ سبحانه ـ خلق الإنسان ، وأسكن فيه الميل الدائم إلى أن يكون أفضل وأكرم ، وأن الله ـ سبحانه ـ لما كرم الإنسان أسكن فيه حُبَّ هذه الكرامة ، وأسكن فيه حب تحصيلها ، وحب الوصف بها ، وقوله عليه السلام : «إن من البيان لحكمة» فيه معنى أنه يعلمك الحكمة ، التي سبق إليها غيرك ، وفيه أيضًا أنه يصنع منك إنسانًا صانعًا ومنتجًا للحكمة ، وتكون به من الحكماء ، وهذه غاية الرقي الإنساني ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة:٢٦٩) والذي أوتي خيرًا كثيرًا ليس هو فقط الذي أوتي حكمة الحكماء فحفظها ، وإنما هو أيضًا صانع الحكمة ، وكأنه لم يؤت لفظها وإنما أُوتي القدرة على إنتاجها ، وكل ذلك من البيان ، وفي نهاية مقدمة أبي إسحاق يتوجه إلى القارئ ويكلمه بصدق خالص ويقول له احذر أن تكتفي باختياري لك جيد الكلام ، واعلم أنني تركت أفضل مما ذكرت ، واختصرت القليل من الكثير ، وارجع أنت إلى كنز البيان ، واجعل كتابي هذا دعوة لك إلى هذا الفيض الذي لا يمكن أن يَضُمَّه كتاب ، وعبارته هي : «ولعلّ في كثير مما تركت ما هو أجود من قليل مما أدركت ، إذا كان اقتصارًا من كل على بعض ، ومن فيض على بَرْض» وجملة «في كثير مما تركت أجود من قليل مما أدركت» جملة لا يقولها إلا أهل الصدق الأمناء على العلم ، والذين لا يعنيهم إلا ما ينفع

هذه الأمة ودعوتها إلى ما يزيدها علمًا ، ووعيًا ، وبصيرة ، ولا يعنيهم أنفسهم ويستقلون ما يفعلونه لها ، وكأنه يعلمنا ضرورة إنكار الذات ما دمنا في خدمة هذه الأمة ، وأن أفضل المقامات لإنكار الذات هو مقام خدمتها ، ثم قدم أبو إسحاق نصيحة نفيسة لقارئ الكتب وهي ضرورة إغماض العين عن الكلمة التي لا تروقك ، إذا جاءت في وسط كلام يروق ، واعلم أن الكلمة قد تكون في شفاعة كلمة أخرى ، وأن الفكرة قد تكون في شفاعة فكرة أخرى ، فتقبل ما لا يروق ، ما دام في صحبة ما يروق ، وأغمض العين عن السيئة إذا رأيتها تجاور حسنة ، والحسنة تشفع للسيئة واحذر عكس هذا ، وهو أن تصرفك الإساءة عن الإحسان ، قال أبو إسحاق في كلام يفهم منه هذا وأكثر منه : « وقد تدخل اللفظة في شفاعة اللفظات ، ويمر البيت في خلال الأبيات ، وتعرض الحكاية في عرض الحكايات يَتمُّ بها المعنى المراد ، وليست مما يستجاد ، ويبعث عليها فَرْطُ الضرورة إليها ، في إصلاح خلل ، فمهما تره من ذلك في هذا الاختيار فلا تعرض عنه بطرف الإنكار » وكأن أبا إسحاق رأى ما نحن عليه من خطأ ، وأننا إذا قرأنا لكاتب كلامًا نخالفه فيه تركنا كلامه كله مع أن في الذي تركناه في كلامه ما ينفع ، وما نتفق معه فيه ، وقد علمنا ربنا في كتابه العزيز أن نقرأ ما نقبل وما نرفض ، وساق لنا كلام الذين كفروا به ، وهذا يعني أن القراءة ليس بينك وبينها أي حجاب ، وهذا يعني ضرورة أن يكون العقل قادرًا على التمييز وفرز ما يؤخذ وما يترك .

ما يختلف به زهر الآداب

وكل كتاب قرأناه نجد فيه المؤلف هو المسيطر على مادته العلمية ، وهو الممسك بزمامها يوزعها في أبواب وفصول ، ويتحدث عنها بالذي يريده ، وكتاب زهر الآداب على خلاف كل الكتب التي قرأناها ، والمسألة ليست فقط أنه كله



اختيار للبلاغات العالية ، وإنما الأغرب أن هذه البلاغات العالية هي التي أخذت بزمام المؤلف ، وأنه إذا ذكر معنى أمسك هذا المعنى بزمام المؤلف ، وذهب به إلى مواقعه في كلام القدماء ، والمحدثين ، سواء كان هذا شعرًا أو نثرًا ، والكلام هو الذي يجره وهو ينجر معه كما قال ، فيذهب الكلام إلى منشئه يعني أول ما نطق به ، ثم ينتقل الكلام إلى أفواه أهل البيان من أهل الشعر ، وأهل النثر ، وأن هذا أضاف إليه وهذا لم يضف ، وأن المعنى في رحلة تنقُّله كان يتقارب ، ويتباعد ، فإذا ما فرغ المعنى من حكاية قصته مع أهل البيان لم يكن من أبي إسحاق أكثر من أنه ينتقل إلى معنى آخر ويَنْجرُّ معه حيث انجر ، ويمر معه كيف مر ، وكأن أبا إسحاق وهو يغرينا بحب البلاغات ومتابعتها يقول لنا إنه يغرينا بالذي أُغري به ، واستعماله لكلمة أنجرُّ معه حيث انجر ، ولم يقل مثلاً أسلك معه حيث سلك ، فيها إشارة إلى فرط انقياده لحر البيان ، وأنه لا حول له في هذا الانقياد ، وأن حر الكلام لم يكن يقوده فحسب وإنما كان يجرُّه حيث انجر ، وتجد في الكتاب المعاني تتنادى والمباني تتنادى ، وذاكرة أبي إسحاق في استحضار هذه المعاني وهذه المباني لا تدلك فقط على وفرة محفوظه من الشعر والنثر ، وإنما تدلك على قدرته على استحضار هذه المعاني ، وأن صور المعاني حيَّة في ذهنه ، وأن ذاكرته ليست ذاكرة تحفظ فحسب ، وإنما هي بجانب هذا كأن صور المعاني تحت عينيه ما إن يذكر معنى حتى تتزاحم عليه أشباهه ، سواء كان الشبه قريبًا أو بعيدًا ، وكل صورة من صور هذه المعاني مرتبطة بقائلها ابتداء من امرئ القيس وانتهاء بأهل عصره ، وقل مثل ذلك في النثر .

وقد أنهى المقدمة بقوله : « والله المؤيد والمسدد وهو حسبنا ونعم الوكيل » ثم بدأ الكلام بغير عنوان ، وذكر وفادة الزبرقان وعمرو بن الأهتم على رسول الله ﷺ ، وهي حكاية مشهورة في الكتب رواها هو عن عبد الله بن عباس ، وبدأ الزبرقان

بقوله لسيدنا رسـول الله ﷺ أنه سيد تميم ، والمطاع فيهم ، والمجاب عنهم ، والآخذ لهم بحقوقهم ، وكأن الزبرقان استثقل كلامه عن نفسه ، فقال لسيدنا عليه السلام ، وهذا يعلم ذلك يعني عمرو بن الأهتم ، فقال عمرو : أجل يا رسول الله إنه مانع لحوزته مُطَاعٌ في عشيرته ، شديد العارضة فيهم ، وسكت عمرو ، فشعر الزبرقان أن عمراً اختصر مكانه في قومه ، فقال لرسول الله ﷺ : إنه والله علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي ، فقال عمرو : « أما لئن قال ما قال فوالله ما علمته إلا ضيِّق العَطَن ، زَمِرَ المروءة ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، حادث الغنى » ومعنى شديد العارضة ، قوي البيان ، وضيق العطن : أي بخيل ، وزمر المروءة : أي قليل المروءة ، وظهرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لأن عمراً مدح الزبرقان وذمه في وقت واحـد ، فاستدرك عمـرو على نفسه ، وقـال : « يا رسـول الله رضيت فقلت أحسـن ما علمت ؛ وغضبت فقلت أسوأ ما علمت » ، فيهشُّ رسول الله ﷺ لحسن التخلص وقال : إن من البيان لسحراً ، وعمرو بن الأهتم منقري من جماعة قيس بن عاصم ، وهو جد خالد بن صفـوان ، وشبيب بن شيبة وبيته من بيوت العلم ، وهـم أهل بلاغة ، وكان عمرو يعيش مع قيس بن عاصم ، وكلاهما وفد على رسول الله ﷺ ، والزبرقان من تميم وربما كان عمرو لا يرى للزبرقان ما يراه الزبرقان لنفسه ، وليس هذا هو الموضوع ، وإنما الموضوع هو أن سيدنا عليه السلام لما قال إن من البيان لسحراً تلقفتها الألسن وتناقلت ، فتناقل معها أبو إسحاق ، وذكر أن أول ذاكر لها بعد رسول الله ﷺ عمر بن عبد العزيز ، لما تولَّي الخلافة وتوافدت عليه وفود العرب ، ومنها وفد الحجاز وفيهم شاب صغير رآه عمر يستشرف ليتكلم ، فقال له عمر : يتكلم من هو أكبر منك ، فقال الفتى أو الغلام كما ذكره أبو إسحاق : يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبداً لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد أجَادَ لَهُ الاختيار ، ولو أن الأمور بالسنّ لكان هنا من هو أحق

بمجلسك منك ، فقال عمر : صدقت تكلم فهذا السحر الحلال ، ثم إن كلمة السحر الحلال التي قالها عمر بن عبد العزيز انتقلت ونقلت معها أبا إسحاق إلى شعر أبي تمام الذي وصف قصيدة له بقوله :

هي السحر الحلال لمُجْتَليه ... ولم أر قبلها سحرًا حلالاً

ثم انتقلت ومعها أبو إسحاق من شعر أبي تمام إلى رسالة لأبي الفضل ابن العميد كتبها إلى أحد إخوانه جوابًا عن كتاب ورد إليه منه ، وقد كتبها كلها أبو إسحاق ، وفي السطر الأخير منها : «لقد عَرفْتَ أنه ما سمعت به من السحر الحلال» ، ثم انتقلت كلمة السحر الحلال إلى شعر بعض المحدثين ، فذكر أبو إسحاق لنا قوله :

نَظَمَتْ مَراشِفُه قلائد نُظِّمَت ... بنفيس جَوْهر لَفْظِه وشريفهِ

بِدَعًا من السحر الحلال تولَّدَتْ ... عن ذِهْنِ مصقول الذكاءِ مشوفهِ

مثلا لضاربه ، وزاد مسافر ... جُعِلَتْ وتحفةُ قادمٍ لأليفه

وأمسكت كلمة «وتحفة قادم لأليفه» بأبي إسحاق فذكرها في كلام لإبراهيم الموصلي ، ثم رجع إلى السحر الحلال فذكرها في كلام لابن الرومي :

وحديثُها السِّحرُ الحلالُ لو أنه ... لم يَجْنِ قَتْلَ المسلم المتحرِّز

إن طال لم يُمْلَل وإن هي أوْجَزت ... وَدَّ المحدَّث أنها لم توجز

شَرَكُ العقول ونزهة ما مثلها ... للمطمئن وعُلْقَةُ المُسْتَوفز

ثم تمسك به كلمة «علقة المستوفز» والعلقة معناها : القيد ، والمستوفز : القلق غير المطمئن في مجلسه ، والمعنى أنها قيد يقيِّد القلق المستثار ، ويقول أبو إسحاق إن ابن العباس أَلَمَّ في بيته الأخير بقول الطائي :

كواعبُ أترابٍ لغيداء أصْبَحَتْ ... وليس لها في الحُسْنِ شَكلٌ ولا تِرْبُ

لـها مَنظْـرٌ قَيْـدُ النـواظرِ لم يَـزَلْ   يَـرُوح ويَغْـدُو في خفارتـه الحـبُّ

ثم انجرَّ أبو إسحاق وراء هذا المعنى ، فذكر أن أول من استعار هذا المعنى امرؤ القيس في قوله :

وقد أغتـدِي والطـيرُ في وُكُنَاتـها   بـمُنْجَرِدٍ قيـدِ الأوابـدِ هيكـل

وقالت علية بنت المهدي :

اشـربْ علـى ذِكْـر الغـزال   الأغيـد الحُلْـو الـدَّلاَل

اشـرب عليـه وقـل لـه   يـا غُـلّ ألبَـاب الرجـال

أبو إسحاق يضع علقة المستوفز ، مع قيد الأوابد مع غل ألباب الرجال ، الفكرة الأم واحدة وصورها أعني مجازاتها متنوعة ، وأن أول من استخرج أول مجاز فيها فلان ، وكأن لكل مجاز حكاية وقصة تبدأ معه من أول ولادته ، ثم تتابعه وتتابع مدى انتشاره ، ومدى استحسانه ، وتغيّر صوره ، ولماذا تحسن الكلمة إذا خلعناها من معناها الأول الذي وُضِعَتْ له ، وأسكنا فيها معنى جديدًا ؟ وكأن الكلمة تُسْأل ويقال لها لماذا حسنت وتزينت لما نقلناك من قيد البعير ، والدابة ، وجعلناك علمًا على الفرس الجواد ؟ لماذا تحسن الكلمة إذا فارقت إلفها الأول وأسكن فيها اللسان الحر معنى آخر ؟ لماذا حسنت كلمة القيد وحَلَتْ واحْلَولَتْ وتجدّدت لما جعلناها قيد للنواظر على حسن الحسناء ؟ ودع كلمة القيد ، فربما ضاقت بالدابة والوتد ، وخذ كلمة البدر التي هي المثل الأعلى في البهاء والنباهة وعلو المكان ، لماذا تحسن إذا أطلقناها على الحسان ؟ وكلمة الأسد حسنت لما قلنا أسد دم الأسد الهزبر خضابة ، وكلمة الموت حسنت لما قلنا موت فريص الموت منه تُرْعَدُ ، أي شيء حدث في الكلمة حتى ازدانت وتزيَّنت وتجلَّت وابْتَهَجَتْ وأشرقت حين نقلناها إلى معنى آخر ؟ لا تظن أنني لست جادًّا في طرح هذه الأسئلة ، بل

إنني حين أجد أبا إسحاق يعرض علينا المعنى الأم في صور مجازية متعددة ، كأنني أسمع صوته وهو يقول لي جمعت لك هذه الصور وعليك أنت أن تخطو بعدي خطوة فتدرسها من أي جهة تراها ، ولك أن تطرح كل الذي قلته وتقول أنت لي إن الكلمات لا تبتهج إذا نُقِلَتْ من معناها الأصلي ، وإنما الذي يبتهج هو سامعها ، وإنما ابتهج لأنه فوجئ بالكلمة المألوفة تعطيه معنى لم يألفه منها وتسكت عن معناها الذي عرفها به ، أنت مع المجاز ترى الأشياء في غير مواضعها المألوفة ، وفي غير صورها المألوفة ، أنت الذي تحب الجديد ، والتجديد ، وتملُّ المألوف ، ويريك المجاز غرائب لا تراها إلا فيه ، ولذلك قالوا في الاستعارة : إنك ترى بها الجماد حيًّا ناطِقًا ، والأعجم فصيحًا ، والأجسام الخرس مبينة ، وتريك العدمَ وجودًا ، والوجود عدمًا ، وتريك اجتماع الأضداد ، ودع سؤالات الألفاظ مع أنها لو استُنطقَتْ لنطقت واسأل أبا إسحاق وغيره من كرام علمائنا الذين يُجْمِعون على القول بأن امرأ القيس أول من قيّد الأوابد ، وأول من شبه الخيل بالعقبان ، والنساء بالبيض ، إلى آخر ما يذكرونه له من الأوليات ، وقل لهم إن امرؤ القيس لم يبلغ هذا المستوى من التجويد والتفوق في الشعر من غير أن يكون قرأ من الشعر الجيد المُتميّز الشيء الكثير ، ويستحيل أن ينبغ امرؤ القيس في الشعر هذا النبوغ ، وهو ابن جماعة ليس فيها شعر ، ويستحيل أن يكون امرؤ القيس هو جد شعر العرب ، كآدم جد البشر ، ونذكر أن امرأ القيس في بكائه للديار الذي عرف به وشهر في الناس بقوله : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » إنما كان في هذا الذي تفوق فيه مُقَلِّدًا لابن حزام ، كما قال : نبك الديار كما بكى ابن حزام ، ولهذا يداخلني شك في كل الذي أسمعه أو أقرأه من القول بأن امرأ القيس أول من قال كذا وكذا ، نعم يصح أن تقول أول من قال كذا في الذي بين أيدينا من الشعر ، من

غير أن نذكر أي شاعر ، لأن هذا تاريخ ابتلعه الغيب ، وكم رُمْتُ أن أقرأ نصًّا عربيًّا من زمن فهر فضلاً عن زمن مضر ، أو خذيمة بن مدركة ، لأتعرف على العرب في تاريخها القديم ، وكلما وجدت نصًّا مرويًّا عن واحد من القدماء رأيته مكتوبًا بلغة الذي رواه وليس بلغة المروي عنه ، وظني والله أعلم أن الله ـ سبحانه ـ هو الذي أعدّ عقل العرب لنزول دينه وحذف من هذا العقل تاريخه البياني ، والعلمي ، ليبقى متفرغًا لتلقي وحي الله ، وإنما أبقى لهم من شعرهم القديم ما يعينهم على فهم الكتاب الذي أنزله ربنا بلسان عربي مبين .

وصف حديث الصاحبة

ذكر أبو إسحاق أبيات ابن الرومي التي وصف فيها حديث الصاحبة ، وأنه السحر الحلال ، وأنه لم يُملَل :

إن طال لم يُمْلَل وإن هي أوْجَزَتْ ... ودَّ المحدَّثُ أنها لم تُوجِزِ

وإنما ذكر هذه الأبيات من أجل كلمة السحر الحلال ، ثم أمسكت به من حيث هي وصف لحديث النساء تم تابعها بنظرائها وانجر معه حيث انجر ، فذكر قول الهيثم بن الربيع :

إذا هنّ ساقَطْنَ الأحاديث للفتى ... سُقُوطَ حَصَى المَرجَان من كَفِّ ناظمِ

رَمَيْنَ فأنفذن القلوبَ ولا ترى ... دَمًا مائرا إلا جوى في الحيازم

وقال أيضًا :

حديث إذا لم تَخْشَ عَيْنًا كأنه ... إذا ساقطته ، الشهد أو هو أطيبُ

لو أنك تستشفي به بَعْدَ سكرة ... من الموت كادت سَكْرةُ الموت تَذْهَبُ

وقال سديف مولى بني هاشم يصف نساء :



وإذا نطقن تخالهن نواظما ... دُرًّا يُفَصَّلُ لؤلؤا مكنونا

وإذا ابْتَسَمْنَ فهنَّ غمامة ... أو أقحوان الرَّمْل بات معينا

وقال الطائي :

تعطيك منطقها فتعلم أنه ... لجنى عذوبته يمرُّ بثغرها

أخذه أبو القاسم بن هانئ فقال يمدح جعفر بن علي إلا أنه قلبه :

قد طيَّب الأفواه طيبُ ثنائه ... من أجل ذا تجد الثغور عذابا

وقال الطائي :

كادت لِعرفان النوى ألفاظُها ... من رقة الشكوى تكون دمُوعا

ومن جيد هذا المعنى وقديمه ، قول النابغة الذبياني :

لو أنها عرضت لأشمط راهب ... عَبَدَ الإله صرورة مُتعبّد

لرنا لبهجتها وطيب حديثها ... ولخاله رشَدًا وإن لم يَرْشُدِ

نظرت إليك بحاجة لم تقضها ... نظر السليم إلى وجوه العُوّدِ

ومن مشهور الكلام قول الآخر :

من الخَفِرات البيضِ وَدّ جليسُها ... إذا ما انقضَتْ أُحدوثةٌ أن تُعيدَها

وقول بشار :

وكأن رَجْعَ حديثها ... قطعُ الرياضِ كسين زَهرا

حوراء إن نظرت إليك ... سقتك بالعينين خمرا

وكأن تحت لسانها ... هاروت يَنْفُث فيه سحرا

وتخال ما جمعت عليه ثيابها ... ذَهَبًا وعِطرًا

وقد ساق أبو إسحاق هذا وأكثر منه ، ثم قال عاد الحديث الأول ورجع إلى أصل الكلام وهو فضل البيان ، وهذا الخروج أو هذا الاستطراد كثير في الكتب التي تتحدث عن الشعر ، ولم يكن أبو إسحاق بدعا فيه وساعد على ذلك وفرة المحفوظ من الشعر ودعوة بعضه بعضًا ، وأبو إسحاق حين يذكر لنا هذه الصور المختلفة من وصف أحاديث النساء لا يرضى منا أن نقرأها كما قرأها هو علينا ، وإنما يرضى منا أن يكون لنا شيء فيها كما كان له هو شيء فيها حين جمعها ، والواجب أن نراجع هذه الأوصاف وأن نتعرف على الفروق التي بينها ، لأنها وإن تقاربت من حيث هي وصف لحديث الحسان ، فإن التباعد بينها أحيانًا يكون ظاهرًا جدًّا ، وأنا حين أحاول أن أخطو خطوة بالذي بين يدي من كلام علمائنا فالواجب عليك أيها القارئ وقد وضَعْتَ هذا بين يديك أن تحاول أنت أيضًا أن تضيف لمحة للذي بين يديك، وليس علينا حرج في أن نختلف في الذي يستحسنه كل منا ، واستحسان أحدنا لغير الذي استحسنه غيره لا يقدح فيه ، فقد يكون الحسن عندك هو الأحسن عندي ، ولو اتفقنا في معرفة الحسن والأحسن لوقفنا جميعًا عند الأحسن ولأهملنا النظر في الحسن وهذا غير مفيد ، وإنما أسكن الله في الحسن أسرارًا وأسكن في فطرة النفوس أسرارًا ، وكل نفس تَمِيلُ إلى الذي هو أشبه بها ، حتى يظل الحسن والأحسن محفوفين بكل عنايتنا ورعايتنا ، وليس هذا في الكلام فحسب ، وإنما هو في كل شيء تتفاوت فيه مراتب الحسن ، فتختلف الأشياء في أشكالها ولكل شكل نفوس متعلقة به ، وأنا لا أحب الاكتفاء بالقول بأن هذا حسن وهذا أحسن ، وإنما أحب أن أراجع وأن أتبيَّن الصور والفروق بينها ، فابن الرومي يتحدث عن الحديث من جهة أنه إن طال لم يُملَلْ ، وإن أوْجَزَتْ ودَّ السامع أنها لم توجز ، وليس في كلامه وصف للحديث ، وإنما عمود معناه هو وَلَعُ المحدَّث أي المستمع بحديثها ، وتلاحظ أن الذي لا يمل حديثها ويود ألا

توجز لم يوصف بأنه صاحب ، وإنما هو محدَّث بالبناء للمفعول ، وكأنه يحكي عن كل من يسمع هذا الحديث ، وأنه يحبُّه ويتعلق به وأنه لا يملُّه ، وإنها إن أوجزت ودَّ ألا توجز ، وهذا هو الذي أبان عنه ابن الرومي ، والهيثم بن الربيع لم يجعل أصل كلامه أن السامع لم يَشْبع منه ، وإنما عمود المعنى عنده أن حديثهن يتساقط تساقط حَصَى المَرْجان من كَفّ ناظم ، ثم يذكر نفاذه في القلوب ، وهذه جهة غير جهة ابن الرومي ، الحديث عند ابن الربيع وإن كان يسقط من الفم إلا أن تساقطه تساقط حَصَى المَرْجان من كف ناظم ، وصار كف الناظم مكان الفم ، ثم إنه لم يسقط هذا التساقط عند الصاحب ، وإنما عند كل من يسمعه ، وقول ابن الربيع الثاني صار حديثها لا يتساقط تساقط المرجان ، وإنما صار شهدًا وهو أطيب ، وإذا كان الناظم مُبْتَهِجًا بحصى المرجان في يده فإن بهجته في الذي تراه عينه ، أما أن يكون الحديث شَهْدًا أو هو أطيب فهذا يعني أن الحديث هنا يذاق بالفم ، وأنه يؤكل بالفؤاد ويشرب ، وهذا شيء آخر وأدخل في عمق الإحساس بهذا الحديث ، والبيت الذي يلي هذا وهو قوله :

لو أنك تَسْتَشْفِي به بعد سكرة   من الموت كادت سكرةُ الموت تَذْهَبُ

مؤسس على قوله كأنه الشهد أو هو أطيب ، وما كان له أن يقول هذا البيت الثاني لو قال قبله سقوط حَصَى المرجان من كف ناظم ، والذي فتح معنى قوله تستشفي به بعد سكرة الموت هو أنه أشهى من الشهد ، ولو قلت إن ذهاب سكرة الموت يُستشفى منها بحديث الصاحبة لكان هنا من خير ما يوصف به حديث الصاحبة ، والذي قاله أفضلْ لأنَّه قدم له بأن حديثها الشهد أو هو أطيب ، وهذا البيت يشهد لهيثم بن الربيع بأنه شاعر يجيد الشعر ، وقول سديف مولى بني هاشم :

وإذا نطقن تَخالُهنَّ نواظما   دُرًّا يُفصَّلُ لؤلؤًا مكونا

ترى سديفًا فيه لم يسمع بأذنيه الحديث ، وإنما يرى الحديث بعينيه ، وصار يرى الحديث أو يخاله كما قال ، وقد نطق به الحسان دُرًّا يُفصَّل لؤلؤًا مكنونا ، وهذا إمعان ومبالغة في وصف حديث الحسان ، وكأنهن اجتمعن وسَكَتْنَ وصار في أيديهن در يُفَصَّل لؤلؤًا مكنونًا ، وكأنهن يَصْنَعْنَ من أحاديثهن عقودًا وقلائد يُطوِّقْنَ بها أعناقهن ، وهذا شيء آخر غير كل الذي تقدم ، وقول الطائي :

تُعْطيكَ مَنْطِقَها فتعلم أنه لجَنَى عُذوبته يَمُرُّ بثَغْرِها

هو مع صوتها ولم يجعله درًا ، وإنما هو صوت فيه حلاوة ، وعذوبة ، تُعلمك حلاوتُه وعذوبته أنه صوتها ، وأنه مرًّ بثغرها فاكتسب الحلاوة والعذوبة من ماء هذا الثغر .. وكأن أبا تمام جمع كل ما قيل ثم خطا خطوة يَتَفرَّدُ بها ، وأن ثغرها هو الذي أفاض على حديثها كل ما وصفه الناسُ ، وأنه مرًّ بثغرها فكان كالشهد أو هو أطيب، وأنه تساقط من ثغرها تساقط الدر الذي فُصِّل لؤلؤًا مكنونًا ، أو تساقط المَرْجان في كف ناظم ، كل ذلك وأكثر منه لأنه مر بثغرها وفيه الشهد أو هو أطيب وفيه الدُّر وفيه المَرْجان ، وفيه كل ما تشتهي ، لأنك لن تشتهي شيئًا في الحديث إلا وهو في هذا الثَّغْر ، ثم إن هذا غير قول أبي تمام في الذي ذكره أبو إسحاق ، وأنها لما قاست شدَّة الفراق واشتكت ، كادت ألفاظها من الشكوى تكون دموعًا ، ولاحظ الفروق التي يصنعها السياق ، وأن فمها كانت تمر فيه ألفاظها فتكون طيبًا أطيب من الطيب ، وشهدًا أشهى من الشهد ، ومَرْجانًا ودُرًّا ولؤلؤًا مكنونًا ، والآن تجد هذا الثغر نفسه يبكي لأن ألفاظها لا تكون دموعًا إلا إذا بكى الثغر ، كما أن الدموع لا تكون من العين إلا في حال بكاء العين ، وكأن ألم الفراق غلب على كل شيء فيها حتى الثغر صار عَيْنًا تَزْرِفُ دموعًا ، وكأن أبا إسحاق لما ذكر لنا الثغر عند أبي تمام ، وأن شهد كلامها لأنه يمر بثغرها ، ثم

إن كلامها الذي مَرَّ بثغرها صار دموعًا ، أقول أبو إسحاق يقول لنا لو تَتَبَّعْت الصورة الواحدة في ديوان شاعر واحد ورأيت تنوعها ودَرَسْت سياق هذا التنوع لكنت كأنك تدرس خيال الشاعر ، ومقدار إحساسه بسياقه ، وكأنه لا يتكلم إلا بالذي غَلَبَهُ عليه هذا السياق ، والنابغة سلك مسلكًا جليلاً ومختصر جدًّا لأنه لم يحدث عن سماعه للحديث ، ولا عن رؤيته هو لبهجتها ، وإنما جعل أثر الحديث وأثر الرؤية لأشمط راهب ، والأشمط هو الذي علا به السنُّ وهو في الرهبنة يعبد الإله ، ثم هو صرورة أي عزاه عن الدنيا وملاذِّها وحُسَّانَاتها ، ثم هو مع كل ذلك يرنو لبهجتها وكأنها بهجة لا عهد له بها ، لأنه في صومعته أدار ظهره لكل حسن في الدنيا ، ثم فوجئ ببهجة غلبت عليه وطيب حديثها غلب عليه ، حتى إنه توهمه رُشْدًا وحكمة وموعظة وإن كان خاليًا من كل ذلك ، وكلمة طيب حديثها كلمة جامعة لكل ما وصف به حديث النساء ، وقد قدم النابغة الصفة ولم يقل حديثها الطيب ، ثم إنه كان جامعًا لكل ما وصف به حديث النساء لأنه خلع من قلب وعقل الأشمط الذي عبد الإله صرورة كل حكمة وكل موعظة ، وخال هذا الحديث الصادر عن صاحبة البهجة التي يرنو الأشمط الراهب إليها رشدًا وإن لم يرشد .

وكلام بشار غير كل الذي تقدم ، وأول ما فيه أنه حوَّل الحديث الذي تسمعه الأذن إلى ما تراه العين فصار قِطَعَ الرياض كُسِين زهرًا ، وراجع قطع الرياض كسين زهرًا وكيف حوّلت أذن بشار رجع حديث الصاحبة إلى هذه الصورة ، هل لهذا شبيه في شعر بشار ؟ الشعراء بعده لما حوّلوا الحديث من سماع الأذن إلى ما تراه العين ذكروا الدر والمرجان واللؤلؤ ، وهل يرى بشار فرقًا بين حديثها ورجع حديثها ؟ أيهما أمْتَع يا أبا معاذ ، الذي يرى قطع الرياض كسين زهرًا أم الذي يسمع حديثًا إذا انْقَضَتْ أُحدوثة وَدّ لو تعيدها ؟ لماذا حوّلت ما تعشقه

الأذن إلى ما تعشقه العين ، وأنت الذي قُلت لنا : « والأذن تعشق قبل العين أحيانًا » ولا شكَّ أن بهجة بيانك ونغمك تضفي على كلامك ما لا يجوز لأحد أن ينكره ، وقوله: « وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا » لم أقرأ في معناه أفضل منه، وأن المسألة تجاوزت كل وصف وانتهت إلى أن هاروت الذي علم الناس السحر سَكَن تحت لسانها ينفث فيه سحرًا ، وليس له عمل إلا أنه ينفث فيه سحرًا ، فكان كل ما يصدر عن هذا اللسان من نفث سِحْر هاروت ، ونَفْثُ سحر هاروت فوق نفث كل سحر ، وكأن نفث سحر حديثها فيه جدة وابتكار ، لأن نفث سحر هاروت كان أول نفث سحر ، وجزى الله أبا إسحاق خيرًا لأنه قدَّم لنا هذا وألزمنا بأن نتكلم في الذي قدَّمه ، ولا يلزم أن يكون كلامنا في المُسْتَوى المطلوب ، ولكن من قال الذي عنده فقد اعتذر ، واحذر أن تكون من الذين يرفضون الكلام ثم لم يكتبوا ما هو أفضل منه ، واحذر أن تكون من الذين ينقدون وهم متكئون على أرائكهم ، وتذكر أن رسول الله ﷺ الذي لا ينطق إلا بوحي حذرنا من الذين يتكلمون في العلم وهم متكئون على أرائكهم ، واعلم أنني أرى الشعر أحيانًا لا يبحث عنه لسانُ الشاعر ، وإنما أرى الشعر أحيانًا هو الذي يبحث عن لسان الشاعر ، وأرى ذلك كثيرًا في شعر بشار ، ومنه قوله : « وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرًا » لم يبحث لسان بشار عن هذا وإنما بحث هذا عن لسان بشار .

وهذا الذي أقوله غريب عندك ، وهو كذلك غريب عندي ، ولكنني أراه فكتبته .

من غرر كلام رسول الله ﷺ وكلام أصحابه

ذكر أبو إسحاق فقرات من كلام رسول الله ﷺ وفقرات من كلام أبي بكر ، ومن كلام عمر ، وذكر أنه لا يتخيَّر من كلام رسول الله ﷺ لأن كلامه كله مختار ، وذكر قوله عليه السلام للأنصار : « إنكم لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع »

ولا أظن أن أحدًا يمدح أحدًا بأفضل من هذا ، وأن كرم الإنسان وكرم خلقه وشرف نفسه وعزها وسموها لا يظهر في شيء كظهوره في غيابه عند الطمع ، وحضوره عند الفزع ، ولهذا وشبهه سُمِّي الأنصار أنصارًا ، لأنه ليس لمن ينصرك صفة أفضل من أنك تفقده عند الثروة والرخاء وتجده عند الأمر الجلل ، ولو جمعت كل ما قيل في وصف الأنصار وكل ما مدحهم به من مدحوهم فلن تجد أتم ولا أكرم ولا أوضح في بيان كرم نفوسهم من هذا الذي لا يتم سطرًا ، ثم تراه جرى على لسان رسول الله ﷺ وكأنها جرت وحدها ، ثم ذكر من أقواله عليه السلام : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » وهذه الجمل الثلاث وإن كانت معانيها مختلفة عن الجملتين السابقتين في وصف الأنصار فإن معدن الكلام في الكل معدن واحد ، وليس فقط في سعة المعاني وإيجاز الألفاظ ، وإنما في شيء آخر ، قد تدرك أنت منه أكثر ما أدرك ويدرك الثالث أفضل مما أدركنا ، والذي يغلب على نفسي في هذا الكلام هو سهولة مخرجه حتى كأنه لم يتحرك به لسان ، وإنما خرج وحده من النفس واتجه وحده إلى القلب ، وكما أنه كأنه لم يمر به لسان فإنه كذلك لم يمر بالأذن ، وإنما خرج وحده من القلب وسلك طريقه وحده إلى القلب ، ولذلك ترانا لا نشغل بما فيه من فنون بلاغية كالمطابقة التي في قوله : « تقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع » ، وتقديم الجملة الأولى على الثانية لأنها في ذكر الثناء عليهم وهو المقصود ، ولا نشغل بالسجع الذي في الطمع والفزع ، وكل ذلك من أوصاف الكلام التي بها يحسن ، لأن الحسن الغالب كان في غيره كان في سهولة المخرج وعذوبة اللفظ ، وإصابة المقطع ، ولن تجد أبين في المساواة بين المسلمين من كلمة « تتكافأ دماؤهم » ثم تجد كلمة « المسلمين » تُغيِّب كل ما عداها عند أهل الشهادتين ، فلا ينظر الفارسي إلى فارسيته ولا الكردي إلى كرديته ، ولا الرومي إلى روميته ، وكأن الجنس والحسب والنسب هو الشهادتان ، وهي محاءة لكل ما عاش الناس

متشبثين به قبل أن يتم الله عليهم النعمة ويهديهم إلى الشهادتين ، وتلاحظ ترتيبًا خفيًّا بين هذه الثلاث « تتكافأ دماؤهم » ، « ويسعى بذمتهم أدناهم » ، « وهم يد على من سواهم » لأن تكافؤ دمائهم يُفضي إلى أن يسعى بذمتهم أدناهم ، وهذا وذاك يفضيان إلى أن يكونوا يدًا على من سواهم ، فيجب على الكُلِّ أن يكون يدًا للكُلِّ . وهذا الثالث هو الذي يصنعه الإنسان بإرادته ، أما تكافئ الدماء ، وسعى أدناهم بذمتهم ، فهذه أحكام شرعية لا دخل لنا فيها ، وإنما نقول سمعنا وأطعنا ، وسيدنا رسول الله ﷺ يتكلم ببلاغ ربه وكوننا يدًا على من سوانا هو بلاغ ربنا لنا ، وهو يعلم أن المسلمين مفرقون في الأرض من شمالها إلى جنوبها ، وأن ذلك لا يمنع من أن يكونوا يدًا على من سواهم ، لأن النصرة ليست بالسيف في كل حال ، وإنني وأنا في أقصى الجنوب يمكن أن أكون يدًا لأخي الذي في أقصى شمالها بالتعاون معه والتعامل معه وتأييده ، والتعاون الآن والتساند بين الأمم قائم مع تباعد الأمكنة ، واليهودي في جنوب الأرض متعاون مع اليهودي في شمالها ، والاشتراكي في شرقها متعاون مع الاشتراكي في غربها ، والإسلام ليس بِدْعًا في هذا ، والذين يقولون الآن إن ارتباط المصري المسلم بالمسلم خارج مصر يضعف ولاءه لمصر ، يقولون كلامًا ليس المراد منه إلا الهجوم على الوحدة بين الأمة المسلمة ، لأن هذا خطر على الصهاينة ، وربما كان يقال هذا لمصلحة الصهاينة ، وقوله عليه السلام : « إياكم وخضراء الدمن » هي من معدن كلامه عليه السلام في سهولة المخرج وعذوبة الكلام ، وكان المعنى يجري وحده على اللسان ، وقد سأل أصحابه عن مراده عليه السلام بخضراء الدمن وهم يعرفون معناها الذي وُضِعَتْ له في لسان العرب ، وهي النبتة الخضراء الحسنة التي تنبت في الدمنة ، والدمنة المكان غير النظيف ، والتحذير من خضراء الدمن بمعناه الحقيقي غير مفهوم ، ثم أخبرهم عليه السلام بمراده « وهو المرأة الحسناء في المنبت السوء » وهذا قاطع في أنه عليه السلام نقل كلمة خضراء الدمن من معناها الذي وضعه لها العرب إلى المرأة

الحسناء في المنبت السوء للشبه الظاهر بينهما ، وهـذا هو المجاز ، يعني أن رسول الله ﷺ استعمل الكلمة في غير ما وضعت له لعلاقة بين معناها المجازي ومعناها الحقيقي ، وهذا قاطع في أن الذين ينكرون المجاز ليس لهم برهان ، وليس لهم علم ببيانه صلوات الله وسلامه عليه ، وليس هذا مرادي ، وإنما مرادي هو أنه عليه السلام كان يمكن أن يقول إياكم والمرأة الحسناء في المنبت السوء ، فلماذا عدل عن هذا إلى قوله : « إياكم وخضراء الدمن »؟ ولم أقرأ في كلام الشراح سر العدول عن الحقيقة إلى المجاز في هذه الجملة ، والذي عندي في هذا أن جملة إياكم وخضراء الدمن أوسع في دلالتها على إياكم والمرأة الحسنا في المنبت السوء ، لأن المجاز غالبًا ما تتسع به الدلالة .

وأنا الآن أسمع ما يصح أن أُطلق عليه خضراء الدمن ، وهو كلام الذين يُلحُّون علينا صباح مساء بأن نأخذ عن الغرب الذي تقدم ، وأننا إذا أردنا التقدم فليس لنا سبيل إلا أن نأخذ بأفكارهم ، وسلوكهم ، وقيمهم ، وأن تكون بلادنا قطعة من بلادهم ، حتى يصح أن نقول في مصر إنها أوربا المسلمة ، وهذا اللفظ سمعته وقرأته ، ولا أشك في أن الدعوة إلى الأخذ عن الذين سبقوا في الثقافة والسلوك والقيم والعادات هو من خضراء الدمن ، وأن المطالبة بإبعاد الدين عن السياسة لأن الغرب فعل ذلك هو من خضراء الدمن ، وأن المطالبة بإبعاد الدين عن التعليم لأن الغرب فعل ذلك هو من خضراء الدمن ، والحقيقة الثابتة أن الحلال ما أحله الله ولو حرّمه كل من في الأرض ، وأن الحرام ما حرمه الله ولو أحله كل من في الأرض ، وأن الدين كله لله ، لا يجوز لأحد أن يضيف إليه كلمة ولا أن ينقص منه كلمة ، وسيدنا رسول الله ﷺ مُبَلّغ ومُبَين وليس إلا .

يوم رفع رسول الله ﷺ

ثم انتقل أبو إسحاق إلى يوم أن رُفع رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى

والذي أصاب أصحابه ﷺ من هـذا الخطب الجلل ، وقد أذهلهم هذا الخطب ورأينا مثل عمـر مع قوته وجلده وعمق إيمانه ينكر مَـوْتَ رسول الله ﷺ ويقول مـا مات ﷺ وليرجعنّـه الله ، فليقطعنَّ أيدي المنـافقين وأرجلهم يتمنـون لرسول الله ﷺ الموت ، وإنما واعده ربه كما واعد موسى وهو يأتيكم ، وكان عثمان من الذين أُخْرِسُوا وجعل لا يكلم أحدًا ويؤخذ بيده ويجاء به وينقاد ، وعلي ـ كـرم الله وجهـه ـ لبـط في الأرض ، أي قعـد ولم يبـرح البيت ، وأجمـل أبو إسحاق وصف هذه الأحوال في قوله : « ذُهل الناس فكانوا كالخُرْس ، وتفرقت أحوالهم ، واضطربت أمورهم ، فكذّب بعضهم بموته ، وصمت آخرون فما تكلموا ، وخلط آخرون فلاثُوا الكلام بغير بيان ، وحُق لهم ذلك للرزية العظمى والمصيبة الكبرى التي هي بيضة العُقر ويتيمة الدهر ، ومدى المصائب ، ومنتهى النوائب » وبيضَةُ العقـر : بيضة الدجاجـة التي لا تبيض بعدهـا ، وهي مَثَـلٌ للحـادث الذي لا يتكرّر ، وكان أبو بكر أثبت أصحاب رسول الله ﷺ قلبًا ، فخطب في الناس وقال كلمة بالغة في قدرتها على إحضار وعي هؤلاء الذين أذهلهم المصاب وهي : « من كـان يعبـد محمـدًا فإن محمـدًا قـد مـات ، ومن كـان يعبـد الله فإن الله حي لا يموت ، وأنه ﷺ خلّف فينا كتاب الله وسنته فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر » وهذا كلام جيد جدًا ، وأن الله سبحانه وتعالى باق فينا بكتابه ، وأن رسول الله ﷺ باق فينا بسنته ، فمن أقبل على الكتاب فقد أقبل على الله ، ومن أقبل على السنة فقد أقبل على رسول الله ﷺ ، ومن هجر الكتاب فقد هجر الذي أنزله ، ومن هجر السنة فقد هجر الذي بلّغها ، ولما مات أبو بكر رضي الله عنه قامت عائشة ـ رضوان الله عليها ـ على قبره وقالت : نضّر الله وجهك يا أبت وشكر لك صالح سعيك ، فقد كنت للدنيا مُذِلاً بإدبارك عَنْها ، وللآخرة مُعزًّا بإقبالك عليها ، ولئن كان أجل

الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزْؤك ، وأعظم المصائب بعد فقده فقدك ، إن كتاب الله ليعد بحسن الصبر عنك حسن العوض منك ، إلى آخر ما قالت ـ رضوان الله عليها ـ وقد ذكر بعض علمائنا أن عائشة ـ رضوان الله عليها ـ زادت على أبيها في حسن البيان ، لأن حياتها مع رسول الله ﷺ أفادتها من فصاحته ما أضيف إلى إرثها من أبيها ، وخصوصًا أنها ـ رضوان الله عليها ـ بدأت حياتها مع رسول الله ﷺ والعُودُ أخضر يُسْقَى الماء في غرسه ، ونَقَلْتُ ما نَقَلْتُ من هذه الخطبة من أجل قولها رضي الله عنها : « فقد كنت للدنيا مُذِلاً بإدبارك عنها » لأن هذه الجملة تُصَحِّحُ فهما مغلوطًا ظهر في الأمة بعد زمانها ، وهو أن الإدبار عن الدنيا يعني ألا نُشْغَل بشيء فيها ، وأن الإقبال على الآخرة يعني ألا نُشْغَل إلا بالصلاة والصيام ، وهذا ليس من دين الله في شيء ، وأن الإدبار عن الدنيا أن تعمل فيها كل خَيْر تبتغي بذلك وجه الله ، وأن تعمر الأرض ، وأن تَنْتشِرَ فيها وأن تضرب فيها ، وتستخرج من خيراتها ما يكفيك ، ويفيض عنك ، ولكنك في كل ذلك ممسك بأمر الله ونهيه ، وأبو بكر الذي وصفته أم المؤمنين بأنه أذَلَّ الدنيا بإدباره عنها سَاسَ أمور المسلمين بعد رسول الله ﷺ ، وحمل مسؤولية الأمة وجاهد أهل الرِّدَّة وأدار شؤون البلاد ، وقد اتسعت الرقعة وتشابكت المصالح ، والأعداء على الحدود وهو يسُوس كل ذلك ، وهو خليفة أقوى دَوْلَةٍ في الأرض ، وهو مُدْبِرٌ عن الدنيا ، ومذلٌّ لها ، لأنه كان في كل ذلك يَرْعَى الحق ، والعَدْل ، ويأخذ بأمر الله ونهيه ، ثم كان قبل الخلافة تاجرًا ربيحًا جدًّا ، وهو مُذِلٌّ للدنيا بإدباره عنها ، ولم يترك التجارة إلا لما وَلِيَ أمر الأمة ليوفِّر وَقْتَه كله لرعاية مصالح الأمة ، كان أبو بكر من الزاهدين ، وهو من أكبر الأثرياء ، وكان عبد الرحمن بن عوف وهو من تيم كأبي بكر من الزاهدين ، وهو من أثرياء الناس ، وهكذا كان عثمان وغيرهم من أثرياء المهاجرين والأنصار ،

خذ من الدنيا كل ما تُحب وفوق ما تُحب ، والمهم أن يكون الحلال والحرام بين عينيك ، وإذا كنت تجتهد لتكون من الأثرياء والحلال والحرام بين عينيك كان اجتهادك هذا من الطاعة ، وإن عمارة الأرض عبادة ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، والغني الشاكر ليس أقل من الفقير الصابر ، والثروة أفضل من الفقر ، لأننا بها نَعُدُّ العدة للدفاع عن أرضنا ، وأعراضنا ، ونعمر بها مصانعنا وحياتنا ، وكل هذا من ضرورات الحياة الأفضل والأكرم .

ثم نقل أبو إسحاق قدرًا من كلام أبي بكر ومن كلام عمر ومن كلام عثمان ـ رضي الله عنه وعنهم جميعًا ـ ، ولم أكتب هذا الكتاب إلا لترجع إلى زهر الآداب ، فإذا لم ترجع كأنني لم أكتب ، وصدقني لو أمكنني أن أحفظ ما فيه لحفظته ، لأن حُرّ البيان من خير ما يُقْتَنى في القلب والعقل ، ولهذا كان بيان القرآن فوق كل بيان ، وكان بيان رسول الله ﷺ فوق بيان البشر كل البشر ، ولهذا لا تشبع الفطرة السليمة لا من كلام الله ، ولا من كلام رسوله ﷺ ؛ وكان هذا مما حفظ الله به الدين ، ولاحظ شيئًا هو أن الله ـ سبحانه ـ أتم علينا النعمة بالبيان الذي هو فوق كل بيان وجعل خير خلقه أعلى الناس بيانًا ، وكان لأبي إسحاق وقفات جيدة يقف فيها لوصف الكلام العالي ، من مثل قوله : « وأفضل الكلام ما كان قليله يُغْنيك عن كثيره ومعناه ظاهرًا في لفظه ، وكأن الله قد ألْبَسَهُ من ثياب الجلال ، وغشّاه من نور الحكمة ، على حسب نيّة صاحبه ، وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفًا واللفظ بليغًا ، وكان صحيح الطبع ، بعيدًا من الاستكراه ، منزهًا عن الاختلال ، مصونًا عن التكلف ، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة ، ومتى فصُلّت الكلمة على هذه الشريطة ، ونَفَذَتْ من قائلها على هذه الصِّفة أصْحَبَها الله عز وجل من التوفيق ، ومنحها من التأييد ، ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ،

ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة» انتهى كلامه ، وهذا من أكرم الكلام في وصف البيان ونقده وتمييزه ، وقوله : «وأفضل الكلام ما كان يغنيك قليله عن كثيره» وإن كان من المعاني الشائعة في وصف الكلام ، فإن النظر في البيان يجعلك ترى فيه هذه الحقيقة ، وكأنك لا تقولها من حفظك لها ، وإنما رأيت الكلام العالي يغنيك قليله عن كثيره ، وهذا أظهر ما تراه في كلام الله ثم في كلام رسوله ﷺ ، وراجع ما شئت من آيات الكتاب ، وما شئت من كلام رسول الله ﷺ ، ولا شك أنك سترى هذا الوصف ظاهراً بيِّنًا ، ولست في حاجة إلى أن أضرب لك مثلاً ، وقوله : «وكأن الله قد ألبسه من ثياب الجلال وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقواه» أفهم منها أن النية الصادقة والقلب المخلص والتوجه إلى الله بالذي تقوله تبتغي به وجهه ، وصلاح هذه الأمة كل ذلك يستثير من النفس أقصى طاقاتها ، فتدرك ما خفي من الأسرار ، ويعمر بيانها بالخير الكثير على حسب ما أكرمها الله به من الصدق ، والإخلاص ، والتوجه الكامل لمرضاة الله .

وليس هذا في البيان فحسب ، وإنما في كل قول أو فعل يصدر من الذين رزقهم الله الإخلاص والصدق ، في أي قول أو في أي عمل تصلح به حياة هذه الأمة ، التي جعل الله ـ سبحانه ـ عمل الخير فيها ولها من أقرب القربات ، وأزكى الطاعات ، وقد أخبرنا عليه السلام أنه رأى رجلاً يتقلب في الجنة بسبب غصن شوك أزاله أو أزاحه عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين ، فكيف يكون حال من يدعو فيها إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا يبتغي إلا وجه الله حتى إنه يكره أن يذكره الناس بهذا ، ويكفيه علم ربه به ، لأنه لا يعمل إلا لربه ، ولا أشك في أن الباحث في أي باب من أبواب العلم إذا رزق هذا الإخلاص وهذا الصدق وهذا التوجه إلى الله وإنكار ذاته ، سيهتدي لا محالة إلى خفايا ودقائق وأسرار ما كان له هو أن

يهتدي إليها لو لم يكن في هذه الحالة ، وقُلْ مثل ذلك في العالم الذي جَعَل معمله محرابًا له ليكشف سرًّا من أسرار العلم تتقدم به صناعة الأمة ، أو يتقدم به دواؤها ، أو طبُّها ، أو ما شئت من العلوم التي تحتاج إليها الأمة ، لا أشك في أنه وهو في محرابه الذي هو معمله يصل إلى ما لم يصل إليه أي باحث ليس في الحالة التي هو عليها ، وتعجب أن الذين لا يذكرون الله لما جدوا وصدقوا وأخلصوا هُدُوا إلى ما ينفعهم في دنياهم ، لأن الله وعد الجادين بأنه لا يخيب جدَّهم ، ولو لم يريدوا إلا حَرْثَ الدنيا ، وقال سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ (هود:١٥) راجع كلمة ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ يعني يكافئ جدهم مكافأة وافية ، وتصور الزيادة التي يعطيها ربنا لأهل الجد وأهل الإخلاص إذا رزقوا التقوى وابتغاء وجه الله ، وأنه سبحانه يوفى المنكرين لوجوده ، فأي عطاء يعطيه للذين تعلَّقت قلوبهم برضاه ؟ وكل هذا يجعل وجوب أن تكون المسافة بيننا وبين التخلف أكثر بُعْدًا وكأننا الذين اخترناه ، لأن عطاء ربنا لنا لو أننا رفضنا هذا التخلف واستشرفنا للذي هو أفضل عطاء بلا حساب ، وقول أبي إسحاق : « صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة » لم يبين لنا أبو إسحاق صنيع هذا البيان الذي هذه أوصافه في القلوب ، وإنما أحالنا على صنيع الغيث في التربة الكريمة ، وأن هذا البيان يستخرج من القلوب والعقول الأفكار النافعة التي لا يقل نفعها عن الذي يستخرجه الغيث من التربة الكريمة ، والغيث يستخرج من التربة الكريمة ما يحيا به الناس وما تحيا به الأنعام ، وما هو متاع لكم ، الغيث يستخرج من التربة الكريمة حبا ونَخْلاً وزيتونًا وحدائق غلبًا ، وأكثر من ذلك ، والبيان يستخرج من النفوس الحية من العلم والفكر والمعرفة ما هو عدل ذلك ، وإذا قلت إن في كلام أبي إسحاق إشارة إلى أن الفطرة الإنسانية تبتهج بالصدق ، وتهشُّ له ، وتكشف له عن أسرارها ، وقواها ، وتستنفر له كل قواها ، فيصيب في لحظة

الصدق ما لا يصيبه في غيرها ، وأن فطرة الجبابرة لا تستطيع مقاومة الصدق ، وإنمات تنكسر له ، وتُسلِّم له ، أقول لو قلت هذا لا أستطيع دفعه .

حفاوة أبي أسحاق بكلام الإمام علي

كان أبو إسحاق كثير الحفاوة بالإمام علي - كرم الله وجهه - فنقل من كلامه أكثر مما نقل من كلام غيره من أصحاب رسول الله ﷺ ، ونقل من أخباره وأوصافه أكثر مما نقل من أخبار وأوصاف غيره ، والإمام علي جدير بهذا ، وبأكثر منه ، وكان معاوية بعد استشهاد الإمام علي وانتهاء الحرب كثيراً ما كان يسأل الرجال الذين كانوا مع علي أن يصفوا له عليًّا ، وكان من حكمة معاوية أنه قَبِلَ كل من كانوا مع علي ، وإن كانوا واجهوه بسيوفهم ، وأنه يُقَدِّرُ أنه أصبح مسؤولاً عن الكل ، وهذا هو السياسي الذي يفهم السياسة ، وليس الذي يمتلئ حقداً وغِلاً على فريق من أبناء الوطن لأنهم يعارضونه ، كان معاوية يطلب من الرجال الذين كانوا مع علي أن يصفوا له عليًّا ، وكذلك طلب من بعض النساء الوافدات عليه أن يصفن له عليًّا ، وكانوا يحدثونه بكل ما في نفوسهم من حُبٍّ للإمام علي ، ولا أشك في أن معاوية لم يكن في حاجة إلى من يصف له الإمام عليًّا ، لأن عليًّا ابن عم أبيه أبي سفيان ، وحرب الذي هو جد معاوية ابن عم أبي طالب الذي هو والد علي ، وأمية جد أبي سفيان ابن عم عبد المطلب الذي هو جد علي ، وعبد شمس الذي هو جد بني أمية أخو هشام الذي هو جد بني هاشم ، وكلاهما من ولد عبد مناف بن قُصيّ ، فهذه عائلة واحدة ، ولو لم تكن هذه القرابة فحياة علي ومعاوية ونشأتهما في مكة كافية لمعرفة معاوية بعلي ، وإنما كان يسأل أصحاب علي عن أوصافه ليتبيَّن الذي وجدوه فيه والذي دعاهم إلى قوة الاستمساك به ، ومما ذكره أبو إسحاق سؤال معاوية لِضَرارَ الصدَّائي ، قال له

معاوية: صف لي عليًّا. فقال: أعفني يا أمير المؤمنين، فقال: لَتَصِفَنَّه، قال: أما إذا أذنت فلابد من صفته، وأجاد الرجل وصف الإمام وأنه كان بعيد المدى، شديد القوى، يحكم عدلاً، ويتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، وأنه كان فيهم كأحدهم، يُجيبهم إذا سألوه، ويعظِّم أهل الدين ويحب المساكين، وظل الرجل يذكر من صلاحه ودعائه ورجائه حتى أغرورقت عينا معاوية، واخضلت لحيته من وفرة دموعه، ومثل هذا كثير جدًّا.

وأنا أحب الإمام حبًّا شديدًا، ولكن هذا الحب لا يدفعني إلى أن أميل على معاوية مثقال حبة من خردل، لأن معاوية من أصحاب رسول الله ﷺ وقد أوصانا بأصحابه، وقال لنا هم كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم، وكل أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا مع معاوية كالزبير بن العوام، وطلحة، كلهم لنا كالنجوم التي نهتدي بها، وكلهم كان يَغُضُّ صوته في مجلس رسول الله ﷺ وقد زكى الله سبحانه وتعالى الذين كانوا يغضون أصواتهم عند رسول الله، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحجرات:٣) وكل من كانوا مع معاوية من هؤلاء لهم مغفرة وأجر عظيم، وهذا وعد الله ـ سبحانه ـ وهو يعلم أنه سيكون منهم ما كان، ثم إن رسول الله ﷺ لما أوصانا بهم وقال لنا هم كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم، قال ذلك بوحي ربه الذي يعلم أنه سيكون منهم ما كان، وأجمع أهل السنة على أنهم جميعًا عدول ولا يجوز تجريح واحد منهم، وإنما نترك الذي كان بينهم لله سبحانه وتعالى، ونعتَقِدُ أنهم كانوا متأولين، أعني يرون الذي هم عليه هو الذي يرضى الله وكفى.

الإمام علي وعمرو بن وُدّ

وقد ذكر أبو إسحاق مبارزة علي ـ كرم الله وجهه ـ لعمرو بن وُدّ ، قال أبو إسحاق يعرفنا بعمرو بن ود : هو عمرو بن وُدّ بن نضر بن مالك بن حسك ابن عامر بن لؤي ، ولما صار مع المسلمين في الخندق دعا البراز فقال :

ولقد بَحِحتُ من النداء بجمعهم هل من مبارز .

ووقفت إذ نكل الشجاعُ بموقف البطل المُناجِزِ

إني كذلك لم أزل متسرعًا نحو الهَزَاهِزِ

إن السماحة والشجاعة في الفتى خير الغرائز

فبرز علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : يا عمرو إنك عاهدت الله لقريش ألا يدعوك أحد إلى خَلَّتَين إلا أخذت إحداهما ، فقال : أجل ، فقال : إني أدعوك إلى الله وإلى رسول الله وإلى الإسلام ، قال : لا حاجة لي بذلك ، قال : فإني أدعوك إلى المبارزة ، فقال : يا ابن أخي ما أحب أن أقتلك ، قال علي : ولكني والله أحب أن أقتلك ، فَحمِيَ عمرو فاقتحم عن فرسه وعرقبه أي قطع عرقوبه ثم أقبل إلى علي :

فتجاولا كغمامتين تكنَّفَتْ ... مثنيهما ريحًا صَبًّا وشمالِ

في موقف كادت نفوس كُماته ... تُبتزُّ قبل تَورُّدِ الآجال

وعلت بينهما غبرة سترتهما لم يرع المسلمين إلا التكبير ، فعلموا أن عليًا قتله ، ولما قُتِل عمرو جاءت أخته ، فقالت من قتله ؟ قيل لها : علي بن أبي طالب فقالت : كفء كريم ثم انصرفت وهي تقول :

لو كان قاتل عمرْو غيرَ قاتله ... لكنت أبكي عليه آخر الأبَدِ

لكن قاتله من لا يُعاب به ... وكان يدعى قديمًا بَيْضَة البلدِ

من هاشم في ذُرَاهـا وهـي صَـاعِدةٌ إلى السماء تُميتُ النـاس بالـحَسَدِ
قـوم أبى الله إلا أن يكـون لـهم مكـارِمُ الـدين والـدنيا بـلا أمَـدِ
يـا أم كلثـوم بكيِّـه ولا تـدعي بكـاء مُعوِّلـة حـرَّى علـى وَلَـدِ

وأم كلثوم بنت عمرو بن وُدّ ، وبيضة البلد : تَمْدَحُ العرب بها وتذم ، فمن مدح بها جعله أصلاً كما أن البيضة أصل الطائر ، ومن ذم به أراد أن لا أصل له ، وكان عمرو يتهيبه أبطال العرب ، وكان البعض يقول إن عمرًا له قلبان لفرط بسالته ، وذكر ذلك بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ (الأحزاب:٤) وكان الإمام يعلم أن عمرو بن ود لن ينازله للرحم التي بينه وبينه ، فذكر له ما عاهد الله عليه لقريش ، وتعجب من أخت عمرو وكيف كان قتل علي له عزاء لأخت عمرو ، وأن شرف القاتل وسُؤدَدَه يخفِّفُ مصاب أهل المقتول لأنه قتله كفء كريم بخلاف ما لو قتله نَدلٌ جَبَان ، وهذا الفرق المتسع بين أهل الشرف والسؤدد وغيرهم كان متجذِّرًا في نفوس هؤلاء الناس إلى الدرجة التي رأينا عليها أخت عمرو بن وُدّ حتى إن القاتل الكفء يخفف المصاب ، قلت هذا وكررته لأن يقينهم في دين الله قد مَحَا هذا واقْتَلَعه من النفوس ، لأن دين الله سوّى بين الناس جميعًا ولا فضل لعربي على عجمي ولا لحر على عبد إلا بالتقوى ، وآمنوا بذلك واقتنعوا به ، وأن دين الله ـ جل وتقدس ـ صاغ نفوسهم صياغة جديدة ، وتخلت هذه النفوس عن أشياء كانت كأنها جزء منها ، وإذا لم يفعل الدين في النفوس هذا الفعل كان الإيمان به ضعيفًا ، وقول أخت عمرو بن ود في بني هاشم :

قـوم أبى الله إلا أن يكـون لـهم مكـارِمُ الـدينِ والـدنيا بـلا أمَـدِ

وذكر مكارم الدين يعني أنها مسلمة ، وإذا كانت مسلمة فلماذا لم تبك على أخيها ، لأنه قتل كافرًا ؟

وقفات لأبي إسحاق يصف فيها عمله في الكتاب

ولأبي إسحاق وقفات يصف فيها عمله في الكتاب ، والأسس التي كان يتبعها في ذكر ما ذكر ، والغاية التي يرمي إليها ، وفي هذا السياق يشير إلى أن طبيعة الكلام أنه يَعْلَقُ بعضه ببعض ويذكِّر بعضُه ببعض ، وأنك إذا قرأت معنى له فيما علمت من البيان نظائر ذكّرك ما وجدت بالذي عرفت ، وأنه سيذكر المعاني المتعلقة بغيرها ، وخصوصًا المعاني المتعلقة بكلامه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، والمتعلقة بكلام أصحابه والتابعين لهم بإحسان ، وأن الكلام يَلْتَفِتُ إلى الكلام ، وقد يَلْتَفُّ حول الكلام ، وقد يأخذ بأغصانه ، ويتشبث بأفنانه» وأبو إسحاق يَضُمُّ كل ذلك بعضه إلى بعض ، ويكوِّن لنا منه زهر الآداب وثمر الألباب :

من كُلّ معنى يكاد الـــمَيْتَ يَفْهَمــهُ حُسْــنًا ويَعْبُــدُه القرطـــاس والقَلَــمُ

وناهيك عن بيان يعبده القرطاس والقلم ، واسأل ماذا يفعل هذا البيان الذي يقيده القرطاس والقلم في النفس الإنسانية ، وأننا ننقص البيان قدره حين نصفه بأنه يجلو الأبصار العليلة ، ويشحذُ الأذهان الكليلة ، ويوقظ أهل الغفلة ، لأن كل ذلك دون عبادة القرطاس والقلم له ، وأبو إسحاق حين يتحدث عن تَجْلِيةِ الأبصار العليلة ، وشحذ الأذهان الكليلة ، وإيقاظ أهل الغفلة ، إنما يتحدث عن مرادنا جميعًا فيما نقول ، وفيما نكتب ، وكأنه يقول لجماعة المدرسين عليكم بتجلية الأبصار العليلة ، وشحذ الأذهان الكليلة ، وإيقاظ أهل الغفلة ، ويقول للخطباء على المنابر عليكم بتجلية الأبصار العليلة ، وشحذ الأذهان الكليلة ، وإيقاظ أهل

الغفلة ، ويقول ذلك لكل حامل قلم ، ولكل مسؤول ، وأن البلاد لن تتقدم إلا بحشد كل هذه الجهود لتغيير الإنسان ، ولن نتقدم قيد نملة لو وقفنا جميعًا في وقت واحد وقلنا تحيا مصر ولن نتقدم بقولنا حضارة سبعة آلاف سنة ، وإنما طريق التقدم معروف ومكتوب في كل كتاب ، والهتاف شغل الهتِّيفة وليسوا بناة أوطان ، لأن الأوطان لا تبنى باللسان وإنما تبنى بالسواعد ، وأول ما ذكره أبو إسحاق من كلام الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بعد أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي كلام لمعاوية كله ثناء على الوليد بن عتبة الذي قتل في بدر كافرًا ، وقتل أبوه عتبة وعمه شيبة ، ولم نُنْه عن ذكر فضائل من مات كافرًا وإنما نهينا عن الدعاء له ، ولم يدع معاوية له ، قال معاوية في الوليد بن عتبة : « إنه لبعيد الغور ، ساكن القور ، وأن العود من لحائه ، والولد من آبائه ، والله إنه لنبات أصل لا يخلف ، ونجل فحل لا يقرف» وساكن القور يصفه بالهدوء والحلم ، والوليد هذا هو خال معاوية لأن أم معاوية هي هند بنت عتبة ، ولغة معاوية كما تراها لغة عالية ، وراجع أنت ستجد بعيد الغور وساكن القور متفق في عدد الكلمات ، واتفاق الوزن والسجع في الغور والقور وكذلك العود من لحائه والولد من آبائه ، ونَبَاتُ أصْلٍ لا يخلف ، ونجل فحل لا يقرف ، وكأن طُرْبة جرت في نفس معاوية وهو يذكر خؤولته فبعثت طربة في البيان ، ولا عجب إذا رأينا طربة في صاحب البيان قد انتقلت هذه الطربة إلى البيان نفسه ، والمعاني التي في النفس تبين عنها الكلمات الدالة على هذه المعاني ، والطربة لبست معاني وإنما هي حالة أشبه بالنغم أو الغنائية يشير إليها نغم الكلام وغنائيته ، واعلم أن معاوية كان شاعرًا ترك الشعر في آخر أيامه .

الأحنف يخاطب معاوية

ثم ذكر أبو إسحاق كلمة جليلة قالها الأحنف بن قيس لمعاوية رضي الله عنه، وكانت جليلة لفصاحتها وبهائها، وأيضًا وهو الأهم أن الأحنف فيها كان يتكلم في مصالح الناس، ولم أعرف كلاما يقال أفضل من كلام يراد به تحقيق الخير للغير، ولم أعرف عملاً يُعْمل أفضل من عمل يحقق الخير للغير، وهذا هو الدين وكل امرئ بما كسب رهين، ولن يَفُكَّ رهن نفسك شيء أفضل من شيء صنعت فيه الخير لغيرك، والأثرة والأنانية دمَّرت المعروف بين الناس، قال الأحنف: «يا أمير المؤمنين أهل البصرة عَدَدٌ يسير، وعظم كسير، مع تتابع من المحول، واتصال من الذحول، فالمكثر فيها قد أطرق، والمُقل قد أملق، وبلغ منه المخنق، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنعش الفقير ويجبر الكسير، ويسهل العسير، ويصفح عن الذحول، ويداوي المحول، ويأمر بالعطاء، ليكشف البلاء، ويزيل اللأواء، وأن السيد من يعمم ولا يَخص، ومن يدعو الجَفَلى، ولا يدعو النَّقرى، إن أُحسن إليه شكر، وإن أُسِيء إليه غفر، ثم يكون وراء ذلك لرعيته عمادًا، يدفع عنها الملمات، ويكشف عنها المعضلات، فقال معاوية ههنا يا أبا بحر، ثم تلا ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ (محمد: ٣٠)» اقرأ هذا جيدًا، وراجع السجع الذي جرى في كلام الأحنف كله، والأحنف بن قيس سيد من سادات تميم، راجع «عدد يسير، وعظم كسير، وتتابع المحول، واتصال الذحول» أي الثأر والدماء، والمكثر قد أطرق، والمقل قد أملق، وبلغ المخنق، ينعش الفقير، ويجبر الكسير، ويسهل العسير، ويصفح عن الذحول إلى آخره، وهذا السجع شائع في كلام فصحاء هذا الجيل المتميز بيانه، ولا يمكن أبدًا أن يكون زينة للكلام، وحلية له، ولابد أن يكون معبرًا عن معان لا تَستطيع الكلمات أن تسيطر عليها،

وتبين عنها ، ولا يجوز لمن يعرف هذا الجيل ويعرف كِرَامَه الذين كان الأحنف من أكرمهم أن يتوهم أن الأحنف قصد إلى هذا السجع ، ولابد أن يكون هذا السجع مُبينًا وأن لغة الأحنف أبانت بكلماتها عن معانيها ، وأبانت بنغمها عن الذي هرب من الكلمات فأبانت عنه هذه النغمات ، وقد قرأت قديمًا كلمة ظلت عالقة في نفسي وهي أن فضل معانٍ بقي في النفوس لم تعبر عنه الكلمات ، فاخترع الإنسان الموسيقى لتُعبّر بضرباتها وأصواتها عن هذه البقايا في النفس ، ودع هذا وقل فيه ما ترى ، واعلم أن أهل البَصْرة ومنهم الأحنف كانوا مع علي ـ كرم الله وجهه ـ وحاربوا معاوية ، وأرادوا إسقاط خلافته ، والآن الأحنف يعرض العُسْر الذي هم فيه ، والضعف الذي هم فيه ، ويطالب معاوية بأن يكشف عنهم الكروب ، وهم الآن من رعايا الخلافة ، وأنك يا معاوية لو عشت الأحقاد لن يدوم لك ملك ، وإنما عليك أن تترك الذي مَضَى وأن تعيش الذي أنت فيه ، عليك أن تُنْعِش الفقير ، وإن كان بالأمس يواجهك بالسيف ، والكرام هم الذين إذا أُسِيءَ إليهم غفروا ، وعليك أن تَصْفَح عن الذحول التي هي الدماء ، التي في أعناقهم ، وعليك أن تداوي الذي هم فيه ، وتكشف البلاء ، وتزيل اللأواء ، والسجع هنا لغة أخرى فيها معنى لا يخطئه حس معاوية ، وهذه هي السياسة وهؤلاء هم الساسة ، والأحنف أحد زعماء تميم ، يعني كان قائد فرقة من بني تميم في حرب معاوية ، وبعد ما انتهى الأمر لمعاوية لم يطلب منه الذي يطلب على وجه الفضل والمعروف ، وإنما على وجه الوجوب ، ما دام أصْبَحَ مسؤولاً عن الناس الذين كانوا معه ، والذين كانوا عليه ، قلت هؤلاء هم الساسة وهذه هي السياسة ، وهذه هي الأبصار غير العليلة ، والأذهان غير الكليلة ، وقد أنفذ معاوية للأحنف كل الذي أراد ، وأكرم أهل البصرة ، وصفح عنهم ، وأعانهم ، وبَسَطَ لهم العطاء ، وأصبحوا من

المحبين لمعاوية ، واجتمع الشمل ، ولو كان معاوية ليس من أهل السياسة لما وَسِعَ الذين كانوا بالأمس يواجهونه بسيوفهم ، والأحنف الذي قال لمعاوية ما قرأناهُ هو الذي ذكّره معاوية بحربه لمعاوية في مقام آخر ، فقال الأحنف لمعاوية : إن القلوب التي كرهناك بها لا تزال بين جوانحنا ، وإن السيوف التي حاربناك بها لا تزال على عواتقنا ، فإن شئت أذهبت ذلك بالحلم وحسن السياسة ، وإن تقدمت إلينا بالغدر شِبْرًا ، تقدمنا إليك بالختر الذي هو الغدر باعًا ، وهكذا الرجال الأقوياء ، والساسة الأقوياء ، والقيادات الوطنية القوية ، وهذا إرثنا وليس غريبًا علينا ، وإنما الغريب علينا هو الذي نحن فيه ، ولن يتغير إلا بالعلم ، والتعليم ، واليقظة التي تداوي الأبصار العليلة ، وتشحذ الأذهان الكليلة ، ولابد أن يتجه الكل إلى هذا ، بالإيمان الصادق ، والعزم الصادق ، ولن تَنفِيَ البلاد خبثها إلا بذلك .

وقد طال كلام أبي إسحاق في بيان تميّز بلاغة قريش وأنهم أفضل العرب بيانًا ، وهذا متفق عليه من كل العرب ، ثم إن قريشًا لم تتميز بالبيان العالي فحسب ، وإنما تميزت بالعقل ، والحكمة ، والشجاعة ، والسماحة ، وبكل ما يكون به الإنسان أفضل ، وكان بشّار بن بُرْد وأصله من العجم يصف قومه الذين هو منهم بأنهم قريش العجم ، يعني هم متميزون في قومهم تميز قريش في العرب ، وهذا يعني أن تميز قريش في العرب كان يضرب به المثل ، وأنه لا يخالِفُ أحدٌ فيه ، ثم إن أبا إسحاق خصّ بني هاشم في قريش ، وأنهم متميزون في قريش ، تمييزًا لا يخالف أحد فيه ، وروى في ذلك كلامًا كثيرًا ، ومفيدًا ، ومنه قول معاوية في وصف ألْسِنةِ بني هاشم الذين حاربهم وحاربوه ، قال هي ألْسِنة حِدَاد ، تَفْلِق الصَّخر وتغرِفُ من بحر ، يعني فيها قوة أقوى من قوة الصخر ، ولكلامهم سعة كأن ألسنتهم تغرف من بحر .

من كلام أبي جعفر محمد بن علي

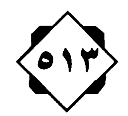
وذكر أبو إسحاق أن أعرابيًّا سأل أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين ﵁ قال الأعرابي : « هل رأيت الله حِيَن عَبَدْته ؟ فقال أبو جعفر لم أكن لأعبد من لم أره ، قال فكيف رأيته ؟ فقال لم تَرَهُ الأَبْصار بمشاهدة العيان ، ورأته القلوب بحقائق الإيمان ، لا يدرك بالحواس ، ولا يُشبَّه بالناس ، معروف بالآيات ، منعوت بالعلامات ، لا يجور في القضيّات ، ذلك الله الذي لا إله إلا هو ، فقال الأعرابي الله أعلم حيث يجعل رسالته » . وأدعو الله لي ولك أن يسكن في قلوبنا الإيمان الذي نرى الله به ، لأن الإيمان بالله لا يُريني الله إلا إذا بلغ حق اليقين ، حتى لا أرى في قلبي يقينًا أعْلَى من يقيني بأنه سبحانه واحد أحد ، فردٌ صمد ، لم يَلدْ ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد ، ولن يكون أحب إليّ من كل ما سواه حتى نفسي وولدي إلا بهذا اليقين ، ولن يهون عليّ دمي إلا في مرضاته سبحانه ، وقول سيدنا محمد ابن علي بن الحسين « معروف بالآيات » معناه أن كل ما في الكون ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم ، فالشمس التي تجري لمستقر لها تنادي بالإيمان أن آمنوا بربكم ، والطير المسخر بين السماء والأرض لا يُمْسكُه إلا الله ، ينادي بالإيمان أن آمنوا بربكم ، وكل آية في الكتاب العزيز المعجز ، تنادي للإيمان أن آمنوا بربكم ، وأنا وأنت وكل المخلوقات تنادي للإيمان أن آمنوا بربكم ، وأصابعي التي تحمل القلم الذي أكتب به تنادي بالإيمان أن آمنوا بربكم ، ولساني الذي أخاطبك به ، ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم ، وأذنك التي تسمع ، تنادي للإيمان أن آمنوا بربكم ، وفي كل شيء آية تنادي بالإيمان أن آمنوا بربكم ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وتعجب من المنكرين لله ، وكل ما في السموات والأرض يسبِّح له ، ويسجد له ، والأعرابي فهم من كلام أبي جعفر أوسع ، وأدق ، وأجل مما كتبته ، وعقب بقوله : « الله أعلم

حيث يجعل رسالته» وأنه سبحانه جعل رسالته في أكرم خلقه الذين هم بنو هاشم، وأنه عليه السلام خيار من خيار.

وذكر أبو إسحاق قول الجاحظ: «قال محمد بن علي - يعني ابن الحسين ابن علي - صلاح شأن الدنيا بحذافيرها في كلمتين، لأن صلاح شأن الناس في التعايش والتعاشر وهو ملء مكيال ثُلُثَاه فِطْنَة وثلثه تَغَافُل»، وعقب الجاحظ على هذا بقوله: «لم يجعل لغير الفطنة نصيبًا من الخير، ولاحظا من الصلاح، لأن الإنسان لا يتغافل عن شيء إلا وقد عرفه، وفطن له» انتهى كلام الجاحظ. والجاحظ لم يشرح كلام محمد بن علي بن الحسين، وإنما نظر إليه من جهة مهمة جدًّا، تعني الجاحظ وتعنينا وهي أن ابن الحسين أخرج الذي لا فطنة له من الجماعة ولم يحسب له حساب، وكأنه ليس من الأحياء، وكأن الفطنة في كلام هذا الهاشمي هي الحياة، وأن الأحياء هم أهلها، وأن الجهلة والأغبياء والمُغيّبين لا يدخلون في عداد الناس، وهذا جيد جدًّا، وإدراك حَيٌّ للحياة والأحياء، والجاحظ رجل علم، وفكر، ومتميز في عقله، وفهمه، ولذلك عني بهذا الجانب من هذا السطر الموجز الذي قاله ابن الحسين، وتعجب كيف يلخص صلاح شأن الدنيا بحذافيرها في كلمتين، ومن شأن من يفكر في صلاح شأن الدنيا أن يعنى فقط بأهل الفطنة، وأن يطرح غير أهل الفطنة، ولا يلتفت إليهم، ثم إنه لم يُغيّبهم، وإنما هم الذين غيبوا أنفسهم لما أهملوا عقولهم، وحين أقرأ شرح كلام الجاحظ أو تعقيب كلام الجاحظ ومن في طبقته على كلام سلفهم، أجدني أمام خير جزيل يُعَلِّمني كيف قرأ كِرامُنا كلام كرامنا، وهذا من أجل صور التعلم، وكل الذي عني به الجاحظ هو إبعاد من لا فطنة له، ولا شك أن الذي يوجد الفطنة هو التعليم الجيد الجاد الصادق، وأن إهمال التعليم هو إهمال العقل الذي هو الإنسان والحياة، وأن العناية المتميزة بالعلم والتعليم هي العناية بالإنسان، ويا بُعْدَ مَا بَيْنَ

الذين يدمّرون الإنسان بتدمير التعليم ، والذين تكون عنايتهم الأولى هذا الإنسان بمدارس كأنها في الوطن منابر من نور ، وأعود إلى كلام ابن الحسين الذي فيه شيء ظاهر ومع ظهوره هو محتاج إلى ذكره ، وذلك أنه لخص صلاح الدنيا في التعايش والمعاشرة ، وكأنه يقول كما أن غياب فطنتك تعني غياب وجودك في وطنك ، فكذلك غيابك عن الجماعة ، ولا معنى لحضورك في الجماعة إلا أن تشارك هذه الجماعة ما هي فيه ، وأن تعمل معهم بفطنتك ، وعلمك ، وعقلك ، وجدك كله ، لصلاح حياتك وحياتهم ، وأن ثلثَ فطنتك الذي يجب أن تُغْفِلَه هو للمحافظة على الثلثين اللذين تعيش بهما ، وذلك لأن المطلوب التغافل وعدم الاشتغال بالأشياء الهيِّنة التي لا تستحق أن يبذل فيها الناس من جهدهم ووقتهم ، ولاحظ أن الثلثين لإصلاح شأن الحياة وليس لإصلاح شأنك وحدك ، لأنك مع جماعة لابد أن تكون قادرة على حماية أرضها وأعراضها ، ولابد أن تكون منتجة لكل حاجاتها ، ولِعلْمها ، وطِبِّها ، وخُبْزها ، ودوائها ، وسلاحها ، وعتادها ، والشعب الذي يعيش على الذي عند الأمم في علومه ، ودوائه ، وسلاحه ، وعتاده ، ومأكله ، وملبسه ، شعب ضائع ، وهو من الذين افتقدوا الفطنة ، وكأنهم لما أسندوا أمرهم إلى غير أهله أُسْنِدَتْ لهم الحياة وهُمْ غيرُ أهلها ، لأن الحياة التي تحسب كما قال ابن الحسين ، هي لأهل الفطنة ، وأهل الفطنة لا يقبلون أن يعيشوا إلا بجهودهم ، وكما أن خير الطعام ما كان من كسب اليد كما قال سيدنا عليه السلام ، كذلك خير السلاح ما كان من كسب اليد ، وخير الدواء ما كان من كسب اليد ، وخير الثياب ما كان من كسب اليد ، وخير كل ما على أرضنا ما كان من كسب أيدينا ، إذا كنا أهلاً للحياة ، وأبو إسحاق يعلم كل ذلك ودَل عليه بذكر بيت لأبي تمام وهو قوله :

ليس الغبيُّ بسيِّدٍ في قومه ... لكن سيِّدَ قومه المتغابي



فذكر أن المراد بالفطنة هي الفطنة التي تقود الجماعة إلى أن يكونوا سادة وليسوا عالة على الأمم ، وليسوا طالبي معروف من أبناء العمومة الميسورين .

ولما ذكر محمد بن علي بن الحسين المكيال كأنه يشير إلى أن للأوطان وللأمم مكيال وميزان ، لا يوضع فيه الأغبياء الجهلة المُنوَّمُون ..

ومحمد بن علي بن الحسين هو محمد الباقر وأخوه زيد بن علي بن الحسين ، وكان كما قيل عنه دَيِّنًا شجاعًا ناسكًا من أحسن بني هاشم عبادة ، وأجملهم إشارة ، وكان ملوك بني أمية يكتبون إلى صاحب العراق أن امنع أهل الكوفة من حضور زيد بن علي ، فإن له لسانًا أقطع من ظُبَة السَّيْف ، وأحدّ من شَبا الأسِنَّة ، وأبلغ من السحر والكهانة ، ومن كل نفثة في عقدة ، وكل هذا من كلام أبي إسحاق ، وكل هذا يعني أن كلام محمد بن علي كلام رجل أمَّة ورجل دولة ، ولا يجوز قَصْره في صلاح الدنيا على معيشة الفرد ، وإنما يتسع باتساع عقل رجل الأمة ورجل الدولة .

وبعد سبع وتسعين صفحة يقول أبو إسحاق : « قد تَمَّ ما استفتحت به التأليف وجعلته مقدمة التصنيف مع ما اقترن به وانضاف إليه ، وانعطف عليه ورأيت أن أبتدئ مقدمات البلاغات بغرر التحاميد وأوصافها وما يتعلق بأثنائها وأطرافها »[1] ، وإنما طال ما استفتح به التأليف وما قدم به التصنيف أنه كان إذا ذكر معنى أتبعه بما اقترن به والتفّ به وانْعَطف عليه ، وهذا هو ضرب التصنيف الذي انفرد به زهر الآداب ، وأن ذاكرة أبي إسحاق كأنها وعت الشعر كله ، فإذا ذكر معنى أمَدته بنظائره وأشباهه وما قرب منه وما بعد ، والمهم أن فيه رحم بينه وبينه وإن كانت رحمًا بعيدة ، وكأن الأرحام التي بين أبناء العشيرة أو أبناء القبيلة عكسها

(١) زهر الآداب ، ١/٩٧ .

أبو إسحاق على الشعر وذكر المعنى وأخاه ، والمعنى وابن عمه ، والمعنى والذي هو من قبيلته ، وأبو إسحاق أنصاري من أبناء قيلة اليمانية .

وهذا الضرب من التصنيف الذي ينادى فيه المعنى كل ما هو من عرقه قريب من الذي كانت عليه مجالس العلماء حين ينقلهم الحديث من باب إلى باب لم يكونوا قاصدين إليه وإنما يدعو الكلامُ بعضُه بعضًا .

ما تسلسل من قول الفرزدق يكاد يمسكه عرفان راحته

ذكر أبو إسحاق القصة المعروفة وهي حج هشام بن عبد الملك أو الوليد ابن عبد الملك ، وأنه لما أراد استلام الحجر لم يتمكن من زحمة الناس ، فأحضروا له منبرًا فجلس عليه ليستلم الحجر ، وهو في هذه الحالة أقبل علي ابن الحسين والد محمد الباقر وزيد ، وكان من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم ريحًا ، وأكثرهم خشوعًا ، وبين عينيه سجادة كأنها ركبة عَنْز وطاف بالبيت ، ولما توجه لاستلام الحجر تنحّى له الناس هيبة وإجلالاً ، فقال رجل من أهل الشام لابن عبد الملك من الذي أكرمه الناس هذا الإكرام وأعظموه هذا الإعظام ؟ فقال لا أعرفه ، لئلا يُفتتن به أهلُ الشام ، وكان الفرزدق حاضرًا فقال :

هذا ابنُ خَيْرِ عبادِ الله كُلِّهُمُ ... هذا التَّقِيُّ النَّقيُّ الطاهرُ العَلَمُ

هذا الذي تَعْرِف البَطْحاءُ وَطْأته ... والبيتُ يعرفُه والحِلُّ والحَرَمُ

إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا يَنْتهِي الكَرَمُ

يكاد يُمْسِكُه عرفانَ راحته ... ركنُ الحطيم إذا مَا جَاء يَسْتلِمُ

في كفه خيزران ريحُه عَبِقٌ ... في كف أروع في عرنينه شَمَمُ

يُغْضِي حياء ويُغضَي من مهابته ... فما يُكلّم إلا حين يَبْتَسِمُ

وأتبع ذلك بأكثر من عشرين بيتًا ، وتلاحظ أن الأبيات الأولى جواب لسؤال الشَّامِي ، وتكذيب لابن عبد الملك الذي أنكر أنه يعرفه ، وتجهيل له في هذا ، ولو ذكـرته وذكرت أهله وذكرت قَدْرَه لكـان ذلك أكرم لك ، والكـل يعلم أن حُبَّنا لآل بيت رسول الله لايَعدِلُه حُبٌّ ، والملك عندنا شيء ومقام أهل بيت سيدنا شيء آخر ، وقد عاشت الأمة وحبها لآل بيت رسول الله ﷺ يزيد ، ولا ينقص ، تُؤَيِّد من حكامها من تُؤَيِدِ وتُعارض من تعارض ، ولم تؤيد حاكمًا لأنه من آل البيت ، ولم تعارض حاكمًا لأنه ليس من آل البيت ، وإنما تؤيد المصلح ، وتعارض المفسد ، وهذا شيء آخر وله ميزان آخر ، ولم يكن ابن عبد الملك سواء كان هشامًا أو كان الوليد على صواب حين أنكر ، والفرزدق يقول تعرف البطحاءُ أي : مكة ، وطأته يعني : صوت قدمه على الأرض ، ويعرفه الحِلُّ ويعرفه الحرم ، وقريش كلها وأنت منها يا ابن عبد الملك تقول إلى مكارم هذا ينتهي الكرم ، وركن الحطيم الذي نصبوا لك مِنْبرًا لاستلامه يكاد يمسك يده ليستلمه الركن بدل أن يستلم هو الركن ، والفرزدق مع عنجهيته قلبه عامر بحب آل بيت رسول الله ﷺ ، وكل أبيات هذه القصيدة جَرَتْ في الشعر كُلّه وخصوصًا هذه الكلمة العالية « يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم » وتنوعت صورها في الشعر ، وقبل الوقوف عند هذه الجملة التي لم أقرأ أفضل منها في معناها وقف أبو إسحاق وبين شيوع معان أخرى في كلام الفرزدق ، وأبرزها وصف الزحام وذكر الهيبة ، ومن ذلك ما قاله ذو الرمة في بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري :

من آل أبـي موسى ترى الناسَ حَوْلَـه ... كأنـهم الكِـروَانُ عـاين بازِيًـا

فمـا يعرفـون الضّـحْكَ إلا تبسُّـمًا ... ولا يَنْبِسـونَ القـولَ إلاَ تَنَاجِيَـا

وما الفُحْشُ منـه يرهبـون ولا الخنـا ... عليـه ولكـن هيبـةٌ هـي ماهيـا

وقول البحتري في الفتح بن خاقان :

ولما حضرنا سُدَّة الإذن أُخِّرت ... رجال عن الباب الذي أنا داخله

فأفضيتُ من قرب إلى ذي قهايَة ... أقابلُ بَدْرَ التِّم حين أقابله

ويجره ذلك إلى ذكر قصيدة أخرى في الفتح بن خاقان لما تولى الإصلاح بين بني تغلب ، وذكر فيها الهيبة لما جاءت وفود تغلب لشكر الفتح بعدما أصلح بينهم ، وكادت سيوفهم تَسْتأصِلهُم ، قال البحتري :

أتاك وفودُ الشكر يَثْنون بالذي ... تَقَدَّم من نعماك عندهم قَبْلُ

فلم أر يومًا كان أكثر سُؤْدَدًا ... من اليوم ضمّتْهُمْ إلى بابك السُّبْلُ

يُرَاءوكَ من أقْصَى السِّماطِ فقصَّرُوا ... خُطاهم وقد جازوا السُّتور وهم عُجْلُ

وظلت المعاني يجره بعضها إلى بعض حتى ملأ صفحات من الشعر ، ثم رجع إلى قول الفرزدق : « يكاد يمسكه عرفان راحته » وذكر أن الشعراء تجاذبوه ، وكأنه لم يعرف قبل الفرزدق بخلاف ذكر الهيبة والازدحام الذي مضى فإن هذا مما يعيشه الناس ، وذكرت الهيبة في قصيدة كعب بن زهير ، وذكر من صور تجاذبها قول أشجع بن عمرو السلمي لجعفر البرمكي :

إنَّ أرْضًا تَسْرِي إليها لو استطاعَتْ ... لسارتْ إليك من قبل سَيْرِك

وقول أبي تمام :

لو سَعَتْ بُقْعة لإعظام نُعْمَى ... لسعى نحوها المكانُ الجديبُ

وقول أبي دلف :

تكاد عطاياه يُجنُّ جنونها ... إذا لم يُعوِّذْها بنغمة طالب

تكاد مغانيه يَهشُّ عراصها ... فتركب من شَوْق إلى كل راكب



وقول البحتري :

لو أن مشتاقًا تكلف فوق ما ... في وسْعِه لمشَى إليك المنبر

وقول أبي الطيب :

طَرِبَتْ مراكبنا فخلنا أنها ... لولا حياء عاقها رقصت بنا

لو تعقل الشجرُ التي قابلتها ... مَدَّت مُحَيِّيَةً إليك الأغْصُنَا

وهذه صور ذات أصل واحد ولكنها اختلفت في هيآتها ، ترى فرقًا بين « سعى نحوها المكان الجديب» «وتركب من شوق إلى كل راكب» و« مشى إليك المنبر » إلى آخره ، وتبقى صورة « يمسكه عرفان راحته » فوق ذلك كله ، فرق بين موقف استخرج صورة ، وبَيْن صورة شاعر استخرجت عند غيره صوراً ، وتلاحظ دائمًا أن علمائنا يقدمون لنا علمًا ، وفي هذا العلم شيء لم ينبّهوا إليه فإذا تدبرته وَوَقَفْتَ عليه رأيت نفسك تستخرج من علمهم علمًا ، وهذا جيد جدًّا وجليل جدًّا ، وكل كتاب زهر الآداب علم في باطنه علم ، لأن هذه الصور التي تجاذبها الشعراء من قول الفرزدق « يكاد يمسكه عرفان راحته » لو فتحت ما بينها من فروق لاتسع الكلام وكان أوسع من الذي في زهر الآداب ، وكل من أضَافَ شيئًا أي شيء لهيئة الصورة فالواجب أن يُحسَب له ، وأن تُنْسب الصورة إليه ، لأن أعمال النفس والعقل والخيال لا يذهب منها شيء هدرا ، فرق كبير بين :

لو سَعَتْ بقعةٌ لإعظام نُعمى ... لسعى نحوها المكانُ الجديبُ

هذا شيء وقول الآخر :

تكاد مغانيه تهش عراصها ... فتركب من شوق إلى كل راكب

واحضر الصور في خيالك وتدبرها ، فرق بين مكان يركب من شوق إلى كل راكب ، ومكان جديب يسعى لمكان خصيب ، وهكذا يجب تدبر ملامح الصور

وأنها كملامح الوجوه ، تقترب وتبتعد وتشتبه ولا تتفق مع أن كل الوجوه مشتركة في الذي كانت له وجوهًا ، من العينين والأذنين والأنف والفم إلى آخره .

مما قاله العلماء في تعريف البلاغة

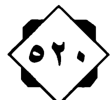
ذكر أبو إسحاق كثيرًا مما قاله العلماء في تعريف البلاغة ، ولم أعرف علمًا من علومنا كثر كلام العلماء في تعريفه كعلم البلاغة ، وهذا الاختلاف وهذا التنوع في تعريف البلاغة دال على أنه لم يصب أحد في تحديد ماهية العلم ، ولو أصاب لاتفقوا عليه ، كما اتفقوا على تعريف البلاغة ، لما وجدوه ، أو قل لما استخرجه من خبئه من استخرجه ، وسأذكر بعض هذه التَّعاريف وأبين لماذا لم يتفقوا عليها ، وأول تعريف ذكره أبو إسحاق تعريف عبد الله بن المعتز ، وكان أبو إسحاق حفيًّا بكلام ابن المعتز ، وهو جدير بهذه الحفاوة ، ولم أعرف واحدًا من خلفاء بني العباس أو خلفاء بني أمية كان له عقل عالم ، ولسان شاعر ، كما كان ذلك لعبد الله ابن المعتز ، قال في تعريف البلاغة : « البيان ترجمانُ القلوب ، وصَيْقَلُ العقول ، ومُجلِّي الشبهة ، وموجب الحجة ، والحاكم بَعْد اختصام الظنون ، والفرق بين الشك واليقين » وهذا كلام ليس في تعريف البلاغة ، وإنما في بيان فائدتها والحاجة إليها ، وقد أجاد حين ذكر صيقل العقول بعد ترجمان القلوب ، لأن أكثر ما يُقَالُ في البيان أنه يُبيِّن ما في الصدور من غير أن نلتفَت ونُلفت إلى أنه يَصْقُل العقول ، ويوقظها ، وأنك إذا أردت لشعب أن يكون حيَّ العقل يقظًا يَرَى طريقه بَوعْي ويسلك في طريقه بوَعْي فعليك بإشاعة البيان العالي فيه ، لأن هذا البيان صيقل يعني هو الحديدة التي تمرُّ عليه السكينَ فتَقْطع ، ومع صرف النظر عن كل ما في البيان من فوائد في العلوم والتفاهم والتعايش بين الناس ، فإن مدخله في بناء عقل الإنسان وصقله قيمة أخرى ، وأن أي جماعة تهمل لغتها وبيانها لن

تخطو خطوة واحدة إلى الأمام ، وذكرت أن أول ما أعد الله به آدم لخلافة الأرض هو أن الله علمه الأسماء كلها ، وفي هذا إشارة إلى أن اللغة تُعِدُّ العقل الإنساني لكل العلوم والمعارف ، لأنها توقظه وتصْقُله ، وهذا التعريف الذي لم يصب حق البلاغة وإنما انحرف عن غايته تعريف أوَّل عالم كتب في البلاغة وأول عقل وضع في البلاغة أوَّل لبنة ، وناهيك عن العقول التي وضعت اللبنات الأولى في العلوم ..

ثم ذكر أبو إسحاق تعريف علي بن عيسى الرماني للبلاغة وهو قوله : « البلاغة ما حُطَّ التكلف عنه ، وبنى على التَّبيين ، وكانت الفائدة أغلب عليه من القافية ، بأن جمع مع ذلك سهولة المخرج ، مع قرب المتناول ، وعذوبة اللفظ ، مع رشاقة المعنى ، وأن يكون حُسْنُ الابتداء كحُسن الانتهاء ، وحُسْن الوصل كحُسْن القطع في المعنى ، والسمع ، وكانت كل كلمة قد وقعت في حقها ، وإلى جنب أختها »[1] ، وليس هذا ككلام ابن المعتز الذي كان صريحًا في بيان فائدة البلاغة ، وهذا صريح في وصف الكلام البليغ وأول شيء في وصف الكلام البليغ بُعْدُه عن التكلف ، وهذا مجمع عليه ، ثم قدرته على الإبانة عن المعنى المراد بيانه ، وأن هذه الإبانة هي الأغلب عليه فلا يجنح إلى شيء يتعلق بالقافية ولا بغيرها وإنما غاية الكلام ومسعاه ومرماه هو الإبانة عن الذي في الصدر ، ثم سهولة المخرج ، مع قرب المتناول ، أما حسن الابتداء وحسن الانتهاء والوصل والفصل والكلمة مع أختها كل ذلك شائع ومتفق عليه ، وكل كلام الرماني هذا داخل في تعريف البلاغة الذي ذكره في كتاب النكث في إعجاز القرآن ، وأن البلاغة هي : « إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ » وقوله هنا بني على التبيين هو قوله هناك إيصال المعنى إلى القلب ، ومثلها قوله هنا : « وكانت الفائدة أغلب » ثم قوله

---

(١) زهر الآداب ، ١/١٠٠



سهولة المخرج وعذوبة اللفظ داخل في قوله هناك : « في أحسن صورة من اللفظ » وكلام علي بن عيسى قريب من معنى البلاغة الذي انتهى إليه العلماء وليس هو ، لأن البيان الجيد الخالي من التكلف والمتجه نحو الإبانة والذي له عذوبة إلى آخره ، هو ثمرة البلاغة ومنتوجها ، أعني ما صنعته البلاغة في التعريف المتفق عليه كما سنبين .

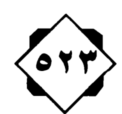
الجاحظ وجهابذة الألفاظ

وذكر أبو إسحاق قول الجاحظ : « قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني القائمة في صدور الناس ، المختلجة في نفوسهم ، والمتصورة في أذهانهم ، المتصِّلة بخواطرهم ، والحادثة في فكرهم ، مستورة خفيَّة وبعيدة وَحَشيَّة ومحجوبة مكنونة ، وموجودة في معنى معدومة ، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه ، وخليطه ، ولا معنى شريكه ، والمعاون له على أمره ، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره ، وإنما يُحْيِي تلك المعاني ذكرُهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها » ويمكنك أن تختصر كلام نُقَّاد المعاني وجهابذة الألفاظ في أنه بيان لفائدة البلاغة والمنفعة المتحصَّلَةُ منها ، وأن هذا متفق مع ما قاله ابن المعتز ؛ ثم يمكنك أن تضم نشر كلام الجاحظ في مثل قولك المعاني القائمة في الصدور مستورة لا تعرف إلا بذكرهم لها ، وكل نصِّ الجاحظ هذا جملة واحدة شَغَلَتْ أكثر من سبعة سطور ، ومراجعة طريقة بنائها تكشف لك الكثير من الذي جرَى في نفس الجاحظ وهو يُحدِّثُك عن الذي قاله نقاد المعاني ، وجهابذة الألفاظ ، وأن المبتدأ في قوله : « المعاني القائمة في الصدور » امتد لأنه لم يكتف بقوله « القائمة في الصدور » وإنما أضاف قوله : « المختلجة في نفوسهم والمتَصَورة في أذهانهم ، المتصلة بخواطرهم ، والحادثة في فكرهم »

وهو يرى أن المختلجة في نفوسهم فيها شيء ليس في قوله القائمة في صدورهم ، وكلمة المتصورة في أذهانهم فيها شيء ليس في قوله المختلجة في نفوسهم إلى آخره ، ثم إنه لما وصل إلى الخبر وهو قولـه «مستوره خفية» أضاف بعيدة وحشية ، وهو غير مستورة خفية ومحجوبة مكنونة وهو غير الذي قبله ، ولو قلنا إن هذا من المترادف نكون قد أغفلنا دقائق المعاني التي جرت في نفوس نقاد المعاني وجهابذة الألفاظ كما رَوَاهَا الجاحظ ، لأن الحِسَّ العالي يدرك فروقًا بين الجمل وإن خفيت ، وأن هذا هو السر الذي ترى فيه الجمل تطول في كلام العلية ، وأن الأفكار تتزاحم عليهم ، وأنهم يَصُبُّونها صَبًّا لك في الكلام ليفرغوا لك كل الذي في نفوسهم ، وهذا من أماناتهم ، وقد وجدت ذلك في كلام الجاحظ ، وابن جني ، وعبد القاهر ، وحازم القرطاجني ، وأبي العلاء ، وأردت أن ألفت طلاب العلم إليه ، وأدخلت بعضهم من الباب فسجلت لهم بحوثًا في بناء الجملة في رسائل أبي العلاء ، ثم كان ما كان ، كما وجهت بعض طلاب العلم إلى جمع ودراسة كلام أبي بكر ، وكلام أصحاب رسول الله ﷺ ، وكلامهم مفرق في الكتب ، فليس بين أيدينا كتاب يجمع لنا كلام أبي بكر ولا كلام عمر ، إلى آخر أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم دراسته ومحاولة الكشف عن خصائصه ، ثم كان ما كان ، وقل مثل ذلك في علاقة المطالع بالمقاصد في كتاب الله ، وفي الشعر الجاهلي وغير الجاهلي ، ثم أيضًا كان ما كان ، وعدّ عن ذا وإنما ذكرته ليتجه إليه من أهل العلم الذي يرى فيه فائدة .

وأكثر الذي ذكره أبو إسحاق في تعريف البلاغة هو من وصف البيان ، ومما ذكره وهو جيد جدًّا قول ابن المعتز : «لحظة القلب أسرع خطرة من لحظة العين ، وأبعد مجالا ، وهي الغائصة في أعماق أودية الفكر والمتأملة لوجوه العواقب ، والجامعة بين ما غاب وحضر ، والميزان الشاهد على ما نفع وضر ، والقلب

كالمُمْلِي للكلام على اللسان إذا نطق ، واليد إذا كتبت ، والعاقل يكسو المعاني وشى الكلام في قلبه ، ثم يُبْديها بألفاظ كواس في أحسن زينة» وإنما كان هذا حسنًا جدًّا لأنه رجع بالبلاغة إلى منبعها من القلب والعقل وإلى لحظة الفكر الغائصة في أعماق أودية الأشياء ، وكأنه يُحدِّث عن الذي يجده هو ويجده كل من تخطر له لحظةُ القلب ، ثم إن لحظة القلب هذه هي الميزان الشاهد على ما نفع وما ضر ، ولو انقطعت عنَّا لاستوى عندنا النافع والضار ، وقوله والقلب كالمُمْلِي على اللسان ، إذا نطق ، واليد إذا كتبت من أهم ما يجب أن يكون حاضرًا عند الكلام في البلاغة ، حتى لا نَغْرِق في أحوال الألفاظ وكأن اللسان هو صانع البلاغة ، وابن المعتز يقول إن اللسان لا عمل له إلا تلقي ما يُمليه عليه القلب ، وكما أن يد الكاتب لا شأن لها في بلاغته كذلك لسان الناطق لا شأن له في بلاغته ، والقلب ولحظة القلب هي التي تكسو المعاني وَشْيَ الكلام ، يعني أن العذوبة والسلاسة والسهولة ، وكل ما في الكلام من محسنات نُسميِّها لفظية ، مثل السجع ، والجناس ، كل ذلك من كسوة القلب ومن إملاء القلب وليس للسان فيه شيء ، وكل هذا جيد جدًّا ، وهذا النص أقرب إلى تعريف البلاغة من النص السابق ، لأنك كلما اقتربت من داخل نفس صاحب البيان تكون قد اقتربت من البلاغة ، لأنها في النهاية هي صناعة صاحب البيان للذي يجده في نفسه ، ثم إن كلام ابن المعتز هذا قريب من الذي قاله بشار ، وقد نقله أبو إسحاق قال : قيل لبشار بم فقت أهل عمرك؟ وسبقت أهل عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب ألفاظه ؟ فقال : «لأني لم أقبل كل ما تُورده عليَّ قريحتي ، ويناجيني به طبعي ، ويبعثه فكري ، ونظرت إلى مغارس الفطن ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيهات فَسِرْتُ إليها بفهم جيد ، وغريزة قوية ، فأَحْكَمْتُ سَبْرها وانتَقَيْتُ حُرّها وكشفت عن حقائقها ، واحترزت



من مُتكلَّفها ولا والله ما ملك قيادي قط الإعجابُ بشيء مما آتي به» انتهى كلام بشار ، وكرِّرْ قراءة هذا ، وإن استطعت أن تحفظه فاحفظه . وقد كنتُ معجبًا بقول ابن المعتز وأنا الآن معجب بقول بشار ، وأرى الفرق بين الكلامين هو الفرق بين الرجلين ، وأن هذا النص الذي أجاب به بشار عن سؤال السائل يريك قامة ومكانة بشار ، الذي قلت لك آنفًا إنني أرى الألفاظ تبحث عن لسانه ، وليس لسانه الذي يبحث عن الألفاظ ، ومغارس الفطن ومعادن الحقائق قريب جدًّا من لحظة القلب عند ابن المعتز ، وإذا كان كلام ابن المعتز كله بني على لحظة القلب ، فإن كلام بشار هنا بُنيَ كله على مغارس الفطن ومعادن الحقائق ، وقوله : فسرت إليها بفهم جيد إلى آخره ، بيان عن حِرْصه الشديد على مغارس الفِطَن ومعادن الحقائق ، وأنه ما إن يَتَبيّنها حتى يجمع قلبه ، ونفسه ، ويخطو نحوها ، ويحكم سَبْرها ، وينتقي حُرّها ، ويحترس من مُتكلَّفها ، وهذا وصف جيد للفكر الجيد والسعي الجيد ، والرجل يكشف لنا عمله ونبوغه وسبب سبقه لأهل عصره بأمانة شديدة وتواضع شديد ، ويقول لك ليس هناك أمر معجز وإنما هو الجدّ والتدبر والسعي ، فإذا أعملت عقلك وأضاء هذا العقل لك فكرة ، وجَمَعْتَ كل طاقتك ، وسَعَيْتَ نحو الفكرة وصلت إلى ما تظنني سبقت أهل عصري به ، وقوله الأخير : «ولا والله ما ملك قيادي قط الإعجابُ بشيء مما أتى به» وهذه الجملة أظهر في دلالتها على نبوغ بشار من كل شعر نبغ فيه ، وذلك لأن المتميزين يكون طموحهم دائمًا فوق قدراتهم ، وأن كل ما يأتون به هو عندهم أقل من الذي يطمحون إليه ، وكل شعر بشار هو عند بشار أقل مما طَمَحَتْ إليه نفسه ، ورحم الله الرافعي الذي قال : «إن الناس جميعًا يرضون عن عمل النابهين ، ويبقى واحد لا يرضى عن عمله وهو النابه نفسه ، لأنه كان يرجو أن يفعل أكثر وأجل مما

فعل» ، وهكذا القيادات في كل ميدان تنجز أعمالاً جليلة ولكنها تستصغرها ، وإذا رأيت الراضي عن عمله أو الذي يقيم الحفلات لأنه رصف طريقًا فاعلم أن المطلوب غائب ، وادع الله أن يظهر قبل أن يظهر المسيح .

الواقع يقول لنا إن تعريف البلاغة ظل غائبًا وتحوم حوله عقول الكبار ، وتقاربه وتباعده حتى جاء عبد القاهر في نهاية القرن الخامس ورأى كل ذلك ، وكان ممن رزقوا طول التدبر في كلام العلماء ورزقوا حسن الظن بهم ، ورزقوا حبَّهم وحب كلامهم ، حتى إنه كان يرى في باطن كلامهم أكثر مما يرى في ظاهره ، وقرأ مثل كلام ابن المعتز الذي يرى أن لحظة الفكر هي البرق الخاطف الذي يضيء الطريق إلى أودية البلاغة ، وأن مغارس الفطن التي يسعى إليها بشار في بناء شعره .

عبد القاهر والخطوة الغائبة

ولحظ عبد القاهر بفرط وعيه أن هنا خطوة غائبة وهي ما يصنعه الذي رأى لحظة الفكر حتى يقتنصها ، ويحوزها ، ويُحوِّلُها إلى بيان ، وما الذي يَفْعَلُه من وقع على مغارس الفطن حتى يسلسلها شعرا ؟ ويمكن أن تدع ابن المعتز وبشاراً وتسأل نفسك ما الذي أفعله حتى أعبر عن الذي بين جنبيّ وأبين عنه ، وأُحدِّثُ به؟ وعبد القاهر العالم الملهم لم يذهب بك هنا ولا هناك ، وإنما يقول لك ارجع إلى نفسك وتبين ماذا تفعل وأنت تُحوِّلُ الذي تجد ما بين جنبيك إلى كلام سواء كان بلاغة ، أو غير بلاغة ، واترك كل ما قيل ، ولو رجعت إلى نفسك وتدبرت ستجد أنك بعد أن تتعرف على الذي يجول بين جنبيك ، ستحاول أن تختار من ألفاظ اللغة ومن أحوالها الدالة كالتعريف ، والتنكير ، والتقديم ، والتأخير ، إلى آخره ، ما يعينك على الإبانة عن الذي تجد في نفسك ، وأنك حين تفعل ذلك تكون في

جوهر البلاغة وحقيقتها وماهيتها ، لأنك تَصْنَعُها ولن تصنعها إلا بالذي تكون هي به بلاغة ، كما أن صانع الخاتم إنما يصنعه بما يكون به خاتم ، وجماع هذا العمل الذي تعمله وأنت تختار من اللغة وأحوالها ما يحيط بمعناك ويكشف عن مغزاك هو الذي سماه عبد القاهر النظم ، يعني التأليف والتركيب الذي هو عملك الذي تحيط به معناك وتكشف به عنه ، وعرَّفه بقوله : « توخي معاني النحو على وفق الأغراض والمقاصد» ورأس هذا التعريف هو كلمة « توخي معاني النحو » والتوخي معناه الاختيار ، ومعاني النحو هو كل ما به تكون اللغة دالة من تعريف وتنكير ، وذكر وحذف ، وتكرار ، وتشبيه ، وتجنيس ، إلى آخر فنون البلاغة ، لأن كل هذه الفنون من طرق الإبانة ، فالجناس يبين عن معنى لا يبين عنه إلا هذا الجناس ، والسجع يبين عن معنى لا يبين عنه إلا هذا السجع ، وكذلك قل في التشبيه والاستعارة إلى آخره ، واللغة بَحْرٌ لا ساحل له ولا يحيط بها إلا نبي كما قال الشافعي رضي الله عنه ، والمعاني المختلجة في القلوب منها ما هو ظاهر ومنها ما هو خفي ، وأنت مطالب بأن تبين عما ظهر وعما خفي ، وأكد عبد القاهر أن فضل كلام على كلام لا مرجع له إلا هذا التأليف وهذا التركيب ، الذي لا يكون ولا يمكن أن يكون إلا بتوخي معاني النحو على وفق الأغراض ، وأن مراتبه كثيرة جدًّا ، ويبدأ من زيد منطلق وينتهي إلى الإعجاز مرورًا بكل الشعر ، وكل النثر ، وكل ما ينتجه اللسان البشري ، وقبل العلماء منه هذا التعريف ، ولم أقرأ أن أحدًا اعترض عليه ، ورأوا أنه تعريف للبلاغة في كل لسان وفي كل جنس وفي كل أمة ، لأن الكل وهو يصنع كلامًا لا عمل له إلا أنه يشغل بمعناه ، ويبحث في لغته عن الكلمات والتراكيب التي تكون مَبْنًى لهذا المعنى ، هكذا يفعل الفارسي والرومي والطلياني والنبطي ، والذي فتح هذا الباب لعبد القاهر هو هَمُّه وشاغله الذي هو بيان وجه إعجاز القرآن ، وهو يعلم أن توخي معاني النحو لا يقال في القرآن ، لأنه سبحانه ليس كمثله شيء ، وإنما يقال في كلام البشر ، ثم إن كلام البشر بالغًا

ما بلغ هو في النهاية بَيْنَهُ وبين بلاغة القرآن فرق يَقْطَعُ الأطماع ويقهر القوى والقدر ، وليس هذا فرقًا بين كلام الله وكلام العرب فحسب ، وإنما هو فرق بين كلام الله وكلام الناس كل الناس ، لأن القرآن معجز للإنس والجن ، وأنهم لو اجتمعوا وكان بعضهم لبعض ظهيرًا ليأتوا بمثل سورة منه لن يفعلوا ، ثم إن علماء البلاغة بعد عبد القاهر وهم قامات وهامات إن زاد عنهم عبد القاهر في شيء زادوا هم عنه في شيء آخر ، وكان لكل واحد منهم غاية وقضية تحركه وتوجِّهُه ، فالزمخشري طبق كلام عبد القاهر في التفسير وزاد عليه كلامًا هو من طبقة كلام عبد القاهر ، والرازي رأى همه في أن يلخص فلَخّص ، ثم جاء السكاكي وكان همه أن يضبط معاقد كلام الأصحاب الذين هم عبد القاهر والزمخشري ، والرازي فضبط ، ثم جاء الخطيب وهمه أن يقدم هذا العلم لطلاب العلم فلخصه ، ثم رأى أن تلخيصه أغمضه فعاد كتابته في الإيضاح وهكذا ، والمهم أنهم رأوا جملة « توخي معاني النحو على وفق الأغراض ، مع سدادها محتاجة إلى عقل أكبر من عقل المبتدئ ، وهم يريدون تنشئة الجيل على العلم ، فصاغوا معنى النظم في قولهم مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وذكروا أن هذا هو مراد عبد القاهر بالنظم ، لأن هذه المطابقة لا تكون إلا بتوخي معاني النحو على وفق الأغراض ، والحال هو الأمر الداعي يعني الأغراض والمقاصد عند عبد القاهر ، واستقر الأمر على هذا التعريف، ولم أقرأ نقدًا له من أحد مع أن كثيرًا منا نقد كثيرًا من كلام علمائنا ، وهذه لمحة موجزة في تطور تعريف البلاغة ، وبمقدار ما كان فيها من اختلاف قبل زمن عبد القاهر كان فيها من اتفاق بعد زمن عبد القاهر .

أبو إسحاق والثعالبي

وقف أبو إسحاق وقفة خاصة عند أبي منصور الثعالبي وفتح الكلام عنه بقوله : « يعيش إلى وقتنا هذا على طريق التَّخمين لا على حقيقة اليقين » ثم قال : « وهو



فريد دهره ، وقريع عصره ، ونسيج وحده ، وله مصنفات في العلم والأدب تشهد له بأعلى الرتب ، وقد فرقت ما اخترته منها في هذا الكتاب ، مع ما تعلق بشاكلته من الخطاب ، منها كتاب سماه « سحر البلاغة » ، قال في صدر هذا الكتاب : أخرجت بعضه من غرر نجوم الأرض ، ونكت أعيان الفضل من بلغاء العصر في النثر ، وحَلَلْتُ بعضه من نظم أمراء الشعر الذين أوردت ملح أشعارهم في كتابي المترجم « يتيمة الدهر » فَلَفَفْتُ جميع ذلك وحرَّرْته ، وسقته ، ونسقته ، وأنفقت عليه ما رزقته ، وعملته بكد الناظر وجهد الخاطر وتعب اليمين وعرق الجبين »[1]، واكتفيت بهذا القدر من كلامه والذي تركته أفضل من الذي كتبته ، وأهم ما في هذا النص ليس فقط ذكره لمكانة أبي منصور الثعالبي ، وإنما لأنني أرى فيه الجهود التي بذلها هؤلاء الكرام ، وليس وراءها إلا الحرص البالغ على نفع أجيال هذه الأمة من يوم أن كتبوا إلى آخر الدهر ، وكيف كان يكد نفسه ليخرج لنا كلامًا من غرر نجوم الأرض ، ونكت أعيان الفضل ، ليكون منا من هو أشبه بهم ، أو يقترب من أن يكون أشبه بهم ، وأسأل نفسي هل بقي فينا من يكُدُّ ناظِرهُ ويُجْهِدُ خاطره ، ويتعب يمينه ، ويعرق جبينه ، من أجل الأمة ؟ أم أن الكل شغل بنفسه ؟ أنا أتدبر هذا وأجد الذي جَدَّ وكدَّ لا لشيء يعود إليه وإنما لشيء يعود على هذه الأمة ، وأن علماءها كانوا كذلك وكان كتابها كذلك ، ولو عرفت المجهود الذي عاناه من وضع لك الكتاب ، لسارعت في قراءته لأن قراءتك له لا تساوي المجهود الذي بذل في صفحات منه لإعداده لك ، ولم يكن الكتاب يومًا ما بابا من أبواب الربح ، وهذا من تكريم الله للعلم حتى يكون خالصًا له سبحانه ، ولخدمة هذه الأمة ، وقد تكون الكتابة في زمن من الأزمنة بابًا من أبواب المخاطر ، لأنه لو شَذَّت كلمة واحدة منه لجرَّ على كاتبه صعابا وأهوالا ، ومع ذلك لم يتوقف أهل الحق عن

---

(١) زهر الآداب ، ١/١٢٧



الكتابة ، ثم إنك أيها القارئ قد أكرمك الله كرامة أنت تجهلها ، لأن الله يُعطي ثوابًا على القراءة تعدل ثواب صلاة النافلة ، ويرى البعض أنها تزيد عن صلاة النافلة ، وأنت تقرأ فقط ولا تنوي أن تعلم ما تقرأ ، ولا أن تكتب في شيء مما تقرأ ، فإذا قرأت لتعلم أو لتكتب كان العطاء أجزل والإكرام أكرم .

ومما هو قاطع في دلالته على أن هؤلاء الكرام ليس لهم هدف إلا أنت ، أنك تراهم أحيانًا يقفون ويوصونك بعقلك والمحافظة عليه والعمل على صَقْلِه والعناية به ، قال أبو إسحاق : قال بعض العلماء : « العقول لها صور مثل صور الأجسام ، فإذا أنت لم تسلك بها سُبلَ الأدب حَارَتْ وَضَلَّتْ ، وإن بعثتها في أوديتها كلَّت ومَلَّت ، فاسلك بعقلك شعاب المعاني ، والفهم ، واستبقِهِ بالجمام للعلم ، وارْتَدْ لعقلك أفضل طبقات الأدب ، وتوَقّ عليه آفة العطب فإن العقل شاهد على الفضل وحارسك من الجهل ، واعلم أن مغارس العقول كمغارس الأشجار ، فإذا طابت بقاع الأرض للشجر ، زكا ثمرها ، وإذا كرمت النفوس للعقول طـاب خيرها ، فاغمر نفسك بالكرم ، تسلم من الآفة والسقم »[1] ، لا شك أنني وأنا أقرأ هذا كأنني أسْمَعُ والدًا يخاطب وَلَدَه وهو لا يُوصيه بمالِهِ ، وإنما يوصيه بعقله ويقول له : إذا لم تُطْعِمْ عقلك من الفكر والأدب ضَلّ وتحيّر ، والويل لمن يعيش بعقل في ضلال وحَيْرة ، ثم أسمعه وهو يقول لي ولك اسلك بعقلك شعاب المعاني ، والفهم ، وهيِّئه لطلب العلم ، ثم يوصيك ويوصيني بأن نتخيّر لعقولنا أعْلَى طبقات الأدب ، لتكون عقولنا في الطبقة التي ربَّيْنَاهَا عليها ، فلو ربَّيْتَها على الأدب الساقط نشأت تافهة كتفاهة الأدب الذي ربَّيْتَها عليه ، لأن

---

(١) زهر الآداب ، ١/١٤١



العقل في النهاية صورة للذي رُبِّيَ عليه، ثم إن عقلك شاهد لك بالفضل، أو شاهد عليك بالسُّخْف، ثم راجع قوله: «وحَارِسُكَ من الجهل» وكأن الجهل ذئب ينتهز غفلتك وجهلك ليُدَمِّرك، والعلم والعقل حارسان لك من هذا الذئب، ثم احفظ قوله: «إن مغارس العقول كمغارس الأشجار» فاحرص على أن يكون عقلك كالتربة النظيفة حتى تزكو ثمارُ عقلك، والمهم عندي مع أهمية هذه المعاني أن نلتفت إلى هذه العناية من علمائنا بعقول أجيالنا، وأن نَلْفِتَ إلى مناهجهم في إعداد الأجيال، وأن تكون أنت واحدًا منهم، وأن تعمل مثل ما عملوا، وأن تُخْلِصَ مثل ما أَخْلَصُوا، وأن تجدَّ مثل ما جدُّوا، ولو كنت وحدك، واحذر من اليأس لأنك في النهاية تعمل لله وسوف يسألك ربنا عن عملك، ولن يقبل منك أن تقول كنت وحدي واستيقنت أنني لن أُفِيدَ، لأنه سبحانه سيقول لك قلت لكم اعملوا وأنا الذي أعطيكم أَفَدْتُم أو لم تَفِيدُوا، لأني قادر على أن أغَيِّر كل شيء بقولي كن فيكون، ويقول لنا التاريخ إن مزايا أهل الرشد من المسؤولين لا تظهر في شيء كظهورها في رعاية العلم، والعلماء، وبمقدار ما عندهم من حرص على العلم والعلماء يكون فيهم من خير لبلادهم، وأقوامهم، وبمقدار إهمالهم للعلم والعلماء يكون فيهم من بُؤسٍ لأرضهم وأقوامهم.

ذكر الكتب

انتقل بعد ذلك أبو إسحاق لذكر الكتب، وسأنقل لك جزءًا من وصف الجاحظ للكتاب، وقد عاش الجاحظ ما عاش وعاش غير الجاحظ من علمائنا ما عاشوا، وليس لهم هدف في أرضهم أعْلَى وأسْنَى وأرفع من إغراء أقوامهم بالقراءة؛ وبمقدار قراءة الناس في الكتاب يكون تقدمهم وتخلفهم، وبمقدار عناية

المسؤولين بالكتاب وبمؤلف الكتاب ، وعنايتهم بإخراج كتب التراث يكون وعيها السياسي ، ويكون فلاحها وفلاح أمتها بفلاحها .

قال الجاحظ : « لا أعلم جَارًا أبرّ ولا خليطًا أَنْصَفَ ولا رفيقًا أَطْوَعَ ولا معلمًا أخضع ، ولا صاحبًا أظهر كفاية ، وأقل جناية ولا أَقَلَّ إملالاً وإبرامًا ولا أقل خلافًا ، ولا أقل غيبة ، ولا أبعد من عضيهه (الإفك والبهتان) ولا أكثر أعجوبة وتصرفًا ، ولا أقل صَلَفًا وتكلفًا ، ولا أبعد من مراء ولا أترك لشغب ، ولا أزهد في جدال ، ولا أكف عن قتال من كتاب ، ولا أعلم قريبًا أحسن مواتاة ، ولا أعجل مكافأة ، ولا أحضر معونة ، ولا أقل مؤونة ، ولا شجرة أطول عمرًا ، ولا أجمع أمرًا ، ولا أطيب ثمرة ولا أقرب مُجْتنى ، ولا أسرع إدراكًا في كل أوان ، ولا أوجد في غير إبَّان من كتاب » راجع أنت ودقق ، وكيف كان هذا النص كله في جملتين اثنتين ، وبُنيتا بناء واحدًا رأسه كلمة لا أعلم ، والذي نفاه في الأولى هو أنه لا يعلم سوءًا أي سوء من هذا الصاحب الذي هو الكتاب ، والذي بناه في الثانية هو أنه لا يعلم عطاء أي عطاء أفضل وأدوم وأسرع من عطاء الكتاب ، أعني الجملتان وجهان للكتاب ، الأولى تنفي وقوع أي إساءة منه ، والثانية تنفي وقوع أي تقصير في العطاء منه ، ولا تجد سببًا لطول الأولى إلا وفرة عطاء عقل الجاحظ ، وأنه لما ذكر الكتاب ذكر أشباهه من الجار ، والخليط ، والرفيق ، والمعلم ، والصاحب ، ثم ذكر ما يكون من هؤلاء من عقوق ، أو بر ، أو إنصاف ، أو خلاف ، وأن الكتاب من بينهم جميعًا يتفرد بأنه أبعدهم جميعًا عن أن يكون منه ما يسوء ، وهكذا تراجع لا لتعرف طول الجملة لأنه ظاهر وإنما لتعرف سر هذا الطول ، وتذكر قول ابن المعتز أن القلب يُمْلي على اللسان حين ينطق وعلى القلم حين يكتب ، وابحث عن الذي أملاه قلب الجاحظ على لسانه وقلمه معًا ، واعلم أنني حين

أُغْرِي بمعرفة لغة العالم فأنا أغري بمعرفة علمه ، لأنهم قالوا : إن لغة العلم جزء من العلم ، فإذا علمت علمًا وحدثت به وجَرَتْ لغة علمائه في لسانك كان ذلك أقرب إلى قلب من يسمعك أو يقرؤك ، ثم مضى أبو إسحاق وزمامه في يد المعاني وفي يد صيغ البلاغات ، وذاكرته تُحضر له الأشباه ، والنظائر ، ومضى مع الكلام الذي يلفت بعضه إلى بعض والذي يشابك بعضه بعضًا ، والذي ينعطف بعضه على بعض وليس له أبواب محددة ، وإنما يقوده الكلام من النسيب إلى وصف المياه ، ومن وصف المياه إلى وصف القصور ، وهكذا يقدم لك الأنصاري العريق ضربًا من التأليف لم أعرفه إلا في هذا الكتاب ، وقد يعرفه غيري في غيره ، والمهم هو خصوبة عقل وفكر وثقافة الأنصاري القيرواني ، ثم يقدم لنا طبقة من المولعين بالنسيب الذين يحسنون صَنْعته ، وهم في الواقع لا شأن لهم ألبتة بالنسيب ، وإنما يُسْمعك شعرًا في العشق يروقك وليس له معشوقة وهو في الواقع من الزهاد الورعين ، ومن الفقهاء المنقطعين للفقه ، وأنه عاشق وعشقه ليس لهند والرباب ، وإنما هو عاشق لشعر النسيب ، وهذا ضرب من العشق الذكي الزاكي ، هم أهل محبة ومحبوبهم الحقيقي هو الحب نفسه ، أبو إسحاق يريك جميلاً الواله وليس له بثينة ، ويريك كُثيرًا وليس له عزة ، وذا الرمة وليس له ميَّة ، وإذا كنت قد عرفت كُثيرًا مع عزة ، وجميلاً مع بثينة ، وذا الرمة مع ميَّة ، فأنت الآن مع أبي إسحاق يريك حبًّا مع الحب ، وليس مع صاحبة ، والحب هو أغْلَى وأعلى ما يُحب ، وأنا من المولعين بحب الحب ، وحبِّي للحب هو الذي أوقد في نفسي بغض الظلم ، والقهر ، والكراهية ، ولم أرَ في الأرض أبغض من البُغض ، والتشبث بالانتقام ، حبي للحب جعل حائطًا من الصد بيني وبين الذين لا يَشْبَعُون من الانتقام ، وأن الله ﷻ لما أحب التوابين ، وأحب المستغفرين ، وأحب الأوابين ،

كان يعلمنا سبحانه حب الصفح ، والعفو ، والمسامحة ، لأن بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ، وراجع كلمة خطاء وهي من صيغ المبالغة ، وأن هؤلاء الذين يحبهم ربنا بالتوبة والاستغفار والأوْبة من الذين وقعوا في الخطايا ، وبهذا يكون التعايش والتعاشر أبَـرَّ وأهنأ ، والذين لا يَشْبَعُون من الانتقام ليسوا من أهل الفطرة السوية ، والويل للناس إذا كان لهؤلاء شيء من أمر الناس ، وأبو إسحاق لم يغب عنه شيء من هذا ، وهو يحدثنا عن صَبْوة أهل الله المعتكفين في بيوت الله ، يتعلمون الفقه ويعلمونه للناس ، قال أبو إسحاق رَوَى الزبير بن بكار قال : قَدِمَتْ امرأة من هذيل المدينة ، وكانت جميلة ، ومعها ابن صغير وهي أيّم فخطبها الناس ، وأكثروا ، فقال فيها عبيد الله بن عتبة بن مسعود .

أُحِبُّك حبًّا لا يُحبُّكَ مثله ... قريب ولا في العالمين بعيدُ
أحبك حبًّا لو عَلِمْتِ ببعضه ... لـجُدْت ولم يصعب عليك شديدُ
وحبك يا أم العلاء مُتَيِّمي ... شهيدي أبو بكر فذاك شهيدي
ويعلم وجدي القاسمُ بن محمد ... وعروةُ ما ألقى بكم وسعيدُ
وأعلم ما أُخْفِي سليمانُ كُلَّه ... وخارجة يُبْدي لنا ويعيد
متى تسألي عما أقول فتُخْبَرِي ... فللحُبّ عندي طارف وتليدُ

فقال له سعيد بن المسيب : قد أمنت أن تسألنا ولو سألتنا ما شهدنا لك بزور ، وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قائل هذا الشعر من فقهاء المدينة السبعة ، الذين انتهى إليهم علم الفقه في المدينة ، وهؤلاء السبعة هم الذين ذكرهم عبيدُ الله ابن عبد الله بن عتبة في هذه الأبيات ، وقال للهذلية الحسناء اسأليهم عن حبي لك ، وهم أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة ، والقاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان

ابن يسار ، وخارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري ، وراجع مرة أخرى لترى أن الفقه الذي هو أكرم علومنا كان يختار رجاله من أكرم رجالنا ، ليكون حملة الفقه الكريم كرامًا كالفقه .

روى عن عروة بن عبد الله بن عروة الزبيري قال : كان عروة بن أُذينة نازلا في دار أبي بالعقيق فسمعته ينشد لنفسه :

إن التي زَعَمَتْ فؤادَك مَلَّها ... خُلِقَتْ هواكَ كما خُلِقْتَ هوًى لها

فإذا وجدتُ لها وساوس سَلْوةٍ ... شفَع الضميرُ إلى الفؤاد فَسَلَّها

بيضاء باكرها النعيمُ فصاغها ... بلباقة فأدقَّها وأجلَّها

في أبيات كثيرة اخترت منها هذه الأبيات لأنها من الشعر النادر ، ولم أعرف « خُلِقَتْ هواكَ كما خُلِقْتَ هوًى لها » إلا منها ، وهي من أكرم ما يقال في معناه ، وكلمة « وساوس سلوة » كلمة عذبة سهلة رهوة ، وكلمة « فسلها » يعني سلها الفؤاد بشفاعة الضمير ، وهي من الكلام النادر ، وكلمة « باكرها النعيم » من الكلام النادر ومثلها « فأدَقَّها وأجَلَّها » أي دق منها ما يحسن أن يَدقَّ ، وأجل منها ما يحسن أن يجل ، وهو من قول الآخر :

فدقَّت وجلَّت واسبكرّت وأُكمِلَتْ ... فلو جُنّ إنسانٌ من الحسنِ جُنّتِ

وكيف يصيب عروة بن أذينة هذه المعاني وهو من أهل الزهد والورع والمنقطعين للعلم ، ثم هو لم يعرف هذه المرأة وإنما عرف الهوى الذي منه كل الهوى ، وفرق بين من يعشق البيان في مثل قوله « بيضاء باكرها النعيم » ومن يعشق البيضاء التي باكرها النعيم ، وقد ذهبت البيضاء وذهب النعيم الذي باكرها وبقي هذا البيان ، وهو عند كل من له ذوق كأنه ولد الآن ، وكأنه يَسْتهلّ ولكن استهلاله ليس بالبكاء وإنما بالمسرة والغبطة .

المرأة الحاسرة عند رمي الجمار

قال أبو إسحاق : « خرج أبو حازم يومًا يرمي الجمار فإذا هو بامرأة حاسر ، قد فتنت الناس بحسن وجهها ، وألهتهم بجمالها ، فقال لها يا هذه إنك بمشعر حرام ، وقد فتنت الناس ، وشغلتهم عن مناسكهم ، فاتق الله واستنزي فإن الله ﷻ يقول في كتابه العزيز : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور: ٣١) فقالت : إني من اللاتي قيل فيهن :

أَمَاطَتْ كِساءَ الخَزِّ عن حُرِّ وجهها ... وأرْخَتْ على المتنين بردًا مُهَلْهلا
من اللائي لم يحْجُجْن يبغين حِسْبة ... ولكن لِيَقْتُلْنَ البريء المُغفَّلا

الشعر للحارث بن خالد المخزومي ، فقال أبو حازم لأصحابه : تعالوا ندع الله لهذه الصورة الحسنة ألا يعذبها الله ـ تعالى ـ بالنار ، فجعل أبو حازم يدعو وأصحابه يؤمنون ، فبلغ ذلك الشعبي ، فقال : ما أرقكم يا أهل الحجاز وأظرفكم ، أما والله لو كان من قُرى العراق ، لقال اغربي عليك لعنة الله ، ثم قال أبو إسحاق : وكان أبو حازم من فضلاء التابعين ، وله مقامات جميلة مع الملوك وكلام محفوظ يدل على فضله وعقله » انتهى ما أردته ، وكلمة من فضلاء التَّابعين تعني اقترابه من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأنه من التابعين لهم بإحسان ، وقوله : « وله مقامات جميلة مع الملوك » تعني أن ملوكنا في هذا الزمن القديم كانوا يقربون العلماء العاملين ، ويعرفون قدر العلم وقدر العلماء ، وهذا يعني أنهم أهل للأمانة التي حملوها ، وأنهم لم يُقرِّبوا الكذابين والمنافقين ، لأن ذلك لا يكون إلا من الفاشلين الذين ليست لهم أعمال تثبّتُ سلطانهم ، وإنما يُثَبِّتُون سلطانهم بالأكاذيب والأضاليل والنفاق ، وهذا ليس مقدمة للخسران المبين وإنما هو الخسران المبين بعينه ، واعلم أن هؤلاء ممن أحلوا قومهم دار البوار ، وقول أبي حازم لأصحابه

«تعالوا ندع لهذه الصورة الحسنة ألا يعذبها الله ـ تعالى ـ بالنار» هو من فقه أبي حازم لدين الله ، لأنه بذلك يعينها على الشيطان ، ولو لعنها لأعان الشيطان عليها ، كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه لما لعنوا الرجل الذي جيء به أكثر من مرة وهو سكران ، وهذا من الحب والمرحمة والتعاطف مع من يرتكبون المعاصي ، وهذا ما أدْرَكه الشعبي صاحب البصيرة في دين الله .

ومن أبرز ما في كتاب زهر الآداب أن أبا إسحاق إذا استحسن شعراً رجع به إلى أصل معناه في كلام السابقين ، ووضع بين يديك شعر السلف والخلف لتراجع أنت الذي صَنَعه الخلف في إرثه من السلف ، وتعلم أنت أن هذا ليس في الشعر وحده ، وإنما هو في كل إرث عقلي انتهى إليك من الذين سبقوك ، وأنك لا تنقله إلى من بعدك إلا إذا زدت عليه شيئًا ، وليس هذا كلامي وإنما هو كلام أبي إسحاق الذي كان كثيراً ما يقول إن فلانًا استحسن قول فلان كذا فتناوله وزاده حُسْنًا وقال فيه كذا ، وكأن قوله زاده حسنا دعوة إلى كل خلف في الشعر والعلم كله أن يضيف إلى كل حَسَنٍ حُسْنًا ، وهكذا تخطو البلاد إلى الأمام خطوة جديدة ، مع كل جيل جديد ، ولن يستطيع العقل الجديد أن يعرف الحَسَنَ وأن يضيف إليه حُسْنًا إلا إذا كان يعيش حُرًّا ، لأن العدو الأول للعقل الإنساني هو الاستبداد ، والقهر ، وهو الريح السموم الذي يطفئ ضياء العقول ، ولهذا لا تُنْتجُ البلاد نوابغ في أزمنة القهر والاستبداد ، واسأل تاريخ العرب والعجم فلن يقول لك غير هذا ، وتُلحُّ عليَّ كلمة كررتها كثيراً في هذا الكتاب ، وهي أنني أحيانًا يغلب عليَّ خاطر يقول لا تنشر هذا الكتاب خشية أن يتوهم متوهم أن قراءته لما أكتبه تُغْنِيه عن قراءة زهر الآداب ، وخصوصًا أننا في حالة من الترخص غير المفيد ، وهو أننا نقول لأنفسنا لأن تعرف عن الكتاب شيئًا أفضل من أن لا تعرف ، والواجب أن تقرأ كلام الأنصاري

لتعرف كيف كان الرجل بَحْرًا زاخرًا له عُباب ، وله عطاء ، وله سعة في كل باب تكلم فيه من شعر ونثر ، وتعريف بالرجال ، وبالكتب ، وبالخلفاء ، وبالذي كان يدور في مجالس العلماء ، وكأنه عاش كل زمن كتب عن شيء فيه ، وسمع الصواب والخطأ ، والحق والباطل ، وما يَرْضَى وما لا يَرْضَى ، لأن حياة الناس مليئة بهذا كله ، ومعرفة الصواب تهدي إلى معرفة الخطأ ، ومعرفة الحق تهدي إلى معرفة الباطل ، ولولا ظُلْمَةُ الجهل ما رأينا نور العلم ، وأنا أحب الثقافة التي من هذا النوع ، وحسبك أن القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل حكى لنا قول ألد أعدائه فيه ، وأنه سِحْر وأنه كذب ، وأنه أساطير الأولين ، والقرآن بهذا يعلمنا أن القراءة لا حدود لها ، وليس حولها أي خطوط حمراء .

نصيب والفرزدق

ذكر أبو إسحاق أن سبب قول نُصَيْب :

فعاجُوا فأثْنَوا بالذي أنت أهْلُه ... ولو سَكَتُوا أثْنَتْ عليك الحقائبُ

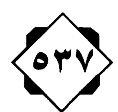
أنه كان مع الفرزدق عند سليمان بن عبد الملك ، فقال سليمان بن عبد الملك يا فرزدق من أشعر الناس ؟ قال أنا يا أمير المؤمنين، قال لماذا ؟ قال لقولي

وركْب كأنَّ الرِّيحَ تطْلُب عندهم ... لها ثِرَةً من جَذْبها بالعصائب

سَرَوًا وسَرَتْ نكباءُ وهي تَلُفهُمْ ... إلى شُعَبِ الأكْوارِ ذات الحقائبِ

إذا آنسوا نارا يقولون لَيْتَها ... وَقَدْ خَصِرَتْ أيديهم نارُ غالب

يريد أباه غالب بن صَعْصَعَة بن ناجية بن عقل بن محمد بن سفيان بن مجاشع ، فأعرض عنه سليمان كالمُغْضَب لأنه إنما أراد أن يُنشد مَدْحًا فيه ، ففهم نُصيبٌ مراده ، فقال يا أمير المؤمنين قد قلتُ أبياتًا على هذا الرويّ ليست بدونها ، فقال هاتها . فأنشأ نصيب يقول :



أَقُـــول لرَكْـــبٍ قـــافلين لقيـــتُهم ... قَفَا ذات أوْ شَـــالٍ ومَـــوْلاك قـــاربُ

قِفُوا أخبرونـــي عـــن ســـليمان إنَّنـــي ... لمعروفِـــه مـــن أهـــل وَدَّان طَالِـــبُ

فعاجوا فـــأثنوا بالـــذي أنـــت أهلـــه ... ولو سَكَتُوا أثْنَـــتْ عليـــك الحقائـــب

فقـــالوا تركنـــاه وفي كـــل لَيْلَـــةٍ ... يُطيف به من طالب العُـــرْف راكِـــبُ

ولو كان فـــوق النـــاس حـــيٌّ فَعالـــه ... كفعْلِـــكَ أو للفعـــل منـــك يُقَـــارِبُ

لقلنـــا لـــه شـــبه ولكـــن تعـــذّرت ... ســـواكَ علـــى الُمسْتَشـــفعِين المطالـــب

هو البدر والنـــاس الكواكـــب حَولَـــهُ ... وهل يُشْبُه البـــدرَ المـــنيرَ الكواكـــبُ

فقال سليمان : أحسنت والتفت إلى الفرزدق فقال تسمع يا أبا فراس ؟ قال : هو أشعر أهل جِلْدته ، قال : وأهل جلدتك ، فخرج الفرزدق وهو يقول :

وخـــيرُ الشّـــعرِ أكرمُـــه رِجـــالاً ... وشَـــرُّ الشـــعرِ مـــا قـــال العبيـــدُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد : وهذا باب في المدح حسن متجاوز مُبْتَدع لم يُسْبق إليه ، قول نصيب « من أهل ودان » قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، ذكر محمد بن يزيد في كتابه والزبيدي أن نُصيبًا من أهل وَدّان ، وكان عبدًا لرجل من بني كنانة هـو وأهل بيته ، وزعـم أبو هَنَّان أنه عبـد لعبد العزيز بن مروان»[1] ، ولا شك أن أبيات الفرزدق من أجود الشعر ، وقوله وركب كأن الريح إلى آخره من أكرم الشعر ، وأن جَذْب الريح لعصائبهم هو ثأر وانتقام للريح منهم من الكلام العالي ، وأن هذا الركب المطَارَدَ من الريح والذي خَصِرَتْ أيديهم لم يخطر بباله وهم في هذه الشّدة إلا غالب الذي يكرمهم من ماله كل هذا جيد جدًّا ، وكان على سليمان أن يكبر الفرزدق لثنائه على أبيه ، ثم إن ركب نصيب ركب ليس في شدة ،

---

(١) ص ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

وإنما هو ركب عائد من عند سليمان وحقائبه تتكلم عن سليمان ، وليس ذلك من مال سليمان ولا من مال أبيه ، وإنما هو جودٌ من مال المسلمين ، وتعجب من سليمان الذي غضب لأن الفرزدق لم يقل شعرًا في مديحه ، مع أنه سأل الفرزدق عن أشعر الناس ، وكأن أشعر الناس من يمدحه ، ولا شك أن نصيبًا من أكرم شعرائنا ، وأن تفوقه في الشعر مع أن أصله كما قالوا يزيده قدرًا ، وقول المبرد إن هذا مديح مبتكر وأن نصيب لم يُسبق فيه ، يعني أن الموقف الذي حدث من سليمان مع الفرزدق ورغبة نصيب في استثمار هذا الموقف هو الذي أخرج من نصيب هذا الشعر الجديد الجليل ، وكأن اللحظة التي عاشها نصيب هي التي أنتجت هذا الشعر ، وكما أن المواقف هي صانعة الرجال كذلك هي صانعة الشعر ، وقول الفرزدق «وخير الشعر أكرمه رجالاً» هو أيضًا مما أنطقه به الموقف ، وخصوصًا قول سليمان للفرزدق وأهل جلدتك أيضًا ، والفرزدق وإن أغرب في هذا البيت كل الإغراب ، وكأنه يقر بغلبة شعر نصيب لشعره فدافع عن شعره بعُنجهيَّته وازدرائه لنصيب ، وكما أن سليمان يَرَى أن خير الشعر ما كان في مديحه كذلك ، يرى الفرزدق خير الشعر أكرمه رجالاً ، والحقيقة ليست في كلام سليمان ولا في كلام الفرزدق وإنما خير الشعر أكرم الشعر شعرًا .

مصالحة بين اختلاف الأذواق

أحيانًا تجد كلمات لأبي إسحاق كأنه فيها يعقد مصالحة بين الذين تختلف أذواقهم في الاستحسان والاستهجان ، ويقول لهم إن هذا الاختلاف من الفطرة ، فلا تَعُدوه خلافًا ونزاعًا ، وأن الله فطر نفوسنا على أن « تستحسن شيئًا ويستحسن غيرُك غيره ، وأن الذي لا يقع بهواك قد يختاره سواك » ثم يقول : « وكل يعمل اقتداره ويُحْسِنُ اختياره» وهذا معناه أن تبذل أقصى اقتدارك بعد أن تحسن

اختيارك ، ولا يضرك أن يكون غيرك استحسن ما لم تستحسن ، ثم إن بَذْلَكَ كل اقتدارك بعد إحسانك لاختيارك حق الجماعة عليك ، لأنها لا تقبل منك الصمت والانسحاب ، ولا تقبل منك أن تبذل بعض ما عندك ، وهذا الكلام المختصر لو زُرِعَ في نفوس الجماعة لكانت حياتها في تجدّد دائم ، وتقدُّم دائم ، لأن الكل يفكر ويحسن التفكير ويختار ويحسن الاختيار ، ثم يبذل أقصى ما عنده في إنجاز ما استحسن ، وما اختار ، وهذا هو الوجود الحيّ ، وهذه هي الحياة الحيَّة ، ومن كانوا كذلك لا يتخلفون أبدًا ، وليس التقدم في حاجة إلى فَلْسَفَة ، وإنما هي حقائق مختصرة في كلمات مختصرة يَتْبَعُها جهودٌ غير مختصرة ، ثم إن الخلاف الذي يضيق به الضعفاء يراه أبو إسحاق ضَرُورَةَ لإعمار البلاد والعباد ، وله في ذلك كلمة كتبها في سطر قال : « ولو وقع الاجتماع على ما يُرضي ويُسخط ويَثْبُتُ ويَسْقُط لارتفع حجاج المختلفين في أمر الدنيا والدين » وكأن احتجاج المختلفين ضرورة في الدنيا والدين ، لأن هذا الاحتجاج يستثير أقصى طاقات العقول ، ولن تُعْمر الأرض خير عمارة ولن يُفْهم الدين خير فهم إلا بهذه العقول التي بلغت أقصى طاقاتها في اليقظة والفهم ، ولم أعرف عالمًا فرض على الناس فكره ، والشافعي الذي هو من كرام علمائنا كان يقول : « ما أقوله هو عندي صواب يحتمل الخطأ وما يقوله من أخَالفه هو عندي خطأ يحتمل الصواب » ولم يفرض على الناس فكره إلا من لا فكر له .

كان أبو إسحاق شديد الحفاوة بابن المعتز ، وقد ذكرت ذلك ، ثم إنه قال إنه سيجعل كلامه وكلامه عن كلامه مفرقًا في الكتاب على وفق ما ينجر إليه الكلام كما هو منهج الكتاب ، وسأذكر هذه لأن فيها إنصافًا لأبي العباس ثعلب الذي شنّ عليه البحتري أكثر من غارة ، وكان أبو العباس ثعلب أستاذًا لابن المعتز ، وكان

ابن المعتز يقرأ عليه الشعر ، وكان أبو العباس يُمْلِي عليه من الشعر ما يستحسنه أبو العباس ، ثم حدث أن ابن المعتز حبسه قومُه بسبب الخلاف حول الخلافة ، وليس هذا ما أردتُ ذكره ، وإنما حدث أن ابن المعتز وهو في سجنه كتب إلى شيخه أبي العباس ثعلب شعرًا له يمدحه فيه ، ويذكر أستاذيته له ، فكتب له أبو العباس جوابًا عن كتابه ، وكله كلام في أن قولك كذا أنت ناظر فيه إلى قول فلان كذا إلى آخر الرسالة ، ولم يحدثه أبو العباس عن الذي هو فيه ، وإنما واصل معه الحديث في الشعر ، وابن المعتز والبحتري عاشا في زمن واحد ، وكان البحتري صديقًا لأبي العباس المبرد ، وكانت بين المبرد وثعلب منازعات ، وظني والله أعلم أن حَملة البحتري على ثعلب كانت من أثر هذه المنازعات ، لأنه لو كان يجهل الشعر كما كان يَصفُه البحتري ما اتخذه ابن المعتز أستاذًا له في الشعر .

مجالس القضاء

وكان مما عني به أبو إسحاق ضرورة احترام مجلس الحكم الذي هو مجلس القضاء ، وأن الطرفين تجب التسويةُ التامةُ بينهما ، وأنه لا يجوز لأحدهما مهما كانت مكانته أن يعلو صوته على الطرف الآخر ، فضلاً عن أن يتهدّدَه ، وذكر أبو إسحاق من ذلك : أن إبراهيم بن المهدي خاصم ابن بختيشوع في عقار أمام القاضي أحمد بن أبي دؤاد ، فرفع إبراهيم بن المهدي صوته على ابن بختيشوع وأبوه المهدي خليفة وأخوه الهادي خليفة ، وابن أخيه هارون الرشيدي ، فقال القاضي : يا إبراهيم ، إذا نازعت في مجلس الحكم بحضرتنا امْرءًا فلأعلمنَّ أنك رفعت عليه صوتًا ، ولا أشرت بيد ، وأكثر له من هذا الكلام فقال إبراهيم : أَمَرْت بسداد ، وحضضت على رشاد ، ولست عائدًا إلى ما يَثْلُم مروءتي عندك ، ثم قال : وقد جعلت حقي في هذا العقار لابن بختيشوع ، فليت ذلك يكون وافيًا بأرْش

الجناية عليه» والواجب مراجعة كلام القاضي لإبراهيم ، وقوله «فلأعلمنّ أنك رفعت عليه صوتًا» وهو تهديد ظاهر ، ثم انقياد إبراهيم إلى هذا النص ، ثم اعتذاره عن الذي كان منه ، وتنازله عن حقه ، وأهم من هذا وذاك عناية أبي إسحاق بهذا وكتابته لنا ، ولمن بعدنا ، وأن القضاء يجب أن يبقى مصونًا ، لأنه ركن الحق والعدل في الناس ، وأنه لا يكدر صفاء ونقاء الحق والعدل في الناس إلا ظالم يريد أن يُلْبس ظلمه ثوب الحق والعدل ، وأن هذا مما اتفقت عليه الأمم كل الأمم من أول التاريخ ، والذي يفسد القضاء لا يتورّع عن إفساد أي شيء في البلاد ، وأن إدخال القضاء في السياسة مفسدة ، ثم إن أبا إسحاق نقل كثيرًا من كلام الملوك من العرب ، وغير العرب ، وهو كلام جيد جدًّا ، وكانوا يصيبون في معرفة ما يجب أن يكونوا عليه في سياسة أقوامهم ، ومن ذلك قول معاوية بن أبي سفيان : «إنّي لآنَفُ أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي ، وذنب لا يسعه عفوي ، وحاجة لا يسعها جودي» وراجع توكيد معاوية لمعانيه بإن المؤكدة واللام ، وكلمة آنف ، وكأن المسألة هي أنه لا يقبل إلا أن يكون كما وصف ، وليس هذا مما يتعهد به لقومه فقط ، وإنما هو مما يتعهد به لنفسه ، التي تحاسبه حسابًا أدق من حساب قومه ، وأكرم الخلق ألا يكون في أرض قومك جهلٌ لا يسعه حلمك ، وألا يكون في أرض قومك ذنب لا يسعه عفوك ، وألا يكون في أرض قومك حاجة لا يسعها جودك ، وهذا من غرر الكلام ، لا تهتدي إليه إلا نفوس من هم أهل للسيادة ، ولو كان الأمر بيدي لجعلت مثل هذه النصوص في كتب علوم السياسة ، ولأدخلتها في القسم الذي يقسمه من اختاره شعبه لولاية أمره ، يوم يؤدي اليمين ، وأبو إسحاق الذي يروي لك هذا الكلام الداخل في صلب سياسة الأقوام ، والكلام الداخل في صلب رعاية حرمة القضاء يقف بك أحيانًا أخرى عند نقد شعر النسيب ، ولا يحدثك عن الذي قاله علماء الشعر في نقد شعر النسيب ، وإنما يختار لك

ما قالته الذي قاله الشاعر في التشبيب بها ، وأنها لم تنظر إليه من جهة أنه قيل فيها ، وإنما تنظر إليه من جهة أنه قيل في النسيب ، سواء قيل فيها ، أو قيل في غيرها ، وأنك الآن مع الأذن التي تسمع شعر النسيب ، وهي أنَّ امرأة أي امرأة قيل فيها شعر النسيب أو قيل في غيرها ، وأنها تستحسن منه ما تستحسن وتستهجنُ منه ما تستهجن ، وإنما سجّل لنا أبو إسحاق مثل هذا كما سَجَّل لنا ما يجب أن يكون عليه الساسة ، وما يجب أن تكون عليه مجالس القضاء ، لأن كل هذا من المعرفة التي يجب أن تكون بين أيدي الأجيال الناشئة ، ومهما اختلفت درجاتها وطبقاتها فهي سواء في أنها جزء مما يجرى في حياة الناس ، وأن العلم بها واجب .

حوار في الشعر بين كثير وعزة

ذكر أبو إسحاق : « أن كثيرًا دخل على عزة ، فقالت له ما ينبغي أن نأذن لك في الجلوس ، فقال ولم ذلك ؟ قالت لأني رأيت الأحْوَص ألين جانبًا عند الغواني منك في شعره ، وأضرع خدًّا للنساء ، وأنه الذي يقول :

يا أيها اللائمي فيها لأصْرِفها ... أكثرتَ لو كان يُغني عنك إكثارُ

أكْثِر فلست مطاعًا إذ وَشَيْتَ بها ... لا القلب سالٍ ولا في حبها عارُ

ويعجبني قوله :

أدورُ ولولا أن أرَى أم جعفر ... بأبياتكم ما دُرْتُ حيث أدورُ

وما كنتُ زوَّارًا ولكن ذا الهوى ... إذا لم يُزَرْ لابد أن سَيَزُورُ

لقد منعت معروفها أمُّ جعفر ... وإني إلى معروفها لفقيرُ

ويعجبني قوله :

كم من دَنِيٍّ لها قد كنتُ أتْبَعُه ... ولو صَحَا القلبُ عنها كان لي تبعًا



لا أستطيع نزوعًا عن محبتها ... أو يصنع الحبُّ لي فوق الذي صَنَعَا
أدعو إلى هجرها قلبي فيتبعني ... حتى إذا قُلْتُ هذا صادقٌ نَزَعَا
وزادني رغبةً في الحب أن مَنَعَتْ ... وأشهى إلى المرء من دنياه ما مُنِعا

ثم ذكرت شعرًا آخر للأحوص .. فقال لها كثير : قد والله أجاد فما استقبحت من قولي ؟ قالت قولك :

وكنتُ إذا مَا جئتْ أحْلَلْنَ مجلسي ... وأظهرن مني هَيْبَةَ لا تجهُّما
يُحَاذِرْنَ منيِّ غيْرةً قد عرَفْتَها ... قديما فلا يضحكنَ إلا تَبَسُّمَا
تراهُنَّ إلا أن يخالِسْنَ نظرة ... بمؤخر عين أو يُقَلّبْنَ معْصَما
كواظم لا ينطقْنَ إلا مَحُورَةً ... رجيعةً قول بعد أن يتفهَّمَا
وقُلْنَ إذا ما قُلْنَ شيئًا يَسُرُّه ... أسرَّ الرضا في نفسه وتحرَّما

وقولك :

وددت وبيتُ الله أنك بكرةٌ ... هجان وأني مُصْعَبُ ثم نهرُب
كلانا به عُرٌّ فمن يرنا يَقُلْ ... على حسنها جرباء تُعدى وأجْرَبُ
نكون لذي مال كثير مُغفلٍ ... فلا هو يرعانا ولا نحن نُطلَبُ
إذا وَرَدْنا مَنهلاً صاح أهلُه ... علينا فما ننفكُّ نؤذي ونَضْرَبُ

وَيْحك لقد أردت لي الشفاء أفما وجدتَ أمنية أوطأ من هذه ؟ فخرج كثير خجلا لا ينطق ، والمحورة : جواب السؤال ، وقوله وتحَرَّما : أي سكت .

وراجع أنت مقدار وعي عزة بعناصر الجودة في شعر الأحوص ، راجع « لو كان يغني عنك إكثار » وراجع « لا القلب سال ولا في حبها عار » ، وهذا أعذب من الأول ، وراجع الولع الذي في قوله « دُرْتُّ حيث أدور » وكيف كانت نفسه

تنكر هذا الدوران ، ولكن الذي غلبه هو الذي جعله يدور ، وكيف قابلت عزة هذا في شعر الأحوص بشغل كثير بنفسه وأنهن أظهرن منه هيبة ، ولا يضحكن في محضرة إلا تبسما ، وأنهن يخالسن النظر إليه ، وأنهن إذا قلن شيئًا يسُرّه لا يبدي لهن هذه المسرة ، وكأن كثير يحدث عن صبوتهن به ، وليس عن صبوته بهن ، والأبيات الأخيرة ظاهر عارها ، وذكر أبو إسحاق أن كثيرًا هو ابن عبد الرحمن ابن جمعة الخزاعي ، وأنه كان رافضِيًّا يؤمن بالرجعة ، ويقول بإمامة محمد ابن الحنفية ، والروافض يزعمون أنه دخل في شعب في اليمن ومعه أربعون من أصحابه ولابد من ظهوره ، وذكر أبو إسحاق شعرًا له في ذلك ، منه قوله :

ألا إن الأئمةَ من قريش ... وُلاةُ الحقِّ أربعةٌ سواء

علي والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس لهم خفاء

فسبطٌ سِبْطُ إيمان وبِرٍّ ... وسبط غيَّبْته كربلاء

وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقودَ الخيلَ يَقْدُمها اللواءُ

تغيّب لا يرى عنهم زمانا ... برضوى عنده عَسَلٌ وماءُ

والثلاثة هم الحسن ، والحسين ، ومحمد ابن الحنفية ، وسبط الإيمان والبر هو الحسن ، والذي غيبته كربلاء هو الحسين ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ ، والذي لا يذوق الموت هو محمد ابن الحنفية ، قال أبو إسحاق : وكان خلفاء بني أمية يعلمون ذلك منه ويلبسونه عليه ، أي قبلوه على ما هو عليه لأنهم يعلمون أن هذا لا خطر منه على ملكهم ، وذكر أبو إسحاق شعرًا كثيرًا لكُثَيّر ولغير كُثَير ، ولا يستطيع قَلَمٌ بالغ ما بلغ أن يذيقك هذا الشعر ، ولابد لك من أن تتدبره بنفسك وأن تذوقه بطبعك ، وكما أنه لو وَصَفَ لك أبرعُ الناس الشهد فلن تعرف الشهد إلا إذا ذقته بلسانك ، كذلك الشعر ، وفرق بين أن تحدث طلابك بما حفظته من

كلام علماء الشعر ، وأن تُحَدِّثهم بالذي ذقته أنت من الشعر ، والمسألة ليست صعبة وإنما هي تدبر واستمتاع وإحساس بالحسن ، وقد كان علماؤنا يقولون لنا تعلموا علم الشعر من الشعر ، وتعلموا الإعجاز من المصحف ، وليس من كلام العلماء في الإعجاز ، مع أنهم هم أنفسهم لم يستغنوا عن الأمرين معًا ، تعلموا كلام العلماء في الشعر ، وتعلموا من الشعر نفسه ، وتعلموا كلام العلماء في الإعجاز ، وتعلموا الإعجاز من الكلام المعجز نفسه ، والأصل أن يكون كلام علماء الشعر دافعًا يدفعنا إلى قراءة الشعر ، وأن يكون كلام العلماء في الإعجاز دافعًا يدفعنا إلى قراءة المعجز نفسه .

ذكر أبو إسحاق أن رجلاً من العلويين شتم الفضل بن جعفر البصير ، فقال له الفضل : « والله ما نَعْييَ عن جوابك ، ولا نعجز عن مَسَابِّك ، ولكننا نكوُن خيرًا لنَسبِك منك ، ونحفظ منه ما أضَعْت ، فاشكر توقيرنا ما وقرنا منك ، ولا يغرَّنَّكَ بالجهل علينا حلمنا عنك» وهذا رد جيد للذي يقع من هفوات من آل بيت رسول الله ﷺ ، وأن من يُسيء منهم إلى أحد تكون إساءته إلى شرفه ، وحسبه ، ونسبه أكثر من إساءته إلى من أساءه ، ولا شك أن حب الأمة لآل رسول الله ﷺ حب باق إلى أن تقوم الساعة ، ولم ينقص بل إنه عند غير الصالحين من أبنائها قائم ، وباق ، كالذي عند الصالحين من أبنائها ، ويقيني أن الله سبحانه وتعالى لم يشأن أن يجعل ولاية الأمة فيهم ، لأن الناس كثيرًا ما يكرهون حكامهم ، وأن محافظة الحكام على حكمهم كثيرًا ما يغري بالتجاوز ، والظلم ، ولم أعرف واحدًا من العباسيين سلم من ذلك ، ثم إن الله ـ سبحانه ـ الذي لم يشأ أن يجعل ولاية أمر الأمة فيهم لم يمنعهم من ولاية الأمر ، وإنما ترك ذلك للأمة وأوصانا ربنا بالمودة في القربى ، وهذه الوصية سكنت في حنايا قلوب الناس ، كما سكنت في حنايا قلب الفضل بن جعفر البصير الذي شتمه العلوي ورد عليه بما ردَّ ، وهم أهل لأن

يُترك مسيؤهم لمحسنهم ، وأفضل منه أن يترك مسيؤهم لأفضل من أحسن إلينا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

حوار في الشعر بين الأصمعي وأعرابي

ذكر أبو إسحاق خبرًا عن أبي نصر ، راوية الأصمعي ، قال أبو نصر : « رحم الله الأصْمَعِي ، إنه لمعدن حكم ، وبَحْرُ علم غير أنه لم نر قط مثل أعرابي وقف بنا فَسَلَّمَ ، فقال أيكم الأصمعي ؟ فقال : أنا ذاك ، فقال : أتأذنون بالجلوس ؟ فأذنّا له ، وعجبنا من حسن أدبه مع جفاء أدب الأعراب .. قال : يا أصمعي أنت الذي يزعم هؤلاء النّفر أنك أثقبهم معرفةً بالشعر ، والعربية ، وحكايات الأعراب ؟ قال الأصمعي : فيهم من هو أعلم مني ، ومن هو دوني ، قال : أفتنشدني من بعض شعر أهل الحضر حتى أقيسه على شعر أصحابنا ؟ فأنشده شعر رجل امتدح مسلمة بن عبد الملك :

أمَسْلَمُ أنت البَحْر إن جاء واردٌ ... وليث إذا ما الحربُ طَارَ عُقَابُها

وأنت كسَيْفِ الهندواني إن غَدَتْ ... حوادث من حرب يَعُبُّ عُبَابُها

وما خُلِقَتْ أكرومةٌ في امرئٍ له ... ولا غاية إلا إليك مآبُها

كأنك ديَّانٌ عليها مُوَكَّلٌ ... بها وعلى كفَّيْكَ يَجْرِي حِسابُها

إليك رَحَلْنَا العيس إذا لم نجد لها ... أخا ثِقَةٍ يُرجَى لديه ثوابُها

قال : فتبسّمَ الأعرابي وهزّ رأسه ، فظنّنا أن ذلك لاستحسانه الشعر ، ثم قال : يا أصمعي ، هذا شعر مُهَلْهَلُ خَلَق النَسْج ، خطؤه أكثر من صوابه يُغطِّي عيوبَه حسنُ الرويّ ، ورواية المنشد» ثم بدأ الأعرابي في نقد الشعر ، وقبل أن أذكر نقده أشير باختصار شديد إلى ما في الشعر من جودة ، فالبيت الأول خطاب للممدوح

وثناء عليه بالجود ، وأنه كالبحر إذا جاء ، وارد يريد ماءه ، وكالليث إذا ما الحرب طار عقابها ، وهذا من المجاز العالي ، لأن العقابَ يتخطَّفُ الطير ، وإذا طار عقاب الحرب تخطّفت أبطالها ، والبيت الثاني بيان لمضاء رأيه ، ونفاذ فهمه ، وأنه يُصيب مفاصل الحق ، ويمضي كالسيف إذا غدت حوادث من حرب يَعُب عُبابَها ، ويعب عبابها أيضًا من المجاز العالي ، وإسناد الفعل إلى مصدره من الكلام الطيب ، مثل جَدَّ الجدُّ ، والبيت الثالث والرابع يؤكد أنه أصل لكل مكرمة ، وكأنه هو الذي علّم الناس المكارم ، وأن الممدوح ديَّان على المكـارم ، ومسؤول عنها ، وموكل بها ، وساع لها ، وتعجبني كلمة « إليك رحلنا العيس » مع كثرتها وتداولها ، لأن رحلة ذوي الحاجات إلى كرامهم تعني أنهم لم يجدوا بديلاً لهم ، وهذه من الكلمات التي لا تخلق على كثرة الرد ، ونقد الأعرابي لم يتجه إلى شيء من هذا ، وإنما اتجه إلى مذهب العرب في تشبيه الجواد بالبحر ، و البحر وَعْـرٌ مركبُه ، ومُرٌّ مذاقه ، وتشبيه الشجاع بالأسد ، والأسد كريه الشكل ، ومُنتِن الريح ، قال الأعرابي : « يشبهون الملك إذا امتدُح بالأسد ، والأسد أبخر شتيم المنظر ، وربما طرده شِرذِمةٌ من إمائنا ، وتلاعب به صِبْيانُنَا ، ويشبهونه بالبحر والبحر صعب على من ركبه ، مُرٌّ على من شربه ، وبالسيف وربما خان في الحقيقة وتباعد عن الضريبة » انتهى نقد الأعرابي ، ويمكن أن يُرَدّ هذا النقد لأن المكروه في الأسد ليس داخلاً في التشبيه ، وإنما المقصود من التشبيه به هو شجاعته ، وبسالته ، وهذا لا خلاف فيه ، ومُلُوحَةُ البحر ليست داخلة في التشبيه ، وإنما المراد فيضه ووفرة عطائه ، وكذلك السيف ، وأن التشبيه جيء به لبيان مقصود ، فيجب أن ينصرف المعنى إلى هذا المراد ، ثم قال الأعرابي ألا أنشدتني كما قال صَبِيٌّ من حَيِّنَا :

إذا سألت الورى عـن كـل مَكْرُمـةٍ ... لم يُعْـزَ إكرامُهـا إلا إلى الـهُول

فتى جـواد ، أذاب الـمالَ نائلُـه ... فالنيْـلُ يَشْـكُر منـه كثْـرَة النَّيْـلِ

المـوت يكـره أن يلقـى مَنِـيَّته ... في كرِّه عنـد لَـفِّ الخيـل بالخيـل

لو زاحم الشمس أبقى الشمسَ كاسفةً ... أو زاحـم الصُّـمّ أَلْجاهَـا إلى المَيْـلِ

أمضى مـن الـنجم إن نابتـه نائبـة ... وعند أعدائـه أجـرى مـن السـيل

لا يسـتريح إلى الـدنيا وزينتـها ... ولا تـراه إليهـا سـاحب الـذيل

يُقصّـرُ الـمجدُ عنـه في مكارمـه ... كمـا يقصـرّ في أفعالـه قـولي

قال أبو نصر : « وأبهتنا والله ما سمعنا من قوله » وواجبي هو أن أحاول أن أبيِّن شيئًا من الذي أَبْهَت أبا نصر والأصمعي ومن معهم ، قلت أحاول وقد تدرك أنت من هذا ما لا أدرك ، وإنما على الكل أن يبذل ما عنده ، والبيت الأول بالغ في جودته ومبالغته ، أما المبالغة فهي في كلمة الورى في الشطر الأول ، وأنك لو سألت كل الخلق ، والثانية في قوله : « كل مكرمة » وهذا يعني اتفاق الخلق كل الخلق على أن كل مكرمة من غير استثناء تعزى إلى الهول الذي هو الممدوح ، وأن هذا المعنى ليس جديدًا ، وإنما الجديد فيه هذا الاستقصاء الجامع لكل الورى ولكل مكرمة ، وكأن الشاعر نفسه لما وجد هذا المعنى الجليل والعام لكل المكارم في نفسه استشعر ضرورة المزيد من بيانه ، فاستأنف كلاما جديدًا في شأن هذا الممدوح ، وبنى استثناءه على حذف المسند إليه كما هي عادتهم في مثل هذا المقام ، وقال : فتى جواد وكلمةُ « أذاب المال نائله » كلمة جليلة جدًّا وخصوصًا استعمال كلمة « أذاب » وإسنادها إلى النائل ووقوعها على المال ، وقد ترك الشاعر الحديث عن حبِّه للعطاء ونقل الحب إلى العطاء نفسه الذي هو النيل ، وأن النيل أحب النيل ، وصار النيل شاكرًا لكثرة النيل ، وهذا أيضًا معنى فيه نفح من الخيال الجيد ، وأن النيل يشكر كثرة النيل ، والبيت الثالث معناه أعجب ، وأن

الموت يتحامى موته ويكره موته ، وهذا لا شك أنه جديد وجيد ، وكلمة « في كَرِّه عند لفِّ الخيل بالخيل » من الكلام الذي ليس لحسنه نهاية ، ومثله قوله : « لو زاحم الشمس أبقى الشمس كاسفة » ذكر مزاحمته للشمس في السماء وهي سيدة الكواكب ، ولا يظهر منها كوكب لقوه تَفَرُّدها ، ثم نزل إلى الأرض وأقوى ما فيها الجبال الصم ، فذكر أنه لو زاحمها لألجأها على أن تميل وتتخلى عن كبريائها وشموخها ، وصمودها في مواجهة كل شيء ، وقوله : « أمضي من النجم » إلى آخره ، أصل الكلام إن نَابَته نائبة أمضى من النجم ، وإنما قدم المؤخر لشدة عنايته به ، ولا شك أن مضاء النجم أقوى وأعلى وأسنى من مضاء السيف ، وليس في بقية الأبيات ما يبهت أبا نصر ومن معه ، وفرق كبير بين هذه الأبيات وما أنشده الأصمعي في مدح مسلمة ، ثم قال الأعرابي للأصمعي ألا تنشدني شعرًا ترتاح إليه النفس ويسكن إليه القلب ؟ فأنشده لابن الرقاع العاملي :

وناعمةٍ تجلُو بعُودِ أراكةٍ ... مُؤشَّرة يَسْبي المعانق طيبُها
كأن بها خَمْرًا بماء غمامة ... إذا ارْتُشِفَت بعد الرُّقاد غروبُها
أراك إلى نجد تَحِنُّ وإنما ... مُنَى كل نفس حَيْثُ كان حبيبها

فتبسم الأعرابي وقال : يا أصمعي ما هذا بدون الأول ولا فوقه ، ألا أنشدتني كما قلت ؟ قال الأصمعي : وما قلت جعلت فداك ، فأنشده :

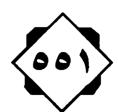
تعلَّقتُها بكرًا وعُلِّقتُ حُبَّها ... فقلبيَ من كل الوَرَى فارغ بكرُ
إذا احتجبت لم يكفك البدرُ ضوءَها ... وتكفيك ضوءَ البدرِ إن حُجِبَ البدرُ
وما الصبر عنها إن صبرتُ وجدته ... جميلاً وهل في مثلها يحسنُ الصبر
وحسبك من خمر يفوتُك ريقُها ... ووالله ما من ريقها حَسْبُك الخمر

ولو أن جلـد الـذرّ لامـس جِلْـدَها لكان لِمَـسّ الـذّرّ في جلـدها أثْـرُ
ولـو لم يكـن للبـدر ضـدا جمالُهـا وتفضُـلُه في حسـنها لصـفا البـدر

قال أبو نصر : قال لنا الأصمعي : اكتبوا ما سمعتم ولو بأطراف المدى في رقاق الأكباد ، انتهى الخبر ، وقول الأصمعي اكتبوه بأطراف المدى في رقاق الأكباد ، يعني أن الأبيات بلغت في تأثيرها في الأصمعي مدى لم يبلغه شعر ، ولم نعرف أن أحدًا كتب بأطراف المدى في رقاق الأكباد ، ولم نسمع هـذا لا من الأصمعي ولا من غيره إلا في هذا المقام ، وقبل الحديث عن هذه الأبيات التي هي من شعر الأعرابي وليست من محفوظه أشير إشارات سريعة إلى الأبيات التي أنشدها الأصمعي وهي ليست من أجود ما قيل في بابها ، وقوله وناعمة تجلو بعود أراكة إلى آخره ، معنى شائع وقديم ومن أوائل ما قيل في حسن الحسان ، ومثله يسبي المعانق طيبُها ، وقوله : « كأن بها خمراً بماء غمامة » ذكر ماء الغمامة مع الخمر جوَّده وحسَّنه لأن تشبيه ريق الصاحبة بالخمر يقوله المبتدي في الشعر ، وقوله : « إذا ارتُشِفَتْ بعد الرقاد غروبها » أقدم من شعر امرئ القيس ، والبيت الثالث بيت جيد ، لأن الحنين إلى نجد لم يداخل قلوب أهل نجد وحدهم ، وإنما داخل الحنينُ إلى نجد قلوب الذين قرؤوا شعر أهل نجد ، لقوة حنينهم فصار كل قراء شعر أهل نجد يحنون إلى نجد ، وقد حنَنَّا إلى نجد ، ونحن في قاع ريف بلادنا ، وقوله : « منى كل نفس حيث كان حبيبها » من الكلام العالي وخصوصًا كلمة « منى كل نفس » وابن الرقاع وجد تعارضًا فيما لا تعارض فيه لأن النفس تتسع إلى الحنين إلى نجد وإلى حيث كان حبيبها .

أما أبيات الأعرابي فلها في بابها مقام آخر ، راجع البيت الأول .

« تعلقتها بكرا وعُلّقتُ حبها » راجع بناء الفعل الأول للمعلوم ، والفعل الثاني



للمجهول ليدلك هذا على أنه ابتدأ وتعلق بها وذلك بإرادته ، ثم صار تعلقه بها فوق إرادته ، وكلمة «بكرا» في الشطر الأول كلمة عالية لأن فيها معنى «أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى» ، وكأنها نادت الشطر الثاني كله «فقلبي من كل الورى فارغ بكر» وهذا معنى جيد جدًّا وجديد ، وليس في كل هذا الورى أي هذا الوجود حسناء ، واحدة طرقت باب قلبي لأن قلبه من كل ذلك فارغ ، وإنما هي التي تعلقها ثم عُلّق حبها ، وقوله :

إذا احتجبت لم يكفك البَـدْرُ ضـوءها وتكفيك ضوءَ البدر إن حُجِبَ البـدرُ

تجد المقابلة بين الشطرين صنعت شعرًا عاليًا ، وأنها إذا احتجبت أظلمت الأرض ، وأن ضوء البدر لا يكفيك ضوءها وضوؤها يَسُدّ مَسَد ضوء البدر إن حجب البدر ، والأعرابي جهّز لنا هذه المعاني لتذوقها ، وراجع البيتين مرة ثانية وتدبر الشطر الثاني من البيت الأول «فقلبيَ من كل الورى فارغ بكر» تجده من تمام معنى الشطر الأول ، لأن فراغ قلبه من كل الورى إنما كان لأنه تعلقها وعلّق حبها ، والفاء التي في قوله «فقلبي» نص في أن ما بعدها مرتب على ما قبلها ، وكذلك الحال في الشطر الثاني من البيت الثاني وهو قوله «تكفيك ضوء البدر إن حجب البدر» هو الوجه الثاني لقوله : «إذا احتجبت لم يكفك البدر ضوءها» وهذا وذاك مما أكسب الكلام سهولة ، وعذوبة ، حتى كأنك تستطيع أن تقول مثله ، فإذا رمت ذلك امتنع عليك ، وهذا من أعلى مراتب البلاغة ، وأن الكلام تراه مطمعًا وهو في الحقيقة مُؤيِسٌ ، وقوله «وما الصبر عنها» موضع الحسن فيه قوله «وهل في مثلها يحسن الصبر» والاستفهام معناه الإنكار ، والمعنى لا يحسن الصبر ، ولكن الشاعر لم يقل هذا وإنما قال للقارئ «وهل في مثلها يحسن الصبر» وهو يعلم أن القارئ سيقول لا يحسن الصبر في مثلها ، وليس المعنى أن

القارئ مولَعٌ بها وأن قلبه من كل الورى فارغ بكر ، وإنما المراد أن القارئ الجدير بأن يقال له قارئ قد انتقل إلى نفسه كل ما أفرغه الشاعر في شعره ، فصار يجد ما وجد الشاعر ، وعاش اللحظة التي عاشها الشاعر وهو يقول هذا الشعر ، والشاعر مات والصاحبة ماتت والزمن مات ومات زمن وزمن بعده ، ولكن الذي وجده الشاعر وصاغه في هذا الشعر حيٌّ ، وله عند كل قراءة ولادة جديدة واستهلال جديد ، وقوله « وحسبك من خمر يفوتك ريقها » كلمة ريقها خبر حسبك أي حسبك ريقها وكافيك هذا الريق إذا فاتك الخمر ، وقابل هذا على طريقته بقوله « ووالله ما من ريقها حسبك الخمر » والشطر الأول وإن قارب قول ابن الرقاع « كأن بها خمرًا بماء غمامة » إلا أن هيئة المعنى وعرضه تختلف جدًّا ، وكلام ابن الرقاع كأن بها خمرًا بماء غمامة يشبه كأن زيدا أسد ، وهذا يدخل المعنى من مدخل آخر وأصله التشبيه ، ولكن مع هذا الشبه فإن ريقها ينسيك الخمر لو افتقدت الخمر ، والخمر لا ينسيك ريقها إن افتقدت ريقها ، والمهم في هذا الشطر أن الأعرابي دَلّ على إعرابيته بهذا القَسَم ، لأننا نسمع خواطر الشعراء ونتذوقها من غير أن نطالبهم بيمين ولا بيِّنة ، وقوله ولو أن جلد الذَّر وما بعده كلام قديم لا أظن أنه هو الذي أخرج الأصمعي عن رزانته ، وقال اكتبوا ما تسمعون بأطراف المدى في رقائق الأكباد ، وكم كنت يا شيخنا الأصمعي قاسيًا على طلاب علمك لما طلبت منهم أن تكون أطراف المدى بديلاً للأقلام ، وأن تكون رقائق أكبادهم بديلاً للأوراق ، والمقام مقام فَرْط استحسان الأحسن ، فهل تواجه بهجة النفوس بالبيان العالي بهذا الضرب الدامي من الكتابة ؟ كم كنا نتمنى أن يلد زماننا مثلك لنتحلّق حوله ؟

ألفاظ عصر أبي إسحاق

ومما تكرر كثيراً في زهر الآداب « ألفاظ العصر » وليس المراد الألفاظ المفردة، لأن ألفاظ العربية المفردة ألفاظ كل عصر ، حتى الشعراء الذين لم يصل إلينا شعرهم الذي قرأ امرؤ القيس شعرهم ، لأنه من المستحيل عقلاً وعادة أن يكون أول شاعر وهو على هذا المستوى الذي به صار قدوة شعرائنا لم يسبق بشعر ، ولو كان امرؤ القيس لم يسبق بشعر وادعى النبوة في الشعر لصدقه الناس ، ثم إن الذين أخذ عنهم لم ينقل عنهم كلمة ماتت بعد زمنه ، وإنما كل ألفاظ امرئ القيس مستعملة في زماننا ، وقل مثل ذلك في الإعراب والاشتقاق والجمع والتكسير إلى آخر ما بُنِيَتْ عليه العربية ، وكانت عليه يوم أن أمسك القرآن بها وأقرها على ألفاظها ونحوها وصرفها ، كل ذلك ثابت في العصور كلها ، وإنما التغيير الذي يحدث هو في التركيب والصياغة ، وتكرار أبي إسحاق لكلمة ألفاظ العصر كأنها إشارة واضحة منه إلى وجوب دراستنا لتطور الأساليب ، لأننا سنرى الآن أن ألفاظ عصره مختلفة اختلافًا ظاهرًا عن ألفاظ العصور التي سبقتها ، ونراها نحن الآن مختلفة اختلافًا ظاهرًا عن ألفاظ عصرنا ، والفطرة البيانية التي فطر الله الناس عليها من يوم أن علّم آدم الأسماء كلها ثابتة ، ثم هي بالغة الحساسية في تأثرها بأحوال الأزمنة والمعرفة والثقافات ، ولا شك أن تطور الأساليب ما كان يمكن أن يكون إلا بتطور الإنسان نفسه ، وأن المعنى الحقيقي لدراسة تطور الأساليب هو دراسة تطور الإنسان الذي صنع هذه الأساليب ، والتقصير في دراسة تطور الأساليب يعني التقصير في دراسة تطور الناس الذين هم آباؤنا ونحن منهم ، وهذا لا تكفي فيه كلمة التقصير لأنه نقص وعيب ، وسأعرض سطوراً قليلة لنتعرف على ألفاظ عصر أبي إسحاق ، وقد وصف هو هذه الألفاظ بأنها تجري في المدح مجرى الأمثال لحسن استعارتها وبراعة تشبيهاتها ، قال : « فلان مُسْترضع ثَدْي المجد مفترش

حجر الفضل له صدر تضيق به الدهناء ، وتفزع إليه الدهماء ، له في كل فكرة غُرَّة الإصباح ، وفي كل فضيلة قادمة الجناح ، له صورة تستنطق الأفواه بالتسبيح ، ويترقرق فيها ماء الكرم ، وتقرأ فيها صحيفة حسن البِشْر ، تحيا القلوب بلقائه قبل أن يُميت الفقر بعطائه ، له خلق لو مزج به البحر لنفى ملوحته وكفى كدورته»
وأكتفي بهذا ، وقد ملأ أبو إسحاق صفحات كثيرة من ألفاظ أهل العصر ، وظاهر أن هذا وإن سميناه تطور الأساليب هو في حقيقته أحوال حدثت في الإنسان فأنطقته بهذا البيان ، وكان من السهل أن يقول فلان ماجد ، فاضل ، طيب الخلق ، متسع الصدر ، يفزع الناس إليه في الملمات ، إذا قلت إن هذه لغة وما ذكره أبو إسحاق لغة أخرى ، كان قولي هذا قاصرًا جدًّا لأن الحقيقة أن هذا إنسان وهذا إنسان آخر ، فرق بين أن تقول فلان ماجد أو فلان يصير المجد حيث يصير ، وأن نقول إنه مسترضع من ثدي المجد ، وأن نجعل للمجد ثديا وليس له ثدي ، وكأن المجد رمقه ساعة ولد وأبى إلا أن يرعاه وأن يُرضِعه هو ، فأقام المجد ثديه مقام ثدي أمه ، ثم إنه جعل للفضل حجرًا وليس له حجر ، وأنه لم يكتف بأن يرضع من ثدي المجد ، وإنما أيضًا افترش حجر الفضل وكأنه بين المجد والفضل يرضع من هذا ويفترش حجر هذا ، وأن كل فكرة لها غُرّة هي أكرم ما في الفكرة ، والذي له من الأفكار غُرَرُها ، وأن الفضائل طيورٌ تحلق في السماء ، والذي له من كل فضيلة هو قادمة جناحها التي عليها المعوّل في هذا الطيران ، ولاحظ أنني لم أحلل الأساليب ولا أدرسها ، لأن هذا لابد أن تتوفر عليه عقول أهل الزمان كلِّه ، وإنما أحاول أن أتَبَيَّنَ الطاقة الناطقة في البيان الإنساني التي لها المدخل الأوسع في تغيير الأساليب ، وأن هذا الذي قلته في هذا السطر هو صناعة الخيال الجزئي الذي يُركِّب الأشياء تركيبًا على غير ما خُلقت عليه ، وكأنه يُضيفُ صورًا جديدة إلى هذا الواقع ، فيذكر مجدًا له ثدي وفضلاً له حجر ، وفضيلة لها جناح ، وفكرة لها

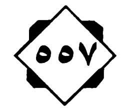
غرة ، وترى قوة النزوع إلى تحويل المعاني العقلية إلى صور حسية والانتقال بها إلى صور الأشخاص ، واحذر أن تكون من الذين يرفضون ولا يذكرون البدائل الأفضل ، وكان عبد القاهر دقيقًا في بيان الاستعارة وأنها صناعة الخيال المُبين ، فذكر أنها قسمان قسم أن نجعل الشيء للشيء ليس له ، كأن تجعل للمنية أظفارًا وليس لها أظفار ، وهذا خيال ، وقسم تجعل فيه الشيء الشيء ليس هو ، كأن تجعل الحسناء بَدْرًا وليست بدرا ، وهذا أيضًا خيال له تصرف آخر في الأشياء ، وكان يمكن أن أعقب على ما ذكره أبو إسحاق وأنه من باب التكلف ، وأغلق الباب وأخرج بسرعة لأتكئ على أريكتي ، وَوَدِدْتُ لو أفردت كتابًا للذي ذكره أبو إسحاق من ألفاظ عصره ، لأتبين فقط القوى النفسية التي صنعت هذه الألفاظ ، وليس هذا تحليلاً للأساليب ، وإنما هو عندي تجهيز لتحليل الأساليب وإعداد له ، لأن المهم هو الملكة الإنسانية ذات الأثر الأكبر في تغيير الأساليب وتطورها ، ولك أن تحذف كل الذي أقوله بشرط أن تضع بديلاً ويأتي غيري وغيرك ليقول ما يرى ، وبهذا تتفتّح طرق العلم ليسلكها أهله .

كان أبو إسحاق واسع المعرفة بما قاله الناس في الباب الذي يتكلم فيه ، تراه وهو يكتب في فضل شعر على شعر يذكر ما اختلف فيه الناس في شعر أبي تمام والبحتري ، ويذكر مجلسًا عامرًا بأهل العلم بالشعر ، وفيه عالم يرى شعر البحتري أفضل من شعر أبي تمام ، ويذكر من شعر البحتري شعرًا كثيرًا لا خلاف في أنه من أفضل الشعر ، وفي المجلس عالم على خلاف ما عليه هذا العالم ، لأنه يرى تفوق شعر أبي تمام على شعر البحتري ، ويلاحظ هذا العالم أن صاحب البحتري أقنع الحاضرين بالذي يراه ، وأن الحاضرين صاروا يتهامسون بذلك وهم يعلمون أن في المجلس عالمًا على خلاف ما أقنعهم صاحب البحتري به ، ثم يبدأ صاحب أبي تمام الحديث ، ومن العجيب أنه استحضر كل الأبيات التي ذكرها

صاحب البحتري وعاد بمعناها إلى شعر أبي تمام ، فاستَقْصى ذلك ، ولم يبق بيتٌ استحسنه صاحب البحتري واقتنع به الحضور إلا رجع به لأبي تمام ، ثم بدأ في الذي انفرد به أبو تمام والمعاني التي اخترعها ، والمعاني التي سبق بها من سبقوه فيها ، ثم يرى الرجل أن الحضور الذين كانوا مع صاحب البحتري وكانوا يتهامسون عليه ، قد صاروا مع صاحب أبي تمام ، ويكتب أبو إسحاق في هذا صفحات كثيرة وكلها علم ، بفضل الشعر ، ولا يمكن أن تُلخّص ولا يمكن لأحد أن يُعرِّفَك بها إلا إذا راجعتها أنت في كتاب أبي إسحاق ، وكتاب أبي إسحاق معقود على « زهر الآداب » ، وكل هذه الصفحات من « زهر الآداب » والذي أكتبه عن « زهر الآداب » في كتابي هذا ليس إلا دعوة لك لترجع إلى « زهر الآداب » وتتعرف عليها هناك ، وهكذا فعَلْت في الذي كتبته في « عيون الأخبار » ، و« العقد الفريد » ، وحين أدعو قومي إلى قراءة مصادر العلم القراءة التي تُخْرجهم من التخلف إلى التقدم ، كأنني أدعوهم إلى الصلاة والصيام ، لأن يقيني أن كل العبادات إنما هي لإعداد الإنسان لعمارة الأرض ، وأن عبادة الله التي ما خلقنا إلا لها ليست في المحاريب ، وإنما هي الضرب في الأرض ، والأكل من رزقه ، وعمارة الأرض بالحق ، والعدل ، والإحسان ، والنهي عن الفحشاء والمنكر ، والبغي ، وأستحي من رسول الله ﷺ أن ألقاه وهو سيد خير أمة أخرجت للناس ثم تَخلَّفتْ ولم أعرف كيف قَبِلْتُ أن تَتخلَّف ، قلت أستحي أن أقابل رسول الله ﷺ وقد أبْقَيْتُ جهدًا من جهدي في دعوتي لهم أن يكونوا خير أمة في علمها ، وصناعتها ، وثروتها ، وقوتها ، وهيبتها ، ومنعتها .

لمحة في الغناء

ثم إن هذا الكتاب الذي رجا فيه أبو إسحاق القيرواني الأنصاري أن يتقبله الله



منه عملاً صالحًا يرضاه ، وأن يغفر به ذنوبه ، وأن يدخله الجنة ، فيه كلام كثير جدًا عن الغناء ، وأوصاف الغناء ، وعن القيان ، وأوصاف القيان ، وفيه شعر بالغ الجودة ، وسأذكر لك أبياتًا في الغناء قالها أبو الحسن بن يوسف ولم يكن فقيهًا ، وإنما كان صاحبًا لعبد الله بن وهب الفقيه ، يَعْنِي كان موصولاً بأهل الله وفي صحبتهم ، قال أبو الحسن :

غنّت فأخفت صوتها في عُودِهَا ... فكأنما الصوتان صوتُ العودِ
غيْداءُ تأمرُ عودَها فيطيعُها ... أبدا ويتبعها اتباع وَدُودِ
أُندى من النوار صُبْحًا صوتها ... وأرقُّ من نَشْر الثنا المعهود
فكأنما الصوتان حين تمازجا ... ماءُ الغمامةِ وابنةُ العنقودِ

راجع إحساس صاحب عبد الله بن وهب بالغناء ، وتأمل « أَخْفَتْ صوتها في عودها ، فكأنما الصوتان صوت العود » ، وأنا لم أقرأ هذا المعنى بهذه الصورة إلا في هذا البيت ، ولست أدري كيف تخفي صوتها في عودها ؟ وأي شيء تفعله في العود حتى يخرج العود صوتًا يتسع لاخفاء صوتها فيه ، وقولها : « فكأنما الصوتان صوت العود » من البيان الذي لا تشبع النفس من تكراره ، واحذر أن تظن أنني أتأثم من تذوقه ، وأرجو من الله ألا أكون مخطئًا إذا أَحْسَسْت أن تذوقي البيان من الطاعات ، ثم إن البيت الأول الذي فيه هذا المعنى النادر استشعر الشاعر الصالح الذي في صحبة الفقيه المعروف أنه في حاجة إلى مزيد من البيان ، فقال : « تأمر عودها فيطيعها » يعني لا تعجب من إخفائها صوتها في عودها لأن هذا العود في يدها تأمره فيطيع ، ثم لما ذكر الأمر والطاعة وكأن ثمَّة سلطان فيه أمر وطاعة ، استدرك وقال تلك الكلمة التي هي أحلى وأعذب وهي قوله : « ويتبعها اتباع ودود » فليست طاعة مأمور لآمر وإنما طاعة محب لمحب ، وهي أرقى

ضروب الطاعة ، وهي التي نَسْعى في طريقنا إلى الله لنصل إليها ، فلا تكون طاعتنا لك يارب خوفًا من عذابك ، ولا طمعًا في ثوابك ، وإنما هي طاعة حب وشكر وثناء ، ولما فرغ صاحب شيخنا الفقيه من العود وصوته الذي أخفى فيه صوتها ، وأنها تأمره فيطيعها ، ويتبعها اتباع ودود ، اتجه إلى صوتها هي بعيدًا عن صوت العود ، وتفاجأ يا سيدنا لأن صوتها لم يعد صوتًا تسمعه الآذان ، وإنما تحوَّل إلى نوار فاق فيه النوار ، فكان على القلب أندى من ندا النوار ، وراجع العبارة « أندى من النوار صبحا صوتها » وكلمة صوتها التي هي آخر الكلمات في بناء الشاعر هي أول الكلمات ، لأن أصل الكلام صوتها أندى من النوار صبحا ، وإنما قدم ما قدم لأن الكلام معقود عليه ، وكما أن صوتها في هذا الشطر صار أندى ، فإن هذا الصوت نفسه في الشطر الثاني صار أرق من نشر الثنا المعهود ، وراجع : أندى من النوار صبحا .. أرق من نشر الثنا ، تجد الطريقة الواحدة التي بني عليها الكلام في الشطرين ، ثم في البيت الأخير رجع إلى صوتها وصوت العود ووصفهما حال امتزاجهما ولم يجعلهما صوتًا يسمع بالأذن ولا نوارا يرى بالعين ، وإنما جعلهما يذاقان باللسان ، ويوضعان في الفم فتجد ماء الغمامة وابنة العنقود ، وهذا من أطيب ما يذاق في الشعر ، وظني أن أبا إسحاق الأنصاري الكريم لما قال لنا إن صاحب هذا الشعر صاحب عبد الله بن وهب الفقيه ، كان يريد أن يرفع عنا الحرج في تذوقه وتحليله ، ورحم الله ابن قتيبة الذي قال لنا كلمة نفيسة في أول كتابه « عيون الأخبار » وهي أن الطرق إلى الله كثيرة ، وليست وقفًا على الكلام في الكتاب والسنة والشريعة ، وكأنه يفتح الباب لكل ضروب المعرفة ، وخصوصًا إذا كنت تريد رفع المستوى العلمي والثقافي والعقلي لأجيال خير أمة أخرجت للناس .

أخطاء بنيت على غياب أسماء

والكتاب مشحون بتراجم الرجال الذين لهم أقدار عالية في العلم والأدب وتاريخ الشعر ، وعاشوا أزمنة وأحداثًا ومارسوها وكلمونا عنها ، ولكن أصواتهم غابت بسبب ضعف الاطلاع على موسوعاتنا العلمية التي فيها حقيقة العلم وحقيقة التاريخ ، من هؤلاء الكرام الذين كان لهم حضور في المشهد الثقافي في البلاد ، ثم غابوا وغاب مشهدهم ، العتابي ، قال أبو إسحاق : هو كلثوم بن عمرو ابن الحارث التغلبي ، يكنى أبا عمرو ، قال أبو عثمان الجاحظ : كان العتابي ممن اجتمع له الخطابة والبيان ، والشعر الجيد ، والرسائل الفاخرة ، وعلى ألفاظه وحذوه يقول في البديع جميع من يتكلف ذلك من شعراء المولدين ، كنحو منصور النمري ، ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما ، وكان العتابي يحتذى حذو بشار في البديع ، ولم يكن في المولدين أجود بديعًا من بشار وابن هرمة ، والعتابي من ولد عمرو بن كلثوم بن مالك بن سعد ولذلك قال :

إنّي امرؤ هَدَمَ الإقتارُ مأثرتي ... واجتاح ما أبْدَت الأيامُ من خَطَرِي

أنا ابن عمرو بن كلثوم يُسَوِّده ... حيًّا ربيعة والأحياءُ من مُضَرِ

أُرومَةٌ عطلتْنِي من مكارمها ... كالقوس عطَّله الرامي من الوَتَرِ

وكان صاحب بديهة في المنظوم والمنثور ، حسن العقل والتمييز .. والعربُ تقول من تمنى رجلاً حسن العقل ، حسن البيان ، حسن العلم ، تمنىّ شيئًا عسيرًا ، وقد اجتمع ذلك كله في العتابي ، ثم طال كلام أبي إسحاق في ذكر مناقب هذا الكريم ، وروى شعرًا كثيرًا له ومقامات كثيرة مع الخلفاء الذين كان عندهم علم يعرفون به أقدار الناس ، ولا شك أن ضياع هؤلاء من ذاكرتنا العلمية يضيع بضياعه علم كثير ، والكتب مليئة بأن مسلم بن الوليد هو الذي أخذ عنه الشعراء

البديع ، ومنهم أبو تمام ، والحقيقة أن مسلمًا أخذ البديع عن العتابي ، وأن حَلْقة ضائعة بين المولدين وبشار ، وأن العتابي هو الذي وطأ لهم بديع بشار ، وأن شاعرية كلثوم بن عمرو الذي هو العتابي إرث قديم من جَدِّه عمرو بن كلثوم ، وكان الواجب أن نضع شعر كلثوم بن عمرو بإزاء شعر بشار ، لنتبيَّن كيف وطَّأ بديعه للذين جاءوا من بعده ، ثم نوازن بين شعر كلثوم بن عمرو وشعر عمرو ابن كلثوم لنتبيَّن أي شيء بقى من شعر الجد في شعر الحفيد ، وهكذا تفتح الأبوابُ الأبوابَ ، وعلينا أن نعمل ونفكر ثم نتغيّر ، وراجع مرة ثانية قول العرب من تَمَنَّى رجلاً حسن العقل ، حسن البيان ، حسن العلم ، تمنى شيئًا عسيرًا ، وراجع كيف كانت المجتمعات تبحث عن هذا الصنف المتميز ، وكيف كانت تحرص عليه ، وكيف كان يكون مثله في الجيل الجديد كنهر يروى من حوله وتخضرُّ به أرضه وناسه وقومه ، وكيف كانوا يحرصون على العلم والعقل لينتفعوا ولينفعوا ، وكيف اقتحموا العقبة بهؤلاء الذين اجتمعت فيهم صفات النبوغ التي قلما تجتمع في شخص ، ولا يجوز أن يتوه منا كرامُنا ، والأمم كلها تذكر كِرامها ، والفرس بعد ما دخلوا في دين الله لا يزال كرامهم في جاهليتهم جزءا من عقولهم ، وهكذا قل في غيرهم ، لأن هؤلاء الكرام ليسوا جزءًا من التاريخ وإنما هم أيضًا جزء من الحاضر .

فرائد في المديح

وكان أبو إسحاق مولعًا بالتفوق ليس في باب معين ، وإنما في كل ما يكون فيه التفوق سواء كان في الذكاء ، والحكمة ، والشعر ، والأدب ، وكما كانت له وقفات عند المتفوقين من الرجال والنساء كانت له وقفات عند المتفوقين الذين تحدث عنهم الشعر ، والتفوق في الشعر أحيانًا يكون سبيلاً إلى بيان المتفوقين في زمن



الشعر ، وأبين طريق يبين لك ذلك الأبيات التي وصفها بأنها فرائد في باب المديح ، فقد ذكر منها نبذًا ترى فيه تفوقًا في الشعر ، وترى فيه أيضًا تفوقًا في الذي تحدث عنه الشعر ، قال أبو إسحاق من ذلك قول أبي نواس :

وكّلْتَ بالدهر عَيْنًا غيرَ نائمةٍ　　من جود كفّك تأسو كلما جَرَحا

ولا شك أن الموصوف بهذا من خير الناس ، وأنا لا أقف عند القول لأقول لأبي نواس إنك صدقت في قولك لمخاطبك هذا أو لم تصدق ، لأن هذه الصورة الحية للإنسان الأفضل مما يجوز لأبي نواس أن يخاطب بها الممدوح ، ولو لم تكن من صفاته ، وإنما أراد أبو نواس أن يُغرِي بها الممدوح حتى يكون عليها أو على شيء منها ، وهذا المعنى يخلع من نفسي الولع بوصف شعر المديح بالكذب ، لأن أكثر الممدوحين لم يكونوا كما مدحهم الشعراء ، وحسب الشاعر أن يعرض على الممدوح الصورة الأفضل التي يجب أن يكون عليها ، والمهم في ذلك أن الممدوح الذي هو أهل لأن يمدح هو الإنسان الذي لا هم له إلا أن يأسو جراح من جَرَحتْه الأيام ، وأن سبيله إلى معرفة هؤلاء الذين جرحتهم الأيام هي أن يُوكِّل بالدهر عينا لا تنام ، وتتبع هذا الدهر فإذا رأته جرح إنسانًا سارعت إلى الممدوح بخبره حتى يداوي جرحه ، وهذا من أكرم الشعر الدال على أكرم المعاني في أكرم المباني ، راجع قوله « غير نائمة » وقيمتها في أداء الغرض ، ثم راجع « من جود كفك » وكأن الذي في كفه ليس له وإنما هو لذوي الحاجات الذين جرحتهم الأيام ، وهذا البيت له دلالة أخرى وهي أن الذين جرحتهم الأيام كانوا قِلّة في المجتمع ، وكانت تائهة في الذين لم تجرحهم الأيام ، حتى احتاج هذا الكريم الممدوح إلى أن يُوكِّل بالبحث عنهم عينًا لا تنام ، وهكذا كان المجتمع يوم أن عاش فيه أبو نواس ، ويوم أن كان متقدمًا ، ويوم أن كانت الخلافة الإسلامية

أقوى دولة في الأرض ، وعليك أن تقيس زمان التخلف بزمان التقدم ، وزمان الغلبة بزمان الهزيمة ، وتتبيَّن لك أسباب التقدم وأسباب التخلف وهي ليست غامضة .

وذكر أبو إسحاق قول الطائي :

فلو صَوَّرْتَ نفسك لم تَزِدْهَا ... على ما فيك من كَرَمِ الطباع

وهذا من الشعر الذي لم تشبع النفس من تكراره ، وأنه يضع أمامنا إنسانًا فيه من كرم الطباع أعني من المروءة والشرف والصفح والعفو والحب ، حتى إنه لو صوَّر نفسه بيده ما زاد هذه النفس شيئًا من الكرم الذي خلقه الله عليه ، وكلمة « كرم الطباع » لم تَدَعْ خيرًا من فضائل النفوس إلا حَازَتْهُ ، ومن حقك أن تعكس هذا المعنى ، وأن تصف اللئيم الخبيث الذي اجتمعت فيه كل أصْنَاف الخُبث واللؤم والنذالة والبغضاء وأن تقول في وصفه إنه لو صوّر نفسه بالذي في نفسه من خبث ولؤم وغدر فلن يزيدها على ما فيها من رذائل ، والمجتمعات فيها الذي بلغ الذروة في كرم الطباع ، والذي بلغ الانحطاط في سوء الطباع ، والعلم والتعليم هو الذي يَرْفع أهل الخساسة ، ولا يهمل النهوض بالتعليم والعلم إلا المولعون بخسائس الطباع ، واسأل التاريخ وهو الأوسع علمًا بذلك ، وسيقول لك إنه لا يهمل التعليم إلا جاهل لا يعرف قيمة العلم، أو الذي في رأسه وَشْوَشَةُ وَشْوَشَهُ بها أعداء البلاد، لأن علم البلاد هو الأخطر على عدوها . ثم ذكر أبو إسحاق قول البحتري :

ولم أر أمْثالَ الرجالِ تَفَاوتوا ... لدى المَجْد حَتَّى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

وكأنك ترى البحتري وهو يتفقد الرجال ويتعرف على كل ما في واحد منهم من أخلاق الشرف والسؤدد ، وقد هاله هذا التفاوت بين الرجال ، حتى إنه لم يعد يرى أكثر من واحد في الألف ، أو أنك لو جمعت فضائل النفوس في ألف رجل لم تجدها تزيد عن أن تكون لرجل واحد ، لأنه قال حتى عُدَّ ألف بواحد ، وفرق بين أن تقول واحد في الألف وأن تقول عُدّ ألف بواحد ، وذكر قول المتنبي :

شَخصَ الأنـــامُ إلى كمالَـــك فاسْـتَعِذْ ... مـــن شَـــرِّ أعينـــهتم بعيْـــبٍ واحـــد

بلغ الرجل مرتْبة الكمال ليس لأنه صور نفسه بما يعلم من كرم الطباع ، وإنما أراد أن يؤكد كماله ، فذكر أن الأنام شَخَصت بأبصارها إليه دهشًا واستغرابًا لوفرة كماله ، وهؤلا الأنام فيهم حُسّاد ، والمتنبي سيئ الرأي في الناس فَنَصَحَ صاحبَه بأن يستعيذ من شرهم بعيب واحد يدفع حسدهم عنه ، وأن هذه الناس وإن أعْجَبَها فرطُ الكمال فإنها لم تسلم من الحقد عليه ، وتمني زَوَال نعمة الله عنه ، وذكر قول المتنبي :

ولـــمَّـــا رأيـــتُ النـــاسَ دون مَحَلّـــه ... تيقَّنْـــتَ أن الـــدهر للنـــاس ناقـــد

وهذا بيان لتميزه وفضله على الناس من جهة أخرى ، وأن الدهر هو الذي رفعه إلى المحل الذي هو فيه ، لِمَا عَلِمهُ منه ، وهذا علَّم المتنبي شيئًا وهو أن الدهر للناس ناقد ، وفيه معنى أنه لم يرتفع بنفسه ، وإنما رفعه الدهرُ ، وهذا فيه قدر من الذم ، وقد ذم كافوراً بمثل هذا ، وذكر أيضًا قول أبي الطيب :

ذُكـــر الأنـــامُ لنـــا فكـــان قصـــيدةً ... كنـــتَ البـــديعَ الفَـــرْدَ في أبياتـــــها

ومسألة أن الأنام كل الأنام قصيدة ، من الصور الجديدة ، والتشبيهات الجديدة ، وخصوصًا إذا قالها شاعر لم يُشغل إلا بالشعر ، وكأن هذا الوجود ديوان ، والأنام منه قصيدة ، والسماء قصيدة ، والجبال قصيدة ، والأنهار قصيدة ، والرياح قصيدة ، وهكذا يصير الكـون شِعْرًا عند أبي الطيب ، وقصيدة الأنام كل الأنام فيها بيت واحد هو بيت القصيدة وبديعها ، وهـذا البيت الواحد هو أنت ، وذكر أيضًا قول أبي الطيب :

خُلِقْـــت كمـــا أرادَتْـــكَ المعـــالي ... فأنـــت لمـــن رَجَـــاك كمَـــا يُرِيـــدُ

وكأنه نظر في هذا إلى قول أبي تمام :

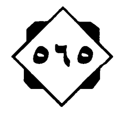
فلــو صــوَّرت نفْسَــك لم تَزِدْهَــا   على مــا فيــك مــن كَــرَمِ الطبــاع

وأراد أن يُحْدث فيه شيئًا ، فوجد أبا تمام قال إنه صوَّر نفسه على ما فيه من كرم الطباع ، فقال بدل ذلك « كما أرادتك المعالي » ،وهذا أشمل لأن صاحب أبي تمام ربما ندَّت عنه مكرمة ، والمعالي لا تند عنها مكرمة ، ثم إنه أضاف معنى ليس في بيت أبي تمام ، وهو قوله : « فأنت لمن رجاك كما يُريد » لأنه لا يعطي من رجاه ما يريده من رجاه فحسب وإنما هو لمن رجاه كما يريد من رجاه في العطاء وغيره ، وهذا أشمل كما في الشطر الأول ، وهذه صورة لمن استحسن شعرًا فزاده حسنًا ، وأكتفي بهذا لأنني لو تتبعت ما في الكتاب لكتبت في الكتاب كتبًا ، والمطلوب أن نعمل عقولنا في الذي نقرؤه ، ولنا أن نكتفي بالقليل من ذلك .

الفضائل التي حجبتها الرذائل

وقد رأيت شيئًا في كلام أهل العلم وهو شيء قريب وأحببت أن أذكره ، وهو أن أهل البصيرة قد يتكلمون في مسألة مألوفة جدًّا ومما لا يقف عندها أحد ، فإذا تَدَبَّرْتَ كلامهم وجدتهم يُخْرِجون من هذا الذي لا يقف عنده أحد دقائق ورقائق يجب أن يقف عندها أهل العلم ، وسأكتب واحدة منها ، قال أبو إسحاق : قال الفضل بن أحمد بن أبي ظاهر : « وصف الهوى قوم فقالوا : إنه فضيلة وأنه يُنْتج الحيلة ، ويَشجِّع قلب الجبان ، ويُسخِّي قلب البخيل ، ويُصفِّي ذِهْنَ الغبيّ ، ويطلق بالشعر لسان المُفْحَم ، ويبعث حزم العاجز الضعيف ، وأنه عزيز تَذِلُّ له عزَّةُ الملوك ، وتضرع فيه صولة الشجاع ، وتنقاد له طاعة كل ممتنع ، ويُذلِّلُ كل مستصعب ويبرز كل مُحتَجب ، وهو داعية الأدب ، وأول باب تفتَّق فيه الأذهان والفطن » .

وموضوع الهوى وتعريف الهوى مما لا يقف القارئ عنده ، وإذا رأيت هذا



النص قلت أي شيء أراده هذا الذي وصف الهوى بما وصفه به ؟ ولماذا شغل الفضل بنقله ؟ ثم لماذا شغل أبو إسحاق بكتابته في كتابه ؟ ولن أشرح هذا الذي قاله القوم في وصف الهوى ، وإنما الذي أريده هو أن عناية هؤلاء الكرام بهذا الذي قيل تعني أن في الذي قيل شيئًا جليلاً فما هو ؟ وأقول أولاً : إن العلماء لا يقولون ولا يكتبون في كتبهم إلا أشياء فيها نفع ، ولو كان هذا النفع محجوبًا وراء الظاهر ، وكل من يحمل العلم هو لا محالة مشغول بالذي وراء الأستار ، لأن الذي ليس دونه أستار ظاهر ومكشوف ولا قيمة للحديث عنه ، والذي رأيته معنى جامعًا لكل هذه الأوصاف التي وصف بها الهوى الذي قد تراه مما يتلهَّى به الفارغون ، هو أن هذا الجبان يسكن في قاع نفسه حب الشجاعة ، والرغبة في أن يكون منهم ، وأن هذا المدفون في قاعٍ النفس محتاج فقط للذي يستخرجه ، وأن الهوى برِفْقِه ، ولُطْفه ، ولينه ، كأنه حَفَّار يصل إلى قاع النفس ويستخرج هذا الكريم المدفون الذي حجبه الجبن وغطى عليه ، وكذلك قل في هذا البخيل الذي نكتفي بلومه وذَمّه وجهلنا أنه يسكن في نفسه حب السخاء والبذل والعطاء ، وهذا الساكن في الأغوار البعيدة محتاج إلى من يصل إليه برفق ، ومن يستثيره ويستفزُّه حتى يَقْتُلَ الشح الذي قهره وغطى عليه ، وهكذا قل في الغَبيِّ التائه الغافل ، وأنه صالح لأن يكون ذكيًّا موهوبًا فَطِنًا ، وأنه ينقصه الذي يستخرج من باطنه هذا الذكاء ، وهذه الفطنة ، ويكشف عنه غشاوة الغباء والجهل ، وهكذا قل في كل الرَّذائل التي ننْبِذُها ونكتفي بذم أصحابها ، ووراءها فضائل ننشدها ونبحث عنها ، ثم إن هذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وجعلها كنزًا مَذْخُوراً فيه ، وعلينا أن نستخرجها حتى نَرَى كل من حولنا أسوياء في شجاعتهم وجودهم وذكائهم وفطنتهم ، وأن ذلك ليس بعيدًا ، وأن الذين قالوا إن الهوى استخرج هذه الفضائل المحتجبة وراء تلك الرذائل ، كأنهم يقولون لنا إن لكم وسائل كثيرة تستخرجون بها هذه

الفضائل ، وبها ينتقل الإنسان من الأوصاف غير المستحسنة إلى الأوصاف المستحسنة ، وبهذا تتقدم الأمم ، أما أن يكون موقفكم هو لَعْن الجبان والبخيل والغبي المسكين ، فهذا هو ذاته باب التخلف الذي أنتم فيه ، والتعليم والعلم أقوى من الهوى في صناعة الإنسان الأكرم ، وأدهشني لما أدركت من وصف القوم للهوى أن هذا الإنسان كنز لفضائل الأخلاق ومكارمها .

مجلس من مجالس ابن المعتز

ذكر أبو إسحاق ما حكاه الصولي في وصف مجلس من مجالس عبد الله ابن المعتز ، وقد حضره جماعة من أهل العلم بالشعر ، قال الصولي : اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند أبي العباس عبد الله بن المعتز ، وكان يتحقق بعلم البديع تحقُّقًا يَنْصُر دَعْواه فيه لسان مذاكرته ، فلم يبق مَسْلَكٌ من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شعبًا من شعابه، وأوردنا أحسن ما قيل في بابه، إلى أن قال أبو العباس ما أحسنُ استعارة اشتمل عليها بيت واحد ؟ قال الأسَدِي قول لبيد :

وغداةَ ريح قد كَشَفْتُ وقرة ... إذ أصبحت بيد الشَّمال زمامها

قال أبو العباس : هذا حسن ، وغيره أحْمَدُ منه ، وقد أخذه من قول ثعلبة ابن صُعَيْر المازني :

فتذاكرا ثَقَلاً رئيدًا بعدما ... ألقت ذكاءُ يمينَها في كافر

وقول ذي الرمة أعجب إليّ منه :

ألا طرقت مَيٌّ هَيُومًا بذكرها ... وأيدي الثريَّا جُنَّحٌ في المغَارِبِ

إلى آخره ، وهذا ظاهر أولا في كثرة المشتغلين بالشعر والأدب ، وهكذا الأمم في أزمنة تقدمها ، وظاهر أيضًا وهذا هو الأهم في أن ابن المعتز الذي هو أول من

ألف كتابًا في البلاغة يضيف إليها في هذا المجلس بابًا لم يضف إليها إلى اليوم ، وهو أننا لا نكتفي بدَرْسِ الاستعارة وأقسامها وشواهدها ، وإنما لابد أن نرجع إلى كلام أهل البيان ونبحث عن أفضل استعارة ، وقد نختلف في هذا وتذكر أنت غير الذي يذكره غيرك وهذا لا حرج فيه ، وإنما المهم أنك وغيرك رجعتما إلى الدواوين ، وجمعتما فنونًا كثيرة من الاستعارة ، وتدبرتما لمعرفة أيها أفضل ، وكل هذا من خير أبواب العلم ، وقُل مثل ذلك في التَّشبيه ، وضروب المجاز ، والكنايات ، ووجوه المعاني من تقديم وتأخير ، وفصل ، ووصل ، وجناس إلى آخره ، ويبدأ ينمو مع علم البلاغة الذي هو دراسة فنونها علم هو منه وهو معرفة أزكى وأعلى وأكرم ما جاء عليه هذا الفن ، وهذا يوجب عليك أن تراجع الكنايات في الدواوين ، والجناس في الدواوين والتقديم والاستفهام إلى آخره ، فأنت تدرس الفن وبجانبه أفضل مواقع جاء عليها هذا الفن ، وناهيك عن هذا الباب الذي لم يقترحه الجاحظ ولا قدامة ، وإنما اقترحه المرشح لأن يكون خليفة ، وقد كان أبناء السادة هم أيضًا سادة في العلم والشعر ، وتعجب أن قدوة الشعراء ابن مَلِك ، وأن قدوة البلاغيين ابن خليفة ، وهذا يعني اشتغال الكل بالمعرفة والشعر والأدب ، وأن علومنا شُغل بها ملوكنا ، وذكر الصولي مما تدارسوه أو نظروا فيه قول الهذلي :

ولو أنني استَوْدعْتُه الشمس لاهتدت إليه المنايا عينُها ورسولُها

المراد الاستعارة في قوله : «استودعته الشمس» وهي غريبة وعجيبة ، وأنه جعل مَنْ يُحبُّه وديعة عند الشمس حتى لا ترقى إليه المنايا فتهتدي إليه عينُ المنايا ورسولها ، وكلمة «عينها ورسولها» من الاستعارات الجيدة ، ويقول أبو العباس : وأحسن منه في استعارة لفظ الاستيداع قول الحصين :

نُطَاردهم نَسْتَوْدِعُ البيضَ هامهم ويستودعونا السمهريَّ المقوَّما

فطابق بين «نستودعهم ويستودعونا» والفرق بين الاستيداع في البيتين أن الهذلي لم يستودع الشمس ولده ، وإنما قال لو أنني استودعته الشمس ، وكأنه يعزي نفسه ويقول هذا لا مهرب لأحد منه ، والحصين استودع البيض هام أعدائه لأنهم كانوا هاربين فضربوهم بسيوفهم وتركوا سيوفهم في رؤوسهم ، وقابل ذلك بأنهم لما هربوا تركوا رماحهم ، واعتبرهم هم الآخرين مستودعين عندهم رماحهم ، والكلمة لا شك أنها تكتسب من سياقها ما يزيدها تأثيرًا ، وفرق بين مقام الهذلي الذي تَتَفَتَّتْ كبده على من فقده ، ومقام الحصين المنتشي بنصره ومطاردة أعدائه ، ولم أعرف السر الذي جعل ابن المعتز يفضل استعارة الحصين على استعارة الهذلي .

وذكر الصولي أن واحدًا من المجلس ذكر الاستعارة في قول ذي الرمة :

أقامتْ به حتى زَوَى العودُ في الثَّرى وسَاقَ الثريَّا في مُلاَءَتِهِ الفَجْرُ

والمراد قوله «ساق الثريا في ملاءته الفجر» لأنه جعل للفجر ملاءة ساق فيها الثريا ، وهذه صورة استعارة جيدة ومضيئة وشائعة في الكتب ، واستحسنها كثير من الناس وهي حسنة ، وقد ذكر أبو عمرو بن العلاء أن الفرزدق نبَّهَه إلى عَيْبٍ في هذا البيت في قوله : «ذوي العود في الثرى» قال أبو عمرو : كانت يدي في يد الفرزدق فأنشدته هذا البيت، فقال أُرشدك أم أَدَعْك ؟ فقلت له : بل أرشدني ، فقال : إن العود لا يزوى في الثَّرى ، والصواب حتى زوي العود والثرى ، والمهم أن الصولي ذكر أنه لما ذُكر ذو الرمة قال الصولي بل قوله :

ولما رَأيْتُ الليلَ والشمسُ حيَّةٌ حياةَ الذي يَقْضِي حُشَاشَةَ نازِعِ

قال أبو العباس : اقْتَدَحْتُ زَنْدَكَ يا أبا بكر فأورى هذا بارع جدًّا .

أحسن ابن المعتز لما قال : « قدحت زندك فأورى » وأن هذه المدارسات إنما المقصود منها قدح زناد العقل ، وهذا أفضل ما يكون في الناس ، وأن مجالس العلم ليست مجالس سماع ، وإنما هي مجالس إيقاظ ، ونَفْي الغَفْلة ، واستنفار الطاقات العقلية ، ولا شك أن قول ذي الرمة : « والشمس حيَّةٌ » ووقوعها جملة حالية من قوله : « رأيت الليل » يعني رأى الليل والحال أن الشمس حيَّةٌ ، ثم فَسَّر هذه الحياة بأنها حياة الذي يقضي حشاشة نازع ، والحشاشة بقية الشيء ، والمراد هنا بقية الروح ، وأكثر حُسْنِ العبارة ليس في قوله : « والشمس حية » وإنما في تشبيه هذه الحياة بأنها حياة من يطلب الموتُ بقية حياته ، وكلمة حشاشة نازع أعلى في البيان وأسرى ، ثم ذكر أبو العباس أن ذا الرمة أخذ هذا من قول جرير :

تُحيـي الـروامِسُ رَبْعَهـا وتُجـدُّه ... بعـد البِلَـى فتُميتُـه الأمطـارُ

والكلامان مختلفان ، ذو الرمة يقول والشمس حية حياة الذي يقضي حشاشة نازع ، وجرير يقول إن الروامس التي هي الرياح التي تحمل التراب تُحيْي رَبْعها ، يعني تزيل عنه التراب فتحييه ، ونطهره ، ثم يضيف « فتجده » أي تجعله جديدًا بعد البلى ، فتميته الأمطار ، والجامع بين الكلامين هو نِسْبةُ الأحياء أو الحياة لمن لا حياة له ، وإنما نظر أبو العباس إلى أن جريرًا قابل الأحياء بقوله « فتميته الأمطار » ثم ذكر أبو العباس أن ذا الرمة استوفى ذكر الأحياء والإماتة في موضع آخر :

ونشوان مـن طـول النُّعـاس كأنَّـهُ ... بِحَبْلَـيْنِ في مَشْـطُونة يتـرجَّحُ

إذا مَاتَ فوق الرَّحْل أحْيَيْـتُ روحَـه ... بـذكرك والعـيسُ المراسـل جُـنَّحُ

والتشبيه في قوله : « كأنه بحبلين في مشطونة يترجح » تشبيه جيد ونادر ، والمشطونة الحبل ، ولكن أبا العباس المولع بالبديع نظر إلى قوله مات وأحييت



وما فيه من طباق ، وقوله : « والعيس المراسل جُنَّح » وإن خلا من البديع فهو من جيد البيان ، وخصوصًا أن العيس والرحلة والحنين كل ذلك مرتبط بعضه ببعض ، ولهذا تجد كلمة « العيس » تهز نفوسنا هزًّا ، لتاريخها العربي في حياة آبائنا ، وكيف كان حُسَّانُنَا يلتفتن وهنّ فوق العيس ينظرن إلى الأرض التي غادَرْنَها وقلوبهن مليئة بالحنين .

أُسيد بن عنقاء

وقبل أن أطوي صفحة « زهر الآداب » أذكر قصة قرأناها أول العمر وحفظنا شعرها ، ولكنني كلما رأيتها في كتاب قرأتها ، وكأنني أقرؤها لأول مرَّة ، وذلك لما فيها من شهامة ومروءة ونُبْلٍ وكرم نفس ، لا تشبع منه النفوس ، قال أبو إسحاق : قالوا : كان أُسَيْد بن عَنْقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه وأشدهم عارضة ولسانًا ، وطال عمره ، ونكبه دهره ، فاختلت حاله ، فخرج يتبقَّلُ لأهله ، فمرّ عليه عُميلة الفزاري فسلّم عليه ، وقال يا عمّ ما أصارك إلى ما أرى ؟ قال بُخْلُ مثلك بماله ، وصون وجهي عن مسألة الناس ، قال : أما والله لأن بقيتُ إلى غد لأغيرّن من حالك ما أرى ، فرجع ابن عنقاء على أهله ، فأخبرهم بما قال عُميلة ، فقالوا له : غرّك كلام غلام جُنح ظلام ، فكأنما أُلْقموا فاه حجرًا ، فبات مُتَمَلْمِلاً بين رجاء ويأس ، فلما كان السَّحَرُ ، سمع رُغاء الإبل وثغاء الشاة ، وصهيل الخيل ، ولجب الأموال ، فقال ما هنا ؟ قالوا عُميلة قد ساق إليك ماله ، فخرج ابن عنقاء له فقسَّم ماله شطرين ، وساهم عليه ، فأنشأ ابن عنقاء يقول :

رآني على ما بي عُميلةُ فاشتكى ... إلى ماله حالي أسَرَّ كما جَهِرَ
دعاني فآساني ولو ضنّ لم يُلَمْ ... على حينِ لا بَدْوٌ يُرجّى ولا حَضر
فقلت له خيرًا وأثنيت فعله ... وأوفاك ما أوليت من ذمّ أو شكر

ولما رأى الـمَجْدَ استعيرت ثيابُه ... تردَّى بثوب سابغ الذَّيْل واتزر
غلامٌ رماه الله بالخير يافعا ... له سيما لا تَشُقُّ على البصر
كأن الثريا عُلقت في جبينه ... وفي أنفه الشعرى وفي خده القمر
إذا قيلت العوراء أغضى كأنه ... ذليل بلا ذل ولو شاء لانتصر

لم يكن أسيد بن عنقاء من أكبر أهل زمانه إلا بجوده ووفرة عطائه ، والسرف في إنفاق ماله في وجوه المعروف ، ومعنى نكبه الدهر : أضاع ماله ، فاختلت حاله : فخرج يعمل بيده ليعيش ويعيش من حوله ، وقول عميلة له يا عم ما أصارك إلى ما أرى ، اختصارها وبلاغتها في قوله «ما أرى» فقال أُسيد : «بخل مثلك بماله» والبخل منع الحق ، وهذا يعني أن أُسَيْدًا لما نكبه الدهر صار له حق على أثرياء قومه ، وأن هذا من الحقوق ، وليس من التكرُّم ، وهذا ظاهر في أن أسيدًا يرى له حقًّا في قومه ، وقد أدرك عميلة ذلك ، وأنه مانع حق عَمِّه ، ولهذا أقسم لأن بات ليغيرنَّ حاله ، ولما أخبر أُسيد أهله بذلك قالوا له أغرك كلام غلام في جنح الظلام ، والعبارة بسَجْعها فيها سُخرية من أُسيد بتصديقه كلام عميلة ، وهذا يعني الشدة التي فيها الناس ، وأن التعاون والتكافل فيها صار نسيًا منسيًّا ، ثم إن عميلة كان بعيدًا عن عمِّه أُسيد لأنه لم يشهد ما مرّ به ، وإنما رآه يَتَبقّل ويعمل بيده ليعيش ، وقوله : «وكأنما ألقموه حجرًا» يعني أن ردّهم على أُسيد نفذ في نفس أُسَيْد فسكت ، وهذا يؤكد شدَّة الحال التي فيها الناس ، وقوله : «سمع رُغاء الإبل وثغاء الشاة وصهيل الخيل ولجب الأموال» إلى آخره ، كل ذلك حديث عن ثروة عميلة ، وأن له إبلاً وشاة وخيلاً إلى آخره ، وأنه شطر ذلك شطرين ، ولم يشأ أن يختار هو أو أن يختار عمه ، وإنما أسهم حتى تكون القسمة كأنها بين غرباء ، والمهم قراءة هذا الشعر والنظر فيه ، لأن أُسيد أنشأه في هذه اللحظة ، وأنا شديد

العناية بالشعر الذي هو ابن اللحظة التي عاشها الشاعر ، والتي أنطقته بشعر لو تروَّى فيه وراجعه وثقفّه وحرَّره لم يكن أجود من الذي قالته بديهته في هذه اللحظة ، لأن هذا يعني أن قوة الموقف استنفر من طاقته الشعرية أفضل وأجل من الذي تستنفره الروية والمراجعة ، وقوله :

رآنـــي على ما بـــي عُميلة فاشــتكى ... إلى مالــه حــالي أســرَّ كمــا جَهَــر

من الكلام العامر بالدقائق والرقائق ، وأولها قوله : «على ما بي» لأنها مختصرة جدًّا ، ولم يشأ أُسَيْد أن يزيد في وصف الذي هو فيه على كلمة « ما بي » ، وكأن لسانه توقف فلم يُعِنْه على وصف حاله لبشاعته ، واتساعه ، وأن شرف الرجل حال بينه وبين أن يصف الذي في كلمة « ما بي » ، وقوله : « فاشتكى إلى ماله حالي » فيها معنى جليل جدًّا ، وهو في قوله فاشتكى إلى ماله وكأن مال الشريف الكريم هُوَ ذَاتُه شريف وكريم ، وأنه لا يرضى أن يُحْجَبَ عن شريف كريم نكبه الدهر ، ولو لم يخرجه عميلة لهذا الشريف الذي نكبه الدهر لخرج المال بنفسه وذهب إليه ، وكأنك تعود إلى رغاء الإبل وثغاء الشاة وصهيل الخيل ولجب الأموال ، وتلحظ في ذلك بهجة كل هذا المال وهو يساق إلى كريم شكا صاحبه حال عمه إلى هذا المال ، ثم إن عميلة لم يشأ أن يشكو حال عمه لقومه الذين هو عمُّهم كما هو عمّه ، وإنما بدأ بنفسه ، وهذا أدْعَى وأقوى من دعوته لهم بلسانه أن يذكروا ما بينهم من تكافل وتضامن وتساند ، وإنما رأى أن يشكو حال عمه لماله ، وكلمة « أسرَّ كما جهر » كأنها رَدٌّ على أهله الذين قالوا له : « أغرك كلام غلام في جنح الظلام» وكأنما ألقموه حجراً ، وهو الآن يقول لهم : إن الذي نطق به لسانه لما قال والله لئن بقيت إلى الصباح لأغيرَنّ حالك ، إنما كان بيانًا لما عقد عليه نفسه ، وليس كلام غلام في جنح الظلام .



وقوله :

دعاني فواساني ولو ضَنَّ لم يُلَمْ على حين لا بَدْوٌ يُرْجى ولا حَضر

التوافق النغمي في قوله : « دعانى فواساني » لم يخل من طُربة جرت في نفس أُسَيْد لأن نغم الكلام كلام ، والنغمة في لغة البيان كأنها كلمة معبرة ، والفرق الذي بينها وبين الكلمة أن الكلمة تعبر عن معنى ظاهر معروف ، والنغمة تعبر عن معنى مبهم ظاهر ولكنه غير معروف ، وقوله : « ولو ضَنَّ لم يُلَمْ » ثناء على مواساته ، وأنه واساه إكرامًا وشرفًا ومروءة وليس فرضًا ، لأن الحال حال شدة لا يُلام فيها من لم يواسِ ، لأن الشدة قد قتلت الرجاء من الناس يستوي في ذلك أهل البدو وأهل الحضر . وقوله :

فقلت له خَيْرًا وأثْنَيْتُ فعله وأوفَاكَ ما أوْلَيْتَ من ذَمّ أو شكر

كل السداد والإصابة في هذا البيت إنما هو في موقعه هذا ، لأن قوله : « فقلت له خيراً وأثنيت فعله » لا جديد فيه ، لأن قول الخير والثناء على الفعل الطيب الكريم مألوف في الناس شاعراً كان أو غير شاعر ، وقوله : « وأوفاك ما أوليت من ذم أو شكر » وإن كان تأكيدًا للشطر الأول ، إلا أن فيه معنى آخر وهو أنه الآن يطوي صفحة إكرامه لأُسيد ، وقد كان منه خير ، ووفاه أُسَيدٌ لما شكره ، والقاعدة العامة هي أنه قد وفاك على خيرك من شكرك ، ووفاك على سوء فعلك من ذمك ، واطو هذه الصفحة ليبدأ الثناء عليه من حيث هو إنسان كريم بطبعه ، وليس الثناء عليه من حيث إنه أكرم عمه ، وأن هذا الثناء الذي سأقوله ليس له صلة بالذي كان منه لي ، ولذلك لم نجد في الأبيات التي بعد هذا البيت أي إشارة إلى ما فعله عُميلة مع عمه أُسَيْد ، وظني أن هذا من معنى وصفهم لأسيد بأنه من أشدهم عارضة ولسان ، لأنه احتاط هذا الاحتياط وخلَصَ ثناؤه عليه من إكرامه له ، وقوله :

ولما رأى الــمَجْدَ استُعِيرتْ ثيابه　　تردّى بثوب سابغ الذَّيل واتَّزَر

هذا ضرب من الكرام الذين لا ينتصرون لأنفسهم فحسب ، وإنما أيضًا ينتصرون إلى القيم والأخلاق العالية ، لأن عميلة لما رأى المجد استعيرت ثيابه وارتداها غير أهله وهذه خسيسة تراها في الأزمنة كلها ، فكم من خسيس دنيء تردَّى ثياب المجد في كل زمن ، وكأنه لما كان غير مستطيع أن يكون ماجدا بكرمه وشرفه وسؤدده ، استسهل ارتداء ثياب المجد ، وهذه مصيبة في المجتمعات ، وخصوصًا إذا ارتدى ثياب المجد وصار كبيرًا في الجماعة وهو صغير حقير في ذات نفسه ، وربما كانت لديه قوة فرض بها على الناس أن يحدثوا عنه بأنه ماجد ، ولك أن تتابع آثار هذا الزور في حياة الناس ، وأنا أرجع إلى أسَيْد بن عنقاء وحديثه عن عميلة ، وأن عميلة لما رأى هذا التزوير في المجتمع لم يترك ثياب المجد لأنه ارتداها السِّفلة ، لأن هذا خطر ، وربما نشأ جيل وهو يظن أن هؤلاء الذين استعاروا ثياب المجد هم أهل المجد ، وإنما أصَرّ عُميلة على أن يرتدي ثياب المجد الحقيقية حتى تظل حقيقة المجد قائمة في الناس ، وكأنه يقول لنا إذا رأيتم الكذب والنفاق قد فشا في الناس ، فالتزموا الصدق حتى لا تحرمُوا الجيل الجديد من معرفة الصدق في الصادقين ، ولا تقل ماذا يفيد الصدق والبلاد غارقة بأصوات الكذابين ، لأن المطلوب منا أن نحفظ ونحافظ على جوهر الفضائل لتبقى في الناس ، ولذلك تجد هذا المعنى وهذا السلوك من عُميلة راق أُسَيْد ابن عنقاء فأتبعه بقوله : « غلام رماه الله بالحسن يافعا » والدليل على أنه راقه هو أنه استأنف بعده كلامًا أفضل منه ، وبنى استئنافه على حذف المسند إليه ، وقد نصّ العلماء بالشعر على أن الشاعر إذا استحسن وصفًا أو كلامًا يتكلم به عن ممدوح ، أو عن من شئت ، استثاره هذا الكلام الذي استحسنه ، ودفعه إلى أن يستأنف كلامًا جديدًا عن الذي يتكلم فيه ، وأن يَبْنِيَه على الحذف ، وهذه طريقتهم كما قال

عبد القاهر في ذكر الرجال والديار وما شئت ، وكأنه لما حذف المسند إليه ولم يقل هو غلام ، إنما كان للإشارة إلى أن الذي رماه الله بالحسن يافعا لن ينصرف عند أحد إلا إلى عُميلة ، وكأنه انفرد بذلك واختُصّ به ، وكلمة « رماه الله بالحسن » ليست كقولنا منحه الله الحسن ، ولا وهب الله له الحسن ، وما في معناها ، وإنما هي يمين الله ـ جل وتقدس ـ رمته بالحسن حتى يسلك الحسن طريقه إلى لحمه ودمه ، ويكون كل شيء فيه من هذا الحسن ، وأنا أحفظها « رماه الله بالخير » وهو عندي أفضل لأن الخير أعم من الحسن ، وإن كان قوله بعد ذلك : « له سيما لا تشق على البصر » مما يرجح كلمة الحسن ، وتعجب من الكلام الذي يولد بعضه من بعض ، وكأن قوله : تردى بثوب سابغ الذيل واتزر هو الذي أثار قوله : غلام رماه الله بالحسن ، وأظهر من ذلك أن قوله : « له سيما لا تشق على البصر » كأن قوله رماه الله بالحسن هي التي نطقت بها ، أو قل هي التي أجْرت لسان أُسَيْد بها ، ثم إنك لن تنكر عليّ قولي بعد ذلك أن قوله :

كأن الثريا عُلّقتْ في جبينه ... وفي أنفه الشِّعْرَى وفي خَدّه القمر

لن تنكر على أن هذا البيت الذي هو من أفضل ما يمدح به الكريم الأكرم ليس إلا شرحًا وبيانًا لقوله : « له سيما لا تشق على البصر » ، لأن كل ما فيه من السيما ، وكل ما فيه لا يشق على البصر ، فمن سِيمَتِه وهيأته تعليق الثريا في جبينه ، ورؤية الثريا لا تشق على البصر ، ومن سيمته وهيأته أن ترى الشعرى في أنفه ، وهي لا تشق على البصر ، وكذلك في خده القمر ، ولاحظ أن هذه الثلاثة الثريا والشعرى والقمر في السماء العليا ، وأنها لم تنزل إليه ، وإنما رفعه الخيرُ الذي رماه الله به إليها ، ولهذا قلت هو شعر مصقول من غير صقل ، ومحكك من غير تحكيك ، وأن اللحظة المتفوقة من الكريم إلى الكريم هي التي صَنَعَتْ هذا الشعر، ولو غابت لما وجد هذا الشعر ، ومن كرم الله لنا أن هذه اللحظات الفريدة

المتميزة في حياة الكرام يموت الكـرام ويموت معهم الزمان ويبقى البيان عنها حيًّا ، كأنه قيل الآن ، وكأننا عشنا ورأينا عُميلة يسوق ماله ، وسمعنا رغاء الإبل ، وثغاء الشاة ، وصهيل الخيل ، ولجب المال ، وكأن كل لحظة كريمة عاشها الناس من لدن آدم ونوح هي باقية حيَّة فاعلة في نفوسنا بفضل هذا البيان الذي منّ الله علينا به ، وجعله نعمة قرينة نعمة الخلق ، في قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (الرحمن:٣،٤) ، وكأنه ﷻ خلقنا وجعل البيان معلما لنا بما يحفظه لنا من تجارب كل الأجيال وكل الزمان .

وقوله :

إذا قِيلَتِ العوراءُ أغْضَى كأنَّهُ ... ذليلٌ بلا ذُلٍّ ولو شاء لانتصر

أول ما تلاحظه فيه أن الزمن الذي يستعير فيه السِّفلة ثياب المجد تكثر فيه العوراء بدليل حرف الشرط (إذا) لأنه يؤتى به للشرط المتوقع ، ثم إسناد القول إلى البناء للمجهول إشارة إلى أن العوراء يقولها من نَعْلمَ ومن لا نَعْلَم ، وهذا حق لا ريب فيه ، وأن الزمان الذي نجد فيه الكذابين والمنافقين مُرْتَدين ثياب المجد هو الزمن الذي تشيع فيه البذاءات التي هي العوراء ، وكلمة العوراء هنا لا يهتدي إليها إلا لسان شريف في قومه وفي الناس ، وأن الكلمات المسيئة لقبحها وبشاعتها كأنها كشف للعورة ، هذه واحدة ، والثانية أن العوراء قيلت لعُمَيْلة بدليل قوله : « ولو شاء لانتصر » ويمكن أن يقال إن إغضاءه عن العوراء ولو شاء لانتصر ضعيف بعد قوله « رماه الله بالحسن » وما بعده ، وأن الذي علقت الثريا بجبينه وفي أنفه الشعرى ليس في حاجة إلى أن نقول له إنه يغضي عن العوراء ولو شاء لانتصر ، وقد جرى هذا في خاطري ولكنني رأيت أمرين يثبتان هذا البيت في موقعه ولا يسدَّ ما قبله مسدَّه ، الأمر الأول : أن الإغضاء عن العوراء من الذي لو شاء

لانتصر وثيقة الصلة بحياة الجماعة ، وأنها أدعى إلى نشر خلق العفو ، والتسامح ، وأنه لا يدعو إلى ذلك أفضلُ من عفو الذي لو شاء لانتصر ، وليس في حياة الناس أفضل من انتشار العفو ، والمرحمة ، والتسامح بينهم ، وليس في الناس أفضل من الذي يعفو ، ويسامح ، وهو قادر على الرد ، وليس في حياة الجماعة أسوأ من شيوع روح الانتقام ، وأسوأ من الأسوأ الذي يأخذ حقه بالصاع صاعين ، وأسوأ من الأسوأ المقتدر الذي يوظف هذه القدرة في تخويف الناس وتفزيعهم ، لأن أمن الناس ضرورة حياة ، كرغيف الخبز ، لأن الله ـ سبحانه ـ ذكر في مَنِّه على قريش أنه سبحانه « أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » وتجد ارتباطًا بين الأمرين عند الذين ينشرون الخوف والرعب ويحرمون الناس من نعمة الأمن ، وأنهم هم أنفسهم يدخلون الناس في الحاجة والفقر ، حتى إنه ليوشك أن يغيب عن الناس رغيف الخبز ، ولهذا وغيره كان يفطن الكرام من أمثال ابن عنقاء إلى ذكر فضيلة العفو مع القدرة على الانتصار ، وأن حياة الجماعة تطلب منك ولو كانت الثريا في جبينك وفي أنفك الشعرى أن تكون ذا عفو ، وذا مرحمة سواء كنت من عامة الناس أو كنت من خاصتهم ، ولاحظ أن الشرف أصل الخدمة البَرَّة للجماعة وكذلك السؤدد ، وكل ما يذكر به السادة كل الذي جعلهم سادة هو عمل الصالحات في الجماعة ، فالجماعة لها حضور مع كل فضيلة يُذكر بها ذو فضل .

الأمر الثاني : أن الإغضاء عن العوراء من الذي لو شاء لانتصر ، هي في نفسها مع صرف النظر عن علاقتها بالجماعة قيمة أخلاقية عليا ، ودلالة على أن النفس التي هذا وصفها من أكرم النفوس ، وأن سيدنا رسول الله ﷺ اختصر رسالته في إتمام مكارم الأخلاق ، وفي قوله عليه السلام : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وأن سيدنا يوسف عليه السلام الذي أتاه الله حكمًا وعلمًا وهو من أكرم أنبياء بني إسرائيل ،

لما رُمي بالعوراء أغضى ولو شاء لانتصر ، وذلك لما سمع من إخوته : ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ (يوسف:٧٧) وَصَفَه ربنا بقوله : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ (يوسف:٧٧) يعني لم يكتف عليه السلام بأنه أسرَّها في نفسه ، وإنما ضبط مشاعره حتى لا يظهر في وجهه أن الكلمة أساءته ، هذا والله أعلم .

المفضل الضبي والمهدي

بقيت كلمة للمفضل الضبيِّ ، لم أستطع أن أتجاوزها ، لأن المفضل الضبيّ ذكره قليل جدًّا في الكتب ، ولا يقارن بذكر الأصمعي ، وله عليَّ وعلى غيري أياد بيض ، لأن كتاب «المفضليات» عَلَّم الكثير منا المختار من الشعر الجاهلي ، وكنت ولا زلت أقرأ فيه علوم البلاغة الثلاثة ، أعني أقرأ أساليب علم المعاني ، وأساليب علم البيان ، وأساليب علم البديع في المفضليات ، وكنت أحرص على أن أتعلم البلاغة من كلام علمائها ، ومن الشعر الذي استخرجها منه علماؤها ، وكنت أسجل قصائد من المفضليات ، وسُوَرًا من الكتاب العزيز ، وأسمع هذا وذاك حتى تتبين أُذُنِي البَيْنُونَةَ بين الكلامين التي وصفها علماؤنا بأنها تقطع الأطماع وتقهر القوى والقدر ، وكنت ولا زلت أكره أن أكلم طلاب العلم بالذي حفظته من كلام العلماء ، وأَحْرِص على أن أكلمهم بالذي أدركه قلبي وعقلي من طول التدبر ، سواء كان التدبر في العلم أو في الشعر .

قال المفضل : « دخلت على المهدي فقال قبل أن أجلس أنشدني أربعة أبيات لا تَزدَ عليهن ، وعنده عبد الله بن مالك الخزاعي ، فأنشدته :

وأشعَثَ قد قَدَّ السِّفَارُ قميصَه ... يجُرُّ شِواء بالعَصَا غيرَ مُنْضَجِ



دعوتُ إلى ما نابَني وأجابني ... كريمٌ من الفِتيانِ غيرُ مُزلَّج

فتى يملأ الشِّيزى ويُروِى سنانَه ... ويضربُ في رأس الكميّ المدجّج

فتى ليس بالراضي بأدنى مَعِيشَةٍ ... ولا في بيوت الحيّ بالمتولّج

فقال المهدي : هذا هو ، وأشار إلى عبد الله بن مالك ، فلما انصرفت بعث إليّ بألف درهم ، وبعث إلى عبد الله بأربعة آلاف .

اقرأ الأبيات وهي لا تَتَحدَّث عن شخص معيَّن ، وإنما تتحدث عن صفات إذا وجدت في شخص كان شخصًا متميزًا ، وأدرك المهدي منها هذا ، وأشار إلى عبد الله بن مالك الخزاعي وقال هذا هو ، وتذكر أن الفرزدق لما قال شعرًا في أبيه غالب غَضِبَ مَسلمة بن عبد الملك ، لأنه كان يريد منه أن ينشده شعرًا في مديحه ، ومثل هذا لم يخطر في خاطر المهدي ، وإنما كان يَعْنيه الكلام العالي الذي يوصف به الإنسان العالي ، وقارن بين عقلية المهدي الذي كان في مطلع ازدهار دولة بني العباس ، ومَسلَمة الذي كان في مطلع غروب دولة بني أُمَيّة ، وتعرّف على عقلية القيادات التي تكون في مطالع قوة الدولة ، والعقليات التي تكون في مغارب الدولة ، وأن هذا يعنيه الفكر الأعم الأوسع وهذا يعنيه الفكر الذي يتحدث عنه ، وأن كل قيادة يَعْنيها التحدث عنها هي قيادة الغروب ، وبقي أن أتعرف على ما في هذه الأبيات الأربعة التي قال المهدي للمفضل الضبيّ لا تزد عنها .

قوله :

وأشعث قد قدّ السفارُ قميصه ... يَجُرّ شِواءً بالعصا غَيْرَ مُنْضَجِ

كلمة « أشعث » من الكلمات التي تَرُوقني جدًّا ، لأنها تعني المشغول بالأمر الذي هو فيه ، وأن شغله بالذي هو فيه غلب عليه ، فلم يُزِلْ عن نفسه الشَّعث الذي يناله من شدة توفره على الباب الذي هو فيه ، وهؤلاء هم الذين تعمر بهم أرضهم

وديارهم ، وليسوا المهندمين الأُبهَّة الفارغين ، وقوله : « قد قدَّ السفارُ قميصه » هو عناية من الشاعر ببيان شَعَثِه ، وكأن الشاعر يعلم أن كلمة « أشعث » كلمة تُميل القلوبَ والعقولَ نحو هذا الأشعث ؛ فبدأ يحدثنا عن الأمر الذي غلب عليه ، وأوْرَثه هذا الشَّعث ، والسفار يعني الرحلة في طلب الحاجات ، وأنها شأن الأقوياء الذين يقطعون البيد ، ولا يهابون ظلمة ليلها ولا هَجِيرَ نهارها ، لأنهم ماضون في تحقيق ما يريدون ، وليس للإنسان عندي قيمة إلا بمقدار ما يبذل من جَهْد وعرق في تحقيق طموحاته ، وليس للمتكئ على أريكته عندي قيمة ، ولم أتكئ يومًا على أريكتي ، وإنما كانت راحتي كراحَةِ أبي الطيب في البيد والهاجرة ، ثم إن الشاعر لما قال : وأشعث قد قَدَّ السفارُ قميصه ، أراد بعدها أن يدلك على أنه ذو ثروة ، وأن ثروته في إطعام الطعام ، وأنه قائم على إطعامه بنفسه ، وأنه يجر شواء أي لحمًا مشويًا بالعصا غير منضج ، ولاحظ حرص الشاعر على أن يُريك هذه الصورة ، وأنه قال « يجر » أعني ذكر الفعل المضارع الذي لا يُحدّثُك عن الحدث ، وإنما يُريكَ الحدث حتى ترى هذا الأشعث الذي قدَّ السفارُ قميصه وهو يعجل الشواء ويجره للأكلة قبل نضجه ، وذلك لشدة لهفتهم إلى الطعام ، ولن أستطيع أن أصف لك قدر هذا الإنسان الذي يشق على نفسه في العمل ، ليصيب المال ليطعم به ذوي الحاجات ، وإنما عليك أنت أن تتدبر صورته وهو يصنع ما يصنع ، وحسب الشاعر أنه لم يحدثك عن الحدث كما قلت ، وإنما يريك حتى تتدبر الذي تراه . وقوله :

دعوتُ إلى مَا نَابَنِي وأجَابَنِي ... كريمٌ من الفتيان غير مُزَلَّج

قوله : « دعوت إلى ما نابني » لم يوقع فعل دعوت على مفعول أي مفعول لا هو ولا غيره ، وإنما كان منه دعوة إلى أمر أنابه ، ولذلك قال « وأجابني » بالواو

ولم يقل فأجابني ، لأن إجابته لم تكن مترتبة على دعوته هو ، ثم إنه لم يجعل فاعل أجابني ضميرًا يعود على الأشعث الكريم الرائع الذي قَدَّ السفارُ قميصه ، وإنما جعل فاعل أجابني قوله « كريم من الفتيان » وهذا طريق التجريد ، وكأنه جرَّد من أشعث قَدْ قَدَّ السفارُ قميصه كريمًا من الفتيان ، والتجريد يَعْني أن تجرد من شخص ذِي صفة شخصًا آخر موصوفًا بهذه الصفة ، وتبقى صفته فيه كما هي ، وهذا وجه المبالغة في هذا الأسلوب ، وغير مُزَلّج يعني شخصًا ثابت القلب ، والعقل ، والقدم ، لا تزل قدمه ، ولا يزل رأيه ، ولا يزل عَوْنُه ، وراجع هذا البيت مرة ثانية لتراه من تمام البيت الأول ، وأن الذي يجر شواء بالعصا غير منضج للقوم الذين غلبهم الجوع تراه أيضًا يجيب دعوة الذي أنابه أمر ، ثم تراه في هذه الإجابة فتى كريمًا ، لا يَزِلُّ له مَوقَفٌ ، ولا رأيٌ ، ولا فِعلٌ في هذه الإجابة .

وقوله :

فتى يملأ الشِّيزَى ويُروِي سِنَانَه ويَضْرِبُ في رأس الكميِّ المدجّج

ذكرت أنك ترى كلامهم حين يستأنفون ويقطعون الكلام الذي هم فيه ، ويبدؤون كلامًا آخر ويحذفون المسند إليه ، تجد الكلام الجديد المستأنف داخلته نشوة بالذي يتحدثون عنه ، تجد هذه النشوة في هذه الكلمات الثلاث التي تَتَحدَّثُ عن التميز في هذه الصفات ، فهو « فتى يملأ الشيزى » ، أي قصعة الطعام ، وهذه كناية عن الكرم ، وكثرة الضيفان ، والثانية « يُرْوى سنانه » أي رُمْحه بالطعن في أعدائه ، والثالثة « ويضرب في رأس الكمي المدجج » والكمي الشجاع المغطَّى بسلاحه ، وراجع لترى الشاعر لم يحدثك عن هذه الأحْدَاث الثلاثة ، وإنما يَضَعَهُا تحت عينيك في صورة المضارع الذي تراه فيها يملأ الشيزى ، وتراه فيها يَرْوى سنانه ، وتراه فيها يَضْرب في رأس الكمي المدجج ، وهذه هي النشوة . وقوله :

فتًى ليس بالراضي بأدْنَى معيشةٍ ولا في بيوت الحي بالمتولّج

افتتاح هذا البيت بما افتُتح به البيت قبله فيه دلالة على أن في هذا البيت بقية إحساس من المعنى الذي دَلَّ عليه ما قبله ، وأبرزه بناؤه على القطع والاستئناف وحذف المسند إليه ، وأن ما يأتي بعد هذا القطع والاستئناف هو من أكرم المعاني التي يوصف بها ، وهي هنا وإن كنت تراها أقل من يملأ الشيزى ، ويروى سنانه إلى آخره ، فالحقيقة أنها ليست كذلك ، لأن من أهم أسباب تخلف الأقوام هو رضاهم بأدْنَى معيشة ، لأن هذا الرضا بالأدنى لا تَستَفِزُّ الطاقات لطلب ما هو فوق الأدنى ، والمطلوب هو التطلع الدائم إلى الأفضل ، فإذا كنت في غير الحسن فلا تشغل بشيء إلا بالشيء الذي يخلعك من غير الحسن ، ويَصِيرُ بك إلى الحسن ، وإذا كنت في الحسن فلا تُشْغل بشيء يَشْغلك من أن تخلع نفسك من الحسن إلى الأحسن ، وهذا الحافز الدائم عند كل أفراد الجماعة هو الذي يضمن لها التقدم ، والقوة ، والمنعة ، وهذا المعنى قديم ذكره امرؤ القيس ، ولفظ أدنى معيشة هو لفظ امرئ القيس ، ثم هو ينتقل في القرون وهو حيٌّ تألفُه الفطرة وتدعو إليه ، وما أعظم الرضا بعطاء الله بعد بذل أقصى ما عندك ، والمتولج في بيوت الحي هو الفارغ التافه الراضي بأدنى معيشة .

وكتاب «زهر الآداب» من أوله إلى آخره كلام مختار ، وشعر مختار ، ومجالس مختارة ، وكان أبو إسحاق يعلم أن هذا لا ينتهي ، فلم يقل في نهاية الكتاب تمَّ الكتاب كما يقول الناس ، وإنما قال : « إلى هذا المكان أمْسَكْتُ العنان ، والإطناب في هذا الكتاب يَعْظَمُ ويَتّسَع بل يتصل ، ولا ينقطع ، إذ كان غرضي فيه أن ألمح المعنى من معانيه ، ثم أنجرُّ معه حيث انجر ، وأمُرّ فيه كيف مرَّ ، وآخذ في معنى آخر غير موصول بشكله ومقرون بمثله ... وهذا التصنيف لا تدرك غايته

ولا تبلغ نهايته ، إذ المعاني غير محصورة» انتهى ما أردته من كلام أبي إسحاق الذي أنهى به هذا الكتاب الفريد في طريقته ، ولم أعرف كتابًا يفتح مواضيع تتصل ولا تنقطع وكله من المختار ، ولهذا كتبت عنه لأُدُلَّ أجيالنا عليه ، لأنه لا يصنع الإنسان المختار إلا الكلام المختار ، ولا يلهمك الجذوة التي تغير بها نفسك ومن حولك ، إلا هذا الكلام المختار ، وقد أُمِرْنَا بالتواصي بالحق ، والحق الذي يجب أن نتواصى به الآن هو الخروج من التخلف الذي لم نُخلق له ولم يُخلق لنا ، وإنما رَمَانَا به من رمانا ، واعلم أن حبَّنا لهذه الأمة من حبنا لله ، وحبنا لرسوله ﷺ .

وهذا حسبي ، وأصلي وأسلم على رسول الله ﷺ ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المعادي الجديدة في : يوم الأربعاء ١٠ من شهر رجب ١٤٤٤هـ

الموافق : أول شهر فبراير ٢٠٢٣م

فهرس الكتاب

الموضوع | الصفحة

المقدمة

(١-١٦)

المبحث الأول

كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة

(١٧-٢٦٦)



المبحث الثاني
كتاب العقد الفريد

(٢٦٧-٤٧٤)

المبحث الثالث
كتاب زهر الآداب
(٤٧٥-٥٨٤)